حرب الساعات الست

بسم الله الرحمن الرحيم

الرئيس

عاهدت الله وعاهدتكم على أن جيلنا
لن يسلم أعلامه إلى جيل سوف يجيء بعده
منكسة أو ذليلة، وإنما سوف نسلم أعلامنا
مرتفعة هاماتها، عزيزة صواريها . . .
وقد تكون مخضبة بالدماء . . . ولكننا ظللنا
نحتفظ برؤوسنا عالية في السماء، وقت أن
كانت جباهنا تنزف الدم والألم والمرارة.

أنور السادات

١٩٧٤/٢/٢٢

حرب الساعات الست

تأليف

دكتور عبد الكريم درويش

دكتورة ليلى تكلا

أبريل ١٩٧٤

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية

المطبعة الفنية الحديثة
٢٠ شارع الأمير حسين بالزيتون ت ٩٦٨١٧١

القائد الأعلى .. محمد أنور السادات



وعد وصدق . . . ولم يخذل شعبه وأمته .

شكر وعرفان

هذا الكتاب ما كان يمكن أن يكتمل ويأخذ قيمته الحقيقية ، دون الرجوع إلى القائد البطل صانع القرار ، وأمل مصر المستقبل ...

الرئيس محمد أنور السادات

والمؤلفان مدينان للسيد الرئيس بفضل ما أعطاهما من وقت وفكر ، زاد هذا المؤلف قدرًا وتشريفًا ، وبفضل تشجيعه لهما ، ولكل من يسهم فى تسجيل هذه المرحلة المشرقة فى تاريخ وحضارة العرب .

المؤلفان



شكر واجب

إن هذا الكتاب لا يمكن أن يكون عمل فردين اثنين فقط . ولقد اعتمد المؤلفان فى وضعه على التعاون الصادق الذى لقياه خلال مراحل إعداده المختلفة. وقد رجعا فى ذلك إلى مصدرين أساسيين :

الأول : يشمل المراجع العلمية والوثائق السياسية والعسكرية ، التى كان فى مقدمتها أحاديث وتصريحات السيد رئيس الجمهورية ، والقادة العسكريين والسياسيين بمصر والوطن العربى وخارجه . والبيانات والمعلومات والبحوث العسكرية ، ومضابط بعض برلمانات الدول ، ووثائق الأمم المتحدة ، وتقارير معاهد الدراسات والبحوث .

الثانى : ويشمل المقابلات الشخصية التى تمت بين المؤلفين وبين عدد من القادة العسكريين ، والسياسيين ، والدبلوماسيين الأجانب ، ورجال الإعلام المصرى والأجنبى ، ووكالات الأنباء العالمية .

ولما كان هذا المصدر الأخير مبعث اعتزاز لدينا ، لما أضفاه على هذا المؤلف من الموضوعية والأصالة العلمية ، والوصول إلى الحقائق المباشرة من مصدرها الأول .

فإننا نود أن نخص بالشكر جميع السادة الذين كان لهم فضل إمدادنا بالوفير من المعلومات والحقائق والبيانات خلال هذه المقابلات ، وهم :

العسكريون

المشير أحمد إسماعيل

الفريق محمد عبد الغنى الجمسى

اللواء محمد فائق البوريني

اللواء عمر جوهر

اللواء سعد مأمون

اللواء عز الدين مختار

اللواء أحمد بدوى

اللواء فؤاد عزيز غالى

المدنيون

السيد : حافظ بدوى .

الدكتور : محمد عبد القادر حاتم

السيد : ممدوح سالم

السيد : اسماعيل فهمى

المهندس : أحمد عز الدين هلال

الدكتور : أحمد صدقى الدجانى

السيد : أحمد زكى

إلى كل هؤلاء ، وإلى جميع الضباط والمقاتلين بالقوات المسلحة ، والمسئولين والمواطنين الذين تحدثنا معهم ، وأعطونا من المعلومات والحقائق والانطباعات ما أثرى هذا الكتاب ، نتقدم بوافر الشكر وعظيم التقدير على هذا الفضل .

ونود أن نعبر عن صادق تقديرنا لكل الجهود التى تضافرت معنا فى مراحل إعداد وإخراج هذا الكتاب ومراجعته وإصداره • ونعرب بصفة خاصة عن شكرنا للسكرتارية الخاصة للسيد رئيس الجمهورية . ولهيئة البحوث ، وإدارة المخابرات الحربية والاستطلاع ، وإدارة الشئون المعنوية بالقوات المسلحة . ولمؤسسة الأهرام ، والأخبار ، ولمكتبة الأنجلو المصرية ، والمطبعة الفنية الحديثة ، وكذلك الرائد ممدوح البدرى ، والسادة الفنانين صلاح عبد الفتاح رياض ، وإميل كامل ، ومصطفى محمود ، الفنان صلاح جاهين والمهندس عبد الخالق كمال .

إن الشكر — مهما حاولناه — لايمكن أن يعبر عن مدى إحساسنا العميق بفضل كل من أسهموا بأية صورة فى جعل هذا الكتاب متاحاً للقارىء .

المؤلفان

الإهداء

إلى كل مَن عاشوا

حروب العرب ...

وكلّ من ماتوا خِلالها .

مِن أجل الحق والعدل

والسّلام .

المؤلفان

محتويات الكتاب

القسم الثالث

■ حرب الساعات الست

القسم الرابع

■ أصداء النصر

القسم الخامس

■ العربى الجديد

فكرة الكتاب

منذ سنوات تزيد على العشر ، وفى حديث مع المؤرخ العالمى أرنولد توينبى، قال : إن مشكلة فلسطين يمكن أن تنفرج إثر التقاء تيارات ثلاثة .

وأول هذه التيارات سوف يجتاح العالم العربى . فبوادر الاقتراب التى بدت بين معظم الدول العربية يمكن أن تبلغ ذروتها رغم الخلافات والاختلافات — كما قال بونابرت — عندما يظهر الرجل .. ويقع الحدث . . .

وثانى هذه التيارات سوف يجرف إسرائيل ذاتها . فالخلافات السياسية ، والمشاكل الاقتصادية ، والأقليات الاجتماعية ، والضغوط المتباينة سوف تثقل على عاتق هذه الدولة المصطنعة فتكسر من طغيانها ومن تحديها .

أما التيار الثالث ، فإنه سوف يغمر العالم الخارجى الذى سيرى بالتدريج حقيقة الاستعمار الاستيطانى الذى تقوم عليه إسرائيل ، ويلمس الواقع الحضارى الذى يمكن أن يشع من العالم العربى ، ويدرك فداحة الثمن الذى يدفعه بلا هدف .

وكان مما قاله توينبى يومها : إن المشكلة فى إدراك تطور تاريخ كثير من المجتمعات ، هى أن أحداثها لا تدون فى حينها .

* * *

وبينما أبناؤنا يعبرون ، وعروبتنا تلتئم ، والخلافات تعصف بالعدو ، عاد الينا صوت ذلك الحديث . فقد ظهر الرجل . . . ووقع الحدث ... وبزغت الأمة العربية متماسكة قوية شامخة رغم ما بدى من خلافات طبيعية . وتفجرت فى مصر طاقة من العطاء . ولم يعد السؤال الذى يتردد على أفواهنا جميعاً هو : ما الذى يمكن أن تعطيه مصر لنا ؟ إنما أصبح ما الذى يمكن أن يعطيه كل منا لمصر ؟

* * *

ووقفنا مع الملايين التى هبت تريد أن تعطى ، وتتمنى لو حملت السلاح . . . . واستشعرنا واجبنا . . . وتذكرنا القلم . . . . وكان هذا الكتاب .

* * *

إن كتاب « حرب الساعات الست » يقوم على افتراض أولى زاده البحث والتعمق تدعيما . ذلك هو أن النتائج البعيدة المترامية التى جاءت بها هذه الحرب ، إنما كانت نتيجة للانتصارات الرائعة التى حققتها الجيوش العربية خلال الساعات الست الأولى من المعارك .

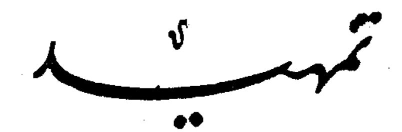
وهو افتراض زاد رسوخا كلما استزادت الدراسة من البحث والتنقيب عن الحقائق .

ويحاول هذا الكتاب أن يسلك مسلكاً علمياً موضوعياً ، فيرد الوقائع إلى مصادرها الأساسية ، ويترجم الأحداث إلى أصولها العلمية . وهو يهتم بالمعركة العسكرية فى جوانبها الإدارية ، ويعرضها من مدخل مقومات العملية الإدارية من قيادة ، وتخطيط ، واتخاذ قرارات ، واتصالات وتنفيذ ، . . الخ .

ويأخذ الكتاب نظرة شمولية واسعة . فيعرض الصورة بأبعادها التاريخية والسياسية والعسكرية والإدارية، والدولية والعربية والداخلية جميعاً . وهو لا يدّعى بحال من الأحوال أنه توثيق لكل هذه الجوانب . إنما نأمل أن يكون بداية لدراسات أكثر تخصصاً فى كل منها ، تقوم بها القيادات المختلفة التى أتاحت لها الظروف أن تكون فى قلب الأحداث، فالحقائق التى لا تدون لا تصبح جزءا من التاريخ . . . . والتاريخ الذى هو تراث ودرس وعبر ، هو أمانة فى عنق من عاصروا الأحداث ، وعلى الأخص أولئك الذين شاركوا فى صنعها .

القاهرة فى أبريل ١٩٧٤

عبد الكريم درويش   ليلى تكلا



التاريخ ١٥ مايو ١٩٧٣ ، والمكان القدس ، والمناسبة الاحتفال بالعيد الخامس والعشرين لقيام دولة إسرائيل . أعضاء الحكومة والكنيست والقادة العسكريون وأفراد الشعب يصطفون فى زهو ونشوة ، ومعهم ثلاثمائة ألف من السائحين الأجانب ، يستعدون لمشاهدة العرض العسكرى لجيش إسرائيل . وفجأة ترتفع الهتافات الصاخبة إلى سماء المدينة ... ولم تكن هذه الهتافات تحيي المدرعات ولا قوات المظلات وإنما اتجهت إلى رجل مسن ، أشيب الشعر أشعثه ، كانوا يحاولون مساعدته على الجلوس فى كرسى الشرف على منصة الاحتفال، وكان هذا الرجل هو دافيد بن جوريون ، أول رئيس لوزراء إسرائيل وأحد الزعماء الصهيونيين الذى عملوا على إنشائها .

وبدأ العرض العسكرى الضخم . الرجال والعتاد والسلاح، وظهرت طائرات الفانتوم تمرق فى صخب وامضة فى السماء ، وواحدة فيها يقودها مردخاى هود لآخر مرة قبل أن يتقاعد كقائد للسلاح الجوى الإسرائيلى . وظهرت طائرات الميراج ، والهليكوبتر ، وطوابير المشاة الميكانيكية ، والمدرعات والصواريخ ، فى عرض أنفق عليه تسعة ملايين من الدولارات ، وأخرج بطريقة خاصة تناقلتها وكالات الأنباء وكاميرات التليفزيون والسينما ، ليعطى انطباعاً معيناً عن عظمة «الجيش الذى لا يقهر» ، «للدولة الديمقراطية الجديدة»، أو « واحة المدنية وسط صحراء التخلف والعداء » ، كما يفضلون أن يسموا إسرائيل فى أمريكا .

والشعب العربي صابر صامت، يعاني ذكريات محنة ١٩٦٧، ولا نسميها هزيمة، لأن جيوشه لم تحارب ولم تدخل في معارك حقيقية ، وإنما صدر إليها أمر يصفه الرئيس أنور السادات بأنه : « **امر مجنون وامر خطا من القيادة العسكريه الموجودة للأسف بالانسحاب الى غرب القناة**»[1] . والجيش المصرى رابض فى مواقعه على طول قناة السويس يختتم عامه السادس فى نفس الدشم والخنادق والتلال وكثبان الرمال ، يتطلع فى إصرار ونفاذ صبر إلى الشرق ، إلى تحرير الأرض ، وكأن القدر قد جعل الشرق دائماً قبلته .

ومرة أخرى بعد ستة شهور ، ولأول مرة بعد شهر من حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، يتغير المنظر شكلا ومضموناً . وتقيم إسرائيل احتفالا عاماً .. احتوته الرهبة واحتوت فيه أحزانها، تبتلع كأس الأسى الذى تعودت أن تقدمه للعرب فى غدر وتنكيل ، وتقيم حداداً علنياً على قتلاها فى الحرب بالجبانة العسكرية الجديدة بكريات شاؤول ، حيث ترقد آلاف الجثث . ويقف الإسرائيليون منكسى الرؤوس ، وينتظرون طويلا يبكون ويصمتون ، وتضرب النساء القبور بأيديهن يجادلن القدر الذى أثكلهن . وفى هذه المرة لا فانتوم ، ولا سكاى هوك ، ولا مدرعات ، ولا صواريخ ، وإنما رهبة الموت .. وقد بدأت صفحة جديدة من التاريخ .

وكما أثبتت الأحداث اللاحقة ، كان يوم ١٥ مايو ١٩٧٣ ، والاحتفال الذى نظمته إسرائيل خلاله ، هو آخر فرصة للإسرائيليين ليحيوا جيشهم « الأسطورة » ، وآخر مرة أيضاً يروا فيها أول رئيس وزراء لهم فى احتفال عام . فمنذ ذلك اليوم بدأت صحة دافيد بن جوريون تعتل . وأصيب بنزيف حاد بالمخ قبل وفاته بأسبوعين ، بينما كان منكباً على إتمام المجلد الثالث من مذكراته ، ونقل

---

(١) حديث الرئيس محمد أنور السادات إلى الضباط والجنود فى اسوان فى ٣٠ يناير ١٩٧٢، (وزارة الثقافة والإعلام ، هيئة الإستعلامات، خطب وأحاديث الرئيس السادات ، المجموعة ٣).

إلى مستشفى تل هوشمير حيث قضى نحبه عن ٨٧ عاماً . وقبل وفاته كان قد بدأ يسمع أنباء انتصارات جيش مصر وهزيمة جيش إسرائيل ، الذى أفنى حياته فى إعداده بدءاً من العصابات السرية ، إلى العصابات المنظمة ، إلى الجيش النظامى .

وكما أثبتت الأحداث أيضاً كانت النشوة والزهو فى ١٥ مايو مبعثهما كما عبر الرئيس السادات مرة أخرى **« هفوة من هفوات الزمن »** . أو كما قال أفرايم كاتزير الرئيس الإسرائيل فى حديث أذاعه راديو تل أبيب يوم ١٩٧٣/١١/٢٤ : « إن إسرائيل فيما بين ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ عاشت فى نشوة لم تكن الظروف تبررها وأن حالة النشوة النفسية هذه قد سادت كل المجالات العسكرية والسياسية والاجتماعية ، وأحدثت بها مواطن ضعف خطيرة ، تلقى مسئوليتها على الأمة بأسرها »[1] .

لقد انقسم الرأى العام فى إسرائيل حول مدى ضرورة العرض العسكرى الضخم الذى أقيم فى مايو . رأى كان يقول بضرورته ، لأنه من دواعى أمن إسرائيل أن تظهر بالقوة العسكرية الحقيقية لها ، وأن يعرف جيرانها العرب عنها هذا . ورأى آخر يعارض ، وحجته أن العرض العسكرى تعبير عن نعرة عسكرية فيها إثارة وتشويه لسمعة إسرائيل أمام العالم ، وأنه من الأفضل لها أن تظهر فى دور الدولة المحبة للسلام . وانتصر الرأى الأول ، لأنه يمثل رأى قادة المؤسسة العسكرية من دعاة الحرب ، ويتفق مع طبيعة العقيدة الصهيونية ، عقيدة الإرهاب وبث الخوف والتلويح بالعصا ، ويشكل جانباً من سياسة الردع التى تلجأ إليها إسرائيل لتمكين استراتيجيتها فى الوطن العربى .

* * *

---

(١) وكالة الأنباء الفرنسية ، جريدة الأخبار ، ١٩٧٢/١١/٢٥ ، ص ١

إن إسرائيل كانت تعيش المرحلة الثالثة من كيانها ، وهى « مرحلة الغزو والتوسع » . وهى مرحلة بالغة الخطورة فى تطور الوجود الصهيونى الاستعمارى فى قلب الوطن العربى ، مثلما مثلت المحنة بداية مرحلة حاسمة فى النضال العربى من أجل تحقيق أهدافه . ونخطىء خطأ جسيما إذا نظرنا إلى جانب واحد للموقف دون الآخر ، لأنه فى كل صراع توجد قوتان تتقاتلان ويحتدم الصراع بينهما ، وعلينا بالنسبة للقوة الأخرى أن نفهمها حق الفهم من خلال شعار أذكاه خبراء السياسة والاستراتيجية العسكرية ، وهو شعار « إعرف عدوك » .

والوضع المريح الذى وجدت إسرائيل نفسها عنده بعد محنة ١٩٦٧ ، كان يؤكد نجاح مرحلة الغزو والتوسع . ويكفى لكى ندرك هذا أن نلقى نظرة على خريطة المنطقة من خلال علم الجغرافيا السياسية . حقيقة أن العصر النووى يقلل من أهمية الموقع الجغرافى ، إلا أن علم الجغرافيا السياسية تزايدت أهميته فى هذا العصر الذى تقوم فيه التكتلات السياسية والاقتصادية والعسكرية على أساس جغرافى ، كما هو المثال فى الكتلة الشرقية والكتلة الغربية والكتلة الأفريقية وجنوب شرق آسيا .

إن النظرة إلى خريطة الشرق الأوسط تبين أن إسرائيل احتلت بالعدوان حوالى ٢٦ ألف ميل مربع من الأرض العربية ، وأن الجيش الإسرائيلى أصبح جاثماً على طول الضفة الشرقية لقناة السويس فى مواجهة دلتا النيل وواديه وعلى طول الساحل الغربى لخليج العقبة وفى الجزر التى تتوسط مداخله ، وأصبح جاثماً من تيران إلى شرم الشيخ إلى إيلات إلى البحر الميت إلى طبرية إلى منابع نهر الأردن فى مواجهة الأرض المقدسة فى الجزيرة العربية والأردن ، وأصبح جاثماً على قمة الجولان وجبل الشيخ حتى رأس الناقورة على طول البقاع وجنوب لبنان ، ثم من رأس الناقورة حتى رأس العش شمال بورسعيد فى مواجهة البحر الأبيض المتوسط .

وتشرد بسبب العدوان حوالى ٧٠٠ر٠٠٠ عربياً ، منهم حوالى ٥٠ر٠٠٠ نزحوا من سيناء ، ١٢٠ر٠٠٠ نزحوا من الجولان ، وما يزيد على ٥٠٠ر٠٠٠

نزحوا من الضفة الغربية وقطاع غزة . وبذلك ارتفع عدد اللاجئين العرب إلى أكثر من مليون وسبعمائة ألف نسمة . هذا بالإضافة إلى ٢٠٠ر٠٠٠ تم إجلاؤهم عن مدن القناة بسبب ظروف الحرب ومتطلباتها ، ٩٣ر٠٠٠ نزحوا من المواقع المتقدمة فى الضفة الشرقية للأردن إلى المناطق الداخلية فيها .

وأصبح مازيد على مليون وربع من عرب فلسطين يعيشون تحت وطأة الاحتلال الإسرائيلى فى الأرض المحتلة ، بينهم ٢٢٥ر٠٠٠ يقيمون فى الأراضى التى احتلت عام ١٩٤٨ ، وحوالى ٣٥٠ر٠٠٠ يقيمون فى قطاع غزة ، وحوالى ٦٥٠ر٠٠٠ عربياً يقيمون فى الضفة الغربية(١) .

هكذا كانت خريطة التوسع حين جاء روجرز وزير الخارجية الأمريكية إلى مصر فى عام ١٩٧١ ، وزار من بعدها إسرائيل . وحين سئل عدد من القادة الإسرائيليين عما سيكون حديثهم مع روجرز، قال إيجال آلون: سنحدثه طويلا عن الجغرافية السياسية للمنطقة وفعلا أخذوا روجرز فى طائرة هليكوبتر حلقت به فوق شرم الشيخ وفوق سيناء وفوق الجولان ، وحدثوه عن المدى الذى فرضته سياسة الغزو وصولا إلى مفهوم الأمن الإسرائيلى من خلال سياسة التوسع .

إن إسرائيل – فى رأى الدكتور الدجانى – لكى تصل إلى هذه النتيجة قد مرت بمراحل ثلاثة :

مرحلة التسلل ، مرحلة التغلغل ، ومرحلة الغزو والتوسع . ونحن إذ نستعمل هذه المسميات ، إنما نحاول ربطها بفترات زمنية محددة . فمرحلة التسلل ترتبط بالمدى الزمنى من ١٨٨٢ إلى ١٩١٧ ، ومرحلة التغلغل من ١٩١٧ إلى ١٩٤٨ ، ومرحلة الغزو والتوسع من ١٩٤٨ إلى ١٩٧٣ . وحينما نعرض لهذه المراحل الثلاثة ، فإنما نفعل ذلك فى إيجاز من خلال الخلفية التاريخية الطويلة للوجود الإسرائيلى فى الوطن العربى .

---

(١) أحمد صدقى الدجانى : من المقاومة إلى الثورة الشعبية فى فلسطين، يوميات المقاومة (١)، (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٩) ، ص ٦

القسم الأول

جذور الصراع

- الفصل الأول : مرحلة التسلل (١٨٨٢-١٩١٧)
- الفصل الثاني : مرحلة التغلغل (١٩١٧ - ١٩٤٨)
- الفصل الثالث : مرحلة الغزو والتوسع (١٩٤٨ ....)
- الفصل الرابع : جيش اسرائيل
- الفصل الخامس : ثلاثة حروب (١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧)

الفصل الأول

مرحلة التسلل

١٨٨٢ - ١٩١٧

فى عام ١٧٩٩ ، وقف نابليون بونابرت مقهوراً أمام تحصينات عكا المنيعة . وفى ثورة اليأس أخذ يفكر فى طريقة تمكنه من تحقيق النصر . وهداه تفكيره إلى أن يستمدى اليهود[1] المقيمين فى فلسطين على أهلها ليطعنوا المقاتلين من الخلف، وليسهلوا له الاستيلاء على المدينة . ووجه نابليون إلى اليهود فى فلسطين نداء خاصاً يستثير حماستهم ، قال لهم فيه :

---

(١) الأصل فى كلمة « يهود » ، أن يعقوب قبل وفاته كان قد أوصى أولاده جميعا أن يكونوا تحت قيادة أخيهم « يهوذا » ، الولد الرابع ليعقوب . فلما أصبح يهوذا سيد إخوته وتولى أمرهم ، أطلق اسم « يهوذا» على أولئك الذين رضوا بأن يكونوا تحت لواء « يهوذا » من أبناء يعقوب. وعندما نطق العرب يهوذا « أبدلوا «الدال» «بالذال » . ومن ذلك التاريخ تنطق الكلمة « يهودا » و « اليهود »، وهما يرتبطان تاريخيا بأبناء يعقوب بن اسحق ابن ابراهيم عليه السلام . انظر : صابر عبد الرحمن طعيمة ، اليهود فى موكب التاريخ ، (القاهرة مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٦٩) ، ص ٦٠

« أيتها الأمة الفريدة فى نوعها ... التى استطاعت نزعة الظلم وشهوة الغزو على مدى آلاف السنين أن تحرمها من أرض الأجـــداد ولـكنها لم تقدر على حرمانها من إسمها ولا من وجودها القومى » .

لقد جاءت محاولة نابليون فى أعقاب قيام الثورة الفرنسية عام ١٧٨٨ . وما كانت تنادى به من مبادىء إنسانية وتحررية قوامها الإخاء والمساواة والحرية . وكان نصيب يهود أوروبا المضطهدين المشردين ، وخاصة أمام الزحف المسيحى فى أسبانيا من عائد مبادىء الثورة الفرنسية أن وجدوا مناخاً أكثر تسامحاً وتقبلا لوجودهم كمواطنين فى البلاد التى أقاموا بها ، بعد أن كان ترك اليهودية — مظهرياً — هو الثمن الذى يدفعه اليهودى كى يستمتع ببعض مزايا الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية فى مجتمعه [١] .

وفى كل بلدان أوروبا التى غزاها نابليون كان يحاول فرض مساواة بين اليهود وبين غيرهم . وفى عام ١٨٠٧ ، عقد نابليون مؤتمراً لليهود من كل أنحاء الإمبراطورية . وفى هذا المؤتمر سئل ممثلوا اليهود عما إذا كانوا يعتبرون فرنسا بلدهم والفرنسيين إخوتهم ، فأجابوا بأنهم مقتنعون بذلك حتى النهاية . ومنذ ذلك التاريخ لم تقم فـكرة القومية اليهودية فى فرنسا .

وإذا كانت محاولة نابليون أمام عـكا لم تنجح فى تحقيق أهدافها المباشرة فى فتح عـكا . فإنها قد استرعت انتباه يهود أوروبا إلى فلسطين أو « الأرض المقدسة » وكانت باعثاً لحركة جديدة بينهم سميت حركة « هاسـكالا » أى التنوير . وهدفها ربط اليهود فى البلاد التى يقيمون بها ، والارتقاء بأحوالهم ، وأخذهم بجوانب

---

(١) يمكن القول أن يهود أوروبا عاشوا عصرهم الذهبى خلال الحـكم العربى للأندلس . أنظر : حسين مؤنس ، تاريخ الأندلس ، (القاهرة : دار المعارف، ١٩٥٥) .

التقدم الحضارى ، حتى يصبحوا أهلا للمساواة بباقى شعوب هـــذه البلاد مع احتفاظهم بدينهم ولغتهم .

وقد أخذت حركة « هاسـكالا » فى الإنتشار فتره من الزمن ، ثم أخذت تذبل حتى اندثرت خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر نتيجة لعدة عوامل مختلفة ، وفى مقدمتها تزايد الاتجاه الفـكرى لدى اليهود الذى ينادى بالعودة إلى فلسطين . فتحولت بذلك من حركة فـكرية إلى حركة قومية لليهود تعمل على إذكاء أمل العودة إلى فلسطين ، وتحيي فى اليهود حلم « الخلاص من الشتات » .

وبالنسبة لليهود ، كان مضمون هذا النداء يعنى أكثر من مجرد الإستعداء . فقد كانت نهاية نابليون بونابرت فى بلاد العرب وأمام أسوار عـكا ، تؤكد أن الحركة اليهودية قد أخذت ترتبط بظروف وتطورات السياسة الدولية وتركب أمواج السياسة الإستعمارية وخاصة فى كل من فرنسا وبريطانيا ، وبدأت الجهود المنظمة لهذا الإتجاه فى نهاية القرن التاسع عشر ، حيث التقت الحركات اليهودية فى شرق أوروبا بالآراء التى بدأت تتردد وتظهر بين يهود وسط وغرب أوروبا حول فـكرة بعث القومية اليهودية .

والصهيونية كحركة سياسية ولدت فى القرن التاسع عشر . ذلك أن انتشار الاتجاهات الداعية إلى الإخاء والحرية والمساواة فى أعقاب الثورة الفرنسية ، أدى إلى الإعتقاد بأن هذه الاتجاهات سوف تحل مشكلة اليهود . ولـكن اعترض ذلك عقبتان الأولى ، من اليهود الذين خشوا من أن يرتبط بفـكرة التحرر احتمال اندماجهم فى الآخرين.أما العقبة الثانية ، فسببها التعصب القومى الذى اتخذ مظهراً واضحاً فى أوربا وقتئذ، والذى جعل عملية تقبل اندماج اليهود فى القوميات الناشئة أمراً صعباً .

ليون بنسكر :

وفى عام ١٨٨١ وقع حادث هام . فقد أرادت السلطات الروسية أثر إغتيال القيصر اسكندر الثانى أن تجعل من اليهود كبش الفداء ، فنكلت بهم . وأدى ذبح اليهود واضطهادهم فى روسيا إلى موجة من الهجرة إلى غرب أوربا وأمريكا ولكن ثلاثة آلاف من المهاجرين اليهود ذهبوا فى ذلك العام إلى فلسطين .

وفى نفس العام ظهرت فى روسيا لأول مرة حركة عرفت باسم «Chibath Zion» أى « حب صهيون »(١) . وكان أنصارها يتجمعون فى لقاءات اسمها « أحباء صهيون ». وكانت أهداف هذه الجماعات هى الهجرة إلى فلسطين وإحياء اللغة العبرية . وقد تم الاعتراف بهذه الجمعيات عام ١٨٩٠ تحت إسم « جمعية مساعدة الصناع والمزارعين اليهود فى سوريا وفلسطين » وكان يرأس هذه الحركة ليون بنسكر ، وهو أول من دعا إلى إقامة وطن قومى لليهود ، دون التمسك بمكان معين(٢) .

بيد أن هذه الحركه ما لبثت أن تجمدت . فقد تصدى اليهود أنفسهم لها معارضين فكرة الوطن اليهودى أياً كان مقره . وجاءت المعارضة الثانية من الإمبراطورية العثمانية . إذ أصدر الباب العالى عام ١٨٨٨ فرماناً يقضى بمنع الهجرة الجماعية أياً كان نوعها إلى أراضى الدولة العثمانية . وعدم السماح للحجاج اليهود بقضاء أكثر من ثلاثة أشهر فى فلسطين .

وواضح عند هذه البداية أن الصهيونية ليست حركة دينية . والذين يقولون بغير ذلك بعيدين عن الصواب . إن الصهيونية حركة سياسية واضحة ظهرت كتعبير سياسى يحمل الرد على نزعة معاداة السامية . وهدفها كما أوضحنا خلق

---

(١) صهيون اسم أحد الجبال المحيطة بمدينة القدس . وتوجد جبال أخرى حول المدينة مثل جبل المكبر ، جبل اسكوبس ، جبل الزيتون . وكلمة صهيون إذن مجرد اسم لا يعنى أى معنى دينى أو عقائدى .

(٢) ليون بنسكر كاتب روسى ولد عام ١٨٢١ ، وتوفى عام ١٨٩١ وهو أحد واضعى الايديولوجية الصهيونية .

دولة صهيونية ، والتمكين لأهداف الصهيونية العالمية على المستوى الدولى، وتحقيق القومية لليهود . يؤكد هذا أن الصهيونية نشطت بدايةً فى شرق أوربا ، حيث كان اضطهاد اليهود فى روسيا وبولندا وألمانيا . وقد دعت لفكرة « العودة » فى محاولة لكسب تأييد يهود العالم .

تيودور هرتزل :

أما الرجل الذى أخرج هذه الحركة مرة ثانية إلى الوجود فهو تيودور هرتزل ، اليهودى النمسوى الأصل . لقد درس هرتزل فى ڤينا ، وعمل صحفياً فى باريس وعاصر قضية شهيرة فى فرنسا عام ١٨٩٤ ، اسمها قضية « دريفوس » .

وأدرك هرتزل ما تنطوى عليه ظروف القضية من نزعة عداء جارف لليهود . ورأى أنه إذا كان من الممكن أن يحدث لهم هذا الاضطهاد السافر فى فرنسا بلد الإخاء والحريات ، فمعنى ذلك أن العداء لليهود يمكن أن يأخذ أشكالا أكثر عنفاً وقسوة فى باقى بلاد أوربا التى لم تنل حظ فرنسا من التحرر .

وقد عبر هرتزل عن مخاوفه هذه من خلال الدعوة التى حواها كتابه « **الدولة اليهودية** » . فقد نادى فيه بإقامة مستعمرة يهودية تحت وصاية بريطانيا فى فلسطين أو الأرجنتين . على أن تتطور بعد ذلك إلى دولة يهودية قومية مستقلة . وواضح أن حديث هرتزل عن إمكان إقامة وطن قومى لليهود فى الأرجنتين يدل على أن الحركة الصهيونية حركة سياسية فقط أساسها إقامة الدولة اليهودية وليس تحقيق نبوءات اليهودية فى العودة لفلسطين .

وعلى غير ما قد يبدو ، لم تكن الحركة الصهيونية أبداً تمثل وحدة مترامية متجانسة فكراً ومسلكاً . فقد اختلف أعضاء المنظمة فى مسائل رئيسية مثل : أى الاستراتيجيات السياسية أسرع من غيرها فى إقامة الحكم الذاتى ؟ . هل تتحتم المطالبة بالاستقلال الكامل والحكم الذاتى أصلا ؟ هل تعطى عملية الاستيطان الفعلى فى فلسطين الأولوية على المفاوضات السياسية من أجل الإستقلال؟ ما الذى ينبغى أن تكون عليه طبيعة وشخصية الدولة اليهودية التى ستنشأ ؟ .

بل أنه فى بداية عمل المنظمة ثار داخلها نقاش حاد حول ما إذا كان من الواجب قبول ما يبدو أنه عرض من الحكومة البريطانية لإنشاء دولة يهودية فى أوغندا . وتبعاً لطبائعهم فقد فضل الكثيرون من اليهود الغربيين ، وهرتزل معهم ، عرض أوغندا هذا ، حيث أنها أكثر أمناً وسلامة لهم . أما مندوبوا أوربا الشرقية الذين كانوا يعتقدون أن نهضة اليهود تتساوى فى الأهمية مع سلامتهم فقد تمسكوا بإصرار بأن تكون فلسطين هى مكان الخلاص .

وباستثناء عرض أوغندا ـ الذى كان لفترة قصيرة ـ فقد ساد الإتفاق على أن هدف المنظمة هو العمل على إيجاد وطن قوى لليهود فى فلسطين . وبمرور الوقت فسر هذا الهدف على أنه يتضمن تعضيد ومساندة الإستيطان اليهودى فى فلسطين ، والسعى للسماح للمجتمع اليهودى القامى هناك بقسط من الحكم الذاتى . وبينما كان الاتفاق على الهدف الأساسى قوياً ، فقد كان الجدل حول الإستراتيجية والتكتيك حامى الوطيس .

وبمرور الزمن ، أصبحت المنظمة الصهيونية بمثابة « القابلة » التى أولدت دولة إسرائيل[(١)] . فلولا المساندة والتشجيع اللذين منحتهما إلى أبعد حد لمستوطنى فلسطين ، لكان من المحتمل ألا يصير ذلك الخيط الرفيع من المهاجرين الذى بدأ فى أواخر القرن التاسع عشر سيلا قوياً متدفقاً فى الأعوام التالية لمولد الدولة . وفى نفس الوقت اتجهت جهود المنظمة الصهيونية إلى أن تجعل منها أكثر من هيئة خيرية ، فقد كانت مصدراً أساسياً للإيديولوجية والصراع والعمل على فرض الأمر الواقع من الهجرة المتزايدة إلى فلسطين .

---

(١) اسم أطلق على يعقوب بن اسحاق إبراهيم . وقد خلع أبناء يعقوب على أبيهم هذا الإسم بعد أن تمردوا على الإله إيل بعد أن كشف أبوهم تآمرهم على قتل أخيهم يوسف ، وهددهم بالغضب والبطش ولما تبينوا أن إلاههم إيل لم ينصرهم على أبيهم وأن أباهم قد انتصر عليهم ... قالوا « لم يقدر علينا إيل ولم نخضع له ، ويجىء يعقوب ويغلبنا ويفرض علينا طاعته ، إذاً أبونا من الآن هو يسرائيل » وكلمة « يسر ـ بالعبرية معناها ساد وانتصر وغلب إيل معتقد الآباء الأول لبنى اسرائيل « يسرائيل » . وعلى هذا التقرير فإن كلمة « إسرائيل » يقترن باسم يعقوب ، وهى بعيدة عن معانى القداسة الدينية أو النبوة . انظر ، صابر طعيمة: المرجع السابق ، ص ٥٥

المؤتمر الصهيونى :

لقد أثمرت جهود هرتزل فى عقد المؤتمر الصهيونى الأول الذى دعا إليه ونظمه فى مدينة « بازل » بسويسرا عام ١٨٩٧ . وقد قام هرتزل بدور حاسم فى التخطيط لتحقيق الأمانى والأطماع اليهودية ، وفى وضعها تحت شعار حركة واحـدة هى « الصهيونية العالمية » . وفى خطاب الافتتاح قال هرتزل : إننا هنا لنضع حجر الأساس فى بناء البيت الذى سوف يأوى الأمة اليهودية .

وكان من أهم منجزات المؤتمر إقامة « المنظمة الصهيونية العالمية » كما أكد أن هدف الصهيونية هو إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين .

١ ـ تشجيع هجرة اليهود إلى فلسطين ، وتشجيع استيطان العمال الزراعيين والصناعيين بها بصفة خاصة .

٢ ـ إنشاء منظمة دائمة لجمع شمل اليهود على المستويين المحلى والعالمى .

٣ ـ تقوية وتنمية الوعى القومى اليهودى .

٤ ـ الحصول على موافقة الدول لتحقيق هدف الصهيونية العـالمية .

والأمر الجدير بالذكر أن هرتزل قد حذر المؤتمر من إصدار قرار سريع بإنشاء « الدولة اليهودية بفلسطين » حتى لا يثير ذلك شكوك الدول الاستعمارية التى كانت وقتئذ تتنازع بشدة على السيطرة على بلاد الشرقين الأوسط والأدنى . نظراً لأن هذه الدول هى نفسها التى ترعى الحركة الصهيونية وتؤيدها مادياً ومعنوياً .

وقد تحرك هرتزل بأفـكاره عبر دول أوربا ، وركب موجة الاستعمار فى كل الدول التى كانت تقود الاستعمار . بدأ بمباحثات مع قيصر ألمـانيا ، وزار النمسا واهتم بها ، وزار هرتزل إيطاليا وتباحث مع ملـكها عن ليبيا ، وكيف يمكن لليهود أن يساعدوا على استعمارها . وركز هرتزل على السلطان عبد الحميد ، وقابله خمس مرات ، وفى حواره معه أبدى اهتمامه بفلسطين ، ولـكنه وجد الطريق صعباً أمامه ، فاقترح الموصل لأن رائحة النفط كانت بدأت تظهر هناك فى بداية القرن العشرين . وفى مرة ثالثة جاء إلى الاسكندرية ومنها إلى القاهرة ومر بالعريش ليرى إمكانية قيام الوطن القومى بها .

وإزاء فشل هرتزل فى جهوده هذه ، نقل نشاطه إلى الدولة التى اقترحها من قبل ، كراعية للحركة الصهيونية ، وهى إنجلترا . وفى عام ١٩٠٢ ، دخلت المنظمة الصهيونية فى مباحثات جدية مع الحكومة الإنجليزية بغرض إقناع إنجلترا — بمنح الحركة الصهيونية جزءاً من شبه جزيرة سيناء ، يقيمون فيها وطنهم القومى كجزء من الإمبراطورية البريطانية . وكانت إنجلترا وقتئذ تحتل مصر التى تتبعها شبه جزيرة سيناء ، ولكن المفاوضات توقفت بسبب معارضة مصر.

وفى عام ١٩٠٣ توصل هرتزل إلى عقد مشروع اتفاق آخر مع الحكومة البريطانية يقضى بمنح أوغندا للمنظمة الصهيونية بقصد تعميرها والتوطن فيها . وقدم هرتزل هذا المشروع إلى المؤتمر الصهيونى السادس ، فأثار عليه الصهيونيين المتحمسين « Activists » الذين لم يرحبوا بالفكرة . ومات هرتزل عام ١٩٠٥ قبل اتخاذ أى قرار نهائى فى هذا الموضوع . وفى المؤتمر الصيهونى السابع الذى عقد فى نفس العام ، اتخذ الصهيونيون قراراً بوجوب إقامة الدولة اليهودية فى فلسطين حيث تستقر المصالح الصهيونية[١] .

وقد كان المؤتمر الصهيونى الثامن الذى انعقد فى لاهاى عام ١٩٠٧ ، نقطة تحول خطيرة وهامة فى تاريخ الصهيونية العالمية . فقد سيطرت أفكار الصهيونيين العاليين على هذا المؤتمر. وبرزت آراء الزعماء المنادين بضرورة بدء العمل فوراً فى فلسطين دون انتظار لأى ضمانات سياسية، وفرض الواقع الصهيونى فى فلسطين عن طريق التغلغل الاقتصادى .

وفى العام الثانى بدأ الصهيونيون العمليون يشقون طريقهم نحو تنفيذ المخطط العملى المنظم فى فلسطين مستخدمين من التغلغل الاقتصادى شعاراً لهم . وليس ثمة شك فى أن هناك علاقة وثيقة بين التغلغل الاقتصادى القائم على اغتصاب الأرض ، والقوة المسلحة اللازمة لتثبيت هذا الاغتصاب وسحق أى مقاومة يبديها أصحابها الشرعيون . ومن هنا يتحقق الارتباط والتكامل بين إنشاء المستعمرات الصهيونية وخلق القوة العسكرية .

(١) شهد هذا المؤتمر ٦٠٠ عضو مشترك بعد أن زاد عدد الجمعيات الصهيونية فى الفترة التى مضت بين المؤتمرين الأول والثالث من ١١٤٦ إلى ١٥٧٢ جمعية انظر : صابر عبد الرحمن طعيمة ، المرجع السابق ، ص ٥٧١

الفصل الثانى

مرحلة التغلغل

١٩١٧ - ١٩٤٨

الصهيونية والاستعمار البريطانى :

كان شعار الصهيونية دائماً فى تنفيذ خططها « الغاية تبرر الوسيلة » . هـذا هو المبدأ الذى وضعه هرتزل ، ومن جاء بعده سار على نهجـه . وقد أدرك زعماء الصهيونية دور بريطانيا الاستعمارى ومطامعها فى المنطقة العربية فركزوا عليها اهتمامهم . ويقول « حاييم وايزمان » الذى خلف هرتزل فى تزعم الحركة الصهيونية فى هذا الصدد : « أن بريطانيا كانت البلد الذى يمكنه أن يظهر عطفاً صحيحاً على الحركة الصهيونية ، وأن تاريخ الملاقات بين إنجلترا والصهيونية حتى ذلك العهد كان يشهد بصحة هذا العطف » .

وكان زعماء الصهيونية على تفهم تام لمخطط بريطانيا الاستعمارى فى إقامة حاجز بشرى ، قوى غريب ، على المعبر البرى الذى يربط آسيا بأفريقيا ويربطهما معاً بالبحر الأبيض المتوسط ، بحيث يشكل فى هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة تكفل المصالح الاستعمارية. وقد أوضح هذا تقرير «بنرمان» السرى عام ١٩٠٧ المنشور بواسطة صحفى بريطانى صهيونى قبيل الحرب العالمية الأولى ، تبريراً لقيام الدولة اليهودية فى فلسطين .

وفى الواقع أن الظروف كانت مواتية لتنفيذ هذا المخطط الصهيونى البريطانى . فالمنطقة التى أجمعت عليها المصلحتان كانت مرهقة القوى بفعل قرون من الاستعمار التركى المتخلف الذى شوه كيانها واستنفذ طاقاتها . وكانت تركيا التى تحكم هذه المنطقة قد دخلت الحرب العالمية الأولى ضد إنجلترا والحلفاء ، تلك الحرب التى أنهت سيطرتها على المنطقة ، وكان الاستعمار يتوقع بوادر حركة ثورية تشمل معظم الدول العربية فى مصر وشبه الجزيرة العربية والعراق والشام والمغرب ، ووجد فى الصهيونية رأس جسر إلى المنطقة يضمن مصالحه ويكتسب صفة الاستمرار للسياسة الاستعمارية .

وفى عام ١٩١٥ وعد سير هنرى ماكماهون ، المندوب السامى البريطانى فى مصر ، الشريف حسين أمير مكة بأن إنجلترا إذا حررت بلاد العرب من الأتراك ، فإنها سوف تردها مرة ثانية إلى العرب ، وتنصب الشريف حسين ملكا عليها .

ورغم أن هذا الوعد لم يشمل فلسطين ، إلا أن ويزمان ، كما يقول بن جوريون ، قد تنبه إلى ما يمكن أن تؤدى إليه تطلعات وأمانى العرب ، فأسرع يعمل على استصدار وعد إنجليزى بإقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين من جهة ، وعلى الاتفاق مع الشريف حسين من جهة أخرى . وبالفعل حصل وايزمان من إنجلترا على وعد بلفور عام ١٩١٧ . وفى ٣ يناير سنة ١٩١٩ ، نجح فى الوصول إلى اتفاق مع فيصل ابن الشريف حسين أمير مكة ، يعترف فيه بوعد بلفور هذا ، ويعد بإقامة علاقات طيبة بين الدولة العربية التى سوف تنشأ فى الشرق وبين «فلسطين» .

ويقول بن جوريون : إن اتفاقية « فيصل ـ وايزمان » هذه لم يكن لها أى أثر . فالعرب فى فلسطين وفى كل الأقطار المجاورة ـ بما فيها العراق التى أصبح فيصل نفسه ملكا عليها ـ رفضوا رفضاً باتاً أن يعترفوا بهذه الاتفاقية .

ولكى يصل وايزمان إلى أهدافه ، سعى فى أوائل عام ١٩١٤ ، إلى تنمية علاقته برئيس تحرير المانشستر جارديان س .ب.سكوت، الذى وثق علاقة وايزمان بكل من لويد جورج وهربرت صمويل ، العضوين المؤثرين فى الوزارة حينذاك . وفى نوفمبر ١٩١٤ كتب وايزمان إلى سكوت يقول :

« نستطيع أن نقول أنه إذا أصبحت فلسطين فى نطاق النفوذ البريطانى ، وإذا شجعت بريطانيا استيطان اليهود فيها تحت حمايتها فإننا نستطيع أن نجمع فى مدى عشرين أو ثلاثين سنة مليون يهودى أو أكثر ، ينمون البلاد ويعيدون الحضارة إليها ، ويقومون حراساً أمناء لقناة السويس » .

لقد كانت الحرب العالمية الأولى هى المنعطف الذى دخلت عنده الحركة الصهيونية وأطماعها فى فلسطين مرحلة جديدة ، تمثلت فى صيغة أكثر تفاهما وتعاونا مع الاستعمار البريطانى . وهكذا نشط وايزمان لتنفيذ برنامج هرتزل بمراحله الثلاثة . التنظيم ، الاعتراف ، الاستعمار .

التنظيم :

وكان يقوم على ركائز ثلاثة :

(ا) ركيزة أرضية تنطلق فيها الجهود الصهيونية .

(ب) هجرات يهودية منظمة ومكثفة تحقق ارتباط المهاجرين بالركائز الأرضية بهدف التوسع منها مستقبلا .

(ج) إقامة منظمات صهيونية للتهجير وشراء الأراضى والاستثمار الاقتصادى والاستعداد العسكرى .

الاعتراف :

وكان أساس الحصول عليه السعى لإقناع ساسة الدول الاستعمارية وأصحاب رؤوس الأموال الاحتكارية الغربيين ، بأن مصالحهم مرتبطة بالوجود الصهيونى فى فلسطين ، وبالتمكين لهذا الوجود من تحقيق التوسع على حساب الوجود العربى.

وبالرغم من اختمار فكرة تبنى بريطانيا للحركة الصهيونية . وإقامة وطن قومى يهودى ودولة لليهود فى فلسطين لدى معظم قادة بريطانيا من عتاة الاستعماريين فإن الأمر لم يخل من معارضة بعض أعضاء الحكومة البريطانية لهذا الاتجاه . إما حفاظا على مصلحة بريطانيا ، أو حفاظا على مصلحة اليهود أنفسهم .

وكان فى مقدمة المعارضين أدوين مونتاجيو وزير الدولة لشئون الهند ، وهو الوزير اليهودى الوحيد فى الوزارة البريطانية وقتئذ . وأبرز حجته فى مذكرة قدمها إلى مجلس الوزراء البريطانى ، يهاجم فيها قرار حكومته بإصدار وعد بلفور. وتضمنت النقاط التالية :

١ — ليست هناك قومية يهودية .

٢ — اليهودية دين لا قومية .

٣ — لا علاقة لليهود اليوم بفلسطين . وإقامة وطن قومى لليهود يؤدى إلى إضعاف حركة إندماج اليهود فى المجتمعات التى يعيشون فيها . ويخلق مشكلة الولاء المزدوج .

لقد كان عنوان مذكرة مونتاجيو .. « معاداة الحكومة الحاضرة للسامية » ومن بين ما جاء بها :

«لقد بدت الصهيونية لى دائماً عقيدة سياسية لا يمكن أن يؤمن بها أى مواطن مخلص للمملكة المتحدة ، ذلك أن اليهودى الانجليزى الذى يتطلع إلى جبل الزيتون ، ويتوق إلى اليوم الذى يستطيع فيه أن ينفض عن حذائه التراب البريطانى

ويعود إلى نشاطه الزراعى فى فلسطين إنما يعترف بذلك بأنه لا يصلح للاشتراك فى الحياة العامة فى بريطانيا العظمى . . بل ولا يصلح لأن يعامل كمواطن إنجليزى لقد كان اعتقادى دائماً أن الذين عكفوا على هذه العقيدة كانوا مدفوعين إلى ذلك بسبب القيو د المفروضة على حرية اليهود فى روسيا ولـكن بعد أن تم الاعتراف بهؤلاء اليهود باعتبارهم يهوداً روسيين ، ومنحوا كافة حرياتهم يبدو أن من غير المفهوم أن تقدم الحـكومة البريطانية على الاعتراف الرسمى بالصهيونية وأن يخول مستر بلفور سلطة التصريح بأنه يجب أن يماد تأسيس فلسطين كوطن قومى للشعب اليهودى» .

«وأنا لا أعلم على وجه التحديد ما ينطوى عليه هذا . . وإن كنت استنتج أنه يعنى أن على المسلمين والمسيحيين فى فلسطين أن يفسحوا الطريق لليهود الذين سوف يتمتعون بالأفضلية ، ويصبحون مرتبطين بفلسطين ارتباط الانجليز بانجلترا أو الفرنسيين بفرنسا . كما يعنى ذلك أن الأتراك يعتبرون أجانب مثلهم فى ذلك مثل اليهود ، الذين سوف يعاملون من الآن كأجانب فى كل بلد آخر غير فلسطين » .

وقد واجه « بلفور » هذه المعارضة بقوله .

« إن إقامة نقطة التقاء فى فلسطين لليهود لا يتعارض مع إدماج اليهود فى المجتمعات التى يعيشون فيها ، وهى لا تختلف عن موقف الانجليزى الذى يهاجر ويندمج فيها، ولا تخلق مشكلة الولاء المتعدد التى أشار إليها مونتاجيو » .

بدأت الخطوات لتحقيق المصالح المشتركة بين الطرفين أهمها :

(ا) إنشاء فيلق يهودى من « المتطوعين » يعمل تحت قيادة الحلفاء وقواتهم فى الشرق العربى . وقد دخل هذا الفيلق الذى قاده فلاديمير جاتوبنسكى فلسطين تحت قيادة الجنرال « اللنبى » فى ١١ ديسمبر ١٩١٧ . وكان ذلك بعد شهر تقريباً من وعد بلفور .

(ب) إصدار وعد بلفور فى ٢ نوفمبر ١٩١٧ .

وعد بلفور :

كان عام ١٩١٦ يعنى الكثير بالنسبة للحركة الصهيونية . فقد تولى لويد جورج رئاسة الوزارة البريطانية ، وكان معروفا بميوله الصهيونية وعين لويد بلفور وزيراً للخارجية . وبعد شهرين من تشكيل الوزارة الجديدة ، قرر مجلس الوزراء البريطانى أن يعهد إلى مارك سايكس بالتفاوض مع زعماء الحركة الصهيونية .

وفى ٨ فبراير ١٩١٧ ، رتب سايكس لقاء بين سوكولوف وزير خارجية روسيا وجورج بيكو وزير خارجية فرنسا فى مقر السفارة الفرنسية فى موسكو . وقال سوكولوف إن الصهيونيين يعتقدون أنه من المهم جداً لمصالحهم أن تكون بريطانيا هى المشرفة على فلسطين بعد الحرب . وفى مارس سافر سوكولوف » وسايكس و «مالكولم» وهو صهيونى أرمنى إلى باريس لإقناع السلطات الفرنسية . وبعدها كرر سوكولوف وسايكس نفس المحاولة مع البابا فى روما .

وقد لعب دموند روتشيلد دورا بارزا فى إقناع حكومتى فرنسا وانجلترا بوجهة النظر الصهيونية ، وكان روتشيلد يمثل مركز ثقل مالى ضخم له أثره الكبير فى الحصول على تأييد واسع للحركة الصهيونية .

وقد هيأت كل هذه العوامل الجو المناسب لكى يعلن بلفور بيانه الذى أبدت فيه إنجلترا رسمياً مطالب الصهيونيين فى فلسطين وصدر وعد بلفور المعروف يعلن:

١ — تأييد انجلترا إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين .

٢ — استعداد انجلترا للتعاون مع اليهود لتحقيق هذا الهدف .

٣ — أن لا يؤثر هذا على حقوق المجتمعات غير اليهودية المقيمة فى فلسطين . . . ولا على حقوق اليهود المقيمين فى دول العالم الأخرى .

وفى أعقاب صدور هذا الوعد أدلى لويد جورج بتصريح قال فيه « إنه إذا أصبح اليهود أغلبية فى فلسطين ، فإنه من الممكن عندئذ أن تصبح فلسطين « كومنولث يهودى » . وكان هذا التصريح بمثابة دعوة صريحة إلى الإسراع بالهجرة وتكثيف عدد اليهود فى فلسطين ، ولم يكن عددهم وقتئذ يتجاوز ٦٥ ألفا .

ويصور ألن تايلور الجهود التى بذلها وايزمان والاتصالات التى قام بها لكى يمهد للحصول على وعد بلفور بقوله :

«أخبرنى وايزمان مرة أنه قام بألفى مقابلة للوصول إلى تصريح بلفور . لقد أجرى مناقشاته بمهارة وحذق لا يخطىء ، وبما يتلاءم مع عقلية وظروف كل سياسى . فبالنسبة للبريطانيين والأمريكيين استعمل لغة الإنجيل وحرك فيهم جانباً عاطفياً عميقاً . وتحدث إلى غيرهم بلغة مشتركة . فمع لويد جورج كان يقول أن فلسطين بلد جبلى يختلف عن ويلز ، ومع بلفور تحدث عن الأساس الفلسفى للصهيونية، ومع اللورد سيسيل طرحت القضية فى شكل منظمة عالمية جديدة، كما صور للورد سلتر توسع القوة الاستعمارية بشكل حيوى ، أما بالنسبة لى كضابط فى الأركان العامة بالجيش البريطانى فقد قدم الأدلة والبراهين على أهمية الوطن القومى لليهود بالنسبة لمركز الإمبراطورية البريطانية الاستراتيجى » .

ويقيم تشرشل وعد بلفور بأسلوب عملى فيقول .

« إن تصريح بلفور يجب ألا ينظر إليه كوعد أعطى لدوافع عاطفية ، بل كإجراء عملى فى مصلحة قضية مشتركة » .

ومع ذلك فإن هذا الإجراء العملى ـ وعد بلفور ـ كما يراه تشرشل لم يكن يستند إلى قيمة أخلاقية أو سياسية أو قانونية . وكان يمكن أن يكون له هذه

القيم مجتمعة لو كان الوعد ينص على تأسيس وطن قومى لليهود فى ويلز أو اسكتلندا أو إيرلندا مثلا . ولكن النص على تأسيس وطن قومى لليهود فى فلسطين — وقد كانت تابعة للسلطان فى ذلك الوقت — لا تملكه بريطانيا ... بل لو أنه نص على تأسيس وطن قومى لليهود فى مصر لكان وعدا أكثر منطقا ، لأن مصر وقتئذ كانت مستعمرة بريطانية ، بينما فلسطين لم تكن كذلك .

ولقد كان الرئيس جمال عبد الناصر واقعياً وموضوعياً حينما وصف هذا الوعد أصدق وصف بقوله :

« لقد أعطى من لا يملك وعدا لمن لا يستحق ، ثم استطاعا الاثنان من لا يملك ومن لا يستحق بالقوة وبالخديعة ان يسلبا صاحب الحق الشرعى حقه فيما يملكه وفيما يستحقه » .

الصهيونية والاستعمار الامريكى :

كانت دوائر وزارة الخارجية البريطانية قبل ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ عاكفة على صياغة تصريح بلفور الشهير . وكانت مسودة التصريح تبدأ بعبارة . . . « أن حكومة جلالة الملك — جورج الخامس — تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومى للجنس اليهودى فى فلسطين . . . » .

لكن أحد مستشارى الرئيس الأمريكى ويلسون اقترح استبدال كلمة الشعب اليهودى بكلمة الجنس اليهودى التى كانت واردة أصلا فى التصريح . وكان له ما أراد ، وصدر التصريح الرسمى كما نعلم يتحدث عن تأسيس وطن قومى للشعب اليهودى .

هكذا بدأ الوفاق بين الصهيونية وبين السياسة الأمريكية . وقد وجدت

الحركة الصيهونية فى القاضى برانديس مستشار الرئيس الأمريكى صديقا متحمسا، حمل إلى البيت الأبيض رسالة من وايزمان فى ١٩١٨/١/١٤ ، يقول فيها :

« إن فلسطين التى ستخلقها بريطانيا العظمى وتساعدها أمريكا تعنى ضربة مميتة توجه إلى السيطرة الإسلامية البروسية الطوارنية على الشرق . ويجب أن يكون واضحاً كل الوضوح أن ثمة ارتباطاً كليا بين المصالح الأمريكية والبريطانية والصهيونية . . . » .

وقد كانت هذه الاستراتيجية هى القاعدة التى انطلقت منها الصهيونية فى التحالف مع بريطانيا أكبر قوة استعمارية فى العصر حتى الحرب العالمية الثانية ، هى نفس الاستراتيجية التى استوجبت تغيير التكتيك ونقل خطوط حركة الصهيونية وولاءها وصلتها من بريطانيا إلى أمريكا ، تلك القوة التى فرضت نفسها منذ الربع الثانى من هذا القرن والتى بدأت فيها القوى الاحتكارية المتحكمة بسياستها تمد بصرها بالأطماع إلى مصالح وموارد إقتصادية ضخمة فى الوطن العربى .

ولم يكن اعتبار المصالح من قبيل الأمل أو حديث المستقبل بقدر ما كان ضرورة يمليها الواقع آنذاك . فالشركات الأمريكية اقتحمت المصالح البترولية فى العراق سنة ١٩٣٤ مع الشركات الإنجليزية والفرنسية . وانفردت أمريكا تماما ببترول السعودية حيث حصلت على امتياز سنة ١٩٣٣ ثم تناصفت مع بريطانيا بترول الكويت ومناطق الخليج العربى سنة ١٩٣٤ . وكان لنمو المصالح الاحتكارية الأمريكية الهائلة ولإدراكها احتمالات المستقبل الواعدة بالمزيد من الثروات البترولية فى المنطقة العربية ، كان لذلك ولاشك أكبر الأثر فى التشبث جيدا بالسوط الصهيونى فى يد المصالح الاستعمارية وفى وراثة الوصاية البريطانية على الحركة والأطماع الصيهونية .

وعلى الجانب المقابل أدركت الصهيونية أن قيادة المعسكر الغربى سوف تتحول لصالح الولايات المتحدة خاصة وأن بريطانيا إبان الثلاثينات كانت تحاول مداراة

عرب فلسطين حفاظاً على مصالح بريطانيا نفسها فى المنطقة العربية ، مما أحنق العسكرية الصهيونية التى تهدف باستمرار إلى مساندة كاملة ودعم لا يتزعزع مهما كانت المبررات. ومن هنا نجد أن للصهيونية أهدافها المرسومة ولها مصالحها الخاصة بها، وهى تستثمر كل إمكانات القوى الاستعمارية لخدمة هذه المصالح والأهداف لكنها حين تلمح تناقضا ولو يسيرا بين أهدافها وبين خطط القوى الاستعمارية تبدأ فى العمل بلا توان لخدمة مصالحها هى .

وقد استفادت الحركة الصهيونية من شبهة التناقض مع بريطانيا فى المسارات التالية :

أولا : أججت الزعامات الصهيونية مشاعر الحقد بين جماعات اليهود ،وصورتهم فى شكل الجماعة المعزولة عن العالم المطاردة من كل القوى ، والمطالبة بالانضواء تحت أكثر التجمعات والمنظمات حقداً وعنصرية وتطرفا وإرهابا ، كى يحافظوا على مجرد الحياة بل الأحلام فى المستقبل والأطماع .

ثانياً : صورت تناقضها الثانوى مع الاستعمار البريطانى على أنه حركة تحرير وطنى يهودية ضد انتداب بريطانى على فلسطين أرض الميعاد ، لتضفى بطولات وأمجادا على الإرهاب الصهيونى المنظم منذ أوائل الأربعينات . واتخلص إلى نتيجة معكوسة يعبر عنها مناحم بيجين بقوله : « أن تقسيم الوطن غير شرعى ولن يعترف به أبدا وتوقيع المؤسسات والأفراد على اتفاقية التقسيم باطل وهو لن يلزم الشعب اليهودى بشيء ، القدس عاصمتنا وستبقى كذلك إلى الأبد أرض إسرائيل سوف يسترجعها شعب إسرائيل .. الأرض كلها وإلى الأبد » .

ثالثاً: مارست القوى الصهيونية مختلف الضغوط على الولايات المتحدة بواسطة وسائلها العديدة الدبلوماسية والإعلامية والصداقات وثيقة الصلة بدوائر البيت الأبيض .

وبينما أشرفت بريطانيا على حل عصبة الأمم المكونة من غالبية أوربية على تأييد الاستعمار الصهيونى الأوربى لفلسطين ، تولت الولايات المتحدة قيادة أغلبية أوربية — أمريكا ، لتأييد إقامة دوله صهيونية استعمارية فوق الجسر الذى يربط بين أفريقيا وآسيا فى أرض فسلطيين العربية [١] .

الدعم الامريكى :

يصف بن جوريون فى دراسة له عن (بعث إسرائيل ومصيرها) دولة الاستيطان الاستعمارى فى فلسطين فيقول :

« أن دولة إسرائيل هى جزء من الشرق الأوسط من حيث العامل الجغرافى فقط وهو فى جوهره عامل جامد ، أما من حيث العوامل المصيرية الحاسمة مثل الطاقات الحركية والابداعية والإيمانية ، فإن اسرائيل جزء من اليهودية العالمية . من هذه اليهودية العالمية تسمتد اسرائيل قوتها وتستمد وسائل صياغة الأمة وتطوير الأرض ، وبقوة اليهودية العالمية إياها سوف تبنى اسرائيل مرارا وتكرارا» .

ولقد عبرت هذه الاستراتيجية عن نفسها ، بخطوط حركة تغيرت بتغيير الظروف ، بدأت بخط النمو فى أحضان القوى الاستعمارية البريطانية حتى الأربعينات ، ثم بالاتجاه صوب الولايات المتحدة حيث الثقل الأكبر والحركى لليهودية العالمية وحيث يعيش فى مدينة نيويورك وحدها من اليهود ما يفوق عدد سكان اسرائيل نفسها . ولقد دعم هذا الخط «الصهيونى — الأمريكى» بخط جديد آخر هو ماسمى بالعلاقة الخاصة بين فرنسا وإسرائيل ، والتى بدأت منذ عام ١٩٥٤ وتمثلت بالدرجة الأولى فى تسليح فرنسى لجيش الدفاع الاسرائيلى . وظهرت بوادر التغيير فى الخط الأخير على أثر إنهيار الجمهورية الفرنسية الرابعة ، ونكسة بريطانيا فى حرب

---

(١) فايز صايغ : الاستعمار الصهيونى فى فلسطين .

السويس سنة ١٩٥٦ . فكان الخط الجديد والذى تمثل فى تحالف مستتر بذكاء بين ألمانيا الغربية وإسرائيل تحت ستار تعويضات الحرب والاضطهاد النازى لليهود، ثم فى هدايا مجانية لإسرائيل على شكل شحنات من السلاح الألمانى موجه بأوامر البنتاجون فى الولايات المتحدة .

ويوضح ألن تايلور فى كتابه (الطريق إلى إسرائيل) نمط التحرك الصهيونى فى أمريكا على أساس مستويات ثلاثة يتحرك فيها المخطط الصهيونى وهى :

١ — كسب الشعب الأمريكى :

ونظمت لهذا الغرض لجان فى معظم الولايات الأمريكية وتفرع عنها ٣٨٠ لجنة على المستويات المحلية ، كان شعارها حقن كل شق فى الساحه الأمريكية بالقومية السياسية الصهيونية ، واستغلت فى سبيل ذلك كل ما فى الحياة الأمريكية من تناقضات . استغلت مثلا عدم احاطة المسيحيين الأمريكيين بالكتاب المقدس وإشاراته وتفسيراته الصحيحة ، واستغلت دعوى الاضطهاد النازى لليهود ، ثم الخلافات بين الحزبين الأمريكيين الكبيرين الجمهورى والديمقراطى وتنافسهما على أصوات القواعد اليهودية .

٢ — كسب الكونجرس :

وكانت هذه خطوة تالية بعد جذب العديد من قواعد الشعب الأمريكى إلى دائرة المطالب ثم النفوذ الصهيونى. ويكفى لكى نلمح مدى التركيز الصهيونى الدؤوب، أن يتحرك ٥٠٠ كاهن يهودى فى يوم واحد هو ٦ أكتوبر سنة ١٩٤٩ لعرض المطالب الصهيونية على دوائر الحكومة والكونجرس الأمريكى. ومن هنا نجد كلا الحزبين الكبيرين الممثلين بأغلبية فى الكونجرس يحرصان على وضع المطالب اليهودية الصهيونية ضمن برامجهما .

٣ — كسب الحكومة :

وكانت هذه هى الخطوة الثالثة فى سلسلة المنطق السليم : « قواعد ضاغطة ، ثم نواب يضغطون بدورهم على الحكومة ، ثم تأثير لكل الأساليب الملحة والتى بلغ بها وايزمان حد الصفاقة على دوائر البيت الأبيض حيث يأتى القرار السياسى الأخير بلا تراجع وبتأييد من القواعد» . ومن هنا — ولابد من الاعتراف بذكاء الخطة الصهيونية — يتخذ الزعيم السياسى القرار فى مصلحة الصهيونية ومخططها وهو يتصور أنه أنما يستجيب لقواعده الجماهيرية ويخدم بهذا حياته ومستقبله السياسى .

ولقد وجد الصهيونيون فى الرئيس الأمريكى هارى ترومان مناصرا قوياً لهم وساعدهم على ذلك عوامل عديدة ، أهمها :

أولا : ضيق الأفق السياسى لدى ترومان الذى تصور نفسه على أحسن الفروض يدافع عن اللبرالية وعن تحرر اليهود ، بينما كان فى الأساس يدافع عن حركة ضد اللبرالية تدعو لبناء كيان عنصرى توسعى .

ثانياً : حرصه على تأييد اليهود الأمريكيين له فى انتخابات الكونجرس سنة ١٩٤٩ ، حيث أصدر تصريحات بتأييد الهجرة اليهودية المتزايدة إلى فلسطين .

ثالثاً : المنطلق الأساسى الذى يصدر عنه ترومان، وكل رئيس للنظام الحاكم فى الولايات المتحدة . وهو أن قيام كيان للصهيونية فى الوطن العربى ، يتغذى بإمكانات القوة الرادعة ، كفيل بالمحافظة على المصالح الاقتصادية الأمريكية ، وعلى استمرار السياسة التى كانت تبنى نفسها على أساس غرور القوة وحماقتها — كما عبر السناتور فولبرايت — وتتلمس فى يدها عصا غليظة تلوح بها أمام الشعوب ردعاً لها وإرهاباً وإنذاراً كما عبر جون فوستر دلاس .

الصهيونية والأمم المتحدة :

هكذا كانت الأوضاع المجتمعة التى ربطتها المصالح الاستعمارية ، حينما طرحت قضية فلسطين المناقشة فى مايو ١٩٤٧ ، فى جلسة خاصة للجمعية العامة للأمم المتحدة . ولأول مرة يسمح للوكالة اليهودية بالاشتراك فى جلسة الجمعية العامة .

وكان السؤال الذى طرح نفسه ، والذى يشير فى الوقت نفسه إلى مفترق الطرق هو : هل هناك علاقة بين مشكلة اليهود فى العالم وبين فلسطين ؟ كما يقول الصهيونيون .. أم أن كلا منهما قضية مختلفة كما يقول العرب .

لقد وقفت الهند وتركيا وأفغانستان إلى جانب العرب ، بينما وقفت باقى الدول إلى جانب الصهيونيين .

وإن كانت هذه النتيجة مؤلمة وظالمة ومجحفة بالحق العربى ، فإنها بنفس القدر كانت معبرة عن أن صوت الحق العربى كان يتردد فقط فى قاع سحيق مظلم للرأى العام العالمى ، ولم يسمعه أحد لأنه كان على قدر كبير من الضعف وعدم القدرة على التأثير .

وتقرر تشكيل لجنة استقصاء من إحدى عشرة دولة . وقررت أغلبية اللجنة تقسيم فلسطين إلى دولتين : إحداهما عربية ، والأخرى يهودية يجمعهما اتحادا قتصادى .

وفى يوم ٢٩ نوفمبر عام ١٩٤٨ ، صوتت ٣٣ دولة تتزعمها أمريكا فى صالح القرار ، وصوتت ضده ١٣ دولة فقط . منها ست دول عربية كانت أعضاء فى الأمم المتحدة وقتئذ ، وأربع دول إسلامية هى باكستان ، افغانستان ، إيران ، وتركيا . وامتنعت عن التصويت عشر دول ، من بينها إنجلترا .

وهالل اليهود والصهيونيون للقرار ، وأعلن العرب أنهم لن يقبلوه وأنهم سرف يقاومونه بكل الوسائل والسبل .

والجدير بالذكر أن روسيا قد وافقت على مشروع التقسيم . وجانب من اللوم هنا يجب أن ينال حقائق الأوضاع فى الدول العربية ، التى كانت ترفض وجود أية علاقة أو حتى مجرد شبهة اتصالات مع روسيا فى ذلك الوقت .

ومن الحقائق أيضاً أن الاقتراع الأول على مشروع التقسيم قد فاز بأكثرية ٢٥ صوتاً — مقابل ١٣ صوتاً رفضته ، وامتناع ١٧ دولة عن التصويت ومع ذلك فإن هذه الأكثرية لم تكن تضمن له النجاح لعدم توفر أغلبية الثلث .

وعادت المناقشات والمناورات إلى أروقة الأمم المتحدة ، واستأنف العرب جهودهم لإحباط المشروع وقد بدأ أمل كبير فى إحباطه نظراً إلى تحول كبير من جانب الدول التى امتنعت عن التصويت إلى مهاجمة المشروع ومعارضته فى البيانات التى ألقاها مندوبوها . فقد أعلن مندوب الفلبين أنه تلقى تعليمات من حكومته تقضى بالاقتراع ضد مشروع التقسيم ، وكذلك أعلن مندوبو هايتى وسيام وليبريا ، وعدد آخر من الدول الأفريقية .

وقد بذلت الولايات المتحدة والصهيونية العالمية جهوداً جبارة لتأجيل الاقتراع الذى كان محدداً له جلسة ٢٦ نوفمبر ١٩٤٧ ، وقد استغل التأجيل إلى أقصى مدى للمناورات والضغوط ومحاولات الاقناع والتأثير . ويروى الذين شهدوا تلك المناورات أن الأمم المتحدة فى تاريخها السابق واللاحق لم تشهد نشاطاً كالذى دب فيها خلال اليومين السابقين على الاقتراع .

وخارج الأمم المتحدة تركز الضغط على الرئيس ترومان عن طريق زعماء الصهيونية فى أمريكا ومستشاريه باروخ وناثان وسوف وغيرهم . وكان هو أصلا ضالعاً مع الصهيونيين ومؤيداً لهم إلى أبعد مدى . ومن البديهى أن المولد الحقيقى لدولة إسرائيل ليس هو يوم ١٥ مايو عام ١٩٤٨ ، وإنما كان يوم ١٤ مايو ١٩٤٨ حينما كان الإستعمار البريطانى يطوى أوراقه ، وترومان يعلن فى نفس الوقت أنه على أتم الاستعداد للاعتراف الفورى بدولة إسرائيل متى تسلم طلباً بذلك . مما حمل « الياهو إيلات » ممثل الوكالة اليهودية وقتئذ على أن يرسل إلى ترومان على الفور ، ويقول له . . « أعلنت دولة إسرائيل » .

موجات الهجرة

خلفية تاريخية :

منذ قامت أسرائيل بقرار من الأمم المتحدة ، بل وحتى قبل إنشائها ، وهى تحاول أن تكون قوة جذب تجذب يهود العالم إلى أرض فلسطين .

وقد استندت فى ذلك على حجج تاريخية ودينية واجتماعية لا نعتقدبصحتها، وأذاعت على العالم أن هذه الرقعة من الأرض هى أصلا موطن اليهود . وعندما استولت سنة ١٩٨٤ على فلسطين ، أوهمت العالم أنها فعلت ذلك نتيجة ما اسمته « حرب الاستقلال » التى خاضتها . وسيطرت هذه الفكرة على عقول الغرب حتى أن كافة الكتابات ووسائل الإعلام الغربية تقرن قيام إسرائيل بحرب الاستقلال المزعومة .

وهذه نقطة جوهرية فى تاريخ إسرائيل وفى حياتها نجحت فى أن تروجها للعالم ضد حقائق التاريخ ، وضد الواقع والمنطق .

ذلك أن حرب الاستقلال تعنى وجود شعب يقطن رقعة من الأرض يمتلكها ويعيش عليها ، ثم يغير عليه آخرون ويحتلون الأرض بالقوة ، فيحارب أهل البلاد المعتدى عليهم من أجل إخراج المغتصب والحصول على استقلالهم وحريتهم، مثلما حاربت الجزائر من أجل إخراج الفرنسيين ، أو مثلما حاربت الولايات المتحدة من أجل إخراج الإنجليز ، ومثلما تحارب أنجولا من أجل التخلص من الإستعمار البرتغالى .

ولم يكن هذا الوضع بالنسبة لإسرائيل ، فأرض فلسطين لم تكن ملكا لليهود هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن أغلب سكان أسرائيل ـ على نحو ما قدمنا ـ قد نزحوا إليها من خارجها .

وقد يكون من الأستطراد المقبول فى هذا المجال أن نعود إلى الوراء ـ بل إلى أغوار التاريخ ـ فى الحديث عن هذه النقطة بالذات . وذلك للأهمية التى أعطيت

لهذه الحجة التاريخية فى إنشاء دولة إسرائيل على أرض فلسطين ، وفى استقدام يهود العالم إليها .

وحسب رأى علماء التاريخ غير المدون فإن البشر سكنوا أرض فلسطين حوالى سنة ٢٠٠٫٠٠٠ قبل الميلاد وكانوا من الصيادين، وعرفوا النار سنة ١٥٠٫٠٠٠ق.م، ودجنوا الحيوانات ومارسوا الرعى فى الفترة ما بين ١٢٫٠٠٠ و٦٫٠٠٠ ق . م . وفى نحو هذه السنة ـ ٦٠٠٠ ق . م ـ نزل بعض سكان الجزيرة العربية فلسطين واحتلوها واستقروا بها وأنشأوا حضارة العصر الحجرى، وصنعوا الخزف حوالى عام ٥٠٠٠ ق . م . واستعملوا النحاس حوالى ٤٠٠٠ ق . م . ، فكانت بذلك من أقدم المناطق التى ظهرت فيها حضارة .

أما دراسة التاريخ المدون فتدلنا على أنه فى نحو سنة ٣٠٠٠ إلى ٢٥٠٠ قبل الميلاد، استقرت قبائل الأموريين الكنعانيين فى فلسطين قادمة من الجزيرة العربية، أى أن الكنعانيين كانوا من الجنوب العربى حسب رأى علماء الآثار وعلماء الأجناس. ومنذ ذلك التاريخ توالت أحداث المنطقة على صورة نوردها بإيجاز شديد.

ففى سنة ١٨٠٥ ق. م . وأثناء وجود الكنعانيين جاءت هجرة النبى ابراهيم من العراق إلى فلسطين . وفى نحو ١٦٥٦ ق . م . نزح أحفاد ابراهيم من فلسطين إلى مصر . وفى نحو ١٥٠٠ ق . م . استقرت القبائل الآرامية فى شمال الشام وجنوبه الشرقى قادمة من الجزيرة العربية . وفى نحو ١٦٧٥ إلى ١٥٨٠ ق . م . حكم الهكسوس مصر ، وقبل انهيار حكمهم سقطت شاروحين المدينة الفلسطينية فى يد القوات المصرية .

ونحو ١٤٧٩ ق.م. سقطت مجدو بيد المصريين ، ونحو ١٣٧٥ ق.م. تعرضت فلسطين لغارات البدو ، وفى نحو ١١٨٦ ق . م. أغار اليهود على فلسطين واستولوا على أريحه . ونحو ١١٨٤ ق.م. نزل الفلسطنيون الآتون من كريت فى الساحل الجنوبى «غزة» وأدخلوا معهم صناعة الحديد. وسنة ١١٥٩ ق. م. تقلص النفوذ المصرى عن فلسطين وطوال هذه السنوات كان الحكم فى يد الكنعانيين .

وكانت القبائل الأثنى عشر تسكن مصر. وفى حوالى القرن الحادى عشر قبل الميلاد، وفى أيام حكم أحد الفراعنة — هناك اختلاف حوله — خرج اليهود من أرض مصر بقيادة النبى موسى. وتاهو فى الصحراء أربعين عاما، ثم انتخب طالوط شاؤول ملكا.

وتأسست أول مملكة لهم فى جزء من الأرض سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد، ثم انتهى حكم سليمان وداود. وانقسمت هذه المملكة سنة ٩٢٣ ق. م. إلى قسمين أحدهما يهودا والآخر إسرائيل. وهى مقاطعات صغيرة وسط فلسطين. وفى سنة ٨٥٣ ق. م جاء الأشوريون إلى بلاد الشام. وفى سنة ٣٧٢ ق. م. خضعت فلسطين لهم، وفى سنة ٧٢٢ ق. م. زالت مملكة إسرائيل تماماً. أى أنها لم تقم طوال هذه المدة إلا فى منطقة محدودة من الأراضى **ولمدة حوالى سبعين عاما فقط**.

وفى سنة ٦٠٨ قبل الميلاد عاد الحكم المصرى إلى فلسطين. وفى سنة ٦٠٥ ق.م. جاء الكلدانيون إلى بلاد الشام. وفى ٥٨٦ زالت مملكة يهوذا أيضاً، وخربت القدس بفعل الكلدانيين وملكهم نبوخذ نصر حسب القصة الشهيرة فى كتب التاريخ والكتب الدينية.

وفى سنة ٥٣٨ قبل الميلاد فتح الفرس فلسطين. ثم حكمها الإسكندر فى ٣٣٢ ق. م. ثم البطالسة ٣٠١ ق. م. ثم السلوقيون ١٩٨ ق. م.، ثم الرومان فى ٦٣ ق. م. ثم الفرس فى ٤ ق. م. ثم عاد الحكم الرومانى سنة ٣٧ ق.م.

وفى سنة ٤ قبل الميلاد توفى هيرودس. ثم ولد السيد المسيح. وفى سنة ٧٠ ميلادية ضرب تيتوس القدس وطرد اليهود. وفى ١٣٥ ميلادية اخمدت ثورة بركوكب اليهودى التى قام بها ضد الرومان وتشتت اليهود فى أقطار العالم بعضهم أخذه بنوخذ نصر أسرى إلى بابل، والجزء الآخر فر هاربا لمصر وغيرها من الدول وكون جاليات يهود « الدياسبورا » وهى كلمة يونانية تعنى التشتت. وفى سنة ٣٧٧ ميلادية احتلت زنوبيا ملكة « تدمر » ــ وهى مدينة فى وسط سوريا ــ أرض فلسطين.

وبعدها تعاقب الفرس والرومان إلى أن جاء العرب المسلمون سنة ٦٣٦ ميلادية واستمر أهل فلسطين مسلمون ومسيحيون يعيشون فيها معا جنباً إلى جنب .

ويتبين من هذا العرض للتاريخ البعيد أن العرب الكنعانيين سكنوا فلسطين على مدى التاريخ المدون. وخلال فترات قصيرة من التاريخ جاء العبرانيون فسكنوا أجزاء منها، وانقطعت صلتهم بها تماما منذ القرن الثانى الميلادى.

ويرتبط هذا التاريخ البعيد لفلسطين بالتاريخ الحديث .فقصة فلسطين فى التاريخ الحديث هى فى جوهرها استمرار لهذا النزاع ومحاولة اليهود العودة إلى الأرض التى فروا منها . وقد وعدهم أنبياؤهم ـ رغبة فى التخفيف عنهم فى أسر بابل ـ بهذه العودة فأصبحت فلسطين من وجهة نظرهم هى أرض الموعد. وبدأت هذه العودة تتطور من عودة روحيه إلى عودة مادية ، ومن عودة إلى الأرض التى سكنوها إلى العودة للأرض برمتها، ومن العودة الدينية للعودة السياسية، ومن العودة إلى الحياة فيها إلى العودة لاحتلالها برمتها، ثم إلى قصر جنسية هذه الدولة على اليهود الخالصين.

لقد منحنا اهتمامنا فى الصفحات السابقة إلى تقصى تاريخ اليهود فى فلسطين . والآن نحاول أن نرى جانباً من الصورة داخلها . إن الحديث عن المجتمع اليهودى داخل فلسطين يتطلب منا إعطاء فكرة مختصرة عن اليشوف « Yishof » وهو الإسم الذى أطلق على هذا المجتمع قبل قيام دولة إسرائيل .

الموجة الأولى للهجرة :

الصعود الاول Aliyah : ١٨٨٢ — ١٩٠٣

إن المدخل الطبيعى لسرد قصة اليشوف، يتطلب بالضرورة وصف « العاليوت » أو موجات الهجرة المتوالية التى أسهمت فى تكوين اليشوف . لقد استمرت موجة الهجرة الأولى من عام ١٨٨٢ إلى عام ١٩٠٣ . وقد قدم إلى إسرائيل خلال هذه الموجة ، أو « صعد » إليها كما يقول اليهود ، حوالى ٢٥ الف يهودي . وقد

كان معظمهم من أوربا الشرقية . وعلى الرغم من أن هؤلاء اليهود قد سموا فيما بعد بالرواد الأوائل ، فإن إنجازاتهم فى فلسطين كانت تافهة وغير مجدية .

ولقد تبخر حماسهم بسرعة بسبب الظروف التى قابلتهم ، وبسبب عدم خبرتهم بالزراعة ، فتحول معظمهم إلى حياة أقرب إلى حياة المستعمرين منها إلى حياة الرواد . ومع بداية عام ١٩٠٠ لم يكن بالقرى القليلة التى أسسوها سوى ٤٧٣ عاملا يهوديا . فقد تحول آلاف اليهود الآخرين إلى العمل فى المدن ، أو أصبحوا من أصحاب المزارع يستأجرون اليد العاملة العربية ، أو عادوا مرة ثانية إلى روسيا بأعداد غير قليلة[١] .

الموجة الثانية : ١٩٠٤ — ١٩١٣

استغرقت موجة الهجرة الثانية عشر سنوات ، وصل خلالها إلى فلسطين حوالى ٤٠ ألف مهاجر يهودى جدد . وهو معدل يزيد على ضعف معدل الهجرة الأولى . وإذا كان عدد المهاجرين اليهود حتى ذلك الوقت قد بلغ ٦٥ ألفاً تقريباً ، فإنهم لم يمثلوا سوى جزء صغير جداً بالنسبة لأكثر من مليونين ونصف مليون يهودى تركوا أوربا الشرقية إلى الغرب من عام ١٨٨٢ إلى ١٩١٤ ، وقد تكونت كلتا الموجتين للهجرة أساساً من المهاجرين القادمين من روسيا ، ولكنهما اختلفتا فى جوهرها . فموجة الهجرة الثانية تستوجب منا اهتماما خاصاً بسبب دورها الحاسم فى تكوين شخصية اليشوف .

وتوجد ثلاثة عوامل توضح الاختلاف بين الهجرتين الأولى والثانية . نميزها فى الآتى :

١ ـ أن أفراد موجة الهجرة الثانية كانوا قد تأثروا تأثراً شديداً بالايديولوجيات الإشتراكية التى أخذت فى النمو وقتئذ .

(١) ليونارد ج. فين ، السياسة فى اسرائيل ،(القاهرة)، ص٣٢ وما بعدها

٢ ـ أن وفود الهجرة الثانية إلى فلسطين ، ذهبوا إليها بعد استقرار أفراد الهجرة الأولى بها من ناحية ، وبعد تكوين المنظمة الصهيونية من ناحية أخرى وهذا يعنى أنهم كانوا أكثر شحناً معنوياً ونفسياً ، وأن مشاكل التكيف كانت قد حلت جزئياً .

٣ ـ أن الأعداد القادمة مع الموجة الثانية كانت من الكبر ـ نسبياً ـ بحيث خففت من تلك العزلة الكاملة للروح المعنوية.

وعلى الرغم من ضخامة الأعداد التى هاجرت إلى فلسطين حتى ذلك الوقت ، فقد بقى هؤلاء المهاجرون غرباء على المجتمع الفلسطينى ، يتملكهم الإحساس بأنهم دخلاء عليه . فقد كانت الحياة فى فلسطين تتطلب أكثر من مجرد الوجود المادى لليهود فيها . فقد كان على المهاجرين أن يقنعوا أصحاب المزارع باستخدامهم وتكوين طبقة عاملة منهم . كما كان عليهم أن ينشئوا المستعمرات (الكيبوتز) ويتولوا شئون أمنها ويقيموا مجتمعاً يعتمد على نفسه . وكانت هناك صعوبة جمة ، فى التحدث باللغة العبرية ولم تكن لغة أصلية سوى بالنسبة للقليلين منهم .

الموجة الثالثة : ١٩١٩ ـ ١٩٢٢

بوصول الموجة الثالثة من المهاجرين إلى فلسطين (بلغ عددهم حوالى ٣٥ ألفاً) ازداد مجتمع « اليشوف » تعضيداً . وكان أغلب المهاجرين ـ كسابقيهم ـ من الروس المعوزين . ومع ذلك فقد تميزوا عن سابقيهم بارتباطهم القوى بالحركة الصهيونية . وما لبثوا أن تآزروا معهم على التوسع فى بناء المستعمرات ومواجهة الواقع الفلسطينى القائم . وخلال هذه الفترة أنشىء الهستادروت ، وهو اتحاد العمال الرئيسى فى إسرائيل .

وقد اعتبر هؤلاء المهاجرين أنفسهم ثواراً ضد سلوك وتقاليد المنفى « الدياسبورا » الذى جاءوا منه حسب عقيدتهم ، وضد تقاليد وسلوك المجتمع اليهودى القديم فى

للسطين . ولم ينظروا إلى أنفسهم كمهاجرين أو مستعمرين غاصبين ولكن كرواد يصرون على قطع كل صلة لهم بالماضى قطعاً جذريا . وتركز كل اهتمامهم فى خلق مجتمع يعتمد على الاكتفاء الذاتى . وفى تلك الأثناء ساعدت التطورات السياسية خارج فلسطين على تقوية نزعات هؤلاء المهاجرين. ففى عام ١٩١٧ صدر وعد « بلفور » وعندما صفيت الإمبراطورية العثمانية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، ومنحت بريطانيا سلطة الانتداب على فلسطين من قبل عصبة الأمم ، أكتسب هذا الوعد أهمية كبرى .

وبالرغم من هذا ، ففى نهاية موجة الهجرة الثالثة ، كان مجتمع اليشوف لا يزال يبدو غير ناضج وكأنه مشروع هزيل سريع الزوال . فقد كان سكانه ٨٥ ألف نسمة ، أى أقل من ١ ٪ من تعداد يهود العالم ، وحوالى ١٠ ٪ فقط من تعداد سكان فلسطين العربية .

وقد قامت بريطانيا عند توليها سلطة الانتداب بتقسيم فلسطين إلى قطاعين إداريين يفصلهما نهر الأردن . ومنذ ذلك الوقت أصبح القطاع العربى يطلق عليه اسم فلسطين . وقد تركزت الجهود الصهيونية على هذا القطاع .

الموجة الرابعة : ١٩٢٣ — ١٩٢٥

أسهمت موجة الهجرة الرابعة كثيراً فى تدعيم أسس مجتمع اليشوف . فقد كانت أعداد المهاجرين أكثر من سابقتها فى الموجات السابقة ، إذ بلغت حوالى ٦٠ ألفاً من المهاجرين. وكانت هذه الموجة على خلاف سابقاتها مكونة فى الغالب من مهاجرى الطبقة المتوسطة البولنديين الذين أقلقتهم السياسة البولندية . وقد اتجه معظم هؤلاء إلى المناطق الحضرية فى فلسطين .

وبالرغم من أن موجات الهجرة الأربع الأولى قد أسفرت عن زيادة تبلغ ٦٠٠ ٪ فى حجم اليشوف ، إلا أن مدى سرعة تدفق الهجرة كان مخيباً لآمال الحركة الصهيونية . فمن بين عدة ملايين من اليهود الذين تركوا بلادهم الأصلية بين

عامى ١٨٢٣ ، ١٩٣٢ ، وفد إلى فلسطين أقل من مائتى ألف منهم فقط ، وكانت الولايات المتحدة أكثر جذبا وجاذبية فى نظر اليهود .

ويلاحظ أنه بين عامى ١٩٢٧ ، ١٩٢٨ ترك فلسطين بالفعل عدد من اليهود أكبر من عدد من القادمين إليها. وبحلول عام ١٩٣٢ كان حوالى ١٧ ٪ فقط من تعداد سكان فلسطين من اليهود . ولم يكن هذا تزايدا خطيرا بالنسبة للحكم الذاتى المستقل المأمول فحسب ، بل أنه كذلك قد أثار تساؤلات خطيرة بالنسبة للافتراضات الأساسية للايديولوجيات الصهيونية .

الموجة الخامسة : ١٩٣٢ — ١٩٣٩

شهدت هذه الفترة زيادة حادة فى سرعة الهجرة بين عامى ١٩٣٢ و ١٩٣٩، وهى سنوات موجة الهجرة الخامسة . وكانت أمريكا وقتئذ قد أغلقت أبوابها فى وجه الهجرة حتى عام ١٩٣٦، بينما كانت أوربا تمر بفترة معاناة شديدة. ونتيجة لذلك وفد إلى فلسطين قرابة ٢٢٥ ألف مهاجر خلال هذه الفترة ، من بينهم عدد كبير من المهنيين . وعند نهاية تلك الفترة اقترب تعداد مجتمع اليشوف من نصف مليون مهاجر ، وشكل حوالى ٣٠ ٪ من عدد السكان .

وخلال هذه الفترة أخذت الوكالة اليهودية تمارس دوراً شبه رسمى فى الشئون الاقتصادية والاجتماعية لليهود بالتعاون مع حكومة الانتداب . وأصبح من الواضح أن اليشوف أصبح له قوته الذاتية بعيدا عن قوة المنظمة الصهيونية وانتقلت زعامة الحركة الصهيونية بشكل قاطع إلى فلسطين .

وبالرغم من أن مجتمع اليشوف كان قد بدأ يتطلع إلى النمو والاستقرار ، فقد واجه مقاومة عربية شاملة ، أبرزها ما وقع ١٩٢٩ ، وكذلك سنة ١٩٣٦ . وقد استهدفت الحركة العربية والمقاومة والاضطرابات التى وقعت إرغام بريطانيا على إعادة النظر فى تعهدها بإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين .

وفى سنة ١٩٣٩ ، لم يكن أحد يستطيع أن يتنبأ بالمأساة التى مر بهـا يهود أوربا خلال السنوات الست التالية. لقد قتل قرابة ستة ملايين يهودى أثناء الحرب العالمية الثانية ، وبموتهم تبدد أهم احتيـاطى لتدعيم المخطط الصهيونى . أما يهود روسيا البالغ عددهم مليونان ونصف فإن فرصتهم فى الهجرة كانت محدودة. كذلك كان المجتمع اليهودى الأمريكى الذى أصبح فجأة أكبر المجتمعات اليهودية فى العالم ، فى سبيل الاندماج السريع فى أسلوب الحياة الأمريكية .

وكان واضحاً عند هذا الحد أن على مجتمع اليشوف أن يستعد لاستقبال أعداد ضخمة من اللاجئين أثناء وبعد الحرب، فلم تـكن هناك دولة أخرى على استعداد لتوفير الملجأ اللازم لهم ، بالإضافة إلى تشجيـع الحركة الصهيونيـة الهجرة الى إسرائيل .

أن أكثر من نصف المهاجرين الذى قدموا إلى فلسطين منذ عام ٤٨ لم يكونوا من مواليد أوربا، بل من مواليد الشرق الأوسط. والواقع أنه منذ عام ١٩٥١ وخلال عام ١٩٥٦ وعام ١٩٦٢ ، كان أكثر من ٧٠ ٪ من المهاجرين القادمين شرقيين .

اليهود السوفيت :

اتجهت إسرائيل بعد أن استقدمت ما أمكنها من أوربا — أثناء النـازية وبعدها — إلى مصدرين أساسيين لتستمد منهما المهاجرين ؛ الدول العربية حيث اشعلت الحروب العداء السياسى للصهيونية ، وإلى الاتحاد السوفيتى حيث أمكنها أن تلعب على النواحى الدينية فى اليهود السوفيت . أما فى أوربا وأمريكا حيث يشعر اليهودى بالأمن ويتمتع بالثراء فلم يكن لديها ماتقدمه له إذا ماترك بلاده. واكتفى هؤلاء اليهود بزيارة إسرائيل وبمساندتها والتبرع لها .

واتجهت إسرائيل إلى الاتحاد السوفيتى الذى أصبح على حد تعبيرهم « الشريان الرئيسى — الذى يمد إسرائيل بالمواطنين » . واستخدمت من أجل ذلك نفوذ أصدقائها الذين يعيشون فى أوربا فى رفاهية وثراء ويشعرون لذلك بالذنب والإثم .

وأستعملت نفوذ أنصارها الذين يتطلعون فى الولايات المتحدة إلى أصوات اليهود الانتخابية ، وحركتهم لإثارة هذا الموضوع فى كل مناسبة ومن غير مناسبة ، وأخذ السناتور جاكسون الذى يطلق عليه بحق فى أمريكا « الصديق الأول لإسرائيل » أخذ — وعينيه تلمح وتحصى الأصوات الانتخابية التى يمكن أن يحصل عليها عند ترشيحه للرئاسة — يطالب بألا توافق الولايات المتحدة على اعتبار الاتحاد السوفيتى متمتعاً بمزايا « الدولة الأولى بالرعاية » إلا إذا فتح الأبواب أمام اليهود السوفيت للهجرة إلى إسرائيل . ولم يفكر جاكسون — وهو مسيحى — أن يثير نفس المطالب بالنسبة للمسيحين السوفيت الذين يرغبون فى الهجرة من الاتحاد السوفيتى .. وبذلك أصبح اليهودى فى الاتحاد السوفيتى يتمتع بمكانة خاصة لا تتمتع بها الأقليات الأخرى من حيث السماح لهم بالهجرة .

وخلال سنة ١٩٧٢/٧١ هاجر من الاتحاد السوفيتى إلى إسرائيل عدد من اليهود يفوق مجموع الذين سمح لهم بالهجرة من غير اليهود خلال أربعين عاما كاملة . وكان من المنتظر طبقاً لخطة التهجير أن يستقر ٣٥٫٠٠٠ سوفيتى يهودى فى إسرائيل سنة ١٩٧٣ . وهؤلاء السوفيت الذين وعدوا بالثراء وبالراحة وبالأمان كان يتم تسكينهم أساساً — رغم اعتراضاتهم واحتجاجاتهم — فى المعسكرات التى أقامتها إسرائيل فى الأراضى التى احتلتها سنة ١٩٦٧ . وخرجت التقارير تصف كيف يكره اليهود السوفيت حياة الكيبوتز ويفضلون عليها الحيــاة فى بلادهم التى تركوها . وبدأ بعضهم يتركها فعلا بعد أن تقوضت أحلامهم فى الحياة « الرغدة » وبقى بها البعض الآخر اكتفاءً بالحياة « الآمنة » .

ويوضح الجدول رقم (١) بيانات عن المهاجرين . وفيه نلاحظ أنه بين عامى ١٩١٩ و١٩٤٨ ، كان المهاجرون إلى فلسطين من أفريقيا وآسيا يمثلون ١٠٫٤ ٪ من مجموع المهاجرين . وأنه بين عامى ١٩٤٨ و١٩٦٢ ، ازدادت نسبة الشرقيين إلى ٥٤٫٦ ٪ .

جدول رقم (١)

المهاجرون حسب القارة الأصلية وسنة الهجرة

التاريخ	الأعداد الكلية			النسب المئوية		
	أفريقيا وآسيا	أوروبا وأمريكا	المجموع (أ)	أفريقيا وآسيا	أوروبا وأمريكا	المجموع (ب)
١٩ -- ١٩٤٨	٤٤,٨٠٩	٣٨٥,٠٦٦	٤٥٢,١٥٨	١٠ر٤	٨٩ر٦	١٠٠
٤٨ -- ١٩٦٢	٥٧٥,٧٥٥	٤٧٩,٦٠٥	١,٠٧٤,٧٩٢	٥٤ر٦	٤٥ر٤	١٠٠
١٩٤٨ (من ٥- ١٤)	١٢,٩٣١	٧٧,٠٢٢	١٠١,٨١٩	١٤,٤	١٤,٦	١٠٠
١٩١٩	١١٠,٧٨٠	١٢٣,٠٩٧	٢٣٩,٠٧٦	٤٧,٣	٥٢,٧	١٠٠
١٩٥١	٨٣,٢٩٦	٨٥,٦٣٨	١٦٩,٤٠٥	٤٩,٦	٥٠,٤	١٠٠
١٩٥٥	١٢٣,٤٤٩	٥٠,٢٠٤	١٧٣,٩٠١	٧١,١	٢٨,٩	١٠٠
١٩٥٢	١٦,٧٢٥	٦,٦٤٧	٢٣,٢٧٥	٧٥,١	٢٨,٤	١٠٠
١٩٥٣	٧,٧٦٠	٢,٥٧٤	١٠,٣٤٧	٧١,٦	٢٤,٩	١٠٠
١٩٥٤	١٥,٤٩٣	١,٩٦٦	١٧,٤٧١	٨٨,٧	١١,٣	١٠٠
١٩٥٥	٣٣,٧٣٦	٢,٥٦٢	٣٦,٣٠٣	٩٢,٩	٧,١	١٠٠
١٩٥٦	٧٣,٦١٧	٧,٣٠٥	٥٤,٩٢٥	٨٦,٧	١٣,٣	١٠٠
١٩٥٧	٢٩,٣٦١	٣٩,٧٦٣	٦٩,٧٢٣	٤٢,٥	٥٧,٥	١٠٠
١٩٥٨	١١,٤٩٠	١٤,٤٢٨	٠٥,٩١٩	٤٤,٣	٥٥,٧	١٠٠
١٩٥٩	٧,٦٣٥	١٥,٣٤٨	٢٢,٩٨٧	٣٣,٢	٦٦,٨	١٠٠
١٩٦٠	٦,٨٠١	١٦,٦٨٤	٢٣,٤٨٧	٢٩,٠	٧١,٠	١٠٠
١٩٦١	٢٢,٠٠٤	٢٤,٥٦٤	٤٦,٥٧١	٤٧,٣	٥٢,٧	١٠٠
١٩٦٢	٤٦,٦٧٧	٥٩,٧٩٣	٥٩,٤٧٣	٧٨,٥	٢١,٥	١٠٠
المجموع الكلى (من ١٩١٩ إلى ١٩٦٢)	٦٢,٥٦٤	٨٦٤,٦٧١	١,٥٢٦,٩٥	٤٣,٤	٥٦,٦	١٠٠

تضم مجموعات (أ) ٤١,٧١٥ مهاجرا لم تذكر قارة موطنهم الأصلى.

الفصل الثالث

مرحلة الغزو والتوسع

١٩٤٨ .....

عقب صدور قرار الأمم المتحدة بالتقسيم ، تلا ذلك عدة شهور من الاضطرابات والاحتجاجات العنيفة التي قام بها المواطنون العرب . وكانت بريطانيا قد تعمدت أن تترك الأمور دون حسم ، لتقدم فلسطين لقمة سائغة لليهود . ولما تصاعدت مظاهر العنف والاضطرابات قلق المجتمع العالمى ، وخاصة فى أمريكا . فبدأت إعادة التفكير بشأن قرار التقسيم . ولكن الصهيونيين لم يكونوا على استعداد للمساومة أو التأخير فى تنفيذ مخططهم . وعندما سحبت بريطانيا آخر جندى لها فى فلسطين فى مايو ١٩٤٨ ، بادرت الحكومة المؤقتة للدولة اليهودية بإعلان الاستقلال وفى ١٤ مايو ١٩٤٨ تم إعلان قيام دولة إسرائيل .

وعند هذا الحد تحولت الاضطرابات والقلاقل غير الرسمية إلى حرب رسمية. فقد قامت جيوش الدول العربية المجاورة بمهاجمة إسرائيل . واستمرت الحرب إلى

شهر مارس ١٩٤٩ ، وانتهت بتدخل الأمم المتحدة . وإذا كنا بصدد تقييم نتائج هذه الحرب ، فهناك نقطتان جديرتان بالتنويه :

الأولى : أن الحرب لم تقض على دولة إسرائيل أو تعيد الحكومة الشرعية إلى أصحاب الأرض الشرعيين . وبالتالى فإنها لم تحقق هدفها .

الثانية : أن إسرائيل فى نهاية الحرب لم تكن تقف عند الحدود التى فرضها قرار التقسيم . بل كانت قد تخطت تلك الحدود ووسعت مساحتها باغتصاب حوالى الثلث على حساب دولة فلسطين العربية كما حددها القرار .

لقد أدركت الدول العربية شعوباً وحكومات أبعاد المؤامرة التى تعرضت لها فلسطين ، وأن التحالف الإستعمارى الصهيونى قد نجح فى إحباط كل المحاولات السياسية التى بذلت فى الأمم المتحدة لإحقاق الحق العربى . ووجدت الدول العربية نفسها وجهاً لوجه أمام اغتصاب صارخ للأرض العربية ، فقررت أن تدخل الجيوش العربية فلسطين لتنقذ الأرض وتحمى المواطنين العرب .

وقد تمكنت الجيوش العربية ، رغم هزالها وارتباط حكوماتها ارتباطاً وثيقاً بالاستعمار الذى كان يتغلغل فى المنطقة العربية ، من أن تنطلق فجر يوم ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ لتسيطر على أريحا ، والقدس ، وباب الواد ، واللطرون ، واتجهت نحو اللد والرملة ، واقتربت من تحرير تل أبيب . وما أن اتجهت القوات العربية من السهل الساحلى من غزة إلى أسـدود ، ومن طولكرم ، وجنين ، ونابلس والخليل ، حتى أسرع الاستعمار العالمى بتوجيه من الولايات المتحدة إلى الإيعاز لكولومبيا يوم ١٦ مايو ١٩٤٨ ، لكى تقدم طلباً إلى مجلس الأمن لدعوة الدول الخمس الكبرى إلى التشاور فيما أسموه « الهجوم العربى على فلسطين » .

وفى اليوم التالى قدم مندوب الولايات المتحدة إلى مجلس الأمن مشروع قرار طلب فيه أن يعلن المجلس أن الموقف فى فلسطين يعد تهديداً للسلم ، وأن على جميع

الحكومات والسلطات الكف والامتناع عن كل عمل عسكرى وإصدار الأمر بوقف القتال خلال ٣٦ ساعة بعد إقرار المشروع ، واستطاعت الدول الكبرى أن تحصل على الموافقه على مشروع القرار ، وأتاحت بذلك فرصة موائمة لكى تعزز إسرائيل كيانها المصطنع على الأرض العربية .

وبتوقيع اتفاقية الهدنة بين مصر وإسرائيل، تلتها اتفاقيات مماثلة بين إسرائيل والدول العربية الأخرى. وهنا لا نجد متسعاً لتناول أحداث هذه الفترة التى ما زال جيلنا يعيها تماما بأسهاب ، وكيف أن الأوضاع التى سادت وقتئذ فى الوطن العربى قد جعلت مهمة إسرائيل فى تدعيم كيانها أكثر سهولة ، كما لا نجد داعياً للكلام بإسهاب عن العلاقات العربية الإسرائيلية التى لم تحرز أى قدر من التقدم أو التحسن خلال السنوات التى تلت ذلك ، بسبب روح الاغتصاب والتنكيل والصلف التى اتصفت بها سياسة إسرائيل .

لقد ذهبت إسرائيل منذ إعلان قرار التقسيم إلى الأخذ بسياسة التنكيل وبث الرعب والإبادة ضد الشعب العربى فى فلسطين. ولا يتسع المجال للإفاضة فى عرض تفصيلات المذابح التى ارتكبتها . فذابح بيت الخورى يوم ٥ مايو ١٩٤٨، ومذابح قرية الفرينون قرب صفة فى ٦ مايو ١٩٤٨ ، ومذابح بيت دارس عند منطقة غزة فى ١٣ مايو ١٩٤٨ ، ومأساة وادى عربة الذى يقع بين البحر الميت وخليج العقبة ، وهو صحراء جدباء قاسية ، حيث سيق العرب الفلسطينيون فى أفواج ضخمة للاعتقال والتعذيب ، ومذابح قرية شرفات وقلة فى ٩ فبراير سنة ١٩٥١ ، وقرية النجار التى دمرت بالقنابل فى ١١ يوليو سنة ١٩٥١، ومذابح عيد الميلاد فى بيت لحم يوم ٦ يناير ١٩٥٢، ومذابح قيعة فى ١٤ أكتوبر ١٩٥٣ ، وتدمير قرية نحالين الأردنية . . . كل هذه وغيرها شاهد على تاريخ إسرائيل الدموى فى فلسطين العربية .

بهذه الروح العدوانية بدأت إسرائيل تمارس وجودها فى المنطقة العربية . وكانت هذه الروح وهذا الأسلوب الذى لجأت إليه إسرائيل فى تدعيم كيانها

وتعزيز أمنها دلائل حية على طبيعة العقيدة الصهيونية ومقوماتها ، واتجاهها إلى محاولة قتل روح الأمل فى قلب الشعب العربى الفلسطينى . وقد تمكنت إسرائيل نتيجة علاقاتها بالدول الاستعمارية وقتئذ أن تحمل أمريكا وإنجلترا وفرنسا فى ١٢ مايو ١٩٥٠ ، على إصدار ما أسموه « البيان الثلاثى » ، لضمان حدود إسرائيل .

لقد كانت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ أعظم تحـد لإسرائيل منذ قيامها . ولقد كانت إسرائيل تعى هذا ، وتدرك أى مخاطر تنظرها بعد أن تخلصت مصر من الحكم الملكى واتجهت إلى إقامة مجتمع يقاوم سيطرة الاستعمار والرجعية ، ويتجه إلى البناء الاجتماعى والاقتصادى . وكان الاستعمار من جانبه يدرك الأبعاد الحقيقية للثورة العربية وخاصة فيما يتعلق بمصالحه فى المنطقة العربية .

لقد توهم الصهيونيون بعد حرب ١٩٤٨ أن اتفاقيات الهـدنة يمكن أن تكون مقدمة لمعاهدات « صلح » بين العرب وإسرائيل ، تبنى على الإقرار بالوضع القائم الممتاز لإسرائيل ، الدولة المسيطرة من ناحية ، والوكيل العام للمصالح الاستعمارية من ناحية أخرى . ولكن كارثة ١٩٤٨ لم تزرع اليأس فى قلوب العرب ، بل أوقدت فيها روح الثورة . فانهارت نظم رجعية عربية وظهرت على مسرح السياسة العربية قوى ثورية تقدمية ، وتبلورت خلال ذلك كله حقيقة لامراء فيها هى الثورة العربية الشاملة .

وكان عدوان ١٩٥٦ محاولة لضرب قلب الحركة الثورية قبل أن تنضج وتمتد . ومنذ أن أخفق العدوان ترعرعت فى اسرائيل « نظرية الحرب الوقائية » . وجوهر تلك النظرية هى أن الوقت ليس فى صالح اسرائيل . بل إنه يتضمن احتمالات تحقق أشكالا من الوحدة العربية فى إطار من التنمية الاقتصادية الشاملة والتقدم الاجتماعى . وبالتالى فإن إسرائيل قد تجد نفسها وقد أفلت من يدها زمام القوة ، بحيث تتبدد أحلام التوسع والسيطرة .

ومن ثم كان لابد من الإعداد العسكرى والاقتصادى والسياسى على أعلى مستوى ممكن لكسب حرب خاطفة تنزل بالعرب هزيمة ساحقة ، وتصيب مصر

بالذات بما يشل قدراتها ، بحيث يستسلم العرب فى النهاية لشروط إسرائيل . إن قادة إسرائيل يدركون تماما أن الوجود الإسرائيلى عدوان فى ذاته ، وأنه بالتالى يحمل فى طياته نذر تجدد الحرب ما دامت لدى العرب إرادة المقاومة والرفض . وقد قال موشى ديان فى خطبة له فى تل أبيب بتاريخ ٢٨ سبتمبر ١٩٦٨ :

« ليس صحيحاً أن العرب يبغضون اليهود لأسباب شخصية أو دينية أو عنصرية . إنهم يعتبروننا — وهم على حق من وجهة نظرهم — غربيين ، غرباء ، غزاة ، استولوا على بلد عربى ليجعلوا منه دولة يهودية » .

وترتيباً على هذا المنطق ، يرى أصحاب نظرية الحرب الوقائية من القادة الإسرائيليين أنه لا سبيل لمنع تجدد الحرب وضمان أمن إسرائيل ، إلا بحرب كاسحة تفقد القوات المسلحة العربية اتزانها وتسحقها وتفقد الشعوب العربية روح القتال . وكان عدوان ٥ يونية ١٩٦٧ هو الضربة المنشودة . وجاء النصر العسكرى الذى أحرزته إسرائيل فيها يفوق خيال قادتها ويتخطى كل آمالهم ، ومن ثم كان من الطبيعى أن يتوهم الإسرائيليون أنه قد قضى الأمر وتغلبت إرادة « يهوه رب الجنود » نهائيا على إرادة الشعب المختار ، وفتح الطريق لإعادة بناء إمبراطورية سليمان .

وكانت الحقيقة التى واجهتها إسرائيل يومى ٩ ، ١٠ يونية مخيبة لآمالها . فقد رفضت الجماهير العربية الهزيمة ، وأصرت على المقاومة وتقبل كل ما يمكن أن تعنيه المقاومة من تضحيات . وفى البداية اعتقد المخططون الإسرائيليون أن رد فعل الجماهير العربية ظاهرة عاطفية سرعان ما تتبدد أمام واقع الاحتلال للأرض العربية المرير وأعباء النضال الضخمة . ولكن سير الأمور فيما بعد كان يؤكد أن الأوضاع لم تستقر لإسرائيل فى المنطقة . فقد بدأت مع حرب ١٩٦٧ مرحلة جديدة من مراحل النضال العربى تزكيها إرادة الصمود والرغبة فى الكفاح والقتال وتحرير الأرض العربية .

ومع ذلك فإن إسرائيل بعد محنة ١٩٦٧ قد وجدت نفسها فى وضع أكثر ملاءمة وراحة . وكان هذا الوضع يؤكد نجاح مرحله الغزو والتوسع — من وجهة النظر الإسرائيلية — فى فرض حدود آمنه .

دولة فى بحث عن مواطنين

لقد قامت حرب ١٩٤٨ وانتهت بأن احتل اليهود قرابة ٧٠٪ من أرض فلسطين . أو بعبارة أخرى ، احتلوا كل فلسطين عدا قطاع غزة ، والضفة العربية لنهر الأردن ، ومنطقة اللحمة فى سوريا . وببداية هذه المرحلة دخل الصراع العربى الإسرائيلى مرحلته الثالثة ، مرحلة الغزو والتوسع . وخلال هذه المرحلة تزايد عدد اليهود فى فلسطين من ستمائة وخمسين ألفا عام ١٩٤٨ ، معظمهم من اليهود الأوربيين ، إلى مليونين ونصف المليون عام ١٩٦٧ ، منهم مليون من مهاجرى أوربا وأمريكا ، ومليون من يهود الوطن العربى .

ودراسة هذه المرحلة وفهمها فى إطارها السليم ، يمكن أن تتحقق بصورة أفضل إذا منحنا جانباً من الاهتمام لأفكار دافيد بن جوريون الزعيم الصهيونى الذى سعى جاهداً لإنشاء إسرائيل ، وكان أول رئيس وزراء لها ، والذى كرس حياته وجهوده ليحقق فكرة الدولة اليهودية التى كانت وقتئذ فى بحث جاد عن مواطنين لها .

لقد ولد دافيد بن جوريون فى روسيا تحت اسم دافيد جرين ، وكان هذا هو الاسم الذى حمله معه حينما ترك روسيا عام ١٩٠٦ ، ونزح بطريقة غير شرعية إلى يافا ، ليبدأ حياة جديدة هناك كرائد من رواد الصهيونية العالمية . وعلى أثر وصوله إلى فلسطين سلك تقليداً متبعاً لدى النازحين الأوائل فغير اسمه إلى دافيد بن جوريون.

وبدأ بن جوريون حياته فى فلسطين مغرما بالزراعة. ويقول إن العمل بالزراعة كان يمثل الحياة المثالية بالنسبة له ، واستوطن فى قرية بمنطقة الجليل . غير أنه بعد ذلك ترك الزراعة وعكف على تنظيم حركة العمل الصهيونية . وقد أثار نشاطه السياسي الحكومة التركية ، التى كانت فلسطين تخضع لها فى ذلك الوقت ،

فقررت نفيه خارج فلسطين ومنعته من العودة إليها . وذهب بن جوريون إلى أمريكا حيث تزوج هناك .

وحينما احتل الإنجليز فلسطين ، عاد إليها بن جوريون ، وتحول نشاطه تدريجيا من مجال العمل والعمال إلى التخطيط للحركة الصهيونية العالمية . وفى عام ١٩٢٠ أخذ بن جوريون يعمل جاهداً على تأسيس اتحاد العمال اليهودى . الذى نما وشمل الهستادروت ، أى اتحاد العمال . وانتخب بن جوريون مديراً للوكالة اليهودية التى تعتبر الذراع السياسى للحركة الصهيونية العالمية .

وفى وقت من الأوقات ، كان بن جوريون يعتقد أن العرب واليهود يمكن أن يعيشوا جنبا إلى جنب . ولكنه بعد ذلك غير من آرائه . وابتداء من عام ١٩٣٥ حصر كل تفكيره فى أن تصبح فلسطين دولة يهودية، بدلا من أن تكون وطنا مشتركا للعرب واليهود . وتحقيقاً لهذه الغاية كرس كل جهوده لتخطيط وتنظيم الهجرة المستمرة إلى فلسطين ، وبناء القوة العسكرية التى تمكنه من تحقيق هذه الغاية . وكان بن جوريون مقتنعاً أنه « بدون جيش يهودى لن تكون هناك دولة يهودية » .

لقد كان بن جوريون هو منشىء « الهاجاناه » أو الجيش السرى الإسرائيلى . وفى عام ١٩٤٢ استطاع أن يجمع التبرعات من يهود أمريكا لإنشاء هذا الجيش خلال اجتماع عقده فى فندق بلتيمور بمدينة نيويورك . وتحت زعامته خطط الصهيونيون ليحلوا محل الإنجليز فى الاستيلاء على فلسطين . وشجعوا الهجرة اليهودية المتزايدة من أوربا إليها ، وكذلك تزايد وتصاعد نشاط العصابات الصهيونية فيها .

وفى يوم ١٤ مايو ١٩٤٨ ، أعلن بن جوريون فى تل أبيب « قيام دولة يهودية فى أرض إسرائيل » . وهو نفس اليوم الذى غادر فيه آخر جندى بريطانى فلسطين ... وأخذ بن جوريون على عاتقه مهمة توحيد العصابات اليهودية التى

كانت تعمل فى فلسطين فى جيش واحد ، معلنا « أنه سوف يكون هناك جيش واحد ، ودولة واحدة ، وشعب واحد » .

لقد كان دافيد بن جوريون أكثر المتحمسين لتكوين الجيش الإسرائيلى ونظراً للخسائر التى منى بها اليهود خلال حرب العصابات وحرب ١٩٤٨ ، والتى بلغت فى تقديرهم ٦٠٠٠ قتيل ، ونظراً لقرب المدن الإسرائيلية من حدود إسرائيل كما صنعها قرار التقسيم ، فقد وضع بن جوريون إستراتيجية تعتنق مبدأ خطيرا وهو « **نقل الحرب الى ارض العدو** » ، حتى يتعرض الإسرائيليون لأقل خسائر فى الأرواح .

وكان بن جوريون يرى أن إسرائيل ليس لها فى العالم غير حليف واحد وفى هل الشعب اليهودى . ويقول : « إن إسرائيل هى الدولة الوحيدة فى العالم التى لا أقارب لها .. سواء من ناحية الدين أو اللغة أو الأصل .. كتلك القرابات التى تربط مثلا بين الدول العربية أو الأسكندنافية أو البوذية أو الكاثوليكية أو الأنجلو سكسونية . إننا شعب يعيش فى هذا العالم بمفرده» .

والصهيونى من وجهة نظر بن جوريون هو اليهودى الذى يريد العودة إلى جبل صهيون . وهو اليهودى الذى يقتنع بأن الحياة خارج إسرائيل هى حياة فى المنفى . وأنه قد آن الأوان لانتهاء عصر النفى والتشرد . ولا بد من العودة إلى إرض إسرائيل .

ويستطرد بن جوريون فى أفكاره فيقول فى دراسة مكتوبة : « إن مايربط بين اليهود ليس هو الدين اليهودى ، بدليل أن الحركة الصهيونية فيها يهود متدينون ويهود غير متدينين ويهود ملحدون لا يؤمنون بالله . ولا العنصر الواحد بعد التشتت الواسع بين اليهود فى شتى البلاد والقوميات. ولا اللغة الواحدة بدليل أن اللغة العبرية كادت تختفى تماما قروناً طويلة ، ومعظم يهود العالم لا يعرفونها ولا يتكلمونها . أن مايربط بين اليهود ويجعل باقى الصفات الأخرى كالدين واللغة قابلة

لأن تجمعهم من جديد ، هو صفة أساسية سياسية . هى . . رؤيا العودة .. الإيمان بأن الخلاص هو فى العودة إلى جبل صهيون حيث أقام داود معبده الأول . . . أى إلى أرض إسرائيل » .

والخلاصة التى يريد أن ينتهى إليها بن جوريون ، هى أنه بقيام دولة إسرائيل قد جاء الامتحان الحقيقى لكل يهود العالم .. فمن لا يعود منهم لا يكون «صهيونياً» ويعرض نفسه للذوبان فى مجتمعات أخرى غير يهودية . أى يعرض اليهودية نفسها للانقراض .

ويقول بن جوريون فى مؤتمر للصهيونية العالمية :

« إن مشكلة إسرائيل الكبرى هى الأمن . وأمن إسرائيل لا يحققه أى جيش مهما بلغ تسليحه . إنما يحققه أن يعود إلى إسرائيل بسرعة مليونين من اليهود على الأقل فى كل عام .. إلى أن تتم عودة يهود العالم أجمعين » .

وهذا اللون من الفكر لا يعتنقه بن جوريون وحده، وإنما يعبر عن وجهة النظر الأساسية التى تقوم عليها دولة إسرائيل . وتقول جولدا مايير فى محاضرة لها عنوانها « ماذا نريد من يهود العالم ؟ » :

« إن اليهودى الإنجليزى الذى ينشد بحكم إنجليزيته « حفظ الله الملكة » لا يمكن أن يكون صهيونياً فى الوقت نفسه » .

« إننى أصدق أن اليهود فى أمريكا كانوا يبكون فى لحظات الخطر التى أحاقت بنا . ولكننى أقول إن دموعهم لا تكفينا » .

« إنه بعد قيام دولة صهيون .. لا يمكن أن يعد صهيونياً إلا من يحمل حقائبه ويأتى على الفور » .

« يوجد فى روسيا ثلاثة ملايين يهودى . ولكن لا أحد يعرف هل يأتون إلينا يوما أم لا يأتون قط . ولكن يهود الدول الغربية الذين لهم مطلق الحق فى الحضور ، والذين يؤيدوننا إلى أقصى الحدود لماذا لا يأتون إلى إسرائيل؟ »

هكذا تذهب إسرائيل فى الضغط على يهود العالم الخارجى من أجل دفعهم إلى الهجرة إليها .

ومع ذلك فإن بعض المفكرين اليهود يعارضون هذه الأفكار، ولا يرون أن دولة إسرائيل هى مكانهم الطبيعى، وبعضهم كان يعارض فكرة قيام الدولة نفسها ويبررون ذلك بسببين :

١ — أن قيام دولة إسرائيل على الأسس التى تقوم عليها إنما يتم ضد حركة التاريخ التقدمية .

٢ — أن قيام دولة إسرائيل فى ذاته قد يكون سبباً فى اضطهاد اليهود فى الدول الأخرى.

ومع ذلك فإن هذه الأصوات قد ضاعت أو خفتت عقب نجاح قيام الدولة عام ١٩٤٨ .

ومن أمثلة هؤلاء المفكرين « سالو بارون » أستاذ التاريخ بجامعة كولومبيا بأمريكا إذ يقول : « أن بعض الصهيونيين يركزون على أن موجة معاداة السامية يمكن أن تهب فى أى وقت ، لأن هذا الخطر هو الدافع الوحيد الذى يجعل الشباب اليهودى يهاجر إلى إسرائيل . ولكن هذا غير صحيح . إن الهجرات الجماعية تاريخياً لاتقع إلا تحت تأثير ضغط سياسى أو اقتصادى عنيف واقع بالفعل . ولهذا فإن كلام بن جوريون عن مليون أو مليونى مهاجر ينتظرهم فى إسرائيل خطأ تماما يضاف إلى ذلك أن نزعة معاداة السامية تختفى وتتلاشى بالفعل . إن بن جوريون وجولدا مائيرلا يكفان عن الكلام عن قصص اضطهاد اليهود وتاريخهم البائس المحزن . وقدضاق الشباب اليهودى فى شتى دول العالم ذرعاً بهذا الكلام لأنهم يرونه متناقضاًمع الحياة التى يتمتعون بها فى جميع المجالات . أما القول بأن الشعب اليهودى هو شعب « مختار » له تاريخه الفريد .. فكل شعب من شعوب العالم له تاريخه الفريد ، وله ملامحه الخاصة » .

بيد أن مثل هذه الآراء تذهب هباء ولا يستمع إليها . فقد سئل بن جوريون

بعد عدوان ١٩٦٧ مباشرة ، ماتمليقك ؟ .. فقال « قد أتوجه بنداء إلى الحكومات الصديقة فى العالم أجمع ، لتهجر لنا ثلاثة ملايين شاب يهودى » ، كذلك نجد التصريحات الإسرائيلية واضحة وصريحة فى هذا الصدد . أنهم يريدون فى مرحلة السبعينات والثمانينات أن يبلغ العدد فى التجمع الإسرائيلى قرابه ستة ملايين ، لقد وصل العدد فى عام ١٩٧٣ قرابة « مليونين ونصف أو ثلاثه ملايين »، وكان من الممكن أن يأتى الباقى خلال عمليات التهجير فى السنوات القادمة ، وهكذا نرى بالنسبة للهجرة اليهودية ، التى هى عماد الحركة الصهيونية ، أنها دخلت طوراً جديداً بعد عام ١٩٦٧ .

وحسب التقسيمات العلمية الحديثة فى هذا الموضوع ، تمت فى المرحلة الأولى هجرة اليهود المضطهدين فى العالم ، وبالذات فى أوربا ، وفى الوطن العربى ممن فرضت عليهم الظروف أن يخرجوا . وفى المرحلة الثانية بعد عام ١٩٦٧ تتجه الجهود إلى تهجير اليهود الذين يعيشون فى جو ليس فيه اضطهاد كامل، ويركزون على وجه الخصوص على الاتحاد السوفيتى ناظرين إلى الملايين الثلاثة أو الأربعة الموجودة فى الكتلة الشرقية. أما المرحلة الثالثة فهدفها تهجير قسم لا بأس به من يهود الدول الغنية الذين يترددون فى فكرة الهجرة، وعلى الخصوص . يهود الولايات المتحدة[1] .

وهكذا تتضح آفاق التوسع فى المرحلة الحالية • إن إسرائيل تتطلع إلى ستة ملايين نسمة ، وقضية الهجرة وقد أخذت بنداً من بنود مؤتمر بازل الخمسة من أهم القضايا التى يجب التنبيه إليها ومجابهتها •

لقد كان بن جوريون فى عام ١٩٠٦ يعتقد أن أعظم أمانيه أن يكون فى فلسطين نصف مليون يهودى • بينما فى عام ١٩٧١ ، كان يرى أن ثمانية ملايين يهودى يمكن أن يكون عدداً مناسباً لسكان إسرائيل • وهكذا بقيت آمال بن جوريون بدون حدود . وبقيت إسرائيل على مدى تاريخها دولة توسعيـة فى بحث مستمر عن مواطنين .

(١) أحمد صدقى الدجانى ، « محاضرة بمجلس الشعب ، لجنة الشئون العربية ، يوم ٢٣/٥/١٩٧٣» .

التفرقة العنصرية

فى أعقاب قيام دولة إسرائيل حرص القادة الصهيونيون الذين توطدت سلطتهم على خلق نمطين من المواطنين الإسرائيليين .

الأول : النمط المتعصب ، وهو الأفضل .

الثانى : وهو النمط المتسامح . . أو « السفيه » من وجهة نظرهم .

ويوجد اقتناع كامل لدى هؤلاء القادة أن إسرائيل فى حاجة إلى النمط الأول أكثر فأكثر . فهى بحاجة إلى أن تمضى معصوبة العينين ، تنفذ تعليمات قيادة الصهيونية العالمية . ولذلك فإنه من الصعب الحديث عن قومية إسرائيلية . وإذا كانت عملية تكوين هذه القومية تجرى الآن ، إلا أن تلك القومية ما زالت بعيدة عن النهاية بمسافة كبيرة .

ويحاول القادة الصهيونيون فى مواقع السلطة الإسراع بهذه العملية مستغلين فى ذلك العوامل الاقتصادية والسياسية فى التأثير على مجريات الأمور . ويشيد هؤلاء القادة، ومعهم كافة وسائل الإعلام، بعظمة «**الصابرا**»[1]. وهؤلاء **الصابرا** ينظرون فعلا نظرة تعال إلى اليهود غير الإسرائيليين ، ويضعون حدوداً فاصلة بين مفهوم « إسرائيلى » ، ومفهوم « يهودى » .

ويؤكد دافيد بن جوريون فى كتابه « إسرائيل ، أعوام التحدى » ، أن اليهود فيها لم يصلوا بعد إلى أن يصبحوا أمة « فعلية » ، وما زالوا فى طريقهم إلى تكوين هذه الأمة . فالمهاجرون الذين قدموا منذ إنشاء الدولة لم يمتزجوا بعد بالواقع الجديد ، ولم يصبحوا بعد جزءاً منه من الناحيتين الاقتصادية والثقافية والجاليات لا تزال متباعدة جداً من حيث اللغة والتاريخ ، والثقافة ، والاقتصاد . وهم يتحولون بالتدريج إلى أمة[1]. وعلى ضوء هذه الكلمات يتضح مدى تطلع الأسطورة الصهيونية القائلة بوجود « أمة يهودية عالمية »[2].

---

(١) الصابرا هم اليهود الذين ولدوا فى فلسطين أو إسرائيل فيما بعد .

(2) Ben Gurion, Israel Years of Challenge, pp.232 - 233.

ونظراً لأن التكوين السيكولوجى هو أحد الدعائم الأساسية التى يقوم عليها بنيان الأمة، فإن القادة الصهيونيين يعطون أهمية كبرى لتشكيل مثل هذا التكوين ومن هنا فإن جميع البرامج التعليمية فى إسرائيل تسعى إلى ترويج فكرة أن اليهود هم شعب الله المختار ، ونشر الأفكار العنصرية الصريحة. فنجد مثلا خلال سنوات التعليم الإجبارى الثمانية يخصص لدراسة التلمود وغيره من الكتب الدينية ١٥٠٠ ساعة ، بينما يخصص لدراسة جغرافيا العالم ٢٠ ساعة فقط .

وفى كل مكان فى إسرائيل يرتفع قول التوراه : «هذه أرضكم يابنى إسرائيل» ويعلم كل الصغار فى إسرائيل بقية العبارة التى يلقنونها منذ سن السادسة وهى : « . . . . من النيل إلى النهر العظيم . . الفرات . » . وهنا يكمن أصل فكرة إسرائيل الكبرى التى تبرر وتؤكد الأطماع التوسعية السابقة واللاحقة فى اغتصاب الأرض العربية .

وفى ١٨ أكتوبر ١٩٥٨ قال الزعيم الصهيونى مناحم بيجين أمام قادة الجيش الإسرائيلى : **« ان قلوبكم ايها الاسرائيليون يجب ان لاتتالم وانتم تقتلون عدوكم ، ولا ينبغى ان تاخذكم بهم شفقة طالما اننا بعد لم نقض على ما يسمى بالحضارة العربية التى سوف نبنى على انقاضها حضارتنا الخاصة »**[(١)] .

ويقول فى مجال آخر : « حين نلقى نظرة إلى الشمال نرى المنخفضات اللبنانية السورية الخصيبة . وإلى الشرق الأرض الغنية فى منطقة ما بين النهرين دجلة والفرات وبترول العراق . وإلى الغرب بلاد المصريين . ولن تتاح لنا إمكانية التنمية ما لم نسو مشاكل الحدود من موقف القوة . ولا بد أن نرغم العرب على الاستسلام الكامل »[(٢)] .

---

(١) يورى ايفانوف: الصهيونية ... حذار، ترجمة ماهر عسل، (القاهرة :الهيئة العامة للتأليف والنشر ، دار الكتاب العربى ، ١٩٦٩)

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٨

وفى تصريح آخر لأحد الرواد الصهاينة وهو فلاديمير جابوتنسكى يقول : « يجب أن تصبح فلسطين ملكا لليهود . وإن استخدام الأساليب الملائمة لإقامة الدولة القومية اليهودية سوف يكون عنصراً حتمياً وحيويا فى سياستنا . ولقد أصبح العرب يدركون ما الذى يجب أن نفعله بهم وما الذى نريده منهم ولابد أن نخلق وضع « الأمر الواقع » ، وأن نقنع العرب بضرورة الرحيل عن أراضينا والفرار إلى الصحراء [(١)] .

ومع ذلك فما زالت الطائفية فى إسرائيل هى أداة الصهيونية لإشاعة الفرقة بين اليهود . وهى تتيح للطبقة الحاكمة حرية المناورة والقدرة على إشاعة الروح العسكرية والعنصرية التى توجه ضد العرب . ويستغل الصهيونيون هذا الوضع للتخلص من وطأة التناقضات الطبقية بين الطوائف اليهودية ولضمان وحدة — ولو مؤقتة — بين كافة العناصر المستفيدة من قليل أو كثير من سياسة اضطهاد الأقلية العربية .

وأما عن العرب فى إسرائيل ، فلن نعود إلى الماضى حين كان مجموع اليهود فى فلسطين لا يتعدى ٥ آلاف شخص ، وإنما سوف نتوقف عند الفترة التى أعقبت إنشاء دولة إسرائيل .

فبمقتضى قرار الأمم المتحدة الصادر فى نوفمبر ١٩٤٧ ، كان المفروض أن تقوم دولة إسرائيل على مساحة ١٤ ألف كيلو متر مربع . وأن يكون تعداد سكانها مليون ومائة ألف نسمة تقريباً . من بينهم ٦٠٠ ألف يهودى و ٥٠٠ ألف عربى .

ونتيجة لحرب ١٩٤٨ ضمت إسرائيل إلى أراضيها ٦ آلاف كيلو متر مربع من مساحة فلسطين العربية . وكان تعداد السكان فى الأرض المغتصبة قرابة ٤٠٠ ألف نسمة . ومن واقع البيانات الرسمية الإسرائيلية فإنه فى الأراضى الواقعة

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٨

تحت سيطرة إسرائيل والتي تزيد مساحتها عن ٢٠ ألف كيلو متر مربع ، لم يبق بها غير ١٦٠ ألف عربي في عام ١٩٤٩[1] .

وهنا يبرز سؤال : كيف وإلى أين ذهب ما يزيد على ٧٠٠ ألف عربي ؟ كانوا في اسرائيل كيف تم التصرف في ممتلكات هؤلاء العرب؟ من الذي يستغل هذه الممتلكات ؟ لمن آلت أراضي الأهالي العرب ؟ ما عدد القتلى من العرب الذين رفضوا النزوح عن موطنهم ؟ ما عدد الموتى الذين راحوا ضحية المرض والجوع والتشرد ؟

ونعرض بعض الحقائق القليلة التي تعترف بها السلطات الإسرائيلية . لقد طردت إسرائيل أكثرية العرب بالقوة من أراضيهم أثناء حرب ١٩٤٨ ، وقد هدمت قراهم .

في ١٩٤٨/١١/٥ أجبر أهالي قرية اركيت في الجليل الغربي على النزوح عن ديارهم .

في ١٩٤٨/١١/١٥ أجبر أهالي قرية كفر فيرعام على النزوح عن ديارهم .

في ١٩٤٩/٢/٤ تم بالقوة طرد غالبية أهالي كفر عنان . أما دورهم فقد هدمتها القوات الإسرائيلية .

في ١٩٤٩/٢/٢٨ ألقت القوات الإسرائيلية في كفر ياسر القبض على ٧٠٠ لاجيء عربي من أهالي القرى الأخرى وتم ترحيلهم بالقوة خارج الحدود .

في ١٩٥٠/١/٢٤ أجلت القوات المسلحة الإسرائيلية بالعنف أهالي قرية النابسية .

---

(1) M. Vilner, The Palastine Problem and The Israel Arab Dispute, (Tel Aviv : CPI).

فى ١٩٥١/٧/٧ طردت القوات الإسرائيلية بالعنف ألفين من العرب أهالى مدينة مجدل عسقلون .

فى الفترة من ٢/١ إلى ١٩٥١/٢/١٠ أرغمت السلطات الإسرائيلية السكان العرب من أهالى ١٣ قرية فى وادى إعارة على الهجرة من أراضيهم .

فى ١٩٥١/١١/١٧ هدمت القوات الإسرائيلية قرية البونيشات وطردت سكانها .

فى نوفمبر ١٩٥١ تم طرد الأهالى من قرية أم الفرج ثم قام الجيش الإسرائيلى بهدم منازلها .

فى ١٩٥٦/١٠/٢٩ دبرت القوات الإسرائيلية . مذبحة كفر قاسم ، وذلك بإطلاق الرصاص على رجال ونساء وأطفال القرية العربية[١] .

إن الرأى العام العالمى لا يعلم غير القليل عن مأساة اللاجئين العرب . وليس ما ذكرناه غير أقل القليل من حقائق هذه المأساة . وفى هذا الصدد يقول أرنولد توينبى المؤرخ البريطانى : « إن مذابح الإسرائيليين ضد العرب تقارن من الناحية الأخلاقية بمذابح الألمان [٢] » .

إن العرب فى إسرائيل لا يستطيعون التنقل داخلها ولو لبضعة كيلو مترات إلا بموجب وثيقة تمنحها لهم السلطات الإسرائيلية بوصفهم عرب . تتضمن ١٧ تحذيراً ، من بينها على سبيل المثال :

١ — محظور التوقف فى المناطق السكنية الواقعة على طريق السفر .

٢ — لا يجوز المرور فى غير الطريق الرئيسى .

---

(1) C.P.I. "On The Situatiou of The Arabs in Israel", (Tel Aviv : C.P.I.), September, 1966.

(٢) وزارة الثقافة ــ المعركة بين العرب وإسرائيل ، لطفى الخولى ، « جذور وأبعاد الصراع العربى الإسرائيلى » ، القاهرة الكاتب العربى ، ١٩٦٩) ، ص ٥٠ .

٣ — مسموح فقط بالسفر إلى (أو من) المكان المحدد فى التصريح وفى الفترة الزمنية المحددة فقط .

٤ — محظور مباشرة أى عمل أو نشاط بخلاف المبين فى خانة « الغرض من السفر » .

٥ — بانتهاء مدة سريان التصريح لابد من إعادته إلى تومندان المدينة فى خلال مدة لا تزيد عن أسبوعين .

٦ — سوء استخدام التصريح يوقع حاملة تحت طائلة القانون .

٧ — يحظر على حامله التواجد داخل المنطقة المغلقة رقم ٩ أو خارجها بعد انتهاء مدة التصريح .

٨ — يحظر على حامله تغيير إقامته بالمنطقة المحددة بالتصريح . ذلك مسموح به فقط فى حالة الحصول على موافقة القومندان .

وبغير هذه الوثيقة لا يستطيع العربى أن يسافر إلى مقر عمله الذى قد يبعد عن مكان إقامته بمسافة قصيرة . وهناك تشابه كبير بين هذه الوثيقة والتصاريح التى تمنحها السلطات العنصرية البيضاء فى حكومة جنوب أفريقيا للمواطنين الأفريقيين .

وقد يتصور القارىء أن هذه الوثيقة تعطى لتمكين حاملها للتنقل بين المناطق العسكرية أو المغلقة . ولكن الأمر ليس كذلك على الإطلاق فمنذ قيام دولة إسرائيل قامت الدوائر الحاكمة باعلان المناطق التى يسكنها العرب مناطق مغلقة . والإجراءات العسكرية والبوليسية التى تفرض على هذه المناطق تذكر بالأوضاع التى كانت تفرضها ألمانيا النازية على الأمم المنحطة فى الأراضى الواقعة تحت الاحتلال النازى .

أما عن الأرض ، فان مصادرة أراضى الزراع العرب هى أحد الأمثلة الصارخة التى تفضح السياسة المعادية لهم والتى تنتهجها حكومة إسرائيل ، سياسة القهر

والاضطهاد التي ترمى إلى تمليك الأراضى للمهاجرين الجدد . وهى سياسة تتمتع تماما بحماية الدولة وتحت شعارات « دواعى الأمن » ، و « التنمية » و «حماية ملكية الدولة » . وقد تبين أن الاستيلاء على أراضى العرب الذين أرغموا على الفرار من إسرائيل ليس كافيا . ومن ثم أصبحت الأراضى العربية التى تمكن أصحابها من البقاء داخل إسرائيل عرضة دواما وبانتظام لعمليات المصادرة والاغتصاب .

الحدود الآمنة ... لمن ؟

ما هو الهدف النهائى الحقيقى لسياسة الغزو والتوسع الإسرائيلى ؟ ما الذى تريده إسرائيل بالتحديد ؟ هل إسرائيل تريد سيناء أم الجولان ، أم الضفة الغربية للنيل ، أم القدس ؟ أم كل هذه مجتمعة ؟ أم أنها تريد شيئا أبعد من هذا ؟

ليس الجواب سهلا ، وليس متاحاً على الأقل خلال هذه المرحلة لأن إسرائيل لم تستقر بعد فى نواياها وفى تكوينها . ولذلك فإنها قد تعرف بالتأكيد ما لا تريده ، وإن كانت لاتعرف بالتحديد ما تريده . إن إسرائيل لاتريد أن تستقر فى حدودها التى وضعها قرار التقسيم . ومع ذلك فهى لم تقرر بعد إلى أى مدى يمكن أن تتوسع . هذا الأمر الأخير رهن بظروف المنطقة والموقف الدولى واحتمالات الهجرة . وكل هذه متغيرات غير منضبطة . ولذلك فإن فكر إسرائيل النهائى عن نهاية حدودها ما زال فكراً غير منضبط .

إن المشكلة الجوهرية التى تعيشها إسرائيل — من وجهة نظرها — هى مشكلة الأمن . كيف تجتذب دولة غير آمنة مهاجرين تتوفر لديهم الرغبة فى استيطانها . وكيف يمكن أن تولد فى سكانها مشاعر الأمن التى تغريهم على البقاء فيها . . إن الأمن بالنسبة لمجتمع المهجر هو فلسفة المجتمع الأساسية .

وإسرائيل جزيرة وسط بحر عربى واسع . رقعة محدودة من الأرض محاصرة بعالم عربى وعمق عربى من الخليج إلى المحيط . وهى تعانى من خلل فى التوازن

السكانى فى غير صالحها يتمثل فى مائة مليون عربى فى مقابل ثلاثة ملايين من الإسرائيليين .

إن هذا الوضع الفريد فى العالم قد شكل جوهر مشكلة إسرائيل . وإذا تتبعنا التصريحات التى أدلى بها القادة الإسرائيليون فى كل مناسبة تتصل بالمشكلة، نجدهم دائما يتحدثون عن الحدود الآمنه ، ويطالبون بها . ومع كثرة هذه التصريحات وتكرارها فقد فشلت جميعها فى بيان ما هى الحدود الآمنة وما هى معالمها من وجهة نظر إسرائيل .

وعندما بحث موضوع تحديد الحدود الآمنة فى الكنيست عام ١٩٤٨ ، سخر بن جوريون من العضو الذى أثاره وقتئذ قائلا إن هذا الاقتراح غير عملى ، إذ من الصعب تحديد حدود آمنة لإسرائيل ، لأنه إذا نزح إليها عدد أكبر من المهاجرين ، فإن إسرائيل سوف تحتاج إلى مساحة أكبر من الأرض .

وأحاديث قادة إسرائيل منذ عام ١٩٦٧ حتى اليوم لا تحمل سوى تعبيرات غير محددة عن الحدود الآمنة . . . بدأ من **حدود آمنة** ، إلى **حدود تاريخية**، إلى **حدود دفاعية** ، إلى **حدود التوراة**. وهذه التعبيرات الأربعة هى التى أخذت تتردد فى أحاديث القادة الإسرائيليين .

يقول موشى ديان وهو يخاطب طلبة الجامعة العبرية :

« لا أعرف حدوداً لإسرائيل إلا حدود التوراه ».

ويطرح عزرا وايزمان عندما كان وزيراً للمواصلات مفهوما آخراً :

« لا أعرف حدوداً لإسرائيل سوى حدود « هرتزل » التى رسمها فى خريطة معينة من النيل إلى الفرات » .

لقد كان أكثر الموضوعات جدلا أثناء المبادرة السياسية العربية فى فبراير ١٩٧١، وتحرك السفير جونار يارنج هو موضوع الحدود . وقد ناقشت الحكومة

الإسرائيلية الموضوع فى جلسات متكررة وكانت المناقشات تحمى وكانت الآراء تتصارع مختلفة على تحديد خريطة إسرائيل . وأخذت وجهات النظر المختلفة تردد المسميات الأربعة التى أوردناها .

قال إيجال آلون مثلا فى تلك الفترة : « لابد من شرم الشيخ لنفصل بين إسرائيل الصغرى وإسرائيل الكبرى » .

كذلك صدرت تصريحات إسرائيلية تبرز نواياها بالنسبة لجنوب لبنان . ونذكر بصفة خاصة رسالة بن جوريون إلى الرئيس شارل ديجول . لقد سأل ديجول بن جوريون عما تريده إسرائيل بالضبط وقتئذ . وأجاب بن جوريون قائلا :
« أصدقك القول بأننا لا نطمع فى هذه المرحلة سوى فى جنوب لبنان » .

لقد كشف إيبان فى مقال كتبه لمجلة «الشئون الخارجية الأمريكية» فى صيف ١٩٦٥ عن هذا الاتجاه حين قال :

« ليس من الحمق أن نتصور مطالبة قادة العرب بالحاح فى المستقبل بالعودة إلى حدود ١٩٦٦ ، أو عام ١٩٦٧ ، مثلما يطالبون اليوم بالعودة إلى حدود ١٩٤٧ ، تلك الحدود التى رفضوها فى الماضى ».

وتحدث إيبان فى نفس المقال عن إمكانية قيام إسرائيل والدول العربية باحتلال مواقع جديدة وفرض الرضا بالأمر الواقع على العرب . وأشار إيبان إلى أن الزمن سوف يجبر العرب على التنازل عن تمسكهم برفض الصلح مع اسرائيل وقال أنه توجد اتجاهات تؤكد هذا الرأى قد بدأت تظهر بين بعض القادة العرب، واستشهد على ذلك بالتحول لذى بدأ فى موقف تونس ودعوة الرئيس التونسى الحبيب بورقيبه للصلح مع اسرائيل.

وإذا كان الحديث عن الحدود الآمنة له استعمالات جديدة سيكولوجية . للاستهلاك المحلى ، بهدف تحويل الرأى العام الداخلى عن مناقشة المشكلات الداخلية

الشائكة، مثل أزمة الإسكان والنقد والتعليم والنقل، لأن موضوع الحدود أكثر إلحاحا على نفسية المواطن الإسرائيلى من هذه المشكلات ، فإن ذلك لا يمكن أن يطمس النوايا الإسرائيلية الحقيقية بصدد مشكلة الأمن .

الحقيقة إذا أن نوايا إسرائيل بصدد الحدود الآمنة مرتبطة ارتباطاً لا ينفصم بنواياها فى جلب المهاجرين إليها . وهذان الاعتباران من وجهة النظر الإسرائيلية يتناسبان دوما تناسبا طرديا . فكلما نشطت الهجرة وتزايد سكان إسرائيل كلما امتدت آمالها عبر الحدود القائمة إلى حدود أكثر اتساعا .

والنتيجة المنطقية إزاء نوايا إسرائيل العدوانية التوسعية منذ عام ١٩٤٨ إلى يومنا هذا أن العرب هم الذين يجب أن يهتموا أكثر فأكثر بموضوع الحدود الآمنة ، لأنهم أكثر من الإسرائيليين حاجة إلى وضع نهاية لأطماع اسرائيل التوسعية

تلك هى آفاق التوسع بالنسبة للسكان . وتلك هى آفاق التوسع بالنسبة للمساحة والحدود .

الخلاصة

يمكن من خلال السرد السابق ، ومن استعراض الأحداث المتتالية منذ بدأت الحركة الصهيونية تخطط للاستيلاء على فلسطين حتى حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، وما اتصل بينهما من أحداث وصدامات ، تحديد سمات الكيان الاستعمارى الصهيونى المجسم فى إسرائيل على النحو التالى[1] .

(١) جمال حمدان : الاستعمار والتحرير فى العالم العربى . . من معركة الدعاية إلى معركة الميدان ، (القاهرة : مجلة الكاتب ، عدد يونيو ١٩٦٨)

أولا : إن إسرائيل كدولة ظاهرة إستعمارية ، قامت على اغتصاب غزاة أجانب لأرض لا علاقة لهم بها دينياً أو تاريخياً أو جنسياً ، وعودة اليهـود إلى فلسطين بالاغتصاب هو غزو وعدوان غرباء لاعودة أبناء قدامى ، أى استعمار لاشبهة فيه بالمعنى العلمى الصارم . وإسرائيل بالتالى تمثل جسما غريباً ودخيلا مفروضـاً على الوجود العربى غير قابل للامتصاص ، ولـكنه حتى الآن غير ممـكن اللفظ — وبين هذا وذاك يبقى عنصر اضطراب ومضاعفات سياسية ، وبتعبـير آخر يبقى بؤرة حرب كامنة ومفجر صدام إستعمارى — تحريرى مسلح .

ثانياً : إسرائيل إستعمار طائفى بحت ، والدولة دولة دينية صرفة إذ تقوم على تجميع اليهود ، واليهود فقط فى جيتو (حارة يهود) سياسية واحـدة . ويرتبط التجمع الدينى لليهود بتجمع لهم أيضاً على أسـاس عنصرى خالص ، ورغم أن اليهود ليسوا عنصراً جنسياً فى أى معنى بل جماع حى لـكل الأجناس فى العالم كما يدرك أى أنثربولوجى ، فإن فرضهم لأنفسهم كأمة مزعومة مدعية فى دولة مصطنعة مقتطعة يجعل منهم ومن الصهيونية حركة عنصرية بكل معانى العنصرية من استعلاء وتعصب واضطهاد ودموية .

ثالثاً : إسرائيل قطعة من الإستعمار الغربى عبر البحار ، وتمثل جزيرة غربية على ضلوع آسيا . ومستعمرة غربية فى قلب الوطن العربى ، وذلك جنسياً وحضاريا على السواء . وكـكل دعاوى الإستعمار الأوربى عبر البحار وتبريراً لاغتصابهـا لم تتورع إسرائيل عن أن تدعى رسالة الحضارة والتطور ، فزعمت أنها واحة التقدم فى صحراء الرجعية العربية وجزيرة الصناعة فى بحر التخلف الشرقى .

هذا الزعم فضلا عن فائدته الدعائية بالنسبة لصورة إسرائيل أمام العالم ، هو أيضاً يقوم على تطلع رأسمالى إستعمارى يتصور إسرائيل على مدى أطول مصنعاً للإنتاج وترسانة للسلاح ، بينما الأرض العربية من حولها والأرض الإفريقية على أرباضها سوقا مفتوحة مستهلـكة لثمار التقدم الصناعى ، مبهورة بإنجازات التـكنولوجيا التى تجسدها وتستثمرها اسرائيل .

رابعاً : اسرائيل استعمار سكنى من الدرجة الأولى. لكنها جمعت أسوأ ما فى النماذج المعروفة والكلاسيكية لهذا النمط من أنماط الاستعمار كما أنها أضافت إلى هذا ما هو أسوأ منه . هى كأستراليا والولايات المتحدة أنتظمت قدراً محققاً من إبادة الجنس[١] . وهى كجنوب أفريقيا تعرف قدراً محققاً من العزل الجنسى ، ولكنها تختلف عن الجميع من حيث أنها طردت معظم السكان الأصليين خارجها تماماً ليتحولوا إلى لاجئين معلقين على حدودها .

وهنا علينا أن نتذكر قول وايزمان أنه كان قد اتفق مع دوائر الاستعمار الأوربى على تسليم فلسطين لليهود « خالية من العرب » .

كما أن علينا أن نلمح سلوك الصهيونية داخل الارض المحتلة بعد سنة ١٩٦٧، وهى التى تسير باستمرار فى اتجاه نسف البيوت ، بدعوى الاشتباه فى ايوائها لعناصر المقاومة الفدائية. وهى أيضاً ومنذ إنشاء إسرائيل لا تنفك عن محو وتغيير معالم الأرض المحتلة وإطلاق أسماء عبرية مستمدة أو منحوتة من تراث التعصب الصهيونى وأدبياته على معالم إسلامية ومسيحية . وكأنما لم يكفها هذه العملية من الطرد الجنسى شبه الكامل بل هى تعمد إلى إعادة حرث الأرض .. لتجتث منها جذور الوجود العربى من أساسه .

خامساً : إن إسرائيل تجسيم للاستعمار المتعدد الأغراض من إستعمار سكنى ، ومن استعمار إستراتيجى عسكرى ، ومن استعمار استغلالى اقتصادى، ومن استعمار توسعى يعلن أطماعه الإقليمية بلا أى مواربة تحقيقاً للامبراطورية الصهيونية الموعودة من النيل إلى الفرات. وهنا – كما يبين الدكتور فايز صايغ – ترتبط الدعائم الثلاث التى تقوم عليها دولة إسرائيل وهى العنصرية . . التوسع . . العدوان . . فالكيان عنصرى يهدف إلى التوسع ووسيلة التوسع هى العدوان والإرهاب.

---

(١) مناحم بيجن مثلا يصف مذابح الأسر العربية على يد عصابات الإرهاب الصهيونى بأنها عمل رائع من أعمال الاستراتيجية العسكرية .

الفصل الرابع

جيش إسرائيل

تكوين القوة العسكرية الصهيونية [1]

أولا : الكتائب اليهودية فى الحرب العالمية الاولى

بعد فشل حملة غاليبولى عام ١٩١٥ ، سعى الزعماء الصهيونيون إلى إنشاء قوات يهودية نظامية تحارب ضد الأتراك . وقد تزعم هذه الحركة جابوتنسكى الذى كان مقتنعا بضرورة اتجاه الصهيونية إلى البحث عن حليف يؤازرها .

وكانت بريطانيا مقتنعة بهذه الفكرة حتى عام ١٩١٦ . بيد أنها عدلت عن ذلك عندما قررت غزو فلسطين . فلم تمانع فى إنشاء وحدات عسكرية نظامية يهودية تشارك فى الغزو . وحينما غزا الجيش البريطانى فلسطين عام ١٩١٧ بقيادة اللنبى،

---

(١) مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام : العسكرية الصهيونية ؛ المؤسسة العسكرية الاسرائيلية ، (القاهرة : مطابع الأهرام، ١٩٧٢) .

نسقت الجهود الصهيونية من أجل العمل على إنشاء الكتائب العسكرية اليهودية . وقد نجح جابوتنسكى فى إقناع الحكومة البريطانية بذلك . وتقرر تشكيل كتيبة يهودية فى ٢٧ يوليو ١٩١٧ . وبذل حاييم وايزمان — الذى كان من أكثر المقتنعين بالفكرة — كل الجهود الممكنة لمساندة جابوتنسكى فى تنفيذها .

وبالفعل تم تشكيل أول كتيبة عسكرية يهودية فى لندن . وكانت نواة هذه الكتيبة من الضباط وضباط الصف الذين خدموا بكتيبة البغل الخيالة . وقد عين ضابط برتبة كولونيل يدعى باترسون قائداً لهذه الكتيبة . وتولى باترسون الأعمال الإدارية والتنظيمية بالكتيبة ، وعهد إليه باجتذاب المجندين والمتطوعين وإلحاقهم بها . وفى فبراير ١٩١٨ ، أتمت الكتيبة تشكيلها وأرسلت إلى مصر تمهيداً للزج بها فى القتال بفلسطين .

ومن جهة أخرى ، نشّط بن جوريون وبن تزفى — المقيمين فى الولايات المتحدة — الجهود التى بذلت فى لندن ، وسارعا إلى بذل الجهود لإنشاء كتيبة أخرى من اليهود الأمريكيين . وحاولا إغراء العمال الصهيونيين بالانضمام إلى الجيش الصهيونى ، الذى ينوى الاستيلاء على فلسطين بالقوة بحجة طرد الأتراك منها . ونجح بن جوريون وبن تزفى فى دعوتهما ، وأنشئت كتيبة ثانية من اليهود الأمريكيين .

وفى أوائل عام ١٩١٨ ، وافقت الحكومة البريطانية على تكوين بعثة برياسة حاييم وايزمان تضم ممثلين ليهود دول الحلفاء ، ومهمتها — كما حددها رئيسها وايزمان — دراسة الأوضاع فى فلسطين ووضع الخطط اللازمة للعمل وفقاً لتصريح بلفور . ولكن وايزمان لم يقنع بهذه المهمة، وقام هو وزملاؤه بالدعوة إلى تشجيع إنشاء القوات اليهودية وإلى القتال فى الجيش البريطانى لاستكمال غزو فلسطين .

وهكذا نشطت الدعوة للتطوع لإنشاء كتيبة ثالثة من يهود فلسطين . وقد

أثارت هذه الدعوة جـدلا بين صفوف الصهيونين الذين كان يرى بعضهم رفض فـكرة التطوع فى الجيش البريطانى ، وضرورة حشدالقوة الصهيونية لصالح الطائفة اليهودية فى فلسطين. على أن هذه المعارضة ما لبثت أن ضعفت. والتف الصهيونيون حول رأى بن جوريون القائل : « إننا رواد حركة طليمية تنشد العودة إلى أرضها لتقاتل فيها . إن تطوعنا للخدمة العسكرية فى القوات اليهودية يعنى فى نفس الوقت تطوعنا للعمل على استرداد بلادنا » .

وفى يونيه ١٩١٨ تشـكلت الـكتيبة الثالثة فى مصر. وقد بلغ مجموع المتطوعين اليهود فى الـكتائب الصهيونية الثلاثة حوالى ٥٥٠٠ فردا، وساهمت هذه الـكتائب فى الهجوم البريطانى الثانى فى سبتمبر ١٩١٨ لاحتلال شمال فلسطين وسوريا ولبنان . فاشتركت الـكتيبة الأولى (٣٨) فى احتلال نابلس ، أما الـكتيبة الثانية (٣٩) فقد عبرت نهر الأردن واشتركت فى الإغارة على السلط ، وبقيت الـكتيبة الثالثة (٤٠) تقوم بأعمال الحراسة فى مصر ثم انتقلت إلى فلسطين .

وفى نوفمبر ١٩١٨ عقدت الهدنة وتوقف القتال فى المنطقة . وبدأت القيادة البريطانية فى تسريح الـكتيبتين ٣٨ ، ٣٩ من اليهود غير الفلسطينيين . وبقيت الـكتيبة ٤٠ بفلسطين ، وغيرت شماراتها ورفعت علم درع داود الأزرق والأبيض وأطلق عليها إسما يهودياً هو « هارشون ليهودا » أى « الجيش الأول ليهوداً » .

ثانيا : الجماعات المسلحة الصهيونية السرية

بانتهاء الحرب العالمية الأولى، وتسريح القوات اليهودية النظامية التى تشكلت إبانها اتجهت الجهود مرة ثانية نحو توفير قوة عسكرية جديدة . وكان هناك رأيان فى هذا الصدد .

الأول : يرى تكوين قوات صهيونية نظامية تعمل تحت إمرة القوات البريطانية وتسيطر على البلاد من خلال الإدارة البريطانية .

الثانى : يرى تكوين قوات صهيونية خاصة غير خاضعة للسيطرة البريطانية ، وتعمل سراً على بسط نفوذها وسيطرتها على فلسطين ، إلى أن تضع البريطانيين والعرب أمام الأمر الواقع .

وقد كان جابوتنسكى يعتنق الرأى الأول ، بينما يرى بن جوريون أن الهجرة والاستيطان على نطاق واسع سوف يخلقان حتما الحقائق السياسية التى ستأتى بالاستقلال . وأن وعد بلفور سوف يظل حبراً على ورق ما لم ينجح اليهود فى تحقيق ذلك . ولقد كان بن جوريون منذ البداية داعية عنف أيضاً . ولكنه عنف مرتبط بمخطط يعتمد على المرحلية والواقعية ، وينفذ إلى أغراضه من خلال فرض الأمر الواقع . وهى عين السياسة التى جرت عليها الصهيونية فيما بعد .

وكان من نتائج تسريح الكتائب اليهودية المحاربة فى أعقاب الحرب العالمية الأولى أن بدأ ظهور الجماعات المسلحة الصهيونية فى تنظيمات سرية أشبه بتنظيم العصابات الإرهابية . بل إنها كانت فعلا تعتنق أهدافاً إرهابية واضحة تختلف باختلاف الاتجاهات الصهيونية السائدة . وكان من نتائج هذا أنه فى الفترة من ١٩١٨ إلى ١٩٢٠ ، كان هناك ثلاث منظمات تعمل على مسرح العسكرية الصهيونية فى فلسطين ، وهى منظمة « هاشومير » أو « الحارس » ، ومنظمة جابوتنسكى أو « قوات الدفاع » ومنظمة ترمبلدور أو « فرق العمل » ، التى يعود فضل إنشائها إلى يوسف ترمبلدور .

وكانت منظمة « فرق العمل » تعتنق مبدأين قديمين . العمل « عفودا » والدفاع « هاجاناه » . أو بمعنى آخر الجمع بين شعارى غزو العمل ، بحرمان العمال العرب من حق العمل ، وغزو الأرض بالاستيلاء على أرض فلسطين تحت شعار العمل . وكان قوام هذه المنظمة جماعات من الشباب المتعصب ، الذين استهلوا

أعمالهم بمعركة « تل حى » بالجليل الشمالى فى مارس ١٩٢٠ ، وكان ترمبلدور على رأس القوات التى اشتركت فى هذه المعركة حيث قتل هو وآخرين من زملائه .

وانتهز جابوتنسكى حادث مقتل ترمبلدور — رغم التباين فى آرائهما — وركز جهوده من أجل إنشاء « الجيش الإسرائيلى » . وقد أتخذ من هذا الحادث ذريعة للقيام بأعمال إرهابية مدبرة ضد العرب فى مدينة القدس. فنى ٤ أبريل ١٩٢٠ كان العرب المسلمون يحتفلون فى القدس بعيد النبى موسى حين تصدت لهم جماعات إرهابية صهيونية بتخطيط من جابوتنسكى وهاجمتهم ، ونتج عن ذلك أحـداث دامية ، مما اضطر السلطات البريطانية إلى القبض على جابوتنسكى ومحاكمته والحـكم عليه بالسجن ١٥ عاماً ، والإبعاد عن فلسطين بعد إنتهاء مدة العقوبة. على أن المندوب السامى البريطانى اليهودى هربرت صمويل مالبث أن أصدر عفوا عنه وعن جميع من حـكم عليهم فى حوادث القدس .

وقد غادر جابوتنسكى فلسطين عقب الإفراج عنه إلى لندن ، حيث بدأ العمل من جديد لدعم العمل الصهيونى العالمى . وأصبح الأب الروحى للعديد من المنظمات الصهيونية الإرهابية والحركات السياسية التى ظهرت فى فلسطين خـلال الثلاثينات أمثال منظمة « الأرجون » وعصابة « شترن » .

وقد استمر زعماء الصهيونية فى بذل جهود متواصلة لدمج وتدعيم المنظمات الصهيونية بدافع أساسى هو التصدى المسلح للقوى العربية وحركة الوطنية العربية الناهضة . وعلى رأس هؤلاء قام دافيد بن جوريون بالجهد الأساسى . وقد أدت هذه الجهود إلى إنشاء الاتحاد العام للعمال اليهود « **الهستادروت** » فى ديسمبر عام ١٩٢٠ ، تحت شعار « إحياء الوطن اليهودى ، وإعادة أبنائه إلى فلسطين الأرض الأم ، وإعادة الاستيلاء على أراضيه » . وإثر إنشاء « الهستادروت » أصبحت المنظمة العسكرية الصهيونية تابعة له ، وعين « يوسف هاشت » قائداً لها .

وفى ٢٥ يونية ١٩٢١ ، وافقت اللجنة العامة للهستادروت على إنشاء أول

منظمة عسكرية صهيونية سرية فى فلسطين وهى « **هاجاناه** » أى منظمة الدفاع وعهد إلى جولومب بتنظيم الهاجاناه ووضع الأسس العسكرية والعقائدية لها ، والتى سارت عليها بعدئذ حتى عام ١٩٤٨ .

ثالثا : الجيش السرى

تميزت الفترة من ١٩١٧ إلى ١٩٢٧ بحدثين بارزين ، أولهما تقنين المطامع الصهيونية فى شكل « وعد بلفور » وصدور « صك الانتداب على فلسطين » الذى أيد حق اليهود فى إقامة « الوطن القومى » ، واعتبر المنظمة الصهيونية وكالة تمثل يهود فلسطين ، وثانيهما هو العمل على خلق حقائق صهيونية فوق أرض فلسطين بإنشاء القوة العسكرية وتدعيم الوجود المادى بالهجرة وتنظيم الاتجاهات السياسية والاجتماعية ، وتكوين الأحزاب واتحاد العمال « الهستادروت » .

أما الحقبة التالية (١٩٢٧ — ١٩٣٧) فقد تميزت بمزيج من الأحداث والتطورات الهامة لعل أهمها بدء ثورة عرب فلسطين وانتشارها وتصديها للاستعمار البريطانى والصهيونى ، ومحاولة إخمادها والقضاء عليها ، ثم استمرار الجهود الصهيونية فى تدعيم الكيان السياسى والاجتماعى والعسكرى ، والتوسع فى إنشاء المستعمرات والتحول من الهجرة المحدودة إلى الهجرة الجماعية ، والاهتمام بتقوية الجيش السرى « هاجاناه » .

وبينما كانت سلطات الإنتداب فى فلسطين تحمى الصهيونية وتساندها من ناحية ، كانت الحكومة البريطانية تعمل على إضعاف القوى العربية بسياسات التهدئة والاسترضاء وتقديم الوعود دون تنفيذها من ناحية أخرى . إلى أن كشفت عن نواياها فى ختام هذه الحقبة حين أعلنت مشروع تقسيم فلسطين الذى اقترحته اللجنة الملكية فى صيف ١٩٣٧ .

كان لأحداث الثورة الفلسطينية ١٩٢٩ ، وما ترتب عليها من محاولة الحكومة

البريطانية تهدئة الموقف بالحد من الهجرة اليهودية ، ووضع بعض القيود على المحاولات الصهيونية لاستلاب الأرض العربية ، آثارها البعيدة على الموقف الصهيونى . فاتخذت الوكالة اليهودية عدة إجراءات تهدف إلى إعادة تشكيل المنظمة العسكرية « هاجاناه » وتطويرها وتوسيع نطاقها . فقررت الإشراف المباشر على المنظمة بعد أن استمرت خاضعة لإشراف الهستادروت مدة عشر سنوات (١٩٢٠ — ١٩٣٠) ، مع توسيع القاعدة البشرية للهاجاناه لتشمل اليهود غير الممثلين فى المنظمة الصهيونية أو الهستادروت .

وفى عام ١٩٣٣ تقرر إنشاء « هيئة أركان عامة » دائمة ومتفرغة ، كما عين اثنان للاشراف على تنظيم الهاجاناه أحدهما يمثل الهستادروت ، والثانى يمثل الفئات الأخرى . ومنذ ذلك الوقت بدأت الهاجاناه فى بذل كل الجهود للحصول على السلاح ، كما شرعت فى تصنيع السلاح فى فلسطين .

ومع ازدياد التوتر فى الفترة بين عام ١٩٣٣ حتى انفجار الثورة العربية عام ١٩٣٦ ، بدأت سلطات الانتداب البريطانى تخرج عن التزاماتها فى فلسطين ، وتتحيز لجانب الصهيونيين، بل وتمد يد العون إلى منظماتهم العسكرية بحجة العمل على استتباب الأمن فى البلاد، بينما هى تهدف إلى القضاء على حركة القومية العربية النامية . وتحت هذا الستار سمحت السلطات البريطانية لليهود بتدعيم قواتهم العسكرية ، ووافقت على إنشاء مجموعات مسلحة من الشرطة اليهودية سميت « الشرطة الإضافية الخاصة» . وقد تحولت هذه المجموعات العسكرية التى سلحتها السلطات البريطانية إلى معبر يمر منه الرجال المدربون والسلاح إلى منظمة الهاجاناه غير الشرعية .

وابتداء من هذه الفترة ، دخلت الهاجاناه فى مرحلة جديدة من تطورها نقلتها من تكتيكات الثبات إلى تكتيكات الحركة . ويرجع الفضل الأول فى هذا التغيير إلى ضابط بريطانى مؤيد للصهيونية هو كابتن وينجيت . كما برز من زعماء

الهاجاناه إسحق صادح الذى حاول أن يخلق عقيدة جديدة من عقائد قتال الهاجاناه ، فكان يلقن قادتها تعاليمه التى تتضمن : **لا تنتظر القاتل العربى لا تنتظر كى تدافع عن المستعمرة ، بل لاحقه وتحرك بالهجوم** .

ومنذ ذلك الوقت أخذت العقيدة الهجومية مكانتها بين العقائد العسكرية الصهيونية ، والتى تبلورت فيما بعد فى مبدأ من المبادىء — الاستراتيجية العسكرية الإسرائيلية وهو « **السبق بالهجوم بمجرد الاحساس بالخطر ونقل المعركة فورا الى ارض العدو** » . ولم يكن هذا التحول أمراً سهلا على الفكر العسكرى الصهيونى ، ذلك أن فكر من يغتصب الأرض يكون موجهـــا أساساً للدفاع عما اغتصبه وحماية ما استولى عليه، ومن هنا كان التحول إلى الهجوم على أصحاب الحق يعتبر انقلابا جذريا فى هذا الفكر .

رابعا : جيش إسرائيل

مع نهاية عام ١٩٣٦ ، وعلى أثر اشتعال الثورة العربية بصورة قوية ، ادركت المنظمة الصهيونية وقيادتها العسكرية أن مسألة فرض الدولة الصهيونية لابد أن تتم بواسطة حرب سوف تنشب حتما بين الصهيونيين والعرب . على أنه لم يكن من الممكن شن مثل هذه الحرب والاستمرار فيها وتحقيق أهدافها الصهيونية كاملة فى ظل وجود الاحتلال العسكرى البريطانى .

ولذلك كان على المنظمة الصهيونية أن تمارس نشاطها الموجة نحو إنشاء جيش وتطوير قواتها العاملة فى منظمة الهاجاناه ، من خلال عدد من الأساليب العسكرية الشرعية بإنشاء قوات عسكرية توافق عليها سلطات الانتداب ، وغير الشرعية تنظم سرا دون إعلان عنها . وقد سارت الجهود نحو تحقيق هذه الخطة وأمكن من خلالها تشكيل كيان عسكرى متناسق ، قادر على تلبية مطالب القتال وقتئذ .

ويمكن حصر الاتجاهات التي سيطرت على الموقف فى الآتى :

١ — تكوين قوة نظامية لأغراض الدفاع عن المستعمرات توافق السلطات البريطانية على قيامها كضرورة دفاعية . وتتولى تسليحها وتدريبها تحت اسم « الشرطة الإضافية اليهودية الخاصة » . وقد وافقت السلطات البريطانية على إنشائها فى النصف الأول من عام ١٩٣٦، واعتبرت هذه القوات الواجهة الشرعية للهاجاناة » .

٢ — إنشاء قوة يهودية بريطانية مشتركة . بغرض الأعمال الهجومية ، وافقت عليها السلطات البريطانية فى منتصف عام ١٩٣٨ ، تحت اسم « المفارز الليلية الخاصة » ، ودعمها بالضباط وصف الضباط البريطانيين ، كما تولت تدريبها وتدبير الأسلحة اللازمة لها .

وقد كانت هذه القوة النظامية المختلطة بمثابة حلقة الوصل بين الواجهة الشرعية « قوات الشرطة اليهودية » والقوات الصهيونية السرية « منظمة الهاجاناة » .

٣ — أصبحت الشرطة اليهودية والمفارز الليلية تشكل الأفرع الظاهرة لجذور القوة العسكرية الصهيونية كلها ، الكامنة فى منظمة الهاجاناة وتنظيماتها المنتشرة فى أنحاء فلسطين . ولم تتخذ قوات الهاجاناة طابعاً هجومياً فى ذلك الوقت ، ليس لكونها تشكيلا دفاعياً أنشئ لأغراض الحماية كما يدعى الصهيونيون ، بل لأنها كانت تفتقر إلى عناصر القدرة الهجومية وأبرزها صفة الحركة . غير أن ذلك لم يستمر طويلا فما لبثت الهاجاناة أن تخلصت من جمود الحركة حين تم تكوين « قوة دوريات متحركة » ، تحت قيادة اسحق صادح أحد قادة الهاجاناة ومفكريها العسكريين وقتئذ ، وأشد الدعاة إلى الحركة والعمل الهجومى .

لقد قام كل من إسحق صادح وأرد وينجيت بقسط وافر فى إنشاء « الجيش الصهيونى » ، وإرساء قواعده . والواضح أن دور وينجيت أكثر بروزاً وأبعد أثراً . فقد كان وينجيت ضابطاً بريطانياً محترفا وخبيراً عسكريا من ناحية ، وفى نفس الوقت كان همزة الوصل بين المنظمة الصهيونية وسلطات الانتداب العسكرى فى فلسطين والمدافع الأول عن الصهيونية ومخططاتها لدى هذه السلطات من ناحية أخرى .

دور المنظمات العسكرية الصهيونية :

عندما ظهرت منظمة « **الارجون** » اعتمدت على فكرة جابوتنسكى للجندى المحترف غير السياسى ، وجندت أعضاءها من المستعمرات الزراعية الخاصة القديمة . وأصبح النظام الزراعى الرأسمالى حول تل أبيب هو مصدر القوى البشرية لهذه المنظمة فى إنشاء جيش صهيونى أكثر تخصصاً وبعيد عن تيارات السياسة .

أما الهاجاناه فقد ظلت تابعة للصهيونية، وترتبط عملياتها بالقرارات السياسية . وهكذا أمكن تحقيق التوازن بين السياسة الصهيونية الخفية ومطالب السياسة الرسمية المعلنة عن طريق عمل هاتين المنظمتين . فبينما اندفعت الأرجون بحجة التخصص العسكرى نحو العمل الإرهابى غير المسئول ، سارت الهاجاناة تحت سيطرة الجهاز السياسى الصهيونى أداة منفذة للسياسة الصهيونية الرسمية .

وقد تحملت « الهاجاناة » العبء الأساسى فى مجال تكوين القوة المسلحة وتنظيمها وتدريبها وتسليحها . ومن أهم الأدوار التى أدتها التسليح وشراء وسرقة الأسلحة ، وأقامة شبكة واسعة للتجسس وأعمال المخابرات ، وإنشاء نظام دفاعى للمستعمرات ، ووضع خطة لإنشاء المستعمرات الجديدة ، وتحويل المستعمرات إلى شبكة دفاعية منسقة. ويمكن القول بأن أبرز مسئولياتها خلال تلك الفترة ثلاث مهام أساسية هى : تنظيم الهجرة ، إقامة المستعمرات ، وشن العمليات العسكرية .

تنمية القوة المسلحة الصهيونية :

عندما قامت الحرب العالمية الثانية عقدت القيادة السياسية للمنظمة الصهيونية ممثلة فى دافيـد بن جوريون — مسئول الأمن — اجتماعا فى ٨ سبتمبر ١٩٣٩ ، وحضره قادة الهاجاناة لتحديد خطة العمل فى ضوء الموقف الدولى الجـديد . وفى هذا الاجتماع حدد بن جوريون هدفين مباشرين للعمل :

١ — إنشاء الجيش .

٢ — إنشاء الدولة اليهودية .

وأوضح بن جوريون أن تحقيق هذين الهدفين يتطلب تغييراً واضحـــاً فى إستراتيجية عمل الهاجاناة ، وسوف يترتب عليه حرب واسعة النطاق ، وطـالب بن جوريون قادة الهاجاناة بما يلى :ـ

١ — التخلى عن الدفاع الثابت والخروج لمواجهة العدو ، أبعد ما يمكن من أهدافه وأقرب ما يمـكن من قواعده .

٢ — تشكيل جيش يكون فى مقدوره مواجهة الجيوش النظامية العربية .

٣ — إقامة صناعة فعالة للأسلحة .

٤ — الحصول على أسلحة ثقيلة .

ومع تطور أحداث الحرب العالمية ، برزت جماعة من العسكريين الصهيونيين على رأسهم أسحق صادح تطالب بضرورة إنشاء قوة نظامية مستقلة تمـكن من بناء جيش مستديم . وهكذا برزت فـكرة إنشاء « قوة ضاربة » للهاجاناة أطلق عليها اسم « البالماخ » . وفى مايو ١٩٤١ صدقت المنظمة الصهيونية على إنشائها . وقد حددت قيادة الهاجاناة مهمة « البالماخ » على النحو التالى :

١ — العمل ضد قوات العدو غير النظامية ، والقيام فوراً باحتلال منـاطق دفاعية .

٢ — العمل ضد قوات العدو النظامية بالتعاون مع القوات النظامية الصديقة.

ومن الواضح أن الغرض من إنشاء البالماخ كان ذا هـدفين : الأول : هو مهاجمة العرب فى قواعدهم على أوسع نطاق ، والثانى : هو التعاون مع القوات البريطانية الصديقة للعمل ضد القوات الألمانية التى كانت تهدد مصر وقتئذ .

وهكذا كانت البالماخ أول وحدة عسكرية للهاجاناة ، وبرزت أهميتها كقاعدة تنظيمية وثقافية أمدت الجيش الإسرائيلى فيما بعد بكادرات القيادات(١).

وفى أثناء الحرب الفلسطينية عام ١٩٤٨ كان تكوين الجيش الإسرائيلى من البالماخ يضم :

٢٥ ٪ من رتبة العميد فضلا عن رئيس الأركان يعقوب دورى .

٣٥ ٪ من رتبة العقيد .

٤٠ ٪ من رتبة مقدم ورائد .

وقد شغل ايجان آلون قائد البالماخ منصب قائد الجبهة الجنوبية أثناء الحرب، كما كان إسحق رابين رئيساً لعمليات المنطقة الجنوبية فى ذلك الوقت .

وقد أدى ازدياد التهديد الألمانى إلى اعتراف القيادة البريطانية « بالبالماخ » فى أغسطس ١٩٤١ . ومنذ ذلك الوقت حتى نهاية الحرب العالمية الثانية كان التعاون وثيقاً بين القوات البريطانية والبالماخ .

ووصل ثلاثة من ضباط البالماخ إلى منصب رئيس الأركان العامة فى جيش إسرائيل حتى عام ١٩٧٠ وهم :

موشى ديان (١٩٥٣ — ١٩٥٧)

إسحق رابين (١٩٦٣ — ١٩٦٧)

حاييم بارليف (١٩٦٨ — ١٩٧١)

وبالإضافة إلى ماتقدم فقد تطوع فى صفوف الجيش البريطانى حوالى ٢٣ ألف جندى يهودى ، كانت السلطات البريطانية تعتبرهم وحدات وطنية لها شعارها

الخاص . وبذلك يمكن القول بأن القوات العسكرية اليهودية التى شكلت أثناء الحرب العالمية الثانية كانت كالآتى : ـ

جيش الميدان « هيش » حوالى ٢٠,٠٠٠ فرد .

جيش الدفاع « هيم » حوالى ١٧,٠٠٠ فرد .

البالماخ حوالى ٢,٥٠٠

الشرطة اليهودية حوالى ٦,٠٠٠ فرد .

اللواء اليهودى حوالى ٥,٠٠٠ فرد .

وهكذا بلغ عدد القوات العسكرية الإسرائيلية حوالى ٥٠ ألف فرداً ، من بينهم قوات البالماخ التى أعتبرت أول جيش يهودى نظامى معبأ تعبئة كاملة ويخضع تماما للسلطة السياسية اليهودية والقادة الصهيونيين لتحقيق الأهداف القومية .

وقد استمرت الجهود لإعداد القوى المسلحة الإسرائيلية وتجميعها وتجهيزها لفرض سياسة الأمر الواقع عند إعلان الدولة اليهودية. وحدد بن جوريون عناصر هذه القوى فيما يلى : —

« أن القوات المسلحة الإسرائيلية التى نزلت إلى الميدان يوم إعلان الدولة اليهودية كانت فى حقيقتها تتكون من :

الوحدات اليهودية فى الجيش البريطانى ، مجموعة اللواء اليهودى الذى حارب فى مسرح إيطاليا ، قوات الهاجاناة ووحداتها الميدانية « الهيش » وقوتها الضاربة « البالماخ »، المتطوعين (اليهود) القادمين من الخارج . إن هذه العناصر جميعها شكلت جيش الدفاع الإسرائيلى الذى تقرر إنشاؤه يوم ٢٦ مايو عام ١٩٤٨ ، وصدرت أوامر وزير الدفاع به يوم ٣١ مايو عام ١٩٤٨ .

خامسا : تطور القوات المسلحة الإسرائيلية :

١ ـ بدأت المرحلة الأولى فى تطوير القوات المسلحة الإسرائيلية بصدور قانون إنشاء « قوات الدفاع الإسرائيلية » فى ٣١ مايو ١٩٤٨ ، وتحول الهاجاناة والبالماخ وباقى المنظمات العسكرية إلى جيش نظامى . كما سبق أن ألمحنا .

٢ ـ وفى ٥ أغسطس ١٩٤٩،أصدرت الحكومة الإسرائيلية قانون « الخدمة الدفاعية » لتبدأ المرحلة الثانية من مراحل تطوير القوات المسلحة الإسرائيلية وتحولها إلى جيش من المجندين الذين يشكلون القوات النظامية العاملة ، والقوات الاحتياطية، ومنظمة «الشباب الطلائعى والمحارب » المسمى« ناحال» .وفى هذه المرحلة تم إرساء قواعد البناء الدفاعى الشامل ووضع الهيكل الأساسى الذى تقوم عليه القوات المسلحة الإسرائيلية .

٣ ـ فى أكتوبر عام ١٩٥٣ ، انتقلت القوات المسلحة إلى مرحلة ثالثة عندما ركز بن جوريون اهتمامه على دعم القدرة القتالية للجيش وتحويل القوات المسلحة إلى « قوة هجومية ضاربة». فوضع برنامج السنوات الثلاث لتطوير القوات المسلحة وهدفها رفع القدرة والموارد القتالية ، وأعطاء أفضلية للقوات الضاربة وتحقيق التفوق النوعى .

٤ ـ فى أعقاب حرب العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ ، بدأت المرحلة الرابعة . وفى ضوء تجربة تبعية إسرائيل للقوى الخارجية التى أسهمت معها فى العدوان ، ظهر مبدأ « الاعتماد على القوات الذاتية » كأحد المبادىء الرئيسية فى نظرية الأمن الاسرائيلية .

وبصدور « قانون الخدمة الدفاعية » فى أغسطس ١٩٤٩ ، الذى قدمه

بن جوريون إلى الكنيست فى أول اجتماع له ، ظهرت أسس التنظيم العسكرى الإسرائيلى على النحو التالى : ـ

« لا غنى عن أن يتصف جيشنا النظامى بصغر الحجم ، وذلك لصغر تعداد دولتنا ولضخامة مهام التنمية الاقتصادية والصناعية والزراعية التى تتطلب الكثير من الأيدى العاملة » .

«إن المشكلة الرئيسية التى تواجه جيشنا هى ضرورة توفير التفوق النوعى الحاسم ولن يستطع هذا الجيش أن يحافظ على الأمن القومى للدولة إلا إذا تميز بروح معنوية وقدرات فكرية عالية .وأن يعمل هذا الجيش على خلق روح الريادة القتالية فى الشباب الممتلئين بالقدرة على المبادرة والشجاعة . والطاقة الكبيرة والسرعة فى الحركة والإخلاص فى العمل ، لا يهابون خطراً ولا تقف فى وجههم صعاب . ولتحقيق ذلك يفرض التدريب الزراعى داخل القوات المسلحة بغرض إنشاء مستعمرات الحدود التى بدونها لا يتحقق أمن الدولة ، وأن توجه كافة أنشطة التدريب لخلق جيل جديد من « الرواد » يفهم بوعى كامل التاريخ اليهودى فى سجلات البشرية وانجازاتها الكبيرة فى التغلب على قوى الطبيعة فى البحر والبر وفى خلق اقتصاد ومجتمع وثقافة تتميز بالمغناطيسية القادرة على جذب الشعب اليهودى من شتاته نحو نموذج الدولة الحديثة فى العالم .. إسرائيل[١]» .

برنامج السنوات الثلاث :

وقد كان الأساس الذى وضعه بن جوريون لإعداد خطة دفاع شاملة على أساس أن تحمى البلاد فى جميع الأوقات بشرط إلا تستنزف اقتصادها، من القوى

---

(١) مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام : العسكرية الصهيونية ، مرجع سابق .

البشرية المطلوبة لتنمية الأراضى الزراعية واصلاحها، ان النظام الذى نحتاجه هو نظام للدفاع يمنحنا حماية كاملة ويسمح لنا بتنمية اقتصادية » .

وكان موشى ديان — قائد الجبهة الجنوبية المواجهة لمصر وقتئذ — أول من طالب بإنشاء « وحدات راقية متخصصة فى واجبات القتال» وذلك على أثر عدد من العمليات التى استهدفت قرى عربية ومنى الإسرائيلون فيها بخسائر فادحة . وقد نفذ ديان مشروعه بإنشاء وحدة كوماندوز اختار لقيادتها آريل شارون المتميز بالعنف والشراسة . وفوضه فى اختيار أفراد هذه الوحدة من أعضاء العصابات الإرهابية محترفى البطش والقتل . وهكذا أصبح للارهاب والردع فى الجيش الإسرائيلى الوحدة رقم ١٠١ . وقد بدأت أولى عملياتها بنسف قرية « قبية » . الأردنية .

وفى أعقاب هذا الحادث قدم بن جوريون فى ١٨ أكتوبر ١٩٥٣ ، إلى مجلس الوزراء « برنامج السنوات الثلاث » بهدف تحويل القوات الإسرائيلية إلى قوة ضاربة هجومية . وكانت هذه الخطة هى المرحلة الثالثة فى تطوير الجيش الإسرائيلى خلال الفترة من ١٩٥٤ ـ ١٩٥٦، على أساس أنه لا مفر من اشتباك مسلح مع مصر فى نهايتها . وبعد أن وافق مجلس الوزراء على هذا البرنامج، أعلن بن جوريون عن عزمه عن التنحى ، وعين موشى ديان فى منصب رئيس الأركان العامة للقوات المسلحة فى ٨ ديسمبر ١٩٥٣ .

التطوير من ١٩٥٦ حتى ١٩٦٧ :

كان للعدوان الثلاثى على مصر ونتائجه أثر كبير فى بناء وتطوير القوة العسكرية الإسرائيلية وكان أهم درس فى هذه الحرب ظهور مبدأ « الاعتماد على القوة الذاتية لإسرائيل » ، وأصبح من الضرورى أن يترجم هذا المبدأ إلى اجراءات جوهرية

تتناول بناء وتنظيم وتدريب القوات المسلحة الإسرائيلية بأفرعها المختلفة . بحيث تصبح قادرة على العمل المستقل فى مجال « الردع الجسيم » للدول العربية أو مجال العمل الحاسم بشن الحرب ضدها . ولهذا انصرفت إرادة الأركان العامة الإسرائيلية إلى تحقيق هـدف محدد وهو « خلق قوة ضاربة للقوات المسلحـة الإسرائيلية » وكرس لها الجانب الأعظم من الجهد والمال . وتتـكون من ثلاثة عناصر أساسية هى القوات الجوية والقوات المدرعة وقوة المظلات .

ولقد كانت هذه السياسة الجديدة التى وضعها حاييم لاسكوف عام ١٩٥٨ ، بعد أن خلف موشى ديان فى رئاسة الأركان العامة . وقد استمرت هذه السياسة سائدة حتى عام ١٩٦٧ . وبموجبها سعت إسرائيل للحصول على طـائرات سوبر مستير وميراج من فرنسا ، ودبابات سنتوريون من إنجلترا ، وباتون من ألمـــانيا الغربية وأمريكا . وفى عام ١٩٦٢ زودت امريكا إسرائيل بصواريخ أرض جو طراز « هوك » ، وفى عام ١٩٦٦ زودتها بطائرات سكاى هوك .

(ا) تطوير القوات الجوية :

كان تقييم إسرائيل للموقف يؤكد ضرورة تحقيق السيطرة الجوية عند نشوب الحرب . وتوفير الدعم الجوى المتفوق الذى يمكن بواسطته ضمان النجاح السريع للقوات البرية . ذلك أن عدم تحقيق السيطرة الجوية قد يؤدى إلى تحويل الحرب السريعة الخاطفة إلى حرب استنزاف طويلة غير مضمونة العواقب .

وترتب على هذا ضرورة توفير طائرة « متعددة الواجبات » للقوات الجوية واتجهت إسرائيل إلى إستخدام المقاتلات الاعتراضية والقاذفة المقـاتلة الأكثر سرعة والأقل تعرضاً للإصابة عن قاذفات القنابل.

وحينما عين عايزر وايزمان قائداً للقوات الجوية عام ١٩٥٨ ، ركز على تنفيذ

هذه الفكرة، وكذلك على أهمية الدفاع الجوى. واهتم وايزمان باختيار الطائرات المناسبة للسلاح الجوى باعتبار أن هذا الاختيار سوف يشكل أحد العوامل الأساسية فى تحقيق النصر . وفى عام ١٩٦٧ صرح وايزمان بأنه :

« فى حالة الحرب مع العرب ، فإن أفضل أساليب الدفاع، هو تجنب العمليات فوق أرض إسرائيل والعمل على تهديد دمشق واحتلال الضفة الغربية والإندفاع نحو قناة السويس . فلو أن إسرائيل اكتفت بالدفاع عن تل أبيب، فسيكون ذلك انتحاراً جماعياً ، إذ ليس أمامها أى عمل استراتيجى برى . لذلك فإن العمل الاستراتيجى يجب أن يكون هو العمل الجوى » .

وهكذا حدد وايزمان فى عام ١٩٦٣ ، الاستراتيجية الأساسية لجولة يونيو ١٩٦٧ ، قبل بدء الحرب بأربع سنوات .

(ب) تطوير ودعم القوات البرية :

حظت المدرعات بنفس الاهتمام الذى حظت به القوات الجوية . فبعد عمليات ١٩٥٦ حددت الإستراتيجية الإسرائيلية وشكل الحرب القادمة على أساس « الحرب الميكانيكية » التى تعتمد على صدام حاسم بين قوات مدرعة كبيرة . وقد تعاقب على قيادة القوات المدرعة الإسرائيلية ثلاثة من القادة كان لكل منهم دوراً مميزاً يعتبر مكملا لدور القائد الذى سبقه ، وهم حاييم بارليف ، ودافيد اليعازر وإسرائيل طال . وبينما ركز بارليف على تشكيل القوات المدرعة وإعادة تنظيمها ومشاكل الإمداد والتموين . انصرف اهتمام اليعازر إلى وضع وبلورة أساليب استخدام المدرعات ، وتجديد أسلوب عملياتها . وأخذ اسرائيل طال على عاتقه مهمة رفع الكفاءة القتالية المدرعة ، والاهتمام الكبير بالانضباط والسيطرة على القوات وتقريب أوجه الاختلاف بين أنواع الدبابات .

وقد بذل اهتمام خاص للتركيز على مستوى الأفراد وتدريبهم . وعلى تنمية القادة باعتبار القيادة العامل الأول فى ضمان النجاح . وكان معظم كبار الضباط حتى عام ١٩٦٢ ممن سبق لهم الخدمة أصلا فى منظمات « البالماخ » « والهاجاناه » أو فى القوات البريطانية أثناء الحرب العالمية الثانية . ومنذ ذلك العام اهتمت القيادة العامة الإسرائيلية بتطعيم القيادات بدم جديد من الضباط الشبان ، من بين صغار الضباط الذين برزوا أثناء حرب ١٩٥٦ ، مع التخلص تدريجيا من قدامى الضباط الذين أصبحت خبراتهم القديمة غير متمشية مع التطور الحديث للقوات المسلحة الإسرائيلية .

الفصل الخامس

ثلاثة حروب

١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧

حرب ١٩٤٨

لم يكن اليهود فى فلسطين قبل قرار التقسيم يمتلكون سوى ٧ ٪ من مساحة الأرض البالغ قدرها أكثر من ١٠ آلاف ميل مربع . وفى يوم ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧، جاء قرار التقسيم يقضي بمنح ٥٥ ٪ من الأراضى الفلسطينية لليهود لإنشاء الدولة الصهيونية الجديدة. ونص القرار على إنشاء دولة عربية فيما تبقى من مساحة فلسطين، وعلى تدويل مدينة القدس . ووفقاً لقرار التقسيم فإن الأمر كان يقضى بتبادل السيطرة السياسية ، على أن يبقى المواطنون سكان فلسطين من عرب ويهود فى محال إقامتهم وعلى أرضهم .

غير أن القادة الصهيونيين ، سارعوا إلى تنفيذ قرار التقسيم بطرد العرب من المنطقة التى وقعت تحت سيطرة اليهود . وتصاعدت الأعمال الصهيونية الإرهابية والنشاط المعادى الموجه ضد المواطنين العرب . ومن أبرز الأمثلة على أعمال الفتك والإبادة والإرهاب الصهيونى مذبحة دير ياسين التى دمرتها العصابات الإرهابية الصهيونية فى فلسطين .

وعلى الرغم من أن عرب فلسطين كانوا يحاولون رد العدوان ودفع الأذى ومواجهة أعمال العنف والإرهاب الصهيونى ، إلا أن تنظيمهم وفاعليتهم كانت أقل مما كانت عليه أعمال العصابات الصهيونية . وقد حاول الانجليز الذين كانوا ما زالوا يحتلون إسرائيل السيطرة على الوقف دون جدوى وكانت جهودهم محدودة الأثر .

وفى نفس الوقت، فإن مجلس الأمن، الذى كان مسئولا عن تنفيذ قرار التقسيم، اكتشف أن القرار كان غير عملى ، وبدأ فى اتخاذ خطوات عملية نحو إلغائه . وكانت الأمور تتحرك بسرعة فائقة ، وعلى الرغم من كل هذا ، أعلنت الدولة الإسرائيلية يوم ١٤ مايو ١٩٤٨ ، من تل أبيب . وفى اليوم التالى أعلن الإنجليز إنهاء الحماية على فلسطين وفقاً لترتيبات مسبقة . وفى نفس الوقت بدأت الحرب رسمياً بين العرب وإسرائيل. وكان يوجد وقتئذ قرابة ٣٠٠ ألف لاجىء عربى ممن شردتهم أعمال الإرهاب الذى مارسته العصابات الصهيونية تمهيداً لتهيئة الجو لإقامة دولتها .

ونظراً لعدم وجود أى قيود على الهجرة . فإن العرب قد رأوا فى قرار التقسيم خطوة جديدة فى المخطط الصهيونى للسيطرة على جميع فلسطين . ولم يكن العرب على ثقة فى أن الأمم المتحدة سوف تكون قادرة على السيطرة على إسرائيل . وجاءت الطلقة الأولى فى الحرب الرسمية يوم ١٥ مايو . وسارعت مصر وسوريا ولبنان والعراق بإرسال قواتها لنجدة عرب فلسطين ، وكانت الأردن قد اشتركت فعلا فى المعارك .

وفى يوم ٢٠ مايو ١٩٤٨ ، عين الكونت برنادوت ـ الذى كان رئيساً لجمعية الصليب الأحمر السويدى ـ وسيطاً للأمم المتحدة فى فلسطين ، ومعه بضعة مئات من المراقبين من كل من الولايات المتحدة وبلجيكا وفرنسا . وكانت مهمتهم مراقبة تطبيق شروط الهدنة التى كان يفترض سريانها وقتئذ . وقد قام برنادوت

بدراسة الموقف عن قرب ، وقدم تقريراً يتضمن خطة جديدة من وضعه أساسها الحقوق الحقيقية لسكان المنطقة وكان هذا المشروع الجديد أقل سخاء من وجهة النظر الإسرائيلية عن مشروع التقسيم الأصلى الذى أقرته الأمم المتحدة ، والذى كان تنفيذه معطلا فى ذلك الوقت. وفى يوم ١٧ سبتمبر تم اغتيال الكونت برنادوت على يد عصابة إرهابية إسرائيلية[1] .

لقد استمرت الحرب بين العرب وإسرائيل من يوم ١٥ مايو ١٩٤٨ إلى مارس ١٩٤٩ . وخلال هذه الفترة توقفت الحرب مرتين بسبب الهدنة . وخلال المرتين حدثت خلافات بين القادة العرب على الزعامة . وبالرغم من أن العرب كانوا قد حققوا بعض الانتصارات فى بداية الحرب ، فإن المساندة التى لقيتها إسرائيل من القوى الإستعمارية ، وكميات الأسلحة الضخمة التى تدفقت عليها، قد ساعدت على تكتيل الجهود والقوى المبذولة من الجانب الإسرائيلى ضد العرب . وقد كانت كميات الأسلحة التى حصلت عليها من تشيكوسلوفاكيا وحدها كافية لتدعيم مركزها فى مواجهة العرب . وعلى الرغم من أن جلب الأسلحة والذخائر خلال هذه المرحلة فى حد ذاته كان يعد انتهاكا لقرار الهدنة الصادر من الأمم المتحدة ، فإن مراقبى الهدنة لم يكن يسمح لهم بالتواجد فى الموانى أو المطارات الإسرائيلية لمراقبة الموقف .

ولم تكن الجيوش العربية التى دخلت الحرب ـ على الرغم من أنها جيوش نظامية ـ على مستوى الخبرة والتدريب والتسليح الذى كانت عليه العصابات الصهيونية المسلحة. والقوات المصرية فى ظل الحكم الملكى الإستعمارى كانت رمزاً أكثر منها قوات محاربة. وكان أكثر نشاطها يتصل بالاستعراضات العسكرية فى المناسبات الملكية ، ولم تكن لديها خبرات قتالية بمفهوم الحرب الحديثة .

---

(1) E. H. Hatchison : Violent Truce, (N.Y. : The Devin-Adiar Co., 1950).

وحتى خلال الحرب العالمية الثانية التى جرت بعض أحداثها على حدود مصر فى الصحراء الغربية، فإن دور الجيش المصرى فيها كان ثانوياً، وأضيق من أن يكون له أثر على التراث العسكرى المصرى . وكان معظم نشاط الجيش المصرى وقتئذ ينحصر فى الدور الذى أدته المدفعية المضادة للطائرات. وعلى الرغم من أهمية هذا الدور ، فإنه كان محدوداً بحكم حجم القوات التى أدته ، ولم يكن يكفى لطبع القوات المسلحة المصرية بطابع قتالى خاص تتميز به ، أو إكساب القيادات خبرات ذات معنى يمكن أن تكون مجدية فى حروب أخرى .

وفضلا عن هذا فإن الجيش المصرى وقتئذ لم يكن يملك من الدبابات إلا عدداً يقل عن عدد أصابع اليدين ، وكانت من النوع الخفيف الذى استخدم فى أوائل الحرب العالمية الثانية . وحتى هذا العدد المحدود كان معظمه غير صالح للاستعمال . ولم يكن موقف الطائرات يختلف عن موقف الدبابات . ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد المؤسف ، فقد جاءت صفقة الأسلحة الفاسدة التى زود بها الجيش المصرى لتزيد الطين بلة ، ولتؤكد سوء الأوضاع والفساد الذى استشرى فى الدولة .

أما أفراد الجيش المصرى فلم يكونوا مختلفين عن هذا الوضع . ويكفى لتوضيح حالة الجنود أن نذكر أن التجنيد الإجبارى لم يكن قد فرض بعد . وكان نظام البدلية قائماً ، وهذا النظام كان يتيح للمواطن الحق فى الإعفاء من خدمة الجيش إذا تقرر استدعاؤه متى دفع عوضاً مالياً لا يتجاوز عشرين جنيهاً . وهذا يعنى أن نوعية المواطن الذى كان يلتحق بالجيش كان من النوع العاجز عن أن يشترى خمس سنوات من شبابه بهذا القدر المحدود من المال [١] .

---

(١) صلاح الحديدى : شاهد على حرب ١٩٦٧ ، (مذكرات : مجلة الحوادث اللبنانية ، سبتمبر ١٩٧٢) .

ولما كان هذا يحدث فى ظل نظام رأسمالى يسمح بالمرونة فى إستخدام المال الخاص ، فقد كان من نتائج هذا الإجراء أن المجندين بالجيش فى ذلك الوقت كانوا من الطبقة الدنيا ومن النوع الأمى ، الذين يعانون من شتى أنواع الأمراض المتوطنة ، والذين يستشعرون مسافة ضخمة بينهم وبين النظام الاجتماعى الظالم ، ولا يعنيهم استمرار هذا النظام .

وفى ظل هذا الأوضاع سارت الحرب فى فلسطين عام ١٩٤٨ ، دون تخطيط أو إعداد أو تجهيز . ومع ذلك فقد تخللتها أحداث لبطولات فرديه قام بها بعض الضباط المصريين .

وقد أمكن من خلال جهود الأمم المتحدة والرأى العام العالمى توقيع اتفاقيات هدنة بين أسرائيل والدول العربية الأربعة المحيطة بها فى خريف وأوائل صيف ١٩٤٩ . ومع ذلك فإن هذه الاتفاقيات لم تحل مشكلة واحدة من المشكلات الأساسية القائمة بين العرب وإسرائيل ، بل على العكس من ذلك ، كان العرب فى حالة غضب وثورة نتيجة طرد حوالى ٩٠٠,٠٠٠ فلسطنى من ديارهم .

لقد وضعت خطوط الهدنة فى عجالة ، دون دراسة متعمقة للأوضاع العملية أو النظر فى حدود القرى القائمة أو أوضاعها الطبيعية والجغرافية . ونتيجة لهذا التخطيط السيىء للحدود المؤقته ، والتى لم تكن تتوافق مع خطوط القتال بأى حال ، نشب المزيد من المعارك وبرز العديد من المتاعب ، ولم تضع حرب ١٩٤٨ نهاية للموقف ، ولكنها مثلت بداية للصراع المسلح على الأرض المضطربة .

الاعتداء الثلاثى

١٩٥٦

لقد كانت السياسة الأمريكية تجاه منطقة الشرق الأوسط دائماً غير مستقرة وكثيراً ما كانت متناقضة . وربما كان ذلك انعكاساً للآراء المتناقضة أو المتصارعة بين كل من وزارة الخارجيه الأمريكية ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية .

وبعد خروج الانجليز من مصر وجلائهم عن منطقة القنـــاه ، سعت مصر للحصول على عون مادى من إنجلترا ومن أمريكا ، ثم من البنك الدولى لتمويل مشروع السد العالى . وفى يوم ١٩ يوليو ١٩٥٦ أعلنت كل من بريطانيا والولايات المتحدة رفضهما لتمويل المشروع . وبعد أسبوع من هذا الرفض أعلن الرئيس عبد الناصر تأميم شركة قناة السويس . وكان هذا الإعلان بمثابة صدمة عنيفة لكل من فرنسا وإنجلترا وأمريكا .

وكانت إسرائيل فى نفس الوقت تعانى أشد المعاناة من نشاط الفدائيين العرب على حدودها المتاخمة لكل من مصر وسوريا والأردن ، وعند إعلان تأميم قناة السويس وجدت الجو مهيئاً أمامها للدخول فى مؤامرة ثلاثية مع فرنسا وبريطانيا لمهاجمة مصر . وكانت الأحداث المتلاحقة التى شملت تعريض مصر بحلف بغداد ، وصفقة الأسلحة بينها وبين الاتحاد السوفيتى ، ومساعدتها لثوار الجزائر ، واعترافها بالصين الشعبية ، وتأميم القناة ، كلها تقف أسباباً قوية لقيام هذا التآمر .

وجرى التآمر فى بدروم وزارة الحرب البريطانية ، حيث قيادة العمليات الحربية ممتدة أسفل نهر التيمز ، وفى بيت منعزل قرب مطار « فيلا كوبلاى » الحربى بالقرب من باريس . حيث عكف الفرنسيون والانجليز والإسرائيليون

على وضع خطة العدوان الثلاثى على مصر ٠ وتم الاتفاق فعلا على تدمير المطارات المصرية فى الساعات الأولى حتى تتوفر الحماية الكافية لإسرائيل ٠ ووضعت صيغة الإنذار الفرنسى البريطانى الذى سيوجه إلى مصر وإسرائيل معا ٠ واتفق على موقف كل من فرنسا وإنجلترا فى الأمم المتحدة ، وعلى أن يبدأ الغزو يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ ، وعلى تعهد الدولتين بحماية إسرائيل حماية مطلقة إذا ما تعرضت لهجوم من القوات المسلحة المصرية ٠

وفى يوم ٢٣ أكتوبر ١٩٥٦ حضر بن جوريون الاجتماع الذى تمت فيه اللمسات الأخيرة للمؤامرة . وفى اليوم التالى عاد إلى تل أبيب ، وأعلنت إسرائيل التعبئة العامة ، وأخطرت القيادة الفرنسية البريطانية بموعد الغزو . وتحركت فعلا عجلة الحرب . وقبل بدء الهجوم الإسرائيلى على مصر ببضعة أيام ، وصلت إلى المطارات المجاورة لتل أبيب أفواج من طائرات المستير وطائرات سابر — ف — ٨٦ الفرنسية ، بطياريها وجنودها الفرنسيين ، وعدد كبير من الفنيين وقطع الغيار .

وبقى جزء من هذه القوة الجوية الفرنسية فى حماية المدن الإسرائيلية ، ولم يشترك فى الهجوم على مصر . ولما ضربت المطارات المصرية ودخلت بريطانيا وفرنسا الحرب رسميا بعد الإنذار الزائف الذى وجهتاه إلى كل من مصر وإسرائيل ، أخذت القوة الفرنسية التى كانت فى حماية المدن والمطارات الإسرائيلية تتحرر من مهمتها، وتشترك اشتراكا إيجابياً فى قصف القوات المصرية فى سيناء . وكانت مهمة السلاح الجوى الفرنسى الأساسية ضرب خطوط الإمداد المصرية فى سيناء (١) .

وفى التاريخ المحدد لإنزال القوات الإنجليزية الفرنسية فى بور سعيد ، نفذت انجلترا وفرنسا خطة الغزو فى ٦ نوفمبر ١٩٥٦ . وفى الواقع أن قصة المعارك التى دارت ليست بالدرجة الأولى من الأهمية ، لأنها دارت بين قوى غير متكافئة

---

(١) أحمد بهاء الدين : إسرائيليات . وما بعد العدوان ، (القاهرة : دار الهلال ، الطبعة الرابعة) ، ص ١١٩ ومابعدها

قوامها فرنسا وانجلترا وإسرائيل فى جانب ، ومصر وحدها فى الجانب الآخر ـ ولـكن الأهم من مجريات المعارك هى قصة التآمر والترتيبات التى سبقت وقوع الحرب، والتى تبدو جلية واضحة فى كتابات الـكثيرين أمثال هيرمان فينر فى كتابه « دالاس والسويس » ، وميشيل بن زوهار فى كتابه « السويس .. سرى جداً ». وعلى الرغم من أن المؤلف الأخير إسرائيلى ، فهو يعرض أدق الأسرار وأخطرها عـن خطة الغزو وقصة المؤامرة التى حيـكت أطرافها بين الدول الثلاثة .

لقد كان من نتائج دخول انجلترا وفرنسا الحرب أن صدرت الأوامر إلى القوات المسلحة المصرية بالانسحاب من سيناء حتى لا تقع فى الشرك الذى نصبته لها قوى العدوان الثلاثة . وكان قرار الانسحاب قراراً رصيناً أحكم توقيته ، واتخذ مع التقدير الـكامل الذكى لأبعـاد المؤامرة وما تستهدفه . وفى الواقع أن هـذا القرار قـد ضيع الفرصة على قوى العدوان الثلاثى من أن تنال من الجيش المصرى .

وتقدمت إسرائيل فى سيناء واحتلت شرم الشيخ وفتحت خليج العقبة لملاحتها ، ومع ذلك فإن ثمار هذا التآمر الثلاثى لم تدم طويلا . فقد طلبت الجمعية العامة للأمم المتحدة إيقاف إطلاق النار بأغلبية ٦٤ صوتا ضد ٥ أصوات وامتناع ٦ دول عن التصويت . وبعد بضعة أسـابيع سحبت كل من فرنسا وبريطانيا قواتها من مصر . ومع ذلك فقد تلـكأت إسرائيل فى الانسحاب من غزة وشرم الشيخ ، وفى مارس ١٩٦٧ اضطرت للانسحاب تحت ضغط من الولايات المتحدة الأمريكية .(١)

---

(1) Randolf and Winston Churchil : The Six Day War, (London : Heinmann, 1957), pp. 22.

ولعل أهم نتائج هذه الحرب هو الفشل السياسى الذى منيت به كل من فرنسا وبريطانيا . فقد وقفت الولايات المتحدة منهما موقفا يدين العدوان وتخلت تماماً عن أي تأييد للغزو . وإذا كانت دول العدوان الثلاثى قد حققت نصراً عسكريا، فإنها فى نفس الوقت قد فشلت تماماً فى تحقيق أهدافها السياسية .

وعلى الجانب المصرى كانت الصورة متناقضة إلى حد بعيد ، فعلى الرغم من ضرب المطارات المصرية فى بداية العمليات الحربية وتدمير جانب كبير من السلاح الجوى والانسحاب من سيناء دون الدخول فى معارك حربية واسعة ، فإن المكاسب السياسية التى حققتها مصر نتيجة العدوان الثلاثى لا يمكن التقليل من شأنها . ولعل أبلغ تعبير عن هذه الحقيقة قول الكاتب الإسرائيلى ميشيل بن زوهار فى كتابه « السويس ... سرى جداً » .

« لقد ولد الغزو ميتا ، أما الانتصار الحقيقى فقد كان انتصار عبد الناصر ، الذى خرج من المعركة وهو بطل العالم الثالث ، أى عالم آسيا أفريقيا وأمريكا اللاتينية . إن كل عملية السويس التى أرادت أن تقضى عليه قد كللته فى النهاية بأكاليل الغار » .

ومع ذلك ، فإنه على الرغم من الهزيمة العسكرية ، فقد كانت هناك صور وضاءة من البطولات التى قامت بها بعض الوحدات المصرية التى منحت فرصة متكافئة للقتال . ومن أمثلة ذلك رجال اللواء المشاة الذى قاتل فى أبو عجيله بكل شجاعة وإصرار واستبسال ، والدور الذى قام به رجال المقاومة من عسكريين ومدنيين فى الدفاع عن مدينة بور سعيد، وفى التصدى لقوات الغزو والمظليين الذين هبطوا بها .

على أنه مع كثرة هذه التضحيات والبطولات من جانب الأفراد ، والخسائر المادية الضخمة التى منيت بها القوات المسلحة المصرية ، وفى مقدمتها ما أصاب

السلاح الجوى من تدمير ، فإن معارك بور سعيد وسيناء عام ١٩٥٦ لم تكن كافية لتطعيم القوات المسلحة المصرية بخبرات قتالية شاملة . أو لتجعل منها قوات ذات تاريخ عسكرى معاصر . ولم يكن القتال المحدود الذى تم فى أجزاء متفرقة من سيناء . والانسحاب الطويل الذى تم معظمه على الأقدام بجد فى صقل القوات المصرية وطبعها بطابع قتالى خاص ، أو إضافة أمجاد عسكرية إلى تاريخها [١] .

---

(١) صلاح الحديدى : شاهد على حرب ١٩٦٧ (المرجع السابق) .

حرب ١٩٦٧

مقدمة :

فى نهاية عام ١٩٦١ ، كانت مصر تعانى أشد المعاناة من آثار انفصال سوريا عنها . وتصدع جمهورية مصر العربية إثر تفجر الموقف بين الدولتين ، وشكوى سوريا مصر للجامعة العربية . وفى صيف ١٩٦٢ عقد مجلس الجامعة فى شتوره بلبنان ، وطفى الخلاف إلى السطح ، وجرت المناقشات والمهاترات ساخنة وعلانية فى جلسات المجلس . ووقف العالم يرقب مهزلة كبرى بين العرب .

وجنحت معظم الدول العربية فى اتجاه سوريا . وكادت مصر أن تقف بمفردها . وكان واضحا أن مصر تمر بمحنة ، وأنها فى مأزق شديد مما اضطرها إلى التهديد بتجميد موقفها من الجامعة العربية . وأصبح جليا أن كل ما تحقق فى سبيل الوحدة العربية بات مهدداً بالانهيار .

وتحت وطأة هذه الظروف السيئة ، أخذت القيادة السياسية فى مصر تبحث عن مخرج . كيف يمكن أن تجد بديلا يملأ الفراغ الذى ظهر بانفصال سوريا ؟ وكيف يمكن أن تقوم بعمل عربى مضاد لحركة الانفصال ينقذ ماء الوجه ؟ . وقامت الثورة فى اليمن بقيادة العميد عبد الله السلال . ووجدتها مصر فرصة مواتية ، فلم تتردد فى الاعتراف بالثورة ، بينما وقفت المملكة العربية السعودية فى جانب الإمام البدر وقبلت لجوءه إليها هو ومن تمكن من الهرب معه .

وبادرت مصر بإرسال وحدات من قواتها المسلحة إلى اليمن ، واشتركت هذه الوحدات فى الاشتباكات التى بدأت بين الجمهوريين والملكيين . ولم تكن حربا سهلة . ولكنها تحولت إلى شبه حرب استنزاف للقوات المصرية ، أخذت طابع

حرب العصابات . وكانت طبيعة أرض اليمن الجبلية بجبالها المرتفعة ، وطرق مواصلاتها الضيقه ، وأماكن الحماية الطبيعيه، وإلمام اليمنيين التام بجغرافية المكان عوامل مؤثرة تماما فى مدى قدرة القوات المصرية على العمل والحركة .

وبمرور الزمن تمرس اليمنيون على القتال ، وطوروا من تسليحهم ، وأخذوا يعملون فى جماعات ملمة بطبيعه الجبال ، يعتلون نواصيها ، ويتصيدون أفراد القوات المصرية الذين يحاولون تدعيم ركائز النظام الجمهورى . وهكذا لم تأخذ حرب اليمن أى شكل من أشكال الحرب النظامية الحربية . فلم يكن هناك تصور واضح للمعركة . وإنما كانت المعارك أشبه بعمليات القمع والتأديب ، ضد القبائل الموالية للإمام ، والتى تهدف أساسا إلى تحقيق مكاسب مادية من الطرفين متى تيسر لها ذلك .

وبالنسبة لأفراد القوات المسلحة المصرية ، ازدادت الرغبة لديهم فى العمل باليمن نظراً للمكاسب المادية التى كان يتمتع بها المحاربون هناك . ومع استمرار تدفق الأفراد على اليمن زاد حجم القوات المصرية الموجودة هناك عن ما تبقى منها على أرض مصر. فتأثرت بذلك خطط الدفاع عن سيناء، وحجم القوات المتمركزة فى مواجهة إسرائيل .

ومن الناحية العسكرية لم تكن الاشتباكات ذات قيمة حربية حقيقية فنية أو عمليه . كانت عمليات تأديبيه لرجال القبائل المسلحين بأسلحة خفيفه ، فى ظل سيادة على الجو مطلقة يدعم بها طيراننا مركز القوات الأرضية . وهذا الوضع لم يجعل القوات المصرية فى حاجة إلى اتخاذ إجراءات دفاعية ذات شأن . أو استخدام قوات دفاع جوى . ولم تهتم بعمليات الإخفاء أو التمويه ضد طيران العدو .

ويمكن القول أن تصور القوات المصرية باليمن للحرب بنى على هذا الأساس الخاطىء لنوعية وأسلوب وحجم العمليات باليمن .

وكان مثل هذا التصور قاهراً لمستقبل جيش يعد نفسه لملاقاة جيش عصرى فى فكره واستراتيجيته وتخطيطه وتجهيزه وأساليب قتاله ، وهو جيش إسرائيل .

وإذا كانت حرب اليمن قد أخذت ميدانها على أرض جبلية شاهقة الارتفاع والانحدار صعبة ووعرة . . . . فإن الحرب التى كانت تنتظر مصر فى الغد كانت حرب صحراء سيناء المنبسطة فى معظم أرجائها ، والتى يسهل معها الاستطلاع ، ويتسيد فيها سلاح الجو .

وللأسف أن هذه التجربة المحدودة فى اليمن أملت على سلوك قيادتنا منذ إعلان حالة الطوارئ يوم ١٤ / ٥ / ١٩٦٧ الكثير من الغرور والثقه الزائدة بالنفس ، كما لو كانت خبرة القتال التى اكتسبت فى ميدان مختلف ضمان للنجاح فى سيناء .(١)

نصاعد الأحداث :

فى يوم ٢ يونيو ١٩٦٧ ، وعلى مسافة آلاف الأميال من إسرائيل ، طرح الحاخام الاكبر لليهود فى بريطانيا إيمانويل باكوبوفيتش برنامجا للعمل ، من شأنه أن يخلق قاعدة لنشاط المخابرات الإسرائيلية ، إلى جانب مايصبو البرنامج لتحقيقه من أهداف أخرى . وقد جاء فى هذا البرنامج .

« يجب أن نبذل كل ما فى وسعنا حتى لا يكون فى العالم كله يهودى واحد يتقاعس عن أداء واجبه . يجب أن يكون الشباب على استعداد للقتال ، وعلى الآخرين أن يهبوا بمجرد الاتصال التليفونى بهم من إسرائيل ، لكى يشغلوا

---

(١) الفريق صلاح الحديدى : المرجع السابق .

أماكن المجندين فى الجيش ، وعلى الباقين جميعاً أن يؤدوا ضريبة تفرض على كل يهودى ، ويجب أن تكونوا جميعا تحت قيادتهم حين يرون ذلك » .

وفى نفس اليوم الذى صدر فيه هذا التصريح ـ أى على يوم ٢ يونيه ١٩٦٧ ـ كانت صحيفة سويسرية تنشر نداء من المنظمة الصهيونية العالمية لا يكتفى فقط بطرح برنامج عمل للصهيونيين ،وإنما يحدد أيضاً أساليب التنفيذ . وقد جاء فيه :

« أن وجود وأمن دولة إسرائيل سيتعرضان للخطر . وإن كافة السكان فى إسرائيل ليقدرون حق التقدير الخطر المحدق بهم ، ويمتلئون إصرارا على تحمل أية تضحيات . لقد أعلن السكان كافة بصرف النظر عن جنسياتهم السابقة وانتماءاتهم الحزبية ، فى هذه الظروف الحاسمة عن تقديم إمكاناتهم بلا تحفظات فى خدمة دولة إسرائيل . . . . . فى هذه اللحظات الحاسمة نتوجه إلى جميع أشقائنا فى الشتات برجاء تدعيم الصلة ما بين صهيون وبين الشتات ، وتعبئة كل شعوب الأرض للتعاطف مع إسرائيل . . . . وتشجيع الشباب على الهجرة إليها ، وعلى العمل بدلا من أولئك الذين يقفون اليوم على الحدود من أجل الدفاع عن الوطن . »

هكذا كانت تنشط الصهيونية العالمية،وإسرائيل سعياً إلى الإعداد للحرب وتعبئة الرأى العام العالمى ، واليهودى بصفة خاصة فى هذا الاتجاه. وكان نشاط الفدائيين العرب المنتمين إلى منظمة فتح الموجه ضد إسرائيل قد أخذ يتصاعد بصورة واضحة فى أواخر عام ١٩٦٦ . وفى ٤ نوفمبر من نفس العام وقعت مصر وسوريا اتفاقية دفاع مشترك . وأعقب توقيع هذه الاتفاقية حادثان استفزازيان هامان من جانب إسرائيل . ففى ١٣ نوفمبر هاجمت قوة إسرائيلية ضخمة تضم عدداً من الدبابات والسيارات المصفحة قرية السموع الأردنية ، ودمرت ١٢٥ منزلا ، وعيادة طبية ومدرسة . واستهدفت إسرائيل من وراء هذا العمل بث الرعب فى قلوب المواطنين الحكومة الأردنية حتى لايسمحوا للفدائيين بالعمل من الأراضى الأردنية . وفى

غارة أخرى ، هاجمت القوات الإسرائيلية مدعمة بسلاح الطيران المواقع السورية على الحدود ، ووقعت معركة جوية يوم ٧ إبريل ١٩٦٧ خسرت فيها سوريا عدداً من الطائرات .

ولما لم تتوقف عمليات الفدائيين العرب أثر هذه الغارات الإسرائيلية الانتقامية صرح الجنرال اسحق رابين رئيس الأركان العامة ، بأن القوات الإسرائيلية سوف تهاجم دمشق وتسقط حكومة نور الدين الأتاسى . وفى ١٤ مايو سنة ١٩٦٧ ، أعلن ليفى أشكول رئيس الوزراء الإسرائيلى فى تل أبيب ، بأنه فى ضوء هجمات الفدائيين التى وقعت خلال الشهر الماضى — ١٤ حادثة — فإن إسرائيل سوف تكرر الإجراء الذى اتخذته قبل سوريا فى ٧ أبريل .

هكذا كان الموقف يتصاعد يوما بعد آخر . وكانت الجبهة المصرية وقتئذ شبه مقيدة بسبب وجود قوات الطوارىء الدولية على الحدود بين مصر وإسرائيل . وكان الرأى العام العربى يتصاعد فى اتجاه ضرورة اتخاذ موقف إيجابى من قبل مصر .

وفى ١٥ مايو ١٩٦٧، بدأت القوات المصرية تتحرك بأعداد ضخمة فى اتجاه منطقة القناة . وفى نفس اليوم كانت القوات الإسرائيلية تحتفل بالذكرى السنوية لتأسيس دولة إسرائيل . وقد جرى الاحتفال فى مدينة القدس ، مما زاد مشاعر العرب التهاباً واستنكاراً .

وفى اليوم التالى ، أرسل رئيس أركان حرب القوات المسلحة برقية إلى قائد قوة الطوارىء الدولية يخبره فيها بأن الأوامر قد صدرت إلى القوات المسلحة المصرية بأن تكون على أهبة الاستعداد للتصدى لإسرائيل فى حالة مبادأتها بالإعتداء على أية دولة عربية . وطلب سحب قوات الطوارىء الدولية من الحدود المصرية .

وكانت هذه القوات قد أخذت أماكنها منذ نوفمبر ١٩٥٦ فى أعقاب حرب السويس وفى يوم ١٩ مايو ١٩٦٧ أعلن يوثانت فى الجمعية العامة للأمم المتحدة ، بأنه قد تسلم طلب مصر بسحب قوات الطوارىء الدولية ، وأن الأوامر قد صدرت إليها فعلا بالانسحاب المنظم .

وفى يوم السبت ٢٠ مايو ، استكملت إسرائيل عملية التعبية الجزئية لقواتها المسلحة . وفى نفس اليوم أصدر وزير الحربية فى مصر أمراً باستدعاء الإحتياطى .

وفى يوم الإثنين ٢٢ مايو ، أعلنت مصر غلق مضايق تيران فى وجه الملاحة الإسرائيلية . وأعلن الرئيس عبد الناصر أنه قد أمر بإغلاق خليج العقبة فى وجه السفن الإسرائيلية وسفن أى دولة أخرى تحمل مواد إستراتيجية إلى إسرائيل .

وقد رد ليفى أشكول فى اليوم التالى أمام الكنيست بأن التدخل فى حرية الملاحة الإسرائيلية بمضايق تيران يعتبر بمثابة إعلان الحرب على إسرائيل . وفى نفس اليوم صرح الرئيس الأمريكى جونسون بأن إغلاق مصر للمضايق فى وجه الملاحة الإسرائيلية هو عمل غير مشروع، وأن الولايات المتحدة مسئولة عن تأمين سلامة كل الدول بالشرق الأوسط .

وفى يوم الأربعاء ٢٤ مايو أعلنت إنجلترا والولايات المتحدة إتفاقها على ضرورة فتح خليج العقبة أمام الملاحة الدولية . واتجهت قطع الأسطول السادس الأمريكى إلى شرق البحر المتوسط لتدعيم الجهود المبذولة لفتح الخليج . وفى نفس الوقت أعلنت مصر أن إغلاق المضايق قد تم ، وأن الألغام قد بثت بالمنطقة وأن بطاريات السواحل مستعدة للعمل ضد أى تدخل . وأعلنت الحكومة الأردنية ، أنها قد صرحت بدخول القوات السعودية والعراقية إلى الأردن للدفاع عنه .

إسرائيل بدأت الحرب :

كان لقرار إغـــلاق المضايق ، وقرار سحب قوة الطوارىء الدولية أثرها على القرارات العسكرية . فقد طلب إلى القوات المسلحة اتخاذ الإجراءات الفورية لإغلاق مضيق خليج العقبة . وكانت مسئولية القوات التى عهد إليها تنفيذ هذه المهمة تنحصر فى وضع عدد من المدافع الساحلية التى تتكفل بقصف أى سفينة تحاول عبور المضيق الذى يفصل بين الشاطىء المصرى وجزر تيران . على أن الأمر كان يتطلب فى نفس الوقت ضرورة توفير الحماية الضرورية لهذه القوات من قصف العدو الجوى وقوات المظليين . وهكذا كان تأمين المدافع الساحلية يستوجب تخصيص قوات متكاملة للقيام بهذا الواجب ، ولم يكن وصول القوات الضرورية إلى مواقعها على الخليج أمراً سهلا .

لقد دلت الأحداث فيما بعد على أن المشكلة لم تكن أبداً صراعاً محلياً على الحدود بين دولتين ، ولسنا هنا بصدد عرض تاريخى للأزمة التى انتهت بالحرب ، ولكننا نحاول فحسب أن نلقى بعض الضوء على أحداثها بهدف الكشف عن دلالاتها وعن عواقبها البعيدة المدى .

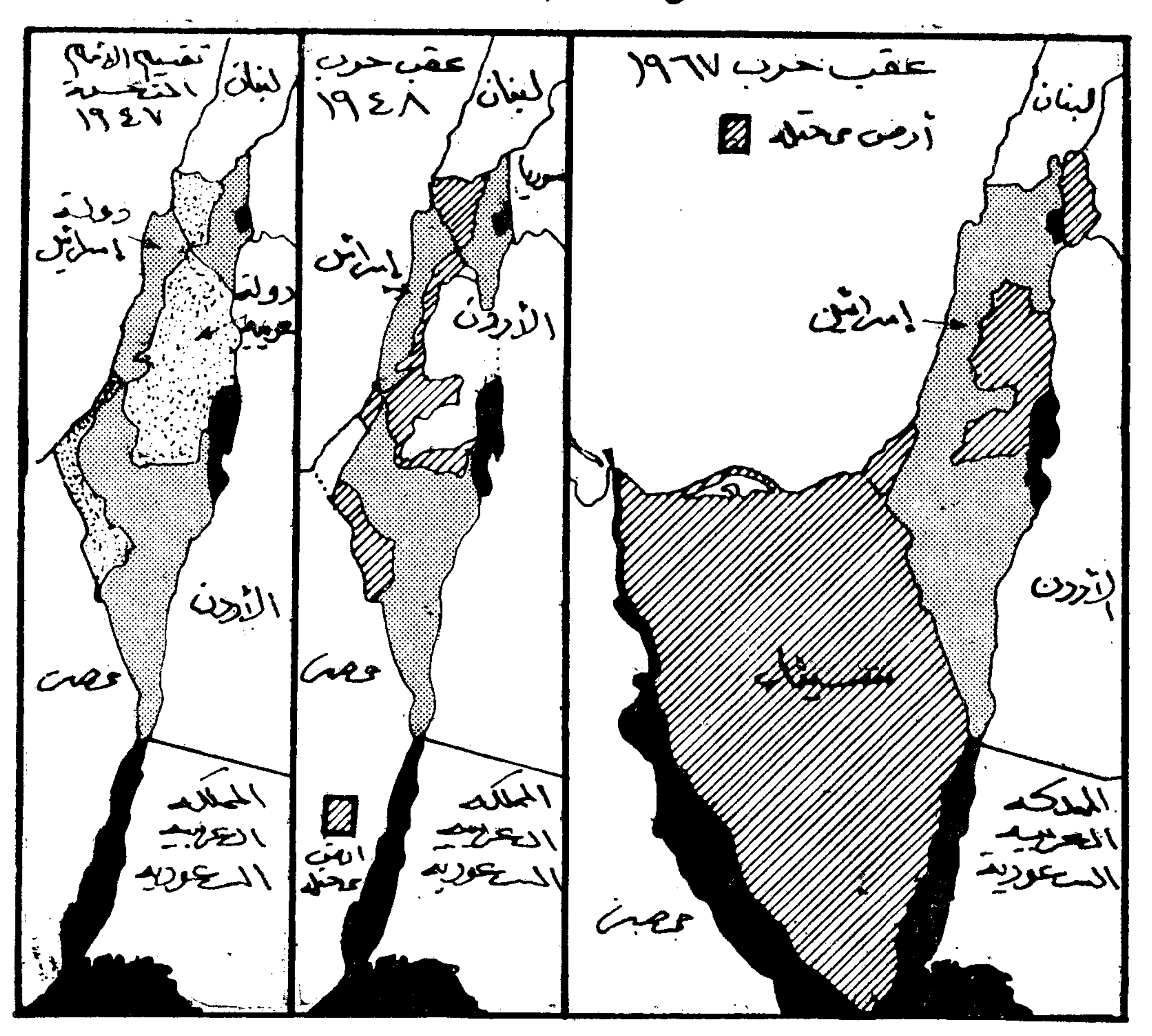
لقد اندلعت الحرب فى صباح ٥ يونيو ، ولن نسمح لأنفسنا بالوقوف عند السؤال الذى طرح بذكاء عندئذ وهو : من الذى بدأ بالعدوان ؟ ثم صار فيما بعد : من الذى بدأ بالهجوم ؟ فمن المعروف اليوم أن إسرائيل قد بدأت بالهجوم فى صباح ٥ يونيو ، أما القول بأن مصر بدأت العدوان بإغلاق خليج العقبة ، فإنه قول يسلمنا إلى حلقة مفرغة من التساؤلات[١] .

---

(١) فؤاد مرسى « حرب ٥ يونيو ؟ دلالاتها وتطوراتها ، (القاهرة : مجلة الطليعة العدد ٢ يونيو سنة ١٩٧٠) .

تطور التوسع الإسرائيلى

من ١٩٤٧ إلى ١٩٦٧



أما القول بأن إسرائيل قد بدأت الحرب لأنها كانت تتخوف من فكرة الإبادة التى رددتها القيادة السياسية فى مصر وقتئذ ، فلا يمكن قبوله . ولا يمكن تفسيره سوى بأنه خدعة دعائية رددتها إسرائيل لتبرر عدوانها ، ولتكسب تأييد الرأى العام العالمى وعطفه فى موقف هى فيه معتدية ومتجنية .

ويوجد من بين المسئولين الإسرائيليين من أبرز جانب الحقيقة فى هذا الادعاء . فقد ذكر الجنرال ماتاتياهو بيليد ، وكان عضواً فى هيئة أركان الحرب التى أعدت لعملية ١٩٦٧ فى محاضرة ألقاها فى تل أبيب :

« إن النظرية التى تقول بأن خطر الإبادة كان يخيم على إسرائيل فى يونيو ١٩٦٧ وأنها كانت تصارع فى سبيل وجودها المادى ليست سوى خدعة . وأنا أرفض تماما القول بأن الإسرائيليين كانوا معرضين للإبادة أو خطر الإعدام كأفراد أو جماعات ، وأعتبره قولا زائفاً » .

كما أكد الجنرال حاييم بارليف رئيس الأركان المساعد إبان العدوان ، ثم رئيسها فيما بعد ، لصحيفة معاريف :

« لم يكن هناك خطر إبادة عشية حرب الأيام الستة ، لم نفكر فى هذا ولم نتحدث فيه . إن مثل هذا الخطر ، كان قائماً فى ١٩٤٨ ، ١٩٤٩ فحسب » .

والحقيقة أن الإسرائيليين بدأوا يعدون للحرب منذ نهاية عام ١٩٦٦ ، وبداية ١٩٦٧ ، حيث أخذ قادة إسرائيل يتخذون خطوات إيجابية للتنفيذ الفعلى . وفى ٧ أبريل ١٩٦٧ أشعلوا نيران القتال على الحدود السورية ومع ذلك طفقوا يتحدثون كثيراً عن رغبتهم فى السلام . فقد أعلن أشكول فى الكنيست فى ٢٢ مايو :

« أريد أن أقول بأعلى صوتى للبلاد العربية وخاصة مصر وسوريا ، أنه ليست لدينا نوايا عدوانية ضدها ، وليس لنا مصلحة فى المساس بأرضها أو حقوقها المشروعة » .

ويقول جاك كوبار فى كتابه « حرب الأيام الستة » أنه مع أن الرئيس عبد الناصر قد أعلن أن مصر لن تدخل الحرب إلا إذا تعرضت سوريا والبلاد العربية للعدوان، فقد تناست الصحف الغربية كلمة « إلا إذا »، وأخذت تردد أن مصر تريد الحرب.

لقد أجمع المراقبون والكتاب والمعلقون على أن الاعتداء الإسرائيلى بدأ بضربة جوية على جميع القواعد المصرية فى حدود الساعة الثامنة وخمس وأربعين دقيقة من صباح يوم الإثنين الخامس من يونيو ١٩٦٧ . وكان من نتيجته تدمير معظم الطائرات المصرية وهى جاثمة على الأرض، وإتلاف ممرات المطارات نتيجة للفجوات العميقة التى أحدثتها القنابل التى ألقتها الطائرات المغيرة .

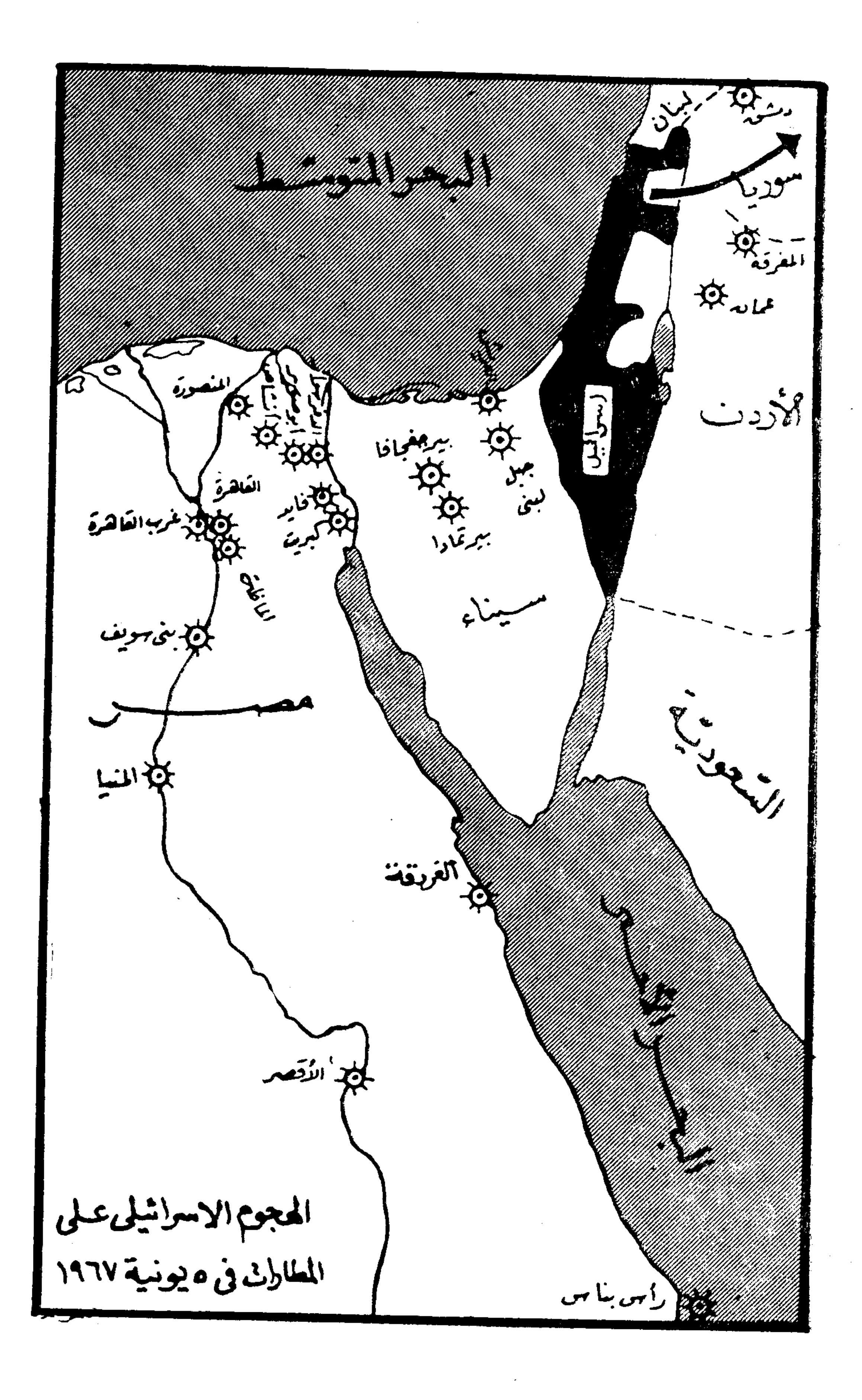
وكان من الممكن أن تصمد القوات المسلحة المصرية فى وجه هذا العدوان، وأن تقوم بتنفيذ خطتها الهجومية التى كانت قد أعدتها من قبل لو أن رد فعل القيادة المصرية وقتئذ كان متزناً وحكيما. ولكن للأسف كان وقع المفاجأة شديداً وأصيبت القيادة العسكرية بصدمة قوية أعقبها شلل فى عملية اتخاذ القرارات ، ولما استعادت تفكيرها كان رد الفعل بالنسبة للموقف خاطىء وسيىء . إذ أصدرت القيادة أمرها بالانسحاب إلى غرب القناة فى ٢٤ ساعة .

وفى هذا يقول الرئيس السادات فى حديث إلى ضباط وجنود القوات المسلحة:

« إحنا أخذنا هزيمة أليمة ومريرة جرحانا كلنا وانظلمتوا انتوا فيها . لأنكم ما أخدتوش فرصة للحرب . أنتم جالكم أمر ، أنا بأقول عليه أمر مجنون ، أن تنسحبوا غرب القناة فى ٢٤ ساعة ، عمرها مابتحصل ، وماحدش بيدى أمر زى ده أبدا ... أمر خطأ من القيادة العسكرية الموجودة للأسف[1] » .

إن إسرائيل فى حرب ١٩٦٧ قد نجحت تماماً فى تطبيق الاستراتيجية العامة التى وضعها القادة الصهيونيون منذ محاولات إنشاء الدولة وأبعاد هذه الاستراتيجية التى سبق أن تعرضنا لها بوضوح هى : —

(١) حديث إلى الضباط والجنود فى أسوان ، يوم ٣٠ يناير ١٩٧٢ .



الهجوم الاسرائيلى على
المطارات فى ٥ يونية ١٩٦٧

١ — نقل المعركة فى أقصر وقت خارج حدود اسرائيل الضيقة وإلى أرض العدو تفادياً لوقوع أية خسائر ذات شأن .

٢ — أن يكون الأساس فى الحرب هو العمل الفورى على تدمير القوات المسلحة للعدو ، وليس إحتلال أرض .

ويكاد الاجماع ينعقد بين كل الخبراء العالميين على أن النكسة الحقيقية قد تمثلت بالدرجة الأولى فى الضربة الموجهة للطيران المصرى ، والتى كان الفشل فى توقيها مذهلا .

إن هذه الضربة قد نجم عنها على الفور عدة آثار ، أهمها :

١ — أن القيادة العسكرية المصرية أصبحت فى حالة عصبية إلى درجة قلقة . ولقد حاولت بعض هذه العناصر لمدة ساعات حرجة إخفاء أبعاد الحقيقة ، خصوصاً وأن التحذيرات كانت متوالية طوال فترة الأزمة بالتنبيه إلى أن الضربة الأولى من العدو سوف تكون موجهة إلى الطيران .

٢ — أن القيادة العسكرية المصرية فقدت بعد ذلك كل ثقة فى إمكانية النصر .

٣ — أن القوات فى الصحراء المكشوفة أحست على الفور بما حدث للطيران ، ولم يكن صعباً عليها تصور اتجاه سير المعركة بعد ذلك .

ويقول محمد حسنين هيكل « إن العدو حقق انتصاراً أكبر مما كان يستحق ، وأننا أصبنا بهزيمة أكبر مما كنا نستحق » . وأن هناك ثلاث حقائق عامة وأساسية ليست محل خلاف تتصل بحرب ١٩٦٧ ونتائجها :

الحقيقة الأولى : أن العرب كانوا يواجهون عدواً تلقى مساعدات غير عادية .
الحقيقة الثانية : أن هذا العدو تصرف فيما حصل عليه من إمكانات ببراعة غير عادية .

الحقيقة الثالثة : أننا فى تصرفنا فيما كان لدينا من الإمكانات — ولم يكن ما لدينا قليلا — بقصور غير عادى .

والواقع أن الأمر لم يكن يقتصر على هذه الحقائق وحدها . فخلال المرحلة التى سبقت الحرب ، كانت الأوضاع فى القوات المسلحة المصرية والظروف التى تمر بها قد أثرت فى روح القتال بالنسبة لبعض القيادات العسكرية ممن كانوا ينظرون إلى مناصب الجيش على أنها معبر إلى الوظائف العليا فى السلك السياسى والقطاع العام ، وضعف لديهم الإحساس بالانتماء إلى القوات المسلحة وإلى أهدافها واستطابوا الحياة الرغدة والتنعم، وهذه هى آفة المحارب .

كذلك فإن القادة فى عدد من المناصب ، كانوا مهتمين أشد الاهتمام بتأمين مناصبهم عن طريق عمليات الاسترضاء والانتماء السياسى وتعزيز أواصر الصلات بمراكز القوى . وانصرفوا عن تنمية أنفسهم والارتقاء بأحوالهم فى مجال العلم والتكنولوجيا العسكرية ، وتخلفوا عن ملاحقة العلوم العسكرية وعلوم الإدارة والتنظيم ، وجوانب التقدم التكنولوجى . وكان من نتائج الاعتماد على الولاء السياسى للقادة لا على كفاءتهم وجدارتهم بالمناصب ، أن ظل بعضهم فى مواقعهم خمس عشرة سنة دون تغيير بينما لم يجد الضباط المثقفون التقدميون أى تقدير ولم ينالوا حظهم فى المناصب الهامة ، فى حين كان العدو يغير فى قيادته ويجدد دماءها بطريقة مستمرة ومنظمة .

وهكذا كانت الفجوة واسعة بين حديثنا عن الحرب ، وإنهاء وجود إسرائيل على الأرض العربية ، وآمالنا فى النصر ، وبين سلوكنا وتصرفاتنا خلال نفس الفترة . وحينما لحقت بنا هزيمة ١٩٦٧ ، كنا نستحقها لأننا سعينا إليها من خلال عملية قصور ذاتى ، نتيجة عدم التخطيط والإعداد والجدى ، ونتيجة الارتجال والسطحية فى التفكير .

إن تحليل النكسة ، أو هزيمة ١٩٦٧ ، يحملنا على التساؤل ... **ماذا حدث؟**
وفى الرد على هذا السؤال نقول : إن للهزيمة نوعين من الأسباب ؛ أسباب خارجية تتعلق بالعدو ، وأسباب داخلية تتعلق بنا .

فبالنسبة للنوع الأول ، نجد أن العدو قد اختار أن يفاجئنا بالعدوان ، وأن يحشد كل وسائل الحرب المعتمدة على التقدم العلمى والتفوق فى العدة ، والتضليل السياسى . واجتمعت كل هذه الأسباب لتنزل بنا ضربة عسكرية شديدة ، ولتفرض على قواتنا خوض معركة غير متكافئة .

وبالنسبة للنوع الثانى ـ الأسباب الداخلية ـ نجد أننا خضنا المعركة من واقع التجزئة العربية بكل ما فيه من صراع وتعدد يبدد القوى ويهدر الطاقات .

لقد خاض العرب المعركة فى غياب أى تخطيط شامل للنواحى السياسية والعسكرية والاقتصادية والإعلامية . وكان العالم العربى يفكر ويتصرف بأسلوب غير علمى بالنسبة لمصائره .

وفى الناحية السياسية لم تكن علاقات الدول العربية مستقرة ، وكان هناك دائماً عملية إحلال وتبادل بين الأصدقاء والأعداء . كذلك لم تكن علاقات العرب بالعالم واضحة ومحددة . وكان العرب منقسمين بين الشرق والغرب فى صداقاتهم .

ومن الناحية العسكرية لم تكن هناك جبهة عربية موحدة ، ولم تكن إمكانات الدول العربية العسكرية جميعها مستغلة ، ولم تكن هناك خطة عسكرية واحدة قابلة للتنفيذ على مستوى جميع دول المواجهة بحيث تستغل الإمكانات العربية الجغرافية والعسكرية أفضل استغلال . وأكثر من هذا كان جزء كبير من جيش مصر مشغولا فى حرب باليمن .

واقتصادياً لم يكن هناك اقتصاد حرب على المستوى العربى ، ولا صندوق دعم عربى لتمويل المعركة .

أما إعلامياً ، فكان العرب فى أسوأ حال . فقد كان الإنقسام بينهم واضحاً . والإعلام العربى ينطلق من الواقع . لذلك ظهر الاعلام ممزقاً منقسماً على نفسه ، يهاجم العربى أخاه أكثر مما يهاجم العدو . واتجه الإعلام فى مسارات خاطئة وراء آراء لاتخدم أهدافنا فى المدى الطويل . فأخذ يظهر العرب فى مظهر المعتدين ، ويقلل من شأن العدو ، ويضخم من إمكانات العرب العسكرية ، وهو بذلك يصرف الرأى العام العالمى عنهم ولا يكتله معهم .

وكانت حرب ١٩٦٧ مثلا سيئاً فى ضعف الإيمان ، وسوء التنظيم والانحراف عن الهدف ، وفشل القيادة ، وشلل القرارات ، وتجمد الاتصالات ، وانخفاض مستويات الإعداد والتدريب .

وإذا كانت حرب يونيو ١٩٦٧ تعد مرحلة جديدة بالغة الخطورة فى الوجود الاستعمارى الصهيونى فى الوطن العربى ، فقد كانت أيضاً بداية مرحلة جديدة حاسمة فى النضال العربى ضد هذا الوجود من أجل بلوغ أهداف الأمة العربية . يؤكد هذا وقفة الجماهير العربية الخالدة يومى ٩ ، ١٠ يونيو ١٩٦٧ ، التى أكدت رفض الهزيمة والإصرار على الصمود ، ثم النضال لاسترداد الحق بالقوة ، مؤكدة أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بها .

واستطاع النضال العربى أن يحدد العنصرين الرئيسيين فى معركته وهما الحرب النظامية على طول خطوط وقف إطلاق النار ، والمقاومة العربية المسلحة على طول المواجهة مع العدو . فظهرت المقاومة العربية ، وبدأت عمليه إعادة بناء القوات المسلحة المصرية .

القسم الثانى

سنوات التحدى

- الفصل الأول : ست سنين عجاف
- الفصل الثانى : إعادة بناء المجتمع
- الفصل الثالث : السياسة الخارجية
- الفصل الرابع : إعادة بناء القوات المسلحة

الفصل الأول

ست سنين عجاف

بعد محنة سنة ١٩٦٧ عاش الوطن العربى ست سنين عجاف ، سادها من التمزق والقلق ما ينوء بحمله البشر . واجتاحت مصر ـ قلبه النابض ـ عدد من الأزمات والقلاقل ، وسيطر الشعور بالقهر والمذلة ، وساد مناخ من الإنهزامية والتوتر. ولما كان الأفراد غير قادرين على ضرب عدوهم الحقيقى فقد أخذوا يفرغون ما ملأ نفوسهم من نقمة وضيق وغضب على بعضهم البعض فى صور مختلفة من الاتهام والتحطيم والتشفى والصراعات .

وتباينت المشاعر ، من الثورة الهادفة التى تريد ولا تقدر ، إلى الهدوء الثائر الذى يهدد ولا يفعل . وتوالت الأحداث تؤكد الجوانب السلبية فى حياة الوطن العربى، وتزيد من تمادى العدو فى إذلال الكرامة العربية ، وخلقت إحساساً كئيباً جعل مناخ الحياة مرهقا ، وكأنها أصبحت كابوساً وعبئاً ، وكأنما العروبة أصبحت مهانة ومذلة . وأدت الضربات المتوالية التى قاساها العرب إلى ثورة نفسية جامحة عبرت عن نفسها فى تفكك ، وفى صراعات ، وفى قلاقل وفتن ، وفى سلبية ولا مبالاة ، كتبت كلها بلغات مختلفة كلمة واحدة . . . **التمزق** .

وإذ نورد هنا بعض الأمثلة عما اجتاح العالم العربي في هذه الفترة ، فإنها مجرد قليل من كثير توالت أحداثه فزادت الجروح عمقاً ، واستنزفت من ماء الوجه أكثر مما استنزفت من الدماء ، وتركتنا في حلبة الصراع صرعى وكأن خصمنا الزمن والقدر جميعا . وكلما اشتدت الضربات قوة وعمقا ، تنال من الكرامة ومن العزة أو من القدرة، ازداد معها الألم حدة ، وكان الألم علامة على الانهيار ، ولكنه كان أيضا مصدراً للرغبة في استعادة كل ما فات .

لقد كانت النكسة أول مصدر من مصادر المحن والمشكلات خلال السنين العجاف. وكان أول الأحداث التي ارتجت لها مصروالعالم العربي وأخطرها هو رد الفعل الذي أحدثته الهزيمة ذاتها ، وما كشفت عنه من قيادة لاهية ، وخطط حمقاء ، واستعدادات صورية . وعبر ذلك القلق عن نفسه في حوادث عدة مبعثها الشك والتمزق ، ومن أهمها حوادث الطلبة وأحداث الفتنة الطائفية .

وكان العدو الذي انتهز فرصته ، ثاني هذه المصادر . فارتكب من الأعمال العدوانية والإرهاب والتحدي السافر ، ما أدى إلى خسائر ماديه وبشرية ومعاناة نفسية كبيرة .

وكان ثالث المصادر التشتت العربي ذاته، وما ساد الوطن العربي من صراعات وخلافات قتل فيها العربي أخاه العربي .

وكأنما القدر قد أبى إلا أن يكون له دوراً يؤديه وسط هذه الأحداث . فجاء بمفاجآته التي أصبحت قطراً رابعاً يلقى العالم العربي في مربع مظلم من التخبط والتخبيط ، ويحصره في إطار يبدو وكأنه لا فكاك منه ولا مخرج . فاستشهد الفريق أول عبد المنعم رياض والقوات المسلحة أحوج ما تكون إلى جهوده في عملية إعادة البناء . وفاجأ الموت عبد الناصر وهو يستنزف قصارى جهده لتصفية الخلافات وترميم التصدع والتئام الشمل العربي . وكان موت عبد الناصر صدمة ، وكان استشهاد عبد المنعم رياض خسارة .

ولو كانت قوة المصائب وحدها هى العامل الذى يقرر مصير البشر . لانتهت الأمة العربيـة خلال هذه الفترة . أما والشعوب تقاس عظمتها وأصالتها بقدر قدرتها على مواجهة المشـكلات وتخطى المحن دون أن تنهار تحت وطأتها ، فإن الأمة العربية قد أثبتت فى هذا الامتحان أنها تستمد من جذور حضارتها العريقة معيناً لا ينضب من القدرة على الاستمرار ، والصبر على المـكاره ، والمقدرة على التـكيف ، وعبور الألم .

ولولا أصالة المصرى وصلابة العربى لـكانت هذه الأحداث كفيلة بأن تقضى عليه ، ولـكنها كانت فى الواقع أكبر دافع له على أن يطالب ويجاهر بضرورة مواجهتها ، والتعامل معها ، والتغلب عليها ... أو كما قال الرئيس السادات سنة ١٩٧١ فى بيان للشعب :

« ان الامة العربية لم تمت . . بل ان النـكسة والهزيمة والالام والمرارة تجدد من حيويتها اكثر ، وتبعث فيها دما جديدا واندفاعة اكبر » .

من هنا كان من الضرورى أن تعالج أخطاء النـكسة ، وتحديات أوضاع ما بعدها من خلال استجابة صحيحة أساسها المزيد من الجهد والبناء للقوة الذاتية ، والحرص على التصدى العلمى لمشـكلات المرحلة ، والنظرة الموضوعية لـكل جوانب حياتنا ، والمحاسبة الدقيقة الحازمة لـكل تقصير أو خطأ يقترف .

ولقد أدرك الشعب العربى أن إزالة آثار العدوان أصبح يقتضى كلمة موحدة تسمع من الأمة العربية كلها . وأصبح من الضرورى أن تواجه مرحلة ما بعد النـكسة من منطلق قومى وحدوى . بحيث تتحقق الوحدة الوطنية فى كل قطر وتتجاوزها إلى وحدة العرب جميعا .

أولا : انهيار الثقة والمحاكمات :

كانت الهزيمة لطمة قوية ومفاجئة أدت إلى انهيار الثقة ، والبلبلة والتشكيك . واستمر الشعب لفتره طويلة يتساءل « ماذا حدث » فقد حجبت أسباب الهزيمة وأسرارها ، ولم يكن أحد بقادر على الخوض فيها وتحليلها لسببين :

الأول : أن الهزيمة لا تجد عادة من يتحدث عنها . أى أن قادتنا لم يكن لديهم ما يمكن أن يقولوه للشعب من موقع الهزيمة .

الثانى : طبيعة الظروف التى كانت سائدة وقتئذ . ووضع كل الأمور التى لا تود الحكومة أن يناقشها الشعب تحت عنوان « أمن الدولة . . . محظور النشر » .

وهكذا فإن الشعب الذى فقد الآلاف من أبنائه بحماقة ، وبدون حرب ، وفى غير هدف ، بقى لا يعرف الحقائق وغير قادر على مناقشتها .

وكانت أول مرة تنشر فيها أنباء تتناول ما كان يدور من تساؤلات وشائعات يوم ٤ سبتمبر ١٩٦٧ . أى بعد الهزيمة بأربعة شهور كاملة ، عندما عرف الشعب أنباء الأحداث التى أدت إلى التحفظ على المشير عبدالحكيم عامر، ومحاكمة بعض القادة المسئولين عن الهزيمة . وخلال هذه الفترة وقعت بعض التطورات التى كان من ضروراتها اتخاذ عدد من الإجراءات الهامة وثيقة الصلة بالهزيمه والقوات المسلحة المصرية :

١ ـ تحديد إقامة المشير عبد الحكيم عامر فى بيته .

٢ ـ التحفظ على شمس بدران وزير الحربية السابق .

٣ ـ التحفظ على بعض المحيطين بالمشير عبد الحكيم عامر ، وبينهم عدد من من العسكريين والمدنيين للتحقيق معهم فى وقائع نسبت إليهم .

وقد كان الإتجاه السائد عندما وقعت هذه التطورات أن تبقى تفاصيلها بعيدة عن مجالات النشر . ولكن بعض وكالات الأنباء العالمية تناولت الموضوع بصورة أصبح من اللازم معها أن توضح الحقيقة أمام الرأى العام الذى كان حريصا على متابعة مجريات الأمور والاهتمام بها .

وقد جرت التطورات على النحو التالى :

١ ــ بعد النكسة التى واجهها العمل العربى ، تحمل الرئيس عبد الناصر أمام الجماهير وباعتباره المسئول الأول تبعات كل ما وقع ، وأعلن قراره بالتنحى عن رئاسة الجمهورية وعن كل عمل سياسى . وكان ذلك فى خطابه بتاريخ ٩ يونيو ١٩٦٧ ولكن جماهير الشعب وجماهير الأمة العربية وقفت موقفا وطنيا وعربيا موحداً ،وطلبت من الرئيس عبد الناصر أن يبقى فى موضع المسئولية وأن يواصل قيادة العمل من أجل إزالة آثار العدوان .

٢ ــ اعتبر الرئيس عبد الناصر بمقتضى هذه المسئولية أن ضرورات المصلحة الوطنية والقومية تتطلب إجراء تغييرات فى قيادة القوات المسلحة .وفى هذه الفترة ـ ومجاملة للمشير عبد الحكيم عامر ــ فإن الرئيس عبد الناصر قد عرض عليه أن يبقى فى السلطة كنائب أول لرئيس الجمهورية، ولكن المشير لم يقبل هذا العرض ، وطلب أن يبقى أيضاً قائداً للقوات المسلحة . وكان من رأى الرئيس عبد الناصر أنه من الضرورى أن تترك القيادة الفعلية للجيش لعناصر جديدة اتيحت لها الفرصة لتحصيل العلوم العسكرية المتقدمة ، ولكن المشير بقى مصراً على أن يتولى كل السلطات التى كان يتولاها قبل الحرب .

٣ — وعندما صدر القرار بإحالة عدد من القادة السابقين إلى التقاعد ، وتعين قيادات جديدة ، فإن المشير لم يتقبل هذه الإجراءات باعتبارها أمرا تحتمه المصلحة الوطنية والقومية وحالة القوات المسلحة فى وقت عصيب، تتطلب فيه الأمة العربية من كل فرد من أفرادها أن يؤدى واجبه إلى أقصى طاقته سواء كان داخل القوات المسلحة أو خارجها .

ثم تعقدت الأمور أكثر عندما تقرر التحقيق مع بعض القادة العسكريين ، خصوصا فى القوات الجوية ، لتحديد مسئولياتهم باعتبار أن ما حدث من قيادة القوات الجوية كان أبرز الأسباب فى وقوع النكسة على النحو الذى وقعت به ، وذلك برغم أن قيادة القوات الجوية فى ذلك الوقت تلقت التنبيه تلو التنبيه بأن العدو على وشك القيام بضربته الأولى وسوف تكون موجهة إلى القوات الجوية .

٤ — وقد حدث أن بعض الضباط الذين طلب التحفظ عليهم فى تلك الظروف ذهبوا إلى بيت المشير عبد الحكيم عامر وبقوا فيه برغم قرارات صادرة بالتحفظ عليهم .

وساعد على تأزيم الجو أن بعض العناصر الانتهازية التى ثبت فسادها بدأت تؤدى دوراً خطيراً فى تقوية فتنة كان يمكن أن تضر بالوطن فى ظرف مؤلم بالنسبة للجميع .

وكان من الظواهر الملفتة فى ذلك الوقت أن بدأ بيت المشير عبدالحكيم عامر يتحول إلى ترسانة سلاح ، كما أن بعض المحيطين به أنشاؤا حرسا خاصاً جاؤا بأفراده من مزرعة أحد أشقاء المشير ، الأمر الذى بدا معه وكأن هناك مركزاً فى وسط العاصمة خارجاً على سلطة الدولة .

٥ — وفى ذلك الوقت رأى الرئيس عبد الناصر أن من واجبه أن يشرح خطورة الموقف للمشير عبد الحكيم عامر ، مؤكداً على أن سلامة الوطن والقوات المسلحة لها الأولوية على أى اعتبار آخر . ولهذا الغرض ذهب الرئيس عبد الناصر

بنفسه إلى مقابلة المشير عبد الحكيم عامر فى بيته، كما أنه دعاه أكثر من مرة إلى لقائه وتحدث إليه فى خطورة ما يجرى وعواقبه .

٦ - وتوافرت بعد ذلك معلومات مؤكدة تشير إلى أن المشير وبعض المحيطين به يقومون بنشاط يؤثر على صالح الشعب والدولة والقوات المسلحة ، إلى درجة أن عدداً من الضباط الذين جرى الاتصال بهم وجدوا لزاماً عليهم إبلاغ السلطات الرسمية المسئولة به .

٧ - وحيال ذلك كله ، وبعد انتظار طويل ومرهق للأعصاب كان لا بد من وضع حد حاسم لهذا الموقف . فدعا الرئيس عبد الناصر المشير عبد الحكيم عامر إلى مقابلته ، وواجهه بكل الوقائع وبينها ما أبلغ عنه الضباط من القوات المسلحة . وكانت هذه المواجهة أمام السيد زكريا محي الدين نائب الرئيس والسيد حسين الشافعى والسيد أنور السادات . كما شرح له خطورة مثل هذه التصرفات على الموقف كله ، وأبلغه بأنه قرر آسفاً وحزيناً تحديد إقامته ، كما أنه أمر بالقبض على المطلوبين للتحقيق ممن كان يحميهم ، وأمر بمصادرة كل السلاح المكدس فى بيته ، وبالتحقيق فى الوقائع المتصلة بهذا كله .

وبعد إتمام هذه الإجراءات كلها اتسع نطاق التحقيق ، وتأكد من الوثائق والاعترافات أن المشير عبد الحكيم عامر وبعض المحيطين به وضعوا خطة تحقق له العودة إلى قيادة القوات المسلحة . وكانت الخطة تتسم بالمغامرة وتشكل أضراراً خطيرة كان يمكن أن تحدث آثاراً بعيدة على الوضع العام كله .

ولقد جرت فى تلك الفترة ثلاث محاكمات :

١ - التحقيق مع المسئولين عن التقصير الذى كان من أهم أسباب النكسة العسكرية وتولته لجنة عسكرية خاصة شكلت على أعلى مستوى عسكرى وعلمى .

٢ - التحقيق مع الذين دبروا ورتبوا عملية محاولة الاستيلاء على القيادة

العليا للقوات المسلحة ، وهى العملية التى كان محدداً لها ليلة ٢٧ أغسطس ١٩٦٧ . وتولت التحقيق فيها أيضاً لجنة عسكرية خاصة .

٣ — التحقيق فى إنحرافات جهاز المخابرات العامة عن مهمته الأصلية . وتولته لجنة أشرف عليها السيد أمين هويدى وزير الحربية وقتئذ الذى كلف بالإشراف على جهاز المخابرات خلال فترة التحقيق .

ولقد شدت هذه المحاكمات انتباه الجماهير ، وتابعتها بحرص شديد . وبدلا من أن تضمد المحاكمات نزيف الجروح والقلوب ، فإن أسرارها قد فجرت المشاعر ، وأثارت عشرات الأسئلة . . كيف كان يمكن أن تصل مجريات الأمور إلى هذه الدرجة من سوء التخطيط والإدارة وعدم تقدير المسئولية والانحراف والاستغلال الشخصى للنفوذ ، مما أدى إلى التضحية بأرواح آلاف من الشهداء الأبرار ، وتشرد آلاف جدد من إخواننا العرب ، واستيلاء العدو على جزء كبير من الوطن العربى ، وتسلطه على أعداد أكبر من شعب فلسطين .

ثانيا : الهجوم على مطار بيروت :

فى ٢٨ ديسمبر ١٩٦٨ ، أغارت إسرائيل على مطار بيروت الدولى فى عملية قامت بها وحدات من الجيش الإسرائيلى المحمولة على طائرات الهيليوكوبتر . وألقت الطائرات قنابل فوسفورية أضاءت المطار كله ، ثم ألقت قنابل حارقة على خزانات البترول وأطلقت النيران على ساحة ومكاتب المطار . وبعدها هبطت الطائرات ونزل منها ثلاث مجموعات من الجنود المسلحين ، تتكون كل مجموعة من عشرة أشخاص ، أخذوا يضربون بالمدافع الرشاشة والقنابل الحارقة الطائرات الموجودة على أرض المطار ومستودعات الوقود والمبانى والأفراد .

وبعد دقائق من إذاعة بيروت نبأ هذا الهجوم ، أذيع من تل أبيب بيان

لمتحدث عسكرى إسرائيلى يعان فيه أن وحدة كوماندوز من الجيش الإسرائيلى أتلفت عدد من الطائرات العربية فى مطار بيروت . وأن هذا الإجراء اتخذ إنتقاما للهجوم الذى تعرضت له طائرة إسرائيلية تابعة لشركة العال فى أثينا .

ولم يكن البلاغ الإسرائيلى صادقاً . فقد تبين أن الطائرات كانت تطلق الرصاص على السيارات المتجة للمطار ، كما أنها ألقت الغاماً فى الطريق المؤدى إليه ، وفى أماكن متعددة منـــه ، وأطلقت النيران على سيارات الإطفاء التى اتجهت للمطار وحاصرت قوات الشرطة فيه . وكانت الانفجارات تتوالى وألسنة اللهب ترى من كل مكان ـ وكان طبيعياً أن ينتشر الرعب فى العاصمة اللبنانية .

وتقدمت الحكومة اللبنانية بشكوى عاجلة لمجلس الأمن . . واحتجت الدول العربية ، وأعربت إنجلترا عن أسفها لهذا العدوان ، وأعلن متحدث باسم وزارة الخارجية أنه من الضرورى احترام قرار وقف إطلاق النار فى الشرق الأوسط .

وفى باريس اهتمت كل الدوائر الرسمية والشعبية بأنباء هذا الهجوم وأدانته . وحتى فى واشنطون احتجت الحكومة الأمريـكية بشدة لدى إسرائيل وصرحت وزارة الخارجية الأمريـكية وقتئذ بأن الاحتجاج خرج بلهجة بالغة العنف بعد أن صرحت إسرائيل بأن قواتها العسكرية هى المسئولة عن هذا الهجوم انتقاماً لمـا حدث لطائرة شركة العال .

وكان لهذا الحادث دلالاته وأبعاده . فقد أثبت أنه ليس هناك أى بلد عربى يمكن أن يتصور نفسه خارج المعركة . كما كان دليلا على عدم جدوى أية ضمانات تعطيها دولة كبرى لأى دولة عربية فى مواجهة إسرائيل . فلبنان تتمثل فيها رعاية الولايات المتحدة وحماية الفاتيكان وصداقة وطيدة مع فرنسا ومع ذلك ، فإن كل هذه الروابط لم تجعلها فى منأى من هجمات إسرائيل .

لقد كان هذا الحادث بداية لظهور دور المقاومة الفلسطينية ، وبغض النظر

عن تقييم أعمال الفدائيين التى استمرت بعد ذلك،فإن هذا الحادث أثبت أن المقاومة الفلسطينية أصبحت عنصراً له وزنه . مما حمل إسرائيل على أن تهدد الدول العربية كلها التى تساند الفدائيين . وعملت على أن تصور دورهم على أنه يشكل خطورة على هذه الدول نفسها ويجعلها عرضة لانتقامات إسرائيلية . وقد انتقمت إسرائيل فعلا بعد ذلك مرات .

ومع ذلك فقد استمر العمل الفدائى يمارس دوره رغم ما تلقاه من لطمات . وتفاوتت ردود الفعل العربية والدولية للعمليات الفدائية . وكان العالم العربى يعلم تماماً إثر كل عملية ناجحة أن عليه أن يتوقع انتقاما إسرائيليا . وفى آخر عملية فدائية ناجحة قبل ٦ أكتوبر — وهى عملية معسكر شاناو بالنمسا — كان الإحساس السائد أن إسرائيل سوف تقوم بأعمال إنتقامية واسعة على الحدود السورية .

ورغم تباين العمليات الفدائية ، والاختلاف فى تقييمها ، ومحاولة إسرائيل الإنتقام والرد عليها .. إلا أنها استمرت . وكان من غير المتوقع بعد ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، وعلى وجه التحديد فى ٣ يناير سنة ١٩٧٤ ، أن يصرح مسئول بريطانى عمالى هو كلاهان — وزير الخارجية فى حكومة الظل البريطانية — أنه بالرغم من فظاعة بعض الأعمال الفدائية الفلسطينية ، ورغم الإحساس العام السائد فى أوربا خصوصاً ضدها ، إلا أن الحقيقة هى أن الفدائيين الفلسطينيين قد نجحوا فى أن يخلقوا وعياً بمشكلاتهم، وأنهم نجحوا بأعمالهم هذه فى أن يفرضوا قضيتهم على إهتمامات الرأى العام العالمى .

لقد كان حادث مطار بيروت من أول اللطمات التى صفعت العالم العربى ولكنه لم يكن بأى حال أخطرها أو آخرها . فقد ارتكبت اسرائيل عدداً من الحوادث البشعة استهدفت بها الازعاج وبث الرعب والتأثير على الروح المعنوية لدى العرب .

ثالثا : حادث مصنع أبو زعبل :

فى صباح يوم ١٢ فبراير ١٩٧٠ ، وقف عمال شركة أبو زعبل للصناعات المدنية فى أبو زعبل ينتظرون صرف مكافآتهم . وإذا كانت المكافأة مصدر سعادة للأفراد ، فإنها تصبح مصدر سعادة خاصة إذا كانت قبيل حلول الأعياد . وكان العالم الإسلامى فى ذلك اليوم يستعد لاستقبال عيد الفطر ، مما جعل لهذا اليوم ولهذه المكافآت معنى جميلا .

ومع هذه المشاعر التى غمرت طابور العمال السعداء بالمكافآت وقدوم العيد ، حلقت فوق هذا الطابور طائرتان فانتوم من طائرات السلاح الجوى الإسرائيلى . وفى لمح البصر انقلبت اللحظات السعيدة بؤساً وناراً ودماراً . لقد أسقطت طائرات السلاح الجوى الإسرائيلى قنابلها ، وأطلقت الصواريخ والنابالم والقنابل الزمنية على هذا الجمع فتصيبه وتمزقه ، وتختلط أشلاء الجثث بالجرحى والمصابين . ومات فى هذا الحادث ٧٠ عاملا من عمال المصنع ، وبلغ عدد المصابين ٦٩ وكلهم من المدنيين .

وثار الرأى العام المصرى والعربى مرة أخرى وأرسلت الدول العربية برقيات عزاء وأعلنت احتجاجها . وأرادت إسرائيل أن تبرر موقفها فقدمت إعتذاراً كان أكثر قبحاً من الذنب ، وادعت أنه كان خطأ غير مقصود ، وأن الطائرات أخطأت تقدير الهدف العسكرى الذى قصدته بجوار المصنع ولما تبين للعالم أنه لاتوجد أية أهداف عسكرية فى المنطقة ، تقدمت بعذر آخر مؤداه أن طائراتها أصيبت بعطل فنى وكان على الطيارين أن يتخلصوا من حمولتها بسرعة وفى أى مكان . وكان من بشاعة هذا الحادث أن جريدة نيويورك تايمز المعروفة بمساندتها لإسرائيل نشرت إحدى الصور البشعة لأشلاء الضحايا ، وقالت إن هذه الغارة الوحشية التى استعملت فيها إسرائيل القنابل الزمنية لقتل العمال ، جاءت فى وقت خرجت فيه أنباء من القدس تشير إلى أن مجلس الوزراء الإسرائيلى قد رفض اقتراحاً تقدم به وزير الخارجية أبا إيبان ، يحوى مبادرة جديدة لوقف إطلاق النار مع مصر .

ولم يكن هذا جديداً على إسرائيل . فكثيراً ما أتت أفعالا تناقض أقوالها ، وكانت خلال هذه الفترة تستهدف إذلال مشاعر العرب ، وتذكرتهم المستمرة بتفوقها وتسيدها للموقف ، وأن لا أمل لهم فى مواجهتها ، وذلك من خلال عمليات القرصنة الجوية والعربدة المسلحة التى كانت تمارسها من وقت لآخر .

رابعا : حادث بحر البقر :

فى الساعة الثالثة والثلث صباحا يوم ٨ أبريل ١٩٧٠ وصلت طائرات السلاح الجوى الإسرائيلى إلى وسط الدلتا ، ونجحت فى قصف هدف غريب . ولم يكن هذا الهدف سوى مدرسة متواضعة فى قرية أكثر تواضعاً بمحافظة الشرقية ، وتبعد عن القاهرة ١٥٠ كم . وكانت المأساة التى تعرف للآن باسم حادث بحر البقر . وفى هذا الحادث نجحت الطائرات الحربية الإسرائيلية فى قتل ثلاثين طفلا تتراوح أعمارهم بين السادسة والثانية عشر .

وتحركت المشاعر مرة أخرى وزاد تصميم العروبة على وضع حد لاستفزاز العدو ووحشيته . أما العالم فلم يعلم من هذه المأساة إلا لمحات لا تتناسب مع بشاعتها ، رغم الزيارات المتكررة التى قام بها عشرات من الصحفيين لهذه المدرسة ورغم ما كتبوا ، ونضرب مثلا بحديث جرى مع مراسل إحدى كبريات محطات التليفزيون فى العالم الغربى ، حيث يقول :

« جئت إلى القاهرة منذ عامين ، وكنت من هؤلاء الذين يحسون تماماً أن الحق كل الحق فى جانب إسرائيل ، واعترف أننى كنت من أنصارها بصورة جعلتنى أحاول ألا أنفذ الأمر بنقلى للقاهرة . ولكننى جئت وحاولت دائماً أن أرى الخطأ فيما تفعلونه ... ولكن الحق فرض نفسه . . وبالتدريج بدأت أرى الصورة واضحة وبدأت أحس تماماً أنى مثل المئات والآلاف غيرى ضحية الإعلام الكاذب المتحيز ، وأن الصورة الحقيقية تختلف تماماً عما يراه العالم الغربى وأن الحقائق لا تنقل أبداً لبلادنا » .

ويضيف : « وعندما وقع حادث بحر البقر سافرت ضمن من سافروا إلى هـذه القرية لتغطية الحادث . . وهزتنى بشدة المشاهد التى رأيتها . فقد رأيت حوالى ستين طفلا وقد اختلطت أجسادهم بين قتيل وجريح ، والقرية المتواضعة كلها فى دهشة مما حدث. وصورت الحقيقة فى سطور أرسلتها لبلادى وانتظرت أن أرى أو أسمع عما أرسلته ، ولـكن لم تظهر على شاشة التليفزيون أية إشارة عابرة إلى هذا الحادث فى أى برنامج من برامج هذه الشركة الدولية الضخمة . ولما سألت قالوا . . إنها مشكلة الوقت ، ثم إن الأحداث الدولية الأخرى كانت أشد إلحاحا من موت بعض الأطفال » .

« وبعدها بشهر واحد إنفجر فى إسرائيل لغم وضعته المقاومة ودمر أتوبيس إحدى المدارس ممـا أدى إلى مقتل ستة أطفال . . وهنا قامت الدنيا وقعدت ، ولم يـكن الوقت مشكلة . . وأصبح موت الأطفال فجأة من أهم الأحداث الدولية لدرجة أن بعض المعلقين بالتليفزيون من الصهاينة كرس فترته كلهـا للحديث المستفيض عن هذا الحادث ونشر صور له . . »

وبهذا رفض الإعلام الغربى الذى تسيطر عليه المجموعات الصهيونية أن يعرف العالم عن حادث بحر البقر ما كان واجبا عليه أن يعرفه . ولـكنه أثار كل أم وكل أب وكل طفل ضد العرب عند ما أفاض فى نشر صور حادث الأتوبيس . ونسوا طبعاً أن هناك فارقا جوهريا بين الحادثين . . . ففى بحر البقر قامت طائرات سلاح الطيران الإسرائيلى ، وبأوامر من الحـكومة والقيادة العسكرية بقصف مدرسة بحر البقر وقتل أطفالها بدون أى ذنب ارتـكبوه هم أو ذويهم أو حكومتهم .

أما فى حادث الأتوبيس ، فقد خططت له ونفذته إحدى مجموعات المقاومة الفلسطينية التى شردت وطردت من بلادها واغتصبت أرضها ، وذلك بهدف هز كيان ذلك المعتدى ومنعه من أن ينعم بمـا اغتصب .

فرق بين المعتدى فى كلتا الحالتين .

فرق بين المعتدى عليه فى كلتا الحالتين .

فرق بين الأسلوب والهدف والنتيجة .

ومرة أخرى يواجه شعب مصر والعرب موقفا صعبا . تمارس إسرائيل فيه أعمال التحدى والاستفزاز ، وتقترف عدوانا غاشما على أطفال أبرياء فى غير مامبرر، مستهدفة النيل من الجبهة الداخلية وإثارة المشاعر والتشكيك فى الجهود المبذولة والأوضاع القائمة . كل ذلك وسط ظروف بالغة الصعوبة والتعقيد ، وهى ظروف الهزيمة .

خامسا : أيلول الأسود :

لم تكن بداية أحداث أيلول الأسود هى تشكيل الحكومة العسكرية فى عمان قبل عشرة أيام من اندلاع القتال المرير الذى نشب بين الجيش الأردنى والمقاومة الفلسطينية. ولكنها كانت مجرد حلقة من حلقات النزاع الذى كانت له أبعاد كثيرة وكانت الخلافات تندلع ثم تكبت بضغط أو تحت ضغط دون إزالة الأسباب الحقيقية للبلبلة فكان التفجر يعود ثانية وبسرعة إلى السطح ويزداد حدة .

وقد قامت الاشتباكات بين الفدائيين والقوات الأردنية قبل حرب ١٩٦٧ ، وعادت مرة أخرى بعد النكسة، وتفجر الموقف فى يونية ١٩٧٠ بالقتال الذى بدأ فى الدرقة شمال عمان بين جماعة من الفدائيين المنتمين للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (شديدة الولاء لجورج حبش)، وقوات الصاعقة (شديدة الولاء للملك حسين). وأسفرت الاشتباكات الأولى عن مقتل ٩ من الفدائيين والمدنيين و ١٣ من قوات الصاعقة . وتطورت الاشتباكات بشكل يدعو إلى القلق أثناء الاحتفال

بدفن الضحايا . ثم امتدت إلى العاصمة حيث استمرت إلى أن وافق الملك حسين على قبول طلبات الفدائيين ، وإجراء تعديل فى القيادة العسكرية بقبول استقالة ناصر بن جميل من قيادة القوات المسلحة الذى كان يستغل قربه من الملك لتأكيد خطورة الفدائيين على نظام الحكم وعلى العرش مما أثر على علاقة الملك بالفدائيين .

كذلك استقالة زيد بن شاكر المشهور بكراهيته للفدائيين وذلك مقابل أن يتعهد الفدائيون بعدم العودة إلى إطلاق النار .

ولكن سرعان ما عادت الفتنة إلى الانطلاق ، وعادت الاشتباكات والمشاكل . وأوفدت جامعة الدول العربية لجنة رباعية لإجراء مباحثات مع قادة المقاومة والملك حسين ، وانتهت المفاوضات بتوقيع إتفاق بين المقاومة والملك فى ١٠ يونيه . وشكلت حكومة الرفاعى فى يوليو .

وفى أعقاب إذاعة اتفاق جديد ينظم للمرة الرابعة تطبيق الاتفاق الذى عقد فى يونيه ، شعر الرفاعى بالعقبات التى توضع فى طريقه . فوجه رسالة إلى الملك قال فيها « إننى لا أتمكن من ممارسة مسئوليتى،فهل ترى جلالتكم أن أستقيل ؟» واعتبر الملك رسالة الرفاعى خطاب استقالة. وبسرعة شكل فى ١٥ سبتمبر حكومة عسكرية. وعين المشير حابس المجالى حاكما عاما للأردن كما تم تشكيل غرفة عسكرية تضم القادة العسكريين للجيش الأردنى . وكانت المقاومة بدورها تستعد فاختارت أبو عمار قائداً عاما لجميع قوات المقاومة ، وعين العميد عبد الرازق آل يحيى قائد جيش التحرير رئيساً لأركان القوات الفدائية الموحدة .

وطلب حابس المجالى من أفراد المقاومة الفلسطينية تسليم أسلحتهم لمنظماتهم بحجة إعادة توزيعها . فرفضت المقاومة هذا الطلب . وقسم أعضاء اللجنة المركزية للمقاومة أنفسهم إلى فريقين : أحدهما يتولى القيادة من فوق جبل الحسين فى عمان ، والفريق الآخر يتجه إلى « جرش » حاملا معه تعليمات إلى جميع القواعد بالاستعداد وأخذ مواقع مثالية .

وفى ١٨ سبتمبر استيقظت عمان مع الفجر على دوى الانفجارات المروعة والمدافع والصواريخ . واستعر قتال دامى بين الجيش والمقاومة فى أحياء العاصمة ثم امتدت المعارك إلى معظم مدن الأردن ، وتحركت دبابات جيش الأردن فى الشوارع تطلق نيرانها على معاقل المقاومة ودمرت قذائف الجيش والمقاومة مئات المنازل وتحولت عمان — على حد تعبير مراسلى الصحف — إلى حرائق وقتلى وجرحى ودخان أسود .

وذكر مراسل وكالة أنباء الشرق الأوسط أن الجرحى من المدنيين وصل عددهم فى ساعات إلى عشرات المئات ، وأنهم فى حالة سيئة لأن التحرك داخل المدينة أصبح مستحيلا مما يحول دون نقلهم إلى المستشفيات. واغلقت الموانى والمطارات وانقطع كل اتصال بالأردن ودارت لمدة عشرة أيام رحى حرب أهلية شرسة حولت الأردن إلى شعلة تحترق .

وتحرك الأسطول السادس فى البحر الأبيض . وتحركت الطيارات العربية من أجل مواجهة محنة العرب ، ولتجد حلا لكارثة من أفدح الكوارث التى عاشتها العروبة شعوباً وحكومات .

وأرسل الملوك والرؤساء العرب ، المجتمعون فى القاهرة لبحث المأساة ، وفداً برئاسة الرئيس جعفر النميرى للتحقيق فى الحوادث ، وتوصل فعلا إلى إتفاق أعلن من راديو عمان . وقبل أن يغادر الوفد عمان كان صوت المدافع والقنابل يتردد ثانية فى أنحاء الأردن .

واستمع الملوك والرؤساء إلى تقرير عن حقيقة الموقف ، أعطى انطباعاً عاماً بأن هناك مخطط لإبادة المقاومة ، واتخذ قرار جماعى بأن يذيع الوفد على العالم تقريره عن الحرب الموجهة ضد المقاومة الفلسطينية . وكانت الحرب قد دخلت يومها العاشر . وعند الفجر أرسل الرئيس عبد الناصر باسم الرؤساء والملوك برقية

إلى الملك حسين يبلغه فيها قرار الإدانة الذى اتخذه المؤتمر . واتصل الملك حسين تليفونيا ليقرر أنه قادم إلى القاهرة .

وبعد يوم من العمل المركز توصل الرؤساء إلى إتفاق بين حكومة الأردن والمقاومة وقع عليها كل من جمال عبد الناصر ، الملك فيصل ، الملك حسين ، الأمير الصباح سالم الصباح، الباهى الأدهم (الوزير الأول لجمهورية تونس) ، محمد الشامى عضو المجلس الجمهورى للجمهورية العربية اليمنية ، معمر القذافى ، سليمان فرنجية ، جعفر النميرى ، ياسر عرفات .ولم يكن التوصل إلى هذا الاتفاق أمراً سهلا. ولم يكن وضعه موضع التنفيذ أكثر سهولة .

وكان هذا هو الاتفاق الذى يعرف باسم « اتفاق القاهرة »[١] .

وانتهت الاشتباكات — أو خمدت — ولكن أيلول الأسود وأحداثه كتبت صفحة محزنة قاتمة فى تاريخ العروبة ، استعملت فيها الأموال العربية لقتل الأرواح العربية ، ومات فيها من العرب بيد العرب أكثر مما مات بيد العدو منذ هزيمة ١٩٦٧ ، واستعمل فيها من الأسلحة والمفرقعات ما وصفته إحدى وكالات الأنباء بأنه كان كافيا لهدم مدن العدو وقراه . وكان هذا الحادث من أكبر المآسى التى عاشتها العروبة خلال السنين الست العجاف . وكان من أقسى المحن التى مرت بها المقاومة الفلسطينية بصرف النظر عن كل الاعتبارات والمبررات التى ساقتها الحكومة الأردنية لتبرير موقفها .

---

(١) هذا الإتفاق لم يدم طويلا ، أذ سرعان ما تفاقت الأحداث بين حكومة الأردن والمقاومة الفلسطينية، وانتهت بالتخلص من عناصر المقاومة الذين كانوا يتمركزون فى الأردن.

سادسا : وفاة عبد الناصر :

فى كلمات بالغة التأثر ، وبعاطفة فى قمة الألم ، وبصوت حزين من أعماق القلب أذيع على الأمة العربية البيان التالى :

« فقدت الجمهورية العربية المتحدة ، وفقدت الأمة العربية ، وفقدت الإنسانية كلها رجلا من أغلى الرجال وأشجع الرجال وأخلص الرجال ، هو الرئيس جمال عبد الناصر، الذى جاد بأنفاسه الأخيرة فى الساعة السادسة والربع من مساء اليوم ٢٧ رجب ١٣٩٠ الموافق ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ، بينما هو واقف فى ساحة النضال يكافح من أجل وحدة الأمة العربية، ومن أجل يوم انتصارها . لقد تعرض البطل الذى سيبقى ذكره خالداً إلى الأبد فى وجدان الأمة والإنسانية لنوبة قلبية حادة بدت أعراضها عليه فى الساعة الثالثة والربع بعد الظهر . وكان قد عاد إلى بيته بعد انتهائه من آخر مراسم إجتماع مؤتمر الملوك والرؤساء العرب الذى انتهى بالأمس فى القاهرة ، والذى كرس له القائد والبطل كل جهده وأعصابه ليحول دون مأساة مروعة دهمت الأمة العربية » .

« إن اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى العربى ومجلس الوزراء،وقد عقدا جلسة مشتركة طارئة على إثر نفاذ قضاء الله وقدره ، لا يجدان الكلمات التى يمكن بها تصوير الحزن العميق الذى ألم بالجمهورية العربية المتحدة ، وبالوطن العربى والإنسانى إزاء ما أراد الله امتحانها به فى وقت من أخطر الأوقات » .
« إن جمال عبد الناصر كان أكبر من الكلمات ، وهو أبقى من كل الكلمات، ولا يستطيع أن يقول عنه غير سجله فى خدمة شعبه وأمته والإنسانية مجاهداً عن الحرية، مناضلا من أجل الحق والعدل ، مقاتلا من أجل الشرف إلى آخر لحظة من العمر » .

« ليس هناك كلمات تكفى عزاء فى جمال عبد الناصر . إن الشيء الوحيد الذى يمكن أن يفى بحقه وبقدره هو أن تقف الأمة العربية الآن كلها وقفة صابرة

صامدة شجاعة قادرة حتى تحقق النصر الذى عاش واستشهد من أجله ابن مصر العظيم وبطل هذه الأمة ورجلها وقائدها ... يا أيتها النفس المطمئنة أرجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى . والسلام عليكم ورحمة الله » .

وشاء القدر أن يكون هذا الصوت ، هو نفس الصوت الذى أذاع على الأمة بيان نجاح الضباط الأحرار يوم ٢٣ يونية ١٩٥٢ .

كان صوت أنور السادات الذى اجتاز مع الأمة بعد ذلك سنوات قاسية لكى يصل بها إلى مراحل أكثر إشراقا .

وكان ردالفعل لموت عبدالناصر رهيباً قاسياً . وتدفقت مئات الألوف من الشعب إلى منزله وإلى قصر القبة فى أكبر مظاهرة باكية عرفها تاريخ مصر . وتجاوزت ظاهرة الحزن التى اجتاحت العالم العربى الحدود المعروفة والمألوفة لدرجة استحقت معها أن تصبح هذه الظاهرة موضع دراسة علمية .

وطبقا للمادة ١١٠ من الدستور تولى الرئاسة مؤقتا النائب الأول لرئيس الجمهورية ، إلى أن يقرر مجلس الأمة بأغلبية ثلثى أعضائه خلو منصب الرئيس ويتم اختيار رئيس جديد فى مدة لاتتجاوز ٦٠ يوما من تاريخ خلو منصب الرياسة . وبذلك أصبح أنور السادات رئيساً مؤقتاً للجمهورية .

وكان موت عبد الناصر صدمة جديدة للعالم العربى ولشعبه التى اختلطت مشاعره بين الحزن والألم والضياع والحيرة . ولعل أخطر المشاعر التى سادت حينئذ هو ذلك الشعور الذى تملك الكثيرين وهو الشعور بالنهاية ... وبالفراغ . وكأن وجود الشعب قد ارتبط بوجود الشخص وكان هذا الشعور فى حد ذاته معبرا عن القلق والألم الذى عاشته مصر سنين .

وكان رحيل عبد الناصر فى تلك المرحلة من مراحل الصراع لطمة قاسية . فقد كان عبدالناصر — دون شك — رمز تحول خطير فى الصراع العربى الإسرائيلى .

وعلى حد تعبير أحد كبار كتاب مصر « إن الذين يحبون جمال عبد الناصر فى هذا العالم والذين يكرهونه على السواء لن يجدوا مفراً ، وهم يؤرخون ويحللون الصدام بين العرب وإسرائيل ، من أن يقسموا معه هذا الصدام قسمة حاسمة إلى مرحلتين : قبل عبد الناصر ، وبعد عبد الناصر » .

« لقد نبت من الأحداث جيل جديد كافح على مستويات مختلفة وبإمكانات متباينة ... من أجل نقلة جديدة فى حياة العرب . جيل لا شك أن عبد الناصر أكبر رموزه ، وأكبر من وضع هذه الآمال موضع التنفيذ» .

« ... والانطلاق إلى العصر الحديث وإلى الحضارة لم يصبح أبداً جهداً قومياً شاملا تشترك فيه الحكومة والشعب ، والمال مع العمل ، والعلماء مع البسطاء فى حركة عضوية واحدة . . . إلا حين بدأت المرحلة التى يرمز لها ويمثلها عبد الناصر . . . » [1] .

ومهما تباينت الآراء أو اختلفت فمما لا شك فيه أن موت عبد الناصر كان فى مقدمة الأحداث التى هزت مصر بعنف وضراوة بصورة لم تفق منها لفترة طويلة .

لقد جاءت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، التى قادها جمال عبد الناصر منذقامت حتى وفاته وعلى مدى ثمانية عشر عاماً ، فستهدف إحداث تغييرات جذرية سياسية واقتصادية واجتماعية فى المجتمع المصرى . ولكن القدر لم يمهل عبد الناصر . وعندما مات كانت مصر مازالت تسير فى طريق التغيير وتواجه العديد من المشكلات .

---

(١) أحمد بهاء الدين . إسرائيليات وما بعد العدوان، (القاهرة .دار الهلال ، ١٩٦٩ ، ص ١١ — ١١٢ .

سابعا : مراكز القوى :

ظهرت مراكز القوى على مسرح السياسة والحياة العامة فى مصر مرة ثانية ، بعد النكسة ومضاعفاتها . وتفجر الصراع على السلطة حاداً ومدوياً إلى أن صفيت هذه المراكز يوم ١٤ مايو ١٩٧١ .

وكانت مراكز القوى قد بدأت تكشف عن نواياها على إثر عودة الرئيس السادات من بنغازى ، حيث أتم الاتفاق مع الرئيسين معمر القذافى وحافظ الأسد على قيام دولة اتحاد الجمهوريات العربية المتحدة . وحينما نوقش هذا الموضوع باللجنه التنفيذية العليا بالاتحاد الاشتراكى للتصديق على الاتفاق ، بدا الصراع واضحاً وكانت بواعثه شخصية لا تستهدف المصلحة العامة . ويقول الرئيس السادات :

« لأول مرة لقيت صراع غريب ، السيد على صبرى خد الكلمة فى الأول وتكلم . . ساب مواد الاتفاق وقال إن الأسلوب إللى تم به الاتفاق له عليه ملاحظات ، وعلى المواد ملاحظات . ولكن ، إللى أنا فوجئت به ، إن المسألة ما كانتش مناقشة للخلاف على ، الرأى أو مناقشة أيها أصلح ، أو مناقشة موضوعية فى الموضوع إللى إحنا فيه . لا ، عملية غريبة قوى . عملية واضح فيها الصراع . الصراع بكل الطرق وبكل الأساليب وعن طريق التجريح[١] » .

لقد كان واضحاً أن المناقشات فى اللجنة التنفيذية العليا لم تكن تنبعث عن نوايا طيبة تستهدف الصالح العام . وحينما تمت عملية التصويت ، عارض خمسة من أعضاء اللجنة الاتفاق[٢] . وأيده ثلاثة فقط هم الرئيس السادات والسيد حسين الشافعى والدكتور محمود فوزى . وعند هذا الحد أخذ الموضوع إلى اللجنة المركزية وفى اللجنة اللامركزية عملت مراكز القوى على إفساد جو المناقشات ، وطالبت بإدخال تعديلات شكلية على المشروع ، وتم التعديل فعلا ، وفى النهاية وافقت اللجنة بالإجماع على الاتفاق بعد أن تأكد أن هناك تيارات خفية تحركها .

---

(١) وزارة الثقافة والإعلام ، الهيئة العامة للاستعلامات : خطب الرئيس السادات ، من ١٩٧١/٤/١ إلى ١٩٧١/١٢/٣١ . ص ٨٨ .

(٢) هم : على صبرى ، شعراوى جمعه ، لبيب شقير . ضياء الدين داود ، عبد المحسن أبو النور .

مناخ أكثر مواءمة للحياة السياسية والاجتماعية السليمة ، وأكثر مناعة ضد ظهور مراكز قوى جديدة .

ثم اتضحت أبعاد الصراع الخفية حينما كشفت الأشرطة المسجلة عن وقائع التآمر الذى كان يجرى ضد رئيس الجمهورية . ومن بين هذه الوقائع حصار مبنى الإذاعة والتليفزيون بأوامر من مراكز القوى فى نفس اليوم الذى جرت فيه مناقشات اللجنة المركزية ، بقصد منع رئيس الجمهورية من دخول المبنى ، إذا فكر فى ترك اللجنة والتوجه إلى هناك لمخاطبة الشعب . ومنها أيضاً عملية الاستقالات الجماعية التى حملها رسول إلى رئيس الجمهورية ، وإذاعة بيان بها من الإذاعة بعد دقيقتين من تقديمها للرئيس بتوجيه من مراكز القوى ، بهدف إثارة الرأى العام وإرغام رئيس الجمهورية على التراجع عن موقفه . وإزاء هذا الموقف المتفجر وإفصاح مراكز القوى عن نواياها ، اضطر رئيس الجمهورية إلى وضع حد للصراع . فقبل الاستقالات جميعها وأحال الموضوع إلى نيابة أمن الدولة لتحقيقه .

لقد أدى ظهور مراكز القوى خلال هذه الفترة ، إلى تحكم قلة فى عملية اتخاذ القرارات وتقرير مصائر الأمور السياسية والاقتصادية والداخلية . ولقد تجاوزت هذه مراكز حدود السلطات المخولة لها فى ظل المناخ الذى كان قائماً وقتئذ ، والذى كان يسمح بأن تستغل السلطة الرسمية لأغراض وأهواء شخصية . وتحولت بعض الأجهزة التى لم تكن خاضعة لأى رقابة من الخدمة العامة إلى السيطرة والتحكم والاستمتاع بما يمكن أن تجلبه ممارسة السلطة بدون حدود أو قيود من نفوذ ومزايا ومصالح شخصية .

وعندما تفجر الصراع ، وبرزت النوايا الحقيقية لمراكز القوى كانت الأوضاع الداخلية فى مصر ما زالت سيئة بسبب أحداث النكسة . وكان الشعب ما زال يعانى آلام الهزيمة والضياع والتمزق . فلما تم التخلص من هذه المراكز التى كانت تعمل لحسابها وصالحها ، وتفرض إرادتها بالخير أو بالشر على الجماهير ، وتضع قيوداً على إمكانية التفكير أو التعبير أو الرأى ، أخذ الشعب يستشعر الراحة وينشد الاستقرار .

ثامنا : الوحدة الوطنية والفتنة الطائفية :

صاغ شعب مصر وحدته الوطنية خلال أجيال من تاريخه الطويل . وهى الوحدة التى مكنته من مقاومة الغزاة ، والاحتفاظ بشخصيته القومية ، وأصبحت بذلك جزءاً من تراثه الحضارى . وقد استطاعت هذه الوحدة بين عنصرى الأمة مسلمين ومسيحيين — أن تقف فى وجه محاولات التفرقة التى كان الإستعمار يبثها . وبدت هذه الوحدة قوية صلبة تعانق فيها الهلال مع الصليب خلال النضال الوطنى سنة ١٩١٩ ، تحت شعار « الدين لله والوطن للجميع » . وكانت إحدى الدعائم الأساسية التى مكنت مصر من الصمود فى وجه غزو سنة ١٩٥٦ ونكسة سنة ١٩٦٧ .

على أن الملاحظ فى تاريخنا القومى أن بعض الحوادث المثيرة للفتنة كانت تفتعل حينما يبلغ النضال الوطنى ذروته ، أو عندما يسود القلق الذى يؤدى إلى التناحر بين الأخ وأخيه .

وأية بلد مهما كان الإحساس بوحدته قوياً لا يخلو من بعض حوادث فردية متناثرة ،أو خلاف يقع بين أشخاص ينتمون إلى طوائف أو مجموعات تختلف من حيث الدين أو المذهب أو الفكر السياسى أو الجنس أو اللون .

والحوادث المتفرقة المتباعدة لا تدعو إلى القلق ، ولكن الذى يدعو إليه هو ازدياد مثل هذه الحوادث وتقاربها . وقد زادت حوادث الشقاق الطائفى زيادة ملحوظة فى أوائل السبعينات. فبينما وجدت حادثة واحدة من ١٦ يونية سنة ١٩٧٠ إلى ١٠ أغسطس سنة ١٩٧١ ، نجد أنه قد وقعت عشرة حوادث فى الفترة ما بين ١١ أغسطس سنة ١٩٧١ إلى ١٢ نوفمبر سنة ١٩٧٢ . وأصبحت هذه الحوادث تعبر عن حالة من التوتر يزكيها تيار دينى قوى عصبى بغير إرشاد سليم يبعد خطر

التعصب ، وتحفه المبالغة التى يسهم بها بحسن نية بعض المواطنين دون أن يفطنوا إلى أن بث التفرقة والكراهية بين الطوائف — أو بين الفئات — هو السلاح الذى يستخدمه العدو دائماً لإضعاف مثابرة الأمة وصرفها عن قضاياها الأساسية وهى التحرير والتعمير[1] .

وكانت هذه الحوادث فى جوهرها انعكاساً آخراً لحالة القلق والضيق والفراغ والضياع التى سادت مصر خلال الست سنين العجاف... بل التى سادت الأمة العربية كلها فخلفت أنواعاً مختلفة من الشقاق والفراغ، قامت رغم وحدة المصير ووحدة الدين.

ولكنها استحقت وقفة ودراسة وعناية عندما بلغت حداً له خطورته فى حادث الخانكة ، الذى بدأ بإحراق مبنى جمعية الكتاب المقدس ، ثم أدى إلى سلسلة من الحوادث المتسرعة .وفى مواجهة الموقف ، أصدر مجلس الشعب فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩٧٢ — بناء على طلب رئيس الجمهورية — قراراً بتشكيل لجنة خاصة باستظهار الحقائق برئاسة وكيل المجلس وعضوية ستة من أعضائه ، ثلاثة من المسلمين وثلاثة من المسيحيين . واهتمت لجنة استظهار الحقائق بدراسة جوانب المشكلة وتقدمت باقتراحات لإزالة سوء الفهم أو المشاكل التى تؤدى إلى إثارة الإضطراب . ومن أهمها وضع نظام ميسر لبناء الكنائس بناء على خطة تتقدم بها البطريركية .

وقد ساعد هذا التقرير وما جاء به من نتائج على تهدئة الحالة ، كما ساهم الموقف النبيل الذى اتخذه بعض رجال الدين من الطرفين فى إزالة التوتر . ولكن الأمر الذى جعل الجرح يلتئم والقلوب تصفو والإخاء يغلب ، هو ما قام به الرئيس أنور السادات من زيارة كل من شيخ الجامع الأزهر وبطريرك الأقباط واجتماعه برجال الدين .

---

(١) أنظر مجلس الشعب ـ تقرير اللجنة الخاص باستظهار الحقائق فى الحوادث الطائفية التى وقعت بالخانكة . (الفصل التشريعى الأول، دور الانعقاد العادى الثانى ، القاهرة ، ١٩٧٢/١١/٢٦).

وكانت حرب ٦ أكتوبر نهاية حاسمة لكل بقايا هذه الفرقة التى أزكاها العدو والاستعمار .

وخلال المعركة عبر عنصرى الأمة عن أصالة ما فيهما من إخاء ومحبة وتضامن . وكان الهدف الأول والأوحد هو الأم الواحدة . . مصر .

وفى ساحة القتال استشهد المسلم بجوار المسيحى . وفى الجبهة الداخلية تعاون المواطنون فى كل شىء وفى كل مجال وأقيمت الصلوات فى الجوامع وفى الكنائس لنصرة الحق .

وعبرت هذه الروح الرائعة عن نفسها فى لمسات متعددة نذكر منها مثلا لما حدث فى إحدى المستشفيات عندما كانت حرم الرئيس السادات تقوم بزياراتها اليومية للمرضى لترعاهم وتطمئن عليهم وتقدم لهم تحيات الرئيس وتهديهم المصاحف والأناجيل . فقد سألت أحد المصابين مرة عما إذا كان يريد مصحفا أو إنجيلا فقال لها : « أرجوك أعطنى الاثنين » . وقال لها آخر : « أنا قرأت الإنجيل مراراً فأرجوك أن تعطينى مصحفا » .

وهكذا انقشعت سحابة قاتمة ظللت جو مصر لفترة سادها القلق والتوتر . وفوتت على العدو فرصة أراد بها أن ينال من وحدة شعب مصر ، والتأثير على الجبهة الداخلية ، وأحداث الفرقة بين أبناء الوطن الواحد . وأخرجت الحرب من أبناء مصر أفضل مافيهم ، وأظهرت السجايا الحقيقية للشعب المصرى الذى عرف بالطيبة والتسامح والبعد عن التعصب أو التفرقة على مـــدى حضارته وتاريخه الطويل .

تاسعا : الشباب والأحداث الطلابية :

أعلن الرئيس السادات فى برنامج العمل الوطنى « أن الشبـاب هو الغـد والمستقبل ، وإذا لم يلعب دوره كاملا فى بناء الحاضر ضاع منا المستقبل والحاضر ».

وفى خطابه أمام المؤتمر القومى العام فى فبراير ١٩٧٢ قال : « ... إننى لا أريد احتواء حركة الشباب ، ولا أريد عزل حركة الشباب ولا أريد ضرب حركة الشباب،وفى يقينى أن مثل ذلك خسارة لقوى النضال الوطنى،بل هو خسارة للقوى الصانعة للمستقبل، ولـكننى رأيت وما زلت أرى ، أن مبادرة الشباب إلى الاهتمام العام مطالب من مطالب الثورة والمعركة وما بعد المعركة ، على أن يكون ذلك من خلال المؤسسات وليس خارج المؤسسات » .

لذلك فإنه عندما تفاقمت الأحداث الطلابية التى بدأت فى شهر ديسمبر ١٩٧٢، وتطورت من مجلات حائط نابية ، إلى اعتصام ، إلى تظاهر ، إلى الاعتداء على بعض أعضاء هيئة التدريس ، إلى إحداث تلفيات فى المبانى ، إلى التشـكيك فى نظام الحـكم .. أخطرت قوات الأمن بالتدخل وإخلاء الحرم الجامعى من الطلبة ، مما زاد الموقف اشتعالا وتصاعداً .

وفى مواجهة الموقف طلب رئيس الجمهورية إلى مجلس الشعب تشكيل لجنة لتقصى الحقائق فى الأحداث الطلابية. وفى تحليلها للأسباب التى أدت إلى هذه الحوادث، وضعت لجنة تقصى الحقائق هزيمة يونية ١٩٦٧ فى مقدمة هذه الأسباب . وأكدت أن هذه الهزيمة كان لها آثارها العنيفة . ورغم استطاعة الشعب المصرى أن يستوعبها ويؤكد صلابته ، إلا أنها قد تركت فى النفوس رواسب نتيجة لانهيار الأمل البراق فى نصر منشود آنذاك . ولقد كان شبابنا أكثر تأثراً بذلك وهذا هو شأن الشباب دائماً . وقد كان الشعب بجميع فئاته يرقب اليوم الذى يفد عليه بأمل غسل العار، فأخذ يتابع إعادة بناء جيشه وما ينشر من أنباء اشتباكاته وبطولاته التى تتلمس الفرص لتأخذ مكانها .

وإذا كانت هذه المتابعة من شأنها أن تحرك فى النفوس أملا فإنها تشير أيضاً قلقاً .

وإذا كان الأمر كذلك فإن نفوس شبابنا تصبح نهباً مقسما بين الأمل والقلق.

وإذا كان مجتمعنا من ناحية أخرى يمر ببعض المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التى مردها إلى الظروف التى نجتازها، فإن هذه المشاكل قد ضاعفت من هذه الحالة.

ويتبين من هذا التقرير أيضاً أن هذه الاضطرابات قد بلغت حد تكوين مجموعات مناهضة لنظام الحكم القائم فى البلاد ، وأن مجلات الحائط كانت تقوم بالتشكيك فى صدق القيادة السياسية ، ورميها بالاستسلام .

وتحملت القيادة السياسية كل هذا ضمن ماتحملت وتحمله الشعب مع مايتحمل . فقد كانت أحداث الطلاب أسلوب الشباب فى التعبير عن قلقه . وقد مست الأحداث فئات المجتمع المختلفة ، واختلفت المشاعر بين من يفهم الشباب ومن يدينه. ولكن الحقيقة الواضحة التى برهنتها هذه الأحداث هى أن الشباب أصبح فى حالة حادة من القلق والضياع والرغبة فى الخروج من حالة اللاحرب واللاسلم التى خيمت على المجتمع سنوات طويلة .

عاشرا : حادث طائرة الركاب الليبية :

فى ٢١ فبراير ١٩٧٣ ، وبينما طائرة الركاب التابعة لشركة الخطوط الجوية الليبية تستعد للهبوط فى مطار القاهرة ، اتصل قائدها الفرنسى ببرج المطار يطلب تعليمات الهبوط . . . وبينما برج مطار القاهرة يسأله عن موقعه وهو يحاول أن يحدده . . . رد القائد بأنه يبدو أنه يواجه بعض الصعوبات ، والخطأ فى التقدير ، وأن خلفه ٤ طائرات . وبينما التعليمات الصادرة من برج مطار القاهرة تحاول أن ترشد الطائرة إلى كيفية التصرف ، أرسل قائدها رسالة أخيرة يقول فيها . .. يبدو أننا قد ضربنا . . لقد ضربتنا طائرة عسكرية . . . لقد ضربتنا طائرة عسكرية . .

وكان هذا آخر ما قاله القائد . . . . فقد لقى حتفه هو و ١١٣ من المدنيين هم ركاب الطائرة ، التى اسقطتها الطائرات العسكرية الإسرائيلية .

وهز هذا الحادث الكئيب الضمير العالمى . وكان من أخطر ما تعرض له العرب من مهانة واستهتار . وأدانت الأمم المتحدة الحادث فى بيان جاء فيه « إن عدداً كبيراً من المدنيين الأبرياء قد لقوا حتفهم فى حادث يعد من أشنع الحوادث التى عرفها الطيران المدنى » . وأمر سكرتير الأمم المتحدة بإجراء تحقيق شامل فى الحادث .

واعترضت منظمة الدول الأفريقية على الحادث بشدة.وأرسل نترو أكانيا كى السكرتير العام للمنظمة برقية إلى الرئيس السادات وأخرى للرئيس القذافى. يعبر فيها عن اعتراض المنظمة على هذا الحادث المؤسف الذى جاء فى أعقاب اجتماع المنظمة الذى أدانت فيه احتلال إسرائيل للأراضى العربية .

وأرسل البابا بولس السادس ببرقية عزاء من الفاتيكان يدين فيها الحادث ويقدم عزاءه لأسر المصابين.

وفى فرنسا استدعى وزير الخارجية الفرنسى موريس شومان السفير الإسرائيلى ليبلغه احتجاج فرنسا، كما قابل سفير فرنسا فى إسرائيل وزير خارجيتها أبا إيبان، وأسرع سفير فرنسا فى القاهرة بتقديم عزائه لوزير خارجية مصر .

وأدانت حكومة الاتحاد السوفيتى بشدة أعمال المصابات التى تقوم بها إسرائيل . . . . واتهمتها بأنها تريد أن تقضى على أية محاولات للسلام فى الشرق الأوسط .

وعقدت مجموعة الدول غير المنحازة فى الأمم اجتماعا أدانت فيه الأعمال الإرهابية التى تقوم بها إسرائيل ضد المدنيين الأبرياء .

وأصدر عدد من المنظمات المختلفة تصريحات واحتجاجات . . . . . ونشرت الصحف العالمية كلها أخبار الحادث وألقت اللوم ـ حتى فى أمريكا ـ على إسرائيل.

لقد مات ركاب هذه الطائرة من غير ذنب ، وفى غير حرب واعتبروا بحق شهداء ذهبوا ضحية عدو لم يعرف حدوداً لتماديه · وفى كل مرة كان يقع فيها مثل هذه الأحداث كانت دماء ضحاياها تحرك مشاعر العرب وتجدد آلامهم وتزكى الرغبة فى التحرير . . . . وتعطى دفعة جديدة للعسكريين وللمدنيين على حد سواء لوضع حد لصفاقة العدو واعتداءاته .

إحدى عشر: جريمة بيروت :

فى فجر ١٠ أبريل ١٩٧٣ قامت القوات الإسرائيلية بجريمة قتل فى شوارع بيروت ، بينما كانت قوة أخرى تقوم بجريمة مماثلة فى وسط مخيم للاجئين فى ميناء صيدا .

واستشهد فى هذه الجريمة ثلاث من أبرز زعماء المقاومة الفلسطينية هم أبو يوسف ، وكمال ناصر ، وكمال عدوان . واستشهد ٢٢ آخرون من صفوف المقاومة ، والشرطة اللبنانية ، ومن المدنيين، وأصيب ١٧ شرطيا ومدنيا .

وكانت فرقة القتل الإسرائيلية قد تسللت من سفينة حربية رست فجأة أمام شاطىء بيروت وتقدمت إلى الشارع الرئيسى حيث كان فى انتظارها ٦ سيارات أجرة لبنانية ، تبين أنها مؤجرة منذ ٦ أبريل ، وأن الذين استأجروها ستة إسرائيليين يحملون جوازات سفر أجنبية مزورة. وقام هؤلاء الستة بقيادة القوات الإسرائيلية إلى المواقع التى جاءوا إليها. كل مجموعة إلى هدف حيث قاموا بست عمليات وصفتها الصحف الفرنسية بأنها « مغامرة وقحة » .

وتمت العملية الأولى فى وسط مدينة بيروت فى منطقة رأس بيروت حيث توجد عمارتان يسكنهما قادة المقاومة الثلاثة ، واقتحمت القوة العمارتين بعد أن قتلوا ثلاثة من الحراس ، واتجهت كل مجموعة إلى واحدة من الشقق الثلاثة ، فتوجهت مجموعة إلى منزل يوسف النجار المشهور « بأبو يوسف » ، رئيس اللجنة

العليا للفلسطينيين فى لبنان، وأطلقت النار عليه وعلى زوجته فقلتهما وأصابت إبنه البالغ من العمر ١٥ سنة .

وذهبت قوة أخرى إلى عمارة مجاورة بها منزل كمال عدوان الذى يبدو أنه كان مستعدا لهم ففاجأهم بإطلاق النار عليهم وأصاب أربعة من الإسرائيليين ولكنهم استطاعوا قتله . وهاجمت قوة ثالثة منزل كمال ناصر الذى كان ساهراً يكتب فى غرفة مكتبه وأطلقوا النار عليه فقتلوه .

ولم تكتف القوات الإسرائيلية بقتل الزعماء الثلاثة، إنما قامت أيضا بعمليات أخرى فنسفت مركز الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين فى محلة أبو شا كر ،ونسفت منزلين . وقتلوا ثلاثة عمال سوريين ولبنانيين فى منطقة الأوزاعى جنوب لبنان . وفى منطقة الدورة فى أقصى الجانب الآخر من بيروت هاجموا ورشة خراطة يملكها فلسطينى ، وعندما حاولت قوة إسرائيلية الوصول إلى المطار واعترضها رجال الأمن اشتبكت معهم .

وفى نفس الوقت الذى كانت تجرى فيه عمليات بيروت كانت قوة إسرائيلية أخرى تقوم بمهمة مماثلة فى ميناء صيدا ، حيث نسفت عدداً من البيوت فى مخيم للاجئين الفلسطينيين ثم نسفت محطة بنزين وجراجا للسيارات . . . وجاء فى البيان الذى أصدرته القيادة العسكرية الإسرائيلية بعد ذلك أن القوات الإسرائيلية نسفت هذا الجاراج لأنه كان يقوم بإصلاح سيارات الفدائيين .

وفقدت المقاومة فى هذه العملية رجالها الثلاثة البارزين : فأبو يوسف كان عضو اللجنة المركزية لحركة فتح ومسئول الشئون السياسية باللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ،ورئيس اللجنة السياسية العليا للفلسطينيين فى لبنان . كما كان قد تولى قبيل مقتله مسئولية جهاز الرصد فى حركة فتح التى كان أحد مؤسسيها ، وكان مسئولا عن العمليات الخارجية لها . كما كان على علاقة وثيقة مع مختلف منظمات المقاومة .

أما كمال ناصر فقد كان المتحدث الرسمى باسم منظمة التحرير الفلسطينية ، ومنذ انضمامه إلى قيادة منظمة التحرير سنة ١٩٦٨ ، وهو يشغل منصب مسئول الإعلام الفلسطينى والمتحدث الرسمى . وقد كان كمال ناصر كاتباً وشاعراً ونائباً أردنياً سابقاً استطاع الفرار من الأردن عام ١٩٥٧ واختفى فى قرى بلاده عاما ونصفا ، ثم فر إلى سوريا فى عهد الوحدة ، وبعد الانفصال جاء للقاهرة .

وكمال عدوان مهندس بترول تخرج فى كلية الهندسة جامعة القاهرة والمسئول العسكرى والتنظيمى للقطاع الغربى ، وكان آخر عمل قام به هو توحيد جميع فصائل حركة المقاومة فى قطاع غزة . وكان مسئولا عن النشاط الفدائى المكثف الذى كان يقع فى مختلف مدن الضفة الغربية وغزة،ومسئولا عن إعلام منظمة فتح ووكالة الأنباء الفلسطينية .

وأصدرت تل أبيب بيانات تؤيد العملية وتبررها . وأقام الجنرال العازار مؤتمراً صحفياً قال فيه إن عمليات مماثلة قد تقع فى المستقبل. وأصدرت قيادة المقاومة بياناً عاهدت فيه الشهداء على أن تستمر فى المسيرة .

ومرة ثانية يتأكد للعالم العربى شعوباً وحكومات أن العدو مصر على الاستخفاف بكل الدول العربية ، متجرد من القيم ، يريد أن يزرع الخوف فى قلوب العرب عن طريق التمادى فى عمليات الانتقام والردع والتنكيل البشع والتحدى السافر . وألهب الحادث مشاعر العرب فى كل مكان . وترددت التساؤلات إلى متى السكوت على هذا الحال ، ومتى يمكن للعرب أن يثأروا لكرامتهم وقتلاهم ؟

وتحديات أخرى عديدة :

لعل فى مقدمتها ما أطلق عليه « أزمة مع روسيا » أدت إلى الاستغناء عن خدمات الخبراء السوفييت ، ومغادرتهم مصر وعودتهم إلى روسيا . والإحساس

الذى ساد وقتئذ بأننا قد تحررنا من نفوذ الخبراء من ناحية،وفقدنا صديقنا الوحيد من ناحية أخرى .

— ومن بينها أيضا حادث تسرب الغواصات فى ميناء شلبورج الفرنسى إلى إسرائيل . مما أدى إلى زيادة التوتر ، وإعطاء إنطباعا بأن هناك بعض التحول فى موقف فرنسا من العرب . ومنها أيضا الصفقة التى عقدتها إسرائيل مع إنجلترا لشراء غواصتين . وانتشار أنباء تقول بأن الملك حسين على اتصال وتفاهم مع قادة إسرائيل .

وبدت الفجوة بين الدول العربية تأخذ فى الاتساع . ولعل أقسى ما تحمله العرب خلال هذه الفترة ، الصورة التى رسمتها هزيمة ١٩٦٧ فى أذهان العالم . وهى الصورة التىعبرت عنها صراحة بعض المجلات فى سخرية لاذعة عن العرب، وهاجت الحضارة العربية ، وأخذت تؤكد أن العرب لم يسهموا بأى إضافة إلى التقدم الحضارى للعالم ، بينما يؤدى علماء إسرائيل دوراً هاما فى هذا الصدد .

* * *

وفى ظل هذه الظروف الصعبة التى خيمت على الأمة العربية فى هذه الفترة نتيجة لامتداد حالة اللاحرب واللاسلم ، واستفحال خطر الوجود الصهيونى وتماديه وعجز أجزاء من الواقع العربى الرسمى عن القيام بمتطالبات تلك المرحلة من النضال العربى .

ووسط مناخ ماساة ألقى على نفوس الجماهير . وازمة نفسية طاحنة للمفكرين ، وشعور عند الكثيرين بالضياع والياس ، بلغ حد التشكيك والتشكيك فى جدارة العرب فى الحياة ...

ووسط كل هذه الحقائق اعطيت الاشارة وانطلقت الشرارة .. . وتمكن العرب من تحقيق انتصارات لم يتوقعها العالم لهم ، بل ولم يتوقعوها هم من انفسهم فما الذى حدث ؟

الفصل الثانى

إعادة بناء المجتمع

تمر المجتمعات عادة ، والمجتمعات التى تعاصر مرحلة تغيير سريع خاصة ، بمراحل ثلاث فى مسيرتها نحو التقدم .

الأولى : هى مرحلة التخلص من الماضى ، أو مرحلة القضاء على الأوضاع السابقة التى تعوق التقدم .

الثانية : مرحلة التبنى ، وخلالها تتبنى الدولة الأفكار والمبادىء والقيم التى تبلورت خلال الفترة الماضية .

الثالثة : مرحلة البناء ، وفيها تسخر الدولة كل مصادرها وإمكاناتها لبناء الطريق الذى تسير فيه نحو تحقيق الأهداف التى تبنتها .

وفى العادة ، فإن المجتمعات تعيش كل مرحلة من هذه المراحل على حدة خلال فترة زمنية معينة ، ثم تتخلص من كل مرحلة أو طور لتدخل المرحلة التالية . على أن الأمر لم يكن كذلك فى مصر فى أعقاب نكسة ١٩٦٧ . فالباحث المدقق

خلال هذه الفترة يجد أن مصر قد عاشت هذه المراحل الثلاثة فى آن واحد ، أى فى طور واحد .

فقد كانت مصر تحاول التخلص من أوضاع ما قبل النكسة ، تلك الأوضاع التى أسهمت فى الهزيمة . وبصفة خاصة ما يتعلق منها بالحريات والممارسة الديموقراطية، ومراكز القوى .

وكانت تحاول تبنى أفكاراً ومبادىء أكثر عقلانية وتقدمية تقود المجتمع نحو الخروج من محنته، وتضىء معالم الطريق المظلم أمام الحاكم والمحكوم ، وتضع ناموساً جديدا لقيم مجتمع طحنته الهزيمة ، صدر فى عدد من الوثائق الهامة منذ النكسة .

وكانت مصر أخيراً تحاول البناء ، بكل الجهود والقوى والإرادة والتصميم، فى سباق رهيب مع الزمن ، الذى كان دائما حليف الأعداء . . . إسرائيل ، والفقر والجهل والمرض ، والكآبة والتمزق .

إن الظروف التى كانت قائمة فعلا كانت تفرض المبادرة بالإصلاح الشامل . وكان لإصلاح عملية حتمية ، وضرورة بقاء لابد من القيام بها .ولعل أهم الاعتبارات والعوامل التى اقتضته ما يأتى :

١ — حدوث انهيار كامل فى المجتمع إثر النكسة، بسبب الهزيمة الصعبة التى منيت بها مصر ، والنصر السهل الذى أحرزته اسرائيل .

٢ — ظهور مراكز القوى التى كانت توجه جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتتسلط عليها فى إتجاه المصالح الذاتية ، والتى كانت تخنق اتجاهات الحرية والديموقراطية وسيادة القانون .

٣ — التغيير الواضح الذى طرأ على فلسفة الحكم وتسيير جوانب الحياة

العامة فى مصر، بما يطبع حكم الرئيس السادات بطابع متميز فى مناخه وفكره واتجاهاته .

٤ — تفاقم المشكلات الجماهيرية بسبب سوء الإدارة ، وقصور الجهود التى تبذلها أجهزة الخدمات فى حلها ،والقناعة بسياسة : « **محاولة الابقاء على المشكلات على ماهى عليه دون تفاقمها ، بسبب تعذر حلها** » . وضيق المواطنين ونفاذ صبرهم ويأسهم من جدية محاولات الإصلاح وجدواها .

٥ — اضطراد التقدم العلمى والتكنولوجى ، وسرعة تغيير وتقدم مجتمعات العالم ، وبصفة خاصة بعض مجتمعات الدول العربية التى انصرفت جهودها إلى الاهتمام بأمورها الداخلية وتنمية إقتصادها وأحوالها الاجتماعية ، وأخذت تجتذب أعداداً متزايدة من المثقفين والعلماء المصريين للعمل بها .

وفى العادة يكون توفر أحد هذه العوامل كافياً للبدء فى عملية الإصلاح الشامل. أما وقد تجمعت كلها فى وقت واحد وفى بلد واحد ، فإن ضرورة المبادرة إلى الإصلاح كانت تضغط ضغطا قويا ومركزاً على القيادة السياسة . وهذه لم يكن أمامها الخيار ، فأصدرت بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨ ، وجرى الاستفتاء عليه فى ٢ مايو ١٩٦٨ .

ثم صدر بعد ذلك برنامج العمل الوطنى فى ٢٣ يوليو ١٩٧١ ، والدستور الدائم لجمهورية مصر العربية فى ١٩٧١ .

بيان ٣٠ مارس

لم تكن هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ ، تمثل فى واقعها هزيمة عسكرية بقدر ما كانت تعبر عن محنة قومية. وفى مواجهة الهزيمة كان شعب مصر أمام احتمالين : الانهيار أو الصمود . واختار الشعب أن يصمد . وكان طبيعيا وقتئذ أن تبادر القيادة السياسة برفع شعار التغيير بأمل مساعدة الوطن على تخطى الظروف القاسية التى يمر بها . فأعلن الرئيس عبد الناصر فى ٣٠ مارس ١٩٦٨ بيانا حدد المعالم الهامة التى يمكن الاهتداء بها فى عملية التغيير . كما أورد الأسس التى يمكن الاستئناس بها عند وضع الدستور الدائم .

وقد تضمن البيان إتجاهات رئيسية أبرزها : المزيد من الممارسة الديموقراطية ، وبناء جديد للدولة أساسه العلم ويبرز فيه دور المؤسسات وسيادة القانون والإدارة العلمية . وحدد البيان تصوراً كاملا للموقف وقتئذ يمكن إجماله فيما يلى :

١ — إعادة بناء القوات المسلحة .

٢ — تحقيق الصمود الاقتصادى .

٣ — تصفية مراكز القوى .

٤ — كشف انحرافات وأخطاء المرحلة السابقة من خلال المحاكمات العلنية .

٥ — تكثيف الجهود السياسية من أجل المعركة .

وقدم البيان برنامج عمل للمرحلة القادمة . وحدد أسلوب التغيير بأنه أبعد من أن يكون تغييرا لمجرد التغيير ، أو بهدف استبعاد أشخاص واستقدام آخرين ،

وأن جوهره تغيير المناخ العام والظروف السائدة ، من واقع فكر أكثر وضوحاً. وحشد أقوى ، وتخطيط علمي دقيق .

وحدد البيان أسلوب التغيير فى منهجين :

١ — تغيير القيادات لإفساح المجال لقيادات أخرى تحمل مسئولية العمل الوطنى القيادى فى المرحلة التى تمر بها مصر .

٢ — تغيير المناخ . أى التغيير فى الفكر والخطط والظروف .

وتحقيقا لهذه الأهداف حدد البرنامج طريقا للتنفيذ على النحو التالى :

١ — إعادة انتخاب الاتحاد الاشتراكى من القاعدة إلى القمة . . بما يحقق ضم عناصر قيادية جديدة للتنظيم تستطيع بفكرها الجديد أن تقود العمل السياسى فى مرحلة النضال .

٢ — تدعيم عملية بناء الدولة الحديثة فى مصر ، والتى تستند على العلم والتكنولوجيا . وذلك عن طريق إنشاء المجالس التخصصية على المستوى القومى ، لتساعد على الحكم . إلى جانب مجلس الدفاع القومى . وهى :

(ا) مجلس إقتصادى قومى : ويضم شعبا للزراعة والصناعة والمال والعلوم والتكنولوجيا .

(ب) مجلس إجتماعى قومى : ويضم شعبا للتعليم والصحة وغيرها من الخدمات .

(حـ) مجلس ثقافى قومى : ويضم شعبا للفنون والآداب والإعلام .

٣ — تحقيق رفع مستوى الإنتاج عن طريق التنمية الشاملة.

٤ — تدعيم القيم الروحية والخلقية والاهتمام بالشباب .

٥ — إطلاق القوى الخلاقة للحركة النقابية .

٦ — تعميق التلاحم بين الشعب والقوات المسلحة .

٧ — تركيز الجهود فى البحث عن البترول .

٨ — الاعتراف بقيمة العمل وتوفير الحافز المادى .

٩ — تحقيق وضع الشخص المناسب فى المكان المناسب .

١٠ — ضمان حماية الثورة فى ظل سيادة القانون .

تعثر تنفيذ البيان :

لقد جاء بيان ٣٠ مارس معبراً عن تصور القيادة لمنهاج فكرى يصلح أساساً لعمل الدولة ولوضع الدستور الدائم : ولكن المبادىء والأفكار التى أوردها البيان لم يتح لها التطبيق بصورة يؤمل معها إتجاه الدولة جدياً إلى التغيير والإصلاح .

وفيما عدا البدء فى إعادة بناء القوات المسلحة ، وتصفية مراكز القوى ، وكشف الانحرافات من خلال المحاكمات العلنية ، فإن عناصر البيان الإيجابية لم تنل نفس الاهتمام .

وفى هذا الصدد ، نلاحظ مثلا فى مجال ممارسة الديموقراطية أن انتخابات الاتحاد الاشتراكى قد استهدفت وصول الذين ترضى الحكومة عن ترشيحهم إلى عضوية التنظيم السياسى . ولم يكن يسمح لغير المرضى عنهم بترشيح أنفسهم فى الانتخابات . وتولى المعينون من قبل الصفوة الحاكمة وقتئذ قيادة الاتحاد الاشتراكى .

ولم تكن الانتخابات للمجلس النيابى التى جرت عقب صدور البيان أكثر حيدة من جانب الحكومة ، بحيث تتيح تكافؤ الفرص وحرية التعبير عن الرأى، ووصول ممثلين حقيقيين للشعب إلى المجلس النيابى. بل لعلها كانت أسوأ إنتخابات فى تاريخ الحياة النيابية بمصر من هذه الوجهة. وقد علق الرئيس السادات عقب ثورة التصحيح على هذه الانتخابات بقوله لأعضاء مجلس الأمة :

« كنت على بينة من كل شىء ، خصوصاً فى السنة الأخيرة ، ما كنش فيه شىء خافى عليه فى الدولة خالص . كان فيه المخالفات اللى تمت فى الانتخابات ، واللى كنت مصر على تصحيحها ، وانتو فاجئتونى تانى يوم ورحتوا مصححين الجزء بتاعكم هنا »[1] .

ولاشك أن أعضاء التنظيم السياسى والمجلس النيابى المدينين للحكومة بمراكزهم، والذين يحق لهم من الناحية الدستورية الإشراف عليها ، لايمكن أن يتجاوزوا الحدود فى الرقابة عليها أو نقد سياستها، أو أن يكبحوا جماح الحكومة فى ممارستها لسلطتها التنفيذية . ومن الواضح أن القيادة السياسية كانت تصاب بالضيق كلما نفذت إلى الاتحاد الاشتراكى أو المجلس النيابى عناصر قوية غير مرغوب فيها ، على الرغم من حرص الحكومة وحذرها . وهكذا كان ولاء هذه المنظمات يعتمد على أكثر من الطاعة العمياء لرغبات القيادة السياسية .

ولهذا تحولت هذه الأجهزة السياسية والنقابية إلى شبه منظمات بيروقراطية . تخضع لإرادة الساسة والقادة من الحكام ، دون أن تجرؤ على المعارضة أو النقد ، أو المشاركة الحقة فى إتخاذ القرارات التى تؤثر على السياسة العامة .

وقد أدى هذا الوضع إلى تطلع مستويات السلطة فى جهاز الدولة الحكومى، والجهاز السياسى والمنظمات الجماهيرية إلى مركز موحد للسلطة والحكم فى انتظار التعليمات أو القرارات .

---

(١) الرئيس أنور السادات : خطاب أمام مجلس الشعب ، فى ٢٠ مايو ١٩٧١ .

وفى مثال آخر لما جاء بالبيان، نجد أنه بالنسبة لتدعيم بناء الدولة الحديثة ،نص البيان على إنشاء المجالس القومية المتخصصة . وهو إتجاه تقدمى فى الحكم والدولة العصرية، يستهدف توفير الكفايات من الفنيين والمتخصصين والعقول المفكرة إلى جانب مراكز إتخاذ القرارات عند المستوى الأعلى للدولة . وبذلك تتحول رياسة الجمهورية من الاعتماد أساسا على شخص وشخصية الرئيس، إلى منظمة ضخمة تتوفر لها الخبرات والتخصصات العلمية وصفوة المفكرين ، بحيث تتاح الفرصة الكاملة للدراسة والتخطيط وإتخاذ القرارات العلمية الرشيدة على مستوى الدولة . وفى وجود هذه المجالس ضمان لاستقرار واستمرار السياسة العامة وإدارة شئون الحكم فى حالة تغيير رئيس الجمهورية . وباختصار التحول من حكم الفرد إلى حكم المؤسسات .

وبالرغم من التسليم بأهمية المجالس القومية المتخصصة وضرورتها ، وترديد الرغبة فى حكم المؤسسات ، والتخلص من مراكز القوى وعناصر السلطة الفردية، فإن محاولات تصحيح الأوضاع واتخاذ الخطوات الإيجابية فى إتجاه إنشائها وتشكيلها ، وتأكيد معانى القيادة الجماعية ، والتحول عن حكم الفرد خلال تلك الفترة ، لم تسفر عن أى نتائج إيجابية فى هذا الاتجاه سواء عن قصد أو غير قصد .

ولأول مرة تخرج هذه المجالس إلى الوجود فى تاريخ مصر السياسى والحكومى كان فى يوم ٨ فبراير ١٩٧٤ ، حينما أصدر الرئيس السادات قراراً بتشكيل المجالس القومية المتخصصة ، لمعاونة رئيس الجمهورية فى وضع السياسة القومية ، وإعداد الدراسات المتعلقة بها .

وهذه المجالس هى :

١ — المجلس القومى للإنتاج والشئون الإقتصادية .

٢ — المجلس القومى للخدمات والتنمية الاجتماعية .

٣ — المجلس القومى للتعليم والتكنولوجيا والبحث العلمى .

ويمكن أن نستطرد معلقين على الكثير من الأفكار والمبادىء التى جاء بها بيان ٣٠ مارس ، والتى لم تسمح الأوضاع القائمة فى مصر وقتئذ بإخراجها إلى النور ووضعها موضع التنفيذ . وهكذا بقى البيان فى جملته مجرد وثيقة فكرية جذابة وطموحة .

برنامج العمل الوطنى

أن برنامج العمل الوطنى — الذى قدمه الرئيس أنور السادات إلى المؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى العربى ، وأقره المؤتمر فى ٢٣ يوليو ١٩٧١ ، قد تعرض لتصور بناء الدولة الحديثة « دولة العلم والإيمان » . ويمكن استخلاص الأفكار الأساسية التالية من البرنامج :

١ — أبرز البرنامج نواحى النقص والسلبية فى إنجاز التزامات الدولة فى السنوات الماضية فيما يلى :

(ا) لم تنجح فى تحقيق هدف الخطة الخمسية الأولى كقسم من خطة عشرية تسعى لمضاعفة الدخل القومى .

(ب) لم تستطع الحكومة الوفاء بجميع إحتياجات الجماهير التى تتزايد وتتنوع .

(حـ) لم تتناقص نسبة الأمية بل زاد عدد الأميين بسبب تزايد عدد السكان .

(د) لا زالت قاعدة الخدمات المختلفة أضيق من أن تمـد الجماهير بجميع حاجاتها .

(هـ) ظهور مراكز القوى ومحاولتها تكميم الأفواه وإسكات كل صاحب فكر حتى يمكنها أن تفرغ مؤسسات الشعب من مضمونها الثورى .

(و) الحد الأدنى للأجور مازال كما هو وأرقام الأسعار تمتص كل زيادة فى الأجر .

٢ — أوضح البرنامج خطوات العمل المقبلة للدولة الحديثة :

(ا) إعادة تشكيل التنظيمات الشعبية من القاعدة إلى القمة بالانتخاب الحر المباشر .

(ب) وضع دستور دائم يشترك الشعب فى إعداده ، ويعرض بعد موافقة المؤتمر القومى عليه فى استفتاء عام .

(حـ) إقامة الدولة الحديثة وقد وضع رئيس الجمهورية تصوره لها فى عدد من المبادىء حدد منها :

* أنها دولة الإنسان الحر الفخور بوطنه ، المعتز بكرامته المطمئن إلى يومه وغده وغد أولاده .

* دولة قوى الشعب العاملة صانعة التاريخ وصانعة الحاضر والمستقبل، لادولة الأقلية أو الصفوة أو النخبة الممتازة .

* دولة مؤسسات شعبية قوامها أفراد أحرار .

* دولة لااستغلال فيها للإنسان ولاتناقض بين الفرد والمجتمع ، ولافضل لأحد على أحد إلا بالعمل .

* دولة لاتقنع باستيراد بعض منجزات العلم الحديث بل تزدهر فيها شخصية الإنسان وثقافته وتنوع معارفه وتنطلق قدراته ، ليقيم بنفسه منجزات العلم على أرضه .

* دولة تسخر كل ماوصل إليه العلم الحديث فى خدمة المجتمع .

* دولة لامكان للأمية فيها .

* دولة تزول منها البطاله إلى الأبد وتوفر لكل من بلغ سن العمل فرصة كريمة للعمل .

* دولة تقوم على الديمقراطية والتكنولوجيا المتطورة باستمرار .

* دولة المجتمعات الصناعية التى تربط بين مقر العمل والسكن ، وتوفر للعمال أفضل ظروف العمل وفق أحدث الأساليب ، وأفضل ظروف السكن المريح .

* دولة القرية الحديثة التى توفر لكل فلاح المسكن الصحى الحديث ، والتى تمده فى يسر وبدون إستغلال بالخدمات الزراعية والصحية والثقافية وآلات الزراعة الحديثة .

٣ — أوضح البرنامج دور القطاع العام وإدارته فيما يلى :

* إن القطاع العام هو قلعة التنمية الاشتراكية فى بلادنا.

* إنه القطاع القائد ، فقد أثبتت التجربة المصرية أننا لا تنقصنا الكفاءات الإدارية أو الفنية ، غير أن المسألة الرئيسية هى إيجاد الجو الملائم الذى يجب أن تعمل فى ظله الإدارة .

* إن أساس الإدارة الرشيدة هو الحرية والمسئولية ، الحرية فى اتخاذ القرارات ، ثم المسئولية عن تحقيق الأهداف المحدده تحديداً واضحاً . ولا يجوز

أن تتعدى وظيفة الأجهزة الإشرافية الحكومية دور المتابعة والمساعدة على حل المشاكل ، وذلك دون تدخل فى القرارات والإجراءات التى تتخذها الإدارة ، إن هذا هو السبيل لأن يسير القطاع العام على أسس علمية من الحسابات الاقتصادية بعيداً عن البيروقراطية والقيود الإدارية المتخلفة .

إن اشتراك العاملين فى الإدارة أمر على أقصى درجة من الأهمية . إنه أولا ، تطبيق عملى للديموقراطية ، ثم هو ثانيا ، من الضمانات المهمة لزيادة الإنتاج ومتابعة تنفيذ الخطة .

إن اشتراك العاملين فى الإدارة يصبح مجرد شعار إن لم يشتركوا فى مناقشة خطة وحدتهم وإقرارها ، وإن لم يلعبوا دورهم فى المتابعة أثناء التنفيذ وبعد إنتهاء فترة الخطة . إنهم يستطيعون عن هذا الطريق ، لو أتيحت لهم الفرص أن يتقدموا بكثير من المقترحات المفيدة وبعديد من الحلول الذاتية لمشاكل الإنتاج ، إن اشتراكهم فى التخطيط يساعد على واقعية الخطة من ناحية وعلى سلامة تنفيذها من جهة أخرى .

٤ — أوضح البرنامج دور جهاز الدولة وتنظيمه فيما يلى :

* إن لجهاز الدولة دوراً مهما فى عملية التنمية ، والدولة الجديدة تعنى جهازا يكون فى خدمة الجماهير لا سيداً لها .

* لا بد من عمل ثورى منظم ومحدد يتناول الظاهرة من جذورها فيعيد تنظيم الإدارة الحكومية كلها ، ويحدد المسئوليات بحيث لا تتضارب ، ويرسم طرق الاتصال بين مختلف الأجهزة بحيث لا يتوه العمل بين سراديب الروتين ، ويضع مواصفات الوظائف الاشرافية والقدرات اللازم توافرها فى شاغلها ، ونظاما للجزاء

والثواب . ويحدد بشكل قاطع وواضح نوع العلاقة بين الأجهزة المركزية والأجهزة المحلية .

* أن وضع أجهزة الدولة فى خدمة الشعب لا يمكن أن يتحقق بدون تأكيد رقابة الجماهير عليها ومنح المواطنين من خلال تنظيماتهم الحق فى أن يلجأوا إلى المدعى العام عندما يرون انحرافا عن القانون أو سوء استخدام للسلطة ، ولابد وأن تفتح الأبواب إلى تولى المناصب القيادية أمام العناصر الشابه المثقفة ، وبوجه خاص من أبناء العمال والفلاحين .

* أن المجالس الشعبية تستطيع أن تلعب دوراً مهما فى تطوير جهاز الدولة فهى (كما قال الميثاق) أقدر على الإحساس بمشا كل الشعب وأقدر على حلها ، ولقد آن الأوان لكى تتكون هذه المجالس بالانتخاب الحر المباشر . كما لابد أيضاً من تكوين المجالس القومية المتخصصة كهيئات علمية استشارية وبحيث ترتبط بمراكز البحث العلمى ومعاهده .

البرنامج فى التطبيق:

إن قضية التطبيق قضية جوهرية فى برنامج العمل الوطنى . والضمان الأساسى لتحقيق هذا البرنامج الطموح هو أن تتبناه الجماهير ، وتحترمه الحكومة وتعمل على تنفيذه . ومن واجب كافة التنظيمات السياسة والشعبية والنقابية أن تمنح البرنامج قصارى إهتمامها لتخرج إلى حيز الواقع تلك الأفكار التقدمية التى حواها . وإلا فإنها سوف تظل مجرد أمانى أو تصور جذاب .

ويلاحظ أن البرنامج قد وضع لمرحلة زمنية واحدة مدتها عشر سنوات . وهو بذلك مازال فى بدايته ، وهو مع ذلك ليس برنامجا أبدياً . وإنما يجب أن

يجيء بعد هذه الفترة لبرنامج عمل وطنى آخر يستهدف أهدافاً جديدة أبعدى مدى .

إن عدداً من القضايا الهامة التى طرحها البرنامج يستوجب مزيداً من العرض والتحليل . هذه القضايا — فى تقديرنا — وثيقة الصلة بقضيتنا الأساسية « الهزيمة ومابعدها » . ولم يكن من الممكن بحال أن نخرج من دائرة النكسة والهزيمة قبل أن نقطع شوطاً واضحاً فى اتجاه قضايا الحرية، والكرامة ، وتنحية مراكز القوى ، والديموقراطية وسيادة القانون ، والعلم والتكنولوجيا ، والقرية الحديثة .

الحرية والديموقراطية:

لقد صادف برنامج العمل الوطنى قيادة جادة ، تحاول أن تحققه . وقد منح هذا البرنامج وزنه وثقله الحقيقى من خلال التنفيذ الصادق لما استهدفه .

وبدأت مصر تستشعر معانى الحرية والديموقراطية ، ليس بالقول وإنما بالعمل وقامت حركة التصحيح تقيم كل ماتهدم من البناء الاجتماعى والإنسانى فى مصر ، وترمم المتصدع من المثل والقيم ، وترد للمواطن كرامته وحريته ، على نحو ما سنتناوله فى شيء من التفصيل فى الصفحات القادمة .

وبصدد قضية الديموقراطية ، جرت إنتخابات مجلس الشعب نظيفة سليمة . ولعلها أول إنتخابات فى مصر منذ بدأت فيها الحياة النيابية لا تتدخل فيها السلطة الحاكمة . إن كل ماحرصت عليه الحكومة فى إدارتها لعملية الانتخابات هو أن تحقق تكافؤ الفرص لكل المرشحين ، وأن تسير عملية الدعاية الانتخابية فى إطار القيم الحضارية التى يرتضيها المجتمع . ووصل النواب إلى مقاعد النيابة عن جدارة وشرف . وانعكس هذا على مدى حيوية وفاعلية مجلس الشعب ،

ومدى ثقة الأعضاء فى أنفسهم وشعورهم بالاستقلال عن سلطان الحكومة . وكانت حصيلة هذا كله مجلسا أكثر صراحة فى أفكاره ، وفى مناقشاته ، وفى حسابه للحكومة وتقييمه لأعمالها ، وحرصه على الصالح العام .

وبدا يتاكد فى مصر ان ممارسة الحريات والديموقراطية هى الضمان القوى ضد ظهور مراكز القوى ، وضد الولاء للفرد او المجموعة من الأفراد . وانهما الطريق الى بناء المواطن المخلص ، المسئول ، الايجابى ، المنتمى لمصر . لقد فتحت الحريات الطريق الى الصراحة والقول الحق . وفتحت الديموقراطية الطريق الى الشورى وجماعية القيادة على أساس العلم والخبرات والحوار الحر. وبدا الناس يستنشقون عبير مناخ صحى . لا يسعرون معه انهم اغرابا ولا امعات ولا سلبيين ولا اذلاء . وعاد الاحساس بكرامة المواطن وبالوطنية وبالرغبة فى تضحية النفس من اجل مصر . . وعاد أسم مصر .

ودعى برنامج العمل الوطنى إلى قيام تنظيم طليعى داخل الاتحاد الاشتراكى ولكن على أساس من العلانية ، وليس على أساس السرية . لأن سرية الاختيار توصل فى النهاية إلى ولاء المختار لمن اختاره . ولسنا بذلك نقول أن كل الموانع قد وضعت للحيلولة دون قيام مراكز قوى جديدة . ففى كل نظام تقوم حتما أنواع من مراكز القوى يختلف تأثيرها على مسيرة النظام ، إما أن تدفعه ، وإما أن تنحرف به ، ومن الصعب عادة إدراك الفرق بين الإندفاع والانحراف فى الوقت المناسب .

ولكن المهم هو توفر أكبر عدد من الضمانات التى تحد من قيام مراكز القوى أساساً ، أو تمنع إنحرافها إذا ماكان قيامها أمراً لصيقاً بالتنظيمات السياسية والاجتماعية .

لقد أعيد تنظيم الاتحاد الاشتراكى على أسس جديده خلال هذه الفترة. وإن كانت عملية تدعيمه وفاعليته مازالت تأخذ طريقها. وهناك منظمات أخرى مارست

نشاطها مثل التنظيم النسائى والتنظيم الشبابى ، أو تنظيمات أعيد النظر فيها لتحقق أهدافها بفاعلية أكبر مثل الاتحادات الطلابية ، أو تنظيمات استمرت فى دفعتها مثل النقابات المهنية والعمالية .

بناء القرية المصرية :

من الصعب أن نتكلم عن بناء الدولة المصرية ، متى كانت اللبنة الأولى فى هذه الدولة عند أدنى درجات التخلف . إن الفلاح هو منتج الغذاء للملايين والخامات للعاملين فى الصناعة ، والقرية هى المورد للعامل والصانع والجندى والمثقف وكافة أبناء الوطن . وليس من شك فى أن أسلوب الحياة بالقرية المصرية وسلوك أهلها لم يلحقه تغيير ذو شأن فى طريقة مواجهة الأمور ، والزراعة ، والإنتاج ، والسكن والغذاء وتحصيل العلم والثقافة .

لقد بقيت القرية المصرية لقرون من الزمن محرومة من الماء والكهرباء والخدمات والعاملين بالخدمة العامة . ونذكر على سبيل المثال أن بيانات الجهاز المركزى للتعبئة والإحصاء تفيد أن بالقاهرة وحدها ٤٨٫٥ ٪ من حملة المؤهلات العليا العاملين فى الحكومة والقطاع العام . فى حين أن عدد سكان القاهرة يمثلون ١٤٫٥ ٪ تقريبا من مجموع سكان الجمهورية . وإذا أضفنا محافظة الجيزة إلى القاهرة باعتبار القاهرة الكبرى ، فإن عدد حملة المؤهلات سيقفز إلى ٥٧٫٥ ٪ يقابلهم ٢٠ ٪ فقط من سكان الجمهورية . بينما نجد أن باقى سكان الجمهورية ــ باستثناء منطقة القناة ــ يشكلون ٧٠ ٪ من السكان تقريبا ، ولا يقابلهم سوى ٣٠ ٪ من العاملين بالحكومة والقطاع العام. وهذا المثل يعنى أن ريف مصر الذى أصيب بغبن شديد فى كل جوانب الحياة ، بحاجة إلى « إعادة توزيع » للعمالة تعطى للقرية حقها الذى سلبته المدنية .

وبناء على هذا التصور فإن برنامج العمل الوطنى قد طرح مهام المرحلة القادمة

على أساس إعادة بناء قرى الجمهورية وفقا لتخطيط علمى متكامل ، يوفر المسكن الصحى المزود بالمياه والكهرباء ، ووحدات تصنيع المنتجات الزراعية آلية وفرص النشاط الثقافى والاجتماعى . ووضع لتنفيذ هذه الخطة إطاراً زمنياً لمدة ٢٠ سنة ، بواقع خمسة ملايين جنيها كل عام . والواقع أن هذا الهدف فى تقديرنا من أهم أهداف مرحلة البناء .

محو الأمية :

أعطى برنامج العمل الوطنى أهمية كبرى لمحو الأمية ، باعتبارها إحدى المهام الأساسية التى يجب انجازها كشرط أساسى لبناء الدوله المصرية . ولم يكتف البرنامج بإبراز هذه المشكلة بل قدم نقدا ذاتياً اعترف فيه بأنه بالرغم من الجهود الكبيرة والأموال الطائلة التى أنفقت على التعليم ، فإن عدد الأميين قد زاد فى مصر .

وطبقا للإحصاءات المتوفرة ، يلاحظ أن عدد الأميين (من الذكور والإناث) البالغين من العمر عشر سنوات فأكثر ، قد زاد من ١٢٫٤٨١٫٧٧٢ فى عام ١٩٦٠ إلى ١٣٫٣٢٤٫٨٧٩ فى عام ١٩٦٦ ، أى بنسبة قدرها ٦٫٨ ٪ [1] .

واهتمام البرنامج بمحو الأمية يضفى عليه طابعاً واقعياً وعلمياً . فهو لم يتناول فقط الأفكار الأساسية والمسائل العقائدية ، وإنما نزل إلى واقع الحياة اليومية مما يمس بناء الدولة الاجتماعى . ومشكلة الأمية فى مصر من أهم المشكلات التى تواجهها ، إن لم تكن أخطرها . ولا يرجع هذا فقط إلى ما يجب أن تكون عليه الصورة الحضارية للمجتمع ، والتى تقاس عادة بنسبة الأمية ، بل أيضاً إلى الآثار البعيدة التى يمكن أن تترتب على الأمية فى مجالات الصحة والخدمة العامه ،

---

(١) الجهاز المركزى للتعبئة والإحصاء : تعداد السكان بالعينة فى محافظات مصر عام ١٩٦٦ .

والقوات المسلحة ، والإنتاج ، ومدى تقدير المواطن لمسئولياته الاجتماعية والسياسية والمدنية ، وممارسته لحقوقه ، وتعاونه مع الدولة.

السلبيات :

شملت السلبيات التي حددها برنامج العمل الوطني ، عدم النجاح في تحقيق أهداف الخطة الخمسية الأولى ، كجزء من خطة عشرية لمضاعفة الدخل القومي . وعجز الحكومة عن الوفاء بالاحتياجات المتزايدة للجماهير ، وضيق قاعدة الخدمات العامة وقصورها عن اشباع حاجات الشعب ، وظهور مراكز القوى ومحاولتها السيطرة على الحكم والشعب .

وهذه السلبيات من العوامل الهامة التي أدت إلى سوء الأحوال في مصر في أعقاب النكسة . فالظروف التي مر بها الشعب نتيجة حرب ١٩٦٧ لم تكن تسمح بالمزيد من المعاناه ، وخاصة إذا كان مبعثها فشل أجهزة الدولة في مواجهة مسئولياتها ، أو تحقيق الأهداف المحددة لها ، أو الاهتمام بحل مشكلات الجماهير وكان إبراز البرنامج لهذه الجوانب السلبية تأكيدا بأنها سوف تأخذ حقها من الاهتمام في المرحلة المقبلة .

وهي بذلك تمثل أعظم التحديات التي يتعين على الحكومة التصدي لها والتغلب عليها ، جنبا إلى جنب مع ما جاء به البرنامج من مهام وإنجازات جديدة تتصل بكافة جوانب الحياة العامة على طريق بناء مجتمع جديد نأمل فيه .

الدستور الدائم لجمهورية مصر العربية

جاء الدستور الدائم لجمهورية مصر العربية فى ١١سبتمبر ١٩٧١ ، ثمرة تجارب عديدة مرت بها ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ خلال تسعة عشر عاماً . فقد كان هناك الميثاق ، ودستور ٢٥ مارس ١٩٦٣ ، وبيان ٣٠ مارس ، وبرنامج العمل الوطنى .

وقد أخذ الدستور معظم المبادىء الأساسية التى جاء بها بيان ٣٠ مارس . وبرنامج العمل الوطنى . وذلك على النحو التالى :

١ — التزام المجتمع برعاية الاخلاق وحمايتها والتمكين للتقاليد المصرية الأصيلة ، ومراعاة المستوى الرفيع للتربية الدينية والقيم الخلقية والوطنية والتراث التاريخى للشعب والحقائق العلمية والسلوك الاشتراكى والآداب العامة ، (م ١٢)

٢ — ركز الدستور على الحريات والحقوقه والواجبات العامة . ونص على أن الحرية الشخصية حق طبيعى (م ٤١) ، وعلى حرية العقيدة (م ٤٦) ، وحرية الرأى (م ٤٧) ، وحرية الصحافة والطباعة (م ٤٨) ، وحرية البحث العلمى (م ٤٩) . . الخ .

٣ — نص الدستور على أن سيادة القانون أساس الحكم فى الدولة (م ٦٤) ، وعلى خضوع الدولة للقانون ، واستقلال القضاء (م ٦٥) .

٤ — كرم الدستور العمل بالنص على أنه حق وواجب وشرف تكفله الدولة ، ويكون العاملون الممتازون محل تقدير الدولة والمجتمع ، ولا يجوز فرض أى عمل جبرا على المواطنين إلا بمقتضى قانون ولأداء خدمة عامة بمقابل عادل .(م ١٣)

٥ — نص الدستور على إنشاء مجالس قومية متخصصة على المستوى القومى

— لم تذكر على سبيل الحصر — تعاون فى رسم السياسة العامة للدولة فى جميـع مجالات النشاط القومى ، وتـكون تابعة لرئيس الجمهورية ، (م ١٦٣) .

٦ — نص الدستور على أن الوظائف العامة حق للمواطنين وتـكليف للقائمين بها لخدمة الشعب . وتـكفل الدولة حمايتهم وقيامهم بأداء واجباتهم فى رعاية مصالح الشعب، ولا يجوز فصلهم بغير الطريق التأديبى إلا فى الحالات التى يحددها القانون ، (م ١٤) .

٧ — عنى الدستور الدائم بتوسيع نطاق التزام الدولة عما كانت فى الدستور المؤقت (١٩٦٤) ، اذ الزم الدستور الإدارة بما يلى .

(ا) ضمان تـكافؤ الفرص لجميع المواطنين، (م ٨).

(ب) دعم الأسرة وحماية الأمومة والطفولة ورعاية النشىء والشباب وتوفير الظروف المناسبه لتنمية ملـكاتهم (م ٩ ر ١٠ ، ١٠ ، ١١)

(ج) تـكفل الدولة الخدمات الثقافية والاجتماعية والصحية ، وتعمل بوجه خاص على توفيرها للقرية (م ١٦) .

(د) تـكفل الدولة خدمات التأمين الاجتماعى والصحى ومعاشات العجز عن العمل والبطالة والشيخوخة للموطنين جميعاً (م ١٧) .

(ﻫ) التعليم حق تـكفله الدولة ، (م ١٨) . ومجانية التعليم فى مراحلة المختلفة ، (م ٢٠) . ومحو الأمية (م ٢١).

(و) تنظيم الاقتصاد القومى وفقا لخطة تنمية شاملة تـكفل زيادة الدخل القومى ورفع مستوى المعيشة والقضاء على البطالة وزيادة فرص العمل ، وربط الأجر بالإنتاج وضمان حد أدنى للاجور ، ووضع حد أعلى يكفل تقريب الفوارق بين الدخول ، (م ٢٣) .

(ز) ترعى الدولة المنشآت التعاونية بكل صورها وتشجع الصناعات الحرفية ، وتعمل على دعم الجمعيات التعاونية الزراعية وفق الأسس العلمية الحديثة ، (م ٢٨) .

(ح) تكفل الدولة للمواطنين حرية البحث العلمى والإبداع الأدبى والفنى والثقافى ، وتوفر وسائل التشجيع اللازمة لتحقيق ذلك ، (م ٤٩) .

ويلاحظ أن الدستور الدائم قد عنى من خلال هذه النصوص على توسيع دائرة التزامات الدولة دون أن يقابل هذا التوسع توسعا فى واجبات الأفراد التى تقابل هذه الالتزامات . فقد أوضح واجبات الأفراد فى أربعة هى :

أداء التكاليف العامة ، الدفاع عن الوطن ، المساهمة فى الحياة العامة ، حماية الأموال العامة وملكية الشعب .

وفى هذا تضييق لنطاق الواجبات العامة فى إطار التحول الاشتراكى الذي يستوجب تلازما بين التزامات الدولة والتزامات المواطنين نحو المجتمع . ذلك أن قيام الدولة بالتزاماتها يتطلب تضافر الجهود الفردية والحكومية على السواء . فإذا كان الصالح يقتضى تخويل المواطنين مزيداً من الحقوق فإنه من ناحية أخرى يستلزم قيام التزامات مقابلة على عاتق هؤلاء المواطنين ، وهذا الأمر الذي يشعرهم بضرورة قيام التلازم بين حقوقهم وواجباتهم العامة . (١)

لذلك اهتمت أغلب الدول ، والدول الاشتراكية بصفة خاصة ، بتضمين دساتيرها نصوصاً صريحة تفرض على سائر المواطنين بعض الواجبات العامة الأساسية ، ونذكر منها على سبيل المثال دستور اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية الصادر فى ٤ ديسمبر ١٩٣٦ ، فقد أوضح الالتزامات الواقعة على عاتق الدولة ثم بين بعدها مباشرة الالتزامات التى ينبغى على الموطنين مراعاتها .

ومن الأمور الجلية أن ظروف التطور السياسى والاجتماعى والاقتصادى فى

(١) بكر القبانى : الإدارة العامة ، الجزء الأول ، ١٩٧٠ ، ص ١٦٠ .

مصر خلال العهد القديم لها أثرها الواضح فى تحديد شكل العلاقة بين الحكومة والشعب وتبدو القضية هنا فى صورتين ، قد تظهران للوهله الأولى متعارضتين ، فكلما اتسع دور الدولة ومسئولياتها فى المجالين الاقتصادى والاجتماعى، كلما زادت الحاجة إلى اشتراك الأفراد فى العمل الحكومى . إلا أن الظروف الاقتصادية والاجتماعية التى يراد تغييرها بواسطة النشاط الحكومى ، تقوم فى ذاتها كعقبات رئيسية فى طريق إحداث التقارب بين الحكومة والأفراد . وهذا هو وجه التعارض .

وإذا كان الإجماع قد انعقد على ضرورة العمل المشترك ومساهمة المواطنين فى العمل الحكومى لإمكان تحقيق التنمية والتطوير ، الا أن خلافا جوهريا يقوم حول مدى هذه المشاركة من دولة لأخرى . وفى مصر حيث ترتفع نسبة الأمية ، وتغلب على المواطن نزعة الفردية والسلبية ، ويبدو أقل تجاوبا فى الظروف التى تتطلب تعاونا مع الحكومة عن غيره الذى يستيقظ لديه الوعى الاجتماعى وروح التضامن والإحساس بالمسئولية القومية والمدنية ... يصبح تعاون المواطنين أمراً ضروريا وهاما خلال مرحلة التنمية والبناء . فإذا ما تركت مهام التنمية والتطوير الاجتماعى والاقتصادى للدولة وحدها ، فإنه يتعذر القيام بها وإتمامها على نحو فعال .[1]

لذلك فإن العلاقة بين الشعب والحكومة ، ودور الشعب بصفة خاصة فى نشاط الدولة ، كان ينبغى أن يكون أكثر اتساعا وتحديداً فى ظل الدستور الدائم ، بحيث يتسع نطاق الواجبات العامة بما يتسق والمزيد من الحقوق التى كفلها الدستور للمواطنين .

---

(١) عبد الكريم درويش وليلى تكلا : أصول الإدارة العامة ، « القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثانيه ، ١٩٧٢ » ، ص ٥٤٥ — ٥٤٧

صدور القوانين المكملة للدستور وضمانات الحريات

بعد صدور الدستور الدائم بدأ البنيان التشريعي للمجتمع يكتمل . وهذا هو دائماً المقياس الحقيقي لوضع القانون في أي مجتمع .

ذلك أن الدستور يعنى عادة بتحديد نظام الحكم ، وبيان المبادىء الأساسية التي تنظم العلاقات في الدولة . غير أن نصوص الدستور لا تحيط عادة إلا بالمبادىء والأحكام العامة ، وفيما عدا ما يتعلق بتنظيم سلطة الدولة ، فإن معظم النصوص الدستورية تحيل إلى القانون إما لتحديد نطاق تطبيق النص الدستورى . وأما لتبيان كيفية تطبيق النص الدستورى . بل أن الإحالة إلى القانون قد تكون مستفادة ضمنا ، مثل المادة ٥٧ على أن كل اعتداء على الحرية الشخصية أو حرمة الحياة الخاصة للمواطنين جريمة لا تسقط الدعوى الجنائية ولا المدنية الناشئه عنها بالتقادم ومثل نص المادة ٧٣ التي تقرر إمتناع الموظفين عن تنفيذ الأحكام أو تعطيلها جريمة يعاقب عليها القانون ، ففي مثل هذه الحالات يتعين صدور قانون يحدد نوع الجريمة وقدر العقوبة المقررة عنها .

وفى ضوء ما تقدم ، فإنه يصعب تكوين فكرة صحيحة عن طبيعة نظام الحكم ومدى ديموقراطيته أو تقدميته بمجرد الإطلاع على نصوص الدستور ، بل إن ملامح النظام لا تكتمل إلا بدراسة القوانين المكملة للدستور ، وغيرها من القوانين .

وكان من أبرز سمات ممارسة الديمقراطية أن أخذ مجلس الشعب المبادأة التشريعية فى اقتراح مشروعات القوانين، واستطاع فعلا أن يصدر خلال دورة الإنعقاد الأول سبعة قوانين مكملة للدستور ومما يسترعى الإنتباه أنها جميعاً تتعلق بتدعيم فلسفة الحريات وسيادة القانون [١] .

---

(١) جمال العطيفى : القوانين الأساسية المكملة للدستور ، (تقرير اللجنة التشريعية بمجلس الشعب) .

وأبرز هذه القوانين ما يأتى :

١ — القانون رقم ١٠ لسنة ١٩٧٢ ، بشأن الفصل بغير الطريق التأديبى[1] وهو القانون الذى جاء لتحقيق أحد الأهداف الهامة لعملية التصحيح التى بدأت فى ١٥ مايو ١٩٧١ ، وهو هدف سيادة القانون وكفالة الضمانات للمواطنين .

ولما كان الدستور الجديد قد أرسى فى مادته ١٤ مفهوم الوظيفة العامة باعتبار أنها حق للمواطنين وتكليف للقائمين بها لخدمة الشعب ، وتكفل الدولة حمايتهم وقيامهم بأداء وجباتهم فى رعاية مصالح الشعب ، ولا يجوز فصلهم بغير الطريق التأديبي إلا فى الأحوال التى يحددها القانون .

فإن القانون ١٠ لسنة ١٩٧٢ يقضى على الفوضى التى كانت قد تفشت، وعدم الاستقرار الذى أدى إلى النفاق والإضرار بالصالح العام من أجل إرضاء الرؤساء خوفا من الفصل الذى كان من الممكن أن يتم حسب أهواء مراكز القوى وبغير الطريق التأديبى .

لقد أصبح الأصل فى فصل الموظف أن يتم بالطريق التأديبي وبما يكفله من ضمانات . . . وأنه لا يجوز الفصل بغير الطريق التأديبي إلا فى الأحوال التى يحددها القانون . وحتى فى هذه الأحوال فإن قرار الفصل — شأنه شأن أى قرار آخر — يخضع لرقابة القضاء . كما أحاطه بضمانات أخرى فأوجب أن يصدر به قرار من رئيس الجمهورية بناء على اقتراح الوزير المختص . وأن يكون قرار الفصل مسبباً ، وأن يبلغ إلى العامل المفصول، كما أوجب عدم جواز حرمان العامل المفصول بهذا الطريق من حقه فى المعاش أو المكافأة .

---

(١) الجريدة الرسمية، فى ٨ يونيو سنة ١٩٧٢، العدد ٢٣ .

ومما لا شك فيه أن هذا القانون قد أقام فى مجموعه توازنا عادلا بين واجبات الوظيفة العامة ، وبين الضمانات المقررة لشاغلها . وأصبح بداية لها دلالتها فى اتجاه الاهتمام بقطاع العاملين بالدولة الذين هم فى حقيقة الأمر دعائم التنمية ومنفذيها .

٢ — القانون رقم ١١ لسنة ١٩٧٢ ، بشأن إلغاء موانع التقاضى فى بعض القوانين [(١)] .

نص الدستور فى المادة ٦٨ منه على أن التقاضى حق مضمون ومكفول للناس كافة ولكل مواطن حق الإلتجاء إلى قاضيه الطبيعى ، وتكفل الدولة تقريب جهات القضاء من المتقاضين وسرعة الفصل فى القضايا .

وأنه يحظر النص فى القوانين على تحصين أى عمل أو قرار إدارى من رقابة القضاء .

ولهذا النص أهمية قصوى فى تحقيق العدالة وسيادة القانون . فالقضاء كما فى بيان ٣٠ مارس ، هو الميزان الذى يحقق العدل ويعطى لكل ذى حق حقه ، ويرد أى اعتداء على الحقوق والحريات . ومن هنا لزم كفالة حق التقاضى ، وعدم النص فى أى إجراء للسلطة على عدم جواز الطعن فيه أمام القضاء .

وقد تبين أن هناك عدداً من النصوص المانعة للتقاضى تتضمنها عدة قوانين متفرقة . منها نصوص وردت فى قوانين الإصلاح الزراعى ،ومنها نصوص وردت فى بعض التشريعات الزراعية الأخرى ، وبعضها ورد فى قوانين الضرائب ، وقوانين الرسوم القضائية ، وقوانين تنظيم الجامعات ، ونصوص وردت فى قوانين متعلقة ببعض العاملين . . . وغيرها .

(١) الجريدة الرسمية ٨ يونيه سنة ٢٩٧٢ — العدد ٢٣ .

وكانت هذه النصوص أبرز وأهم النصوص التى جاءت بموانع للتقاضى .وجاء الغاؤها قانونياً ودستورياً . إذ تنص المادة ١٩١ من الدستور من أن كل ما قررته القوانين . . من أحكام قبل صدور هذا الدستور يعتبر صحيحاً ونافذا . وأنه مع ذلك يجوز إلغاؤها أو تعديلها وفقاً للقواعد والإجراءات المقررة فى هذا الدستور .

٣ — القانون رقم ٢٣ لسنة ١٩٧٢ ، بتعديل بعض أحكام القانون رقم ٧٣ لسنة ١٩٥٦ ، بتنظيم مباشرة الحقوق السياسية .

نصت المادة ٦٢ من الدستور الواردة فى الباب الثالث بشأن الحريات والحقوق والواجبات العامة ، على أن للمواطن حق الانتخاب والترشيح وإبداء الرأى فى الاستفتاء وفقا لأحكام القانون. كما تنص المادة ٨٨ الوارده فى الفصل الثانى الخاص بمجلس الشعب على أن يحدد القانون الشروط الواجب توافرها فى أعضاء مجلس الشعب،ويبين أحكام الانتخاب والاستفتاء،على أن يتم الاقتراع تحت إشراف أعضاء من هيئة قضائية .فالدستور إذن يحيل على القانون لتنظيم مباشرة الحقوق السياسية من انتخاب واستفتاء .كما يحيل إلى القانون فى تحديد شروط عضوية مجلس الشعب وما يتعلق بالترشيح .

وقد لزم إجراء بعض التعديلات على القواعد التى تنظم مباشرة الحقوق السياسية حتى تتمشى مع أحكام الدستور الجديد .

٤ — القانون رقم ٣٤ لسنة ١٩٧٢ بشأن حماية الوحدة الوطنية .

وتعتبر المادة الأولى من هذا القانون تعبيراً صادقاً عن أهدافه وعن أهداف النهضة التشريعية والاجتماعية التى رأتها مصر خلال هذه الفترة. إذ تنص فى شقها الأول على أن حماية الوحدة الوطنية واجب كل مواطن ، وعلى جميع مؤسسات الدولة والمنظمات الجماهيرية العمل على دعمها وحمايتها .

ويقصد بالوحدة الوطنية فى تطبيق أحكام هذا القانون ، الوحدة القائمه على احترام نظام الدولة والمقومات الأساسية للمجتمع كما حددها الدستور وعلى وجة الخصوص :

(ا) تحالف قوى الشعب العاملة .

(ب) تكافؤ الفرص والمساواة بين المواطنين فى الحقوق والواجبات العامة .

(ج) حرية العقيدة وحرية الرأى بما لا يمس حريات الآخرين أو المقومات الأساسية للمجتمع .

(د) سيادة القانون .

وقد كان طبيعياً فى تلك المرحلة من النضال أن يصبح موضوع الوحدة الوطنية بين الموضوعات التى تطرح نفسها بإلحاح ، إلى حد أنه كان موضوع بحث المؤتمر القومى الذى عقد فى ٢٤ يوليه سنة ١٩٧٢ . وقد أبرزت قرارات هذا المؤتمر أن الوحدة الوطنية ضرورة وجود وحياة ، وأن التفريط فيها أو التهاون فى تدعيمها هو مغامرة بمصير العمل الوطنى كله ، كما قرر المؤتمر أن يضع كل ما ورد فى أعمال تلك الدورة حول أهمية الوحدة الوطنية وأبعادها المختلفة تحت نظر مجلس الشعب .

٥ — القانون رقم ٣٥ لسنة ١٩٧٢ بشأن حماية الأموال العامة :

ويعتبر هذا القانون من أهم القوانين التى جاءت بتوازن بين الحقوق والواجبات فالعامل إذا كان قد حصن ضد الفصل ،ووضعت بعض الضمانات على توقيع العقوبة عليه ، فإنه أصبح من الضروى أيضاً أن يحاسب على أعماله أو على تهاونه فى حماية المال العام عمداً أو عن غير قصد .

وقد استحدث القانون عقوبة توقع على مجرد الإهمال فى صيانة المال العام ،

أو استعماله استعمالا يبطل الانتفاع به. أو يؤدى إلى تعريض سلامة الفرد أو الآخرين للخطر ، حتى إذا لم يترتب على ذلك وقوع الضرر فعلا .

٦ — قانون رقم ٣٧ لسنة ١٩٧٢ بتعديل بعض النصوص المتعلقة بضمان حريات المواطنين فى القوانين القائمة :

ويعد هذا القانون من أهم القوانين التى صدرت فى فترة بناء المجتمع تمشياً مع مبادىء الدستور .

فقد كان من بين المعالم الأساسية لدستور ١١ سبتمبر ١٩٧١ ، أنه عنى عناية بالغة بتدعيم الحرية وسيادة القانون، عن إدراك الحقيقة أن إنسانية الإنسان وعزته هى الشعاع الذى هدى ووجه خط سير التطور الهائل الذى قطعته البشرية نحو مثلها الأعلى ، وأن كرامة الفرد انعكاس طبيعى لكرامة الوطن ، ذلك أن الفرد هو حجر الأساس فى بناء الوطن ، وأنه بقيمة الفرد وبعمله وبكرامته تكون مكانة الوطن وقوته وهيبته ، كما أن سيادة القانون ليست ضماناً مطلوباً لحرية الفرد فحسب لكنها الأساس الوحيد لمشروعية السلطة فى نفس الوقت .

وانطلاقا من هذا الهدف تضمن الدستور نصوصا ترسى مبادىء الحرية الشخصية وتضع لها ضماناتها . نخص منها ما جاء بالمواد ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٧ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ من الدستور .

٧ — قانون رقم ٣٨ لسنة ١٩٧٢ فى شأن فى مجلس الشعب :

تتصل درجة صدق ونجاح الديمقراطية النيابية اتصالا وثيقا بالأسلوب الذى تنظم به المجالس النيابية على اختلاف أشكالها .

ومن هنا فإن القوانين التى تنظم المجالس الشعبية تعد من أهم المقاييس التى تبين درجة الممارسة الديمقراطية ومداها كما أنها لابد أن ترتبط بالإطار الدستورى الذى تعيش فيه الدولة، وأن تتعدل بتعديل هذا الإطار .

لذلك فإن مجلس الشعب رأى أنه قد أصبح لزاما عليه أن يكون تنظيم مجلسه متفقا مع الأسس والقيم التى جاء بها دستور سنة ١٩٧١ الذى نص فى المادة ٨٨:

« يحدد القانون الشروط الواجب توافرها فى أعضاء مجلس الشعب ... ويبين أحكام الانتخاب والاستفتاء ، على أن يتم الاقتراع تحت إشراف أعضاء من هيئة قضائية ».

وصدر قانون بتنظيم مجلس الشعب يبين تكوين المجلس والترشيح له ، وعضويته لتتفق كل هذه المسائل مع الاتجاهات المعاصره .

ومن استعراض هذه النصوص المختلفة يبين أن الدستور قد أقام سداً منيعاً فى وجه أية محاولة لانتهاك الشرعية والحرية . غير أن الدستور لا يمكن أن يتحمل وحده هذا العبء . فالدستور هو الإطار الشرعى الذى يقدم لنا مؤشرات على طريق التقدم ، ويتعين بعد ذلك فى ضوء هذه المؤشرات القيام بتطوير القوانين التى تعبر عن إرادة التغيير . فالدستور فى معظم نصوصه يحيل على القانون ليضع المبدأ موضع التطبيق ، كما أن بعض النصوص القائمة لم يعد متفقاً مع المبادىء والضمانات التى أرساها هذا الدستور .

ونظراً لأن النصوص المتعلقة بالحريات قد وردت فى عدةقوانين قائمة فى قانون الإجراءات الجنائية وفى قانون الطوارىء وفى قوانين تدابير أمن الدولة . كما أن دعم حق المواطن فى حماية حريته وحرمة حياته الخاصة يقتضى تعديلا فى قانون العقوبات ، فقد رؤى أن يصدر قانون واحد يتضمن الأحكام الجديدة ، ومعدلا فى ذلك بعض أحكام القوانين القائمة التى أصبحت متعارضة مع أحكام الدستور أو منشئاً أحكاماً جديدة حتى يكون لهذا القانون سمته باعتباره أحدملامح التصحيح الذى بدأ فى ١٥ مايو وقد سبق المشرع الفرنسى أن اتبع نفس الأسلوب فى التشريع حينما أصدر فى ١٧ يوليو ١٩٧٠ . القانون رقم ٧٠ ـ ٦٤٣ بشأن تدعيم ضمانات الحرية الفردية للمواطنين .

إعادة القضاة المفصولين

العدل أساس الملك . ولقد كانت العدالة دائماً من أعظم القيم التى اتصفت بها الحضارة العربية .

ثم تعرضت العدالة فى مصر لمحنة ، حينما تعرض قضاتها للفصل لأنهم كانت لهم آراء مخالفة . وكانت عملية فصل القضاة بالجملة نقطة سوداء فى تاريخ الحكم فى مصر خلال الفترة الماضية .لأن مثل هذا الإجراء لا تقتصر آثاره على هيئة القضاء، وإنما تمتد بالتأكيد إلى جوهر العدالة فى المجتمع ، واختلال موازين العدالة يترتب عليه اختلال كل موازين الحياة الاجتماعية ومعاييرها.

إن فصل القضاة كان عملا رهيباً وإرهاباً ، أيا كانت بواعثه ومبرراته . وهو أمر يتنافى مع طبيعة المجتمع الحر المتحضر .

فالقضاء فى كل مجتمع له قدسيته واستقلاله ، ولا سلطان لأحد على القضاة فى قضائهم لغير القانون وضمائرهم . ولا يجوز لأية سلطة أو هيئة التدخل فى القضايا أو شئون العدالة . وإذا كان القضاة مصيرهم الفصل بغير الطريق القانونى ، فماذا يكون مصير باقى الناس ؟ .

إن القاضى يستمد إحساسه بالعدل من شعوره بالاستقلال واحساسه بالإستقرار والأمن،وعدم خضوعه لهوى أو مشيئة أو تسلط،وعدم قابليته للعزل .ومتى ذهب عنه هذا الإحساس ، فإن أمر العدالة فى المجتمع يصبح مهددا ورهنا بالأقدار .

وقد أكد الدستور الدائم كل هذه المعانى من خلال الأحكام المتعلقة بسيادة القانون ، والسلطة القضائية ، واستقلال القضاء كما جاء بالمواد ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٨ من الدستور . كما صدر القانون الخاص بمنع الفصل بغير الطريق التأديبى .

وكان طبيعياً بعد ذلك ، وإعمالا لفلسفة الحكم التى انتهجها الرئيس السادات ، أن يعاد النظر فى عدد من الإجراءات التى شكلت نكسة للحرية

تكريم القضاة



فى أعقاب حركة التصحيح أعاد الرئيس السادات القضاة المفصولين بغير الطريق القانونى إلى وظائفهم .

تحرير المواطن من الخوف . . كان بداية تحرير الوطن



الرئيس أنور السادات والدكتور عبد القادر حاتم والسيد ممدوح سالم
يشهدون حرق أشرطة تسجيل أسرار المواطنين

والحياة الديموقراطية فى مصر . وصدر قرار جمهورى بإعاده القضاة المفصولين إلى وظائفهم . وكان قراراً عظيما وتاريخياً .

وقد اجتمع الرئيس السادات برجال القضاء أكثر من مرة . وعبر لهم عن هذه المعانى فى قوله :

« القضاء حرم مقدس له جلاله وقدسيته . وهو ملك للشعب كله ، وهو قوى بطبعه لا ينحاز إلى جهة ، وإن ما يسيطر على ضمير القاضى دائماً هو إحساسه بشعبه وبوطنه . ولاسيطرة لأى قوة على ضمير القاضى أبداً »(١) .

دولة المؤسسات

يضمحل دور المؤسسات فى الدولة بصفة خاصة فى مواجهة القيادة « الكاريزماتيه » ، التى ترتبط أساساً بشخصية القائد . وتتصل بخصائصه وجاذبيته وقدراته غير العادية .

، وتقوم القيادة الكاريزماتية على الأدوار والبطولات التى يؤديها القائد السياسى من آن لآخر ، والتى تجعله يبدو فى نظر الجماهير بطلا ذا قوى هائلة . وتعمل على الحفاظ على ارتباط الجماهير به ، وانجذابهم إلى شخصه وانبهارهم بمنجزاته المتعاقبة . وفى هذا النوع من الحكم يعتمد كل شىء على شخص القائد ويدور فى فلكه . بما يؤدى فى النهاية إلى إحاطته بالهالة والرهبة ، وإلى التزام القائد بأداء عملا بطولياً — أشبه بالمعجزة — بين آن وآخر ليستمر تعلق الجماهير به .

---

(١) وزارة الإعلام ، هيئة الاستعلامات : خطب الرئيس محمد أنور السادات ،(خطاب الرئيس فى لقائه مع رجال القضاء ، ١٢ يناير ١٩٧١) ، ص ٢١١

وفى ظل هذا النوع من القيـادة ، تتركز كل الأمور وتستقر السلطة فى القائد ، يمارسها دون مشاركة أو رقيب ، لا راد لرأيه أو معقب لحكمه . كما تظهر مراكز القوى التى يمثل كل منها دائرة من دوائر السلطة المستمدة بدورها من صاحب السلطان ، وتسخر هذه المراكز السلطة لغايات وأطماع خاصة فى غير التزام بالقيم أو خضوع للقانون .

وكان يمـكن أن يـكون هذا النوع من القيادة والزعامة مقبولا تحت ضغط عدد من العوامل فى بعض المجتمعات خلال مرحلة معينة من مراحل تطورها — لو أمـكن وجود القائد « **المستبد الصالح** » . إلا أن العثور على هذا المستبد الصالح الذكى العادل ليس أسهل عملياً من الاتجاه بالدولة إلى ممارسة القيادة الديموقراطية وسيادة القانون وإعمال دور المؤسسات .

ومن هنا فإن الاعتماد على القيادة الـكاريزماتية فى مصر قد أدى إلى تخلف دور المؤسسات السياسية ، إن لم يـكن تلاشى هذا الدور تماماً فى بعض المراحل . وفى كثير من الأحيان أدى الاعتماد المتزايد على شخص الرئيس جمال عبد الناصر إلى الاعتقاد بأن الدولة والشعب يمـكن أن يصبحا فى حالة ضياع بفقده . وكان هذا الإحساس مبعث تساؤل يتردد ... من بعد عبد الناصر ؟ .. وهذا التساؤل فى ذاته ليس دليل ولاء ، بقدر ما يعبر عن عدم إدراك لفلسفة السياسة والحكم والإدارة التى تقرر : « أن الأشخاص دائماً يذهبون ولـكن المنظمات باقية » .

وهكذا بقيت الأوضاع فى مجتمعنا خلال الفترة الماضية مرتبطة بشخص الرئيس عبد الناصر ، وعدد من اللصيقين به . وارتبطت حياة مصر ومصائرها بمدى قدرة الصفوة الحاكمة على اتخاذ قرارات رشيدة وانتهاج سياسات حكيمة . وارتبط النجاح أو الفشل فى أعظم وأقسى صورها برأى الفرد أو قلة من الأفراد غير مسئولين فى النهاية . وبقيت المؤسسات فى مصر عاطلة فعلا ، تـكثر القول ويتعذر عليها العمل ، سواء كانت الاتحاد الاشتراكى ، أو مجلس الأمة ،

أو التنظيمات النقابية . وكان الوصول إلى عضوية هذه المنظمات وضمان الاستمرار فيها أعظم الضوابط على حرية الرأى والمعارضة ، وعلى المبادأة والايجابية .

ولذلك لم تتطور المنظمات خلال هذه الفترة ، ولم تنمو كمؤسسات لها شخصية معنوية مستقلة عن شخصية الحاكم . ولم تكن كذلك قادرة على العمل كتنظيم محكم الأداء منسق الحركة ، يتصف بالاستقرار والاستمرار ، هدفه دائماً المصالح العليا لمصر . لم تكن قادرة على ذلك لأنها كانت تستمد وجودها وبقاءها من الحكم . وهكذا تلاشى دور مثل هذه المنظمات فى تقرير السياسة ومراجعة الخطط ومحاسبة الحكومة. وبقيت مجرد رمز لواجهة ديموقراطية. ففقد الشعب ثقته فيها ، وفى قدرتها على العمل الجاد المنسق من أجل الوطن .

وتبدأ المشكلات عادة ـ أو تحل ـ عند انتهاء هذا النوع من القيادة « الكاريزمانية » . فإما أن يظهر قائد جديد يتمتع أيضاً بجاذبية قيادية متسلطة، فيملأ الفراغ وتستمر القيادة متعلقة به ومرتبطة بشخصه وإما ألا يظهر مثل هذا القائد ويظل الفراغ شاغراً نهباً للقلاقل والانقلابات ومحاولات الوصول للسلطة . وإما أن يحل محل هذا القائد حكم الجماعة ممثلة فى دولة المؤسسات .

وهذا الاتجاه الأخير ـ دولة المؤسسات ـ هو ما سعى الرئيس السادات إلى توطيده فى حكم مصر . عن إيمان بأن حكم الفرد للجماعة استبداد ، وأن حكم الجماعة للجماعة فيه تآزر وتعاون واستقرار . وقد عبر الرئيس السادات عن فلسفته فى الحكم يوم قال :

« إن الفراغ الذى تركه عبد الناصر لا يمكن أن يملأه شخص ، إنما لابد أن تملأه المؤسسات » .

ودولة المؤسسات ليست مجرد شعار يطرح ، ولكنها وفى أعظم معطياتها أسلوب عصرى وعلمى وديموقراطى فى السياسة والحكم والتنظيم والإدارة ، يضمن ترشيد كل هذه الأنشطة وتوجيهها وجهة موضوعية سليمة ، ويوفر لها

الاستمرار والاستقرار . وفى ظل دولة المؤسسات تنمو الشخصية المنوية للمنظمة وللوظيفة وتدوب شخصية الفرد وآرائه وتحيزاته فى وليد جديد هى الرأى والفكر الجماعى .

وقيام دولة المؤسسات يعنى بالضرورة توفر عدد من المقومات :

الأول : اتجاه سلوكى هام لدى الحاكم ، يجعله راضياً عن المشاركة قادراً عليها ، متقبلا للنصح والمشورة .

الثانى : وجود الهيئات والمؤسسات والمجالس التى يوفرها الدستور والقانون ، واستعدادها لممارسة اختصاصاتها ودورها كاملا .

الثالث : التحديد الواضح لأهداف هذه المنظمات واختصاصاتها .

وقد تمكنت مصر فى أعقاب حركة التصحيح ، من توفير هذه المقومات التى تهيىء لقيام دولة المؤسسات . وكانت انتخابات أعضاء الاتحاد الاشتراكى ، ومجلس الشعب علامة طريق هامة فى اتجاه تشكيل مؤسسات دستورية جادة وفعالة ومتحررة من الولاء للفرد أو لعدد من الأفراد .

لقد مارس مجلس الشعب مسئولياته التشريعية والرقابية خلال المرحلة الحالية بفاعلية وحرية كاملة ، دون توجيهات أو رغبات معينة . وتمكن المجلس فعلا من إصدار عدد من القوانين الهامة الأساسية وتعديل الكثير . وفى مجال الرقابة حدث لأول مرة أن رفض المجلس الموافقة على قرار جمهورى بقانون صدر أثناء غيبته ، خاص بموضوع الحجز الإدارى . ومن ناحية أخرى مارس المجلس حقه فى استجواب الوزراء ثلاث مرات . ولأول مرة تقدم المجلس باقتراح لتنظيم المعارضة فيه ، بهدف التأكد من إبداء وجهات النظر المختلفة قبل اتخاذ أى قرار . وبالفعل نصت لائحة المجلس على أن يكون لرأى المعارضة مقرر يشرح وجهة نظر الأقلية المعارضة عند طرح الموضوع قبل أخذ الرأى فيه . ونظم المجلس لجان للاستماع يبدى الأعضاء ورجال الحكومة وأفراد الشعب وفئاته المختلفة رأيهم أمامها فى الأمور

العامة والمشكلات الجماهيرية ، مثل إدارة الخدمات ، والتموين ، والنقل والمواصلات. كذلك باشر المجلس عن طريق لجان خاصة شكلت من بين أعضائه مهمة تقصى الحقائق فى المسائل العامة الهامة . وكان لتقارير لجان تقصى الحقائق دوراً هاماً فى تحليل المشكلات ، وإجلاء الحقائق ، واقتراح الحلول .

وبالنسبة للاتحاد الاشتراكى — بوصفه التنظيم السياسى بالدولة وأحد مؤسساتها الهامة — فقد قامت محاولات لإعادة تنظيمه على أسس علمية وديموقراطية . وقد تم فعلا إعادة بنائه من خلال انتخابات حرة ، لم يكن فيها أى تدخل من جانب السلطة . وهذا فى حد ذاته خطوة هامه . وإن كانت عملية إعادة البناء وحدها لا تكفى ما لم يتحرك البناء الجديد بكل الحيوية والإيمان نحو تحقيق أهدافه .

وفى ٣٠ سبتمبر ١٩٧١ صدرت مجموعة قوانين إعادة تنظيم الدولة . ومن بينها قانون الحكم المحلى (٥٧ لسنة ١٩٧١) وقانون العاملين المدنيين بالدولة (٥٨ لسنة ١٩٧١) والقرار الجمهورى الخاص بلائحة العاملين بالقطاع العام (٦١ لسنة ١٩٧١). وقد سمت هذه القوانين إلى إعادة النظر فى النظم والقواعد المعمول بها ، وتحقيق أكبر قدر من الموضوعية والكفاية لنظم العاملين . ونص قانون العاملين على أن تضع كل وحدة من وحدات الجهاز الإدارى بالدولة هيكلا تنظيمياً لها، وجدولا للوظائف يضمن وصف كل وظيفه وتحديد واجباتها ومسئولياتها ، والاشتراطات اللازم توافرها فى شاغلها ، وترتيبها فى أحد المستويات والفئات الوظيفية . وأورد القانون أحكاما تكفل قدراً أكبر من الموضوعية فى التعيين ، والنقل والإعارة والندب والبعثات ، وقدراً أكبر من اعتبارات الكفاية فى الترقية التى ربطها بالتدريب ، وجعل نسبة فيها بالاختيار . وهذه كلها اعتبارات هامة لتوفير جهاز حكومى صالح لتحقيق متطلبات التنمية فى الدولة الحديثة .

وأخيراً فإن صدور القرارات الجمهورية بتشكيل المجالس القومية المتخصصة

فى فبراير ١٩٧٤ — على نحو ما أوضحنا — إنما هو إجراء عملى لتدعيم وقيام دولة المؤسسات .

لقد سبق أن ورد ذكر هذه المجالس فى بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨ ، حينما تناول البيان المهام الرئيسية للمرحلة القادمة ، ومن بينها تدعيم الدولة الحديثة وما يتطلبه ذلك من إنشاء مجالس متخصصة على المستوى القومى .

وجاء الدستور فى سبتمبر ١٩٧١ ، ينص فى المادة ١٦ على إنشاء هذه المجالس لتعاون فى رسم السياسة العامة للدولة فى جميع مجالات النشاط القومى ، وتكون تابعة لرئيس الجمهورية ، ويحدد تشكيلها بقرار منه . وفى اكتوبر ١٩٧١ صدر قرار جمهورى بإنشاء المجالس التالية :

مجلس الأمن القومى ، المجلس القومى للانتاج ، المجلس القومى للخدمات ، مجلس التعليم والتكنولوجيا ، مجلس تنظيم الأسرة والدراسات السكانية .

على أن قرار الرئيس بتشكيل هذه المجالس قد نص على إنشاء المجلس القومى للانتاج والشئون الاقتصادية ، المجلس القومى للخدمات والتنمية الاجتماعية ، والمجلس القومى للتعليم والتكنولوجيا والبحث العلمى . وبصدور قرار التشكيل فانه بذلك قد أقام مؤسسات دستورية جديدة تابعة لرئيس الجمهورية وتعاونه وليست تابعة للحكومة أو مجلس الشعب . وهذه المجالس بهذا الوصف تختلف عن المجالس العليا الحكومية القائمة والتى أنشىء بعضها على مستوى الوزارات ، مثل المجلس الأعلى للتأمين والتكافل الاجتماعى ، والمجلس الأعلى للتعليم .

إن المجالس القومية المتخصصة قد جاءت باعتبارها هيئات فنية استشارية على مستوى رياسة الجمهورية — لتقوم بدور البحث والدراسة وإبداء الرأى والاقتراح فى كل ما يتصل بالسياسة العامة للدولة فى مجالات النشاط القومى المذكورة . وهى بذلك إضافة هامة فى عملية بناء دولة المؤسسات ، فإذا ما مارست نشاطها فإنها سوف تصبح العقول المفكرة للدولة فى مجالات تخصصاتها .

الوضوح الفكرى

تطلبت مرحلة ما بعد العدوان ضرورة توفر الوضوح الفكرى الكامل لطبيعتها ، وما تفرضه من مهام وواجبات وما يسودها — بحكم ظروفها — من عوامل مساعدة ومضادة وكيفية التصرف إزاءها .

وكان الصراع الفكرى الذى عاشه العقل العربى خلالها رهيباً . فمنذ العدوان والسؤال الحائر الذى يتردد على الألسن وعلى القلوب : كيف يمكن مواجهة آثار هذا العدوان والهزيمة ؟ وكانت الإجابات تختلف . وتقول جماعة من شباب مصر بأن الإجابة على هذا السؤال كانت تأتى إنعكاساً للمواقف الفكرية والاجتماعية التى تمثلت فى الاتجاهات التى كانت تعبر عن أربع قوى إجتماعية ، هى نفسها القوى السياسية فى العالم العربى .

الاتجاه الأول : كان نابعاً من القوى الوثيقة الصلة بالإستعمار الجديد . وهؤلاء أعتبروا العدوان شكلا من أشكال الصراع بين الشعوب الكبرى فى المنطقة ، واعتبروا أن العرب لم يكونوا أبداً شعباً محارباً ، بل تتفشى فيهم الأمراض الاجتماعية مثل الأمية والتخلف واللاموضوعية ، التى تجعلهم غير قادرين على محاربة دولة متحضرة مثل إسرائيل .

وأصحاب هذا الاتجاه لم يكونوا قادرين على أن يروا إسرائيل كقاعدة استعمارية فى قلب الوطن العربى . وكانت قضية فلسطين بالنسبة لهم قضية خاصة تخص الفلسطينيين وحدهم دون سواهم ، وهؤلاء عليهم أن يواجهوا مصيرهم بأنفسهم .

الاتجاه الثانى : وكان على نقيض الأول ، فبينما نادى الاتجـــاه الأول بالاستسلام ، رفعت الكثير من القوى التحررية والتقدمية — وبعضها له تجارب عظيمة فى النضال — شعارات تتسم بالحماسة الزائده ، وتنادى باستمرار الحرب

مهما كانت الخسائر ، واستنكار قبول وقف أطلاق النار ، ورفض كل صور الحل السياسى واستنكار قبول تعاون عربى مع القوى التقدمية ، مع الدعوة إلى إنشاء تنظيمات جديدة بدل القيادات الموجودة .

الاتجاه الثالث : وهو إتجاه وطنى مناهض للاستعمار وللصهيونية . وله فهم صحيح لطبيعة العدوان وبواعثه وأهدافه إلا أن أصحاب هذا الاتجاه تبنوا حلولا مجزأة يشوبها عدد من السلبيات . فهم يرون أن العدو يتبع العلم فى كل شىء . وأن لديه قيادات ممتازة ومخابرات بارعة . . إلخ ، وبالتالى فإنهم ركزوا على شعار الدولة العصرية والاهتمام بالعلم والتكنولوجيا أكثر مما ركزوا على القضية الثورية لقوى الشعب . واتجه اصحاب هذا الخط الفكرى إلى أن إسرائيل ليست تابعاً لأمريكا ، إنما هى شريك صغير لها . وبالتالى فإنه من الممكن أن توجد متناقضات بين إسرائيل وأهدافها الخاصة وبين أمريكا . وأن الواجب هو العمل على استمالة أمريكا وتحييدها بدلا من مقاطعتها . ورفعوا شعارات « المجتمع المفتوح » و « الحل السياسى » .

الاتجاه الرابع : كان يسود بين الفئات الوطنية التى آمنت تماماً أن المعركة هى فى حقيقتها معركة حياة أو مصير وكرامة وطنية . لذلك فإن كل شىء لابد أن يكون من أجل المعركة . وبالتالى فإن إعادة بناء القوات المسلحة يصبح الالتزام الأول ، وهذا لابد أن يصاحبه تعميق للمفهوم الشعبي للمعركة ، أى أن المعركة هى معركة الشعب كله ، يسهم فيها بطاقاته عن طريق الإنتاج ، والعمل السياسى وحمل السلاح . وهذا الاتجاه يؤمن بدعم الأنظمة التقدمية فى البلاد العربية ، وباستمرار الحركة السياسية على مستوى العالم كله لتصبح أبعاد القضية أمام الرأى العالمى .

وقام هذا الفكر أساساً على أن العدو أياً كانت قوته فهو مغتصب والمغتصب لابد وأن يهزم ، كما شهد بذلك التاريخ . وأنه يمكن بالنضال الدائب والسعى

والمواجهة الشاملة مع الاستعمار والصهيونية أن يتحقق النصر [١] .

وبغض النظر عن تقييمنا لهذه الاتجاهات إلا أنها بوجه عام تمثل ما كان يدور فى أذهان المواطنين فى تلك الفترة . . الذين كانوا يعيشون بين يائس ، ومتحمس ، وحذر ، وواثق . تدفعهم أفكارهم المتباينة إلى أنواع من السلوك المتباين غير المنسق الذى يقوم على الإحساس والمشاعر أكثر مما يعتمد على العلم والحقائق .

والمشكلة — فى تقديرنا — ليست أن هذه المذاهب الفكرية كانت متعددة أو مختلفة أو متعارضة ، فالعالم العربى لم يكن فى حاجة إلى وحدة الفكر بقدر ما كان فى حاجة إلى وضوح الفكر .

ولعب الفكر دوره فى معركة البناء . وكانت بوادر الحرية التى ظهرت وسيلة إلى حوار هادف أخذ طريقه إلى المجتمع العربى . وانعقدت لقاءات المفكرين على أساس الالتزام بقضية التحرير واضعة نصب أعينها التفهم والانفتاح والحوار والإلتقاء على أساس من المنهجية العلمية .

واجتمع فى هذه اللقاءات جمع من أهل الفكر والرأى من شتى أرجاء الوطن العربى على اختلاف مداركهم واتجاهاتهم الفكرية ، تعبيراً عن الثقة بالتزامهم جميعاً بقضية التحرير وبإمكانية تعاونهم فى الإعداد للمعركة .

وسواء كانت هذه الاجتماعات فى بنغازى من أجل مناقشة « دور المفكرين فى معركة التحرير » . . أو فى القاهرة من أجل « دراسة المتغيرات الدولية وتأثيرها فى مسار العمل الوطنى ، فقد ساهمت هذه اللقاءات مساهمة أكيدة فى توضيح الرؤيا وجاءت كلها تؤكد أننا نعيش فى خضم الصراع الضارى بيننا

---

(١) أنظر أمانة الشباب بالقاهرة : السادات ومسئولية البناء والتحرير ، (منظمة الشباب الإشتراكى ، القاهرة سنة ١٩٧٣).

وبين الصهيونية والاستعمار ، وهو صراع بين وجودنا كأمة عاشت فى وطنها ووجود صهيونى استعمارى غريب غاز جاء ليتحكم فينا ويمتص ثرواتنا مستغلا حلماً أسطورياً وتعصباً دينياً وعنصرياً . وهذا الوجود الصهيونى الذى تجسده إسرائيل على التوسع استجابة لأطماع لا حد لها، ومن أجل ذلك دأب على تخريب وجودنا الحضارى وضرب الوحدة العربية ، متبعاً جميع أنواع الغزو ، العسكرى والفكرى والنفسى والحضارى .

وأن الدراسة المستفيضة لهذا العدو تؤكد أنه غير معجز ، وأن إفقاد الفرد الإسرائيلى الشعور بالأمن وإشعاره بتصميم صاحب الحق كفيل بهز الكيان الإسرائيلى .

وأكد أهل الفكر فى قراراتهم « أن أمتنا العربية وهى تخوض غمار هذا الصراع لا تنطلق من فراغ . فنضالها ضد العدوان والمعتدين عميق الجذور وتجربتها التاريخية حافلة ، وهى تقف على أرض الثورة العربية التى عبرت عن المرحلة الأخيرة من اليقظة العربية الحديثة التى ناضل أجيالنا تحت لوائها . .

وأمتنا العربية وهى تخوض غمار هذا الصراع تسعى لتأكيد ذاتها وأخذ مكانها فى عالمنا المعاصر وحمل رسالتها الحضارية ، رسالة سلام قائم على العدل وتآخ بين الشعوب وأن الأمة العربية وهى تخوض هذا الصراع تعبر عن إرادة لا تلين فى التمسك بحقها فى وطنها وحقها فى الحيــــاة ، وهى ترتكز أساساً على قوتها الذاتية .

والتوجه نحو الوحدة من أجل ذلك فرض لازم على كل عربى . والوحدة الوطنية شرط أساسى للوحدة القومية .ولقد عبرت الأمة العربية أصدق تعبير على مدى تاريخها عن معانى التسامح الدينى والأخوة الأنسانية .

كما أن النفط العربى يمثل جانباً بالغ الأهميه من الإمكانيات العربية ، وهو

لذلك سلاح فعال فى المعركةسيحسن استخدامه بمقدار ما يحقق النضال العربى من انتصارات عسكرية ومن انتصارات فى طريق الوحدة .

وجاءت دراسة المتغيرات الدولية وأثرها على مسار العمل الوطنى بدورها بوظيفة فكرية لها وزنها ، تقوم على أساس علمى من التعرف على خصائص العصر الذى نعيش فيه. وتؤكد حتمية الاعتماد على القوى الذاتية فى المجالات الاقتصادية والسياسية والعسكرية ، مع حسن استخدام المصادر المتاحة لهذه القوه وتدعيمها خصوصاً بالنسبة للبترول ولرؤوس الأموال العربية ، وتؤكد ضرورة العمل على تقوية الاتجاهات والسياسات الوحدوية الطبيعيه فى العالم العربى ، وهو ما يستلزم العمل على تنقية الجو العربى من الخلافات وسوء الفهم ، وعلى تقوية العلاقات السياسية والاقتصادية والعسكريه بين البلاد العربية ضمانا لقومية المعركة ووصولا إلى وحدة العمل ، وخليقا للظروف الموضوعيـــة اللازمة لإقامة ، الوحدة العربية الشاملة .

وحسمت الوثيقة كثيراً من البلبلة الفكرية والصراع الذهنى عندما قررت أن اختلاف النظم الاجتماعية القائمة فى البلاد العربية لا يصح أن يعرض المصالح الحقيقة العربية المشتركة للخطر .. وأن أختلاف هذه النظم الاجتماعية على المستوى العالمى لم يحل دون قيام الوفاق العالمى تحقيقا للمصالح المشتركه .

وانتهت الوثيقة بتأكيد :

« إن مرحلة المواجهه الشاملة تستلزم منا حشد كل إمكانياتنا الذاتية الهائلة العسكرية والسياسية والاقتصاية والفكرية، وتستلزم المحافظة على الوحدة الوطنية ودعمها داخل إطار تحالف قوى الشعب العاملة ، وأن يكون لكل مواطن دوره الإيجابى المحدد فى معركة البناء ومعركة المصير. كما تستلزم حشد كل الإمكانات العربية الضخمة ، وحشد تأييد وتدعيم كل الأصدقاء والشعوب المؤمنة بالسلام والعدل والتقدم ، إنها تستلزم المزيد من العطاء ومن الفداء، حتى يبلغ عملنا الوطنى

الضخم غايته بتحرير الأرض واسـترداد الحق ، وتحقيق النصر ، وإقامة البناء الجديد » .

وأجتمع فى مجلس الشعب بالقاهرة عدد من أهل الفكر فى الوطن العربى لمناقشة هذه الوثيقة ، وثار حوار فكرى أكد فى النهاية حتمية المعركة وحتمية الحشد الكامل لمرحلة المواجهة الشاملة .

وقال البعض يومها معلقين « أنها محاولات لشغل الناس » .. أو امتصاص الطاقة ، أو تهدئة الرأى العام » وقد يشفع لهم التمزق الفكرى الذى كان العرب يعانونه فى كل ما قالوه .

فلما جاء يوم ٦ أكتوبر ، تبين أن الوضوح الفكرى كان ركنا أساسيا من أركان البناء الداخلى ، وتبين فعلا أن العدو غير معجز ، وأن اليقظة سلاح قادر ، وأن القوة العربية ذات قوة دفع عالية وأن القومية أرفع واسمى من اختلاف النظم الاجتماعية .

وكما جاءت الهزيمة بتيارات فكرية متعددة ومتضاربة ، شتت الفكر العربى أحياناً ، وشلته أحياناً أخرى . فان الانتصار لم يأت فقط بوضوح وطاقة فكرية جديدة ، ولكنه جاء أيضاً بقدر كبير من الوحدة الفكرية ولم يعد بين العرب من يسمح لنفسه أو لفكره بأن يتشكك فى قدرة العرب أو فى إمكانياتهم الذاتية ، أو فى استعدادهم للعمل المشترك .وحتى تلك الشكوك عندما قامت فإنها لم تستمر وعاد الذين أثاروها إلى الاعتراف بالصواب.

الفصل الثالث

السياسة الخارجية

أن أعوام التحدى كانت تتطلب بالضرورة إعداد مسرح السياسة الدولية للعمليات القادمة . وكان يتحتم حرث الأرض الدولية وتجهيزها وزرعها لتعطى حصاداً طيباً فى الوقت المناسب ... عندما تنطلق الشرارة .

ولم يكن الأمر سهلا . فى الفترة ما بعد ١٩٦٧ ، منيت السياسة الأمريكية بهزيمتين عالميتين . الأولى فى حرب الهند وباكستان . والثانية فى حرب فيتنام . ولم تكن أمريكا بحال على استعداد لتقبل نكسة ثالثة لسياستها فى الشرق الأوسط . بل لعلها كانت ترى أنه يمكن أن تتخذ من هذه الأزمة سبيلا لاستعادة موازين القوى إلى وضع أفضل لمصالحها . وفضلا عن هذا فهى منغمسة لأذنيها فى علاقاتها بإسرائيل .

وكان موقف الاتحاد السوفيتى غير واضح تماماً ، وربما لم نكن نحن أيضاً واضحين من وجهة نظرهم . لقد أعطى السوفيت السلاح للعرب فى حرب ١٩٦٧ . ولكنهم لم يحسنوا استخدامه . وفى أعقاب حركة التصحيح والمحاكمات التى تمت

فى مصر وجد السوفيت أن أصدقاءهم بالسجن ومن ناحية أخرى فإن سياسة الوفاق مع الولايات المتحدة كانت تتطلب من الاتحاد السوفيتى أن يوفر مناخاً صالحاً لاستمرار وازدهار هذه السياسة . وأخذت العلاقات المصرية السوفيتية تعانى من حالة فتور وانكماش واضحة . وعلى الرغم من توقيع معاهدة الصداقة بين مصر والاتحاد السوفيتى فى أعقاب حركة التصحيح .

وكانت أوربا الغربية مشغولة بالسلام والرخاء والوحدة . وأوربا الشرقية مقتنعة بوجهة نظر العرب لا تتوانى فى تأييدهم ، والتأييد هو كل ما تستطيع أن تفعله . وأفريقيا تتعاطف مع العرب ، ومع ذلك فلديها مشكلات ملحة تتصل بتدعيم الاستقلال ، وتأمين النظم الجديدة ، والسير فى التنمية بسرعة عالية لتعويض ما ضاع فى تخلف واستعمار . أما الدول غير المنحازة فقد بدأت تغير من فلسفتها ، فقد أخذت سياسة عدم الإنحياز تعانى الفشل بعد حرب الهند وباكستان واستناد كل منهما على إحدى القوتين العظميين ، ولم يعد عدم الإنحياز اتجاهاً عملياً سهلا فى عالم المصالح . وإلى جانب هذا كله فقد كان العالم كله يقول للعرب أنتم على حق ... ولكن الأزمة راكدة فى بحيرة السياسة الدولية ، والمشكلة الكبرى هى كيف يمكن تحريكها .

أما العالم العربى فقد كان قلقاً وممزقاً ، ومنهمكاً فى عمليات النقد الذاتى التى كادت أن تصل إلى حد الهدم الذاتى لكيانه ، بسبب ما خلفته النكسة من محن وضياع . وكان الصراع دائراً فى وجود عبد الناصر ، وبعد وفاته كانت هناك محاولات ملء الفراغ . عالم يبحث عن قائد وبطل ... ويعانى من مشكلات داخلية بسبب الرغبة فى التحرك السريع بعيداً عن التخلف ، وبسبب محاولات تثبيت الأنظمة الثورية الجديدة فى الحكم وضمان استقرارها واستمرارها .

هكذا كانت الأوضاع حينما بدأت مصر تحرث الأرض وتعدها للجولة الجديد

وكانت مصر — كما يقول الرئيس السادات — تدرك أن الصراعات الكبرى فى العصر الحديث ووسائله لا يمكن أن تحدها حدود الميدان أو حدود الأوطان • وكان عليها أن تخرج إلى العالم كله تسمى إليه بوجهة نظرها ، وتعرض عليه وجه الحق والحقيقة فى الأزمة . وقد أثبتت الظروف أنه يمكن استعادة الأرض التى خسرناها مع الأصدقاء . وأن جبهة الشعوب الاشتراكية ومجموعة الدول غير المنحازة ، وتضامن القارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية يشكل جبهه قوية يعتد عليها خط التحرير الوطنى قوياً ومنيعاً •

كيف فكرت مصر . وكيف وجهت سياستها الخارجية ، وما هى جهود السلام التى بذلتها ؟ من أين ابتدأت وإلى أين وصلت ؟ هذا ما سوف نحاول عرضه فى هذه الصفحات .

أولا : المسرح العالمى[1] :

لقد وقعت على المسرح العالمى متغيرات سياسية وإقتصادية وتكنولوجية واجتماعية وسلوكية هامة ، تمثلت بصفة أساسية فى ظهور قوى سياسية واقتصادية عالية جديدة لها أهميتها وتأثيرها ، وفى الاتجاه نحو التكتل والإندماج السياسى والاقتصادى ، ثم فى سياسة الوفاق العالمى التى أنهت إلى حد بعيد وهى الحرب الباردة بين القوتين الكبيرتين ، وهما الاتحاد السوفيتى والولايات الأمريكية . وقد أنتقلت بهما هذه السياسة من مرحلة التعايش السلمى إلى مرحلة أكثر إيجابية ، وهى مرحلة الإنفتاح العالمى المتبادل ، مما أثر تأثير عميقاً على طبيعة المشكلات الدولية وأساليب معالجتها . وعلى الأوضاع السياسية والاقتصادية فى العالم وخاصة فى منطقة الشرق الأوسط .

---

(١) أنظر الإتحاد الاشتراكى العربى ،المتغيرات الدوليه وتأثيرها فى مسار العمل الوطنى، (القاهرة : ٤ / ٨ / ١٩٧٣)

كذلك ظهرت قوى سياسية جديدة فى العالم ، فتقدمت الصين الشعبية لتحتل مكانها السياسى بالمجتمع الدولى الذى ظل شاغراً مدة طويلة . كما بدأ تعاون جديد وثيق بينها وبين الولايات المتحدة ، أنهى مرحلة التوتر فى العلاقات بين البلدين ، وفتح المجال واسعاً أمام القيام بمزيد من التفاهم السياسى والاقتصادى بين البلدين .

وهكذا أصبح مثلث العلاقات الدولية يبدو والولايات المتحدة عند قمته ، ويمتد منها إلى طرفى القاعدة ضلعان قويان من العلاقات يصلاها بكل من موسكو وبكين . بينما الضلع الثالث الأفقى عند القاعدة والذى يربط موسكو وبكين معاً يبدو أقل وضوحا وأقل تماسكا .

وبدأت سياسة الوفاق العالمى تنتج آثارها فى التخفيف من حدة الصراعات والخلافات التى ظلت قائمة منذ الحرب العالمية الثانيـة فى أوربا وآسيا . فأنتهى الصراع بين كل من ألمانيا الشرقية والغربية ، وبين ألمـــانيا الغربية وبولندا وتشيكوسلوفاكيا . وتحسنت علاقات ألمانيا الغربية بالاتحاد السوفيتى ، كما أنتهت الحرب الفيتنامية بإقرار السلام ، وبدء التعاون الاقتصادى بين الولايات المتحدة الأمريكية وفيتنام الشمالية .

ومن ناحية أخرى بدأت الدول العربية المنتجة للبترول تظهر كقوة مؤثرة فى عالم الطاقة والاقتصاد. كما ظهرت أهمية دور أفريقيا العالمى واحتمالات تعاظم تأثير منظمة الوحدة الأفريقية ، كما قوى الاتجاه العالمى نحو إقامة الوحـدات السياسية والاقتصادية الـكبيرة ، ومثال ذلك ما تم فى أوربا الغربية وأوربا الشرقية ، وهكذا بدأ عالم الوحدات الـكبيرة .

وكان من أبرز المتغيرات العالمية الإنفتاح الاقتصادى العالمى وقيام المصالح المشتركة بين الدول ذات الأنظمة الاقتصادية، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى . وهكذا تقدمت الاعتبارات الاقتصـــادية العملية على الاعتبـارات الإيدولوجية النظرية ، فاتسع التعاون بين الغرب والشرق ، واتخذ أبعاداً متعـددة

أهمها التوسع فى العلاقات التجارية الدولية وإقامة المشروعات المشتركة والتعاون الفنى فى الإنتاج ، والتعاون المالى عن طريق التسهيلات الإئتمانيـة والقروض المشتركة . وقد استتبع هذا التحول أن بدأت الدول الرأسمالية تعدل تشريعاتهـا التى كانت تحرم التعامل الاقتصادى مع البلاد الشيوعية ، كما عدلت بعض الدول الاشتراكية قوانينها بما يسمح للإستثمارات الأجنبيـة بالمسـاهمة فى النشـاط الاقتصادى الوطنى .

وإزاء هذه المتغيرات الدولية على مسرح السياسة العـالمية . وفى مواجهـة سياسة الوفاق بين الدولتين العظمتين ، كان على مصر أن تحدد تصوراً جديداً لمدى تأثير هذه المتغيرات على مشكلة للشرق الأوسط .

١ — أدت سياسة الوفاق إلى أن الولايات المتحدة أصبحت أكثر جرأة فى دعم إسرائيل سياسياً وعسكرياً واقتصادياً ، دون حاجة للتستر وراء جماعة الحفاظ على التوازن العسكرى .

٢ — أضعفت سياسة الوفاق من قوة الأمم المتحدة ، وبذلك أصبح الـكثير من الاتفاقيات والمصالحات تتم خارجها . وتمشياً مع هذه الحقيقة أخذت الولايات المتحدة تستبعد قضية الشرق الأوسط من الأمم المتحدة فى محاولة حلها .

٣ — اصبحت مشكلة الشرق الأوسط أكثر من أى وقت مضى جزءاً من إستراتيجية الدولتين الـكبيرتين . وبذلك أصبح الاتحاد السوفيتى ملزما بمراجعة الولايات المتحدة فى كثير من المواقف ، مثل رفع قيود الهجرة إلى إسرائيل عن اليهود السوفيت .

٤ — إعتماد مصر على القوى الخارجية ، وقد أصبح فى ظل سيـاسة الوفاق أقل فاعلية .

ثانيا: العالم العربى:

ليس من شك فى أن الرئيس السادات قد استعاد لمصر مكانتها فى العالم العربى لا من طريق النزعة إلى الزعامة ، وإنما من طريق الشورى والديلوماسية الهادئة ومن المؤكد أن إيمان الرئيس بالقوى الذاتية العربيـة ، وما يمـكن أن تمنيـه الإمكانات العربية الهائلة قد جعلته يسعى إلى وضع يده فى يد إخوته العرب فى احترام تام وتقدير كامل لظروف كل بلد وقطر ، وما قد يتواجد من اختلاف فى النظم أو وجهات النظر . ومن ثم فقد كان ينأى عن محاولة بيع نظـام مصر أو تصديره إلى غيرها من الدول العربية، أو تحريض شعوب هذه الدول ضد أنظمتها القائمة . وكانت وجهة نظر الرئيس أننا إذا كنا لا نود أن يزج أحـــد بنفسه فى شئوننا ، فيجب ألا نضع أنفنا فى شئون الآخرين .

وفى حديث للرئيس السادات يوم ٢٣ يوليو ١٩٧٣ ، قبيل الحرب ، وأكد وجهة النظر هذه بقوله :

« إن موقفنا من وحدة العمل العربى هو أننا نرحب بكل تعاون وتنسيق بين القوى العربية على امتداد مناطقها الجغرافية ، وعلى تباين أنظمتهـا الاجتماعية ففى لحظات المصير العربى، ينبغى أن ترتفع فوق كل الصراعات ، وفوق كل الخلافات لنذكر الخطر الواحد الذى يتهددنا جميعاً بغير تفرقة أو تمييز »

أن لهذه السياسة التى حددها الرئيس السادات منهاجا لعمله على الجبهة العربية من الخليج إلى المحيط ، بكل ما فيها من اختلاف فى النظم والاتجاهات وارتباطات المصالح والإنتماءات ، تؤمن بأن أمور السياسة والعـلاقات الدولية لا يمـكن أن يحكمها منطق متزمت مغلق، كما لا يمكن أن تخضع لقوانين وقواعد منطقية ورشيدة

وعلمية بحتة ، وإنما السياسة الدولية تخضع لنظرية النسبية ، وتقاس أيضاً بمعايير نسبية بحسب مؤثرات المصالح والعلاقات والضغوط وتوازن القوى والزمان والمكان . ومن ثم فإنه يمكن أن نميز على أفق السياسة الدولية ألواناً متدرجة الظلال بين الأسود والأبيض ، تساعد على التئام وجهات النظر وتقابل المصالح عند ملتقى الطرق . محصلة هذه السياسة إذا أن ما لا يدرك كله لا يترك كله ، وأنه من الممكن أن تستمر مصر على علاقات طيبة مع الآخرين رغم اختلاف النظم، وأن كل ما يمكن تحقيقه للقضية الكبرى يجب ألا يفرط فيه بحال ، وأن من ليس معنا فهو ليس بالضرورة ضدنا . وقد يكون من صالحنا أن نحيده ، فالحياد كسب إذا ما قورن بالعداء . وأننا يجب ألا نتسرع الأمور والنتائج وألا نتزعج لما لم يتحقق اليوم فقد تكون فرصته فى الغد فى النفس الطويل ، وأن أخلاقيات الحكم تحول دون فتح نيران الهجوم على أى حاكم أو بلد عربى ، وأن الحاكم المخلص لعروبته يجب أن يتصف بالاعتدال فى القول ، والتسامح والسعى إلى التئام الشمل ، والارتفاع فوق كل الخلافات والصراعات لأن الهدف المرتقب أكبر من كل هذا بكثير .

ولقد كان الرئيس السادات مقتنعاً كل الاقتناع بأن السبيل إلى تجاوب القادة العرب بصورة أفضل هو أن يستشيرهم ويشركهم معه فى تقرير من الأمور ، ورؤية كافة أبعاد الموقف ، بدلا من أن يبقى فى القاهرة ويتحدث باسمهم ، أو يتجاهل وجودهم . لقد آمن بأن العرب قوة هائلة متى اتحدوا ، ولذلك نشط إلى تعزيز الصلات الأخوية ، فسافر كثيراً وتنقل واجتمع وتباحث وتشاور وحضر مؤتمرات . . حتى أصبح من الصعب متابعة أسفاره العديدة السريعة عبر العالم العربى فى الفترة الأخيرة .(أنظر الملحق) وفى هذا يقول لمجلس الشعب :

« لعلكم تابعتم فى الفترة الماضية ما قمت به من رحلات إلى مختلف بلاد العالم العربى ، مشرقه ومغربه، إن الهدف الأساسى لهذه الرحلات كان ولا يزال أن نجد قاعدة صلبه واحدة لعمل عربى موحد فى هذه الظروف التى تجتازها أمتنا العربية

فنحن جميعاً كأمة عربية نشترك فى مصير واحد ونعيش معركة واحدة[١] »

لقد أثبتت حرب أكتوبر بكل جلاء أن من أهم إنجازات الرئيس السادات خلال الفترة التي سبقت الحرب ، هو تحقيق روح الوفاق والفهم والتضامن بين الملوك والرؤساء والشعوب العربية ، وتنقية جو العلاقات بينهم من كل الشوائب . فعادت الخصائص العربية الأصيلة تجد مناخاً موائماً وتربة صالحة لنموها وإزدهارها وكان هذا الانجاز المعنوي أقوى من عون أو مساعدة مادية يمكن أن يقدمها العرب للمعركة . وكان الرئيس السادات يقدر هذا تماماً ، ويقول :

« اهم شيء تم هو الناحية الأخويه ، الأصالة العربية ، اللى تخلينا يوم ما تفتح شرارة الصراع يحس كل اخ منا باخيه » .

وتقديراً لما كان يواجه العرب على المستوى القومى من مشكلة التوفيق بين مطلب وحدة الصف العربى ، وهو هام للحصول على التأييد العالمى ، وبين مطلب وحدة العمل ، وهو حيوى بالنسبة لحشد القوى القادرة على الإسهام فى المعركة كانت الجهود الضخمة الموفقة التى بذلت فى الاتصالات الثنائية التى تحصر وجهات النظر فى إطار مصلحة البلدين ، ولا تفسح المجال للخلافات التى تظهر عادة فى الاجتماعات الموسعة . وقد حققت هذه الاتصالات نتائج غاية فى الأهمية ، ظهرت أعظم معطياتها عندما بدأت الشرارة .

وقد ظهر العرب أكثر من أى وقت مضى أمة واحدة . وآية ذلك الأدوار التاريخية المجيدة التى أداها — على سبيل المثال — كل من الملك فيصل ، والرئيس بومدين ، والأمير الصباح سالم الصباح ، والملك الحسن ، والشيخ زايد بن سلطان آل نهيان ، خلال حرب أكتوبر .

وإذا كانت أعظم إنجازات السادات العسكرية قد تمت على أرض سيناء ،

---

(١) الرئيس أنور السادات : خطاب أمام مجلس الشعب بمناسبة يوم ١٥ مايو ، (القاهرة : مصلحة الاستعلامات ، فى ١ مايو ١٩٧٣) ص ٢٣٢ .

فإن أعظم منجزاته السياسية قد امتدت عبر الوطن العربى من الخليج الى المحيط فى وحدة لم ينعم العالم العربى بتحقيقها فى تاريخه الحديث من قبل .

ويمكن تلخيص سياسة مصر العربية فى النقاط التالية .

١ — ضرورة الاعتماد على القوة العربية الذاتية ، مع حسن استخدام المصادر المتعاظمة لهذه القوة وتدعيمها . ونشير هنا بوجه خاص إلى البترول العربى وإلى رءوس الأموال العربية المستثمرة فى الخارج ، وإلى أن العرب ، على الرغم من ثرواتهم البترولية والمالية ، لم يتمكنوا بعد من استخدامها فى الدفاع عن حقوقهم وفى تأمين مستقبلهم . إن الأمة العربية يجب أن تتحمل مسئولياتها التاريخية كاملة فى معركة المصير .

٢ — ضرورة العمل على تقوية الاتجاهات والسياسات الوحدوية الطبيعية فى العالم العربى ، وهو ما يستلزم العمل على تنقية الجو العربى من الخلافات وسوء الفهم وعلى تقوية العلاقات السياسية والاقتصادية والعسكرية بين البلاد العربية ، ضمانا لقومية المعركة ، ووصولا إلى وحدة العمل ، وخلقاً للظروف الموضوعية اللازمة لإقامة الوحدة العربية الشاملة .

مع التسليم بأن اختلاف النظم الاجتماعية القائمة فى البلاد العربية لا يصح أن يعرض المصالح الحقيقية العربية المشتركة للخطر . إن اختلاف هذه النظم الاجتماعية على المستوى العالمى لم يحل دون قيام الوفاق العالمى تحقيقاً للمصالح المشتركه .

٣ — من الضرورى العمل على تقوية جامعة الدول العربية ، وعلى تقوية دولة اتحاد الجمهوريات العربية ، كما يكون من الضرورى أيضاً الإسراع بالبدء فى إقامة الوحدة بين مصر وليبيا مع توفير العوامل الموضوعية اللازمة لضمان نجاحها ، حتى تكون دولة الوحدة الجديدة دعماً لمعركة المصير ، ونواة لدولة الوحدة الكبرى .

٤ — العمل على إحياء وتدعيم الجبهة الشرقية ، كما يجب العمل على البحث عن أسواق جديدة للسلاح ، وعلى إقامة صناعات للتسليح برءوس أموال عربية مشتركة ، ذلك أن المسئولية المشتركة عن المصير المشترك تستلزم العمل المشترك والتضحية المشتركة .

٥ — الانفتاح الاقتصادى العربى ، وهو ما يستلزم العمل على تقوية العلاقات الاقتصادية بين البلاد العربية ، وعلى إقامة التكامل الاقتصادى العربى وصولا إلى إقامة الوحدة الاقتصادية العربية وخاصة عن طريق الإجراءات التالية :

(ا) الأخذ بقدر من التخطيط الاقتصادى على مستوى العالم العربى مما يحقق التكامل الاقتصادى ، وبما يحقق الإكتفاء الذاتى للعالم العربى .

(ب) تدعيم السوق العربية المشتركة وتوسيع نطاقها .

(حـ) التوسع فى العلاقات التجارية بين البلاد العربية .

(د) التوسع فى التعليم الفنى فى مجال الإنتاج .

(هـ) التوسع فى التعاون المالى العربى .

(و) إقامة مشروعات عربية مشتركة .

إن مرحلة المواجهة الشاملة كانت تستلزم حشد كل إمكاناتنا الذاتية الهائلة العسكرية والسياسية والاقتصادية والفكرية ،وتستلزم المحافظة على الوحدة الوطنية ودعمها داخل إطار تحالف قوى الشعب العاملة ، وأن يكون لكل مواطن دوره الإيجابى المحدد فى معركة المصير . كما تستلزم حشد كل الإمكانات العربية الضخمة ، وتأييد وتدعيم كل الأصدقاء والشعوب المؤمنة بالسلام والعدل والتقدم .

ثالثا : الولايات المتحدة الأمريكية :

انتهت حرب ١٩٦٧ سريعاً مثلما ابتدأت . وطرحت القضية أمام الأمم المتحدة وسط مناورات دولية وضغوط سياسية عنيفة ، وفى نوفمبر ١٩٦٧ ، تم التصويت على المشروع المقدم من المملكة المتحدة فى مجلس الأمن . وقد نال المشروع إجماع الدول الأعضاء فى المجلس . وصدر القرار ٢٤٢ لسنة ١٩٦٧ الذى ينص على :

« أن مجلس الأمن :

١ — إذ يعرب عن قلقه المستمر للوضع الخطير فى الشرق الأوسط .

٢ — إذ يؤكد على عدم السماح بتملك الأراضى عن طريق الحرب وعلى الحاجة إلى العمل من أجل سلام عادل ودائم تستطيع كل دولة فيه أن تعيش فى أمن .

٣ — وإذ يؤكد بعد ذلك أن على كل الدول الأعضاء بقبولها لميثاق الأمم المتحدة قد التزمت بالتصرف طبقاً للفقرة الثانية من الميثاق .

(ا) يقر بأن تحقيق مبادىء الميثاق يتطلب إقرار سلم عادل ودائم فى الشرق الأوسط يجب أن يتضمن تطبيق كل من المبدأين التاليين :

١ — سحب القوات المسلحة الإسرائيلية من أراضى احتلت فى القتال الأخير .

٢ — إنهاء جميع إدعاءات أو حالات الحرب واحترام سيادة ووحدة أراضى كل دولة فى المنطقة والاعتراف بذلك ، وكذلك استقلالها السياسى وحقها فى العيش بسلام ضمن حدود مأمونة ومعترف بها وحرة من التهديد أو أعمال القوة .

(ب) يؤكد أيضاً الحاجة إلى :

١ — ضمان حرية الملاحة فى الممرات المائية الدولية فى المنطقة ،

٢ — ضمان المناعة الإقليمية والاستقلال السياسى لكل دولة فى المنطقة عن طريق إجراءات بينها إقامة مناطق مجردة من السلاح .

(جـ) يطلب من الأمين العام تعيين ممثل خاص للذهاب إلى الشرق الأوسط كى يقيم ويجرى اتصالات مع الدول المعنية بغية إيجاد اتفاق ومساعدة الجهود لتحقيق تسوية سلمية ومقبولة وفقاً للنصوص والمبادىء الواردة فى مشروع القرار هذا .

(د) يطلب من الأمين العام أن يرفع تقريراً إلى مجلس الأمن حول تقدم جهود الممثل الخاص فى أقرب وقت ممكن .

والقرار ينص صراحة على عدم السماح بتملك الأراضى عن طريق الحرب . كما ينص على انسحاب إسرائيل من « أراض » احتلت فى القتال الأخير (١٩٦٧) . وفى هذا النص الأخير إبهام حاولت إسرائيل أن تستغله معلنة أن القرار ككل لايعنى إنسحابها من كل الأراضى العربية ، فالقرار يقول من « أراضى » ولم يقل من « الأراضى » .

ورأى وزير خارجية اسرائيل أن هذا الإبهام كان مقصوداً ليعنى عدم خروج إسرائيل من كل الأراضى التى احتلتها فى حرب عام ١٩٦٧ ، وأطلق عليه ما أسماه الإبهام البناء « Constructive Ambiguity » وأصبح الخلاف على تفسير ما يعنيه القرار بصدد هذا البند نقطة ارتكاز تتحصن خلفها إسرائيل لعرقلة كل الجهود المبذولة لتنفيذ القرار . وفى يوم صدور القرار صرح جولدبرج بأن الولايات المتحدة سوف تقف بكل ثقلها وراءه .

إن إسرائيل تعلم علم اليقين أن العرب لن يقبلوا بحال التسليم بجزء من أراضيهم لها ، مهما كان حجم هذا الجزء . ولأنها كانت راغبة فى أن تظهر موافقتها على القرار ، وفى نفس الوقت ليست لديها أى نوايا طيبة نحو تنفيذه فقد أخذت تثير هذا النوع من الجدل الذى أساسه التلاعب بالألفاظ .

وفى يوليو ١٩٧٣ ، عرض على مجلس الأمن نص يفيد إزالة هذا اللبس ، فوافق جميع الأعضاء على أن النص يعنى النزوح عن كل الأراضى . إلا أن الولايات المتحدة للأسف هى الدولة الوحيدة التى اعترضت على هذا الرأى ، ونقضت القرار بما لها من حق الفيتو خضوعاً للضغوط التى تمارس عليها من قبـــل الزعماء الصهيونيين من ناحية ، ووفاء بالتزاماتها نحو إسرائيل من ناحية أخرى .

وكانت الولايات المتحدة قد قطعت على نفسها عهداً لإسرائيل التزمت فيه بالآتى :

١ — أن تحول الولايات المتحدة دون صدور قرار من مجلس الأمن يلزمها بالتراجع إلى الخطوط التى كانت قائمة يوم ٤ يونيو ١٩٦٧ .

٢ — ألا تفرض الولايات المتحدة على إسرائيل ، وألا تترك آخرين يفروضون عليها أية تسوية لا تـكون صادرة عن مفاوضات مباشرة بينها وبين العرب .

٣ — أن تحتفظ الولايات المتحدة لإسرائيل بالتفوق العسكرى .

وهذه الضمانات الثلاثة من قبل الولايات المتحدة لإسرائيل ظلت قائمة ومنفذة منذ انتهاء حرب ١٩٦٧ . وعلى الرغم من أن الرئيس السادات قد أوضح أنه لا يعتمد فى تقرير إنسحاب إسرائيل من الأراضى » العربية التى احتلتها على هذا البند ، وإنما على البند الوارد فى الديباجة والذى يشجب تملك الأراضى « بالقوة ، فإن جميع المحاولات التى بذلت على مدى سنوات ست قد باءت جميعها بالفشل فى الوصول إلى تقبل لمضمون القرار أو استعداد للوصول إلى تسوية سلمية .

وفى مارس ١٩٦٩ ، أعلنت إسرائيل صراحة أنها لن تقبل أى اقتراحات من أجل السلام لا تتضمن مفاوضات مباشرة بينها وبين العرب ، وتعطى لإسرائيل الحق فى الاحتفاظ ببعض الأراضى التى احتلتها . وأخذت الولايات

المتحدة تروج فكرة المفاوضات المباشرة . ولما وجدت أنها لا تلق أية استجابة لدى العرب ، بدأت تتحدث عن المفاوضات من خلال وسيط .

وتأكد لمصر أن فرصة الوصول إلى تنفيذ قرار مجلس الأمن ضئيلة إن لم تكن معدومة . فبدأت حرب الاستنزاف على طول الجبهة ، واشتعل الموقف وارتفعت درجة حرارة المنطقة . وتحت تأثير خطر الحرب ، تقدم وليام روجرز وزير خارجية أمريكا فى يوليو ١٩٧٠ باقتراح من حكومته لإيقاف إطلاق النار لمدة ثلاثة شهور ، والبدء فى بذل الجهود للوصول إلى حل سلمى تحت إشراف وسيط من الأمم المتحدة ، وعلى أساس القرار ٢٤٢ .

وفى أغسطس ١٩٧٠ ، توقف إطلاق النار ، وبدأت محادثات غير مباشرة بين مصر واسرائيل تحت إشراف السفير جونار يارنج . وبذل السفير يارنج جهودا غير عادية فى محاولة للوصول إلى تفاهم مع إسرائيل أو حتى استجلاء نواياها ، ولكن جميع محاولاته كانت تنتهى إلى طريق مسدود . انتهى الأمر بإعلان إسرائيل انسحابها من المحادثات إلى أن تزيل مصر قواعد الصواريخ التى أقامتها فى منطقة قناة السويس .

ولما انتهت الشهور الثلاثة المحددة فى الاقتراح دون التوصل إلى نتيجة إيجابية ، وضعت القضية مرة ثانية أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة . وأصدرت الجمعية فى نوفمبر ١٩٧٠ قراراً بمد وقف إطلاق النار المؤقت ثلاثة شهور أخرى . وأكدت تمسكها بتنفيذ قرار مجلس الأمن . كما أنها أنعشت مهمة السفير يارنج ، ورسمت طريقا يؤدى إلى عودته لاستئناف مهمته .

وانتهزت الولايات المتحدة فرصة إيقاف إطلاق النار الأولى وأخذت تزود إسرائيل بالأسلحة والمعدات الحربية والمعاونة الاقتصادية التى بلغ حجمها ٥٠٠ مليون دولارا ، وكانت حجتها فى ذلك أنها تريد أن توفر لإسرائيل الإحساس بالأمن

الحماية الأمريكية لإسرائيل

والتعهد بحماية المصالح الإسرائيلية فى المنظمات والمؤتمرات الدولية



بإذن من الأستاذ صلاح جاهين .

لـكى تجد نفسها قادرة على مواصلة الاتصال بالسفير يارنج . وكأنها كانت تقصد بذلك أن التسليح كان من أجل الوصول إلى السلام . . . وهو منطق غريب .

ومع ذلك فإن إسرائيل قد عادت إلى مسلـكها الأول من الإلتواء والإبهام وعرقلة الجهود المبذولة . وكان واضحاً أن هدفها كسب الوقت وجعل احتلالها للأرض العربية أمرا واقعا يعتادة العرب ، أوشيئا أشبه بـكسب الملـكية بمضى المدة . وازاء هذه المراوغة والجمود أرسل الرئيس السادات رسالة إلى الرئيس نيـكسون يطالب فيها الإجابة على سؤال محدد هو :

ماذا تريد الولايات المتحدة الأمريـكية ؟

غير أن الرد الذى بعث به الرئيس نيكسون لم يضف جديدا للموقف،ولم يتضمن إجابة صريحة للسؤال المعلق . وفضلا عن هذا فقد ألحت مصر على دعوة الدول الأربع الـكبرى الأعضاء فى مجلس الأمن إلى ممارسة دورها ومسئولياتها عن حفظ السلام على أساس من اتصالها المباشر بالأزمة . وتعاونت مصر تعاوناً غير مشروط أو محدود مع السكرتير العام للأمم المتحدة ومع ممثله السفير يارنج المـكلف بمتابعة تنفيذ قرار مجلس الأمن . ولـكن كل هذه المحاولات والمساعى لم تحرز أى تقدم ، واستنفذ يارنج كل جهوده إلى أن بدأ يفقد قوة الدفع والحركية التى بدأ بها .

وأصبح واضحاً أن إسرائيل تريد شيئاً محدداً ، وهو مواصلة احتلالها للأرض العربية ، وليست لديها أى نية للجلاء عنها . بل أنها أخذت تثبت هذا الاحتلال بإدخال تغييرات على طبيعة الأرض وبصفة خاصة فى القدس والضفة الغربية وصحراء سيناء . كذلك ظهر قصور جهود الأمم المتحدة فى إحراز أى تقدم نحو الحل السلمى للمشـكلة .

وبالنسبة لمصر فقد كانت غير مستعدة لأن تترك وقف إطلاق النار يتجدد

تلقائياً ، أو أن تصبح خطوطه حدوداً سياسية على نحو ما حدث لخطوط هدنة ١٩٤٩ . وخاصة أن محاولات واسعة ومكثفة كانت تسعى للتمويه على الرأى العام العالمى ، وتحاول أن تصور المشكلة على غير حقيقتها ، وتحصرها فى حيز ضيق ، ليصبح جوهرها « وقف إطلاق النار أم إطلاق النار » ، وبذلك تحجب أساس المشكلة وجوهرها وهو « العدوان واحتلال الأرض بالقوة » .

وفى يوم ٤ فبراير ١٩٧١ ، أعلن الرئيس السادات — تعزيزاً للجهود الرامية إلى حل الأزمة — مبادرة مصرية جديدة . أوضح فيها قبول مصر الامتناع عن إطلاق النار مقابل انسحاب جزئى للقوات الإسرائيلية على الشاطىء الشرقى لقناة السويس ، وذلك كمرحلة أولى ضمن جدول زمنى يتم وضعه لتنفيذ بقية بنود قرار مجلس الأمن . وإذا تحقق ذلك فإن مصر تصبح على استعداد للبدء فوراً فى مباشرة تطهير مجرى قناة السويس وإعادة فتحها للملاحة الدولية .

بذلك وضعت مصر مهمة السفير يارنج فى إطار واضح المعالم ، وأخرجتها من حيز الألفاظ والمفاهيم الغامضة ، إلى الإجراءات المحددة لتنفيذ قرار مجلس الأمن .

وفى شهر مايو ١٩٧١ طلب وليام روجرز وزير الخارجية الأمريكية زيارة مصر للمناقشة فى إمكانية الوصول إلى اتفاق على أساس مقترحات الرئيس السادات . وخرج روجرز بعد لقائه بالرئيس مقتنعاً بسلامة موقف مصر ، وصدق نواياها من أجل السلام. وسافر إلى تل أبيب لدراسة المقترحات مع الحكومة الإسرائيلية وأرسل مساعده سيسكو بنتيجة مباحثاته وتلقى سيسكو وجهة نظر مصر بشأنها مرة ثانية. وسافر وانقطعت الاتصالات،وكان واضحا أن إسرائيل رفضت العرض المصرى ، وأن أمريكا لا تنوى أن تغير من الأمر شيئا .

وفى نفس الشهر — مايو ١٩٧١ — وقعت مصر معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفيتى لمدة ١٥ عاما .ويبدوا أن هذه المعاهدة كانت مصدر قلق للولايات المتحدة

فى أعقابها أرسل الرئيس نيكسون يستفسر عن ماتعنية المعاهدة . وناقش مندوبه الموضوع مع الرئيس السادات . وفى ٦ يوليو أعلن أن الرئيس الأمريكى سوف يتدخل بصفة إيجابية للوصول إلى حل عادل لمشكلة الشرق الأوسط .

ومرة ثانية خيم السكون على المنطقة . واقتصر النشاط الأمريكى على مجرد الرسالة ، فلم تسمع مصر بعد ذلك من الرئيس الأمريكى ، ولم تتخذ الولايات المتحدة أى خطوة إيجابية على طريق الحل السلمى للمشكلة .

ومرة ثالثة عرفت الولايات المتحدة أن الرئيس السادات سوف يزور الاتحاد السوفيتى فى أكتوبر ١٩٧١ . فنشطت الاتصالات من جديد ، وفى هذه الجولة اقترحت أمريكا أن تجرى المفاوضات بين مصر وإسرائيل فى وجود « عامل مساعد Catalist » وعند هذا الحد أصرت مصر على أن تفصح الولايات المتحدة عن نواياها وتحدد موقفها .

ومرة رابعة جمدت أمريكا الموقف . وبل أكثر من هذا ، فقد أعلنت فى أول يناير ١٩٧٢ ، على لسان روجرز — أنها سوف تمد إسرائيل بمزيد من الطائرات الفانتوم ، وأن الاتفاق قد تم بينهما فى نوفمبر ١٩٧١ على تصنيع الأسلحة الأمريكية الحديثة داخل إسرائيل .

وأصبح من الجلى عند هذا الحد أن الولايات المتحدة كانت تستهدف زرع اليأس فى نفوس العرب ، ليقبلوا فى النهاية نوع الحل الذى تراه مناسباً من وجهة النظر الإسرائيلية . وقد بدأ هذا الاتجاه نحو ابتزاز الرضا جلياً حينما أعلن روجرز فى مطار الكويت ، « أنه ما من سبيل لتسويه مشكلة الشرق الأوسط سوى المفاوضات المباشرة مع إسرائيل ،وأنه إذا كان العرب يطمعون فى الوصول إلىحل فليجلسوا مع إسرائيل مباشرة لتسوية الموقف » .

وفي آخر جولة للاتصالات ، زار مستشار رئيس الجمهورية لشئون الأمن

القومى واشنطون فى فبراير ١٩٧٣ ، وتقابل مع الرئيس نيكسون ومستر روجرز والدكتور كيسنجر ، ضمن برنامج النشاط الدبلوماسى المكثف الذى بدأته مصر فى أوائل العام المذكور. وفى هذه المرة أيضاً كان واضحاً أن أمريكا مازالت مصرة على أن تقدم مصر تنازلات من جانبها للوصول إلى حل مرحلى أو جزئى . بمعنى أنه كان على مصر أن تقدم تنازلات لمجرد الوصول إلى تحريك القضية . وكان رد مصر قاطعاً بالرفض .

وحينما اجتمع الدكتور محمد حسن الزيات وزير الخارجية مع الدكتور كيسنجر يوم ٤ أكتوبر ١٩٧٣ فى نيويورك ، أى فى اليوم السابق على الحرب ، كان قرار الحرب قد اتخذ فعلا ، وربما كان اللقاء جزءاً من عملية التمويه الكبرى التى وضعت خططها بكل حذق وعناية ، وجاءت نتائجها محققة للغاية .

رابعا : الاتحاد السوفيتى :

إن تطور العلاقات بين مصر والاتحاد السوفيتى أمر على أكبر درجة من الأهمية ، وذلك بسبب الدور السياسى الهام الذى أداه الاتحاد السوفيتى خلال المراحل المختلفة للصراع القائم بين العرب وإسرائيل، وبسب موقف الاتحادالسوفيتى إلى جانب مصر سياسياً وعسكرياً وبسبب استجابة الاتحاد السوفيتى الفورية فى عملية إنقاذ وإعادة بناء للقوات المسلحة المصرية إثر هزيمة ١٩٦٧ . ويقول الرئيس السادات فى هذا الصدد :

« اللى قدمه الاتحاد السوفيتى لنا مش هين أبدا . واللى ينكره يبقى بينكر حقيقة وبينكر جميل . السلاح اللى قدمه لنا خاصة فى الأيام المظلمة السوداء سنة ١٩٦٧ ، أيام ما كانت الطيارات والبواخر عاملة كوبرى جوى بتنقل فيه،وكوبرى بحرى لنجدتنا علشان نقف على رجلينا . وكلنا نعرف إن ٨٠ ٪ من سلاحنا فقدناه فى المعركة » [١] .

---

(١) الرئيس أنور السادات : خطاب بمناسبة عيد الثورة فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٧٣ ، (هيئة الاستعلامات ، ص ٥٨) .

ومع ذلك،فإن العلاقات بين البلدين قد صادفها موجات من المد والجذر خلال سنوات ما بعد ١٩٦٧ . وكانت أول زيارة للرئيس السادات للاتحاد السوفيتي في يومي ١ ،٢ مارس ١٩٧١ ، واجتمع خلالها بالقادة السوفيت الثلاثة للتشاور في الأمور التي تهم البلدين . ولم تلتق وجهات النظر تماما خلال الاجتماعات ، وذلك بسبب اختلاف تقديرات كل من الجانبين لأهمية المسائل المعروضة وأولوياتها . فما كان منها مهما بالدرجة الأولى في نظر مصر ، لم يكن بالضرورة كذلك في نظر الاتحاد السوفيتي باعتباره دولة عظمى لها ترتيب أولويات مختلف .

وفي أعقاب حركة التصحيح — ١٥ مايو ١٩٧١ — ظللت الشكوك سماء العلاقات بين البلدين . فحضر إلى مصر الرئيس بودجورني للاجتماع بالرئيس أنور السادات . وأمكن تنقية الجو إلى حد ما . وتم عقد معاهدة الصداقة المصرية السوفيتية . وكان المفروض أن تكون هذه المعاهدة بادرة طيبة لتعزيز العلاقات بين البلدين ، وهو ما لم يحدث . فقد ظلت العلاقات شبه مجمدة بين الدولتين حتى سبتمبر ١٩٧١ .

وفي أكتوبر ١٩٧١ ، زار الرئيس السادات الاتحاد السوفيتي مرة ثانية . وتم عقد اتفاق بين الدولتين ، على أن ينفذ قبل نهاية ١٩٧١ . ولكن الاتحاد السوفيتي لم يلتزم بتنفيذ الاتفاق في موعده . فطالب الرئيس السادات في ١١ ديسمبر الاجتماع بالقادة السوفيت للتفاهم بشأن تنفيذ الاتفاق في موعده . ذلك أن مصر كانت قد رتبت أمورها على هذا الأساس ، وكان الرئيس السادات قد أعلن أن عام ١٩٧١ هو « **عام الحسم** ».

وقد طلب الاتحاد السوفيتي أن تكون زيارة الرئيس يومي ١، ٢ فبراير ١٩٧٢ أي بعد انتهاء عام الحسم ، وتمت الزيارة فعلا خلال شهر فبراير . ثم تكررت مرة ثانية في أبريل ١٩٧٢ ، قبل اجتماع القادة السوفيت بالرئيس نيكسون في مايو ١٩٧٢ . وفي هذا اللقاء الأخير — فبراير ١٩٧٢ — حدد الرئيس السادات موقف

مصر واضحاً من مشكلة الشرق الأوسط . حتى يؤخذ هذا الموقف فى الاعتبار عند زيارة الرئيس الأمريكى .

ويمكن تلخيص وجهة نظر مصر التى عرضها الرئيس السادات فى الآتى :

١ — مصر لا تقبل بمجال الحد من الأسلحة فى المنطقة .

٢ — مصر ترفض استمرار حالة اللاحرب واللاسلم .

٣ — ليس لدى مصر أى استعداد للتنازل عن أى جزء من الأرض العربية.

وفى حديث للرئيس السادات مع القادة السوفيت أوضح بجلاء أن الولايات المتحدة تساند إسرائيل مساندة عملية إلى أبعد الحدود . فهى لا تكتفى بمنح إسرائيل ما تطلبه ، وإنما تغدق عليها وتقدم لها أكثر مما تطلبه . وعلى الرغم من اختلاف طبيعه العلاقات بين أمريكا وإسرائيل ، حيث أن الأخيرة عميلة للأولى ، فقد طلب الرئيس من الاتحاد السوفيتى ألا يبالغوا فى الحذر فى تعاملهم مع مصر ، ذلك أن شدة الحذر لن تساعد على حل المشكلة بل وقد تزيدها تعقيدا .

وفى كل من الاجتماعات الثلاثة التى اجتمع فيها الرئيس السادات بالقادة السوفيت كان واضحاً ومحدداً فى نقطتين :

النقطة الأولى : ان مصر لاتريد ان يحارب احد من اجلها ، ولا تقبل ذلك. ان كل ماتريده هو السلاح فقط .

النقطة الثانية : ان مصر لا تريد بحال وقوع مواجهة بين الاتحاد السوفيتى وبين الولايات المتحدة .

ومع ذلك فإن الاجتماع الأخير — أبريل ١٩٧٢ — لم يحقق أيضاً النتائج التى كانت مصر تؤملها فيه. وكان لابد وقد بلغت الأمور هذا الحد من إعادة النظر

فى تقييم الموقف . .وكان خروج الخبراء السوفيت من مصر .واتخذت مصر ما أسمته وقتئذ : « **وقفة موضوعية من الصديق** » . وازدادت العلاقات توتراً ، وأخذت الاتصالات بين البلدين تتجمد منذ يوليو ١٩٧٢ .

لقد ترددت تفسيرات عديدة لأسباب خروج الخبراء السوفيت . فهناك من يرون أن هذا الخروج قد تم بناء على طلب الرئيس السادات . وآخرون يرون أن هذا الإجراء كان يشكل جانباً من السياسة السوفيتية الجديدة . والتى تستهدف التعاون والتقارب مع الولايات المتحدة . وفريق ثالث يرى أن خروج الروس كان جزءاً من مخطط ذكى للتمويه، يستهدف حمل إسرائيل على ترك الحذر واليقظه بينما كانت الأمور تدبر لها فى الخفاء ...وإذا كان الاحتمال الأخير صحيحاً فلا شك أنه قد نجح فى تحقيق هدفه كما أثبتت حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

وأيا كان السبب وراء الخروج ، فليس هناك شك فى انه كان نقطه تحول هامة بالنسبة للجيش المصرى . فمن بعد السوفيت أخذ الجيش يعتمد كلية على نفسه . وامتلأ القادة احساسا بالثقة والمسئولية . وتحدد دورهم فى وضع الاستراتيجية والخطط وفى التدريب الراقى وتقييم الاداء .

وفى ١٥ أكتوبر ١٩٧٢ ، أعلن الرئيس السادات أن مصر تقدر تقديراً عالياً قيمة الصداقة العربية السوفيتية ،ولم تقصر فى الحرص عليها باعتبارها صداقة استراتيجية بالنسبة لمصر ، وأن مصر قد اضطرت مكرهه للوقفة التى وقفتها من الاتحاد السوفيتى . ومع ذلك فإن مصر قد بذلت وسوف تبذل كل جهد لتجاوز هذا الظرف الطارىء . وفى اليوم التالى — ١٦ أكتوبر — سافر رئيس الوزراء الدكتور عزيز صدقى — إلى موسكو على رأس وفد فى مهمة عاجلة .

حتى كان فبراير ١٩٧٣ . فبدأت الأمور تأخذ إتجاهاً جديداً يدعو للتفاؤل وبدأ تحرك العلاقات الراكدة بزيارة السيد حافظ اسماعيل مستشار رئيس الجمهورية لشئون الأمن القومى للاتحاد السوفيتى . وأعقب ذلك زيارة للفريق أول أحمد

اسماعيل وزير الحربية . وقدأسهمت هاتان الزيارتان فى تهيئة مناخ أفضل للعلاقات المصرية السوفيتية التى بدأت منذ ذلك التاريخ تعود تدريجياً إلى وضعها الطبيعى .

خامسا : أوربا وآسيا :

بدأت مصر فى عام ١٩٧٣ ، حملة واسعة من النشاط السياسى المكثف استهدفت إطلاع العالم على تطورات الموقف والجهود التى بذلتها فى سبيل الوصول إلى حل سلمى للمشكلة . وذهبت وفود مصرية إلى معظم الدول الأوربية — شرقية وغربية — ومن أهم هذه الاتصالات زيارة السيد حافظ إسماعيل للندن — عقب إجتماعه بالقادة السوفيت — ومقابلته رئيس وزراء انجلترا ووزير الخارجية . وقد أكدت إنجلترا موقفها الذى اتخذته من قبل على لسان وزير خارجيتها . وأعربوا عن التزامهم بالموقف الذى اتخذوه فى هاروجيت بالنسبة لقرار مجلس الأمن وبالنسبة للمشكلة .

واتجه المهندس سيد مرعى إلى دول الكتلة الشرقية فى جولة استغرقت ٢٠ يوما لنفس الغرض. كذلك سافر الدكتور محمد حسن الزيات إلى آسيا بادئا بزيارة الصين ثم الهند وباكستان وايران وبنجلاديش .

لقد عبر الرئيس السادات عن الهدف من النشاط السياسى المكثف بقوله :

« إحنا عاوزين نطلع العالم كله على ما وصلت إليه المعركة والمرحلة اللى إحنا فيها النهارده . وكيف أن الوضع أصبح متفجراً ، وقابلا للانفجار فى أى لحظة من اللحظات . . .ويمكن ده كان نص الرسائل اللى أنا وجهتها للخمسة الكبار» .

وكان الرئيس السادات يشير بذلك إلى الرسائل التى وجهها إلى كل من روسيا والولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا والصين . تلك الرسائل التى لقيت تفهما تاما لموقف مصر ، وتأييداً كاملا من هذه الدول باستثناء الولايات المتحدة ، ذلك التأييد الذى برز فى أوضح صوره إثر حرب أكتوبر ١٩٦٧ ، سواء فى قرارات دول غرب أوربا منفردة ، أو دول السوق الأوربية المشتركة مجتمعة .

سادسا : أفريقيا :

إن ما حققته منظمة الوحدة الأفريقية من إنجازات خلال الفترة القصيرة التى انقضت منذ قيامها ، قد أثبتت أن تضافر الجهود الأفريقية فى كثير من القضايا قد حقق نتائج إيجابية وملموسة للمصالح الأفريقية المشترك .

فبفضل العمل الأفريقى المشترك ، تمكنت أفريقيا من النجاح فى تصفية الاستعمار ومحاربة التمييز العنصرى ، ودعم ومساندة حركات التحرير والعمل على توحيدها . كما نجحت المنظمة فى تصفية جو العلاقات بين الدول الأفريقية ودحر المحاولات التى قامت بها القوى الإمبريالية لبسط النفوذ والتسلل إلى دول القارة والتدخل فى شئونها الداخلية .

وعن طريق منظمة الوحدة الأفريقيـة استطاعت مصر والدول العربية الأفريقية أن تضع أمام دول أفريقيا صورة كاملة لجذور الصراع بينها وبين الصهيونية العالمية متجسدة فى إسرائيل. كما استطاعت أن تبرز جوانب الحق العربى الواضح فى القضية . وكان من نتائج هذه الجهود أن المنظمة فى اجتماعاتها فى صورة مؤتمرات قمة فى أعوام ١٩٧١ ، ١٩٧٢ ، ١٩٧٣ ، قد اتخذت قرارات إجماعية لمؤازرة مصر ومساندتها فى إزاله آثار العدوان وتحرير أرضها المحتلة .

أما على مستوى الدول الأفريقية منفردة ، فقد كان لإسرائيل منذ نشأتها علاقات وثيقة معها جميعا ، فيما عدا الدول العربيه الأفريقية بالطبع ، وكل من الصومال وموريتانيا اللتان رفضتا الاعتراف بإسرائيل منذ استقلالها .

وبعد عدوان ١٩٦٧ ، قطع الرئيس أحمد سيكوتورى رئيس جمهورية غينيا علاقات بلاده بإسرائيل تأييداً للعرب «فى صراعهم ضد الصهيونية والإمبريالية».

وخلال ما يزيد على ست سنوات من الدبلوماسية العربية قطعت ثمانى دول أفريقية أخرى علاقاتها مع إسرائيل . وفى مقدمتها جمهورية أوغندا برياسة عيدى أمين سنة ١٩٧١ ، وجمهورية تشاد برياسة فرانسوا تومبالباى سنة ١٩٧٢ ، والكنغو الشعبية برياسة ميشيل ماريان نجواى سنة ١٩٧٢ ، والنيجر ومالى وبوروندى سنة ١٩٧٣ . ، وقبل اندلاع حرب أكتوبر بأيام قطعت توجو علاقاتها بإسرائيل .

وعشية اندلاع الحرب ،أعلن الرئيس موبوتو قطع علاقات زائيرى بإسرائيل فى خطاب ألقاه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة . وأعلن أن العلاقات لن تعود إلا بعد عودة أراضى مصر والدولة العربية التى تحتلها إسرائيل . وقد أثار هذا الإجراء إسرائيل إلى أبعد مدى . وصرح أبا إيبان بأن الخطوة التى اتخذتها زائيرى سوف تزيد من تشدد العرب،وستلحق ضررا بالغاً بإمكانية تسوية النزاع فى الشرق الأوسط . ومما زاد من غضب إسرائيل أن الجنرال موبوتو قد تدرب فى إسرائيل بوصفه من رجال المظلات ، وأن إسرائيل قدمت برنامجاً ضخماً من المساعدات لزائيرى .

وقد وضح التضامن الأفريقى مع العرب إلى أبعد مدى إثر قيام الحرب الأخيرة وهو ما سنعرض له فى القسم الأخير من هذا الكتاب .

والفضل فى هذا يرجع لحد كبير إلى الدبلوماسية العربية فى نهجها الجديد الذى لا يتهدد النظم أو يشجع على قلبها ، وإنما يتطلع إلى الوحدة فى ظل النظم المختلفة التى تعتنقها كل دولة ، دون التدخل فى الشئون الداخلية لها . كما يرجع أيضاً إلى المساعدات التى قدمتها مصر لبعض الدول التى تهددتها الفتن والقلاقل التى آثارها الاستعمار ،كما حدث فى نيجيريا . ويرجع أخيراً إلى اهتمام مصر بقضايا التفرقة العنصرية ومحاربة هذا التفرقة على أرض القارة الأفريقية .

محاولات أخيرة :

فى مايو سنة ١٩٧٣ ، ألقى الرئيس السادات خطاباً فى مؤتمر منظمة الوحدة الأفريقية أوضح فيه بصراحة موقف مصر من الاحتلال الإسرائيلى ، وهو الخطاب الذى وصفته المصادر العالمية بقولها : « كان وقع خطاب الرئيس السادات أمام المؤتمر مدويا » . وخلال جلسات المؤتمر أعرب رؤساء الدول الأفريقية عن تضامنهم مع العرب فى قضيتهم العادلة . وصدر القرار بالإجماع ليدين الاحتلال الإسرائيلى . وفى أعقاب هذا المؤتمر سافر إلى نيويورك وزراء خارجية كل من نيجيريا ، والجزائر ، وتنزانيا ، وتشاد ، وغينيا ، للمشاركة فى مناقشات مجلس الأمن حول قضية الشرق الأوسط .

وفى ٢١ يولية قدمت الدول الثمانية التى تمثل مجموعة دول عدم الانحياز فى مجلس الأمن ورقة عمل تضمنت مبادىء معينة بالنسبة لأزمة الشرق الأوسط ، جاء فيها :

— عدم جواز حيازة الأرض عن طريق الحرب .

— تأكيد الحقوق الشرعية لشعب فلسطين .

— عدم جواز إجراء أى تعديلات خاصة بالسكان .

— الحفاظ على وحدة أراضى جميع الدول .

— عدم مساندة المعتدى اقتصاديا أو عسكريا .

وكان استعمال أمريكا حقها فى الفيتو لإحباط جهود دول عدم الانحياز بخصوص مشكلة الشرق الأوسط مثار استياء عام .

وفى ٣٠ يوليو أرسل الرئيس السادات رسائل خاصة لرؤساء الدول الأعضاء فى مجلس الأمن — عدا أمريكا — عبر فيها عن وجهة نظر مصر فى مواقف

الدول الأعضاء أثناء المناقشة الأخيرة للموقف فى الشرق الأوسط ، وللعدوان الإسرائيلى المستمر وإحتلال الأراضى العربية .

كما أرسل إلى رؤساء الدول العربية خطابات أكد فيها أن موقف أمريكا ، من المشكلة يقتضى توحيد الجهود العربية للتصدى للمؤامرات الصهيونية الاستعمارية .

ثم عقد مؤتمر الدول غير المنحازة فى الجزائر فى المدة من ٥ — ١٠ سبتمبر سنة ١٩٧٣ ، وأشتركت فيه ٧٨ دولة من أربعة قارات ، يمثلون ٢٠٠٠ مليونا من البشر . وقد تأكد خلال المؤتمر أن سياسة عدم الانحياز لم تفقد أهميتها فى ظل سياسة الوفاق الدولى . وكان تأييد دول عدم الانحياز لقضية العرب واضحاً صريحاً . بل أن الرئيس تيتو قد ذهب فى كلمته إلى حد المطالبة بتوقيع الجزاءات على إسرائيل . وقد حضر الرئيس السادات هذا المؤتمر وأجرى خلاله اتصالات ومحادثات مع ٣٩ من رؤساء الدول المشتركة فيه . وعقدت كذلك اجتماعات مكثفة بين الرئيس السادات والرؤساء العرب تم خلالها الاتفاق على خط عربى موحد تجاه المعركة . وصرح الرئيس أثر ذلك بقوله : « لقد استطعنا أن نحشد للعمل العربى قدراً كبيراً من الإمكانات المادية والعسكرية » .

وخلال المؤتمر عقد وزراء الخارجية العرب اجتماعا مغلقا وضعوا فيه خطة متكاملة متسقة لمناقشة أزمة الشرق الأوسط . وصدرت قرارات المؤتمر تؤكد :

— مساعدة مصر وسوريا والأردن على تحرير أراضيها بكل الوسائل .

— التأييد الكامل لنضال شعب فلسطين لاستعادة حقوقه .

— مطالبة أمريكا بوقف تزويد إسرائيل بالأسلحة والمعونات .

— اتخاذ إجراءات ضد إسرائيل إذا لم تمتثل للنظام الدولى .

وأعلن المؤتمر :

— أن الأزمة تمر بمنعطف خطير وموقف مصر لم ولن يتغير .

— وأن مشـكلة الأمم المتحدة هي أن قراراتها لا تنفذ .

وفى ١٠ سبتمبر عقد فى القاهرة اجتماع قمة بين الرئيس السادات والأسد والملك حسين ، تم فيه تقييم الموقف العام فى العالم العربى ، وإمكانات العمل العربى المشترك، ودور دول المواجهة والتنسيق بينها. كما تمت دراسة وسائل تنسيق الجهود بالجبهة الشرقية .

وعندما انعقدت الدورة ٢٨ للجمعية العامة للأمم المتحدة أجمت الآراء على أنها « دورة الشرق الأوسط » . وكانت تؤكـد أن هذه الدورة سوف تـكون بمثابة اختبار لسياسة الوفاق « الذى لا يزال هشاً » ، وأن مشكلة الشرق الأوسط تقترب بالموقف من درجة الانفجار .

وطالب جروميكو فى خطابه أمام الجمعية العامة حينئذ بانسحاب القوات الإسرائيلية ، وأعلن أن الدول العربية لها الحق فى استعادة ما أخذ منها بالقوة .

وعقد كيسنجر مقابلات مع وفود الدول العربية فى نيويورك أملا فى التوصل إلى حل سلمى . . ويوم ٦ أكتوبر ـ يوم نشوب القتال ، كانت الصحف تحمل صورة كيسنجر وهو يستقبل الدكتور محمد حسن الزيات وزير خارجية مصر حينئذ .

* * *

وكما شملت التحركات الدولية التى استهدفت تمهيد المسرح العالمى لحركة تحرير دول العالم المختلفة ، فإنها شملت أيضاً القطاعات والفئات الهامة والأساسية التى لها ارتباط مباشر بالقضية . وكان طبيعيا أن تـكون أول هذه القطاعات المنظمات الفلسطينية التى عقدت عدداً من الاجتماعات ، وقامت بعديد من التحركات والتقى قادتها بالقادة العرب .

وكان الموقف من الفدائيين أحد الموضوعات الهامة فى مباحثات مؤتمر القمة لدول المواجهة . ولم تظهر هذه الحقيقة إلا فى أواخر سبتمبر (١٩ سبتمبر) ،

عندما عفى الملك حسين عدد من الفدائيين المعتقلين فى سجون الأردن وفى مقدمتهم أبو داود .

* * *

وهكذا كانت الأرض تمهد والتنسيق يتم بين كل الأطراف التى لها صلة بالقضية وكان كل ذلك من أجل المعركة .

وكان منطقياً بعد كل هذا أن يصرح الفريق محمد عبد الغنى الجمسى رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة المصرية ، بقوله :

« لقد دخلنا المعركة فى ظل أفضل ظروف دولية هيأت للعمل العسكرى المصرى مناخاً عالمياً مواتياً »[١] .

* * *

(١) من حديث مع المؤلفين ، ٢٨ فبراير ١٩٧٤ .

الفصل الرابع

إعادة بناء القوات المسلحة

« إن القوات المسلحة كانت من ضحايا نكسة ١٩٦٧ ، ولم تكن أبداً من أسبابها » .

السادات

يرى بعض الخبراء العسكريين أن القوات المسلحة المصرية قد حققت منذ حرب يونيو ١٩٦٧ ، حتى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، هدفين استراتيجيين :

الأول : إعادة بناء القوات المسلحة .

الثانى : الانتصار الذى سجلته فى ٦ أكتوبر .

وحتى يمكن أن نناقش إعادة بناء وتنظيم القوات المسلحة فى هذا الفصل ، نقول إن التنظيم العسكرى هو أقدم أنواع المنظمات الضخمة التى ظهرت فى التاريخ . وهو الأساس الذى سارت على هديه باقى التنظيمات الأخرى . فمنذ وجدت الدولة كان تنظيم الجيش ضرورة بقاء واستمرار لها ولسلطانها . ولكى يكون التنظيم العسكرى صالحاً للعمل ينبغى أن يكون الأفراد فى المواقع المختلفة بالتنظيم ، وبصفة خاصة عند مراكز الإشراف واتخاذ القرارات ، أكفاء وقادرين على العمل من خلال قنوات اتصال واضحة وصالحة للعمل وفعالة .

وحال التنظيم العسكرى هنا أشبه بحال الدرجة التى لا تتكون فقط من العجلات والإطارات والمحور والقابض والفرامل ، وإنما أيضاً من نوع معين من الاتصال والترابط والتنسيق « الميكانيزم » بين هذه الأجزاء . فإذا ما فصلت عن بعضها البعض لما كانت هناك دراجة ، وإنما أجزاء متفرقة من دراجة . وينطبق هذا المثل على الأفراد الذين يكونون القوات المسلحة كتنظيم . فهم فرادى يرمزن إلى المادة الخام التى تشكل كيان القوات المسلحة . ولكن ما لم تقم العلاقة والارتباط بينهم لا يكون هناك تنظيم أو ما يمت إلى التنظيم بصلة .

وكان هذا هو الموقف تماماً عندما وقعت هزيمة ١٩٦٧ . لقد كانت القوات المسلحة فى حالة ضياع وتشتت بعد أن أصبحت فلولا غير مترابطة . وكانت القيادة عاجزة كلية عن السيطرة ومواجهة الموقف . وانحصر كل تفكيرها فى محاولة تدبير خطة دفاع عن العاصمة .

وكانت القوات الضخمة مستمرة فى الانسحاب من سيناء بدون خطة وبدون نظام ، ومرحلة الانسحاب عادة من أحرج وأضعف الفترات فى حياة أى جيش .

وعاد الضباط والجنود من الجبهة وهم أجساد منهكة ، وعيون زائغة ، ومعنويات محطمة .

لقد ضاعت منهم فرصة الحرب ولم يكونوا مسئولين عن ذلك ، وتكدست مئات المركبات فى كل مكان ، وكان من الصعب وضع نهاية حاسمة وفورية لهذا الحال . فالأفراد يصلون تباعاً من الجبهة إلى غير وجهة محددة ، وبدون نظام ، وفى أى وقت .

إن تنظيم القوات المسلحة — شأن أى تنظيم آخر — يأخذ الشكل الهرمى . وفى داخله مستويات رياسية متدرجة ، وشبكة اتصالات ممتدة من القمة إلى

جميع الأجزاء ، بما يحقق السيطرة وتدفق المعلومات واستمرار الحياة فى التنظيم . وهذا الشكل الهرمى فيه ضمان لوحدة السلطة ، ووحدة الأمر ، وتسلسل القيادة ، وتدرج مستويات السلطة والمسئولية . وكان واضحا تماماً فى أعقاب الهزيمة أن هرم البناء التنظيمى للقوات المسلحة المصرية قد تبعثر .

كان على مصر أن تبدأ مرة ثانية على عجل وفى لهفة شديدة ، تسابق الزمن والتاريخ لتعيد بناء بيت النمل الذى تحطم عن آخره . وكانت فلسفة العمل وقتئذ . . . « **محاولة انقاذ ما يمكن انقاذه** » . . . من أجل البناء من جديد وإعادة التنظيم .

وهنا يجب أن نسترعى الانتباه إلى عدد من الخواص التى يتميز بها التنظيم العسكرى . هذه الخواص التى قد تصبح ميزات فى وقت من الأوقات ، كانت بمثابة مشكلات تواجه عملية البناء وإعادة التنظيم .[(١)]

١ — أن الهدف فى التنظيم العسكرى ليس هدفاً كمياً محدداً كما فى منظمات الإنتاج والخدمات . بل إن الهدف فى التنظيم العسكرى يتطلب معرفة عدو موقفه غير ثابت ، والتغلب عليه وقهره يتطلب ضرورة مداومة الدراسة والتطور والتطوير والمواءمة المستمرة مع كل ما يطرأ من متغيرات وعوامل وظروف .

٢ — أن عنصر الزمن حاسم جداً. فالمعركة قد يفرضها العدو فى أى وقت . والتنظيم العسكرى الممتاز قد يقهره التوقيت غير المناسب لمهمته .

٣ — يقوم التنظيم العسكرى على أكتاف الأفراد المقاتلين ، وهؤلاء يمثلون عنصراً غير مستديم . فهم على عكس العاملين بالتنظيمات الأخرى يسرحون ويستبدلون بآخرين من وقت لآخر . ولذلك فإن استمرار عمليات الإعداد والتدريب والتأهيل يصبح بمثابة حجر الزاوية فى بناء التنظيم العسكرى .

---

(١) اللواء عمر جوهر : من حديث مع المؤلفين ، يوم ١٩٧٣/٢/٢٧

٤ — تعتمد كفاية التنظيم العسكرى إلى حد كبير على قوة وتطور الأسلحة التي يستخدمها . والتسليح عنصر غير ثابت ، وسريع التطور ، ونفقاته باهظة .

٥ — يقوم التنظيم العسكرى أساساً وفق النمط التنظيمى الرئاسى المسمى "Line Organization" . وبالرغم من وجود وحدات استشارية عند المستويات العليا بالتنظيم بما يجعله تنظيما رئاسيا استشاريا "Line and staff Organization" ، إلا أن خطوط السلطة تنساب من القمة إلى القاعدة فى تحديد واضح وقوة واختصار وسرعة ، ضمانا لفورية انتقال الأوامر والقرارات والمعلومات هبوطا وصعوداً . مما قد يحد من المشورة والاتجاهات الديموقراطية فى القيادة .

٦ — يرتبط التنظيم العسكرى إلى حد كبير بالجانب الاجتماعى والحضارى بالمجتمع ويتأثر بهما ما دمنا نستمد أفراده مباشرة من البيئة . كما يتأثر بإمكانات الدولة المتاحة وبجهودها فى مجالات التنمية وخاصة فى قطاعات الإنتاج وخدمات التعليم والصحة .

وفى ضوء هذه الاعتبارات كان على القوات المسلحة المصرية أن تعيد البناء والتنظيم فى أعقاب حرب ١٩٦٧ ، ومع بداية مرحلة الصمود . وكانت أهداف هذه المرحلة تتضمن :

١ — الاستمرار فى الدفاع عن الوطن .

٢ — إعادة بناء وتنظيم القوات المسلحة .

٣ — التسليح الفورى .

٤ — إعادة الانضباط والمسلك النظامى للأفراد .

٥ — العمل على استعادة ثقة القوات فى نفسها .

أبعاد عملية البناء

إن معركة ٦ أكتوبر لم تبدأ فى هذا التاريخ . ومن الإجحاف بل من الخطأ أن نتوقع أن ما حدث فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، قد بدأ فى الساعة الثانية مساء ذلك اليوم المجيد . إن المعركة بدأت إثر هزيمة ٥ يونية ١٩٦٧. فقد كانت ضراوة أحداث ١٩٦٧ فى واقعها قوى محركة ضخمة لتخطى آلام تلك المحنة . وكانت السنوات الست التى مضت جسراً بين الهزيمة والنصر . وفى الواقع أن ما حدث عام ١٩٦٧ لم يكن هزيمة جيش فى حرب بقدر ما كان هزيمة للقيادة التى وضعت بين يديها مقدرات هذا الجيش .[١]

ويتصور الكثيرون أن عملية إعادة البناء قد بدأت بعد إنتهاء المعركة . ولكن الحقيقة التى قدلا يعرفها أغلب الناس أنها بدأت يوم ٨ يونيو ١٩٦٧ [٢]، وكانت الحرب ما زالت دائرة فوق رمال سيناء . ففى ذلك اليوم قامت لجنة برئاسة رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية وقتئذ — الفريق أول محمد فوزى ـ تدرس وتخطط لإعادة بناء القوات المسلحة . ثم تبع ذلك تغيير القيادة العليا للقوات المسلحة ، وتعيين الفريق أول فوزى قائدا عاماً . ومن هنا كانت نقطة البداية .

لقد كان أمام القائد العام مهمتان :

الأولى : الدفاع عن مصر بما بقى من القوات صالحا لهذه المهمة .

الثانية : إعادة بناء القوات المسلحة على النحو الذى تتمكن به بعد ذلك من إعادة تحرير الأرض المحتلة .

---

(١) اللواء سعد مأمون : محاضرة بالاتحاد الاشتراكى العربى ، ١٩٧٣/١١/٢٦

(٢) أنظر اللواء أحمد زكى عبد الحميد : « ٥ يونيو بعد عامين »، جريدة القوات المسلحة ، السنة الأولى العدد الأول ، ١٠ يونيو سنة ١٩٦٩) .

أولا : تمويل إعادة البناء :

كانت القوات المسلحة بعد حرب ١٩٦٧ الخاطفة قد فقدت ٨٠ ٪ مما كان لديها من سلاح وعتاد حربى . وكانت مصر تعانى أشد المعاناة ، لا من الناحية العسكرية والمعنوية فحسب ، وإنما أيضاً من النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وكان عليها أن تواجه غطرسة العدو وشماتة الحاقدين ، وإشفاق الأصدقاء ، وخيبة أمل العرب فيها . فقد انكسر السلاح وتشتتت القوات ، وتعطلت قناة السويس ، وضاعت مناجم سيناء ، وتجمدت السياحة ، واهتز المجتمع بأسره هزة عنيفة .

وبدأت الأعباء تتراكم . عبء تمويل القوات المسلحة وإعادة بنائها ، وعبء تعويض الموارد المالية التى ضاعت ، وعبء إغاثة المهجرين وإعاشتهم ، وعبء خطة التنمية القومية الشاملة . وكان التساؤل الذى دار وقتئذ هو « هل نرجىء التنمية ونتسلح بسرعة ، أم نسير فيها ونبطء فى عملية إعادة التسليح » . وفى الواقع أن مجال الاختيار كان محدوداً للغاية . كان التسليح قضية مسلمة ، فالعدو يحتل أرض مصر ، ويعربد فى أجوائها ، وينتهك كرامتها ، والعالم ينظر إليها برثاء ومهانة ، والدول العربية تعانى معها مرارة الهزيمة ، والشعب اختلطت عليه الأمور ، ويتساءل عن جيشه . وكانت التنمية أيضاً قضية ملحة ، لأنها قضية الخروج من دائرة التخلف والجهل والفقر والمرض .

وهكذا سارت التنمية والتسليح جنباً إلى جنب ، وهو اختيار صعب . فقد كان على الدولة أن توفر الاعتمادات الضرورية لكليهما . فزيدت ضريبة الدفاع وبعض الضرائب الأخرى . وقدمت بعض الدول العربية دعماً ماديا للمعركة نتيجة لقرارات مؤتمر الخرطوم . وفى نفس الوقت انكمش الانفاق على الخدمات العامة ، بالقدر الذى يسمح بإعادة البناء العسكرى .

ولعبت الموزانة دوراً هاماً فى تمويل نفقات الحرب والطوارىء ٠ وتم تصميم الميزانية ابتداء من عام ١٩٦٧ — ١٩٦٨ ، على أساس إبراز المعركة فيما يبين نفقات القوات المسلحة ونفقات صندوق الطوارىء

وتحددت موارد واستخدامات صندوق الطوارىء . فبينما ساهمت ضريبة الدفاع والأمن القومى فى تمويل الصندوق ، وساهم الدعم العربى (١٠٨ مليون جنيه سنويا) فى هذا التمويل ، تحددت الاستخدامات فى مجالات مختلفة منها : تعويض الأضرار للمنشآت التى أصابتها الحرب ، ومصروفات التهجير ، ومصروفات الدفاع المدنى والشعبى ، وخطة الطوارىء الطبية .. إلخ .

ويبين الجدول التالى المبالغ التى تحملتها الموازنة العامة للدفاع والأمن القومى فى السنوات الخمسة من ٦٧ / ١٩٦٨ إلى ٧١ / ١٩٧٢[١] .

السنة المالية	حجم الانفاق
٦٧ — ٦٨	٢٧٠ مليون جنيه
٦٨ — ٦٩	٣٧٥ مليون جنيه
٦٩ — ٧٠	٤٧٥ مليون جنيه
٧٠ — ٧١	٥٧٧ مليون جنيه
٧١ — ٧٢	٥ر٦٤٩ مليون جنيه
الإجمـــالى	٥ر٢٣٥٦ مليون جنيه

(١) هذه هى الأرقام ارسمية . ويلاحظ أن الإنفاق الواقعى على القوات المسلحة فى معظم الدول لاتظهر أرقامة الكاملة فى الميزانية ، باعتباره من الأسرار العسكرية .
* مصدر الميزانيه ، بيان وزير الخزانة أمام مجلس الشعب فى ١٢/١/١٩٧١ .

إن إجمالى الإنفاق ـ كما هو مبين بالجدول ـ قد بلغ ٢٣٥٦٫٥ مليون جنيه . وهذه الأرقام بمدلولاتها تعبر بوضوح عن إصرار مصر على إعادة بناء قواتها المسلحة ، وأنها منحت نفقات الدفاع الأولوية ، متخذة لذلك شعاراً يقول : (**لا صوت يعلو فوق صوت المعركة**) . وإذا كانت هذه هى أرقام الإنفاق على القوات المسلحة كما وردت فى الموازنة العامة للدولة . فإن الإنفاق الكلى يفوق هذا الرقم فقد أعلن الرئيس السادات فى خطابه فى ٢٣ يوليو ١٩٧٣ بمناسبة عيد الثورة، أن إجمالى الإنفاق على القوات المسلحة منذ حرب ١٩٦٧، حتى موازنة ١٩٧٣ ، بما فى ذلك اتفاقيات التسليح قد بلغ ٤٢٥٤ مليون جنيه[1] . أى بزيادة قدرها ١٨٩٧٫٥ مليون جنيه عن أرقام الموازنة العامة .

وهكذا يمكن القول بأن الوجود الإسرائيلى فى الشرق الأوسط ، وتفجر الصراع العربى الإسرائيلى منذ قامت تلك الدولة ، لم يكن فقط عبئاً سياسياً وعسكرياً . وإنما كان أيضاً عبئاً اقتصادياً خطيراً ، كانت نتائجه بعيدة المدى من حيث إعاقة تنمية وتقدم مصر ورخائها وحضارتها . فقد كان على مصر بالإضافة إلى الأسلحة والعتاد والذخائر التى ضاعت ، وآلاف المحاربين الذين استشهدوا ، أن تنفق هذه المبالغ الطائلة مما جمعه شعبها بكده وكفاحه وعرقه وشقائه .

ثانياً : تشكيل وتنظيم القيادة العامة :

كان حتماً أن يبدأ العمل بإعادة تنظيم وتشكيل القيادة العامة للقوات المسلحة ، فهى التى سوف يوكل إليها مسئولية معاونة القائد العام فى تنفيذ مهامه . وعلى الرغم من أن أهمية وجود قيادة عامة ذات كفاءة عالية ومقدرة تامة أمر لا يحتاج إلى إيضاح ، إلا أن هذه القيادة للأسف لم تكن قائمة قبل المعركة .

---

(١) خطاب الرئيس أنور السادات ، بمناسبة عيد ثورة ٢٣ يوليو ، (هيئة الاستعلامات ، ٢٣ يوليو ١٩٧٣) ، ص ٣٠ .

لحتى نشوب حرب يونيو ١٩٦٧ ، لم تـكن هناك قيادة عامة نشطة وعاملة للقوات المسلحة المصرية سوى على الورق . وكانت كل أمور القوات المسلحة تتقرر عند المستوى الأعلى بأسلوب فردى ، وليس من خلال هيئة قيادة مختصة ومسئولة. وكانت نقطة البداية الصحيحة أن يتم تشكيل القيادة العامة على النحو الذى يجعلها هيئة عليا مسئولة ، وتتوفر فيها الـكفاءات العسكرية الجديرة بوضع الاستراتيجية والتخطيط واتخاذ القرارات ، والمتصفة بالثقة فى النفس والإنسجـــام ، بحيث لاتحجب عنها قتامة المعركة وضوح الرؤية لما يجب أن يتم ، ولا يزعزع من إيمانها بالوطن وبحتمية النصر أبعاد الهزيمة وغرور العدو .

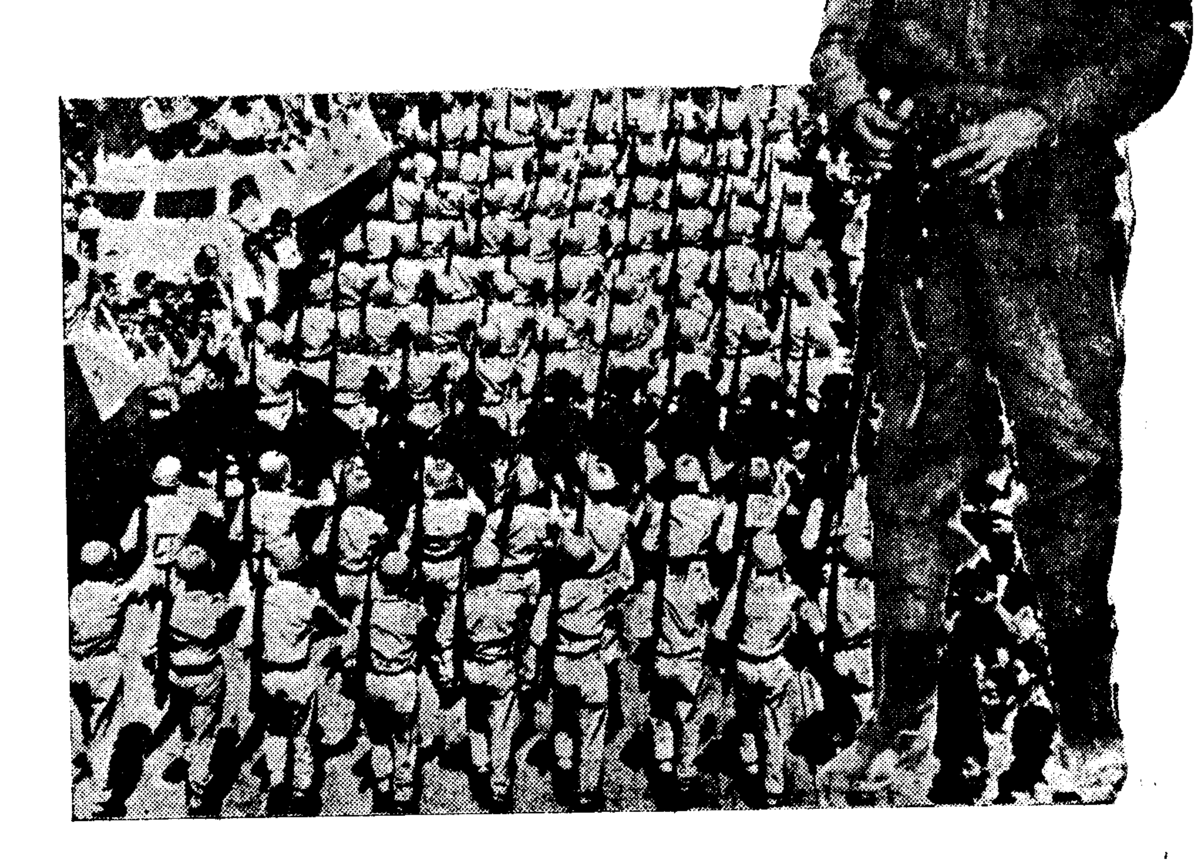
ثم أخيراً كان يجب أن يتوافر فيها شرط الإيمان بأن العلم مستند الإنطلاق الصحيح والوحـيد إلى أى عمل ناجح . وقد أمـكن تحقيق كل ذلك ، وصـدر التشكيل الجديد للقيادة العامة للقوات المسلحة يوم١٢ يونيو ١٩٦٧ . وكان هذا هو أول خطوات البناء .

ولعل أصدق دليل على ذلك أن القيادة قد استطـاعت فى فـترة وجيزة أن تـكتسب ثقة القوات المسلحة واحترامها بالعمل الجـاد والتخطيط السليم . وأن رئيس الأركان العامة لهـا وهو **الشهيد البطل الفريق أول عبد المنعم رياض** قد استشهد فى خط المواجهة الأول مع العدو . حينما كان ينتقل بين مواقع القوات ويتابع ويوجه ويطمئن بنفسه على قواته غير مكتف بما يصدر من تعليمات وأوامر.

وبتوجيه من القائد العام للقوات المسلحة . وتحت شعار « أن ماحدث يجب ألا يتـكرر مرة أخرى » بدأت القيادة العامة تضع خطة مدروسة لإعادة بنـاء القوات المسلحة . وقد بدأت عملها بتحديد أوجه القصور فى القوات التى أظهرتها عمليات يونيو ١٩٦٧ ، ومنها حددت الأهـداف التى يجب أن تحققهـا عملية إعادة البناء لتلافى أوجه القصور المذكورة ، وللارتفاع بمستوى كـفاءة القوات وقدرتها القتالية وتطويرها بما يتناسب مع ظروف المعركة المقبلة . ثم على ضوء ذلك خصصت مهام كل قيادة وجهاز داخل القوات المسلحة .

(معركة إعادة بناء القوات المسلحة)

في يوم ٨ مارس ١٩٦٩، قصفت المدفعية
المصرية خط بارليف بتركيز شديد.
وفي اليوم التالي توجه الفريق عبد المنعم رياض
ليشهد نتائج لهذا القصف. فاستشهد وهو في أقصى
المواقع الأمامية، ضاربا أروع أمثلة البطولة والفداء



فريق أول عبد المنعم محمد رياض
ولد في ٢٢ أكتوبر ١٩١٩، واستشهد في ٩ مارس ١٩٦٩

ثالثا : التغيير الشامل :

كان لابد فى أعقاب الهزيمة من تقييم كامل . وعلى الرغم من أن الظروف وقتئذ لم تكن تسمح بإضاعة وقت كبير فى الدراسة والتخطيط ، فقد دارت عجلة النشاط دورة كاملة فى كل اتجاه، وكانت البحوث والدراسات تجرى ، والخطط توضع ، وبعض العمليات تنفذ ... هذه المراحل الثلاثة كانت تسير فى مرحلة واحدة رغبة فى إنقاذ الموقف ، والوقوف على الأقدام ، وتحقيق الصمود .

وهكذا بدأت عمليات إعادة تنظيم القوات المسلحة وتسليحها وتدريبها بأقصى سرعة ممكنة . لقد عادت القوات من سيناء فى حالة من الفوضى والضياع . وعاد الكثيرون من الأسر، معنوياتهم محطمة ونفوسهم ثائرة، وكانت فترة صعبة وقاسية. فإعادة الترميم والرتق أكثر صعوبة من البدء فى البناء من جديد . وسارت عمليات إعادة التنظيم ،والتسليح ، والتدريب بدفع غير عادى ،وبذلت فيها طاقات جبارة تعبر عن معانى الإرادة والتصميم .

وكان من الواضح بعد أن تم إعداد خطة إعادة بناء القوات المسلحة أن الأمر يستدعى ضرورة تغيير دم وفكر القوات لتواجه عدوها وهى أكثر حيوية ومقدرة . ومن هنا تطلب تنفيذ تلك الخطة اتخاذ إجراءات جذرية حاسمة سواء بالنسبة للقيادات أو الأفراد، أو بالنسبة لما يجب أن يقوم عليه تنظيم القوات المسلحة من العلم والخبرة والكفاءة ، مع وضع أسبقيات للتنفيذ تتمشى مع الإمكانات التى كانت متيسرة وقتئذ مع ظروف العمليات، ومع مايمكن تدبيره من الأسلحة والمعدات أولا بأول . وقد أمكن بالعمل الصادق والجهد المتواصل من كافة أفراد القوات المسلحة أن تتم إعادة البناء خلال ستة أشهر حتى نهاية ديسمبر ١٩٦٧ .

ولقد كان موضوع السيطرة على القوات من أبرز أوجه النقص التى أظهرتها

عمليات يونيو ١٩٦٧، بل ومن أخطرها جميعاً . وبعد دراسة عملية دامت أكثر من أربعة أشهر صدر القانون رقم ٤ لسنة ١٩٦٨ الخاص بالقيادة والسيطرة على شئون الدفاع عن الجمهورية وعلى القوات المسلحة، ليضع علاجا حاسما لهذا الموضوع الحيوى وتعتز القوات المسلحة كل الاعتزاز بهذا القانون وبما صاحبه من دراسات ومناقشات صريحة إلى أبعد حدود الصراحة ، دون الكثير منها فى مذكرته الإيضاحية ، وكان من أهم ما أمكن تحقيقه بصدور ذلك القانون :

١ — إدخال مبدأ القيادة الجماعية فى المستويات العليا المسئولة عن شئون الدفاع عن الوطن وعن قيادة القوات المسلحة وذلك بإعادة تشكيل مجلس الدفاع الوطنى والمجلس الأعلى للقوات المسلحة ، وتحديد اختصاصات محددة جديدة لهما .

٢ — توضيح مسئوليات إعداد الدولة للحرب ، إذ يتوقف على ذلك إلى حد بعيد مقدرة القوات المسلحة .

٣ — توحيد القيادة الإستراتيجية للقوات المسلحة ممثلة فى شخص وزير الحربية باعتباره القائد العام للقوات المسلحة من ناحية ، وتحديد صلاحيات القيادة العامة بما يمكنها من تنفيذ مسئولياتها وواجباتها تجاه القوات المسلحة ككل من ناحية أخرى .

رابعا : التعاون بين الأسلحة :

إن مقدرة القوات المسلحة على تحقيق مهامها خلال المعركة ، تتوقف على قدرتها فى حشد طاقاتها وإمكاناتها فى الاتجاه المطلوب وفى نفس الوقت المحدد . وهذا لا يمكن تحقيقه دون شعور جميع أفرعها الرئيسية ـ البرية والبحرية والجوية ـ بأنها عضو فى جهاز واحد يخضع لقيادة واحدة . ويمكن القول أن ما كان لدينا قبل المعركة هو ثلاث قوات مسلحة برية وبحرية وجوية ، يربطها إسما قيادة عامة واحدة ، وينقصها التعاون والتنسيق فيما بينها مما جعلها قاصرة عن تحقيق أى مهمة كبرى

مشتركة . ولهذا حرص القانون رقم ٤ لسنة ١٩٦٨ السابق الإشارة إليه على وضع حل جذرى حاسم ، ودخلت بذلك القوات المسلحة عصراً جديداً فى مرحلة القيادة والسيطرة .

فكان تغيير الفكر يقتضى بالضرورة تغيير الجو الذى كان يعيشه المجتمع العسكرى قبل المعركة ، والذى كانت الأنظار تتجه فيه إلى اهتمامات جانبية لا تمت بصلة إلى تقاليد القوات المسلحة . ولهذا بذل الجهد فى العمل على الإرتقاء بمستوى الانضباط العسكرى باعتباره الدعامة الرئيسية لخلق الفرد المقاتل ، وباعتباره المناخ الضرورى لقيام المجتمع العسكرى المتماسك ، ولتعويد الأفراد على تحمل مشاق المعركة .

وقد ركز بيان ٣٠ مارس وهو يرفع شعار « كل شىء من أجل المعركة » على أهمية تلاحم الشعب مع القوات المسلحة . ثم جاءت قرارات المؤتمر القومى الأول للاتحاد الاشتراكى العربى ، موصية بأهمية إشراك أفراد الشعب فى تحمل مسئوليات الدفاع عن الوطن ، وفى القيام بالمهام العسكرية خلف خطوط القوات المسلحة . وتنفيذاً لكل ذلك صدر القانون رقم ٥٥ لسنة ١٩٦٨ ، بشأن منظمات الدفاع الشعبى ، ثم القرار الجمهورى رقم ٥٦٢ لسنة ١٩٦٨ بإنشاء قيادة الدفاع الشعبى العسكرى عن الأهداف الحيوية بالجمهورية . وأصبحت بذلك القوات المسلحة ومنظمات الدفاع الشعبى تشترك جنباً إلى جنب فى مسئوليات الدفاع عن الوطن .

خامسا : الفرد المقاتل :

كانت أولى حقائق الموقف أن إعادة البناء السريع أصبح مسألة وجود أو عدم وجود ، وقضية حياة أو موت ، وأنه يجب أن يحسب بحساب الدقائق لا الساعات أو الأيام . وكان الدرس الأول الذى وعته القوات المسلحة المصرية أن السلاح

الجيد لايحارب تلقائياً ، وأن الفرد خلف السلاح هو الأساس ، وهو الذى يتوقف عليه فى النهايه تحضير الخطط وتنفيذها وإمكانية الانتصار .

واتجهت القيادة إلى التخطيط الفورى لإعادة البناء الشامل ، معنويا وماديا . وكانت البداية هى إعادة تحويل القوات المسلحة مرة ثانية إلى هدفها الأصلى . وتحويل الأفراد والقادة إلى محاربين ، والتخلص نهائيا من الاتجـــاهات التى سادت قبل الهزيمة . فالجيش لن يصبح بعد ذلك التاريخ ترفا ولا سفرا للخارج ، ولا وسيلة لغاية ، ولا طرفا فى لعبة السياسة . وفى سبيل ذلك تخلصت القوات المسلحة من القيـــادات التى فشلت فى تجربة الحرب ، وتلك التى التفت حول مراكز القوى .

وجرت عملية جذرية وصارمة لإعادة صك القيم العسكرية والنظامية . فالهزيمة كانت قد فعلت فعلها فى الأفراد ، ففتت الروح المعنوية ، وقهرت النظام ، وأثرت على العلاقات . وبدأت عمليـــة بناء الفرد . وسادت الدعوة إلى العودة لتقاليد الجندية وروح الانضباط التام بدون أدنى تأخير أو تردد . ذلك أنه بالنسبة للقوات المسلحة إما أن يـكون هناك انضباط تام وإما فوضى ، وليس بين هذا وذلك حل وسط .

ونظراً لتطوير التسليح ، واستخدام معدات وأسلحة راقية ومعقدة وباهظة التـكالفة ، كان لابد أن تعالج المشكلات عند منبعها . أى عند مستوى الجندى . فبدأت عملية إعداد الفردالمقاتل .وأخذت القوات المسلحة فى تجنيد حملةالمؤهلات ، ودخلت عناصر الشباب المصرى المثقف كافة الوحدات . وكان لهذا أثره الواضح فى التغيير الجذرى الذى طرأ على هرم القوات المسلحة عند قاعدته . فقـد كان الجندى المتعلم على كفاءة قتالية عالية ، وأكثر تقديراً لقيم الوطنية والـكرامة والدفاع عن الأرض . وأكثر إدراكا لأبعاد الحرب التى يخوضها مـع عـدو

مغتصب غادر ، وأكثر استيعابا لسلاحه ، وأكثر عقلانية ورشداً فى رد فعله لأهوال الحرب .

ولقد كانت القوات المسلحة المصرية عند إعادة تنظيمها مهتمة كل الاهتمام بتقريب المسافة التقليدية التى كانت قائمة بين الضباط والجنود ، عن إقتناع بأن الأمل فى تحقيق وحدة الهدف كان يتطلب أولا وحدة المشاعر والفكر . وبأن تفاعل الضباط مع جنودهم يولد فيهم الرغبة فى طاعتهم والسير خلفهم فى الطريق الذى يقودونهم فيه ، من خلال عمليه تلقائية واختيارية فى تكوينها واستمرارها . وكان هذا يتطلب من الضباط مباشرة المسئوليات التالية .

١ — تحديد الأهداف للجنود بوضوح وتوضيحها ومتابعتها ، بحيث يتيقنوا منها ويؤمنوا بها ، وتنمو فيهم مشاعر الانتماء القوية إليها ، ويتخذوها أهدافاً لهم جميعاً .

٢ — التأثير على الأفراد عن طريق الإقناع ، والقدرة على ضرب المثل الأعلى وتمثل السلوك القدوة ، والرغبة فى تقديم جميع أنواع التضحيات . وتكريس الحياة لمثل الجندية الرفيعة .

٣ — تهيئة بيئة عمل صحية ،ومناخ مناسب لتوطيد العلاقة مع الأفراد من طريق الاهتمام بالجوانب الاجتماعية والإنسانية للجنود . وتوفير كافة أنواع الرعاية الصحية والمعيشية والترفيهية لهم ، والتعامل معهم من خلال نظرة إنسانية فيها تقدير لأهمية الفرد ولآدميته .

وهكذا اتخذت عملية إعادة البناء المعنوى مساراً جديداً يستهدف توثيق الصلات بين الضباط والجنود ، وإقامة علاقات ذات معنى بينهم ، ليس فيها شبهة الترفع أوالتفريط ، بعدأن تبين أن الافتقارإلى مثل هذه العلاقات كان أحد أسباب الانهيار فى حرب ١٩٦٧ . وكانت عملية البناء الجديدة تقوم أساساً على التفاعل السلوكى الصحى بينهم من خلال بذل المزيد من العناية والاهتمام بإشباع الحاجات الاجتماعية والنفسية للجنود ، وتنمية الاتصالات المستمرة بينهم وبين ضباطهم .

وأصبحت الأمور المتصلة بإعاشة الجنود وترفيههم وعلاجهم من أهم مسئوليات قياداتهم من الضباط . وهكذا أخذت علاقات جديدة تنمو ، أساسها التفاعل الحقيقى بين المستويات القيادية والقاعدة ، والإحساس القوى بالإنتماء للقوت المسلحة .

سادسا : تسريح القوات .

كان من أهم العقبات التى كانت تثور فى وجه وضع نظام لتسريح القوات واستدعائها وقت الضرورة ما يأتى : —

١ — إمكانات الدولة المحدودة فى نقل القوات المستدعاة بكفاءة عالية فى حالة التعبئة العامة .

٢ — عدم توفر نظام فعال للاتصال على مستوى الدولة ، مما كان يمكن أن يعرض عملية التعبئة للتأخير .

٣ — نقص الوعى بالأمن القومى لدى بعض الأفراد وأثر هذا على سرية عملية التعبئة العامة .

٤ — الافتقار إلى الإمكانات الكافية لتخزين المهات واللابس . مما كان يمكن أن يشكل عبئاً فى حالة التسريح والاستدعاء .

على أنه على الرغم من هذه الصعاب ، فقد تم استنباط نظام جيد ومتطور للتسريح والتعبئة لم يحن الوقت للحديث عنه . وجرب هذا النظام وأثبت نجاحه . وهكذا بدأت القوات المسلحة تعود إلى حجمها الطبيعى ، وإلى ما يجب أن يتوفر لها من نظام تعبئة صالح وفعال .

سابعا : التسليح :

عندما تولى المشير أحمد اسماعيل وزارة الحربية ومنصب القائد العام للقوات المسلحة المصرية ، كان أحد أهدافه الهامة إعادة بناء ثقة الأفراد فى أنفسهم وفى سلاحهم . ولم تكن هـــذه بالمهمة السهلة فى ظل روح عدم الثقة بالنفس من ناحية ، كما كان تسليح القوات المسلحة الذى اعتمد على مصادر مختلفة تحت

إلحاح الظروف الصعبة التى مرت بها ، قد دعى إلى استخدام كل قطعة سلاح متاحة سواء كانت حديثة أو عتيقة الصنع من ناحية أخرى . وكان لهذا الوضع فى تنوع التسليح مشاكله المتعددة المتصلة بطريقة تشكيل الوحدات ، وتنوع التدريب على الأسلحة المختلفة ، ومتطلبات الصيانة والإصلاح وبحوث التطوير .

وكان سبيل القائد العام إلى استعادة الثقة هو إقناع الأفراد بأن السلاح الذى فى أيديهم يتناسب تماما مع المهام التى سوف يوكل إليهم أمر تحقيقها . ويقول المشير أحمد اسماعيل فى هذا الصدد : « كنت أجتمع بالطيارين ، وأناقشهم كأفراد . . أحدد للطيار المهمة التى سيكلف بها ، وأسأله بصراحة وبساطة عما إذا كان يجد فى نفسه القدرة على تحقيقها . فإذا ما أقنعنى بأنه قادر ، أسأله عن مدى طائرته وخواصها ، ثم أقول له إننى سوف أحدد له هدفا ممادياً فى حدود هذا المدى والإمكانات التى تتوفر للطائرة ، ثم أعاود سؤاله عما إذا كان يمكنه أداء المهمة ، فيقتنع الطيار بأننا لن نكلفه إلا ما وسعه أداؤه ، وأن مهمته سهلة فى حدود قدراته ومستوى اللياقة والتدريب الذى وصل إليه ، وفى حدود إمكانات طائرته . وهكذا كان التفاهم بينى وبين الأفراد أساسه الصراحة والمناقشة والإقناع والإقتناع الكامل »[1] .

ويقول القائد العام أنه كان من المهم جداً خلال الفترة التى سبقت الإعداد للحرب أن يقتنع كل مقاتل بالأمور التالية :

١ — على الفرد أن يستعمل السلاح المتاح لديه . لأن لايوجد جيش فى العالم يستطيع أن يستكمل فى لحظة معينة كل ما يتطلع إليه من عتاد وسلاح .

٢ — مزايا وخواص سلاحه ، وقدرته على تحقيق المهام المحددة لاستخداماته .

٣ — إقناع الفرد بأنه لن يطلب منه أداء مهام ليست فى حدود إمكانات سلاحه .

ويعلق القائد العام : « لقد كانت عملية بناء ثقة الأفراد فى انفسهم ، وفى اسلحتهم ، هى نصف الطريق الى النصر الذى حققوه فى المعركة » .

---

(١) المشير أحمد اسماعيل : من حديث مع المؤلفين ، يوم ١٩٧٤/٢/٢٧ .

مراحل عملية البناء

إن فترة إعادة البناء ، والأحداث والمعارك التي وقعت خلالها تعبر عن دور بطولى حقيقى للقوات المسلحة المصرية التى بدأت تشتبك مع العدو وتصمد لهجماته فى وقت كانت فيه مازالت تستجمع قواها .

ويمكن تقسيم هذه الفترة علمياً منذ بدايتها إلى أربعة مراحل :

المرحلة الأولى : مرحلة الصمود من يونيه ١٩٦٧ إلى أغسطس ١٩٦٨ .

المرحلة الثانية : مرحلة الردع من أغسطس ١٩٦٨ إلى فبراير ١٩٦٩ .

المرحلة الثالثة : مرحلة الاستنزاف من فبراير ١٩٦٩ إلى أغسطس ١٩٧٠ .

المرحلة الرابعة : مرحلة إيقاف إطلاق النـــار من أغسطس ١٩٧٠ إلى أكتوبر ١٩٧٣ — وهى مرحلة الإعداد فى صمت .

المرحلة الأولى : مرحلة الصمود :

كان هدف هذه المرحلة تهيئة جو من الهدوء على الجبهة لإعادة بناء القوات المسلحة بعد الانهيار الكامل الذى أصابها . وخلال تلك الفترة وقف الاتحـاد السوفيتى إلى جانب مصر موقف الصديق المخلص . ودخل السوفيت فى سباق مع الزمن لتزويد مصر بما يعوضها عن الأسلحة التى فقدتها فى الحرب . وبدأ جسر جوى نشط وآخر بحرى يحملان المعدات والأسلحة والذخائر لمصر .

وبالرغم من أن هذه المرحلة استهدفت توفير حالة من السكون والهـدوء على الجبهة ، تهيىء الجو لإعادة البناء بعد الانهيار الكامل . إلا أنهـا مع ذلك لم تكن خلوا من الأعمال الإيجابية الهامة .

ومن أمثلة الأعمال المجيدة التى قامت بها القوات المسلحة خلال هذه الفترة التى كانت دماؤها خلالها ما زالت تنزف معركة رأس العش يوم ١ يوليو ١٩٦٧ . فقد حدثت هذه المعركة قبل مرور شهر على الهزيمة . وكان العدو قد أفاق من نشوة النصر السهل الذى لم يكن يراود خياله ولا أحلام أكثر قادته تفاؤلا . وعندما أفاق اكتشف أنه ترك مدينة بور فؤاد دون الاستيلاء عليها . وقام طابور مدرع من قوات العدو لتحقيق هذه المهمة . واتجه الطابور نحو بور فؤاد . ولم يكن بالمنطقة قوات مصرية سوى فصيلة من الصاعقة ، قوامها ضابطان وثلاثون جندياً . وأمكن لهذه الفصيلة أن تتصدى لقوات العدو المدرعة وتشترك معها فى معركة ضارية ، وتنزل بها خسائر فادحة ، وتصد هجومها عند رأس العش . وحينما انسحب العدو كان عدد الأفراد المصريين الذين بقوا على قيد الحياة محققين نصراً حاسماً ضد قوات مدرعة متفوقة لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة .

ثم حاول الإسرائيليون فى نشوة انتصارهم أن يوطدوا مركزهم على قناة السويس ، وشرعوا فى إنزال زوارق آلية فى القناة ، ليجعلوا خط وقف إطلاق النار عند منتصف مجرى الماء بها . ولكن القوات المصرية التى كانت ما زالت تضمد جراحها تصدت للزوارق بنيران المدفعية وأغرقتها . وحاول الإسرائيليون أن يعيدوا الكرة ثانية ، وفى هذه المرة احتموا بغطاء جوى وستارة من نيران مدفعيتهم التى كانت تقصف مدن القناة . وبالرغم من ذلك فإن المدفعية المصرية عاودت ضربهم ، وأغرقت ثلاثة زوارق ، وأسرت القوات المصرية زورقين آخرين واثنين من جنود العدو .

وفى يوم ١٤ يوليو ١٩٦٧ ، قام طيران العدو بقصف جوى للقوات المصرية غرب القناة . وعلى الرغم من الضربة القاضية التى منى بها الطيران المصرى فى ٥ يونيو ، فقد قامت الطائرات المصرية المحدودة العدد من طراز ميج ١٧ بالرد على

العدو ، وقصفت مواقعه شرق القناة والمحاور الرئيسية لقواته ، وكبدته خسائر فادحة فى الأفراد والعتاد . ولما تصدت لها طائرات العدو ، خاضت معها معركة جوية عنيفة .

وفى شهر سبتمبر ١٩٦٧ ، دخلت المدمرة إيلات الإسرائيلية المياه الإقليمية المصرية . وكانت المدمرة تحمل ألف طالب من طلبة الكلية البحرية الإسرائيلية . وقد تصدت زوارق الأسطول المصرى حاملة الصواريخ المدمرة وضربتها وأغرقتها . وكان غرق هذه المدمرة بمثابة كارثة محققة للبحرية الإسرائيلية أقامت إسرائيل وأقعدتها . مثلما كان نجاح استخدام زوارق الصواريخ ضد القطع البحرية الكبيرة مدعاة للتفكير فى تغيير الإستراتيجية فى الحرب البحرية على المستوى العالمى .

وقد أفقد غرق إيلات العدو صوابه ، فصب جام غضبه على مدينة السويس ، يقصف المناطق الصناعية والسكانية دون تمييز . وركز على ضرب مصفاة البترول . واندلعت الحرائق بمنطقة الزيتية ، وارتفعت ألسنة النيران تلفح المدينة بوهج شديد الحرارة ، وتهددت حياة المدنيين إلى أقصى درجة ، وقتل عدد منهم فى هذه الغارات الانتقامية البربرية .

ولم تجد الحكومة المصرية بداً من إصدار قرار بإخلاء مدن القناة من السكان . لقد وضحت نيات العدو ... إرهاق المدنيين وإزهاق أرواحهم ، ونقل المعركة من الأهداف العسكرية إلى الأهداف المدنية بدون تمييز . وكان على مصر أن تقبل التحدى . وأن تعد المنطقة لمواجهة مع العدو طويلة المدى . وكان وجود السكان بالمدن يعنى بقاءهم تحت رحمة العدو ، ويعوق حرية القوات المسلحة المصرية فى الحركة .

المرحلة الثانية : مرحلة الردع :

مع بداية هذه المرحلة كانت القوات المسلحة قد بدأت تلتقط أنفاسها ، وتعيد

استجماع قواها وتنظم نفسها ، وأخذت تقف على قدميها بعض الشيء . وكان العدو فى نفس الوقت قد تمكن من تأكيد وجوده على الضفة الشرقية للقناة وأنشأ مواقعه وأخذ فى تحصينها .

وقد اقتصرت جهود القوات المصرية خلال هذه المرحلة على عدد من محاولات الردع للعدو ، استهدفت بالدرجة الأولى تدمير خطوط قواته الدفاعية شرق القناة . وقد تمكنت القوات فى خلال هذه المرحلة المبكرة بعد الهزيمة من إحداث خسائر كبيرة فى منشآت وتحصينات العدو . ولم تقترن هذه المرحلة بعمليات عبور من الغرب إلى الشرق .

المرحلة الثالثة : حرب الاستنزاف :

خلال هذه المرحلة تحولت مهام القوات المسلحة المصرية إلى أداء أدوار إيجابية فعالة ضد العدو . وقد استهدفت :

١ — تدمير ما أنشأه العدو من تحصينات .

٢ — الحيلولة بينه وبين إنشاء تحصينات جديدة .

٣ — تكبيد العدو أكبر قدر ممكن من الخسائر وإرهاقه .

٤ — تحريك القضية سياسياً .

ولعل أعظم الأعمال التى شهدتها هذه المرحلة هى معارك المدفعية الشهيرة . وخلالها قامت القوات المسلحة المصرية بصب نيران مكثفة من المدفعية عبر القناة على مواقع وتحصينات العدو فى شرقها ، وبصورة لم تشهدها أضخم معارك المدفعية فى العالم .

وقد أثرت هذه المعارك تأثيراً مباشراً وواضحاً على خطط العدو شرق القناة ، وجعلته يعيد النظر فى اختيار مواقعه وفى تحصيناتها .

وقد ساعدت هذه الفترة على صقل الجندى المصرى كمحارب وتطعيمه ضد

مخاوف الحرب . كما منحته الفرصة للتمرس على القتال فى مواجهة غارات لا تنقطع.
وشهدت هذه المرحلة أول عمليات عبور قامت بهـا القوات المصرية إلى الضفـة الشرقية للقناة . وقد بدأ العبور بأفراد ، ثم بجماعات ، ثم فصائل ، ثم كتائب .
وكان هدف عمليات العبور هو الاستطلاع أو زرع الألغام ، أو اصطياد الدبابات والمدرعات وإزعاج العدو .

لقد صدر أول بيان إسرائيلى عن عبور القوات المصرية إلى شرق القناة وتوغلها فى سيناء يوم ٢٧ أغسطس ١٩٦٨ . وبعد ذلك كان العبور فى بعض الفترات يتم يومياً ، وكانت القوات المصرية تقصف مواقع العدو وتكبده خسائر فادحـة من القتلى والجرحى ، وتبث الخوف فى نفوس أفراده .

وخلال هذه المرحلة وقع عدد من المعارك البحرية أهمها قيام البحرية المصرية بضرب مواقع وتحصينات العدو فى كل من رمانة وبالوظة . وأنزلت بها خسـائر جسيمة ، ولم تقع أى خسائر لقواتنا .

كذلك أغارت القوات البحرية الخاصة فى ١٦ نوفمبر ١٩٦٩ على ميناء إيلات ودمرت ثلاثة قطع بحرية للعدو . وفى عملية خلال شهر فبراير ١٩٧٠ ، رصدت القوات البحرية قطعتين بحريتين للعدو تتأهبان لعملية بحرية فى خليج السويس ، فدمرتهما .

وقد كانت هذه العمليات مدعاة لأن يبدأ العدو فى إقامة تحصينات وقائية فى موانيه كلفته إنفاقاً ضخماً .

وقد شهدت أحداث هذه الفترة بداية تحطيم أسطورة الفـانتوم . فى يوم ٩ ديسمبر ١٩٦٩ ، تمكنت أول طائرة ميج ٢١ من إسقـاط أول طـائرة فانتوم إسرائيلية على أرضنا .

وفى يوم ١٠ يوليو ١٩٦٩ ، عبرت مجموعة من أفراد الصاعقة القناة ، ودمرت

موقع لسان بور توفيق الذى يتحصن به العدو . وأسرت أفراداً منه . وكانت هذه العملية تتميز عن غيرها باشتراك أفراد من الشعب فيها . وقد تمكن أحد أفراد المقاومة الشعبية بالسويس من أسر جندى إسرائيلى وعاد به عائماً إلى السويس (١).

وقد أفقدت هذه العمليات العدو صوابه . فقام للرد عليها ، واختار موقع الجزيرة الخضراء ، وهو موقع متطرف به عدد محدود من الأفراد ، وهاجمه هجوما مركزاً بالطيران والقوات البحرية . وتمكن العدو بالعدد الضخم الذى حشده من النزول إلى الجزيرة . وهنا ظهرت بسالة القوة المصرية بالموقع . فقد طلب قائد الموقع من قيادته بالسويس أن تضرب الموقع ضربا مركزاً حتى تدمر الجزيرة بمن عليها . ونفذ قائد السويس طلب قائد الموقع وقصف الجزيرة ، وتكبد العدو خسائر فادحة واضطر للانسحاب . ونجا من القوات المصرية أفراد قلائل ، وقدم الباقون مثلا رائعاً للتضحية بالنفس والتصميم على دحر العدو .

وفى يناير ١٩٧٠ ، حاول العدو القيام بمغامرة جديدة يثبت بها وجوده ويعوض ما تكبده من خسائر . واختار جزيرة شدوان هدفاً له ، وحاول النزول فيها فتصدت له القوات المصرية الخاصة بالجزيرة وقاومته ، وصمدت وسجلت أروع قصص البطولة. واستمرت على مدى ليلتين تقاوم قوات العدو الضخمة التى قذف بها إلى المعركة ، مما كان مدعاة لإنشاء نوط جديد للبسالة والتضحية سمى « نوط شدوان » .

وبعد أن فشلت محاولات العدو فى إحراز أى نصر ذى شأن ، بدأ يتجه إلى ضرب الأهداف المدنية . فأغار على مصنع أبو زعبل ، ومدرسة بحر البقر ، وحلوان وها كستيب ، محاولا زعزعة ثقة الشعب فى القوات المسلحة ، والتأثير على الروح المعنوية والجبهة الداخلية ، واستغلال أعمال القرصنة الجوية فى الأغراض الدعائية .

ولعل أبرز الأعمال التى قامت بها القوات المسلحة خلال تلك الفترة ، الدور

(١) اللواء حسن الجريدلى : « معركة التحرير بدأت منذ ٦ سنوات » ، (الأهرام فى ١٩٧٣/١٢/١٢) ، ص ٣

البطولى الذى سجلته فى إقامة قواعـد الصواريخ تحت غارات وقصف جوى متواصل من الطيران الإسرائيلي ، الذى كان مصرا على إعاقة إنشـاء القواعد ، ويدمر ماتم إنشاؤه منها . وقد تحمل عبء هذه الغارات إلى جانب الجيش قطاعات الإنشاءات المدنية ، التى بذلت طاقات خيالية تحت ظروف صعبة بدافع الرغبة فى الإسهام فى الدفاع عن الوطن . وقد استشهد عدد من المدنيين نتيجة هـذه الغارات . ومع ذلك واصلوا الجهد لإنشاء هذه الشبكة الدفاعية على طول المواجهة وفى العمق . وتم بالفعل هذا العمل الضخم الذى شهد صراعا جباراً بين الإصرار على البغى والتدمير والإصرار على الإنجاز . حتى أطلق على هـذا المشروع الذى تجسدت فيه إرادة مصر فى الدفاع عن أراضيها « الزحف البطىء » .[1]

لقد كانت حرب الاستنزاف مرحلة قائمة بذاتها ، بدأت فى مارس ١٩٦٩ وانتهت بوقف إطلاق النار الذى كان جزءاً من مشروع روجرز فى ٧ أغسطس سنة ١٩٧٠ .صحيح أنها كانت متصلة بما سبقها من مرحلتى الصمود ثم الردع، ولـكن درجة التصعيد وصلت بها إلى درجة من الفرق الـكمى والـكيفى عما سبقها بالنسبة للجانبيين .فقد كانت هذه الحرب مظهراً يدل على أن القوات المسلحة المصرية قد وصلت إلى درجة من الثقة بنفسها تجعلها تشعر أنها قادرة أولا على الدفاع عن نفسها وعن الوطن ، وثانياً على إلحاق ضربات أكبر وأوسع مدى بالعدو ، وثالثاً على احتمال واستيعاب الضربات التى لابد أن يوجهها العدو ضدها .

ويمـكن القول أن الأهـــداف التى كانت تريد مصر تحقيقها من حرب الاستنزاف هى :

١ — استنزاف العدو مادياً وعسكرياً ومعنوياً بتدمير قواته وإلحاق أكبر

---

(١) اللواء سعد مأمون ، محاضرة بالاتحاد الاشتراكى العربى .

قدر من الخسائر البشرية به ، وبالتالى جعل احتلاله مصدر أرق مستمر له .

٢ — عدم ترك الفرصة للعدو لكى يثبت مواقعه ويعمق تحصيناته ، وقد بدأ فى إقامة ما يسمى بخط بارليف الثانى الذى كلفه مئات الملايين من الجنيهات .

٣ — التدريب العملى للقوات المسلحة فى ساحة القتال الفعلية ، والقيام بعمليات عبور متنوعة ، تتزايد فى الحجم وفى الفاعلية استعداداً لساعة التحرير .

٤ — اقناع العالم وإقناع العدو ـ والمناورات السياسية التأجيلية مستمرة فى الساحة الدولية ـ أن مصر لا تنوى تحت أى ظرف من الظروف التخلى عن حقها فى استرداد سيناء ، وحق الأمة العربية فى تحرير أراضيها المحتلة ، ولذلك كان أسلوب مصر فى الاستنزاف يعتمد على عنصرين :

أولا — ضرب مكثف من المدفعية لتدمير خط بارليف ومنعه من الاكتمال وفتح ثغرات فيه أمام قواتنا .

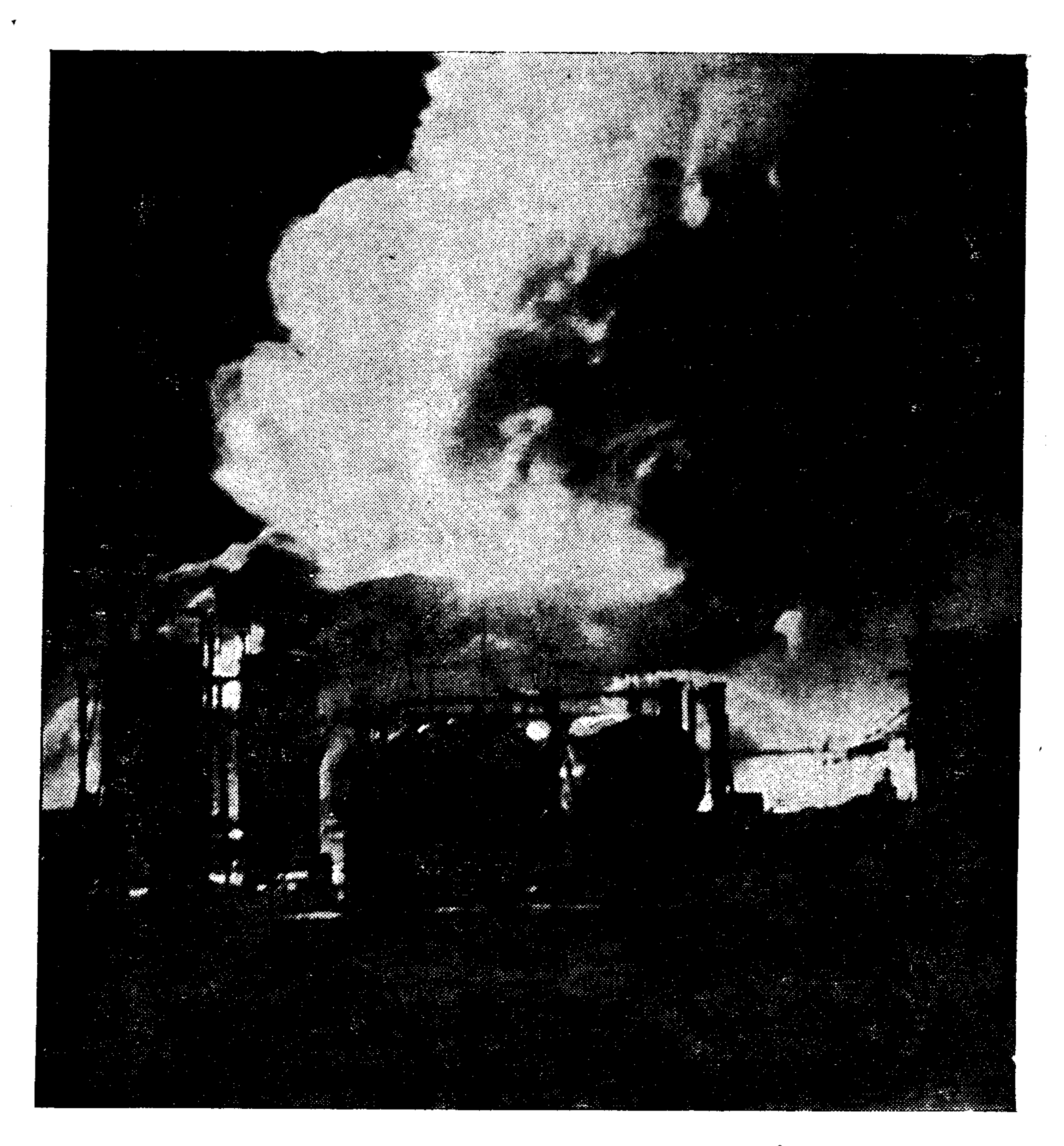
ثانياً — عمليات عبور تقوم بها قوات تتزايد حجما لتدمير أسلحة وأفراد العدو ، فى المواقع الحصينة التى لا تدمرها قذائف المدفعية الثقيلة .

وكانت المثابرة على هذه الحرب التى تستهدف استنزاف العدو ، تحمل معها مخاطرة المواجهة بالحرب الشاملة ، فالجيش حين يختار أسلوبا فى القتال ، لا يترتب على ذلك أن يتقيد العدو بنفس الأسلوب ، وكان يمكن أن يرد بحرب من نوع آخر يرى أنها مناسبة له . ولكن العدو لم يختر ـ كما كان يهدد دائماً ـ القيام بهجوم عسكرى شامل برى وجوى على الجبهة المصرية خلال حرب الاستنزاف ، إنما كان يرد على الاستنزاف باستنزاف مقابل.[1]

فبدأ الرد على المدفعية بالمدفعية ، واستخدم تفوقه الجوى فى ضرب الجبهة المصرية بأقصى ما يمكن من قوة . ولما لم تفلح كل هذه الردود فى إيقاف

(١) أحمد بهاء الدين : وتحطمت الأسطورة عند الفجر ، (القاهرة : دار الشروق ١٩٧٤) ، ص ٢٣٣ ، ٢٣٥

ضرب السويس انتقاما لإغراق إيلات



أرادت إسرائيل أن تنتقم لإغراق المدمرة إيلات التي دمرتها زوارق الطوربيد المصرية
وذلك بقصف السويس وإشعال الحرائق في مستودعات البترول

حرب الاستنزاف من جانبنا صعد عملياته الجوية بضرب العمق المصرى ، فقصف الأهداف الحربية والاقتصادية والمدنية على السواء .

لقد اختار العدو إذن مقابلة الاستنزاف . وفى مقابل أهدافنا كانت أهدافه هى :

أولا — محاولة إحباط عمليات قواتنا وإدخال اليأس إلى قلوبها ، بحيث يقنع قواتنا المسلحة بعدم جدوى أى محاولة كبرى لعبور القناة .

ثانياً — تدمير طاقتنا الدفاعية ومواقع استعدادناغرب القناة، حتى يبقى مطمئناً إلى عدم قدرتنا على العبور ، وتبديد الأمل فى إمكان القيام بهجوم نقيم فيه رءوس كبارى شرق القناة ، وعبور قوات ثابتة إلى سيناء .

ثالثاً — منع إقامة شبكة الصواريخ المضادة للطائرات التى كان يعرف أنهـا لو اكتملت فستكون قيداً على حرية سلاحه الجوى ومصدر حماية لعمليات أرضية أوسع تقوم بها قواتنا فى عمق سيناء .

رابعاً — ضرب العمق المصرى بغية تحقيق أهداف سياسية ومعنوية بالدرجة الأولى ، بأمل أن تنكسر روح المقاومة والصمود لدى الشعب ، وأن يضعف هيبة القيادة فى نظر المواطنين .

رابعا : مرحلة إيقاف إطلاق النار:

فى ٨ أغسطس ١٩٧٠ بدأت مرحلة جديدة هى مرحلة العمـــل فى صمت . وكانت هذه الفترة هى فترة العبور من النكسة إلى التحرير . وخلالها أخذت السياسة الإسرائيلية والأمريكية تركز على كفاءة الجندى الإسرائيلى وتحيطه بهالة مبالغ فيها ، فى موجات متعاقبة من الحرب النفسية الموجهة ضد العرب . وعلى أى حال ، إذا كان الجندى الإسرائيلى أسطورة حقاً كما صورته الدعاية

الإسرائيلية الأمريكية ، فهذا أبلغ دليل على مكانة وقدرة المحارب المصرى الذى قهر الجندى الإسرائيلى على أرض المعركة خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

ولعل المعاناة التى مرت بها القيادة السياسية خلال هذه المرحلة كانت أبرز أعباء الحكم . إذ لم يكن بالأمر السهل على المستويين العسكرى والمدنى رؤية العدو عبر القناة ينعم بالهدوء على أرض مصرية مغتصبة . ولم يكن من الهين على قواتنا وهى تقبض فى تحفز على أسلحتها وتنتظر فى مواقعها مقيدة النيران ، أن ترى أرض الوطن تحت أقدام عدو غاصب ،وسماءه تنتهك بين الحين والحين ، وعلمه مرفوعاً أمامها يرمز إلى كل معانى التحدى والاغتصاب .

كذلك كان الأمر شاقا ومضنياً على مستوى الجبهة الداخلية ، فقد كان الشعور معبأ إلى أقصى درجة ضد الاحتلال الإسرائيلى للأرض العربية .

وكان على القيادة السياسية أن ترى كافة الأبعاد والعوامل المتدخلة فى الموقف ، سياسية واقتصادية ، عسكرية ومدنية ، داخلية وخارجية ، وتقيمه تقييما شاملا .

وتحمل الرئيس انور السادات الكثير ، من الصديق ومن العدو ، فى الداخل والخارج . الى ان اتخذ قراره التاريخى .

وكان قرارا مصريا صميما ١٠٠ ٪ .

وكان قرارا أهلا لكل معاناة . .

ولم تذهب ست سنوات هباء .

* * *

خاتمة

لقد توخينا فى هذا الباب أن نوضح كيف كان نهر البناء بروافده الثلاثة الداخلية ، والدولية ، العسكرية ، يسير هادئا على السطح ، ولكنه كان يزداد مع الأيام عمقا وخصوبة ، ويتجه بسرعة تتضاعف مع الزمن تدفقا لتحقيق أهداف ثلاثة :

* بناء مجتمع صلب عصرى ديمقراطى أساسه دولة المؤسسات ، يقوم على العلم والإيمان ، والسيادة فيه للقانون . وكانت محاولة هذا البناء أساسية ، ليس فقط من أجل دعم المجتمع الداخلى ولكن أيضا من أجل المعركة . فأى مقاتل لا يمكنه أن يقاتل إلا بدافع إحساس من قلبه ووجدانه وكيانه بالإنتماء والارتباط المتين بوطنه . ولا يمكن أن يدافع المقاتل إلا عن مجتمع يشعر أن له فيه مكانا ، ويحس داخله بالطمأنينة وبالحرية . وقد كانت أولى متطلبات المعركة العسكرية بناء مجتمع تسوده المساواة والحرية والديمقراطية ، يجد المواطن فيه الأمن والثقة واحترام الكرامة الإنسانية ، فيرغب أن يعيش فيه أو أن يموت من أجله .

* وفى عالم تسيطر عليه التكتلات ، كان على مصر أن تعيد بناء علاقاتها فى مجالات كثيرة تتحرك فيها وترتبط بها ، وذلك فى دوائر عدة متصلة ومترابطة ولمصر فى كل منها مكانة خاصة . . . العالم العربى ، الدول الأفريقية ، الدول الإسلامية ، دول عدم الانحياز ، الدول الاشتراكية ، دول البحر الأبيض ، دول الشرق الأوسط ، الدول النامية .

وبذلت الجهود فى كل هذه الدوائر لتهيىء فيها مناخا أعمق تفهما ، وأقدر على المساندة ، وأكثر تقبلا للعمل العسكرى العربى .

* وكانت إعادة بناء القوات المسلحة هى الدعامة التى بدونها ينهار أى جهد يبذل

فى المجالات الأخرى . فقد كان من الجلى أن كافة الجهود السياسية التى تبذل من مركز الضعف لا تعطى أى نتائج حاسمة .

* * *

إن ما تم خلال السنوات الست من إيجابيات استهدفت إعادة البناء ، كان كله بمثابة حرث الأرض وتمهيدها لعمل حاسم يجعل غرس هذه السنوات يعطى نتائجه .

على أن ما أعطى هذه الجهود وزنها كان سببا واحدا ، وعملا واحدا حاسما لولاه لما حققت إعادة البناء النتائج الهامة التى حققتها عسكريا وداخليا ودوليا .

* * *

ان هذا السبب والعمل الواحد هو . . . النصر . كان النصر الذى احرزته القوات العربية ، وخصوصا خلال ساعاتها الست الأولى ، هو الشرارة التى ومضت وسط ضباب ست سنين عجاف ، تحمل الأمل ، وتطلق طاقات البناء ، وتاتى برياح مواتية تهب على المجتمع الداخل والدولى على حد سواء .

وقصة ذلك النصر هى قصة حرب أكتوبر ، او حرب رمضان ، أو حرب العبور ، او حرب التحرير ، او حرب الساعات الست . قصة الجولة الرابعة فى صراع العرب مع اسرائيل .

ان هذه الحرب قد انفردت فى تاريخ البشرية بانها لم تكن حربا من أجل الحرب ولكنها كانت حربا من اجل السلام .. حربا لاقرار السلام .

* * *

القسم الثالث

حرب الساعات الست

- الفصل الأول : القـــرار
- الفصل الثانى : التخطيط والإعداد
- الفصل الثالث : تدمير نظرية الأمن







٨ صفحات

١٥ مليما

دار الأهرام

قواتنا عبرت القناة وأقتحمت خط بارليف

معارك ليلية عنيفة بالدبابات فى سيناء بعد نجاح عملية العبور الضخمة

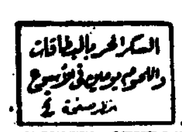
القوات السورية على الجبهة الشمالية اخترقت الخطوط الاسرائيلية فى عدة مواقع وتواصل تقدمها فى الجولان

معارك جوية ضارية فى الجبهتين المصرية والسورية

أنباء اسرائيل عن القتال قليلة وبرقيات المراسلين تخضع لرقابة صارمة | اتصالات بين الرؤساء العرب والسادات

اتصالات عاجلة فى الأمم المتحدة لعقد أجتماع طارىء لمجلس الأمن

نجحت قواتنا المسلحة امس فى عبور قناة السويس الى سيناء ، بمكنت بعد عملية اقتحام ناجحة





الطبعة الثالثة

٨ صفحات

١٥ مليما

قواتنا تقاتل الآن فوق سيناء

قواتنا تصد عدوانا اسرائيليا ثم تقتحم القناة على طول المواجهة وترفع العلم المصري فوق الضفة الشرقية

السادات ينتقل الى قيادة القوات المسلحة ليكون على اتصال دائم بسير المعركة

عبرنا القناة ورفعنا علم مصر

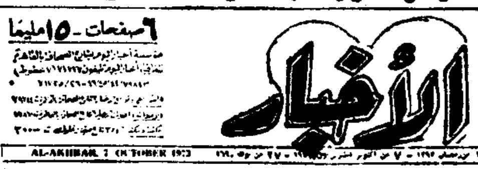
اسرائيل تعترف بنجاح العبور المصرى وتدفق المدرعات المصرية الى سيناء

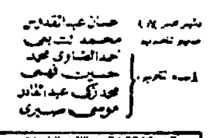
استولت قواتنا على معظم الشاطىء الشرقى للقناة .. وتواصل القتال بنجاح

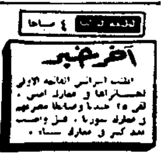
قواتنا البحرية تدمر الأهداف الهامة للعدو على ساحل سيناء الشمالى

المقاتلات المصرية تضرب مواقع العدو وتتصدى لهجوم جوى كبير

القوات السورية تقتحم مواقع العدو وتحرر جبل الشيخ وعدة مراكز بالجولان







٦ صفحات - ١٥ مليما

AL-AKHBAR 7 OCTOBER 1973

آخر خبر

اجازة للمدارس

المحال العامة حتى ١١ مساء

وقف مباريات الرياضة

صدى المعركة فى عواصم العالم

السادات يتابع العمليات من القيادة العامة

بدأ القتال ...

... سورية

ان التاريخ العسكرى سوف يتوقف
طويلا بالفحص والدرس امام عملية
يوم السادس من اكتوبر ١٩٧٣ ،
حين تمكنت القوات المسلحة المصرية من
اقتحام مانع قناة السويس الصعب ،
واجتياح خط بارليف المنيع ، واقامة
رءوس جسورلها على الضفة الشرقية
من القناة ، بعد ان افقدت العدو
توازنه فى ست ساعات » .

انور السادات

١٦/١٠/١٩٧٣

الفصل الأول

القرار

إن أرضنا المحتله قد طال اشتياقها للتحرير ...
وسلاحنا طال انتظاره لأداء دوره . وشعبنا
قد سئم الانتظار.

السادات

١٦ /١٠/ ١٩٧٣

كان فلاسفة اليونان يبحثون دائما عن أهم عنصر واحد له أكبر أثر محسوس في حياة المجتمع . فقال بعضهم الشمس ، وقال بعضهم الهواء، والنار، وهكذا .

وفى مجال القيادة يجمع علماؤها على أن أفضل النظم تطوراً وكفاية لايساوى أكثر مما يتوفر له من القادة ، وأن اتخاذ القرار هو أهم عنصر واحد له أكبر أثر محسوس فى عمل وحياة المنظمات . فاتخاذ القرار هو جوهر عمل القائد ، وهو نقطة البدء بالنسبة لنشاط المنظمة .

وعملية إتخاذ القرار ليست بالمهمة السهلة . . لأنها دراسه وتقييم وموازنة بين البدائل لاختيار أفضلها . وهي بالتأكيد تزداد خطورة ، وأهمية وتعقيـدا حينما تـكون القرارات مصيرية ، وحينما يمتد أثر القرار إلى مستقبل أمة وحضارة وتراث . وحينما يـكون القرار مسموعا على امتداد البقاع ، وحتى أطراف العالم ، وحينما تـكون نتائجه إما بعث وحياة ، أو اندحار ونهاية .

إن القرار الهام كالنهر العظيم الذى يستمد مياهه واندفاعه من روافد فرعية متعددة ، كلها تسهم فى خلقه وفى كيانه وقوته . وهو لذلك ليس عملا فرديا أو من نتاج ذهن واحد ، ولـكنه نتيجة عملية منظمة ، وحاصل نهائى لـكم متـكامل من المعلومات والآراء والأفـكار والاتصال والجدل والدراسة والتقييم وتصحيح الأفـكار ، أسهمت فيه مستويات مختلفة وأفراد عديدون .

ومع التسليم بهذا ، وبأن تيارات الفـكر والرأى والاتجاهات العامة تسرى من أسفل إلى أعلى ، وتؤثر فى عملية اتخاذ القرار وتوجهها فى كثير من الظروف ، إلا أن اتخاذ القرار يبقى مهمة القائد ، وليس مهمة مستشاريه أو من هم دونه ، وتصبح مسئوليته وحده ، ولا يتحمل نتائجها سواه . وبقدر ما تـكون خطورة القرار ، بقدر ما تـكون شجاعة اتخاذه وتحمل نتائجه .

والقرار متى اتخذ شأنه كالمقذوف النارى لا يمكن استرداده بحال . وقد يكون من الممكن مواجهة الموقف بعد ذلك باتخاذ قرارات أخرى جديدة ، ولـكن القرار الأول يكون قد نفذ، وسبق السيف العزل . ومن ثم فإن الإلتجاء إلى خطة علمية عند اتخاذ القرار أمر تحتمه القيادة الرشيدة .

وفى سبيل الوصول إلى القرار الأفضل ، وحتى نضمن النجاح فى تنفيـذه ، يصبح من الحـكمة تبادل الرأى مع كافة الأطراف المعنية . فهذه المشورة تحقـق للقرار قوته بإسهام الآراء فيه ، وتجعله مستـكملا الصورة التى تحقق له التنفيذ الفعال . وتشعر الآخرين بمسئوليتهم عن نجاحه .

وتوجد عدة اعتبارات هامة يحسب حسابها عند بدء تنفيذ القرار . لعل أهمها اختيار الوقت المناسب والظروف المواتية التى تحقق للقرار أفضل الأثر وأعظم النتائج . ويلزم أن نؤمن بأن الفرصة تكون مناسبة متى انتهزت ، وإلا تفقد جوهرها كفرصة ، وأن بعض القرارات الضعيفة تكتسب قوة من توقيتها السليم ، وأن بعض القرارات الصائبة تتعثر وتفشل بسبب سوء التوقيت .

والتوقيت المناسب يعتمد على قدرة القائد الفائقة على استقراء الحوادث ، والتنبؤ بالمستقبل ، وانتهاز الظروف الملائمة . كما يأخذ فى تقديره الموقف العالمى والأحداث الدولية والظروف الداخلية ، وارتباط القرار بقرارات أخرى .

هذه هى بعض الاعتبارات الهامة التى روعيت فى قرار المعركة ، الذى أتخذه الرئيس أنور السادات . . . . قرارا للتاريخ وللعرب ولمصر ، وللحق والسلام .

منهجية القرار :

فى هذه المنطقة المضطربة ، وخلال هذه المرحلة الشائكة كان الرئيس السادات يواجه أخطر مشكلة تعترض سبيل رئيس جمهورية . وهى مشكلة التخطيط لإعداد ووضع سياسة الحرب على نطاق الجبهة الداخلية والعالم الخارجى . وكانت فكرة الحرب الرابعة — **أو الشرارة كما يفضل الرئيس ان يسميها** — يتولد معها إحساس ضخم بالمسئولية الوطنية والتاريخية ، لما يمكن أن يرتبط بها من نتائج تتضاءل معها أى محنة مر بها الإنسان العربى فى تاريخه على الأرض .

ولا يوجد مواطن عاقل ، ولا مسئول ، ولا دولة من الدول ترغب فى قيام حرب لمجرد الحرب . ومعنى ذلك أن هذا القرار الذى يتعلق به مصير الوطن والبشر لا يقدم عليه المرء إلا إذا دفع به إلى حافة الهاوية ، التى تصبح عندها الحرب أشبه

بطوق نجاة يتعلق به الربان لينقذ سفينته من الغرق ، أو شعبه من الهلاك ، سواء في ذلك الهلاك الشخصي أو المعنوي أو المصيري .

وبالطبع لم تكن أمام الرئيس السادات من الوسائل أو الأساليب ما كان يمكنه من تجنب قرار الحرب أو عدم المبادأة به . وثمة نقطة لابد من التأكيد عليها وتوضيحها . وهي أن تفوق العرب العددي على إسرائيل لا يمكن الاعتماد عليه أكثر مما يمكن أن يعنيه هذا التفوق في مواجهة مبادأة إسرائيلية بالهجوم . وحتى إذا بقي القتال سجالا ومتعادلا ، فإن هذا الموقف لا يمكن بحال أن يحقق أهداف العرب في تغيير الأمر الواقع الذي كانت إسرائيل تسعى إلى فرضه عليهم .

فإذا أضفنا إلى ما تقدم ،أن العرب لم يكونوا بقادرين على التأكد من مدى نوايا إسرائيل العدوانية ، والمدى الذي يمكن أن تقف عنده أطماعها وتطلعاتها في العالم العربي ، فقد كان على مصر والدول العربية المعنية أن تؤمن نفسها ضد هذا المجهول ببناء قواتها المسلحة، واتخاذ القرارات الحاسمة — مهما كانت تكلفتها — التي تحقق التفوق العسكري على العدو . ولم يكن هذا النوع من التفكير حكراً على راسمي السياسة وواضعي الإستراتيجية العسكرية العربية ، وإنما كان أيضاً فكراً متبادلا لدى العدو .

والحقيقة التي لامهرب منها هي أن ردود الفعل هذه لدى كل من العرب وإسرائيل، قد دفعت بالطرفين في سباق التسلح، وقدمت المبررات الكافية لإعطاء اعتمادات القوات المسلحة الأولوية في كلتا الساحتين الساخنتين . وكان التحدي الذي فرض نفسه على كل منهما هو كيف يمكن الحفاظ على التفوق ، وعدم السماح للطرف الآخر بأن يتغلب . وهذا بدوره ألقى بالطرفين في حلقة شريرة ومتجددة من الصراع والسباق .

كانت كل العوامل إذا تفرض نفسها على الرئيس السادات ليتخذ قراره التاريخي . لقد طال أمد احتلال إسرائيل للأرض العربية ، وتميعت كل محاولات

الحلول السلمية والسياسية ، وتمادت الولايات المتحدة فى إغراق إسرائيل بالسلاح والعتاد الحربى . وكانت القوات المسلحة المصرية فى حالة تعبئة ممتدة ، صابرة وصامدة .. ولكن إلى متى ... ؟ فقد كانت الجبهة الداخلية كلها تعصف بها الهزيمة وتتآكل بفعل آثارها ، ومعظم العالم يقف وقفة المتفرج ، الأصدقاء لا يملكون سوى الدعاء من أجلنا ، والأعداء يتشفون ، ولم يكن أحد يملك الحل سوى أصحاب القضية أنفسهم .

وعند هذه النقطة كانت الحقيقة واضحة . فقد كانت مصر وسوريا تواجهان موقفاً أشبه بالموقف الذى واجهتاه عام ١٩٦٧ . كانت إسرائيل تهدد الدول العربية ، وتخترق المجال الجوى فى سوريا وتسقط عدداً من طائراتها ، وتبعث بطائراتها وقتما يحلو لها فى سماء لبنان لتفعل مايحلو لها أيضاً . وكان يتحتم ألا يدع المسئولون مجالا فى حساباتهم لمخاطر لامبرر لها تكرر مأساة ١٩٦٧ .

وللأسف ، فإن الطريق الممتد من العصر الحجرى إلى الصواريخ المضادة للصواريخ — كما يقول روبرت مكنمارا — قد امتد فيما يبدو فى اتجاه واحد ، بالرغم من أنه استمر أكثر من مليون عام ، ولو كان الإنسان يميل إلى التهكم ، لاستنتج أن تاريخ البشرية لا يتميز كثيراً بفترات السلام المتصلة التى تقطعها الحروب، بقدر ماتميز بنشوب الحروب بشكل متواصل ، تقطعها من آن لآخر — بفعل اليأس والضجر — فترات الإرهاق والاستشفاء التى تحمل اسم السلام[1] .

إن النقطة التى يجب التأكيد عليها ووضعها فى الأذهان هى أنه فى ظل فشل كل محاولات وجهود السلام، ورفض إسرائيل الدائم الامتثال لقرارات الأمم المتحدة بالانسحاب ، واحترام حقوق شعب فلسطين ، واستمرار نوايا التوسع الإسرائيلية ، واحتلال الأرض العربية ، بقى أمام الرئيس السادات أمر واحد .. وهو أن تكون استجابته للموقف واقعية .

---

(١) روبرت مكنمارا : جوهر الأمن ، (القاهرة ١٩٦٦) ، ص ٧٠ .

بطولة اتخاذ القرار :

إن اتخاذ قرار الحرب ليس كـكل القرارات . وحينما يضع التاريخ على عاتق إنسان مثل هذه المهمة التاريخية الخطيرة الثقيلة التى يتعلق بها مصير أمة وشعب وجيش، بل وسمعة حضارة عريقة بأسرها... فإن مقومات أمن الإنسان لاتـكمن فى سلاحه ، بقدر ما تـكمن فى عقله . ولم يكن الأمر الذى يهم عند هذا الحد هو سباق إلى الحرب بقدر ما كان سباقا فى الحكمة .

وقد عبر الرئيس السادات عن هذا المعنى أصدق تعبير فى قوله :

« إننا فى ذلك كله نصدر عن التزام عالمى وإنسانى بقوة القانون . ونحن لا نستطيع أن نطالع الدنيا بأننا لا نريد قوة القانون ، وإنما تحولنا لجأء إلى قانون القوة كما يفعل غيرنا . إننا نهز أنفسنا بأنفسنا إذا قلنا بقانون القوة بدلا من قوة القانون . ولا بد أن يستقر فى وعينا جميعاً أن عملنا بالسـلاح واستعدادنا للمعركة ، وقرارنا بدخولها ، هو تعزيز لقوة القانون ، وليس تخليا عنه إلى قانون القوة »[1] .

إن قرار الحرب ، قرار علمى وعملى فى آن واحد . ومن ثم فإن حساباته معقدةجدا ،وتحسب بمنتهى الحذر والدقة، نظرا للنتائج بالغة الخطورة التى يمـكن أن تترتب عليه ، ونظراً لأن معاييره غير مادية أو محكومة ومحسوسة ، ومتغيراته غير مؤكدة وغير مأمونة وغير متيقنة ، وتتصل بها خلفيات ومواقف ومتغيرات عسكرية ، ومدنية ، سياسية واقتصادية ، داخلية وخارجية ، عربية ودولية ، مقدور عليها ومنفلتة ، مباشرة وغير مباشرة ، علمية ومنطقية ، ولا موضوعية ولا منطقية .

---

(١) الرئيس أنور السادات : خطاب أمام المؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى العربى فى دور الانعقاد الخاص ، فى ١٦ فبراير ١٩٧٢ ، (القاهرة : هيئة الاستعلامات ، خطب وأحاديث الرئيس أنور السادات ، مجموعة ٣) ، ص ١٢٩ .

ومع ذلك فإن الرئيس السادات لم يكن وهو يتخذ قرار الحرب رجلا سياسياً فحسب ، ولم يكن يتصرف بوصفه رجل دولة ومقرر سياسة فحسب .

إن الرئيس السادات ضابط مارس الحرب وخبر أهوالها. ولم يكن القرار بالنسبة له كمحارب أمراً سهلا . وكضابط فقد عاش الخطة فى شمول واستيثاق وتفكير طويل، ودراسة متعمقة واستيعاب تام لكل ما يجب أن يحدث ، وما قد يحدث .

* * *

.. ويقول الرئيس السادات :

« لم يكن القرار سهلا .. كانت كل الحسابات والموازين فى غير صالح القرار، ولم يكن ممكنا بكل مقاييس العصر . لو اننا ادخلنا كل المعلومات والدراسات والورق فى كومبيوتر ، لكان الجواب دائما .. لا . لقد كنا مهزومين من الداخل، وكانوا مسيطرين على كل شىء . وكانت روح الهزيمة متفشية فى العرب . وحتى المثقفون الذين كان يجب ان يكونوا اكثر تفهما ، اصيبوا باليأس وهكذا لو كنا سألنا اى كومبيوتر لكان الجواب .. لا » .

ويستطرد الرئيس: لقد واجهنا الهزيمة كواقع .. ولكن كان هناك شىء دائما فى اعماقنا يرفضها .. كان عنصرا غير محسوب، ومقياسا لم يكن احد يدركه، صادرا من داخلنا ومن اعماق اعماقنا كان شيئا من حضارتنا، من اصالة سبعة الاف عام .. من أرضنا. ارض الخلود التى نرتبط بها منذ بدء الخليقة هذا العنصر غير المحسوب، هو الحضارة والأصالة والتاريخ، هو الالهام والتصور الذى كان وراء القرار [1] .

وهكذا يتأكد أن اتخاذ القرار لم يكن يتطلب حسابات علمية محددة فحسب. وإنما كان يتطلب أيضاً بطولة، وتحقيق عظمة الإنسان المصرى وأصالته ، طالما كانت هناك فرصة لفعل الحضارة والقيم وغريزة البقاء وغيرها من الجوانب المعنوية والحسية غير الكمية ... والتى لا يمكن ترجمتها إلى نتائج فى رسومات بيانية أو أرقام فى كومبيوتر .

ولنبدأ القصة من اولها ...

---

(١) الرئيس أنور السادات .. من حديث مع المؤلفين .

قرار المعركة

حوالى الساعة الثانية من بعد ظهر أحد أيام شهر رمضان المعظم عام ١٣٩٢ هـ — أكتوبر ١٩٧٢ م — أى قبل حرب رمضان بعام واحد بالتحديد استدعى الرئيس أنور السادات «السيد» أحمد إسماعيل — مدير المخابرات العامة وقتئذ — إلى منزله بالجيزة . وسار الرجلان معا فى حديقة المنزل على الضفة الغربية لنهر النيل الخالد فى مواجهة مدينة القاهرة . وكان من عادة الرئيس السادات أن يمارس رياضة المشى ساعة يوميا فى حديقة مسكنه قبل الإفطار .

وبدأ الرئيس الحديث ، وكان موضوعه مفاجأة للزائر . قال الرئيس « للسيد » أحمد إسماعيل وهو مستمر فى سيره . . . . « أنا فى نيتى تغيير وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة . وعاوزك ترشح لى واحد لشغل هذا المنصب ... » .

ويقول المشير أحمد إسماعيل . . « أخذت أعرض للرئيس أسماء بعض المرشحين ، ومع كل أسم أذكر مزايا الشخص وما يمكن أن يكون فيه من نقاط ضعف . وعرضت أسماء متعددة لضباط تركوا القوات المسلحة ويعملون فى القطاعات المدنية ، ولضباط ما زالوا عاملين فى خدمة القوات المسلحة . . . وفى النهاية قال لى الرئيس ، أنا عاوز واحد صفاته كذا . . . فقلت ، والله دول الموجودين صالحين فى ذاكرتى . فقال الرئيس أظنك فهمت دلوقت . . . بعد بكره تيجى تحلف اليمين ... » . [1]

ولم يكن «السيد» أحمد إسماعيل يعلم بسبب استدعاء الرئيس له فى ذلك اليوم. وحينما حلف اليمين وأصبح وزيرا للحربية وقائدا عاما للقوات المسلحة المصرية ،

---

(١) المشير أحمد اسماعيل : من حديث خاص مع المؤلفين ، فى ١٩٧٤/٢/٢٧ .

أوضح له رئيس الجمهورية أنه كان يشعر أن القوات المسلحة بوضعها القائم وقتئذ لم تكن قد أخذت الدفعــــة القوية لدخول الحرب . وكان الرئيس يريد من القائد العام الجديد أن يبدأ على الفور بإعداد القوات المسلحة لدخول المعركة .

ولم يكن حديث الرئيس مع وزير الحربية والقائد العـام الجديد هو أول إشارة إلى أنه قد نفض يده من محاولات الحل السلمى أو الحل السياسى ، إلى آخر هذه الألفاظ والمسميات التى استهدفت التسويف أكثر ممـا استهدفت الحل الحقيق . ولعل أول تصريح رسمى جماهيرى عن قرار المعركة هو الذى ورد فى حديث الرئيس إلى الأمة يوم ١٢ يناير ١٩٧٢ .

ففى هذا الحديث أكد الرئيس أن قرار المعركة كان قراراً جماعيا ، فى قوله : « لابد فى كل أمر وفى كل قرار وفى كل مرحلة أن نشترك معا . نشترك ونكون كلنا على بينة من حقيقة الموقف وحقيقة ما نواجهه ... الفترة المـاضية أنا ما ضيعتهاش ، بدأت أولا بلجنة رئاسة دول الاتحاد مع الرئيس حافظ الأسد والرئيس معمر القذافى ، وناقشنـا استراتيجية المرحلة اللى احنا فيهـــا . ما اكتفتش بهذا ، درست الأمر فى المرحلة الماضية مع جميع المؤسسات الدستورية فى بلدنا . . درست مع اللجنة المركزية ، مع مجلس الأمة ، مع مجلس الوزراء ، مع مجلس الأمن القومى ، وكان آخر جلسة عقدتها أمس مع صديقى وزميلى فى النضال الدكتور محمود فوزى ... » .

« أردت من حديثى هذا حقيقة أن يكون إشارة تنبيه ، وقد انتهينا فى كل أجهزتنا . . . إلى شىء واحد وهو أنه فرض علينا القتال . . » .

واستطرد الرئيس :

« فى هذه المعركة هناك مبدءان اثنان لا مناقشة فيهما .

المبدأ الأول : لا تفريط فى شبر من الأرض العربية .

المبدأ الثانى : لا مساومة على حقوق شعب فلسطين » [1] .

لقد أبرز الرئيس السادات أن قرار المعركة يتطلب من مصر وكافة الدول العربية الإعداد الجدى لمتطلبات مرحلة المواجهة الشاملة . المواجهة من أجل الأرض والعرض ، والحرية ، والكرامة ، والسلام . وحدد الرئيس هدفا هاما يتحتم بلوغه فى أقصر وقت ، وهو : **وضع الجبهة الداخلية فورا على مستوى المعركة** .

وفى يوم ٢٥ من نفس الشهر – يناير ١٩٧٢ – وأمام ممثلى فئات الشعب أكد الرئيس أن قرار المعركة نهائى لا مناقشة فيه ، ولا يحتمل أى تأويل أو التواء . وأنه قرار حتمى ، لا رجوع فيه . وكان الرئيس حريصاً على أن يؤكد أن اهتمامه ببناء الدولة الحديثة لا يعنى الانصراف عن المعركة ، وأنهما يسيران جنبا إلى جنب وفى وقت واحد : « أوعو حد يتصور أن كلامى معناه أنى مش حبتدى معركة سيناء إلا بعدما أبنى الدولة .. لأ ... الاثنين ما شيين مع بعض وجنب بعض » [2] .

واستمر الرئيس السادات يؤكد نوايا الحرب . وكانت الأيام ، والظروف ، والأحداث والمراوغه السياسية ، ووهم الحلول الأمريكية ، كلها عوامل تزيده اقتناعا وإصراراً عن أن ما أخذ بالقوة لا يسترد بغيرها . ولم يكن الرئيس يكف عن الإفصاح عن نواياه ... قالها بملء فيه للمصريين وللعرب وللعالم ... المعركة ولا بديل سوى المعركة . وكان من رأيه أن إسرائيل والولايات المتحدة قد دفعتا مصر دفعاً حثيثاً إلى اتخاذ هذا القرار . « وأن أمريكا قد طعنت مصر فى الظهر » .

---

(١) حديث الرئيس أنور السادات إلى الأمة ، ١٢ يناير ١٩٧٢ .
(٢) حديث الرئيس أنور السادات إلى الضباط والجنود فى أسوان ، ٣٠ يناير ١٩٧٢ .

لقد ألقت الولايات المتحدة بكل ثقلها إلى جانب إسرائيل. وكانت من ناحية أخرى تحاول أن تعوض ما أصابها من انتكاسة فى شبه القارة الهندية . وتخلت تماما عن كل ادعاء بأنها تتبع سياسة متوازنة فى الشرق الأوسط . بل لقد كان هناك احتمال فعلى بأن تتورط الولايات المتحدة بالتدخل إلى جانب إسرائيل فى أى مواجهة بينها وبين العرب . ومع ذلك فقد كان الرئيس يقدر هذا ، وكان يحذر علانية من النتائج التي يمكن أن تترتب على قيام الحرب .

وفى حديث له مع محرر مجلة نيوزويك فى ٢٨ فبراير ١٩٧٢ ، جرى الحديث على النحو التالى :

سؤال : كيف تستطيعون تحمل حرب طويلة بدون إمدادات ثابتة ومستمرة فى السلاح وقطع الغيار من جانب الاتحاد السوفيتى ؟

الرئيس : انكم تريدون ان تضعونا فى حالة يأس ، ولكنكم لن تنجحوا فى ذلك، ان فيتنام الشمالية ليست فى حالة يأس رغم الانتقام الرهيب والخسائر التى توقعها بها امريكا . ان اسرائيل ستدفع الثمن غاليا . وتذكر كلماتى هذه . . . فان هناك مفاجاة كبرى تنتظرهم .

سؤال : هل وافق الاتحاد السوفيتي على مساعدتكم فى بناء وسائل إنتاج الأسلحة الحديثة والطائرات كما فعل مع الهند ، وكما تفعل الولايات المتحدة مع إسرائيل ؟.

الرئيس :اننا نتذرع بالصمت والصبر، وعندما نتخذ قرار المعركة فسترى.

سؤال : هل تشعرون سيادتكم ، أن مصر تستطيع استئناف المعارك رغم معارضة الاتحاد السوفيتى ؟

الرئيس : اننا وحدنا تماما الذين نتخذ قرار المعركة . فلماذا نقحم الاتحاد السوفيتى ؟ وعندما نتخذ القرار فسوف نقبل كل النتائج التى تترتب عليه .

سؤال: متى تتوقعون أن تستأنف الحرب. فى خلال بضعة أشهر ؟ أم بعد سنة أو سنتين :

الرئيس: سيكون ذلك اقرب كثيرا مما تتصور .

* * *

وفى ٢٨ ديسمبر ١٩٧٢ ، وجه الرئيس السادات بياناً إلى الأمة خلال الجلسة الخاصة التى عقدها مجلس الشعب واللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى بمقر مجلس الشعب. وفى هذا البيان أوضح الرئيس أن المعركة وحدها سوف تكون الاختبار الحقيقى تجاه كلما نحارب من أجله، وتجاه كل ما نحارب دفاعا عنه. ثم قال الرئيس:

« من هنا — ايها الاخوة والأخوات — فاننى اقول لكم باعلى صوت ، وبكامل المسئولية ،ان باب المعركة هو باب المستقبل، وليس هناك طريق آخر » .

لقد كان مرور الزمن أحد المتغيرات التى يعتمد عليها العدو فى إقرار سياسة الأمر الواقع . وكان الرئيس السادات ابتداء من نهاية عام ١٩٧٢ ، وبداية عام ١٩٧٣ قد جمد الموقف فيما يتعلق بالاتصالات بالولايات المتحدة . وفى ٢٦ مارس ١٩٧٣ ، أعلن أمام المؤتمر المشترك للجنة المركزية ومجلس الشعب ما يأتى :

« عايز أقول لكم حاجة قالوها فى غرب أوربا واحنا بنتصل بهم ، قالوا إما إن العالم يحس بكم، ويعرف أن لكم قضية ، وإما فالعالم لا يكترث لشىء إذا ما كنتوش تخلوه يحس بكم . والوحيد اللى يقدر يخلى العالم يحس بكم هو أنتم. لا أمريكا ولا روسيا . إنتم وحركتكم .. دى خلاصة الموقف فى الاتصالات الدبلوماسية .. » .

وأضاف الرئيس : « إن الدرس المستفاد اللى خرجنا به بوضوح هو أنه لكى يشعر بك العالم لابد أن تدب فيك الحياة أنت الأول وتقول للعالم أنا حى ، أنا

أستطيع أن أغير من الأوضاع عسكرياً وسياسياً . عندئذ يشعر بنا العالم وعندئذ تتحرك قضيتنا ؛ وده خلاصة عملنا الدبلوماسى فى المرحلة الماضية كلها » .
واستطرد :

« أنا بأقول بأن وقف إطلاق النار وتجميد القضية نتيجة له بيصيب القضية بالشلل التام اللى لازم يفضى إلى الموت . طيب إذا كان ولابد موت بموت ، طيب ما نموت واحنا صاحيين بدل ما إحنا مشلولين وإحنا واقفين على رجلينا ، إذا كان ولابد أن نموت يعنى » .

وانتهى الرئيس فى خطابه الى انه :

« من اجل هذا ، وخلافا لما كنت اتمناه ورددته كثيرا وصلت الى قرار ، ان اتحمل قدرى بنفسى فى هذه المرحلة ، كما يتحمل كل انسان منكم ، واطلب من كل واحد فيكم ان يتحمل قدره بنفسه وفى يده .. هذه لحظات فى التاريخ لابد ان يتقدم فيها الانسان ويحمل قدره ، ويفعل الله مايريد[1] » .

بعد كل هذه التصريحات الواضحة المؤكدة ما الذى كان على الرئيس السادات أن يفعله ليقنع الرأى العام الداخلى والخارجى أنه جاد فى قرار المعركة ، وأنه يعنى مايقول؟ وأن الكلمات التى كان يرددها لم تكن جوفاء ، وإنما كان وراءها رصيد ضخم من العمل العسكرى الجاد الصامت ؟ وبعد هذا كله .. كيف يمكن أن يقال إن الحرب كانت مفاجأة لإسرائيل والولايات المتحدة وللعالم؟ لقد استنفذ الرئيس كل السبل للإفصاح عن نواياه . ولم يكن أمامه من وسيلة يؤكد بها عزمه وإصراره سوى أن يطلع العالم على أمر القتال الذى وقعه بإمضائه ، وسلمه إلى وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة .

---

(١) خطاب الرئيس أنور السادات ، أمام المؤتمر المشترك للجنة المركزية ومجلس الشعب ، فى ١٩٧٣/٣/٢٦ .

لقد كانت هناك فجوة تصديق على المستويين الداخلي والخارجي ٠ وأياً كانت بواعثها، فقد خدمت بكل تأكيدأغراض المعركة. ذلك أن الناس لكثرة ماسمعوه عنها أصبحوا راغبين عن المزيد، وما كانوا يسمعونه كانوا لا يأخذونه مأخذ الجد٠

حتى كان يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٣ ، وبمناسبة الذكرى الثالثة لوفاة الرئيس عبد الناصر٠ ألقى الرئيس السادات آخر خطاب سياسى له قبل الحرب ، وفى نهاية هذا الخطاب قال فى اقتضاب واضح :

« هناك موضوع ربما تلاحظون أننى لم أتكلم فيه ، وهو موضوع المعركة . ولقد قصدت ذلك ٠٠ لقد شبعنا كلاما ٠٠ أريد أن أقول شيئاً واحدا ٠٠ نحن نعرف هدفنا لن أعد بشيء ، ولن أدخل فى تفاصيل أى شيء ، ولكنى أقول فقط أن تحرير الأرض كما قلت لحضراتكم هو المهمة الأولى والرئيسية أمامنا ، وبعون الله سوف نحققها وسوف نصل إليها » ٠

« هذه إرادة شعبنا ، وهذه إرادة أمتنا ، بل هى إرادة الله ٠٠٠ الحق العدل ، والسلام ٠٠ » ٠

وكانت هذه هى المرة الأولى التى تعمد فيها الرئيس السادات أن تكون إشارته عن المعركة عابرة، احتوتها نصف صفحة من خطاب مطول فى ٣٥ صفحة . وبالرغم من أن الموضوع مصيرى ، فقد ألمح إليه فى عجالة ، وفى آخر دقيقة من حديث مستفيض استغرق ٩٠ دقيقة ٠

* * *

وبينما كان الرئيس يلقى هذا الخطاب ، كان العد التنازلى للمعركة قد بدأ قبل شهر من ٦ أكتوبر — يوم (ى) ناقص ٣٠ — وكان العد يوم الخطاب قد وصل بالفعل الى (ى) ناقص ٨ .

* * *

أهداف القرار

الهدف الأستراتيجى : تدمير نظرية الأمن :

كان لا بد أن تتحرك مصر ، وأن تصرع الهزيمة ، وتحطم نظرية الأمن الإسرائيلى . وفى يوم ٢ أكتوبر ـ ٥ رمضان ـ حدد الرئيس السادات للقائد العام للقوات المسلحة الهدف الاستراتيجى للمعركة . . وكان الهدف واضحا :

« تحدى نظرية الأمن الاسرائيلى ، وتدمير هذه النظرية »

ويقول الرئيس السادات ، لقد قلت للقائد العام وقتئذ :

« يتعين عليك وعلى القوات المسلحة المصرية أن تزعزع نظرية الامن الاسرائيلى من جذورها . تلك النظرية التى روجوا لها فى العالم ، وأقاموا عليها حججهم واستراتيجيتهم فى التوسع واحتلال الأرض العربية »

لقد كان الهدف الأول للحرب أن نثبت للعالم أن التفوق العسكرى الإسرائيلى وأن دعوة الأمن القائمة على السلاح ، لا يمكن أن تقرر مصائر الأمور فى المنطقة ولا أن تفرض على العرب التسليم والرضا بالأمر الواقع . وهكذا كان الرئيس محدداً فى أن الهدف الاستراتيجى للمعركة ، هو تدمير نظر الأمن الإسرائيلى .

المهمة : تدمير القوات المسلحة الأسرائيلية :

لقد بنت إسرائيل نظرية أمنها على أساس قدرة قواتها المسلحة. وكانت دعوة الأمن الإسرائيلى قائمة على السلاح والردع « واليد الطويلة » ، وإرهاب العرب .

ولم يكن تدمير نظرية الأمن ممكنا إلا بعمل عسكرى عربى شامخ . وفى

---

(١) الرئيس أنور السادات : حديث خاص مع المؤلفين ، ٢٣ / ٣/ ١٩٧٤ .

يوم الخميس ٤ أكتوبر — ٨ رمضان — وقع الرئيس السادات بإمضائه أمر القتال . وكان هذا الأمر صريحا واضحا فى تحديد المهمة الملقاة على عاتق القوات المسلحة المصرية .

ويقول الرئيس : كانت المهمة التى كلفت بها القوات محددة بجلاء وهى :

« ايقاع أكبر تدمير ممكن بالقوات المسلحة الاسرائيلية » (١)

لقد اعتقدت إسرائيل عن صواب أو عن وهم أن قدرتها على الردع هى جوهر أمنها ... وأن القوة المسلحة هى الوسيلة إلى الغاية. وكان يجب تحدى هذه الوسيلة لتفقد إسرائيل الجوهر والغاية .

وكان يتعين على القوات المسلحة المصرية من واقع المهمة التى حددها لها الرئيس السادات ، أن تحقق نتيجة سياسية هامة من خلال العمل العسكرى . كان يجب أن تنهار نظرية الأمن عسكريا ، بعد أن ارتكزت عليها إسرائيل كضرورة للتمدد .

لقد كان على القوات المسلحة المصرية ، من خلال العمل العسكرى الحاسم أن تثبت لاسرائيل أن جوهر الأمن لا يكمن فى التوسع والسعى لاغتصاب الأرض بدعوى الحدود الآمنة ، بقدر ما يكمن فى الرغبة الصادقة فى السلام القائم على العدل .

* * *

وهكذا لم يكن الهدف النهائى للرئيس السادات حربا من أجل الحرب ، بقدر ما كان حربا لاحقاق الحق ، ولتحقيق السلام القائم على العدل .

* * *

---

(١) الرئيس أنور السادات : حديث مع المؤلفين .

أهداف الخطة :

كأى خطة كان لابد من تحديد الأهداف . لقد كان من الضرورى أن تقوم الخطة على أساس استراتيجية الهجوم. والهجوم الشامل على طول الجبهات ، وبكافة أسلحته وأنواعه. مع الاعتماد على تكتيكات الحرب الخاطفة المباغتة، والتأكيد على أن الدقائق والساعات الأولى فى الهجوم تساوى أياما وأسابيع متأخرة ، وأن العدو يجب أن تصدمه المفاجأة بحيث تطيح باتزانه وتشل تفكيره لفترة ما ، تتناسب طرديا مع قوة المفاجأة والصدمة .

ويقول الفريق محمد عبد الغنى الجمسى ، كانت أهداف الخطة تتضمن [1] :

١ — تدمير التجمع الرئيسى للقوات الإسرائيلية فى سيناء وهزيمته .

٢ — تكبيد العدو أكبر خسائر ممكنة فى معركة طويلة .

٣ — التركيز على أن الهدف هو العدو وقوته العسكرية بحيث تتحطم نظرية الأمن التى يحاول بناءها .

٤ — تحقيق المفاجأة الاستراتيجية والقضاء على القوة العسكرية الإسرائيلية فى ظل استراتيجية شاملة .

٥ — اضطرار العدو للقتال على جبهتين فى وقت واحد ، وفق الخطط التى تفرضها عليه القوات المسلحة المصرية والسورية .

وإذا ما تأملنا هذه الأهداف نجد أن القوات المسلحة المصرية ، ولأول مرة منذ بدأ الصراع العربى الإسرائيلى المسلح فى عام ١٩٤٨ ، قد عقدت العزم على أن تفرض على العدو نوع الاستراتيجية التى كان يستعملها . فكانت فى هذه المرة تضطره إلى أن يأخذ موقف الدفاع لا الهجوم ، وتقبل الضربة لا المبادأة بها ، وترغمه مضطرا على ظروف استراتيجية وتكتيكية فى غير صالحة ، بما يحقق

---

(١) الفريق محمد عبد الغنى الجمسى ، من حديث خاص مع المؤلفين، فى ١٩٧٤/٢/٢٨

للقوات المسلحة المصرية فرصة الردع وحرية الحركة والسيطرة على العمليات ، مع تضييق الخناق على العدو .

* * *

ويوم أول أكتوبر كان لا بد من عرض الخطط ومناقشتها . ثم إعطاء تمام الحرب لرئيس الجمهورية . وفى اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة ، بقاعة الاجتماعات بالقيادة العليا . . جلس قادة الأسلحة المختلفة ، كل يعرض مهمة قواته وخططها ، والرئيس أنور السادات القائد الأعلى للقوات المسلحة المصرية ، يستمع ويناقش ويتأكد ويستوثق ويعطى توجيهاته . وفى نهاية الاجتماع أعطى القادة تمام أسلحتهم . . .

* * *

وسجل التاريخ الرئيس انور السادات قوله لاعضاء المجلس :

« احمد الله اننا وصلنا الى هذه اللحظة . لنضع اللمسات الاخيرة على العمل ونقول للعالم اننا احياء . ويسترد شعبنا ثقته فى نفسه وفيكم ، وانا واثق ان كل فرد فى قواتنا المسلحة سيؤدى واجبه كاملا لاحساسه بمسئولياته تجاه وطنه وسأتحمل معكم المسئولية كاملة تاريخيا ومعنويا وماديا ، وفى نفس الوقت فاننى واثق ثقة كاملة فيكم ، وبانكم سوف تتصرفون بكل ثقة واطمئنان وحرية » .

ورد « الفريق أول » احمد اسماعيل على تصريح الرئيس فى هذه اللحظة التاريخية المفعمه بكل مشاعر ومعانى الوطنية والمسئولية والأمل ، قائلا :

« باسم القادة ، وباسم القوات المسلحة نعاهدكم ونعاهد شعب مصر ان تبذل اقصى جهد يتحمله بشر لتحقيق النصر لبلادنا ، ولتثقوا فى ان القادة متفائلون وفى مقدورهم تحقيق مهامهم ، واننا نشترك جميعا معكم فى المسئولية » .

* * *

القائد والمهمة

يوم وقف المشير أحمد إسماعيل يحلف اليمين إثر تعيينه وزيراً للحربية وقائدا عاماً للقوات المسلحة، قال له الرئيس السادات : إن القوات المسلحة المصرية بوضعها الحالى لم تأخذ الدفعة المناسبة لدخول المعركة ، ولابد من إعدادها لذلك .

ويقول القائد العام : « أنا لم أفعل كل شيء ، ولا أنسب لنفسى كل شيء ، لقد عملت بمساعدة الرجال الذين معى . وكل من تولى قبلى قيادة الجيش ساهم على قدر معرفته ، وحسب طريقته ، وفى حدود إمكاناته . الفريق أول فوزى ساهم وفق أسلوبه وإمكاناته ، والفريق صادق أيضا ساهم حسب مفهومه وإمكاناته »[1] .

وحينما تولى أحمد إسماعيل القيادة كان فكره مختلفا عن من سبقوه،وبصفة خاصة فيما يتصل **بالقتال وادارة الرجال** . كانت لديه ثقة كبيرة فى القوات المسلحة . وكان واثقا أنها بإمكاناتها المتاحة يمكن أن تفعل عملا كبيرا لمصر ، لو وثقت فى نفسها وفى سلاحها . وكان هذا هو محور حديثة دائماً مع رجاله . كان دائما يقول لهم أن ثقته كبيرة فى الجندى المصرى، وفى الضابط،وفى نفسه، وأنهم جميعا يمكن أن يحققوا معا إنجازاً كبيراً .

وأخذ القائد العام يركز على عملية بناء الثقة بالنفس شيئا فشيئا. ليس بالكلام وإنما بالإعداد والتدريب الشاق ، والتعرف على قدرة وطاقة الأسلحة ، وإبراز نقاط ضعف العدو ، وكيفية التغلب عليه . وكانت جهود معاونيه ، وروحهم العالية ، واستعداد الجميع للثأر وغسل العار ، عوامل هامة ساعدت على نجاح مهمة القائد العام فى بناء الثقة بالنفس وبالسلاح .

ويقول المشير أحمد إسماعيل : « لما تأكدت من استعادة الثقة ، ومن قدرة

---

(١) من حديث خاص أدلى به للمؤلفين .

القوات على القتال ، ومن ارتفاع معنوياتها ، وإيمان الأفراد بالنصر ، بدأت أتكلم مع الرئيس عن قدرتنا على عمل عملية معينة بشكل معين . وكان الرئيس قد اتخذ قرار الحرب من قبل . وبدأنا فى اتخاذ قرار معركة ٦ أكتوبر . لم يكن هناك حل سواه ، وكنت مقتنعاً بهذا تماما » .

ساحة المعركة ممتدة :

وكان على القائد العام أن يمتد ببصره إلى أرض المعركة خارج حدود سيناء وأن يمهد لها من خلال تحركات دولية هامة . ومن طريق هذه التحركات كان يريد أن يهيء ساحة المعركة على مستوى المنطقة كلها ، وذلك بهدف :

١ - إمكانية إحياء الجبهة الشرقية والتحرك الممكن على إمتدادها ، وتكتيل القوى المستعدة للعمل عليها إلى جانب الجيش السورى فى مواجهة العدو الإسرائيلى .

٢ — إغلاق باب المندب وقطع شريان المواصلات البحرية إلى ميناء إيلات بحصار خليج العقبة ابتداء من المدخل الرئيسى للبحر الأحمر .

٣ — منع استخدام جزر البحر الأحمر — وقت العمليات — ضد الأهداف المصرية ، وقطع الطريق على المحاولات الإسرائيلية للعمل بالطيران والبحرية من بعض القواعد الأثيوبية .

وذلك بالإضافة إلى التنسيق الكامل والتخطيط الموحد بين الجبهة المصرية والجبهة السورية ، فى إطار القيادة المشتركة التى يتولاها المشير أحمد إسماعيل قائد القوات الاتحادية .

ومن أجل الوصول إلى مواقف محددة من هذه النقاط كانت التحركات السرية لوزير الحربية على النحو التالى :

* فى مايو ١٩٧٣ قام بزيارة العراق ، والتقى مع قادة الجيش العراقى ، وبحث جوانب الموقف على الجبهة الشرقية . وكانت القيادة العسكرية المصرية السورية قد اجتمعت قبلها صباح يوم ٢ مايو للاتفاق النهائى على يوم الحرب (ى) وساعة الصفر (س) . بينما تم التخطيط فى مساء نفس اليوم للضربة الجوية المصرية السورية وتحددت أهدافها . ثم طار وزير الحربية إلى الكويت ، ودرس الموقف مع وزير الدفاع الكويتى .

* فى يولية ١٩٧٣ قام بجولة شاملة على طول الساحل الأفريقى للبحر الأحمر إبتداء من الصومال إلى أثيوبيا إلى السودان . وكان قد وضع الفكرة العامة للعملية الهجومية « بدر »، وانتهى يوم ٧ يوليو من تحديد الهدف الاستراتيجى العسكرى لهذه الخطة المشتركة التى تقوم بها القوات المصرية والقوات السورية على طوال الجبهتين فى القنال وفى الجولان . وجرت عدة اجتماعات عسكرية فى أديس أبابا بينه وبين قادة الجيش الأثيوبى .

* فى ٢ أكتوبر ١٩٧٣، طار إلى دمشق ـ بوصفه القائد العام للقوات الاتحادية ـ ودرس مع القيادة السورية تنسيق العمل على الجبهتين ، والتحديد النهائى لساعة الصفر (س) . وكان الرئيس أنور السادات قد عقد الاجتماع التاريخى مع المجلس الأعلى للقوات المسلحة المصرية يوم أول أكتوبر ، وأصدر قرار الحرب . وقد تحدد تنفيذه بعد خمسة أيام . وبعد اجتماع أحمد إسماعيل والقيادة السورية تم الاتفاق على الخطوط النهائية لعملية « بدر » . واعتمد الرئيس السورى حافظ الأسد الساعة الثانية (١٤٠٠) لبدء العمليات يوم ٦ أكتوبر . وتحددت هذه الساعة للتنسيق بين القيادة السورية التى كانت تريد العمل مع أول ضوء للفجر لمراعاة اتجاه الشمس ضد المواقع الإسرائيلية ، بينما كانت القيادة المصرية ترى أن تكون ساعة الصفر مع آخر ضوء للشمس حتى يكون الظلام ساترا لإقامة الكبارى والجسور عند عبور طلائع الجيشين الثانى والثالث عبر القناة ، ودخول المعدات الثقيلة والدبابات إلى سيناء تحت ستار الليل .

اعداد الدولة للحرب

إن المعارك الحربية تكسب فى الداخل أولا. ذلك أن خوض الحرب وتحقيق النصر تبدأ معاركه الأولى على الجبهة الداخلية . وهناك دروس وعبر على مدى التاريخ أبيدت فيها جيوش . وخسرت خلالها المعارك ، ومع ذلك فإن صلابة وتماسك الجبهة الداخلية واحتفاظها بمقوماتها ، واستمرارها فى العمل والإنتاج بكل طاقاتها ، كان مدخلا جديداً للنصر النهائى الحاسم ، الذى دعامته وقوف الجبهة الداخلية إلى جانب الجيش ، واستعداد الشعب لتقبل التضحيات ، والاحتفاظ بمعنويات عالية تمثل ذخيرة ووقوداً لتوليد طاقة الاستمرار فى الحرب .

من هنا كانت الجبهة الداخلية فى صلابتها وتماسكها وإعدادها وتدعيمها ، فى مقدمة اهتمامات الرئيس السادات . وحينما اتخذ قرار المعركة ، كان واضحاً فى تصريحه بأن ما يشغله لم يكن أمر إعداد وتعبئة القوات المسلحة ، فقد كان مطمئنا إلى أن أمورها تسير فى الطريق المنشود ، بقدر ما كانت الجبهة الداخلية وإعداد الدولة للحرب هى مصدر قلقه واهتمامه ، على نحو ما ألمحنا إليه سلفا .

وقد عرضنا فى الفصل الثانى ، من القسم الثانى ، كيف أعاد الرئيس السادات بناء المجتمع المصرى معنويا ونفسيا . ونتعرض هنا فى إيجاز تام للمسات الأخيرة فى عملية إعداد الجبهة الداخلية للحرب . ذلك أن أى محاولة لاستعراض الجهود المضنية المتواصلة ، التى بذلتها كافة قطاعات الدولة المدنية ومؤسساتها العامة والخاصة على مدى سنوات ست لإعداد الدولة للحرب ، ووضع الجبهة الداخلية فى حالة التأهب الكامل ، لا يمكن بحال — فى إطار فكرة هذا الكتاب — أن تلم سوى بنظرة عابرة على عمل ضخم ومتصل ، فى مجالات الدفاع الشعبى والمقاومة الشعبية ، والدفاع المدنى والإنقاذ والإطفاء ، وأمن الدولة ، والإنشاء والتشييد والإنتاج والتصفيع ، والصحة والتموين والإعلام ، وتوفير وتخزين السلع الاستراتيجية . . إلخ .

ويقول السيد ممدوح سالم إن إعداد الدولة للحرب كان يسير في خط متوازى مع بناء القوات المسلحة . ولقد استهدف هذا العمل الضخم ، مساندة القوات المسلحة ودعمها ،وحماية ظهرها، وتمكينها من منح كل اهتمامها للمعركة ، وتفويت الفرصة على العدو فى التسلل وتخريب الأهداف الحيوية ، وإعاقة اقتصاد البلاد ، وإشاعة البلبلة والفوضى والتأثير على الروح المعنوية . وكانت طبيعة المعركه التى تستعد مصر لخوضها تفرض على كافة أجهزة الدولة والقطاع العام والخاص ، وأجهزة الدفاع الشعبى والمقاومة الشعبية ، والمؤسسات السياسية والجماهيرية ، مسئوليات أكبر وأشمل من كل مامر بها . ليس ذلك فقط نتيجة لامتداد المعركة واتساعها وتطور الأسلحة المستخدمة فيها ، ولكنه كان أيضاً نتيجة لتفكير العدو ، والدرس الذى استخلصه من حرب ١٩٦٧ ، حينما تأكد له أن النصر العسكرى وحده لم يحقق أغراضه العسكرية والسياسية النهائية ، مما يغريه على تركيز عدوانه على الجبهة الداخلية[١].

إن الجهود الكبيرة الواعية التى بذلت من أجل إعداد الدولة للحرب ، تستحق مؤلفاً ضخماً على نفس مستواها ، نأمل أن يجد طريقه إلى القارىء يوماً من الأيام . وإذ نعرض هنا لمحات من بعض القطاعات ، فإننا نحاول فقط أن نوضح كيف ارتبط دورها بقرار الحرب . دون أن نتعرض للجهود الضخمة التى بذلتها فى طور الإعداد والاستعداد وتعبئة إمكاناتها من أجل المعركة[٢] .

أولا : الإعلام :

كان الرئيس السادات فى وقت مبكر قد طلب إلى كل القطاعات المدنية أن تعد نفسها إعداداً كاملا وأن تعبىء إمكاناتها تعبئة شاملة لمواجهة متطلبات المعركة . ونبه الرئيس إلى ضرورة الاهتمام بتخزين المواد الاستراتيجية وتدبير احتياطيات كافية من السلع التموينية . وبنفس القدر من الأهمية ركز الرئيس على ضرورة

(١) السيد ممدوح سالم : حديث خاص مع المؤلفين ، فى ١٩٧٤/٣/٢٤ .

(٢) نقدم هنا عددا محدوداً من الأمثله لما كان يجرى ببعض القطاعات ، ذلك أن تغطية هذا الجانب فى شمول لا يتسع له المجال .

اكتساب سلوك الحرب لدى الجماهير ، والعمل على تشكيل اتجاهاتها فى هذا الصدد بما يتناسب مع دورها ومسئولياتها ، ويجعلها قادرة على تحقيق الصمود والنصر خلال معركة مصيرية تنتظرها .

وحينما قرر الرئيس أن يأخذ قدره بيده لم يكن يعنى فقط تحمل كافة مسئولياته كقائد أعلى للقوات المسلحة ، وإنما أيضاً تولى المسئولية المباشرة فى قيادة الجبهة الداخلية صوب إعداد الدولة للحرب. وقد وضح هذا بصفة خاصة حينما قرر الرئيس تولى رياسة مجلس الوزراء فى وزارة المواجهة الشاملة ، التى أولاها التاريخ شرف مسئوليات الحرب .

وكانت توجيهات الرئيس فى مجلس الوزراء وتصرفاته الواضحة كلها صريحة ومحددة فى ضرورة العمل الجاد لإعداد الدولة للحرب .

يقول الدكتور عبد القادر حاتم :

«استدعانى الرئيس السادات قبل بدء المعركة بأسبوع الى منزله بالجيزة ، وكنا نحن الاثنين فقط ، وكان اخطر واقصر لقاء .. استغرق نصف دقيقة ... قال فيها الرئيس ... يا حاتم الموعد الساعة الثانية بعد ظهر يوم السبت » .

ورد الدكتور حاتم : « على بركة الله ... » .

وشد الرئيس على يد نائب رئيس الوزراء . وعاد الدكتور حاتم من فوره إلى مكتبه ، ليبدأ الفصل الأخير . . . كان كل شىء قد صار معداً فى انتظار البدء ، لتدور عجلة تنفيذية ضخمة على مستوى الدولة .

وقبل ساعة الصفر بنصف ساعة ، عقد الدكتور حاتم اجتماعاً بمكتبه ، حضره المسئولون عن كافة أجهزة الاعلام ووسائله المختلفة بالدولة ، وأعلنهم أن القوات المسلحة المصرية سوف تبدأ هجوماً شاملا على طول مواجهة جبهة سيناء بعد نصف ساعة، وأن عليهم تنفيذ برامج الخطط الإعلامية المحددة سلفاً لهذا اليوم التاريخى .

وكان واضحاً وصريحاً فى إعلانهم بأن أولى متطلبات النصر هى احتفاظ وسائل الإعلام بإصبعها على نبض المعركة والجماهير ، والتمسك بقواعد الإعلام الهادىء المتزن الصادق ، الذى يكتسب الثقة ويبث الطمأنينة . وأكد الدكتور حاتم على عدد من المبادىء الأساسية ، على الإعلام المصرى أن يتمسك بها :

١ — أن تتصف الحملة الإعلامية بالموضوعية، وأن يكون نهجها : **لا تهويل ولا تهوين** .

٢ — التزام جانب الصدق المؤسس على الحقائق المتيقنة .

٣ — اعتماد الإعلام على الأفعال لا الأقوال ، ومخاطبة العقول لا العواطف .

٤ — احتفاظ الإعلام بالهدوء والاتزان ، وتجنب الإثارة والتشنج .

٥ — الحذر واليقظة لكل محاولات الحرب النفسية بصورها المختلفة التى يلجأ إليها العدو .

٦ — السرعة والفورية فى نقل الأنباء .

ويقول الدكتور حاتم إن احتفاظ وسائل الإعلام المصرية بنغمتها الهادئة الرزينة الواثقة خلال المعارك واتصافه بالصدق كان عاملا هاماً فى اتجاه الشعب بالداخل والعالم الخارجى إلى الإعلام المصرى لمعرفة الحقائق ومتابعة سير المعارك . إذ لم ينزلق الإعلام المصرى ولم يكذب ولم يتخبط ، على النحو الذى سار فيه إعلام العدو .

وإذا كان الإعلام المصرى قد كسب معركته خلال الحرب، على الرغم من المفاجأة فقد كان الإعلام موفقا أيضا خلال الفترة التى سبقت الحرب . وذلك من خلال خطة مدروسة وهادفة أعلنها الدكتور حاتم أمام مجلس الشعب . وقد أسهمت هذه الخطه فى تعبئة الشعب للمعركة ، وتوعيته بمتطلباتها ، ومواجهة ضروب الحرب النفسيه ، وتكتيل جبهة داخلية قوية من ناحية ، وتهيئة رأى عام عالمى فى صالحنا ، والتعبير عند رغبتنا فى السلام ، والجهود التى تبذلها مصر للوصول إلى تسوية عادلة من ناحية أخرى .

وقد عبر الدكتور هنرى كيسنجر عن هذا فى لقاء مع الدكتور حاتم بقوله:

« كنا نأخذ كل الأنباء والمعلومات التى تصدر عن كافة وسائل الإعلام المصرية ، ونغذى بها الحاسب الإلكترونى (الكومبيوتر) لنصل إلى إجابة محددة عن نوايا كم بصدد الحرب . . . وفى كل مرة كنا نفعل ذلك كان الحاسب يجيب بالنفى ... لقد نجح الإعلام المصرى فى تضليلنا تماماً »[1] .

أما عن مسئوليات الجبهة الداخلية ، فيقول الدكتور حاتم ، أن الرئيس عندما شعر بأن مهام قيادة المعركة عن قرب ومتابعة أحداثها وتطورها سوف يستحوذ على كل اهتمامه ، قرر الرئيس يوم ٥ أكتوبر تشكيل لجنة العمل العليا . وقد ضم تشكيل هذه اللجنة كافة مؤسسات الدولة ، واختصت بمباشرة مسئوليات الجبهة الداخلية خلال الحرب . واشترك فى عضويتها :

رئيس مجلس الشعب .

أمين أول اللجنة المركزية .

نواب رئيس الوزراء .

مستشار الرئيس للأمن القومى .

وزير الخارجية .

مدير المخابرات العامة

وكانت لجنة العمل العليا تجتمع يوميا لساعات طويلة ، تتابع سير المعركة ، وتقيم الموقف العام بصفة مستمرة فى ضوء تطور الأحداث السريع ، وتتخذ القرارات المناسبة لمواجهة متطلبات المعركة والجبهة الداخلية .

وبذلك أعفى الرئيس السادات من الانشغال بمسئوليات واحتياجات الجبهة الداخلية ، ومنح الفرصة للتفرغ للإشراف على سير المعركة ، ومتابعة الموقف العربى والدولى ، واتخاذ القرارات على مستواه كرئيس للجمهورية .

---

(١) الدكتور عبد القادر حاتم : حديث خاص مع المؤلفين ، فى ١٩٧٤/٣/١١ .

ثانيا : الجبهة الداخلية :

فى شهر يونيو ١٩٧٣ ، عقـد الرئيس السادات اجتماعا موسعاً فى استراحة برج العرب ، حضره الأمين الأول للجنة المركزية بالاتحاد الاشتراكى العربى ، ونائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية ، والمحافظون وأمناء الاتحاد الاشتراكى . ولم يذع شىء عن هذا الاجتماع فى حينه ، ولا عن الهدف منه . فقد كان اجتماع عمل جاد وهادف : ويقول السيد ممدوح سالم :

« كان الرئيس فى هذا الاجتماع واضحا ومحددا . وكان الهدف منه :

أولا : الاطمئنان على تمام إعداد الجبهة الداخلية للحرب .

ثانيا : إعلان القيادات السياسية والتنفيذية بأننا قادمون على تنفيذ قرار المعركة القاطع فى وقت قريب » .

وفى هذا الاجتماع شرح الرئيس أبعاد الموقف الداخلى والخارجى ، وتم مناقشة كافة الخطط ، والإعداد ، والإمكانات ، ومدى الاستعداد على مستوى محافظات الجمهورية وأصدر الرئيس توجيهاته إلى المحافظين وأمناء الاتحاد الاشتراكى. وحملهم مسئوليات العمل الفورى لتعبئة كافة إمكانات القطاعات على مستوى المحافظات، ووضع الجبهة الداخلية فى حالة تأهب، وتعبئة شاملة لمواجهة المعركة.

ويقول السيد ممدوح سالم ، إن الرئيس السادات كان يستوثق بشخصه من آن لآخر من مدى كفاية إعداد الدولة للحرب . ومن الأمثلة فى هذا الصدد أن الرئيس استقل طائرة هليكوبتر من قنا ومعه نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية ، وهبطا بها عند محطة محولات نجع حمادى – وهى نفس المحطة التى تعرضت لعملية تخريب سابقة من العدو – وفى هذه الزيارة تأكد الرئيس من أن الصورة تغيرت ، وأن الحراسات المشددة على مستوى الكفاية وتقدير المسئولية واليقظة ، واحتياطات الأمن منفذة ، وكافة الأجهزة المسئولة تدرك أبعاد مهامها ومسئولياتها [١] :

---

(١) السيد ممدوح سالم : الحديث السابق .

وفى يوم ١٤ أغسطس ، قام السيد ممدوح سالم بالمرور على عدد من محافظات الجمهورية التى تمثل خط المواجهة مع العدو . وفى هذه المرة بالذات — ولأول مرة — كانت تعليماته صريحة ومحددة ، بأنه يتعين عدم نشر أى أنباء عن هذه الجولة . وقد كان الإصرار من جانبه على تكتم زياراته للمحافظات القريبة من خط المواجهة الأول يعنى بالنسبة للعاملين معه عن قرب ، أن الأمور بدأت تأخذ طابع « الجدية » هذه المرة .

وكان الهدف الأساسى من هذه الجولة التأكد من تمام الاستعداد وتدارك الملاحظات ، وإعطاء التوجيهات الأخيرة وأنهى نائب رئيس الوزراء زياراته ومروره على المحافظات يوم ١٨ سبتمبر ١٩٧٣ .

وفى يوم ٣٠ سبتمبر ١٩٧٣ ، عقد اجتماعا فى مكتبه بوزارة الداخلية حضره كافة القيادات المسئولة بوزارة الداخلية ، ومديرى الأمن . وفى هذا الاجتماع ، أعلن السيد ممدوح سالم مساعديه وقادة أجهزة الأمن بأن الجبهة الداخلية يجب أن تأخذ وضع الاستعداد الكامل للحرب على الوجه الأكمل وعلى الفور . وحدد النقاط التاليه للعمل :

١ — تعبئة كل القوى البشرية المدربة على الدفاع المدنى وخدمة المعركة .

٢ — إعلان حالة التأهب القصوى بالحراسات المشددة . ورفع درجة استعدادها . وتفهيم الأفراد بطبيعة واجبهم فى الاستماته فى الدفاع عن هذه الأهداف . والاهتمام برفع روحهم المعنوية .

٣ — المبادرة باستكمال الملاحظات المتعلقة بخطط الدفاع المدنى ، وجعل هذه الخطط قابلة للتنفيذ تماما .

٤ — التأكد من أن غرف العمليات بكل جهة على أتم الاستعداد لبدء مهمتها .

٥ — مسئولية الشرطة العامة فى تنفيذ خطة التعبئة .

٦ — تنفيذ الخطط الموضوعة لانتشار القوات .

وفى نهاية الاجتماع أعلن السيد ممدوح سالم أن كل مدير أمن فور بدء المعارك، عليه أن يباشر اختصاصات وزير الداخلية فى إقليمه ، فقد تحتم الظروف أن تنقطع الاتصالات بفعل الحرب ، ويصبح على كل مدير أن يتصرف دون الرجوع للوزارة

وقبل أن يغادر القادة الاجتماع أصدر السيد ممدوح سالم قراراً بإعلان حالة الاستعداد بين قوات الشرطة على مستوى الجمهورية ، على النحو التالى :

- **تعلن الحالة «أ» اعتبارا من يوم ٣ اكتوبر وتسرى حتى نهاية يوم ٤ اكتوبر.**
- **تعلن الحالة «ب» اعتبارا من يوم ٥ اكتوبر وتسرى بعد ذلك الى حين صدور تعليمات باعلان حالة التعبئة القصوى «ج» لقوات الشرطة .**

وفى الساعة الواحدة والنصف بعد ظهر يوم السبت ٦ أكتوبر ١٩٧٣ . بلغت الأمور ذروتها ، ونشطت أجهزة اتصالات الشرطة معلنة الحالة « ج » ، قبل بدء المعركة بنصف ساعة ، وعبئت كافة القوات فى خدمة المعركة .

وأثناء الحرب عملت أجهزة الأمن الجنائى والسياسى، وأجهزة الدفاع المدنى ، والدفاع الشعبى ، والمقاومة الشعبية على أعلى درجة من تقدير المسئولية والإلتزام بالواجب . لقد كان الجميع تواقين إلى شرف أداء هذا الدور فى لحظة من لحظات الوطن التاريخية . وحينما حاول العدو مراراً أن يكرر مغامراته التى كان يمارسها فى الماضى، ويتسلل إلى الجبهة الداخلية للقيام بعمليات التخريب والإزعاج والحرب النفسية ، تصدت له هذه الأجهزة والتنظيمات وأرغمته على الفرار . لقد قام العدو بأكثر من ٦ محاولات تسلل عبر حدود مصر فى ليلة واحدة ، وفى ليلة أخرى قام بثلاث محاولات للتسلل إلى محافظة الشرقية لإجراء عمليات تخريب محدودة . وقد باءت كل محاولاته هذه بالفشل .

ويضيف السيد ممدوح سالم : « لقد كان الإحساس بالوطنية والشعور بالمسئولية متأججاً وفى قمة روعته ، ولم يكن يدهشنى أن أرى يومية الحوادث الجنائية خالية من الجرائم. حقاً لقد أخرجت الحرب من مواطنينا أفضل ما فيهم»

ثالثا : البترول :

البترول أحد دعامات الحياة الهامة فى السلم والحرب . وأى خلل فى نظامه يعرض البلاد والقوات المسلحة لأفدح الأخطار . وإذا نظرنا إلى الظروف الخاصة بمصر والموقف عند بدء المعركة ، أمكن أن ندرك نوع المسئولية التى ألقيت على قطاع البترول والتحديات التى واجهها .

فأكثر من ثلاثة أرباع إنتاج البترول المصرى يأتى من حقول منطقة البحر الأحمر وخليج السويس ، وهى المنطقة التى كان واضحاً أنها ستصبح مسرح العمليات العسكرية . وكان لزاما على وزارة البترول أن تضع خططاً بديلة تضمن استمرار تموين البلاد والقوات المسلحة باحتياجاتها من الوقود عند بدء الحرب .

ويقول المهندس أحمد عز الدين هلال وزير البترول، إن الرئيس السادات قد تولى بنفسه تدبير إمداد مصر باحتياجاتها من البترول الخام من البلاد العربية الشقيقة ، وقد أسهمت كل من الجزائر والمملكة العربيــة السعودية وليبيا فى تزويد مصر باحتياجاتها من الإمدادات الخارجية . وبفضل هذا التعاون العربى ، وحسن إدارة عمليات النقل والتوزيع ، استطاعت مصر أن تتجنب أزمة البترول .

لقد كان الإعداد للحرب فيما يتصل بالبترول يتضمن موضوعين أساسيين :

الأول : ضمان وجود رصيد كاف من البترول ومنتجاته . وزيادة هذا الرصيد إلى حد الأمان للقوات المسلحة والقطاع المـــدنى ، بحيث نتجنب أى أزمة خلال المعركة .

الثانى : إغلاق حقول البترول المصرية بمنطقة البحر الأحمر قبل بدء المعركة . وهى الحقول التى تمد مصر بحوالى ٨٠٪ من احتياجاتها البترولية .

ويقول وزير البترول ، أنه بالنسبة للأمر الأول ، فإن الأمر كان يتطلب توفير ¾ مليون برميل من البترول . وقد تمكن الرئيس السادات من تدبير هذه الكمية ، التى قدمتها المملكة العربية السعودية هدية لمصر .

أما بالنسبة للأمر الثانى — وهو إغلاق حقول البترول فى الجنوب بمنطقة البحر الأحمر — فقـــد سأل الرئيس وزير البترول عن الوقت الذى يحتاجه لإغلاقها . وكان ذلك خلال لقاء عقده الرئيس مع الوزير يوم ٢ أبريل ١٩٧٣ ، أى قبل بدء الحرب بستة شهور . وأجاب الوزير بأنه يحتاج إلى زمن من ١٦ إلى ١٨ ساعة . فقال له الرئيس : سوف أخطرك قبل الحرب بمدة ٤٨ ساعة .

وبعد هذا اللقاء قام الوزير بزيارة لحقول البترول فى الجنوب . وأجرى عدداً من الدراسات ، والتجارب لتقييم الموقف . وكان الهدف اختصار الوقت الذى تستغرقه عملية إغلاق حقل مرجان . وكان حريصا على أن يبدو الأمر طبيعيا . وأمكن فعلا التوصل إلى إمكانية إغلاق الحقل فى ست ساعات . وأخطر الرئيس بالنتيجة .

وفى ظهر يوم الجمعة ٥ أكتوبر ، طلب الرئيس من وزير البترول أن يكون كل شىء على أهبة الاستعداد لتنفيذ الخطة فى تمام الساعة الثانية بعد ظهر يوم السبت ٦ أكتوبر .. وكانت خطة التمويه تقضى ببقاء شعلة حقل بترول مرجان مضاءة حتى ساعه الصفر . لـكى لا يـكون فى إطفائها فى وقت مبكر ما يستلفت نظر العدو .. وتم كل شىء بنجاح حسب الخطة الموضوعة .

* * *

هذه أمثلة لمـا كان يجرى إعداده فى كافة القطاعات . الخطط متكاملة ، والقرارات تتخذ ، وعندما حانت ساعة الصفر داخل غرفة عمليات القيادة العامة للقوات المسلحة ، وأطلق الرئيس السادات . . « الشرارة » ، كانت الدوله كلها تعمل فى خدمة المعركة بكامل طاقاتها وفى تنسيق تام .

* * *

الفصل الثانى

التخطيط والإعداد [1]

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط
الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين
من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم » .
(قرآن كريم)

يقول بولدوين المعلق العسكرى الأمريكى لجريدة نيويورك تايمز فى سياق الحديث عن كفاية المخابرات الإسرائيلية ، ونشاطها فى العالم :[2]

« تحصل المخابرات الإسرائيلية وقوامها حوالى ٣٠٠ شخص ، والمخابرات البريطانية وقوامها حوالى ٣٠٠٠ شخص ، على المعلومات والتحليلات التى تحدد السياسة القومية للولايات المتحدة ، على نحو أكثر دقة من المخابرات الأمريكية على ضخامة جهازها » .

---

(١) المعلومات العسكرية الواردة فى هذا الجزء مستمدة أساساً من الأحاديث والبيانات والمحاضرات التى ألقاها المشير أحمد اسماعيل ، الفريق سعد الشاذلى ، الفريق محمد عبد الغنى الجمسى ، اللواء محمد فايق البوريني ، اللواء عمر جوهر ، اللواء عز الدين مختار ، اللواء سعد مأمون ، اللواء حسن الجريدلى، اللواء أحمد بدوى، اللواء فؤاد عزيز غالى .

(٢) النيويورك تايمز ، فى ٢ يناير ١٩٧٣ ، ص ٦

وهذا الرأى يعكس إلى أى مدى تنشط المخابرات الإسرائيلية ، وهى جزء لا يتجزأ من مخابرات المركز الصهيونى العالمى، وإلى أى مدى تبذل جهوداً ضخمة فى سبيل جمع المعلومات عن دول العالم المختلفة ، فما بالك بالدول العربية .

ومن هنا فإن التخطيط لحرب أكتوبر كان يواجه تحديات ضخمة ، لعل من أبرزها القدرة على الحفاظ على سرية الخطط ، والحيلولة دون تسربها . ليس فقط فيما يتعلق بالمعلومات ، وإنما أيضاً النوايا والأفكار . وذلك فى مواجهة جهاز مخابرات متفوق ونشط بكل أنحاء العالم فى خدمة أغراض العدو ، وبصفة خاصة بالعالم العربى . ونجح العرب إلى أبعد مدى فى الحفاظ على سرية خططهم وفشلت مخابرات إسرائيل وعملاؤها ومجندوها وتجار المعلومات إلى أبعد مدى أيضاً فى اختراق حاجز السرية . وتقول مجلة تايم فى هذا الصدد[1] :

« إن أشياء كثيرة قد تغيرت فى العرب . ولعل من أعظم ما تغير فيهم واسترعى انتباه العالم هو قدرتهم على الاحتفاظ بسر بين أكثر من شخص ، بل وبين أكثر من دولة » . وكانت هذه المفاجأة الملفتة للنظر ـ القدرة على الاحتفاظ بالسر ـ ظاهرة حضارية ذات شأن، وبادرة تحول هام فى أسلوب حياة وعمل العرب.

ويقول الفريق الجمسى[2] :

«ان أعظم حقائق هذه الحرب انها اثبتت للعالم– ولنا– قوة الامكانات الذاتية للقوات المسلحة ولشعب مصر . فقد كانت المعركة مصرية ١٠٠ ٪ ، سواء فيما يتعلق بالقرار ، او التخطيط ، او التنفيذ ، اوادارة المعارك وتقدير الموقف . كما كانت مصرية صميمة فى خبراتها ومفكريها . ولقد ساعدتنا المعركة على ان نكتشف حقائق كثيرة لصالحنا عن انفسنا ، وان نتأكد من اننا لم نقف عند حد استيعاب معطيات التقدم العلمى والتكنولوجى فحسب ، وانما طورناها ايضا بما يلائم واقعنا وظروفنا واحتياجاتنا » .

---

(١) مجلة تايم، فى ٢٩ أكتوبر ١٩٧٣ ،ص ٢٣ .

(٢) الفريق محمد عبد الغنى الجمسى ، حديث خاص مع المؤلفين .

تقدير الموقف

إن التخطيط العلمى هو ما كان أيضاً واقعياً . بمعنى أنه إلى جانب اهتمام التخطيط بالأسس والنظريات العلمية،فإنه يجب أن يتلاءم مع الواقع والإمكانات، والظروف العملية والميدانية التي يفرضها الموقف . وعند وضع الخطة كان هناك عاملان هامان يفرضان نفسهما على فكر المخططين .

الأول : وجود قناة السويس كمانع مائى ضخم يتعين على القوات عبوره .

الثانى : خط بارليف الحصين بقلاعه المدرعة ونقطه القوية .

قناة السويس :

بالنسبة لعبور قناة السويس ، فإنها كانت تمثل أضخم وأصعب مانعاً مائياً صادف أى جيش من قبل ، وذلك بسبب جغرافيتها وحركة المياه فيها . فطول القناة حوالى ١٧٥ كيلومترا . وعرضها يتراوح بين ١٨٠ ، ٢٠٠ متراً . وعمقها حوالى ١٦ متراً . وجوانب القناة مكسوة بالحجر والأسمنت من الجانبين . وعلى جانبي القاع شرائح من الصلب لتقويتها ولتحول دون انهيار الجانبين . ويتفاوت المد والجذر فى القناة من ٦٠ إلى ١٨٠ سم . وتختلف سرعة تيار مائها من ١٨ متراً شمالا إلى ٩٠ متراً جنوبا فى الدقيقة الواحدة . ويتغير اتجاه التيار فى القناة شمالا وجنوبا مرة كل ست ساعات ، بمعدل أربع مرات فى اليوم الواحد .

وهكذا فإن القناة كمانع مائى كانت تمثل عدداً من المشاكل الهندسية التى كان على الجيش المصرى أن يتعامل معها ، وأن يتغلب عليها بمهارة فائقة .

ومن أهم هـــذه المشاكل أن الفرق بين المد والجذر كان يصل أحياناً إلى ١٨٠ سم . وهذا فى ذاته كان يخلق مشكلة واضحة فى العبور والرسو نظراً لاختلاف المنسوب بين الشرق والغرب .

كذلك فإن اتجاه التيار فى القناة كان يتغير فى فترات متعاقبة . وكان هذا العامل يمثل مشكلة فنية يجب أن توضع فى الاعتبار عند تصميم المعابر،وفى تدريب القوات على العبور بالزوارق ، واختيار أماكن العبور والمراسى .

وكان لابد أيضاً من حساب توقيت الهجوم فلكياً ، بالنسبة لحالة القمر . والبحر والضباب والريح ، عن طريق الاستعانة بعلم الهيدومترولورجى .

خط بارليف :

كان خط بارليف يمتد موازياً لمجرى القناة ، بطول ١٧٥ كم . ويصل عمقه داخل سيناء إلى مساحات تتراوح بين ١٠ ، ١٢ كم . ويحوى الخط ٢٥ موقعاً حصيناً رئيسياً أشبه بقلاع ممتدة على طول القناة ، إبتداء من عيون موسى جنوباً إلى شرق بور فؤاد شمالا . وهو مكون من عدد من الخطوط المتتالية داخل سيناء .

الخط الأول :

كان العدو قد أنشأ على طول الشاطىء الشرقى للقناة ساتراً ترابياً متصلا يتراوح ارتفاعه من ١٢ إلى ٢٠ متراً ، وليس به ثغرة واحدة .

وعلى مسافة كل ٢٠٠ متر على الساتر دفع العدو التراب إلى الماء ووضع مرابض للدبابات حتى يركب الساتر الترابى فى أى لحظة بالدبابات بحيث يتمكن من تغطية القناة والضفة الغربية بستارة من النيران .

احتوى خط بارليف على ٢٠٦ ملجأ كبيراً ، وكذلك ٤٦٢ حصناً للأسلحة والدبابات . مجهزة بتكسية كثيفة . وهذه التحصينات والملاجىء كان يمكن أن تتحمل قنابل تزن أكثر من ١٠٠٠ رطل ،ولا تؤثر فيها نيران المدفعيةولا القصف الجوى. ومخزون بها ذخيرة وتموين تكفى لمدة شهر.وبها قوات كافية للدفاع عنها. وكان يوجد حول كل نقطة حصينة فى الخط ٧٣ نطاقا من الألغام والأسلاك الشائكة.

وهكذا كانت تحصينات العدو ودفاعاته ضد أى هجوم مصرى تتكون من

الساتر الترابى ، الدشم ، الملاجىء ، نقط الملاحظة ، مرابض الدبابات ، مواقع من ألغام وأسلاك شائكة ، ونقط ملاحظة . بالإضافة إلى خزانات وقود محصنة تحت الأرض ، يحوى كل منها ٣٠٠ طنا ، وموصلة إلى القناة بأنابيب ضخمة ، وهذا الوقود كان يكفى لإشعال القناة بستارة من النيران لفترة طويلة .

وفى الواقع أن أى محاولة لوصف خط بارليف ، وبصفة خاصة القلاع الحصينة التى اشتمل عليها ، لا يمكن أن ترقى إلى تصوير الواقع أو تدنو منه . وعندما اتيحت لنا فرصة زيادة الجبهة ، ومشاهدة قلعة عيون موسى على سبيل المثال : تأكد لنا أى عمل خارق قامت به القوات المصرية . وليس من شك فى أن جسارة الجندى المصرى وفدائيته ، إلى جانب المفاجأة التامة للعدو ، قد أدخلت الهلع والفزع فى قلوب الذين استكبروا . . . فخارت عزائمهم .

الخط الثانى :

وقد كان على مسافة من ٣ إلى ٥ كيلومترات . وهو موقع دفاعى خلف الخط الأول . يحتل أساساً باحتياطيات من المدرعات ووحدات مدفعية ميكانيكية .

الخط الثالث :

وكان على مسافة من ١٠ إلى ١٢ كيلومتراً ، ويمتد موازياً للخطين السابقين . وكانت به تجهيزات هندسية أخرى وتحتله احتياطيات أكبر من القوات المدرعة بصفة رئيسية ، إلى جانب المدفعية .

لقد أنفقت إسرائيل قرابة ٢٥٠ مليونا من الجنيهات على هذه التحصينات . وعندما أتموها اعتقدوا أنهم بذلك قد أقاموا نظاماً منيعاً لأمن إسرائيل ، لا يمكن اختراقه بحال . ومن المؤكد أن إسرائيل لم تكن لتنفق هذه المبالغ الطائلة بحال إلا إذا كانت تثق فى أنها تحقق لها عائداً من الأمن العسكرى يفوق ما تكلفته .

وكانت ثقة إسرائيل لاحدود لها فى خط بارليف . يستفاد ذلك من تصريحات وتأكيدات قادتها التى رددوها فى مناسبات مختلفة. قال ديان فى ١٩٧١/٩/١٩ :

« إذا حاول المصريون عبـــور القناة فسوف يتم إبادة قواتهم وتحويلها إلى رماد » .

وقال حاييم بارليف ، مصمم هذا الخط والمسمى باسمه :

« يستحيل اجتياز القوات المصرية لهذا الخط الذى يشكل خطراً دائماً لها » .

وقال هيرتزج أبرز المعلقين العسكريين :

« إن عبور القناة عمل عسكرى غاية فى الخطورة،وأشك فى أن القيادة المصرية تجرؤ على القيام به » .

كانت هذه هى الصورة ، أو على الأصح بعض جوانب الواقع عند التفـكير فى وضع الخطط.ولم يكن شيئاً من هذا الواقع فى صف القوات المسلحة المصرية.وكان عليها أن تحسب علمياً كل ماترمز إليه هذه الحقائق،وأن تضع تقديراتها على أساس من القياس الواقعى لمتطلبات كل مرحلة من مراحل العمليات، وأن تخطط للنصر لا بفضل توفر كل مقوماته وعناصره ، وإنما بالرغم من كل الاعتبارات والظروف والعوامل التى قدمناها .

نحن والعدو :

إسرائيل :

كان العدو متحصناً فى خط بارليف المنيع . ومن حوله حقول ألغام وموانع شائـكة بعمق ٧٣ نطاقاً ، من وراء ساتر ترابى متصـــل متوسط ارتفاعه ١٥ متراً،تعلوه مرابض دبابات ورشاشات على مسافات ٢٠٠ متراً بين كل مربض وآخر.وكان يستطيع من مواقعه المرتفعة أن يرى الجبهة المصرية مكشوفة أمامه... وكانت مدافعه وصواريخه تستطيع أن تصل إلى أهدافها بمدن القناة بسهولة .

وكانت نقط تحصينات العدو فى خط بارليف تضم الموجهين للمدفعية والطيران لتصحيح القصف على الجبهة المصرية . وكان يعتمد كلية على قوة المدرعات ، حتى

المشاة كانت محمولة . وخلال المعارك لم يكن هناك جندى إسرائيلى يسير على قدميه ، كانوا جميعاً محمولين على جنازير أو إطارات فى الدبابات والمدرعات .

وكان العدو قادراً من خلال الضغط على مجموعة من الأزرار على أن يشعل القناة بالنار طولا وعرضاً . وهذا السلاح وحده كان من الممكن أن يجعل الزوارق المطاط المستخدمة فى العبور وقوداً إضافياً طعمة للنيران ، يتميز بسهولة الاشتعال وبطء الاحتراق .

وفى كل نقطة حصينة فى خط بارليف كان يوجد عدد من المستودعات المملوءة بمادة سريعة الاشتعال ، تمتد منها أنابيب ذات فتحات ضخمة تنتهى عند حافة قناة السويس . وفى كل نقطة كان يوجد مركز تحكم يمكن بواسطته رش المادة المشتعلة فوق سطح مياه القناة ، وهذه يمكن اشعالها بقنابل حارقة ، لتصبح القناة فى برهة قصيرة أشبه بالجحيم عند أى محاولة للعبور .

وعندما اكتشف الجيش المصرى هذه الأنابيب ، اتجه التفكير إلى ضرورة العمل على ابطال مفعولها . ويقول الفريق سعد الشاذلى إن التجارب أثبتت أن إخماد هذه النيران كان يتطلب نصف ساعة على الأقل ، إذا لم يحاول العدو الدفع بمادة مشتعلة جديدة على سطح الماء .

وقد فكرت القيادة المصرية فى بادىء الأمر فى نسف هـذه المستودعات . ولكن تقارير الاستطلاع أكدت أن العدو يحتفظ بمستودعات الوقود فى أماكن محصنة ضد قصف المدفعية تحت سطح الأرض . وكان البديل الآخر هو أن تقوم جماعات من الفرق الخاصة بسد فتحات هذه الأنابيب عند حافة القناة بالأسمنت .

وبالفعل قامت جماعات الكوماندوز مساء الجمعة ـ وهو اليوم السابق على الحرب ـ بسد فتحات الأنابيب . ولم يدرك الإسرائيليون وقتئذ أن هذا الإجراء كان بداية مقدمات خطة شاملة لبدء هجوم كاسح ، عندما اكتشفوا فى صباح السبت — يوم الحرب — عند نقطة واحدة من خط بارليف أن الأنابيب قد عطلت ،

واستدعوا أحد المهندسين لإصلاحها . وقد كان هذا المهندس هو نفسه الذى صمم المشروع . وعندما سئل بعد أسره اعترف بأنه كان قد وصل إلى المنطقة فى جولة تفتيشية فى اليوم السابق على الحرب . وأنه كان يقوم بإصلاح خط أنابيب النار حينما فوجىء بالقوات المصرية تحاصره وتأسره .

مصر :

كان على القوات المصرية أن تبدأ بعبور المشاة إلى الضفة الشرقية . وعندئذ يصبح على المشاة مهمة خطيرة وغير متكافئة أمام موقف العدو . كان عليها أن تتسلق الساتر الترابى ثم تواجه احتياطيات العدو المدرعة ، وتقتحم خط بارليف. وكان عليها مهمة ثقيلة أخرى ، وهى أن تظل صامدة محاربة متصدية للعدو انتظاراً لعبور الدبابات والأسلحة الثقيلة بعد إقامة المعابر على القناة وفتح الممرات فى الساتر الترابى ، أو « المانع الترابى » كما نفضل أن نسميه ، وكما هو واقعه .

إن إزالة المانع الترابى كليـة وبالـكامل كان ضرباً من المستحيل فى زمن المعركة . وكان القرار أن نـكتفى بفتح ممرات فيه . وكانت مهمة قوات العبور الأولى تتطلب منها أن تزيل ما بين ١٥٠٠ م^{٣} إلى ٢٠٠٠ م^{٣} لفتح كل ممر .

وكان السؤال التالى هو: كيف تفتح الممرات فى المانع الترابى؟هل بالمدفعيـة، أم بالمتفجرات ؟ أم بماذا ؟ وتقرر فتح الممرات بمضخات عالية الدفع من المياه . وأجريت تجارب عديدة . وكانت النتائج أننا بحاجة إلى ٢٤ ساعة لفتح الممرات.

وهنا ثارت مشكلة ؛ كيف يمكن أن تبقى المشاة وحدها على الضفة الشرقية لمدة ٢٤ ساعة فى انتظار فتح الممرات ، وعبور القوات المدرعة؟ كيف يمكن أن نجعل المشاة قادرة على التصدى للعدو وقادرة على الصمود ؟ إن المشاة تحمل أسلحة خفيفة وأسلحة مضادة للدبابات مداها ٦٠٠ مترا ، ودبابات العدو بمدافعها عيار ١٠٥ مم مداها ٣٠٠٠ مترا .

لقد كان وزن بعض المدافع التى أرادت القوات المصرية نقلها إلى الضفة الشرقية مع المشاة ٣٥٠ كيلو جراما . وكان السؤال كيف يمكن أن تعبر المشاة بهذه المدافع الثقيلة .. ثم تصعد بها الساتر الترابى قبل فتح الممرات فيه ؟

وكان من المحتم التوصل الى اجابات علمية وعملية لمثل هذه الأسئلة .

وفى حديث مع خبير عسكرى سوفيتى قبل الحرب بعدة سأل الخبير أحد القادة المصريين: ماذا سيفعل المشاة المصريون بمفردهم على الضفة الشرقية عقب العبور... إن الخطة فى أفضل الظروف سوف تستغرق ٧ ساعات ؟ وأجاب القائد المصرى ـ وكان يبالغ وقتئذ :« إن عبور المدرعات سيتم بعد ٣ أو ٤ ساعات ». ورد الخبير السوفيتى : « . . إذا كانت مشاتكم ستبقى هذا الوقت بدون مدرعات فسيقضى عليها .. » . وعندئذ سأله القائد المصرى ، هل لديكم ما يمكن أن يساعدنا ؟ وأجاب الخبير :« لا .. وأعتقد أن قواتكم سوف تدمر إذا حاولتم العبور .. » .

وحينما التقى الرجلان مرة ثانية كان ذلك بعد العبور . ولم يتمالك الخبير السوفيتى نفسه ، فعانق القائد المصرى وقال له : « لقد انتصرتم.. لقد حققتم معجزة .. » .

وبنفس المقاييس كان العدو يفكر . لقد كان يعتقد — وله العذر — أن القوات المصرية المدرعة لن تتمكن من الوصول إلى شرق القناة قبل فترة ما بين ١٢ ، ٢٤ ساعة . وهذا تقدير واقعى . فالجيش الثالث الميدانى لم تتمكن أول دبابة فيه من العبور قبل ١٨ ساعة .

بينما وصلت أول دبابة من الجيش الثانى الميدانى إلى الضفة الشرقية بعد خمس ساعات وخمسين دقيقة . وقد سجل هذا المعدل فى سرعة العبور رقما قياسيا أعلى من معدل التدريب العادى .

والسؤال الهام الذى يطرح نفسه . .. هو :

كيف تم العبور وتحطيم خط بارليف ؟ كيف أمكن لمشاة الجيش الثالث أن تقاتل بمفردها مدرعات العدو لفترة طويله ؟إن الذى تحقق لا يخضع لقوانين المنطق. مشاة عبرت مانعاً ضخما ، وركبت الساتر الترابى ، واقتحمت خط بارليف ، وتصدت لمدرعات العدو ، وأوقفت تقدمه نحو القناة ، وكبدته خسائر جسيمة ، واحتلت مواقعها ، وحفرت خنادقها ، وأقامت رءوس الجسور ، وكسبت أرضا جديدة ... وكل هذا تحقق قبل وصول المدرعات . أليس هذا وحده انتصار ؟

هل كان الانتصار مصادفة كما حاولت إسرائيل أن تبيع هذه الفكرة إلى الرأى العام العالمى ؟

لقد ردد أعضاء الكونجرس الأمريكى الذين زاروا مصر بعد زيارة إسرائيل فى أعقاب الحرب مثل هذه الفكرة الخبيثة ، التى بدأت إسرائيل تروجها حتى لا تريق ماء وجهها ، وماء وجه جيشها الذى لا يقهر .

قال واحد من هؤلاء الأعضاء لأحد القادة المصريين وهم يزورون خط بارليف أنهم علموا أن هذا الخط كان به بضعة مئات من القوات الإسرائيلية التى أخذت على غرة ، إثر عبور القوات المصرية التى استولت على مواقع الخط ...[1]

وبداهة أن هذا التبرير يعبر عن فكر ملتوى وعقيم ، يستهدف الحفاظ على ثقة الإسرائليين فى أنفسهم وثقة العالم فى أسطورة الجيش الإسرائيلى الذى لا يقهر ، والتقليل من شأن العمل المجيد الباسل الذى حققته القوات المصرية . ومن المؤكد أن إسرائيل تفضل كثيراً أن يعرف عنها أنها خدعت وأخذت على غرة من أن يقال إنها هزمت فى حرب مع المصريين .

ولكن — ومع التقرير بأن الحرب فى أساليبها الخداع — هل كان الأمر خدعة . . وإذا كانت إسرائيل قد خدعت فى أول يوم وفى اليوم التالى مثلا ،

---

(١) اللواء سعد مأمون : محاضرة بالاتحاد الاشتراكى العربى .

فهل ظلت مخدوعة على طول الوقت ، وعلى طول الجبهة طوال عشرة أيام تالية ؟

وإذا كانت إسرائيل قد فوجئت بهجوم لم تكن تتوقعه — وهذا يتنافى مع ما أذيع بعد ذلك من أنها كانت قد علمت بأن مصر سوف تقوم بهجومها قبيل وقوعه — فما الذى استطاعت إسرائيل أن تفعله بعد بدء الهجوم ؟ لقد أقام الجيش المصرى خمسة رءوس جسور فى يوم وليله . فهل استطاعت إسرائيل أن تدمر أى من هذه الجسور ، أو تقضى على رأس جسر منها سوى فى الخيال ، وفى بلاغات القادة الاسرائيليين المذعورين التى رددتها وكالات الأنباء يوما ، ثم فضحت نفس الوكالات أمر كذبها فى اليوم التالى ؟

ومن غير شك فإن الهدف الأساسى لأى جيشين متصارعين هو تدمير قوة العدو . فهل نجح العدو فى ذلك ابتداء من ٦ أكتوبر إلى تاريخ وقف إطلاق النار ؟ لم يحدث .

إذا لم تكن القضية قضية مباغتة ، أو قضية أخذ الجيش الاسرائيلى على غرة . ولكنها كانت قضية القوات المسلحة المصرية فى صورتها الجديدة. وهذا ما أرادت إسرائيل ألا تعترف به فى البداية، أو أن تمنح العالم فرصة معرفته. ربما لأنها كانت مفرطة الثقة فى نفسها قليلة الثقة بالعرب ، وربما لأنها كانت تحت تأثير تجربة ١٩٦٧ ، وعادت إلى ذاكرتها أحداثها ، وتعتقد أنها ستتكرر . وكانت الحقيقة أعمق من كل ما جال بخاطر قادة إسرائيل ، ومن كل ما تمنوه .

موقف علمى وعملى :

مرة ثانية نقول . . . لم يكن أمامنا سوى التخطيط العلمى . ومرة ثانية نؤكد أنه كان **علميا حقا** ، لأنه كان بنفس القدر من العناية **عمليا ايضا**. إن أى تخطيط علمى لا يأخذ فى حساباته المواقف والاعتبارات العملية ، والتقييم الكامل للإمكانات المتاحة ، وظروف الواقع الميدانى ، وجغرافية المكان ، والقوى المعنوية والنفسية للقوات فى الطرفين ، يصبح بعيداً عن الرشد . لقد كان على المخططين المصريين أن يأخذوا فى حساباتهم الاعتبارات الأساسية الهامة التالية :

١ — أن عبور المشاة إلى شرق القناة ، بأسلحتها قصيرة المدى ـ ٦٠٠ متر ـ سوف يجعلها فى موقف صعب للغاية ، فى مواجهة مدرعات العدو ومدفعيته الثقيلة . ومن أوليات التخطيط ضرورة العمل على تقليل أمد هذه الفترة الحرجة التى تقضيها المشاة وحدها على الضفة الشرقية . وبناء على هذا الواقع كان لابد أن توضع الخطة على أساس إقامة المعابر وفتح الثغرات فى الساتر الترابى فى مدى زمنى من ٨ إلى ١٠ ساعات ، لتتمكن القوات المدرعة من اللحاق بالمشاة فى أقصر وقت ممكن .

٢ — أن على المشاة أن تتصدى لمدرعات العدو خلال المرحلة الأولى التى تعمل فيها المشاة بمفردها . وكان من الضرورى لقيام المشاة بهذه المهمة الصعبة أن تزود بصواريخ مضادة للدبابات ، وهو اعتبار هام أخذ فى تقدير المخططين . وقد وصل عدد محدود من هذه الصواريخ قبل المعركة بأيام قلائل .

٣ — إزاء هذا العدد من الصواريخ المضادة للدبابات ، كان لا بد من التفكير فى بديل يصبح عاملا فعالا ومساعداً فى مواجهة مدرعات العدو فى شرق القناة . وكان القرار بإنشاء تبات عالية بالضفة الغربية ، تركبها الدبابات المصرية وقت المعركة لتقصف تحصينات العدو بالشرق . وقد تم فعلا إنشاء ٨٠ مصطبة شاهقة الارتفاع ، ومستواها أعلى من مستوى السد الترابى المواجه لها ، خلال الشهور العشرة السابقة على بدء العمليات . وقد استخدمت هذه المصاطب عند قصف مدرعات العدو ومحاوره وتحصيناته بواسطة الدبابات والأسلحة بعيدة المدى وأسلحة الضرب المباشر .

وقد تعاونت المدرعات المصرية والمدفعية فى غرب القناة تعاونا فعالا فى ضرب العدو بعمق يتراوح بين ٢ ، ٥ر٢ كم فى سيناء . وحقق هذا العمل نتائج باهرة فى مساعدة وتأمين المشاة الذين عبروا إلى الشرق عند بدء العمليات .

٤ — كان من الضرورى توفير كميات الذخيرة الكافية لمعارك المشاة فى

الشرق، والتى كان يمكن أن يطول أمدها ، وتستهلك كميات ضخمة من الذخيرة لا طاقة لفرد المشاة على أن يحملها معه عند العبور. وقد أخذ التخطيط هذا الموقف فى تقديره . وصنعت عربات جر بدائية ، وإن كانت أفضل ما كان يمكن أن يفى بالغرض . وهذه العربات يجرها الأفراد ، ثم ترفع بطريقة خاصة فوق السد الترابى ، حتى لا يؤثر حمل الأفراد لها على جهدهم ولو لدقائق . لأن الثوانى كانت متطلبة وحاسمة فى حساب المعركة . وقد عبرت عربات الجر هذه فى الزوارق ، ورفعت أعلى الساتر الترابى ، وجرت وراء المحاربين بذخيرتها .

حدث هذا فى عام ١٩٧٣ . . . الجنود يجرون العربات تماماً مثل عربة رمسيس منذ آلاف السنين . ولقد كانت الحاجة أم الاختراع ، والموقف العملى هو الذى يملى القرار .

وربما كانت البساطة فى إيجاد الحلول للمشكلات التى بدت شديدة التعقيد فى الحرب ، واحدة من أعظم الدروس المستفادة . إن بعض هذه المشكلات حينما يفكر فيها الغربيون بمنطقهم ربما يتعذر عليهم أن يجدوا لها حلا مناسبا .

وحتى مع استخدام الحاسبات الإلكترونية فإن هذه الأجهزة المعقدة التى صممها الإنسان وسيطر عليها كانت غير قادرة على حساب الروح المعنوية لدى المقاتل ، ولم يكن بوسعها أن ترسم خطوطا بيانية أو تجيب على الأسئلة المتعلقة بقياس الإيمان والاصرار على تحرير الأرض . ومع التقدير الكامل لدور نظم المعلومات الحديثة فى الإدارة، فإن أكثرها دقة سوف يقف حائراً أمام هذه الجوانب فى سلوك المحاربين المصريين ، وأهمها وأعزها . . . **ارادة القتال والتصميم على النصر .**

كيف نهاجم خط بارليف ؟

نشطت العقول تفكر فى محاولة لاستنباط الطريقة المثلى لمهاجمة خط بارليف . ومن السهل الآن كتابة النتائج على الورق . أما تصوير عملية التفكير والدراسة

والمعاناة الذهنية التى توصلت إليها فأمر شاق . هل كان يتعين مهاجمة التحصينات من الأمام أم من الخلف أم من الأجناب ؟ كان كل بديل له مزاياه وعيوبه . . وكانت مهمة اتخاذ القرار تتطلب بالضرورة المفاضلة بين حاصل طرح كل العيوب من كل المزايا فى كل بديل . وكان الوصول إلى القرار عملية صعبة ومعقدة ، لأن عدداً من المتغيرات المتدخلة فى الموقف فى بعض الأحيان لم يكن من السهل التيقن منها أو التحكم فيها .

وتقرر أن يكون الهجوم من المواجهة ، وعلى طولها . وكانت المفاجأة التى رتبتها القيادة المصرية ، هى أن تتم مهاجمة شاملة لاكتساح خط بارليف فى نفس ساعة (س) التى بدأ فيها القتال .

كان يتعين أن يبدأ القصف المصرى المركز بهدف فتح ثغرات بنيران المدفعية المباشرة فى حقول الألغام والتحصينات الشائكة فى خط بارليف ، بحيث يحقق هذا العمل نتائج إيجابية فى أقصر وقت تمكن من فتح ثغرة فى كل نقطة تركز عليها القصف .

وكان على القوات التى تعبر أن تندفع لكى تنجز مهمتها المحدودة تفصيليا والمحسوبة علمياً — من واقع عديد التجارب التى استخدمت فيها النماذج التماثلية "Simulation Models" ، فى أماكن وظروف ومدخلات مشابهة لما كان ينتظر القوات على الضفة الأخرى . مع قياس دقيق لكفاءة الأداء أساسه حساب عنصرى الوقت والحركة . "Time and Motion Studies"

لقد كانت فكرة الهجوم على طول المواجهة فى ذاتها عاملا هاماً فى تضليل وخداع العدو ، مما جعل الأمور تلتبس عليه . فقد صرح القادة الإسرائيليون ، بأن الخطة المصرية التى وضعت للهجوم الشامل لم تكن تستوجب تجميع القوات فى تشكيلات ضخمة لتكون رأس جسر أو جسرين أو ثلاثة رؤوس يبدأ عندها العبور كما كانوا يتوقعون . إذ كانت كل فرقة لديها إمكانات ومعدات العبور ، وعليها أن تعبر فى المكان الذى تتواجد فيه إلى المنطقة المواجهة لها تماما بالضفة الشرقية .

وكان هذا يعنى بالنسبة للإسرائيليين ، أن الإجراءات الطبيعية التى تسبق الهجوم عادة فى مثل هذه الظروف ، والتى تقتضى تجمع القوات والمدرعات استعداداً للغزو لم تكن متوفرة ، وبالتالى لم يكن هناك ما ينم عن الهجوم .

إن الذى حدث هذه المرة ، كان على عكس ما حدث عام ١٩٦٧ تماما ففى حرب ١٩٦٧ ، لم يكن الأمر يتطلب جهداً كبيراً من الجنرال أهارون ياريف — رئيس المخابرات الإسرائيلية وقتئذ — لإقناع الوزارة الإسرائيلية بأن الجيش المصرى على وشك القيام بالهجوم . فقد حشدت مصر ١٠٠ ألف مقاتل مصرى وألف دبابة عند حدود إسرائيل الجنوبية . أما فى حرب ١٩٧٣ ، فقد كانت مهمة رئيس المخابرات الإسرائيلية صعبة جداً فى مواجهة الخطط المصرية الذكية المتقنة .

تجارب العبور :

كان الجيش المصرى قد أجرى عدداً من تجارب العبور . ولم تكن هذه التجارب مفيدة فى تحقيق أهدافها المحددة فحسب ، وإنما كانت أيضاً مصدراً للمعلومات والخبرات . وتكونت حصيلة من الدروس المستفادة التى استخلصت من تجارب العبور المبكرة . وكان نجاح هذه التجارب مدعاة لتساؤل القيادة المصرية : لماذا لا نكرر الخطة حينما يتطلب الأمر عبور القوات وشن هجوم شامل ؟

إن واحدة من بين تجارب العبور العديدة تستوقف النظر ، وتدعو للتأمل . ونعود مرة ثانية إلى إحدى خطاب الرئيس السادات . فى يوم ٣٠ / ١ / ١٩٧٢ ، تحدث الرئيس إلى ضباط وجنود القوات المسلحة فى أسوان ، وقال لهم :

« كلكم فاكرين يوم السبت الحزين اللى قبل وقف إطلاق النار سنة ١٩٧٠ . لما دخلوا أودلانا فى عز الظهر ... أولادنا بتوع الفريق صادق دخلوا وخلصوا على اربعين عسكرى مظلات من أحسن تدريب عند اليهود » .

ومضت ثلاث سنوات على واقعة العبور هذه . إذ فى مثل نفس اليوم —

السبت الحزين عام ١٩٧٣ — عبر المصريون القناة على طول جبهة المواجهة ، وقاموا بهجوم شامل مذهل ، أحسن التخطيط والإعداد له ، وأحسن تحديد ساعة بدئه ... ولنا أن نتساءل : كيف تم هذا ؟ لم يكن الأمر مصادفة . وبكل تأكيد لم يكن مجرد حظ . **نعم كان توفيقا من الله ... ولكن الله لا يساعد الا من يساعدون انفسهم .**

كانت الخطط المعروفة للقادة قد حددت وقت بدء الهجوم المصرى عند آخر ضوء ، نظرا لما يتطلبه العبور من تحرك القوات ، وإنزال القوارب ، وإقامة المعابر تحت ستار الظلام. وكانت القيادة السورية من أنصار الهجوم المبكر عند أول ضوء نظراً لطبيعة جبهة الجولان . وتم التنسيق بين الجبهتين . واتفق على أن يبدأ الهجوم فى الساعة الثانية بعد الظهر ..

ومع ذلك ظل أمر هذا الموعد الجديد سراً عسكريا فى طى الكتمان . وكان الأمر يتطلب تدريب القوات المصرية على الهجوم فى ظروف مشابهة تماما لما ستكون عليه المعركة ، ومن بينها ظرف الزمان .

* * *

وحينما نناقش الاعتبارات الأساسية التى روعيت فى التخطيط للمعركة ، سوف يتأكد ان النصر لم يأت صدفة ، ولا لمجرد الحظ الحسن ... ومن يقول بغير ذلك يريد ان يحرم العرب من اعظم نعم الخالق على بنى البشر ... العقل والتفكير .

* * *

بعض الاعتبارات الأساسية
التى روعيت فى التخطيط

كان هناك إدراك عميق وقوى بأن الحرب الرابعة مع إسرائيل يجب أن تكون حربا مختلفة عن أية حرب سابقة . كما كان يجب أن تمثل مفاجأة تامة وصدمة عنيفة لا تسترجع فيها إسرائيل قواها قبل أن تكون القوات العربية قد حققت أهدافها المحددة. وكان يتعين أن تعكس هذه الحرب قدرة العرب على القتال وتدمير القوات المسلحة الإسرائيلية ، وحرمانها من المزايا الاستراتيجية التى تستمتع بها .

وقد كان هناك بديلان مطروحين للدراسة والرأى :

الأول : القيام بعملية محدده ، تشن خلالها القوت المصرية هجوما خاطفا على هدف معين بمجرد إعطاء الأمر ، ثم توقع رد العدو ، والتعامل معه بطريقة حاسمة تكبده خسائر فادحة ، تستمر معها عملية استنزافه .

الثانى : القيام بهجوم شامل على طول الجبهتين المصرية والسورية ، تستخدم فيه كافة الأسلحة ، ويستهدف أساساً تحطيم قوات العدو المسلحة .

وبعد دراسة مزايا وعيوب كل من هذين البديلين ، كان البديل الأول مرفوضا كحل فعال ومؤثر . وأسرعت القوات المسلحة ببحث ودراسة متطلبات تنفيذ البديل الثانى . فوضعت خطة ضخمة لذلك ، تتضمن برامج متعددة لإعداد وتجهيز وتدريب وتسليح القوات المسلحة وتحسين وتأمين تشكيلاتها المقاتلة. كما اتخذت الخطوات الضرورية لتطوير نظم المعلومات والقيادة والاتصالات ، وتوفير معلومات صحيحة ومتدفقة عن موقف العدو .

لقد كانت القيادة حريصة دواما على المتابعة المستمرة لمدى التقدم فى المهام التى عهدت بها إلى الوحدات المختلفة . وعندما حانت ساعة الصفر كان الموقف الذى تنبأت به القيادة عن بدء وضع الخطط قد أصبح حقيقة مكتملة . وكان حجر الزاوية لسياسة القوات المسلحة المصرية الإستراتيجية هو التحول من الدفاع إلى الهجوم. ومن نقطة التحول هذه كان يتعين بالضرورة الاجابة على سؤال هام ومحدد مؤداه : ما هو حجم التدمير المستهدف الذى لابد من تحقيقه وإيقاعه بالعدو لتحقق هذه الاستراتيجية أهدافها فى تحطيم القوات المسلحة الإسرائيلية ؟

وكان السؤال الثانى المترتب على السؤال الأول ، والذى لا يقل عنه أهمية وحسما هو : ما نوع القوة العسكرية، ومدى ضخامتها ، وحجم نيرانها التى تتطلبها هذه الاستراتيجية لتضمن القوات المسلحة المصرية أن توقع القدر المستهدف من التدمير فى قوات العدو؟ وكان التحديد العلمى لاحتياجاتنا من القوة الضاربة يتطلب مجموعة معقدة من الحسابات. ومن الواضح أن أى تغيير فى أى عنصر من عناصر الموقف ، أو ظهور متغيرات جديدة كان يتطلب تعديلات أخرى فى عدد كبير من القرارات .

وتمشياً مع هذه الاعتبارات ، وبعد تجارب عديدة ، وجدت قيادة القوات المسلحة عناصر الاستراتيجية التى يمكن أن تعطيها القدرة المطلوبة لتحقيق الهدف بأقل تكلفة وفى حدود الإمكانات المتاحة . ويمكن تحديد هذه العناصر فى الآتى :

أولا : المفاجأة الاستراتيجية للعدو :

استهدف تخطيط العمليات تحقيق عنصر المفاجأة الاستراتيجية للعدو، بحيث تضمن القوات المسلحة المصرية أن أسلحتها كما ونوعا ستكون قادرة على اختراق

خطوط وتحصينات العدو ، ويمكن الاعتماد عليها فى مواجهة ردود فعل العدو ، وافقاده الميزات القتالية التى يستمتع بها .

وعلى سبيل المثال، فإن الخطة التى وضعتها القيادة المصرية السورية المشتركة كانت تتضمن مفاجأة استراتيجية نتيجة فتح جبهتين فى وقت واحد ولحظة واحدة. ففى الساعة الثانية وخمس دقائق ـ أى بعد خمس دقائق من بدء المعارك كان كل من الطيران السورى والمصرى على أهدافه بإسرائيل يقصفها قصفاً مركزاً .

ومثال آخر : لقد كان تفكير العدو دواما أن شرم الشيخ هى أهم مواقعه لتأمين ملاحته البحرية فى البحر الأحمر إلى خليج العقبة . وكانت هناك مفاجأة استراتيجية أخرى فى انتظار العدو ، وهى إغلاق باب المندب جنوبى البحر الأحمر فى وجه الملاحة الإسرائيلية .

ومثال ثالث للمفاجأة الاستراتيجية التى ووجه بها العدو . فقد تم عبور القناة على طول المواجهة ، حتى عبر بحيرة التمساح الواسعة . لقد دفع فى هذا الهجوم بخمس فرق مشاة ، والمناطق التى لم يكن بها مشاة تحقق اقتحامها بقوات من الفرق الخاصة . وتضمنت المفاجأة عدم قصر الهجوم على طول امتداد قناة السويس ، وإنما شمل أيضاً جنوب شبه جزيرة سيناء شرق خليج السويس . وبدلا من أن يقتصر طول الجبهة على ١٧٥ كم ـ وهو امتداد قناة السويس ـ امتدت إلى المسافة ٤٠٠ كم تقريباً، وبعمق ١٠٠ كم فى بعض النقاط التى انزلت بها قوات من الفرق الخاصة .

لقد كان الهدف الاستراتيجى وراء هذه العمليات هى تشتيت فكر العدو وإرباكه ، وتأخير عملية تقديره الموقف نتيجة عدم تأكده من اتجاه الهجوم المصرى ونواياه الحقيقية . وقد حققت القيادة المصرية فعلا أهدافها من هذه الخطة التى بدت مزاياها واضحة. فقد بقى العدو لفترة غير قصيرة غير قادر على تحديد اتجاهات الهجوم المصرى الرئيسية .

ثانيا : التخطيط للعمليات :

إن التخطيط العسكرى الإسرائيلى كان دائماً يعتمد على تحقيق التفوق فى الطيران والقوات المدرعة . وقد تعمدت إسرائيل إبراز هذا الاتجاه خلال العرض العسكرى الذى أقامته يوم ١٥ مايو ١٩٧٣ ، بمناسبة عيد إنشائها . فقد أشتركت طائرات السلاح الجوى الإسرائيلى بأعداد ضخمة فى سماء العرض ، وظهر عدد كبير من المدرعات الحديثة فى طابور العرض الذى اخترق شوارع القدس .

وكان على مصر أن تدرك هذا جيداً ، وأن تضع خططها على ثلاثة أسس :

الأساس الأول : الطيران ، والدفاع الجوى :

١ — إقامة سد منيع ومنسق من الصواريخ المضادة للطائرات . وإدخال أنواع جديدة من المعدات ، وإعادة تنظيم وحدات الدفاع الجوى ، والعمل على وقايتها من التدمير .

وكان العائد عظيما . فقد أحدثت شبكة الصواريخ المصرية ذعراً بالغاً للطيارين الإسرائيليين ، وكانت عامل ردع هام أغلق فى وجوههم المجال الجوى المصرى الذى تعودوا أن يعربدوا فى سمائه فى استهتار بالغ واطمئنان زائد . إن شبكة الصواريخ المصرية كانت أكبر مفاجأة غير سارة للطيران الإسرائيلى ، بل إنها كانت مفاجأة للعالم أجمع . وكانت فاعليتها موضع الدهشة والتعجب . ومبعث الخوف والرعب فى قلوب طيارى العدو . ويقول ضابط مصرى: كنت أشفق على الطيارين الإسرائيليين حينما أراهم فوقنا ، فقد كنت متأكدا تماما من مصيرهم .

٢ — بذل كافة الجهود الهادفة إلى رفع كفاءة القوات الجوية من كافة النواحى ، عن طريق الاختيار المثالى للأفراد ، ورفع كفاءة التدريب ، وإدخال تكتيكات جديدة ، وتطوير المعمول به منها .

وفى سبيل ذلك تحقق التنسيق والتعاون على أعلى درجة من الفاعلية بين القوات الجوية والدفاع الجوى من ناحية ، وبينها وبين القوات البرية والبحرية من ناحية أخرى . واستخدمت القوات الجوية بأسلوب مفاجيء وهادف أدى إلى إنزال ضربات معجزة بالعدو ، مع الحفاظ على سلامة السلاح الجوى المصرى . وقد اثبتت معارك الطيران خلال الحرب أن الطيارين المصريين كانوا يقومون بست أو سبع طلعات طيران يومياً . وهو معدل كفاءة من أعلى ما تحقق فى العالم . وهذا الأداء الممتاز إنما يرجع إلى قدرات الطيارين المصريين العالية ومهاراتهم التى اكتسبوها من خلال عمليات التدريب الجاد المستمر ، والإيمان العميق بالهدف .

٣ — كان إنشاء المطارات الحربية بالمناطق الزراعية بالدلتا والوجه البحرى ، وإنشاء دشم حصينة للطائرات بهذه المطارات ، وحماية هذه المطارات بوسائل الدفاع الجوى الفعالة مؤدياً إلى حرية حركة الطيران المصرى ، وتشتيت جهود طيران العدو وصعوبة تركيزه على المطارات والأهداف المصرية .

وفى أكثر من مرة حاولت طائرات العدو الإغارة على المطارات المصرية ، أرغمتها وسائل الدفاع الجوى على التشتت وإلقاء حمولتها قبل الوصول إلى أهدافها ، أو العدول عن المهمة وتجنب الوصول إلى الهدف . وفضلا عن هذا ،فقد أصبحت طائرات العدو فى متناول الدفاع الجوى المصرى وفريسة سهلة له . وفى أكثر من غارة أسقطت جميع الطائرات الإسرائيلية المغيرة . وفى بعض المعارك الجوية اشتركت أكثر من ٧٠ طائرة وكان هذا يعنى الشيء الكثير بالنسبة لإدارة المعارك الجوية ، والتوجيه الأرضى ، والسيطرة على الاشتباكات فى الجو . وتدل التقارير على أن إسرائيل قد فقدت ما لا يقل عن ٢٠٠ طائرة . وقد أدت هذه الخسائر الضخمة إلى شلل طيران العدو ، وشلل تفكير قادته.

وعلى نقيض ماحدث فى عام ١٩٦٧ ، حيث استطاع العدو أن يدمر ٩٠ ٪ تقريباً من الطيران المصرى على أرض المطارات خلال الضربة الجوية التى بادر بها ، فإنه فى حرب أكتوبر ١٩٧٣، لم يستطع تدمير طائرة مصرية واحدة على الأرض.

وهذه النتيجة وحدها أبلغ دليل على مدى التغيير الذى حدث فى استراتيجية مصر العسكرية وتخطيطها وإعدادها لمعارك ١٩٧٣ .

الأساس الثانى : المشاة :

١ — كانت القوات المصرية قد استوعبت تماماً دروس حرب ١٩٦٧ . ووصلت إلى قناعة تامة بأن أولى احتياجات الجيش المصرى — إلى جانب القيادة السليمة والتدريب الراقى — هى القدرة السريعة على التكيف مع متطلبات معركة مع العدو فى حدود الإمكانات المتاحة . ولم يكن متيسراً بحال لجيش مصر — وربما لأى جيش فى العالم — أن يصل فى لحظة من اللحظات إلى الدرجة التى يستطيع عندها أن يقرر أن استعداده للقتال قد وصل إلى ١٠٠ ٪ . ذلك أن تسليح وتجهيز الجيوش فى حالة حركة دائمة وتطور مستمر . وأى جيش يدخل فى سباق التسليح عليه أن يهيىء نفسه للدخول فى حلقة مفرغة لمحاولة اللحاق بأهداف متحركة وغير مستقرة . تنتهى به فى النهاية إلى الاقتناع بضرورة التواؤم والتكيف مع ما هو متاح ، واستخدامه أفضل استخدام ممكن ، مع تقليل الخسائر فى الأرواح والعتاد إلى أدنى نسبة مستطاعة من طريق التدريب الجاد والثقة بالنفس والسلاح .

٢ — وكان مؤكدا أن إسرائيل لديها قوة ضخمة من المدرعات عالية الكفاءة ، التى يمكنها أن تشق طريقها بسهولة عبر الصحراء . لذلك كان فى تصور القيادة المصرية أنه من الصعب وغير العملى التخطيط على أساس مواجهة الدبابة بالدبابة . وكان لابد من استنباط أساليب قتاليه أخرى تمكن من مواجهة المدرعات الإسرائيلية . وكان الحل هو صاروخ « ساجر » المضاد للدبابات . وقد أدى هذا الصاروخ الذى حمله أفراد من المشاة مهمته على أعلى درجة من الفاعلية .

٣ — أدى الدور الذى لعبه المقاتل المشاة المزود بالصواريخ المضادة للدبابات

إلى إحداث عدم توازن حاسم وواضح فى القوات الإسرائيلية المدرعة . وأصبحت الدبابة التى عرفت بأنها «البطلة الأولى» فى الميدان، أو «النجمة الأولى» على مسرح الحرب ، عاجزة بل رهينة فى يد جندى المشاة المصرى . وبسرعة وفى إثر نشوب الحرب كان القادة الإسرائيليون فى المعركة يطلبون الغوث من المدفعية والطيران ...

الأساس الثالث : التجهيز الهندسى لمسرح العمليات :

احتلت أعمال التجهيز الهندسى دوراً هاما فى التخطيط للهجوم . وكانت أهم تلك الأعمال هى هى إنشاء ساتر ترابى على الضفة الغربية لقناة السويس ، لتوفير الوقاية للجيش ، وضمانا لحرية حركته بعيدا عن رقابة العدو . وإنشاء هيئات حاكمة تعلو الساتر الترابى للعدو على الضفة الشرقية لاحتلالها بالدبابات عند بدء الهجوم . وتجهيز شبكة من الطرق لتسيل تحرك القوات عند العبور . وتجهيز ساحات الاسقاط لمعدات الكبارى . وتكلفت هذه الأعمال ملايين الجنيهات .

وإلى جانب هذا ، قام المهندسون بإنشاء وتطوير شبكة المطارات والقواعد الجوية ، وتضمن هذا الجهد إنشاء الكثير من المطارات . وإعداد الممرات التبادلية فى جميع المطارات والقواعد الجوية . وتجهيز ملاجىء محصنة خرسانية للطائرات بأسلوب مصرى مبتكر .

وأنشأ المهندسون شبكة مواقع وحدات صواريخ الدفاع الجوى . وشمل هذا العمل بناء مئات المواقع، وعددا مماثلا من المواقع الوهمية ،استخدم فى إنشائها نحو ١٢ر٥ مليون متر مكعب من أعمال الحفر والردم، ومليون وثلاثة أرباع متر مكعب من الخرسانة المسلحة والعادية، أربعة آلاف كيلو متر من الطرق داخل المواقع .

ولم تقتصر أعمال الإنشاءات على هذه المهام فقط . فقد قامت قوات المهندسين بالتعاون مع الشركات المدنية من القطاعين العام والخاص ، وشركة استصلاح الأراضى ، والسد العالى ، بأعمال ضخمة شملت الجمهورية كلها[1] .

---

(١) لواء حسن البدرى ، لواء طه المجدوب ، عميد ا.ح ضياء الدين زهدى : حرب رمضان، الجولة العربية الاسرائيلية الرابعة ، (القاهرة: الشركة المتحدة للنشر والتوزيع) ص ٥٠ — ٥٩ .

خطة التمويه والخداع

لقد وضعت فى خدمة أغراض الحرب خطة علمية متقنة ومحبوكة للتمويه والخداع .وقد أثارت مفاجأة العرب العالم بالحرب دهشة لم يستطع أحد أن يخفيها. حتى أن كثيرين من المحللين والكتاب يقررون أن من أهم مفاجآت حرب أكتوبر هى ... «قدرة العرب على الاحتفاظ بالسر» .

وإذا كانت الخطط تقاس بنتائجها النهائية ، وتقيم فى ضوء العوامل والظروف التى تتاح لها أثناء التنفيذ . فإن خطة التمويه والخداع قد حققت أكثر مما كان متوقعاً لها . بل لقد فاقت نتائجها توقعات مصمميها . فإذا ما قيمت فى ضوء ما يستمتع به العدو من جهاز مخابرات يشهد له الغرب بأنه تفوق على المخابرات الأمريكية التى تشتهر أيضاً بقدراتها غير المحدودة ، فإن خطة التمويه والخداع العربية قد تفوقت وانتصرت نصرا حاسما على أجهزة مخابرات العدو واستطلاعه وجمع المعلومات لديه .

لقد كان الهدف من الخطة الحيلولة بين العدو وبين اكتشاف المعلومات التالية:

١ — نية الهجوم المصرى .

٢ — الاستعدادات القائمة قبيل الهجوم .

٣ — موعد الهجوم .

٤ — بدء الهجوم واتجاهه وحجمه .

وقد تطلبت الخطة تنسيق الجهود بين الجبهتين السورية والمصرية.كما استدعت أيضاً توفير التنسيق الكامل على مستوى الدولة بين ثلاثة قطاعات : القوات المسلحة ، السياسة الخارجية ، الإعلام . فمن الواضح أن هذه القطاعات تتصل اتصالا مباشرا بالمعركة كل فى مجاله وبدرجات متفاوته . وعلى الرغم من تباين

الأدوار التى يؤديها كل قطاع ، فإن التنسيق بين جهودها كان أمرا أســاسيا لتحقيق النجاح . ومع ذلك فإن كل قطاع قد تحددت له أهداف وفق جـداول زمنية ، دون إفصاح عن الخطة الـكاملة . وبذلك كان كل منها يعرف مهــامه ودوره دون رؤية واضحة للصورة الـكاملة التى فى ذهن وفـكر المخطط الأعلى ، ضمانا لعنصرى السرية والمفاجأة .

أولا : التمويه أمام العالم :

قبل المعركة بعام أنشأت الحـكومة المصرية محطة إذاعة ، تذيع باللغة العبرية وتعمل على مدى ١٢ ساعة يوميا . وكانت هذه المحطة موجهة إلى إسرائيل، وتذيع موسيقى غربية خفيفة ، يتخللها نشرات إخبارية ، وتعليقات تدعو للسلا م .

وهكذا كانت خطة التمويه من الذكاء والسرية والحبـكة ، بالدرجة التى جعلتها ناجحة فى إقناع الجميع بأن العرب ليست لديهم أية نوايا لحرب قريبة .

وقبل اندلاع الحرب بأسبوع واحد كتبت صحيفة التايمز اللندنية فى مقالها الرئيسى تقول : « إن العالم العربى قد بدأ يتحول عن استعمال القوة ، ويتجه إلى حل مشـكلاته بالأساليب السياسية والدبلوماسية » .

وقبل هذا المقال بحوالى عشرة أيام ، أدلى ميشيل كوماى سفير إسرائيل فى لندن بتصريح عام قال فيه : إن احتمال قيام حرب أخرى فى الشرق قد تضاءل » .

وتقول جريدة التايمز ، إن التمويه والخداع كان متقناً ومحبوكاً فى تنسيق كامل ومنسجم بين القيادتين المصرية والسورية . وقد نفذت كل من البلدين برنامجا محددا لهذا الغرض إلى أن قامت الحرب . ومثال ذلك أنه كانت هناك تصرفات ومظاهر بالدول العربية التى على خط المواجهة مع إسرائيل، تؤكد الاتجاه السلمى ، منها على سبيل المثال :

أولا : بالنسبة لمصر :

١ — بدأت مصر تتحول قليلا من الاتجاه نحو ليبيا إلى الاتجاه نحو السعودية

المعروفة بعلاقتها الطيبة بأمريكا بما يوحى بالبعد عن الإندفاع فى اتجاه الحرب .

٢ — كان التقرير الذى قدمه وزير خارجيـــة مصر إلى مجلس الأمن قبل الحرب يتصف بالاعتدال . ولا ينم عن أى نوايا فى اتجاه استئناف القتال إذا لم توفق الأمم المتحدة إلى تسوية فى وقت قريب .

٣ — أبدت مصر عدم ارتياحها بالنسبة لتصرف بعض الوزراء العرب الذين رفضوا دعوة كسينجر لتناول الغداء أثناء وجودهم فى نيويورك خلال دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة .

٤ — مقابلة وزير الخارجية المصرية لوزير الخارجية الأمريكية يوم الجمعه ٥ أكتوبر قبل الحرب بيوم واحد ، فى فندق والدروف أستوريا بمدينة نيويورك لمدة ساعة كاملة . وتصريح الوزير المصرى بأن المحادثات كانت موضوعية وصريحة.

بالنسبة لسوريا :

١ — أعادت سوريا علاقاتها الدبلوماسية مع كل من بريطانيا والأردن قبل بدء القتال .

٢ — رحبت سوريا بزيارة كورت فالدهايم لدمشق ، ولم يسبق أن أبدت مثل هذا الترحيب .

٣ — قللت من حملات الدعاية التى كان يمارسها بعض أعضـاء المنظمات الفلسطينية المتطرفين من أراضيها .

وتتساءل صحيفة التايمز هل كان هذا كله جانبا من خطة تمويه محبوكة تخفى نوايا الحرب بين طياتها .

وتجيب الصحيفة بقولها : إنه من الصعب الإدعاء بذلك ، فالقـادة العرب لم يعمدوا يوماً إلى خداع العالم أو خداع شعوبهم أو أنفسهم بصدد نواياهم بالنسبة للمعركة . فمصر لم تـكف لحظة ـ رغم خطة التمويه ـ عن أن تردد صيحة المعركة. ومنذ تولى الرئيس السادات رئاسـة الوزارة وهو يؤكد أن الوصول إلى اتفاق

سلمى أصبح مستحيلا بسبب تعنت إسرائيل ، وبسبب مساندة الولايات المتحدة لها مساندة عمياء وكاملة ، ولطالما كرر الرئيس السادات أن مصر تستعد بكل إمكاناتها لمرحلة المواجهة الشاملة مع العدو .

وكذلك كانت الأوضاع فى سوريا . فقد كانت تصريحات القادة السوريين تؤكد أنه لا يمكن الوصول إلى اتفاق مع إسرائيل . وأن ما أخذ بالحرب لا يمكن أن يسترد بغيرها .

ولما رأت أجهزة المخابرات والاستطلاع والتجسس تحركات القوات العربية وأخطأت فى تفسير وترجمة دلالاتها ، فإنهم فى الغرب وفى إسرائيل فسروا هذا بأنهم قد علموا بالبيانات والتصريحات العربية ولكنهم لم يصدقوها ، أوعلى الأقل أخطأوا فهمها ، واعتبروها ضربا من المزايدة السياسية أو تعبيراً عن البلاغة العربية ، أو أنها أمل على المدى البعيد ، وليست خطة جادة للمستقبل القريب .

والواقع أن الأسلوب الذى سارت به عملية « الشرارة » يتفق مع أسلوب الرئيس السادات فى العمل فى وقت الأزمات . لقد كان هادئاً بصورة لاتتناسب مع ما كان يفكر فيه . وحينما بدأ شهر رمضان — قبل بدء الحرب بتسعة أيام — أعلن الرئيس أن الحكومة سوف تهتم بتوفير السلع الغذائية الرمضانية للجماهير بكميات وفيرة . وكان هذا التصريح من العوامل التى أعطت انطباعا بأن الدولة تستعد للأكل لا للحرب ، ويعبر عن موقف حكومة ضعيفة لا حكومة تستعد لدخول معركة . وكان التصريح فى رأى بعض المحللين نداء للاحتفال بشهر رمضان وليس نداء لحمل السلاح .

وربما لأول مرة قبيل قيام الحرب ، يخطب رئيس الجمهورية فى مناسبة عامة وهامة ـ ذكرى وفاة عبد الناصر ـ ولايذكر فى خطابه إلى الشعب شيئاً عن الحرب ، على غير التقليد والعادة ومقتضيات الموقف والمناسبة . وعلق الكثيرون على هذا الخطاب بأن الرئيس السادات قد فعل طيباً . . . وأنه لابد قد مل الحديث

عن الحرب التي لا ينوى دخولها مثلما ملته الجماهير ، وأن الناس تريد الحرب ، ولكنها لا تريد كثرة الحديث عنها ، وحينما تبدأ الحرب فهى التي سوف تتكلم عن نفسها .

وامتدت عملية التمويه إلى نشاط الوزراء وتحركاتهم . فعندما بدأت الشرارة كان وزير الاقتصاد فى لندن ، ووزير المواصلات فى أسبانيا ، ووزير الإعلام فى ليبيا ، ووزير الخارجية فى أمريكا ، ووزير الخارجية بالنيابة فى ڤينيا . وكانت قرينة وزير الحربية قد دخلت إحدى مستشفيات لندن لإجراء جراحة لها . وقد أعطت هذه المظاهر انطباعاً بأن الحياة فى مصر تسير سيرها المادى الرتيب .

ومن العوامل التى أدت إلى تضايل الغرب بصدد نوايا الحرب ، ما أعلن فى القاهرة قبل بدء المعركة بأيام من أن مؤسسة « بكتل » الأمريكية، قد اختيرت من بين المؤسسات العالمية لإقامة خط أنابيب البترول بين السويس والبحر الأبيض الذى تبلغ جملة تكاليفه ٣٤٥ مليون جنيه . ويعد هذا الاتفاق أضخم اتفاق اقتصادى بين مصر والولايات المتحدة منذ رفض دالاس تمويل مشروع السد العالى عام ١٩٥٦ .

ولم يكن التمويه قاصراً على داخل مصر وعلاقاتها بالغرب . بل إنه قد تعدى ذلك إلى قيادات عربية كبيرة . فقد أعلن الرئيسين القذافى وبورقيبة للصحافة الفرنسية أنهما لم يكونا على علم بموعد قيام الحرب . ويقول جافين يونج ، المحرر بجريدة الأبزوفر ، إنه فى شهر يوليو ١٩٧٣ ، أى قبل بدء الحرب بشهرين ، قد قابل ياسر عرفات الذى قال له وقتئذ بمرارة : « يبدو أن السادات قد قرر ألا يحارب ، لقد أصبح علينا معشر الفلسطينين أن نواجه قدرنا وحدنا ، ونستعد لكفاح طويل مرير ».

وسواء كان الحديث حقيقية أو خيالا ، فإن نشر مثل هذا الخبر وقتئذ . . قد عزز من الاتجاه إلى الاعتقاد بأن الحرب لم تكن بحال هى الأمر الأول والأهم الذى يسيطر على ذهن الرئيس السادات .

وهكذا كانت كل القوانين والظروف والملابسات تؤكد أن العرب لا يفكرون فى الحرب فى المدى القريب . وربما كان هذا هو السبب فى أن هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية لم يتطرق فى حديثه مع وزراء الخارجية العرب — حينما التقى بهم فى نيويورك قبيل بدء الحرب — إلى موضوع الاستعدادات العسكرية التى تجرى على الجبهتين المصرية والسورية . بينما امتد الحديث إلى ضرورة التفكير فى أساليب ومداخل جديدة لحل مشكلة الشرق الأوسط حلا سلمياً .

ومن ناحية أخرى كانت إسرائيل ممتصة تماماً فى نتائج القرار الذى اتخذته حكومة النمسا ، والخاص بغلق معسكر استقبال اليهود الروس المهاجرين إلى إسرائيل ، وبمقابلة جولدا مائير لبرونو كرايسكى مستشار حكومة النمسا فى فيينا .

التمويه والخداع بالجبهة :

لعل أبلغ ماوصفت به عمليات التمويه والخداع التى لجأت إليها القوات المسلحة المصرية ، ماعبر عنه أحد المعلقين الأجانب فى حديثه عن المخابرات الإسرائيلية والأمريكية بقوله : « لقد رأوا وسمعوا . . . ولكنهم لم يفهموا . . . » .

وهذه حقيقة ليس فيها شىء من المبالغة . كان الإسرائيليون فى الشرق يرون الضفة الغربية بكل سهولة ووضوح . وكان كل مايجرى فيها من إعداد واستعدادات تحت سمعهم وبصرهم . وكانت لديهم أجهزة الاستطلاع الإلكترونى ، وجهاز مخابرات ضخم وكفء . وكان المصريون يعرفون أن عدوهم يرى الصورة كاملة فى الغرب بكل أبعادها وحجمها . وإن كان لم يقدر على فهم ما ترمز إليه .

وكانت القيادة المصرية مقتنعة أنها لاتملك الحيلة لإخفاء كل ماتفعل أو يجرى . وكيف السبيل إلى إخفاء جيش بأكمله فى حركة لاتهدأ مثل جيش جنكيزخان ؟ وإزاء هذا الموقف قررت القيادة أن تضع خططها فى التمويه والخداع على أساس أن ما يجرى هو مناورات . . . أو كما أطلق عليها **« مناورات أحمد اسماعيل للخريف »** .

ولم يكن هذا تصرفاً ساذجاً . فهناك قاعدة علمية تقول : إذا أردت أن تخفى شيئاً جيداً ، فضعه فى مكان عادى ومتوقع ، لأن الذى يبحث يفتش عن المخابىء السرية .

وأكثر من هذا كان التمويه والخداع العربى من المهارة والحذق بحيث بدا أن كل ما كان يجرى من نشاط وتحركات للقوات ذا طبيعة دفاعية .

ولم يكن يوم عيد الغفران بالنسبة لليهود سبباً فى اختيار موعد العبور. بمعنى أن هذه المناسبة الدينية لم تكن ذات وزن كبير فى حساب خطة الخداع . ولو كان الغرض اختيار مناسبة دينية ، فربما كان يوم عيد رأس السنة اليهودية اختياراً أكثر ملاءمة لأغراض الهجوم . لأن اليهود فى هذا اليوم يحتفلون به ويخرجون ويسهرون، بينما فى عيد الغفران يلزمون المنازل أو المعابد، مما يجعل عملية الاستدعاء والتعبئة العامة أمراً سهلا ومضمون النجاح . وإذا كان يوم عيد الغفران مناسبة دينية لليهود ، فقد بدأت الحرب خلال شهر رمضان ، شهر الصوم للمسلمين .

إن شراك الخداع والتمويه التى وقعت فيها إسرائيل ـ والولايات المتحدة بالطبع ـ قد نصبت بمهارة وذكاء وحذق ، ووضعت خططها بإحكام ، ونفذت بعناية وسرية تامة. وإنه لمن دواعى فخر العرب أنه من بين مئات الألوف من أفراد القوات المسلحة الذين عرفوا بنوايا المعركة قبيل نشوبها بفترات زمنية متفاوتة من خلال الأوامر التى كانت تأخذ طريقها هبوطاً فى المستويات التنظيمية لبناء القوات المسلحة ، **لم يكن هناك عميل او خائن واحد نفذت اليه مخابرات العدو او وقع تحت سيطرتها .**

أما كيف اقتنع العدو بأن مايقوم به الجيش المصرى هو مجرد مناورات ، فإن ذلك يرجع كما أسلفنا إلى الخطط الذكية المحكمة للخداع والتمويه، والتى تضمنت :

١ — تعمد تكرار إجراء تجارب التعبئة العامة والاستدعاء، ثم تسريح القوات. مما جعل القيادة الإسرائيلية تتردد كثيراً فى إعلان حالة الاستعداد القصوى إزاء

كل حالة تعبئة تقوم بها مصر . وخاصة أن القيادة الإسرائيلية كانت قد أعلنت التعبئة العامة فى شهر يونيو ١٩٧٣ ، إثر تعبئة القوات المصرية الوهمى ، وكلف هذا القرار إسرائيلى ٤٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيهاً استرلينيا [١].

ويقول المشير أحمد اسماعيل ، معلقاً على هذا : « إن مصر حقيقة قامت بعملية تعبئة خلال شهر يونيو ١٩٧٣ ، وكانت وقتئذ تجرى مناورات موسعة وتدريبات ضخمة بالجبهة » [٢] .

٢ — كثرة تردد وتحرك القوات المصرية على طول الجبهة ، وعلى مدى أربعة شهور سابقة على المعركة. وبصفة خاصة كثرة تنقل وتحرك السيارات الخاصة حاملات أجزاء الكبارى ، والتى كانت تشبه طوابير النمل الذى يحمل قطعاً من الجبن جيئه وذهاباً ويوماً بعد يوم فى نشاط وسعى متصل لايتوقف .

ويقول اللواء سعد الدين مأمون ، أن هذه الخطة نجحت تماماً ، حتى أن الأمر قد تطلب بعد بدء الحرب إقناع بعض المحاربين بأنها حرب حقيقية وليست مناورات أو تجارب .

٣ — القيام بعملية تعبئة كاملة للقوات قبيل بدء الحرب . ثم اتخاذ قرار بتسريح من القوات التى عبئت يوم ٤ أكتوبر ، أى قبل الحرب بيومين . وحينما بدأ أفراد القوات المسلحة يعودون إلى أسرهم وأعمالهم كان ذلك فى يومى ٥ ، ٦ أكتوبر ، وكان هذا الإجراء فى مظهره قاطعاً — حتى فى داخل مصر — بأنه لايمكن أن تكون هناك نوايا لبدء القتال فى القريب العاجل .

٤ — كانت هناك خطة موضوعة ومعلنة لما بعد انتهاء المناورات التى تجريها القوات المسلحة المصرية بالجبهة . وكانت الخطة تتضمن كل التفصيلات عن

(١) ونستون تشرشل « الحفيد » ، فى مذكراته بصحيفة الأبزرفر، بتاريخ ١٩٧٣/١٢/٩

(٢) من حديث مع المؤلفين .

انصراف القوات وعودتها إلى أماكنها يوم ٧ أكتوبر ، وواجباتها بعد العودة . . . الخ .

٦ — كانت خطة الهجوم فى ذاتها تتضمن عملية خداع موسعة للعدو . فقد تم الهجوم على طول الجبهة ، وفى أعماق سيناء ، وشرق خليج السويس ، وعبر بحيرة التمساح . وذلك بهدف إرباك العدو والتمويه عليه وخداعه ، حتى لا يكتشف مبكراً اتجاهات الهجوم الرئيسية ، وحتى لا يوجه احتياطياته المعبأة للتركيز على مراكز الهجوم .

٧ — استمرار الروتين العادى على طول الجبهة ، وتفادى الإقدام على أى إجراء أو مسلك يمكن أن ينم عن تغيير فى سير الحياة الطبيعية عندنا التى ألفها العدو . فمثلا ، صدرت الأوامر للقوات بعدم لبس الخوذ حتى تبدأ المعركة . فقد كانت الخبرة الطويلة بالعدو تؤكد أنه يأخذ وضع الاستعداد دائماً متى رأى الجنود المصريين يلبسون خوذهم ، خوفا من أن يكون هذا الإجراء مقدمة لاشتباكات .

٨ — خداع العاملين بالشركات المدنية التى كانت تتعاون مع القوات المسلحة. فقد كان من الضرورى ألا يفطنوا إلى الخطة العسكرية وإلى موعد الهجوم ، حتى لا يتركوا مواقعهم وتنكشف الخطة . وهكذا بقى هؤلاء المدنيون يعملون إلى أن قامت الحرب .

٩ — إصدار أوامر للتموية : مثل مجموعات الكسل . . . وهى جماعات من الجنود يمصون القصب ، ويأكلون البرتقال فى مواجهة العدو ، وهم فى حالة تراخ وخمول ، بحيث تبدو القوات وكأن أمراً هاماً لا يشغلها .

١٠ — صدرت الأوامر بعدم «نفخ» قوارب المطاط المعدة للعبور قبل بدء ضرب الطيران . والسر فى ذلك أن التجارب أثبت أن صوت الجنود وهم ينفخون هواء الفم فى هذه القوارب يمكن أن يسمع على مسافة ٨٠٠ متراً . وحينما تؤدى هذه المهمة بصورة جماعية على امتداد الجبهة ، فإنها يمكن أن تسترعى انتباه العدو إلى أن شيئاً غير عادى يرتب على الضفة المقابلة .

١١ — صدرت التعليمات ببقاء الاستراحات العسكرية بكافة أثاثها ومهماتها دون نقلها للخلف للحفاظ عليها . وكان وجود هذه الاستراحات على أرض المركة مطمئناً إلى استمرار الحياة العادية .

١٢ — صدرت تعليمات بأن تقوم أعداد من الجنود بالاستحمام فى القناة واصطياد السمك ، حتى تبدو الحياة طبيعية وهادئة ومسترخية على الجبهة .

١٣ — التغالى فى تكرار التدريب على معدات العبور . مما جعل العدو يفقد اهتمامه بما يجرى ، ويعتقد أن القيادة المصرية تستهدف شغل وقت قواتها . وربما أصاب الملل العدو من هذا الروتين الذى كانت القوات المصرية تعيش فيه عن قصد .

١٤ — صدرت الأوامر بعدم إفطار الجنود الصائمين فى رمضان إلا مع بدء العملية . ذلك أن الحرص على الإفطار المبكر كان يمكن أن يسترعى الانتباه ويفضح الخطة .

١٥ — تكرار احتلال مراكز القيادة المصرية بالجبهة . وقد أجرى العديد من التجارب لاحتلال هذه المراكز والعمل فيها ، حتى أصبحت هذه العملية روتيناً مألوفاً لايثير أى ظنون أو مخاوف . . . وفى آخر مرة احتلت مراكز القيادة بدأت الحرب ودارت منها العمليات .

١٦ — انشأ الجيش المصرى على الضفة الغربية للقناة ساترا ترابياً فى مواجهة مناطق تمركز قواته لإخفاء تحركاتها . وكذلك أنشأ عددا من السواتر فى العمق بزوايا ميل مختلفة لنفس الغرض . وقد حققت هذه السواتر هدفين :

* جعلت العدو يقتنع بأن الجيش المصرى قد لجأ إلى استراتيجية دفاعية فى حماية هذه السواتر .

* ساعدت على إخفاء تحركات القوات المدرعة المصرية نحو شاطىء القناة لتأخذ أوضاع الهجوم عندما بدأت الحرب .

* * *

البناء المعنوى

استهدفت القيادة المصرية تحقيق عملية إعادة بناء القوى المعنوية وتعبئة الحالة النفسية لأفراد القوات المسلحة . والفرق كبير وواضح بين البناء والتعبئة المعنوية والنفسية ، وبين عمليات الشحن المعنوى التى كانت تعتمد فى الماضى على الأقوال والأحاديث الدعائية والحماسية ، والتى يتلاشى أثرها سريعاً ، ولا تجدى كثيراً فى بناء الروح المعنوية للأفراد والوصول بهم إلى حالة نفسية عالية ومستقرة .

إن البناء المعنوى والنفسى عمل علمى هادف وبطيء ، يتم نضجه وعطاؤه بمرور الزمن . وهو أشبه بعملية تكوين الأصدقاء . ولقد كان الهدف الأسمى الذى تسعى إليه القيادة ، هو الوصول بالقوات إلى حالة من الإيمان بالهدف ، والرضا والاستقرار النفسى ، واليقين والثقة بالنفس ، والارتباط بالقادة على كل المستويات ، بحيث تحقق فى الأفراد صحوة توقظ عقولهم وتنبه حواسهم ، وتعفيهم من آلام محنة ١٩٦٧ ، وتبعث فيهم الرغبة فى القتال ، والإصرار على النصر .

وكان بداية الطريق عاملان :

الأول : التركيز على بعث الخصائص الأصيلة فى الجندى المصرى . ذلك أن الحضارة العربية كانت على مدى التاريخ حضارة شجاعة وبسالة ونخوة ، حضارة لا تقبل الضيم أو الذل أو المهانة ، حضارة عزة وكبرياء وقصاص . ولذلك فإن الحرب لم تخلق جنديا جديداً ، ولم تكسب المقاتل المصرى خصائص جديدة كانت مفتقدة ، ولكنها أظهرت ما كان مطموساً منها . وكانت عملية أشبه بجلاء المعادن النفيسة وإزالة ما علق بها من شوائب .

الثانى : التركيز على تغيير طبيعة العلاقة بين الضباط والجنود . فقد كان واضحاً أن العلاقة التى تقوم على مجرد فرض السلطة المعتمد على فارق الرتبة ،

وتوقع الطاعة العمياء ، لا يمكن أن تكون مجدية فى مواقف الحياة والموت . وأصبح واضحاً أن الجنود الذين يعدون للمعارك يجب أن تتأكد العلاقة بينهم وبين ضباطهم على أساس من المعايشة عن قرب ، والتفاهم والتقدير والتفاعل الحقيقى . وكان الدور الجديد للضباط فى علاقتهم بالجنود يقتضى العمل المتواصل على تنمية الشعور القوى بالانتماء للوطن، والقوات المسلحة، والإحساس العميق بالكرامة ، من طريق أسلوب التعامل وتقدير مثل هذه القيم فى الأفراد .

ونضيف إلى هذين العاملين اعتبارين هامين :

الأول : أن الضباط والجنود معا كانوا يشعرون أنهم يتحملون أمام التاريخ والشعب والوطن جانباً من مسئولية أحداث هزيمة ١٩٦٧ . وكان اجتماث هذه القيم الأصيلة التى ذكرناها فيهم حافزا قويا على تفجير الرغبة لديهم والتصميم الأكيد على عمل شيء للتاريخ يصححون به وضعهم ، ويردون به لشعبهم ووطنهم ما كانوا مسئولين عن ضياعه .

الثانى : أن الظروف كانت مواتية ، والمناخ العام كان مساعداً على عملية البناء المعنوى . وحينما يكتمل هذا البناء لدى رجال خصائصهم مستمدة من خصائص حضارتهم العريقة ، فإنه لا يمكن أن يكون هناك أمر أشد إيلاما لنفس المحارب ، ومصدر تعاسة له ،من أن يرى على امتداد بصره عبر القناه وفوق أرض وطنه ، وعلى مدى سنوات ست غزاة محتلون تدوس أقدامهم رمال سيناء ، وترتفع أعلامهم على هضابها . وكان هذا الذى يحدث على مرأى ومسمع من المصريين أعظم عملية تعبئة معنوية ذات شأن ضخم وأثر عميق على أذهان المحاربين ونفوسهم ، وعلاهم بالإصرار على العبور والثأر وتطهير الأرض ، وترديد قسم التحرير فى كل صباح مع ضباطهم [1].

---

(١) راجع المعانى العظيمه التى تضمنهاهذا القسم، الذى وضعناه فى مقدمة صفحات هذا القسم.

لقد سارت القيادة المصرية فى عملية البناء المعنوى من أجل المعركة مستهدفة تحقيق الاعتبارات التالية :

* الإيمان بالمعركة .
* الثقة فى القائد .
* الثقة فى الخطط .

أولا : الإيمان بالمعركة :

إن الإيمان بالمعركة مدخل أساسى للنصر . وقد أسهم فى تعزيز هذا الإيمان عدة عوامل فى مقدمتها :

١ ـــ أن التغيير الذى بدأ يأخذ طريقه فى المجتمع المصرى ، من خلال أرساء أسس الديموقراطية والحرية ، ومحاولة رفع الظلم ، كان عاملا حاسما فى تنمية مشاعر الإحساس بالإنتماء للوطن ، ورغبة الأفراد فى نيل شرف القتال وتحرير الأرض .

٢ ـــ عزز من هذه الرغبة فى دخول المعركة لدى المحاربين تيقنهم من أن القيادة السياسية لم تدخر جهداً ولا وسعا للوصول إلى حل سلمى للمشكلة . وأنه لم تعد هناك أية جدوى لإضاعة المزيد من الوقت جريا وراء أوهام تسوية سياسية . بل إن أية محاولات أكثر مما بذل كانت بمثابة إراقة لماء الوجه . وأصبح واضحاً بجلاء فى ذهن كل فرد أنه لا بديل سوى المعركة .

٣ ـــ كان الشعب المصرى قوى تعبوية هامة فى تدعيم روح القتال لدى القوات . فقد كان الشعب يتطلع دائماً إلى جيشه آملا فى أن يخلصه من احتلال غاصب طال أمده .

٤ ـــ كانت أعمال العدو الاستفزازية ، وتماديه فى تحدى العالم العربى ، والتجاوز إلى أنواع متكررة من عمليات القرصنة «والعربدة» العسكرية المنظمة ، محركا هائلا لرغبة القتال، جعلت القوات المصرية فى تحفز شديد لبدئه .

٥ ــ بناء ثقة الأفراد فى أنفسهم ، حتى استردوها شيئاً فشيئاً . ولم يكن هذا يتم من خلال الكلام والوعظ ، وإنما بالإعداد والتدريب الشاق المكثف . وتعريف المقاتلين بقدرة وطاقة أسلحتهم ، وبنقاط ضعف العدو . ومساعدتهم على التغلب على الشعور بالضعف ، وإقناعهم بأنهم لم يكونوا سببا فى هزيمة ١٩٦٧ ، بقدر ما كانوا ضحية من ضحاياها .

٦ ــ التركيز على القيم الدينية والروحية ، وعلى تنمية الجانب الروحى والإيمان فى الأفراد ، وإبراز قيمة الإنسان المدافع عن الحق ، المجاهد فى سبيل الله والوطن ، وعظمة الاستشهاد .

٧ ــ اتخاذ قرار المعركة . وكان هذا القرار هو نقطة التحول الكبرى التى جسدت إرادة القتال ، وأنهت حالة التردد ، وحسمت الموقف ، ووضعت القوات فى حالة ذهنية واضحة ومتيقنة من الهدف .

إن هذه العوامل مجتمعة ، وغيرها ، تقف خلف الروح المعنوية التى بدت خلال المعارك ، والتى يتعذر وصفها أو التعبير عنها . تلك الروح التى اتسمت بفدائية وجسارة وبطولة تشهد بها قلاع العدو الحصينة وتحصيناته الرهيبة التى اقتحمها المقاتل المصرى ، بما يتعذر أن نجد له مثيلا فى تاريخ الحروب .

ثانيا : الثقة فى القائد :

١ ــ الارتباط بالجنود :

إن تعزيز ثقة الجنود فى ضباطهم تتأكد من خلال المواقف التى يمرون بها ، والأدوار القيادية التى يؤدونها . ومدى نجاح الضباط فى ضرب المثل الأعلى والتحلى بالسلوك القدوة . وقد كانت حرب الاستنزاف فرصة مواتية مكنت القوات المصرية من خوض عدد من المعارك مع العدو . وعلى الرغم من أنها كانت محدودة ، إلا أنها قد أتاحت الفرصة لتعزيز الثقة فى القيادات من الضباط .

وجاءت حرب أكتوبر لتؤكد هذه القضية . فقد كانت خطة العبور تقتضى وضع جدول زمنى يحدد توقيتات معينة لعبور القادة على مختلف المستويات مع قواتهم . وكان يتعين ـ وفقا للخطة ـ على قادة الكتائب أن يكونوا مع قواتهم بالضفة الشرقية بعد ١٥ دقيقة من بدء العبور ، وقادة الألوية بعد ٤٥ دقيقة ، وقادة الفرق بعد ساعة ونصف . وليس من شك فى حصافة هذا التفكير. ذلك أن وجود القائد وسط قواته فى المعركة هو ذاته عملية تعبئة معنوية بعيدة المدى .

وكان هذا يعنى أنه كان يتعين على جميع القادة أن يكونوا قد عبروا إلى الضفة الشرقية بعد ٩٠ دقيقة من بدء القتال . وفى الواقع أن بعض قادة الفرق قد عبروا قبل مضى ساعة من البدء . وكان وجود هؤلاء القادة بين رجالهم فى اللحظات المبكرة للمعركة قوة معنوية دافعة بالغة الأثر فى روح المقاتلين . وفى موقع من المواقع ، حينما فوجىء الجنود بوجود قائد الفرقة وسطهم فور عبورهم لم يتمالكوا أن أخذوا يرددون صائحين .

« الله أكبر ، . . . الله أكبر ، . . . » .

ولم يكن من الغريب والأمر كذلك ، والقادة يأخذون أماكنهم أمام المقاتلين لاخلفهم ، أن يكون أول من استشهد من القوات المصرية قائد لواء، وأن تكون نسبة من استشهدوا من الضباط إلى الجنود عالية .

٢ ـــ السيطرة :

إن تأكيد السيطرة على القوات لا يتأتى من خلال ممارسة الأمر والنهى ، وإنما تتأكد السيطرة من خلال التفاعل الحقيقى بين الضابط ورجاله ، والمواقف العملية التى يقفها ، ورد فعله للأحداث ، وقدرته على تحمل المسئولية ، ودرجة رشد القرارات التى يتخذها ، والسلوك القدوة الذى ينتهجه .

وعند وضع الخطط ثار النقاش حول ما إذا كان قادة الفرق ينتظرون فى الغرب إلى أن يتم عبور كافة قواتهم ، بما فى ذلك وحدات الشئون الإدارية والخدمات ، ضمانا للسيطرة والإشراف ، أم يعبروا مع القوات المحاربة . وكان القرار الذى اتخذ يقضى بعبور القادة فى وقت مبكر ، لأن وجودهم بين المقاتلين عامل هام للروح المعنوية .

كذلك تحققت السيطرة من طريق إشاعة روح العدالة وعدم التمييز أو التفرقة فى معاملة الأفراد . فقد كانت نظرة القيادة متساوية إلى الضباط والجنود فيما يتعلق بالإعاشة والتموين والتعيينات . وعند العبور كان كل فرد مزود بوجبة واحدة « وزمزمية » مياه ، سواء فى ذلك الضباط أو الجنود .

وقد أدت مثل هذه الاعتبارات إلى سيادة روح التكافل والتآخى ، والرغبة فى اقتداء الجنود لقادتهم . وقد يقال إن مثل هذه الأمور ضرورة حياة أساسية لأى جيش. وهذا حقيقى ، بيد أنها كانت مفتقدة عندنا فى فترة من الفترات .

ثالثا : الثغرة فى الخطة :

إن الخطط الحربية المثالية يجب أن يتوفر لها عدد من العناصر والمقومات الهامة . لعل أبرزها :

١ ـــ التحضير والدراسة العلمية والعملية الدقيقة .

٢ ـــ السرية التامة .

٣ ـــ التمويه والخداع الكامل للعدو .

٤ ـــ المفاجأة وإحداث الصدمة .

٥ ـــ الكفاءة العالية فى التنفيذ والقتال .

٦ ـــ المتابعة والتصحيح الفورى والتقييم المستمر .

وحينما نتأمل خطة عمليات المعركة نجدها قد عالجت كل هذه العناصر . على النحو التالى :

(ا) التحضير والدراسة :

إن عملية التحضير والدراسة ووضع الخطط قد استوعبت الكثير من الجهد والعناية والتفكير . وكان الأساس فى وضع الخطط الاقتناع الكامل بها، وتبادل الرأى، واستعراض كافة البدائل، ومناقشة متأنية لمختلف الاحتمالات فى إطار من السرية والمسئولية. وكان إسهام القادة فى مرحلة الدراسة ووضع الخطط مبعث إحساسهم بالأهمية من ناحية، وبالمسئولية عن نجاح الخطط من ناحية أخرى . كما كان اشتراكهم فى مرحلة التخطيط عاملا أساسياً فى قدرتهم على اقناع معاونيهم بالخطط، وفى تصديهم للمشكلات التى ظهرت أثناء التنفيذ والعمل على حلها .

(ب) السرية :

حققت الخطة نجاحاً باهرا بالنسبة لعنصر السرية . وعلى الرغم من تفوق مخابرات العدو وأجهزة معلوماته، واعتماده على أجهزة مخابرات ومعلومات الولايات المتحدة . فإن أسرار الخطة لم تتسرب بحال إلى العدو أو حلفائه . بل لقد كانت كل استنتاجاتهم فى هذا الصدد خاطئة ومضللة، وهيأت للخطة المصرية والسورية عنصر المفاجأة التامة .

(ج) التمويه والخداع :

عرضنا فى الصفحات السابقة خطة التمويه والخداع الاستراتيجى على المستويين العالمى والمحلى، بجوانبها المدنية والعسكرية .

وقد استهدف الخداع إبقاء العدو فى غفلة تامة مما كان يبيت له سواء بالنسبة لنوايا الحرب أو عملياتها. فلم يفطن إلى قرار الحرب أولا، ولا إلى أبعادها وتوقيتها، وحجم عملياتها واتجاهاتها . بل لقد كان يعيش دائماً تحت وهم أن المصريين

عاكفون على شغل أوقات فراغ قواتهم حتى تنصرف هذه القوات عن التفكير في أى شيء آخر ... كان العدو يأمله بالطبع !

(د) المفاجأة .

كان اختيار اليوم والوقت المناسب عامل مفاجأة حاسم للعدو .

وكان الرئيس السادات قد طلب فى شهر أبريل ١٩٧٣ ، إلى القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية تحديد ثلاثة بدائل ليوم وموعد الهجوم .

وعرضت القيادة على الرئيس البدائل الثلاثة مكتوبة بخط اليد .

وكان يوم ٦ أكتوبر هو آخر المواعيد الثلاثة المقترحة ، وكان هو الموعد الذى اختاره الرئيس . وكان الموعدان الآخران خلال شهرى مايو وسبتمبر .

* إن شهر أكتوبر كان أنسب شهور العام ولقربه من موعد بدء الانتخابات فى إسرائيل من ناحية ، ولأنه كان أيضاً يتفق مع شهر رمضان المعظم بما له فى النفوس من تأثير روحى ومعنوى من ناحية أخرى . كما أنه كان أفضل الشهور بالنسبة للأحوال الجومائية المناسبة لعملية العبور والقتال ، فليله طويل وطقسه معتدل .

* وبالنسبة لاختيار اليوم ، فقد كان يوم ٦ أكتوبر يوافق يوم عطلة فى إسرائيل تتوقف فيه الحياة والنشاط . وكان أيضاً يوافق يوم ١٠ رمضان حيث القمر مناسبا ومضيئا من الغروب حتى منتصف الليل .

* وبالنسبة لاختيار الساعة ، فقد كان الهجوم نهاراً يوفر للقوات المصرية والسورية فى وقت واحد فرصة توجيه ضربة قوية ومركزة إلى العدو فى ضوء النهار ، ثم العودة لتكرار الضربات قبل بدء الظلام .

وكان اختيار الساعة الثانية مساء فى ذاته عنصر مفاجأة تامة ، لأن العرف

العسكرى جرى دائماً على أن يبدأ الهجوم مع أول أو آخر ضوء . أما بدء الهجوم فى وضح النهار فقد كان شيئا غير مألوف .

(هـ) الكفاءة العالية فى التنفيذ والقتال :

بتوفر العوامل السابقة ، ومع رشد الخطط ، حقق التنفيذ كفاءة عالية . وقد حقق نجاح تنفيذ الخطط فى الساعات الأولى النتائج التالية :

* إحداث صدمة عنيفة للقيادة الإسرائيلية أدت إلى الإطاحة بقدرتها على اتخاذ القرارات المناسبة فى الوقت المناسب لتدارك الأمر . فتأخر تقدم مدرعاتها، وتأخرت عمليات طيرانها عما كان مقدرا لها فى توقع المخطط المصرى .

* تنفيذ المهام الموكولة إلى قوات العبور المصرية بمعدلات زمنية أقل مما كان مقدرا لها . وبخسائر فى الأرواح والمعدات أقل أيضاً مما كان متوقعا .

* تكبيد العدو خسائر فادحة ، والتأثيرعلى معنويات قواته ، وإصابتهـــا بالفزع ، والتجائها إلى التشتت .

* رفع معنويات الجبهة الداخلية فى مصر، وعلى مستوى العالم العربى، وكسر حاجز الخوف ، وتعزيز الثقة فى النفس .

* كسب احترام العالم وتقديره ، وإشادته بالمقاتل العربى .

ونقول فى النهاية إن تقييم أى خطة يقوم على أساس مدى تحقيقها لأهدافها بفاعلية وكفاية . وفى ضوء الهدف الذى حدده القائد الأعلى للقوات المسلحة لخطة المعركة، فإنها قد حققت أهدافها بنجاح إلى أبعد مدى .

* * *

التدريب

هناك شعار هام سكته الجيوش الحديثة يقول :

« اذا لم نكن نحارب ، فنحن نتدرب ... » .

ويقول رئيس هيئة التدريب بالقوات المسلحة ، إن الشعار الذى تتخذه الهيئة قريب جداً فى مفهومه من هذا . فهيئة التدريب بالقوات المسلحة تؤمن بالشعار القائل : **« اذا لم نكن نقاتل ، فنحن نستعد »** (١).

والأمر المؤكد فى حرب أكتوبر ،أنه عند تحليل عوامل النصر ،سوف يتضح بجلاء أن التدريب فى البر والبحر والجو قاسم مشترك أعظم فى تحقيقه. فالنصر لم يكن ليتأتى على أية صورة وفى أى معركة دون الوصول بالأفراد المقاتلين إلى مستوى رفيع من اللياقة ، ومن التدريب الجاد الهادف على المهمة .

إن المهام العديدة والمتنوعة التى كان يتطلب من أفراد القوات المسلحة أداؤها قد استدعت أن يتناول التدريب عدداً ضخما من التخصصات ، وعدداً ضخماً من فروع هذه التخصصات ، فالتدريب فى مجال الرادار مثلا ، أو الحرب الإلكترونية يمتد إلى عدد من فروع تخصصات التخصصات . مما يجعل حصر كافة البرامج التدريبية المتاحة بالقوات المسلحة أمراً يكاد يكون متعذراً .

سياسة التدريب :

لقد بنيت سياسة التدريب على أساس من الدراسة والبحث العلمى ، بهدف الإعداد الراق ورفع المستوى القتالى . وبذلك لم يمارس التدريب لمجرد التدريب ، أو لشغل الوقت، وإنما كان التدريب جاداً ومخططا ومستمرا ولهدف واضح، وهو كفاءة القتال وتحقيق النصر. واتسم التدريب بالاتجاه العلمى وبالواقعية معا. فقد كانت الدروس

---

(١) اللواء محمد فايق البوريني : حديث مع المؤلفين ، فى ١٦/٣/١٩٧٤ .

المستفادة ، والخبرات المكتسبة خلال حرب ١٩٦٧ ، وحرب الاستنزاف موضع دراسة وتقييم دقيق. بل قد لا نكون مبالغين إذا قلنا إن معارك حرب الاستنزاف، وغارات الطيران الاسرائيلى على الجبهة عام ١٩٦٩ ، كانت من أهم العوامل التى أسهمت فى تدريب القوات المصرية ، وتعويدها على جو المعركة ، وتطعيمها ضد مخاطرها. ومن نتائج هذه الخبرات ، وعلى أساس من البحث العلمى والتقييم، وضعت خطط التدريب ومناهجه . واتجه التدريب إلى التركيز بصفة خاصة على المهام المحددة التى سوف تنفذها الوحدات .

بحوث العمليات والنماذج التماثلية :

كان يتعين أن يجرى التدريب فى ظروف مشابهة للواقع الذى ستعيشه القوات عند بدء القتال والعبور . ولعل هذا الواقع كان أهم مشكلات التدريب . فالمعركة سوف تتطلب عبور القناة، وتسلق واختراق الساتر الترابى ، وإقامة معابر ورءوس جسور، واقتحام خط بارليف ، والاستيلاء على القلاع الحصينة فيه ... وكلها أمور غير متوفرة سوى على الشاطىء الآخر من القناة الذى يحتله العدو . وكان على المسئولين عن التدريب أن يصمموا نماذج تماثلية « Simulation Models » لكل منها . وحينما استقر الرأى على فتح الثغرات فى نموذج الساتر الترابى بمدافع المياه ، كان لابد فى كل مرة من إعادة ما انهار من السد إلى مكانه ، لكى يبدأ التدريب من جديد . وكان هذا يعنى التعامل مع ١٥٠٠ متر مكعب عند كل ثغرة ، بما يرمز إليه هذا من جهد ضخم وعمل مستمر .

ويمكن هنا أن نقدر نوع الجهد الذى بذله سلاح المهندسين فى إقامة هذه النماذج . ثم سلسلة المحاولات التى كانت تجرى فى دأب وإصرار لتجريب أساليب مختلفة للتعامل مع كل من هذه المشكلات . لقد بدأ التدريب على فتح الثغرات فى النماذج التماثلية للسد الترابى بالمدفعية ، ثم بالمتفجرات وغيرها ، إلى أن استقر الرأى على استعمال مدافع المياه عالية الضغط. وكان لابد من تدريب الأفراد على تسلق السواتر وقياس عنصرى الوقت والحركة « Time & Motion » ،

لاختصار الوقت الضائع والحركات غير الضرورية ، والتوفير بضعة ثوان أو دقائق فى كل محاولة وعملية . وقد وصل التدريب بالجندى إلى أداء هذه العملية فى ٣٥ ثانية ، وهو معدل عال جداً من اللياقة والكفاءة .

رفع كفاءة الفرد :

فى مقدمة ما اهتم به التدريب رفع كفاءة الفرد فى إجادة المهارة فى الرماية . فالقذيفة التى تصيب الهدف فى اللحظة المناسبة يمكن أن تنقذ موقفاً خطيراً . وكان الارتفاع بمستوى الأفراد فى الرماية عاملا هاما فى إعدادهم للعبور ومواجهة العدو. ذلك أن إجادة الرماية تتناسب عكسياً مع كمية ما يمكن أن يحمله الفرد من قذائف. والمهارة فى الرماية تخفف عنه عبء حمل كمية ثقيلة من الذخيرة وهو يعبر ثم وهو يتسلق الساتر. فاذا أضفنا إلى ماتقدم أنه كان يتعين على المشاة الهجوم والصمود والتصدى لهجمات العدو . . فإن هذا كله كان يعنى أن التدريب على إجادة الرماية فى ظل توفر الحد الأدنى من الذخيرة يصبح عاملا حاسماً فى المعركة . وكانت المعادلة النهائية المتطلبة لفرد المشاة هى :

لياقة بدنية عالية للتسلق + مهارة عالية فى الرماية + أقل حمولة ممكنة = نجاح .

وعلى سبيل المثال كان الهدف المحدد لتدريب فرد المشاه حامل الصاروخ المضاد للدبابات هو الوصول بمستواه إلى إصابة الدبابة من الطلقة الأولى . وقد تطلب هذا التركيز على تدريب الرامى تدريباً مكثفا . اقتضى إتاحة الفرصة له لكى يتدرب ١٥٠٠ مرة على إصابة الهدف فى ظروف مشابهة قبل أن يطلق صاروخاً حياً . فاذا حسبنا عدد الرماة ، فإنه يمكن تصور أى قدر من الطاقة ، وأى كمية من الوقت استغرقه تدريب نوع واحد من المقاتلين .

التدريب فى جماعات :

وإذا كان التدريب قد بدأ بالتركيز على إعداد كل مقاتل لمهمته . فإنه فى مرحلته الثانية قد تطلب أن يتم فى مجموعات تعمل على اتصال وتعاون فى مهمة قتالية محددة . وبعد هـــذه المرحلة أخذ التدريب يركز على تخصص منفرد ، ثم التدريب فى مجموعة تخصصات بهدف تحقيق التنسيق الكامل فى العمليات والأداء والتوقيتات .

وفى المراحل النهائية للتدريب ، كان يتعين تحقيق التكامل بين عمل كافة الأسلحة. فقد كان تحديد سرعة معدل العبور على الجسور مثلا عاملا حاسما لضمان تدفق القوات إلى الضفة الشرقية من ناحية،وعدم تكدسها فى الغرب ـ إذا كانت سرعة العبور بطيئة ـ حتى لا تصبح هدفا مناسباً للعدو من ناحية أخرى .

ولقـــد استغرق التدريب قبل الحرب كل شهرى أغسطس وسبتمبر. وكان يتم كما لو كانت الخطة المنفذة حقيقية . وقد كان حجم مشروعات التدريب التى نفذت ضخماً للغاية، وكانت تجرى تجارب كاملة لمشروعات التدريب من وقت لآخر . وفى بعض هذه التجارب كان الأمر يتطلب نقل لواء كامل من الجبهة إلى أماكن التدريب . وكان هذا الإجراء فى حد ذاته عملية خداع وقع العدو فى شركها . لأنه فى النهاية أقنع نفسه بأن مصر تحاول شغل قواتها وقتل الفراغ.

وقبل هذا كله ، كان لا بد أن يؤسس نظام التدريب على أساس اختيار الفرد اللائق للمهمة أولا. ولذلك كان يتعين فرز الأفراد وانتقاؤهم لضمان صلاحية كل منهم لمهمته ، فالذى يقود دبابة يختلف عن الذى يقود سيارة جيب ، وحامل الصاروخ ساجر غير حامل الرشاش .

أعطى التدريب ثماره :

إن الجهود التى بذلت فى التدريب ، والمبالغ الضخمة التى « استثمرت » فيه ، برغم اقتصاديات مصر المحدودة ، يعوضها كلها العائد الضخم العظيم الذى أعطاه التدريب ، والذى جعل الطيار المصرى على سبيل المثال قادراً على أداء سبع طلعات يوميا ، وهو معدل من أرقى ما وصل إليه تدريب الطيارين فى العالم ، مكنه من أن يحقق تفوقا جويا على العدو ، وبتر ذراع إسرائيل الطويلة داخل المجال الجوى المصرى .

* * *

إن جهود التدريب الهادف الشاق الراقى التى بذلت فى القوات المسلحة بكافة تخصصاتها — فى تقديرنا — كانت أفضل استثمار حقق أضخم عائد مجز ، بصرف النظر عن كل طاقات بذلت فى التدريب ، أو أموال أنفقت عليه .

* * *

القائد الأعلى والقائد العام يتابعان المناورات



لقد عايش الرئيس القادة والضباط ورجال العمليات والمحاربين . وحضر البيانات والمشروعات والتدريبات الميدانية ، وناقش واستوثق ، وحسب مع الحاسبين ، وفكر مع العقول التى تخطط ، وتتدبر . ومن مركز العمليات الرئيسى اتخذ القرار وتولى القيادة .
ومن هنا كان رجلا يختلف عن الكثيرين

قسم التحرير

نحن جنود القوات المسلحة فى جمهورية مصر العربية

نقسم بالله العظيم ...

نقسم بالله العظيم ...

نقسم بالله العظيم ...

بأننا قد عقدنا العزم على تقديم أرواحنا فداءً لتحرير

أرضنا المغتصبة ،

مؤمنين بالله وبالوطن وبعدالة قضيتنا ،

مؤمنين بأن ما أُخذ بالقوة لا يُسترد بغير القوة

واثقين أشد الثقة بأنفسنا، وبقادتنا، وبسلاحنا ...

سبيلنا هو الجهاد المقدس ...

شعارنا هو النصر أو الشهادة .

الفصل الثالث

تدمير نظرية الأمن

ولقد نسأل قادة إسرائيل اليوم : أين ذهبت نظرية الأمن الإسرائيلى التى حاولوا إقامتها بالعنف تارة ، وبالجبروت تارة أخرى طوال خمس وعشرين سنة ؟ . . . لقد انكسرت وتحطمت .

أنور السادات

١٦/١٠/١٩٧٣

فى الساعة الواحدة من بعد ظهر يوم السبت ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ـ العاشر من رمضان ١٣٩٣ — توقف « الفريق أول » أحمد إسماعيل بسيارته عند منزل الرئيس أنور السادات فى الجيزة . وخرج الرئيس فى زيه العسكرى يحمل علامات رتبة القائد الأعلى للقوات المسلحة المصرية . وأدى القائد العام التحية العسكرية ، وشد القائد الأعلى على يده ٠ وركب الرجلان سيارة انطلقت بهما مسرعة ، وكان كل منهما مفعم بأحاسيس ومشاعر يتعذر على أى كاتب أن يسطرها ، بقدر ما يتعذر على أى منهما أن يصفها . . فقد كانت السيارة تتجه إلى منعطف حاسم ، عند منحنى هام فى تاريخ العرب ... كانت تتجه إلى غرفة عمليات القيادة العامة ـ

وكان جمهور القاهرة بأسره يسير فى حياته العادية ، ممتص فى مشكلاته اليومية ، يروح ويغدو فى مثابرة وصبر ، لايلاحظ الرجلين فى السيارة ، ولا يدرك من الأمر شيئا . وكان المصريون فى الشوارع والمكاتب والمصانع والحقول ، يتحركون فى هدوء وصمت ، لا ترنو على وجوههم أى سمات التوقع أو الترقب . وعلى العكس . . . كان أغلب الناس صائمون عن الطعام والشراب ، تحف بهم وبمدينتهم نفحات طيبات من نفحات شهر رمضان المعظم ، جعلتهم يبدون فى حالة روحية من الرضا والقناعة والهدوء والاستكانة .

ويقول الرئيس :

« خلال هذه الرحلة عشت أورع وأعظم لحظات حياتى بحق . وكنت فى قمة السعادة وأنا فى طريقى إلى غرفة القيادة . لقد كنت ذاهبا لأحضر أمجد ساعات حياتى » .

« فحتى بداية هذه الفترة كنت أشعر أن كرسى الرئاسة أصبح مؤرقا . . . كنت أعيش مشاعر كل مواطن، كنت أحس بكل أفراد الشعب فى القرى والمدن ، وفى المصانع والمكاتب . كنت أتابع كل جهود إعداد الجبهة الداخلية للحرب . كنت أدرك مدى المعاناة التى يمر بها آلاف الذين ضربوا بالقنابل ، وأصيبوا وأخرجوا من ديارهم ، وهجروا ... وصبروا وصابروا. ولم أكن أستطيع أن أحتمل أكثر . وهكذا فإننى وأنا فى طريقى إلى غرفة العمليات ، كنت أحس من أعماق أننى ذاهب لكى أحضر أروع لحظات حياتى . . أمجد ساعات تاريخى . . كنت فى غاية الرضا أياً كانت النتائج »[١] .

ووصلت السيارة إلى مقر قيادة العمليات .. ونزل القائدان . . ودخلا الباب ، ودخلا التاريخ ...

---

(١) الرئيس أنور السادات « من حديث مع المؤلفين .

وفتح « اللواء » محمد عبد الغنى الجمسى الخزانة السرية التى احتوت أخطر أسرار مصر ، وأخرج منها الخرائط والوثائق ، خرائط ووثائق الحرب الرابعة بين العرب وإسرائيل.

وبدأت عجلة الحرب فى الدوران بسرعة فائقة . وكان العد التنازلى لبدء عملية « بدر » قد وصل إلى الصفر عندما دقت الساعة فى غرفة العمليات الثانية بعد ظهر ذلك اليوم التاريخى . كان المشهد فى الغرفة مثيراً إلى أبعد حد . أخذت الأحداث تسير وفقاً للخطة الموضوعة . كانت المهام تنفذ طبقا للجداول الزمنية بدقة متناهية ، وبأكثر مما يمكن للبشر أن يتحكم فيه . وكانت هناك لحظات عظيمة ، ولحظات رهيبة .. وفى كلتا الحالتين لم يكن أحد ليسمح لنفسه بأى انفعال .

ويذكر الرئيس :

« كنا فى غرفة العمليات نتابع المعركة فى هدوء. وجاءت أنباء طلعات الطيران إلى أهدافه المحددة ... وأخذت نتائج المهام ترد تباعاً . لقد كنت أتمنى قبل تولى الرياسة أن أشترك بشخصى فى الحرب . بل لقد طلبت وقتئذ من الشهيد الفريق أول عبد المنعم رياض والفريق أول محمد فوزى أن يتركا لى مهمة تحرير القنطرة شرق . كنت مصمما على أن أتولى شرف هذه المهمة... ولما بدأت حرب أكتوبر قلت للـــواء فؤاد عزيز غالى القنطرة أمانة فى عنقك ... وعليك أن تحتلها [١] » .

وانقضت قرابة ساعات ست أخذت البلاغات العسكرية خلالها تتوالى . وجاء البلاغ العسكرى رقم (٧) ، فى الساعة السابعة وخمسة وثلاثين دقيقة ، يغير مجرى التاريخ، ويبدأ به تاريخ العرب الجديد . كانت الحقيقة قد سطرت ، ونتيجة

---

(١) الرئيس أنور السادات : الحديث السابق .

القائد الأعلى يتابع ويناقش



. . . وفتح « اللواء » محمد عبد الغنى الجمسى خزانة غرفة العمليات ، وأخرج خطة وخرائط الحرب الرابعة بين العرب وإسرائيل ، وفردها أمام القائد الأعلى ، والفريق سعد الشاذلى يستمع

الحرب قد خطت . فقد كانت هذه الساعات الست الأولى نقطة التحول . بصرف النظر عن أى نتائج لاحقة.. لقد حسم الأمر ، وحدث التغيير . وخرجت بيانات الصحف العالمية تقول :

« مهما كانت نتيجة الأحداث بعد الآن ، فما لا جدال فيه أن الأوضاع فى الشرق الأوسط قد تغيرت » .

وهذا نص البلاغ رقم ٧ :

« نجحت قواتنا المسلحة فى عبور قناة السويس على طول الجبهة، وتم الاستيلاء على معظم الشاطىء الشرقى للقناة . وتواصل قواتنا حالياً قتالها مع العدو بنجاح . كما قامت قواتنا البحرية بحماية الجانب الأيسر لقواتنا على شاطىء البحر الأبيض المتوسط . وقد قامت بضرب الأهداف الهامة للعدو على طول الساحل الشمالى لسيناء وإصابتها إصابة مباشرة » .

* * *

إن النجاح العسكرى الذى تحقق خلال هذه الساعات الست ، هو الذى رتب كل ما جاءت به الحرب بعد ذلك من نتائج وانعكاسات . كانت هذه الساعات الست بكل ما ترمز إليه من أعمق المعانى ، وبكل ما جرته من أعظم النتائج ، هى ساعات العودة والبعث للحضارة العربية .

أما نتائجها العسكرية فقد عبر عنها الرئيس السادات فى إنصاف بقوله :

« لست أتجاوز إذا قلت إن التاريخ العسكرى سوف يتوقف طويلا بالفحص والدرس أمام عملية يوم السادس من أكتوبر ١٩٧٣ ، حين تمكنت القوات المسلحة المصرية من اقتحام مانع قناة السويس الصعب ، واجتياح خط بارليف المنيع ، وإقامة رءوس جسور لها على الضفة الشرقية من القناة ، بعد أن أفقدت العدو توازنه كما قلت فى ست ساعات » .

* * *

إن التاريخ العسكرى لحرب السادس من أكتوبر ، وما يستحقه من بحث ودراسة متأنية تستوعب وتستظهر أبعاده ودروسه ، يتجاوز حدود هذه الدراسة ومحدوداتها. ونحن إذ نتعرض للجوانب العسكرية فإننا نحاول أن نردها إلى أصولها الإدارية والتنظيمية .

دوران عجلة ادارة الحرب :

إن قرار الرئيس السادات بالحرب ، كان يعنى سرعة دوران عجلة عملية إدارية هائلة بكل مكوناتها من تخطيط، وتنظيم ، واتخاذ قرارات ، واتصالات ، وتنفيذ، وتنسيق ، وإشراف ، ومتابعة وتقييم .

ومع دوران عجلة هذه العملية الضخمة،تتابعت آلاف القرارات ، بل عشرات الآلاف ، فى فورية وحسم .

وهكذا فإن مختلف القرارات فى العمليات والتنظيم والتدريب والبحوث والتفتيش،فى القوات البرية والبحرية والطيران والدفاع الجوى ،فى المشاة والمدفعية والمدرعات ، والإشارة والمهندسين والخدمات الطبية ، والتعيينات والذخيرة والمهمات والنقل والتجنيد ، والحرب الكيماوية والقوات الخاصة ، والشئون المعنوية والشرطة العسكرية والمخابرات الحربية والاستطلاع ... فى كل مكان بالدولة وبالقطاع الحكومى والعام والمدنى ، أخذت تتواتر وتتابع لتأخذ طريقها إلى التنفيذ الفورى عند كل مستوى .

إن إدارة الحرب — أكثر من أى نوع من أنواع الإدارة التى عرفناها — يحسمها أمران :

الأول: معدن القادة الذين يتولون أمرها،ومدى قدرة هؤلاء القادة على اتخاذ القرارات السديدة الفورية ، تحت أشد الضغوط وأسوأ الظروف .

الثانى : القدرة الفائقة على التنسيق الفعال المثمر بين كافة الأسلحة المختلفة ، المتعاونة معا فى معارك البر والبحر والجو . بحيث تنصهر كافة الجهود المشتركة

والمتخصصة معا ، وينتج عنها حاصل نهائى جبار يحقـــق النصر الذى ينسب إليها جميعها .

وهنا تصبح قيادة المعركة ، فى حركتها وسرعتها ونشاطها وفاعليتها ، أشبه بقيادة الفرقة الموسيقية الضخمة .

إن قائد الأوركسترا المرهف النشط الفطن الذى يميز اللحن ، ويحسن التوقيت ، ويجيد الاتصال ، ويحـكم التنسيق بين أعضاء الفرقة الـكبيرة على اختلاف تخصصاتهم وآلاتهم وأدواتهم ، هو الذى ينجح فى النهاية فى إخراج القطعة الموسيقية الرائعة التى يطرب لها الناس ويستمتعون .

وهـكذا فإن جوهر نجاح القائد يتركز أساساً فى مدى قدرته على تعبئة الآخرين باليقين فى النصر، وتحقيق التنسيق الفعال بين الأسلحة المختلفة، والجيوش المتعاونة ، والتشـكيلات المتنوعة ، وكل الإمـكانات والقوى من أجل الهدف المشترك . . .

وفى النهاية تصبح المعركة أشبه بسمفونية ضخمة وصاخبة ، تسير فى نسق وإحـكام ، وترنيم منتظم ، وتنفيذ محـكم وأداء متقن ، إلى غايتها النهائية لتحقيق النصر .

* * *

ومن خلال هذا التصور لإدارة الحرب ومن خلال الدراسات والأحاديث والمقابلات ، والزيارة الميدانية لأرض المعـــارك ، سوف نتابع أحداث حرب أكتوبر .

* * *

سيمفونية العبور

قبيل الساعة الثانية بعد ظهر ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، العاشر من رمضان ١٣٩٣، صدرت الأوامر إلى السلاح الجوى بالتأهب ، وإلى المدفعية على طول المواجهة بالضفة الغربية لقناة السويس « بتعمير » المدافع .

وحتى هذه اللحظة كان البعض لا يعرفون أن المعركة على وشك البدء خلال دقائق . وحينما صدرت إليهم الأوامر ، اتصلوا بقيادتهم ليتأكدوا من حقيقة الموقف .

وجاءت الأوامر قاطعة ... إنها حرب ... وإلى هذه الدرجة كانت السرية تامة ، والخطة محكمة .

* * *

وعند الثانية تماما كان المشهد رائعا يفوق كل تصور وخيال . كان مشهداً رهيبا ومذهلا غفل المصورون — بكل أسف — عن تسجيله ، وافتقد من سجلات التاريخ العسكرى المصرى بدون وجه حق . كانت أسراب سلاح الجو المصرى فى تشكيلات اشتركت فيها مائتا طائرة ، بإمرة وقيادة نسور الجو من الطيارين المصريين . . . تمرق وامضة كالشهب متجهة شرقا إلى أهدافها المنتقاة ، تشق سماء الجبهة فى روعة وتصميم ، وتعبىء معنويات القوات الميدانية بشحنات عاتية من الحمية والحماس والثقة والأمل . وكانت لحظة مشهودة هزت كل من عاشوها من الأعماق .

وعلى أرض الجبهة كانت القوات قد أخذت أوضاع القتال . . . ثم فتحت أبواب الجحيم . . . فقد انطلقت القذائف والصواريخ من ألفى مدفع على امتداد المواجهة ، تزمجر كالرعد ، وتنهال كالقدر مدمرة القلاع والحصون، ومخازن الذخيرة

عبرنا الهزيمة . . .



كانت الساعات الأولى فى الحرب ـ بصفة خاصة ـ حرب مهندسين . . .
إن إقامة المعابر إلى الضفة الشرقية فى سرعة وكفاءة خيالية ، وفى ظل ظروف عمل رهيبة ، كانت نصراً ضخماً للمهندسين .

والمؤن ، ومراكز القيادة والتجمعات ، ومحطات الرادار والمستودعات . . إلخ . واشتعل الأفق ناراً . وبدأت الانفجارات تصم الآذان ، وسحب الدخان ترتفع فى سماء سيناء . وعلى أرضها وقعت مذبحة . . . كانت أولى ضحاياها طائرات العدو الرابضة على أرض مطاراته . وثأر سلاح الجو المصرى لنفسه . فقد أذاق العدو من نفس الكأس الذى أذاقه للطيران المصرى فى عامى ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ .

لقد قصفت مطارات العدو ، ومراكز الاتصال والتدخل « الشوشرة » الإلكترونية . وتعطل المركز الرئيسى فى سيناء عن العمل ، وصمت حتى أواخر أكتوبر . ومنحت القوات المصرية فرصة ذهبية للعمل دون تدخل . وفى هذه المرة لم تكن الباخرة « ليبرتى » ولا شبيهاتها قادرة على العمل فى خدمة أغراض العدو ، أو حتى قادرة على التواجد قريبا من مسرح العمليات عند الشواطىء المصرية . فقد كان أسطول مصر هناك ، نشطاً يقظاً ، يؤدى دوراً حاسماً ومنسقا ومحكما مع الجيش والطيران ، وتقذف وحداته مواقع العدو فى شمال سيناء .

واعتلت الدبابات المصرية الضخمة قمم المصاطب العالية التى شيدها سلاح المهندسين ، تطلق نيرانها المدمرة عبر القناة متخطية الساتر الترابى - أو المانع الترابى كما نفضل أن نسميه بعد أن شاهدنا ضخامته وتحصيناته - لتدك المواقع وتزلزل الأرض تحت أقدام العدو الذى انهار من قوة الصدمة وهول المفاجأة ، وتسرب الهلع والفزع إلى قلبه .

•

واكتمل اللحن الأخير فى سيمفونية العبور . . .

كانت الفرق الخاصة قد بدأت تأخذ مواقعها شرقا وتنفذ مهامها بنجاح . وحينما ذاتت عقارب الساعة الثانية وعشرين دقيقة (١٤٢٠) بدأت الموجات الأولى لخمس فرق من المشاة عبور قناة السويس ، أو عبور الهزيمة ، فى ألف قارب من المطاط ، تنفخها الجنود بأنفاسهم فى دقائق بمجرد إشارة البدء . وبعد نصف ساعة من بدء الهجوم الشامل كان قد عبر إلى شرق القناة ثمانية آلاف من الجنود

والضباط، مسلحين بالإيمان والعزم والتصميم ، ومعهم أسلحتهم الخفيفة . وأخذوا يسابقون الزمن ، يتسلقون المانع الترابى الشاهق مهللين مكبرين . . . الله اكبر الله اكبر . . .تشق عنان السماء ،وتدخل الرعب فى قلوب الذين استكبروا وتمادوا وتحصنوا فى قلاع منيعة وعاتية .

ونشط المهندسون ، فى حماس ودأب وسباق مع الزمن ، يشيدون المعابر ، وهم أشبه بخلية نحل نشطة، كل يعرف مهمته ، يشمر عن ساعده ويستبسل فى إنجازها . لا يعملون بالسواعد فقط وإنما بالقلوب والأفئدة وكل القوى والدوافع التى يمكن أن تحفز همم البشر .

ونشط طيران العدو . وكانت المفاجأة ، أو الطامة الكبرى التى لحقته . كان الدفاع الجوى المصرى قد انتظر هذه اللحظات فى صبر وصمت طويل . إن الدفاع الجوى كان يريد أن يثأر أيضاً لعربدة الطيران الإسرائيلى فى سماء العرب على مدى سنوات . وكان قد أعد كل شىء ، وأعاد تنظيم كل شىء . . . وانتظر متأهبا .

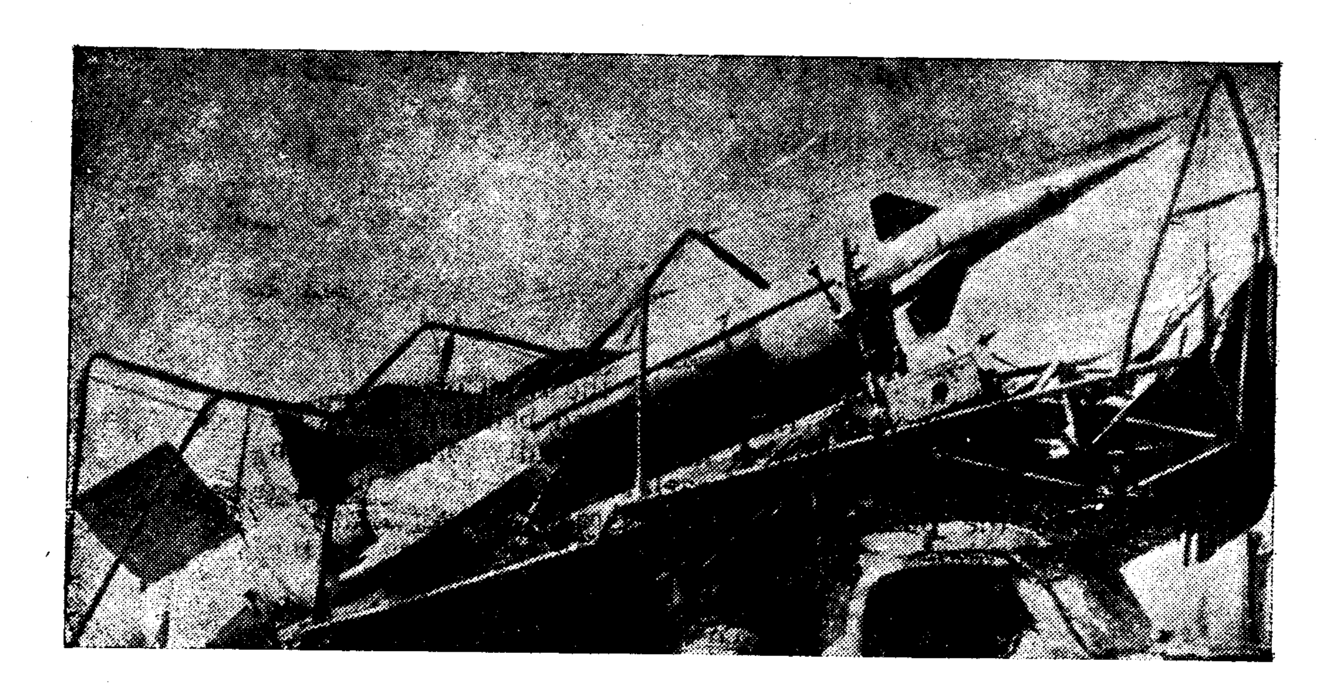
وحينما دخل الطيران المعادى سماء المعركة كان الموقف هذه المرة مختلفا تماما . كانت صواريخ سام ٢ ، سام ٣، سام ٦ ، وسام ٧ فى انتظاره . وتهاوت الطائرات التى تحمل نجمة داود فى أعداد ضخمة مثلما يتهاوى البط فوق بركة الصيد .. وفر من نجا منها فى كل اتجاه يتخلص من حمولته فى أسرع وقت وفى أى مكان .

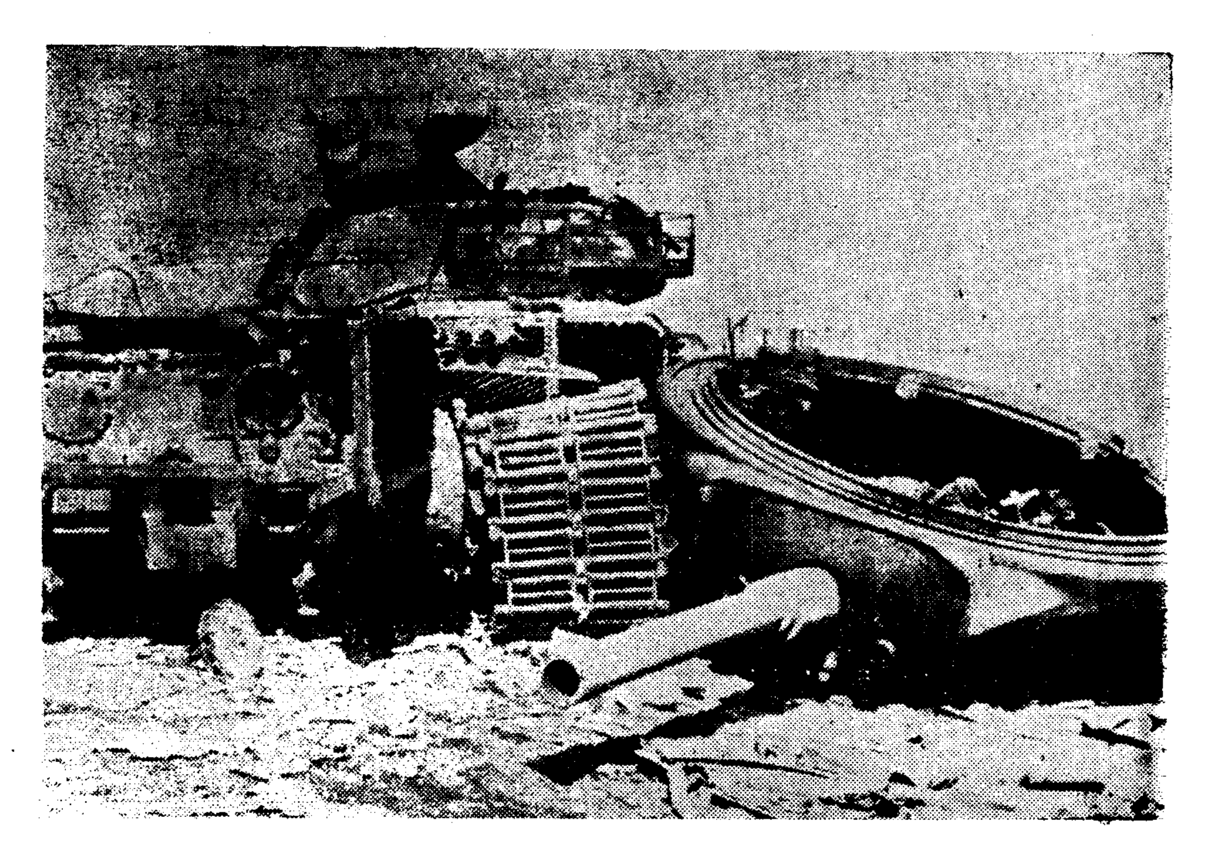
* * *

الله أكبر . . . رفعنا العلم



سام ٦ ... وبتر الذراع الطويلة





دبابة إسرائيلية ... واحدة من ضحايا معركة الدبابات الرهيبة

وبعد ساعات ست من بدء الهجوم الشامل الكاسح ، كان لمصر ٨٠ الف مقاتل على ارض سيناء ، وارتفعت اعلامها فوق كل المواقع .

وكتبت الصنداى تايمز فى ١٦ ديسمبر ١٩٧٣ ، تقول :[1]

« فى خلال ساعات ست خاطفة،متوقدة الذكاء ، يوم السادس من أكتوبر، أثبتت مصر كيف أن التفنن بالإضافة إلى الأسلحة المصرية ، أمكنها أن تحطم الاستراتيجية الإسرائيلية » :

enough time for the arrival at the front of the ... armoured reserves." In six swift and brilliant hours, on October 6 Egypt showed how ingenuity plus modern weapons could destroy that Israeli strategy.
To the puzzlement of the Israelis in the barrier bunkers, almost every man who came scrambling up the

* * *

لقد أرادها السادات حربا مصرية صميمة خالصة فى قرارها وانتصاراتها وشهدائها . وحتى العالم رأسه،الصديق والعدو ،لعظمة الجندى المصرى صانع النصر.

وكانت سيمفونية رائعة ، لحنها قوى وصاخب ، ولكنه منسجم ومنسق وممتع . . . أى إمتاع .

* * *

ابن كان العدو ؟

من أكبر نقاط الضعف فى أى جيش ، أنه لا يأخذ العبرة عادة إلا من مفاجآت آخر حرب يخوضها . ولقد صح هذا تماماً فى كل الحروب ، وكان مؤكداً فى حرب أكتوبر .

فى حوالى الساعة الرابعة فجر يوم ٦ أكتوبر ، كان الجنرال دافيد العازار رئيس الأركان العامة للقوات المسلحة الإسرائيلية ، يتابع تقارير المخابرات التى وصلته . ويقول ونستون تشرشل — مؤلف كتاب حرب الأيام الست — إن هذه التقارير كانت تؤكد أن القوات السورية والمصرية على وشك القيام بهجوم

منسق بينها . وعلى الفور طلب العازار من الوزارة الإسرائيلية تخويله سلطة تعبئة القوات الاحتياطية التى تشكل معظم القوات الإسرائيلية المحاربة . وصدقت الوزارة على طلبه. وصدر الأمر بالتعبئة العامة فى الساعة السابعة صباح يوم السبت ٦ أكتوبر[1] .

ويقول تشرشل إن العازار طلب الإذن له ببدء هجوم إسرائيلى فى الساعة الواحدة مساء نفس اليوم — أى قبل بدء الهجوم المصرى السورى بساعة واحدة — ولكن طلبه رفض لاعتبارات سياسية . فقد كان الطلب محرجا للوزارة الإسرائيلية التى كان عليها أن توازن بين ما يمكن أن يؤدى اليه البدء بالهجوم من إثارة الرأى العام ضدها، وبين نتائج عدم الاستجابة لطلب العازار من التضحية بأرواح الإسرائيليين إذا ما أخذ العرب فرصة المبادأة بالهجوم .. !

ونتيجة لتقارير المخابرات فى الفترة السابقة على الحرب . صدرت الأوامر إلى القوات الإسرائيلية فى سيناء والجولان بأن تبقى فى حالة استنفار كامل ، وضوعفت القوات فى كلتا الجبهتين اعتباراً من يوم الجمعة ٥ أكتوبر .

وتدل التقارير التى صدرت عن القيادة الإسرائيلية ، على أنه كانت هناك فجوة فى عملية الاتصالات داخل القوات المسلحة . فبينما صدرت الأوامر إلى القوات بأن تكون فى حالة تأهب كامل وتام اعتبارا من يوم الجمعة ، فإن الأوامر لم تصل إلى القوات الميدانية بالجبهتين . فقد تبين فيما بعد أن أول علم لهذه القوات عن الهجوم المصرى السورى ، جاء حينما اكتسحت فعلا القوات المصرية والسورية مواقع هذه الوحدات الإسرائيلية الميدانية بطائرات الميج ونيران المدفعية .

ولم يفاجأ الجنود الإسرائيليون وحدهم وهم يستحمون ويغسلون ملابسهم وينشرونها على مرتفعات الجولان وخط بارليف ، وإنما فوجىء أيضاً جنر الاتهم .

---

(1) Sunday Times : Insight on The Midle East War » P. 33

(1) Winston Churchil : « The Youm Kippur War » Observer December, 1973) p. 27 .

ومن المؤكد أنه فى أعقاب حروب ١٩٦٧ ، والنصر السريع السهل الذى أحرزته إسرائيل خلالها ، سادت روح الغرور والتعالى ، إن لم تكن روح الاستهتار أيضاً بين القادة الإسرائيليين وجنودهم . وهذه حقيقة لا ينكرونها . إذ يقول واحد منهم : « إذا كانت دمشق على مسافة ساعتين منا ، والقاهرة على مسافة ثلاث ساعات ، وبغداد أربعة . . . من كان يفكر أن الأعداء سوف يهاجموننا ، أو حتى يفكرون فى ذلك جديا » . وكانت مثل هذه الأفكار هى التى تسيطر على عقول القادة الإسرائيليين .

وكانت القيادة المصرية قد استغلت هذه الحالة النفسية للعدو إلى أبعد مدى ، وبمنتهى المهارة . فكانت تعبىء القوات وتسرحها ، وتحركها بأعداد ضخمة من موقع لآخر . وهى بذلك تملى على العدو نوع الاعتقاد والتصرف الذى تود أن تجره إليه . فقد كان الإنذار برفع درجة الاستعداد الذى صدر يوم عيد الغفران فى إسرائيل هو رابع إنذار يتكرر فى الشهور التسعة الأولى من عام ١٩٧٣ . وثانى إنذار بإعلان حالة التعبئة الكاملة .

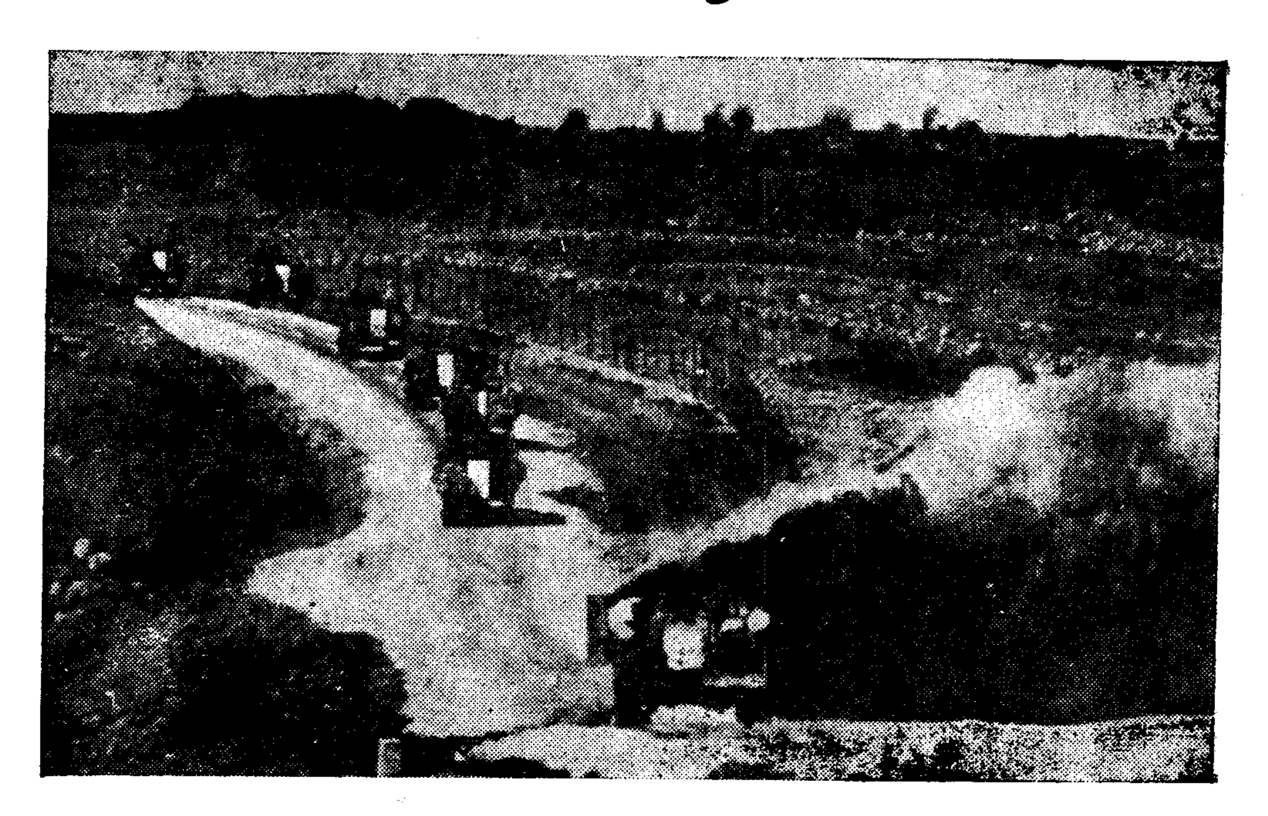
وكان الإنذار الأول بإعلان التعبئة العامة للقوات الإسرائيلية قد جرى فى شهر يونيو ١٩٧٣ . وقد كلفت هذه التعبئة إسرائيل مايعادل أربعة ملايين ونصف جنيه إسترلينى[1] . وفى المرة الثانية كانت إسرائيل مترددة فى إعلان التعبئة العامة ، بسبب النفقات الضخمة التى تتكبدها ، وبسبب أن الانتخابات الإسرائيلية كانت على الأبواب . وكانت الحكومة الممثلة لحزب العمل تريد أن تدخل الانتخابات ببرنامج يحمل نغمة السلام والرخاء والأمل ، بصرف النظر عن سوء ومرارة الحقائق القائمة .

ومن ناحية أخرى ، فإن إسرائيل فشلت فى إدراك نوايا العرب ، وتصميم الرئيس السادات على القتال ، وتقييم قدرات القوات المسلحة العربية . وقد

---

(١) ذكر المشير أحمد إسماعيل ، أن القوات المسلحة المصرية كانت تقوم بمناورات وتدريبات موسعة حوالى هذا التاريخ .

قول اسرائيلى مدرع تصيبه المدفعية السورية بالجولان





لكم أعطى وضحى وصبر . . . والآن يمسك فى يده دليل قدرته

تضافرت هذه العوامل مع سابقتها فى حمل إسرائيل على تجنب عملية التعبئة العامة فى وقت مبكر. وبالتأكيد فإن هذه الحسابات الخاطئة قد جعلت إسرائيل تدفع الثمن غالياً.

وتقول الأوبزرفر البريطانية ، إن أول بادرة استكشف منها الإسرائيليون نوايا الهجوم ، جاءت عندما رأوا الجنود السوريين يرفعون مئات الشباك التى كانت تغطى المدافع الثقيلة من عيار ١٣٢ ، ١٥٢ مم ، على مرتفعات الجولان ، وذلك قبيل بدء الهجوم بخمسة عشر دقيقة . وبعدها شن السوريون هجوما كاسحا قوامه ١٢٠٠ دبابة — وهو عدد أكثر من ضعف قوة روميل فى العلمين خلال الحرب العالمية الثانية — على جبهة عرضها ٢٤ ميلا فقط.

ويقول المشير أحمد اسماعيل :

« إذا كان الإسرائيليون لم يكتشفوا نوايا الهجوم العربى إلا فى هذا الوقت المتأخر ، فإن مخابراتهم بكل تأكيد لا تستحق شيئاً من الهالة التى أحاطت نفسها بها . حقيقة أنهم لم تكن لديهم الثقة فى أننا سوف نشن هجوما شاملا عليهم ، ولم يكتشفوا أننا سوف نهاجم فى وقت مبكر بسبب خطتنا فى التمويه .. إلا أنه كان بوسعهم أن يكتشفوا الإعداد للهجوم فى وقت مبكر أيضاً ، لو كانت مخابراتهم بالمستوى الذى شاع عنها . فقد حشدنا قواتنا ، وتحركنا بالكبارى والصواريخ للأمام منذ بضعة أيام سابقة للهجوم . ولم تكن مثل هذه الإجراءات من قبيل التدريب ، وإنما كانت دليلا على أن الأمر جد »

إن المفاجأة التامة التى أوقعتها الجيوش العربية بإسرائيل على جبهتين ، قد تسببت فى توجيه اتهامات مريرة إلى قادة الجيش والمخابرات. إذا لم يقتصر الأمر على أن تقارير المخابرات وتقديرات العسكريين كانت خاطئة . وإنما كان الأهم هو أن نظام حماية إسرائيل قد اتضح تماماً كله . وقد برر واحد من القادة الإسرائيليين هذا الفشل بقوله :

« إذا كنت تملك سيارة مصممة على أساس أن زيادة سرعتها من صفر إلى ٦٠ ميلا يستغرق ١٥ ثانيه ، فيجب ألا تفاجأ إذا وجدتها غير قادرة على التجاوب معك بزيادة السرعة إلى ٦٠ ميلا فى ٤ ثوان » .

لم يكن من الغريب إذا أن تعم الفوضى وأن يفلت زمام الأمور فى القوات الإسرائيلية . وحينما أعلنت التعبئة العامة ، كان على الحياة المدنية أن تتوقف . فقد هرع الفلاحون والعمال والجزارون والخبازون والترزية وحراس المنازل وأصحاب وعمال المحلات . . . و . . الخ . فى الساعة السابعة صباحاً يوم عيد الغفران — أى قبل الهجوم المصرى السورى بسبع ساعات — وارتدوا زيهم العسكرى ، وقدموا أنفسهم إلى وحداتهم . واتجه عدد من هؤلاء بدباباتهم صوب مرتفعات الجولان خلال ١٨ ساعة من علمهم بالتعبئة .

وتقول الأبزرفر البريطانية ، إنه فى الوقت الذى وصل فيه هؤلاء الإسرائيليون إلى ساحة القتال ، كان الموقف قد تأزم جداً بالنسبة لموقف الجيش الإسرائيلى . فقد كانت القوات السورية تحتل المرتفعات التى أراق الإسرائيليون دماءهم للاستيلاء عليها عام ١٩٦٧ . وكانت صواريخ ساجر قد فعلت فعلها ، وأبادت أعداداً ضخمة ومزعجة من الدبابات الإسرائيلية التى كان يقضى عليها بالجملة .

* * *

وبينما خرج كل أهل إسرائيل للحرب ، كان الموقف على جبهة سيناء مختلفاً . فقد خرج المصريون من أهل النجوع والكفور والعزب والقرى والمدن فى منطقة العمليات على طول القنال يودعون جنودهم ، ويعبرون عن أعمق وأصدق مشاعرهم ، يدعون لهم بالنصر ويسألون الله أن يحفظهم ويحافظ عليهم . ويقول أحد الضباط :

« ما أن رأى هؤلاء المواطنون الفقراء البسطاء جنودهم يعبرون حتى غمرهم فيض هادر من المشاعر بين الرجاء والأمل . الرغبة فى الفداء والعطاء ، الحب والتضامن . . وأعطى هؤلاء الكادحون كل ما يملكون . . . التجار فضوا حوانيتهم هدية للجنود ، والبسطاء الفقراء أفرغوا « مشنات » الفاكهة عن آخرها ، يقدمون كل رأسمالهم من حبات البرتقال واليوسفى للجنود ، عطاء طيباً عن رضى وسعادة وتضامن . . مرددين : الله معكم ، الله ينصركم ، الله يباركم ، الله يحرسكم » .

كيف دمرت النظرية ؟

إن القوات المسلحة المصرية قامت بمعجزة على أى مقياس عسكرى ، لقد أعطت نفسها بالكامل لواجبها ، واستوعبت العصر كله تدريبا وسلاحاً ، بل وعلما واقتدارا.

الفريق [illegible]

١٩٧٣/١٠/١٦

نظرية المباراة فى المعارك :

إن قيادة المعركة على الجانب المصرى قد سارت وفقا لطريقة تفكير تتصف ببعد الرؤيا . كان يتعين أولا تصور أسلوب القيادة الإسرائيلية فى التفكير . ماالذى كانت القيادة الإسرائيلية تريدنا أن نفعله ؟ وكيف تخطط له ؟ ثم كيف تحاول إيقاع القوات المصرية فيه ؟ ثم كيف يوفر العدو العوامل المساعدة لاستدراج القوات المصرية إلى شراكه ؟ كانت القيادة المصرية تتقمص عقلية العدو وتفكر بفكره ، وتتصور تصوراته . ثم تحاول التنبؤ بما يمكن أن تكون عليه خططه . وعلى أساس هذا كانت القيادة المصرية تحسب قرارات القيادة الإسرائيلية ، ثم تتخذ القرارات المضادة المناسبة فى ضوء كل الحسابات والتنبؤات .

إن هذا الأسلوب فى لعبة القرارات ـ أو نظرية المباراة « Game Theory »[1] ، كما تسمى فى علم الإدارة ـ كان عاملا هاماً فى اتخاذ قرارات المعارك إثر العبور ، وفى نجاح الخطط المصرية .

(١) عبد الكريم درويش ، ليلى تكلا : أصول الإدارة العامة ، (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٤) ، ص ١٣٥ — ١٣٦ .

هذه أرضى أنا . . .

نظرة على سيناء . . . من جنود مصر

لم يكن ساتراً ترابياً فحسب ، وإنما كان أيضاً مانعاً ضخماً
تعين على القوات المصرية اقتحامة ، وفتح ثغرات عميقة فيه .

إن نظرية المباراة « Game Theory » — أى التخطيط على أساس القدرة على التنبؤ بتفكير العدو — قد جاءت بأفضل النتائج فى إدارة المعارك بجبهة سيناء . وهى لم تنجح فى تجنب الوقوع فى مخططات العدو فحسب ، ولكنها أيضاً مكنت القوات المصرية من أن تنزل به خسائر فادحة حينما حاول القيام بهجمات مضادة .

وبعد ثلاثة أيام من بدء القتال، كتب المحلل السياسى للجارديان يشيد بالخطة المصرية الذكية ، التى فشلت إسرائيل فى الإيقاع بها واصطيادها . قال :

« تمكنت القوات المصرية أن تقاوم إغراء التقدم فى سيناء رغم أن الطريق كان مفتوحاً أمامها ، ورغم أنها كانت تسيطر على قطاع طوله ٧٠ ميلا ، وعرضه عشرة أميال . وذلك تحاشياً للشرك الذى أرادت إسرائيل أن توقعها فيه بإغرائها على التقدم ، ثم محاصرتها ، وقطع الإمداد عنها ، وضربها » .

ويقول الرئيس السادات :

« لقد أصدرت الأمر بعبور القناة ، واقتحام خط بارليف والاستيلاء عليه ... ثم الانتظار على الشاطىء الشرقى . كنت أعلم نوع تفكير القادة الاسرائيليين ، وكنت أقرأ ما فى ذهنهم ، ولى بهم خبرة طويلة . لقد كان الاسرائيليون يتوقعون منا ان نندفع بسرعة الى داخل سيناء ، وفضلوا ان ينصبوا لنا الشرك وينتظرونا لندخل الكمين الذى اعدوه ، ثم يرتدون علينا فى هجوم مضاد ويفتكوا بنا كما ارادوا .. كنا على بينة من اسلوب تفكيرهم وكنا نحاول قراءة افكارهم .ولم نقتحم الفرصة ،ولم نندفع فى عمق سيناء . وكان علينا ان نتنبأ مرة ثانية برد فعلهم لموقفنا من خططهم ، وامكننا ان نقتنع بان صبرهم سوف ينفد . فقد كنا نثق فى ان هذا المسلك من جانبنا سوف يحملهم مضطرين على مهاجمتنا . وهكذا تنبأنا بالهجوم ، واعددنا له العدة ... وبالفعل حضروا الينا ودمرناهم . وكانت البداية قصة اللواء ١٩٠ مدرع الذى افنى من آخره ، وقائده عساف ياجورى الذى اسر ... هكذا كنا نبنى تفكيرنا وتخطيطنا فى ادارة المعارك على اساس ما نعتقده ونتنبأ به من تفكير وتخطيط للعدو . » (١)

---

(١) الرئيس أنور السادات : من حديث خاص مع المؤلفين.

احتمالات النجاح :

يقول المشير احمد اسماعيل :

« كانت لدى ثقة فى ان احتمالات النجاح كبيرة . وبالطبع لا يستطيع احد ان يضمن النجاح ١٠٠ ٪ . ولما سئلت فى مجلس الدفاع الوطنى عن احتمالات النجاح كنت واقعيا . قلت لا احد يضمن النجاح ١٠٠ ٪ ، ولكن احتمالاته فى تقديرى كبيرة ... كان هدفى ان اجنب المواطنين ويلات الحرب ، ولذلك حرصنا على حصر القتال فى الجبهة وعلى الا نبدأ بضرب العدو فى العمق » .

وحينما بدأت عجلة الحرب فى الدوران وبدأت العمليات . وجاءت التقارير عن الضربة الجوية التى وجهت ضد قوات العدو ... كانت ناجحة . وكانت نتائج فتح نيران المدفعية مؤثرة . وحينما وصلت الموجات الأولى للعبور إلى الشاطىء الشرقى للقناة ، ووضعت أقدامها على أرض سيناء ، قال القائد العام لقد ضمنا كسب المعركة بنسبة ٦٠ ٪[١] .

وأخذت موجات المشاة تتسلق الساتر الترابى وتركب قمته ونواصيه ، وتأخذ مواقعها عليه . لقد كان كل الاهتمام موجها إلى نتائج فتح الثغرات فى الساتر الترابى وإقامة المعابر . وكان هذا كل ما يشغل القادة فى غرفة القيادة المصرية . لأن ضمان صمود القوات ونجاح المعركة مستقبلا كان يتناسب تناسباً عكسياً مع الوقت الذى تستغرقه عملية عبور المدرعات ودخولها المعركة . وكان سباقاً رهيباً مع الزمن . أطرافه المشاة والمهندسون ، والمدفعية ، والطيران ، والدفاع الجوى .

ويقول القائد العام : لقد كان الجيش الثانى أكثر توفيقاً فى ذلك. أما الجيش الثالث ، فقد صادفته عدة متاعب . لقد تعرض لقصف مركز من طيران العدو . وكانت رمال الساتر الترابى من تربة شبه طينية ، أصبحت موحلة وشديدة الانزلاق بعد إزالتها بالمياه، مما عرقل تقدم الدبابات . وفى بعض أجزاء الساتر كانت الرمال مكلسة ، وفشلت مدافع المياه فى إزالتها ، واضطررنا لتفجيرها بالمواد

---

(١) المشير أحمد إسماعيل : من حديث خاص مع المؤلفين .

الناسفة ، كذلك كان المد والجزر فى هذه المنطقة شديدا ٠٠٠ وعندما عبرت أول دبابة من الجيش الثالث إلى الشاطىء الشرق استرحنا نفسياً ، وبدأت أضمن نجاح المعركة بنسبة عالية . فقد كنت واثقاً من قدرة القوات على إحباط هجوم العدو » .

وأخذ الإحساس بالإنفراج يسود غرفة القيادة ، وكان القائد الأعلى والقائد العام يتقبلان أنباء المعارك أولا بأول فى تفاؤل وهدوء . ولم يكن أحد ليسمح لنفسه بأن ينفعل . إن الانفعال معدى ٠٠٠ وكان المطلوب من القادة أن يحتفظوا بالسيطرة على أعصابهم ويكبحوا مشاعرهم تحت كل الظروف ، ومع كل الأنباء السارة والسيئة ، إن القائد الذى يفقد أعصابه يفقد المعركة . وإذا قرأ أعوانه فى وجهه احتمالات النجاح أو الفشل فإن هذا يؤثر بدوره وبكل تأكيد على معنوياتهم وأدائهم .

كانت البداية . . . وكانت النهاية :

كانت بداية المعارك الضارية مهاجمة القلاع الحصينة على امتداد خط بارليف . وكان سقوط هذه القلاع فى أيدى القوات المصرية نهاية نظرية الأمن الاسرائيلى .

وفى أول يوم سقط فى أيدى القوات المصرية خمسة عشرة قلعة حصينة من بين خمسة وعشرين تشكل تحصينات الخط الأساسية . وكانت أول نقطة تسقط فى أيدى الجيش الثانى هى نقطة الكيلو ١٩ جنوب بورسعيد ، بعد ساعة ونصف من بدء الهجوم . وكانت أول نقطة تسقط فى يد الجيش الثالث هى نقطة الكيلو ١٤٦ عند رأس العش ، بعد ساعة ونصف أيضاً .

لقد استمعنا إلى الضباط والجنود الذين اقتحموا هذه القلاع بمنطقة الجيش الثالث . وبصفة خاصة قلعة عيون موسى ... إن من يرى تحصينات هذه القلاع واستحكاماتها ، لا يملك سوى أن يسأل نفسه : كيف أمكن اقتحامها واحتلالها ؟ إنها

تبدو منيعة عصية رهيبة جبارة بصورة يعجز الإنسان عن إبرازها .

ويقول اللواء أحمد بدوى أحد الأبطال الذين عاشوا هذه المعارك :

« لقد حددنا المهام التفصيلية لكل ضابط وجندى . وكان كل فرد يعرف مكانه وموقعه حتى فى زوارق العبور ... مثلما كان يعرف مهمته على الشاطىء الشرقى ومواقع العدو ، ويعمل فى تنسيق تام مع زملائه فى إطار الخطة العامة للمعركة . وبدأنا العبور مبكراً بعد قصف الطيران والمدفعية ، لأن العدو كان فى غفلة من أمرنا وأخذ على غرة . وأخذ الجنود يتسابقون فى تسلق الساتر الترابى . كانت هناك روح تفاؤل غامرة ... وكانوا وكأنهم ينفذون مشروع تدريب . وكان العدو ينظم دفاعاته الرئيسية على أساس النقط القوية — القلاع — فى أماكن احتمال عبورنا . وكانت كل نقطة تضم عدداً من الإسرائيليين يتراوح بين فصيلة وسرية . ومهمتها إعاقة أى تقدم لنا لحين وصول الاحتياطيات من المدرعات فى مدة تتراوح بين ١٥ دقيقة وساعة ونصف لكى تحتل الساتر الترابى » .

« ولكن العدو فشل فى تنفيذ خططه فى الوقت المناسب ، وذلك بسبب المفاجأة الاستراتيجية التى حققناها فى تنفيذ المهام التالية :

(ا) التعبئة .

(ب) التحرك وإخفاء القوات .

(ح) العبور والعمليات .

ومع ذلك لم تكن المهمة سهلة . لقد كان قتالا رهيباً وضارياً فى أغلب المواقع . وقد استمرت نقطة لسان بور توفيق تقاوم ، ولم تستسلم إلا يوم ١٢ أكتوبر . أى بعد العبور بست أيام » .

لقد رأينا وسمعنا كيف كان القتال المتلاحم يدور بعنف داخل النقط القوية

لتحصينات العدو . وعلى عمق عشرة أمتار تحت الأرض داخل قلاعه ، التى أحكم تأمينها ، وسد فتحاتها بأبواب مزدوجة من الصـــلب ، كيف اقتحم المشاة المصريون هذه القلاع المحصنة ضـــد المدرعات والطيران ؟ أى نوع من البشر هؤلاء الرجال ؟ إنه عمل خارق بكل معايير الجندية والبسالة والفدائية .

كان يـكفى القوات الإسرائيلية — إذا ما أخذت على غرة — أن تسرع إلى داخل قلاعها ، وتحتمى بها ، وتغلق منافذها . وحينئذ لم تـكن تجدى أى قوة فى ضرب هـــذه القلاع التى لم تؤثر فيها القنابل زنة ١٠٠٠ رطل ، ولا الصواريخ ، ولا شتى أنواع التدمير خلال حرب الاستنزاف .وكان يمكن للقوات الإسرائيلية متى نجحت فى الاحتماء بالداخل أن تطلب من قيادتها قصف هذه الحصون لتبيد قوات المشاة المصرية التى تحاصرها ، دون أن يؤثر الضرب بحال على الإسرائيليين المحتمين داخلها .

* * *

لقد كانت مهمة المشاة صعبة للغاية . وكان عليها أن تؤدى أكثر من مهمة :

١ — تصفية خط بارليف نهائيا، واحتلال قلاعه الحصينة .

٢ — صد الهجمات المضادة التى يقوم بها العدو بمدرعاته من المواجهة والاجناب

٣ — توسيع رءوس الشواطىء وتدعيمها والتصدى للعدو وابعاد نيرانه عن المعابر ، واتاحة الفرصة لعمل المهندسين فى اقامتها حتى تعبر المدرعات فى اسرع وقت .

وكان على موجات العبور الأولى من القوات المصرية أن تحقق هذه المهام الثلاثة . وكان أفراد هذه الموجات كلهم من المشاة ... وفى مواجهة تحصينات العدو وقلاعه المنيعة ومدرعاته ، كيف أمـكن للمشاة أن تعمل وأن تنجح ؟

* * *

المقاتل ... صنع النصر :

نقلت وكالة اليونايتدبرس من تل أبيب وصفاً لضابط إسرائيلى عن معارك سيناء قال فيه :

« إنها حرب مروعة ... حرب رهيبة ، لقد كانت حرب ١٩٦٧ مقارنة بما يدور الآن مجرد معركة . ولكنى لم أشاهد طوال حياتى شيئاً مثل الذى يدور الآن . لقد قضيت ١٥ سنة فى الجيش ، ولكنها أول مرة أرى فيها حرباً حقيقية » .

وكتب ولبورن هامتون ،بعد أن قضى يومى ٩، ١٠ أكتوبر فى جبهة سيناء ، يقول : « لقد شاهدت الدبابات الإسرائيلية تجرى فى كل اتجاه ، كانت تبحث مرتبكة عن مصادر النيران الكثيفة التى توجه من المشاة ، وكانت الدبابات تسمع طلقات من اليمين فتتجه إليها ، ثم تسمع طلقات ثانية من اليسار فتتحول فى نفس الاتجاه » .

حقيقة لقد تمكن المقاتل المصرى أن يثير الذعر والفوضى بين قوات العدو ، لدرجة جعلت هذا المراسل يصف أعراض هذه الفوضى بقوله : « إن الدبابات كانت تلعب فى الصحراء لعبة القط والفأر » .

وقالت وكالة الأنباء الفرنسية: «لقد اعترف قادة الدبابات الإسرائيليون الذين أصيبوا بجروح ونقلوا خارج المعركة أمام رئيس دولة إسرائيل عند زيارته لهم بالمستشفى أمس بضراوة القتال المصرى وعنفه فى المحور الأوسط . وقالوا أن انتشار الدبابات المصرية فى سيناء قد صنع جداراً سميكا من الصلب على حين ينتشر المشاة الميكانيكيون فى مواقعهم ويصيبون دباباتنا بصواريخهم التى يتم إطلاقها من الكتف ، كما أن كثافة النيران المصرية قد وضعت الطيران الإسرائيلى فى وضع صعب للغاية ، وفوق ذلك العناد الذى يقاتلون به » .

الجندى ... البطل





بإذن خاص من الأستاذ صلاح جاهين

وقالت وكالة اليونايتدبرس : إن الحشد المدرع الموجود فى الميدان المحدود المساحة يفوق الآن ١٤٥٠ دبابة ، وهو أكبر من الحشد المدرع الذى عرفه ميدان القتال عندما دارت معارك العلمين قبل ٣١ عاما .

وعلى هذه الجبهة ، جاء أول اعتراف ببسالة المقاتل المصرى من الجنرال شمويل جونين قائد جبهة سيناء الذى قال :

« إنهم يقاتلون بشراسة انتحارية فى أعنف رد على تحركاتنا ... ويشنون هجمات مضادة كثيفة جداً ويحاربون بعناد شديد ... ويأتون فى موجات إثر موجات ، ويفعلون كما فعل الصينيون فى كوريا ...

« Chinese Waves of Attack »

ويقول ونستون تشرشل الحفيد، أن الإسرائيليين فى جبهة سيناء قد قضوا أربعة أو خمسة أيام يائسة، قبل أن يبدأوا فى تغيير أساليبهم فى القتال فى مواجهة المقاتلين المشاة حملة صواريخ « ساجر » . ويضيف أنه على الرغم من أن الإسرائيليين كانوا يعرفون عن هذه الصواريخ ، ويعرفون أنها موجودة بكميات كبيرة مع المقاتلين العرب ، إلا أن الإسرائيليين قد فشلوا فى تغيير تكتيكهم ، أو أن يأخذوا فى حساباتهم أثر الثات من هذه الصواريخ على قواتهم المدرعة .

وكتبت جريدة دير شبيجل الألمانية تقول :

« إن اجتياح المصريين خط بارليف ، جعل أمة بكاملها تنفض عن نفسها آثار المهانة التى تحملت آلامها منذ ١٩٦٧[1] » .

كتب ويلتون وين مراسل مجلة تايم الأمريكية بالشرق الأوسط وأستاذ العلوم السياسية ، يقول :

« خلال ٧٢ ساعة تمكنت القوات المصرية من أن تنقل ٧٠ ألف مقاتل ، وحوالى ٧٠٠ دبابة إلى الضفة الشرقية للقناة . وهذا فى حد ذاته يعد نصراً عسكريا بأى مقياس » .

---

(١) دير شبيجل ، فى ١٩٧٣/١٠/٢٢

ضراوة المعارك :

وصف ميشيل بنيون الحرب فى جبهة سيناء قائلا :

« معركة سيناء مرة ودامية ، الدبابات المحترقة واللوريات المهشمة متناثرة على رمال سيناء . والحفر السوداء الضخمة العميقة المتسعة ، ذات البؤر المليئة بالرماد المحترق تعكس مواقع قصف المدفعية الثقيلة . وأجزاء الحديد الملتوى والمقوس ، وطلقات الصواريخ والدبابات وفوارغ الذخيرة ، كلها تعبر عن أقسى ظروف التدمير ، تلمع وتتلألأ تحت أشعة الشمس على رمال سيناء [1].

« والجيش الثانى قد حفر مواقعه فى كل مكان . والجنود منهمكون فى ترتيب مرابضهم تحت الأرض . ومحطات اللاسلكى المتنقلة تربض فى أعماق خنادقها تحت شباك التمويه الملونة بلون الصحراء . ومن مكان لآخر ترى الدبابات الكامنة فى مرابضها كالسلحفاة الهائلة تتحرك مدافعها بين الحين والحين . والأسلاك الشائكة تملأ المكان ، وعلامات الطريق المضيئة توضح المسارات والمدقات المختلفة عبر الصحراء . واللوريات المليئة بالرجال والإمداد تتحرك بين موقع وآخر».

«وحينما يتقدم الإنسان من المواقع المصرية يرىأعداد من الدبابات الإسرائيلية طراز سنتوريون محترقة أو مدمرة تماماً . ويرى أشلاء الجنود الإسرائيليين هنا وهناك ... على أرض الصحراء وفوق حطام الدبابات » .

«إنه جو رهيب يخيم على الصحراء فى أرض المعركة ... ورائحة الجثث تزكم الأنوف . وانصهار الحديد ، واحتراق الصخر والرمال ، وصراع النار والدمار .. كل هذا يحيق فى سكون بكل ماعلى الأرض ، وإلى مسافة للشرق داخل سيناء » .

---

(1) Michel Binyon: The Times, 31/10/1973, p. 12.

هذا هو وصف مراسل التايمز لما انتهت إليه المعارك الضارية .

وكانت بدايتها أول هجمة مضادة للعدو بعد ٣٠ دقيقة من بدء الهجوم المصرى. وبعد ساعتين بدأت الهجمة المضادة الثانية. وبعد ٤ ساعات بدأت هجمات رئيسية ضد رؤوس الشواطىء التى أقامها المشاة المصريون . وكان كل هذا يحدث وليس لمصر دبابة واحدة فى سيناء .

وعبر البحيرات عبرت قواتنا إلى الشرق . ودخلت الصاعقة والقوات الخاصة سيناء على امتداد ٤٠٠ كم من جنوب سيناء إلى شمالها . وكانت هذه القوات قد وصلت إلى مواقعها فى وقت مبكر ، وبدأت فى تنفيذ مهامها ، وأحدثت إزعاجاً شديداً للعدو ، وأوقعت به خسائر كبيرة ، وشلت تفكيره ، وشتت جهوده وأربكته . وجعلته غير قادر على تحديد اتجاه الهجوم الرئيسى خلال الساعات الأولى للحرب .

وكانت المعارك ضارية . حقيقة أن بعض قوات العدو هربت أو استسلمت ، ولكن ليس معنى هذا أن القوات المصرية قد كسبت نصراً سهلا . وعلى سبيل المثال تعرض القطاع الأوسط شمال وجنوب الإسماعيلية لستة عشرة هجمة مضادة رئيسية . ويصف ميشيل بنيون مراسل التايمز المعارك التى دارت فى هذه المنطقة بقوله :

«كانت الفردان من أول المواقع التى استردتها القوات المصرية . وعندها حقق المصريون أعظم انتصاراتهم ، واستعادوا أراضيهم منذ اليوم الأول . وتعلو وجوههم أمارات الزهو والانتصار على خط بارليف الذى انهار أمامهم .. ويصيح الجنود فى زهو .. لقد ذهب خط بارليف .. ذهب إلى غير رجعة ، ومعه أسطورة الجيش الذى لا يقهر ... ويقول قائدهم . . . لقــــد قمنا بهجوم استراتيجى مفاجىء ، ولم يكن الإسرائيليون يفكرون فى الدفاع ، وإنما فى الباغتة والاعتداء ... لقد أحرزوا نصراً سهلا عام ١٩٦٧ ، بسبب أخطائنا . وقد

واحدة من القلاع المنيعة . . .



تداعى خط بارليف بفعل إعصار مصرى ...
ودمرت نظرية الأمن .. !

أعماهم الغرور فاستهانوا بنا ، وارتـكبوا عدداً من الأخطاء » (١) .

ومثال آخر .. فى موقع القنطرة شرق ، نفس الموقع الذى كان أنور السادات يريد أن يحرره بنفسه قبل أن يصبح رئيساً للجمهورية . كانت تحصينات العدو فى هذا الموقع غاية فى القوة والمناعة . وكان المصريون مصرون على الإستيلاء عليه ، ونجحوا فى ذلك . ثم قام العدو بهجوم مضاد عنيف ومركز ، دفع فيه بعدد كبير من المدرعات . ونجح العدو فى استرداد الموقع الحصين شمال البلاح . ووصل فعلا بدباباته إلى شاطىء القناة . وبدأ يدمر المعبر والمعديات ، وتمـكن من إحداث خسائر كبيرة بها بنسبة ٤٥ ٪ .

وكانت قد سقطت فى أيدى القوات المصرية النقط ١ ، ٢ ، ٤ عند القنطرة . وتقدمت إحدى دبابات العدو، حتى أصبحت على مسافة ١٥٠ متراً من قائد الفرقة . وكان ضرب المدفعية المصرية من القرب من فوق المصـاطب قد قلت فاعليته لأن الليل كان بدأ ، وأخذ الظلام يخيم على ساحة القتال . وتقدم جندى مصرى بـكل جرأة وفدائية واستبسال ، وألقى قنبلة على دبابة العدو وفجرها . واستمر القتـال التلاحم بين قواتنا بأسلحتها الخفيفة ومدرعات العدو . وأمـكن تدمير ٢٦ دبابة للعدو عند هذا الموقع ، وقتل عدد كبير من أفراده . وامتد القتال إلى داخل مدينة القنطرة . وقبل أن يطلع الصباح كانت القوات المصرية قد استردت القنطرة شرق .

ودارت معارك مماثلة ورهيبة عند معظم المواقع .عند عيون موسى والمسحورة وكبريت .. إلخ . وهذا الموقع الأخير جـــدير بـكل فخر . لقد اقتحم المشاة المصريون الموقع لأنه كان محصناً ضد المدفعية والطائرات واحتلوه فى ساعات . ثم حاول العدو بعد ذلك على مدى ١٣٤ يوما أن يسترده ، ولـكن دون جدوى . ولقد استمر الضرب بقنابل ١٠٠٠ ، ٢٠٠٠ رطل وبالطائرات والمدفعية ، وتعرض

(1) Micher Binyon: The Times. 31/10/1973, p. 11.

لهجومين متتاليين بالدبابات والمدرعات. وحوصر حصاراً مستمراً ومع ذلك استمرت قوة الموقع تدافع عنه ببسالة وبطولة وتصميم ، تحت أقصى الظروف ، فقد كانت طلعات الطيران تستمر فوق الموقع طول اليوم ، ولم تكن ظروف الإعاشة فى الموقع سهلة . لم يكن بالموقع مياه ولا طعام ، وكان الجنود المصريون يقطرون ماء القناة المالح ، وينتظرون رحلات الإمداد التى قد تصلهم من آن لآخر ، والتى كان يطلق عليها رحلات الموت .

وفى مثال آخر ، تحمل المشاة مهمة صد هجمتين مضادتين لمدرعات العدو ، الأولى من ١٢ دبابة ، والثانية من ٢٤ دبابة . وتصدت المشاة للدبابات . ولكنها فوجئت بهجمة ثالثة متتالية ، واتصل قائد اللواء المشاة فطلب نجدة من المدرعات المصرية . ولم يكن لديه أمل كبير فى أن تكون المدرعات قد عبرت فعلا ، لأن الطلب جاء مبكراً على الجدول الزمنى المقرر لاتمام المعابر . وفوجىء قائد اللواء بأن المدرعات فى طريقها إلى نجدته ، وكانت أول دبابة مصرية قد وصلت إلى الشاطىء الشرقى بعد خمس ساعات وخمسين دقيقة من بدء القتال . ودخلت الدبابات المصرية المعركة وواجهت العدو ، وكبدته خسائر فادحة وأنسحب أمامها.

لقد صادف الجيش الثالث عدداً من المتاعب ، بسبب اختلاف طبيعة السد الترابى فى مواجهته ، وبسبب التفاوت الكبير بين مناسيب المد والجذر فى منطقته، وبسبب زيادة سرعة التيار فى جنوب القناة عنها فى القطاع الشمالى . ومع ذلك فإن هذا الجيش يعتبر رمزاً للبطولة والجندية الفذة . فقد تحملت مشاته وحدها مهمة خوض معارك شرسة بدون مدرعات لمدة ١٨ ساعة . وكان العدو قد أخذ يركز عليه هجماته لأن رءوس شواطئه كانت أقل حجما وقوة بسبب تأخرعبور المدرعات.

وكانت تصادف القوات المصرية متاعب متعددة . فقد كان عليها أن تعبر ، وتتسلق المانع الترابى ، وتحتل مواقع ، وتقيم رءوس معابر ، وتقتحم قلاعاً وحصوناً منيعة ، وتتصدى لقوات العدو ، وتوقف تقدمه ، وتتعامل مع هجماته المضادة .. كل هذا تحت قصف جوى وصواريخ ونيران مدفعية تنهال من كل اتجاه.

الجيش الثالث

قصة بسالة ... وقصة صمود ...



اللواء أحمد بدوى قائد الجيش الثالث وضباطه
يشاهدون أرض المعركة من فوق حطام دبابة إسرائيلية

قتال الدبابات ...

وثغرة شارون ...

يقول الجنرال أريل شارون أنه طلب إلى القيادة الإسرائيليـة فى يوم ١١ أكتوبر ١٩٧٣ ، أن تسمح له بهجوم بالمدرعات على القوات المصرية بمنطقة الفصل بين الجيشين الثانى والثالث . وكانت مبرراته الهجوم من وجهة نظره الآتى :

١ — أن المشاة المصريين كانوا وقتئذ وحدهم فى شرق القناة .

٢ — أن المدرعات المصرية كانت وقتئذ مازالت فى الغرب عند هذه المنطقة وأنه كان يفضل أن يواجه المدرعات بمدرعات ، عن أن يواجهها ومعهـا المشاة الميكانيكيون ، ويقول شارون إن القيادة الإسرائيلية لم تصدق على طلبه هذا حتى يوم ١٤ أكتوبر .

وفى خلال هذه الفترة كان العتادة والإمدادات الأمريكية قد أخذت تتدفق بكميات ضخمة ، وبدعم جديد من أسلحة لم تستعمل من قبل ، أهمها الدبابات والصواريخ الحديثة المضادة للدبابات ، وصواريخ شرايك ، والقنابل التليفيزيونية ، ووسائل الشوشرة والإعاقة الإلكترونية .

وأخذ العدو يحشد قواته المزودة بهذه الأسلحة والمعدات الحديثة فى مواجهة رءوس الكبارى المصرية . واعتباراً من ١٥ أكتوبر ركز جهوده وضرباته الجوية ضد الجانب الأيمن للجيش الثانى الميدانى (اللواء الأيمن للفرقة ١٦ المشاة) . ودفع العدو فى معركة الدبابات التى نشبت خلال هذه المرحلة حوالى ١٢٠٠ دبابة ، هاجم معظمها القطاع الأيمن للجيش الثانى .

وخلال المعارك التى دارت تحطم للعدو جزء كبير من هذه الدبابات . وقتل عدد كبير من أفراده . إلا أن العدو تمكن خلال هذه المرحلة من ستر عبور بعض

إنها حرب ثقيلة بدمائها ... ثقيلة بأيامها

(موشى ديان)



جندى إسرائيلي يواسى زميله المصاب
ودبابتهما محطمة

واحد من ضحايا أطماع المؤسسة العسكرية الاسرائيلية



الجنود الإسرائيليون يخرجون أحد أفراد طاقم دبابة
أصابتها الصواريخ المصرية

ومن المؤكد أن الولايات المتحدة كان لها الفضل الأكبر فى نجاح مغامرة الجنرال شارون . فقد نشطت طائرات الشحن الأمريكية الضخمة من طراز جلاكسى تعمل مع دوران عقارب الساعة ، على امتداد جسر جوى بين القواعد الأمريكية والعريش .تنقل لأرض المعركة مباشرة تعزيزات من الأسلحة الحديثة والمدرعات والعتاد والذخيرة التى لم تستعملها أمريكا ، لإنقاذ موقف اسرائيل المتدهور .

وكانت الولايات المتحدة مدفوعة إلى ذلك بعاملين أساسيين :

الأول : تعهدها بحماية إسرائيل ، ورفضها هزيمة إسرائيل هزيمة كاملة أمام العرب ، وهى حليفتها وضامنة أمنها .

الثانى : عدم السماح بهزيمة السلاح الأمريكى ، وانتصار السلاح السوفيتى عليه . لما يمكن أن يترتب على ذلك من ردود فعل بعيدة المدى فى مجالى الحرب الباردة والساخنة بين المعسكرين . ومحاولة تحقيق التعادل فى السلاح .

ويقول المشير أحمد اسماعيل :

« إن الاسرائليين قد تكبدوا خسائر فادحة فى محاولة العبور إلى الغرب . وقد دمرنا معبرهم أكثر من مرة . وفى كل محاولة كان عدد ضحاياهم يتزايد وخسائرهم تتضاعف . وكسب أى معركة على حساب الضحايا التى أعلنت عنها إسرائيل — ٤٠٠ قتيل ، ١٢٠٠ جريح — والتى تقل كثيرا عن الواقع لايعد نصرا . لقد كانت مغامرة شارون سياسية ولأهداف انتخابية . ومن جانبنا كانت هناك بعض الأخطاء [١] .

فى ظل هذه الظروف والاعتبارات عبرت القوات الاسرائيلية إلى غرب القناة .

---

(١) المشير أحمد إسماعيل : حديث خاص مع المؤلفين .

قواته عبر الطريق الشمالى للبحيرات المرة عند الدفرسوار فى ليلة ١٥/١٦ أكتوبر ، وكان هدف العدو تحقيق أى كسب عسكرى ينتشل به الروح المعنوية المنهارة لقواته ولشعب إسرائيل . وكانت هذه المحاولة الإنتحارية من جانبه ذات أبعاد سياسية أكثر منها عسكرية . وقد أطلق عليها أحد كبار النقاد العسكريين « إنها محاولة تليفزيونية » فقد خسر الاسرائيليون على أيدى ضربات اللواء الأيمن للفرقة ١٦ كتيبتى دبابات خلال ليلة ١٥/١٦ أكتوبر[1] .

ومن الضفة الغربية للقناة قامت الطائرات الإسرائيلية المتسللة صباح ١٦ أكتوبر بالتسلل صوب قواعد الصواريخ المضادة للطائرات ، وقصفت بعضها . واستغلت قوات العدو الجوية هذا الوضع فى مهاجمة مؤخرة القوات المصرية . ثم دفع العدو بقوات مدرعة متزايدة بلغ حجمها أكثر من أربعة ألوية لكى تعمل على توسيع الثغرة ودعم القوات التى تسربت للغرب . وقد فشل العدو عدة مرات فى محاولاته.

وتوالت إشارات القادة الإسرائيليين بتأجيل الهجوم لفداحة الخسائر التى وقعت بهم . فقد أدى التعاون بين الجيش الثانى والثالث إلى تكبيد العدو خسائر كبيرة فى الأفراد والمعدات حينما بدأ فى إقامة معبر له واستخدامه فى عبور قواته إلى الغرب .

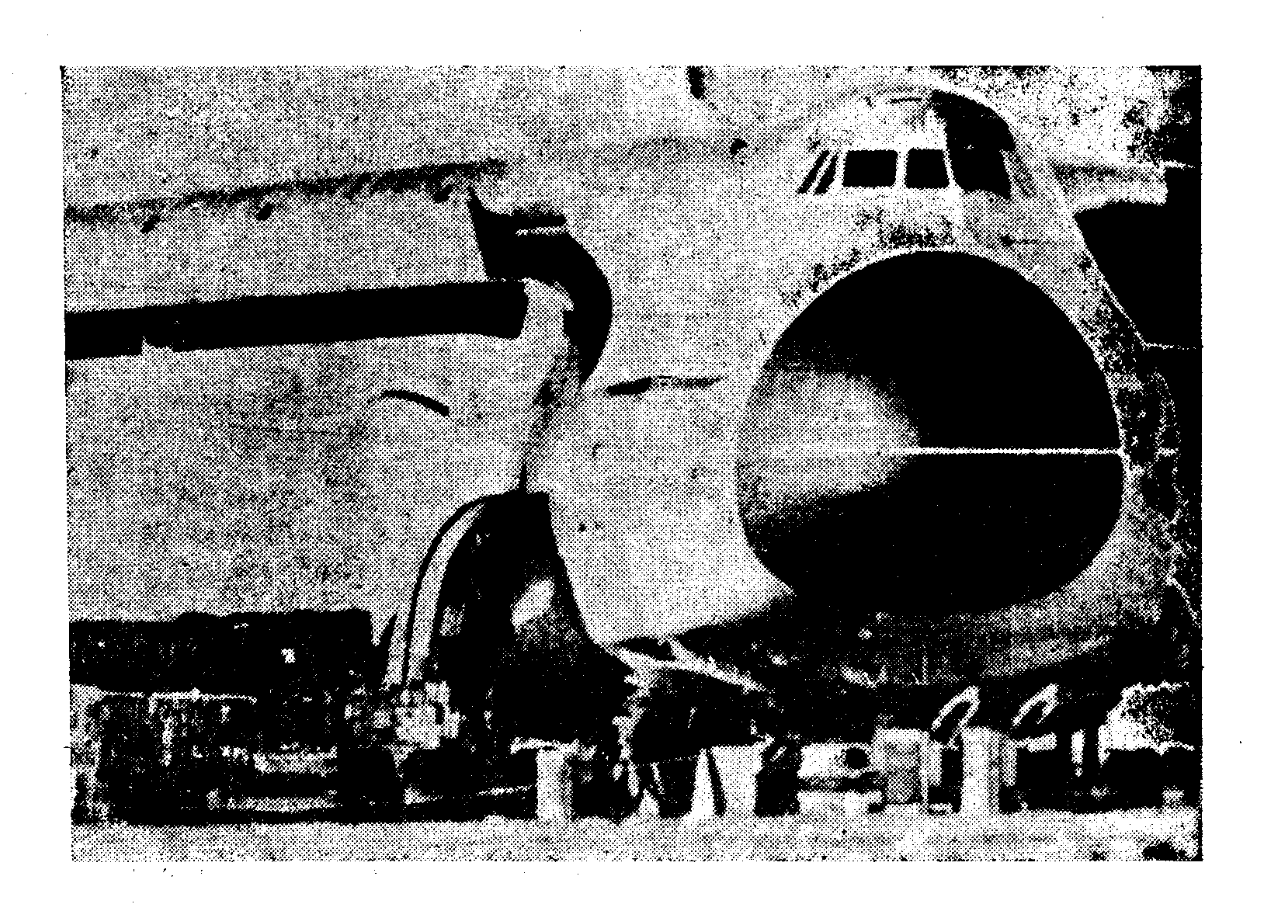
وانتهز العدو قرار وقف اطلاق النار فى ٢٢ / ١٠ / ١٩٧٣ ، ودفع بقوات جديدة تسللت غربا . وفى المحاولات كلها دفع ثمناً غالياً لمغامرته ، إذ تحولت منطقة الدفرسوار شرق وغرب القناة إلى ساحة قتال رهيب .

لقد حاولت القوات الإسرائيلية أكثر من مرة احتلال مدينة السويس . وفى كل مرة كانت المحاولة تتحطم أمام المقاومة الشعبية التى تصدت للدبابات الإسرائيلية ودمرتها . وبقيت الدبابات المدمرة وحطامها فى شوارع المدينة شاهد عيان على بطولة الشعب المصرى وكفاح السويس المجيد. ولم يتمكن الإسرائيليون من دخول المدينة ، وبقوا خارجها إلى أن تم انسحابهم نهائيا من غرب القناة .

---

(١) حرب رمضان ، مرجع سابق ، ص ١٥٦ — ١٦١

عملية نقل دعم لجيش إسرائيل ... تقوم بها طائرات الشحن الأمريكية الضخمة



الاهرام - ١٤/١٠/٧٣ - ٥



– ح نحرر ارضنا يعنى ح نحررها .. واعلى مافى خيلك اركبه

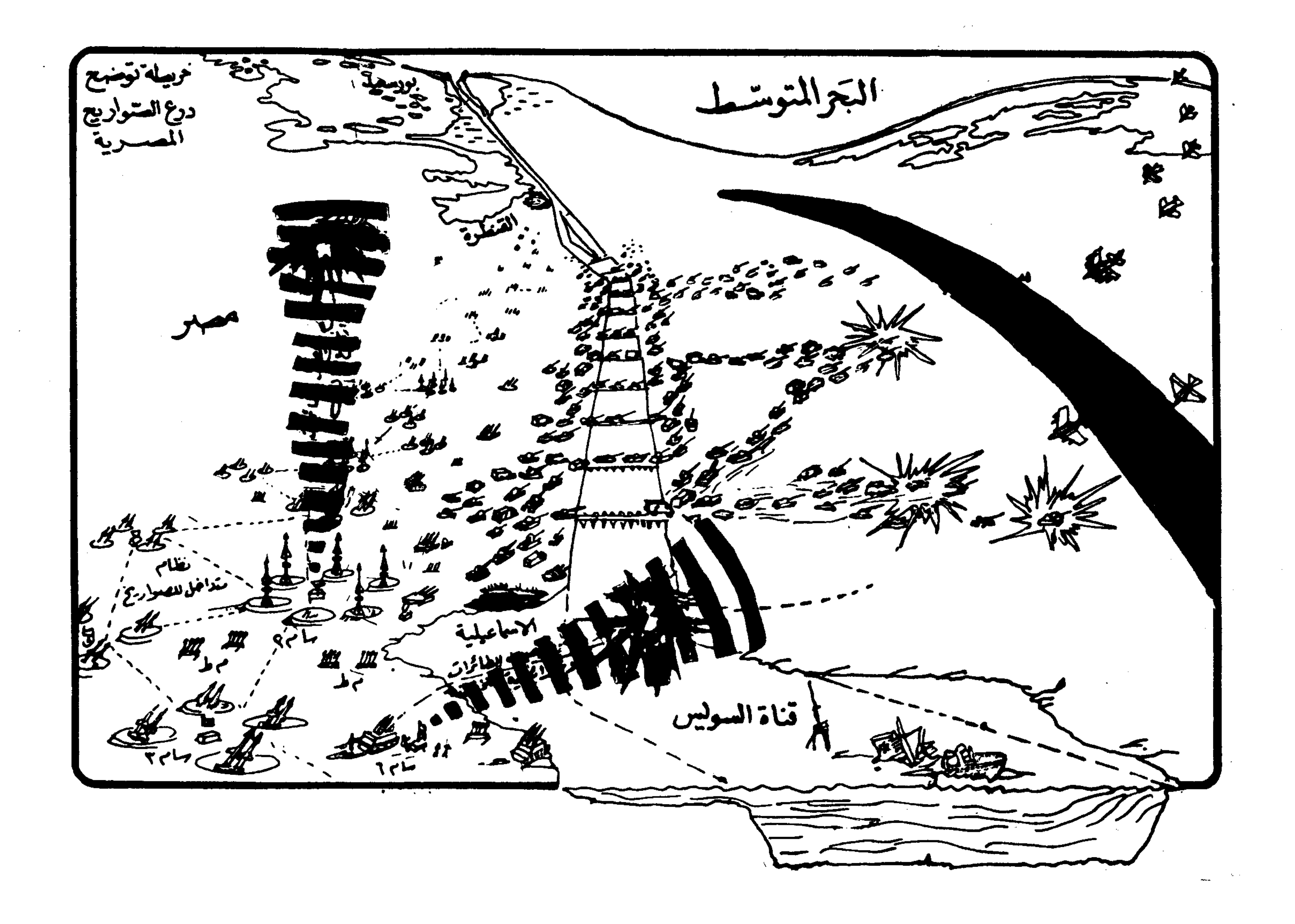
وكسبت أرضا بالغش والخداع بعد قرار وقف اطلاق النار . وتحطمت كل محاولاتها للاستيلاء على السويس أمام صمود المدينة الباسلة . وأعطى قرار وقف إطلاق النار القوات المصرية فرصة طيبة لكى تحكم الحصار وتضيق الخناق حول القوات الإسرائيلية فى الغرب . ولم تمض أسابيع حتى أصبحت هذه القوات شبه رهينة فى متناول أيدى المصريين .

إن قرار وقف إطلاق النار قد تم بموجب ضمان مشترك من كل من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة على أساس البدء فى التنفيذ الفورى لقرار الأمم المتحدة ٢٤٢ . وقد نص فى ديباجة هذا القرار على عدم جواز احتلال أراضى الغير .

لقد كان موضع القوات الإسرائيلية فى الدفرسوار عند اتخاذ قرار وقف إطلاق النار سيئا للغاية . بل إنها كانت فى شبه مصيدة . ولذلك فإن الرئيس السادات حينما طلب فى محادثاته مع الدكتور كيسنجر بأسوان أن يعود الإسرائيليون إلى مواقع ٢٢ أكتوبر ، فضل الإسرائيليون الانسحاب نهائيا إلى الشرق عند الممرات .

إن الرئيس السادات بعد شهرين من القرار الخاص بوقف إطلاق النار ، وبعد أن تمت السيطرة نهائيا على القوات الإسرائيلية غرب القناة وحصارها ، كان قد وقع قراراً يوم ٢٤ ديسمبر ١٩٧٣ بتصفية هذه القوات . وكانت القوات المسلحة المصرية قد أعدت نفسها تماما لتنفيذ هذا القرار ، بنفس الروح والجدارة والجسارة التى نفذت بها عمليات ٦ أكتوبر ... وبقى هذا القرار فى انتظار أمر البدء بالتنفيذ . وكان الاسرائيليون أسرع إلى المبادأة بذلك . فقد أحسوا بالخطر المحدق بهم ، وانسحبوا تماما من الضفة الغربية ، وتم جلاؤهم حتى منطقة الممرات يوم ٥ مارس ١٩٧٤ .

* * *


خريطة توضح
درع الصواريخ
المصرية
بورسعيد
البحر المتوسط
القنطرة
مصر
نظام
متداخل للصواريخ
الاسماعيلية
قناة السويس
سام ٣
سام ٦
سام ٩

معارك الجو :

وكما تغيرت الصورة فى البر ، فقد امتد التغيير أيضـــاً إلى الجو . ويقول أحد الضباط :

« لقد كان موقف الطيران الإسرائيلى مختلفاً تماما هذه المرة . كان يقترب من الأهداف، ثم يفر مذعوراً أمام دفاعنا الجوى ، ويلقى بحمولته فوق أى مكان. لقد كنا بمجرد رؤية الطائرات الإسرائيلية فوقنا نشفق على طياريها ، فقد كنا ندرك تماما نهايتهم على أيدى دفاعنا الجوى . »

وفى موقف كان العرب فيه هم أصحاب المبادأة ، وجـــد السلاح الجوى الإسرائيلى نفسه عاجزاً عن أن يقوم بالدور الذى كان يراود خيـــاله فى ضرب المطارات المصرية ، والقواعد الجوية ، ومراكز الدفاع الجوى والصواريخ فى كل من مصر وسوريا . واقتصر دوره على معـاونة القوات البرية — كما أشرنا — فى سيناء والجولان ، وتوفير أكبر قدر من الحماية لها ، ومحاولة عرقلة وتدمير المعابر المصرية على القناه .وفى يومى ٦ ، ٧ أكتوبر قام السلاح الجـوى الإسرائيلى بأكثر من ٧٧٠ طلعة على قوات الجيش الثانى ومعابره .

وتقول الأوبزرفر ، لقد كان من نتائج ذلك أنه خلال الأيام القليلة الأولى ، وقعت خسائر فادحة فى الأرواح والعتاد بالإسرائيليين فى البر والجو . فقد فوجىء الطيارون الإسرائيليون بأن وجدوا أنفسهم فى مواجهة صواريخ سـام ٦ ، وهى صورايخ سوفيتية مضادة للطائرات ، ولا توجد على أرض خارج الاتحاد السوفيتى سوى فى ألمانيا الشرقية ، وحتى فيتنام الشمالية على قربها وصلاتها الأكثر متانة بالاتحاد السوفيتى لم تـكن قد حصلت على هذا السلاح . وكان الروس قد أعطوا صواريخ سام ٦ للمصريين والسوريين منذ عام سابق على الحرب . . وكان الإسرائيليون يعلمون ذلك ، إلا أنهم لم يكونوا على علم بخواص هذه الصواريخ ، وفشلوا هم والولايات المتحدة فى استنباط أى وسائل دفاعية مضادة .

ولما أفلست إسرئيل ونشات فى مهاجمة الأهداف العسكرية ، صبت كل غضبها على مدينه بور سعيد . فى غارات متواصله تقصف الأهداف المدنية فى وحشية وزعونه تدل على فقد الاتزان . وهو مالم تفعله فى عام ١٩٦٧ حينما كانت متفوقه .

لقد كانت الأركان العامة الإسرائيلية مصرة على منع عملية العبور بأى ثمن • لذلك استمرت الطائرات تغير طوال ليل يوم العبور ، وأضاءت أرض المعركة بالمشاعل ، وانجزت مزيدا من القصف الجوى الذى اشترك فيه ٢٦٢ طـائرة ، ولـكن دون جدوى •

إن إنهاء التفوق الجوى الإسرائيلى الذى كان العالم يأخذه كقضية مسلمة ، وبتر ذراع إسرائيل الطويلة داخل المجال الجوى للدول العربية ، كان أحد مفاجآت حرب أكتوبر ، بل هو أعظم مفاجآتها • وقد أثبت المصريون كفاءة عالية فى استخدام كل من الطيران والدفاع الجوى ، وفى التنسيق بينهما •ولقد كان الدفاع الجوى المصرى من أكثر العوامل التى أثرت فى نتائج الحرب ، وأفقدت السلاح الجوى الإسرائيلى فاعليته وتوازنه • فقد كانت لمصر شبكة دفاع جوى مذهلة تحمى الجيوش الميدانية ، أحدثت خسائر غير متصورة بقوات العدو الجوية ، وقضت على ¼ هذه القوات ، واسقطت منها فى يوم واحد بمنطقة المنصورة ١٧ طائرة •

معارك البحر :

كانت المفاجأة الاستراتيجية البارعة التى حققتها القوات البحرية المصرية ، هى تضييق الخناق العسكرى والاقتصادى حول إسرائيل من طريق إغلاق مضيق باب المندب جنوب البحر الأحمر .

وكانت القوات البحرية المصرية منذ أوائل شهر أكتوبر ١٩٧٣ قد بدأت تنتشر وتحتل مواقعها المحددة لها فى خطة العمليات ، تحت ستار تنفيذ المناورة السنوية للقوات البحرية . وكان قائد كل وحدة من وحدات الغواصات يحمل مظروفا مغلقا يحدد مهمته ، ولا يفتح إلا عند صدور الأمر بذلك .

وعندما بدأت الحرب أدت القوات البحرية دورها كاملا فيها ، واشتركت فى عدد من المعارك ، التى أضافت صفحات جديدة إلى تلك التى سجلت إغراق المدمرة إيلات على يد قواتنا البحرية ، وأسهمت كل وحدات القوات البحرية من مدمرات وغواصات، ومدفعية ساحلية، ولنشات الصواريخ والطوربيد، ووحدات الصاعقة البحرية والضفادع البشرية ، فى أداء دورها كاملا خلال المعارك .

وقد بدأت القوات البحرية عملها بقصف مواقع العدو الحصينة شرق بورفؤاد ، وعند الكيلو ١٠ جنوب بور فؤاد . وضرب تجمعات العدو فى رمانة ، ورأس برون على البحر المتوسط ، وشرم الشيخ بالبحر الأحمر .

واشتركت القوات البحرية فى عدد من المعارك البحرية ، أهمها تلك التى دارت فى ليلة ٨ ، ٩ أكتوبر بين دمياط والبرلس ، حيث استطاعت لنشات الصواريخ المصرية أن تهاجم تشكيلا بحريا إسرائيليا مكونا من تسع وحدات ، أغرقت البحرية المصرية أربعا منها . وفى يوم ١٥، ١٦ أكتوبر اقتربت ٤ لنشات بحرية للعدو من أبى قير ، وكانت لنشات الصواريخ المصرية قد أعدت كمينا لها بعد أن رصدتها ، وأمكن إغراق ثلاثة منها .

لقد كانت عمليات قواتنا البحرية لقطع خطوط مواصلات العدو البحرية مؤثرة للغاية . فمن بين ٢٠٠ سفينة كانت تدخل موانى إسرائيل من البحر المتوسط شهريا انخفض العدد فيما بين ٦ إلى ٣٠ أكتوبر ليصبح ٢٣ سفينة فقط . أما فى البحر الأحمر ، فكان التوقف تاما ، ولم تدخل ميناء إيلات أو تخرج منه سفينة واحدة طيلة الحرب . مما كان له أبعد الأثر على حياة إسرائيل ومصالحها [١] .

---

(١) لواء حسن البدرى ، لواء طه المجدوب ، عميد ا ح . ضياء الدين زهدى ، مرجع سابق ، ص ٢٣١ وما بعدها .

التقييم النهائى

لم يكونوا عمالقة ....

ولم نكن اقزاما ....

فى اليوم الرابع للحرب ، يوم ٩ أكتوبر ، أدلى موشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى بتصريح للصحفيين، ظل منذ ذلك التاريخ فى إطار« سرى ومحظور» . وفى ١٥ فبراير ١٩٧٤ ، أذيع فى تل أبيب نص هذا التصريح . وقد اعترف ديان فى هذا المؤتمر بأن هيئة أركان الحرب الإسرائيلية ، قد أخطأت فى فرض أساسى ، إذ اعتقدت أن المدرعات قادرة على منع المصريين من إقامة الجسور على قناة السويس ، غير أن الأسلحة المضادة للدبابات التى استخدمها المصريون قد أنزلت خسائر فادحة فى المدرعات الإسرائيلية .

وقد قال ديان فى حديثه :

« لقد وضح للعالم أننا لسنا أقدر من المصريين . ولم تثبت لناهالة التفوق ولا المبادىء العسكرية والسياسية القائلة بأن إسرائيل أشد قوة من العرب ، ولا أنهم سوف يهزمون إذا ما تجرأوا على البدء بالحرب » [١] .

ويوما بعد يوم أخذت الأسطورة تتحطم . لقد بدأ نسجها فى عام ١٩٤٨ ، ثم اكتملت خيوطها عام ١٩٦٧ . وفى عام ١٩٧٣ دمرت تماما . ودمر معها عدد من الأكاذيب .

١ — ففى المقام الأول كانت هناك أكذوبة أن شعباً من البدو والفلاحين الذين يجيدون فلاحة الأرض لا يحسنون الحرب . ونسى الناس أن العرب كانت

---

(١) وكالات الأنباء ، فى ١٩٧٤/٢/١٥ ، الأهرام فى ١٩٧٤/٢/١٦ ، ص ١

لهم أكبر إمبراطورية فى القرن الثامن الميلادى ، ووصلت فتوحاتهم وقتئذ إلى جنوب فرنسا .

٢ — وكانت هناك أكذوبة الجندى الإسرائيلى « السوبرمان » ، ورجل المخابرات الذى يستطيع أن يعرف خطط العرب قبل أن يجف مدادها ، والطيار الذى لم يخسر فى مطاردة واحدة ، وجندى المشاة الذى يستطيع أن يقتحم مدينة متى صدرت إليه الأوامر .

ولكن العالم كله ، والعرب من قبله ، اكتشفوا أخيراً أن الإسرائيليين ليسوا صناع معجزات ، ولا سادة التفوق . أو كما تقول مجلة نيوزويك :

« بصرف النظر عن أى نتائج نهائية ، فإن أسطورة إسرائيل التى لا تهزم قد تحطمت » .

٣ — وكان هناك أيضا أكذوبة أن إسرائيل قد فوجئت بالهجوم ، ولكن الحقيقة إن إسرائيل قد وقعت ضحية تصورها الخاطىء . فالمفاجأة لم تكن فى واقع الهجوم ، ولكنها كانت فى نوعية المقاتل العربى .

ولعل أعظم الدروس المستفادة ، هى أن الثقة الزائدة بالنفس يمكن أن تكون أخطر عدو شخصى لأى جيش . وأن أحسن نظام للمخابرات لا يمكن أن يقف حائلا دون هجوم مفاجىء ، وذلك لأنه بينما يمكن دائما قياس إمكانات العدو ، فإنه يتعذر غالبا الوقوف على نواياه .

ويقول الفريق محمد عبد الغنى الجمسى :

« إننا لن نسمح لأنفسنا بأن نصاب بسيكولوجية غرور النصر ، لأن هذا الدرس تعلمناه منذ ١٩٦٧ عن الجانب الإسرائيلى . كما أن أرضنا لم يتم تحريرها بالكامل ، وأصبح لزاما علينا أن نستكمل هذه المهمة . لقد أتممنا هذه المرحلة بنجاح ، وحققنا فيها نصراً كبيراً ، كان بطلاه صانع القرار والمقاتل المصرى » .

رأى العالم :

فى سان فرانسسكو ، صرح هوارد كولاراى وزير الجيش الأمريكى ، بأن عبور القوات المصرية لقناة السويس فى مواجه التفوق الاسرائيلى فى القوة الجوية ، هو علامة بارزة فى الحرب الحديثة سوف تغير الاستراتيجية العسكرية. وأضاف الوزير:

« إن الحرب فى الشرق الأوسط قد بدلت الـكثير من الأفكار العسكرية فلأول مرة فى التاريخ الحديث تتمكن قوة عسكرية من إنجاز عملية عبور ضخمة لقناة السويس ، وفى مواجهة عدو مزود بسلاح طيران حديث بدون أن تفقد القوات التى عبرت أى طائرة من طائراتها »(١).

وفى بون ، أعلن الجنرال أرمين تزيرمان ، رئيس أركان حرب قوات ألمانيا الغربية ، أن قادة القوات الألمانية نرروا تحليل الدروس المستفادة من حرب الشرق الأوسط ، فى مؤتمر عسكرى اشترك فيه ٣٥٠ من كبار ضباط قوات ألمانيا الغربية . وقال إن الجانب الآخر الهام فى هذه الحرب هو نظريات الدفاع الجوى، بعد أن تـكبدت إسرائيل خسائر فادحة فى الطيران خلال الأيام الأولى للحرب(٢) .

لقد هزت حرب أكتوبر عدداً من النظريات والمسلمات فى الاستراتيجية العسكرية . ويقول إيان سمارت مدير المعهد الملـكى البريطانى للشئون الدولية :

« إن الأسلحة السوفيتية التى استخدمتها الأيدى العربية قد ألقت بين طيات التاريخ مرحلة كانت فيها الدبابة والطائرة تتحكمان فى سير المعارك . ذلك أن استخدام صواريخ مرنة الحركة ومؤثرة وبسيطة التشغيل يعبر عن تغيير جذرى ، كذلك الذى أحدثه القوس والسهم الذى حمله الجندى البريطانى الراجل فى القرن الرابع ، وتغلب به على الفارس الراكب » .

«وهذه الحقيقة قد قلبت موازين حلف الأطلنطى. فقد كانت قيادة الحلف تحسب موازين القوى بينها وبين دول حلف وارسو على أساس قوة الطائرات والدبابات . ولم يـكن الحلف يعطى اهتماما كبيراً للصواريخ الروسية ، وأكثر من هذا كان

---

(١) مجلة تايم ، فى ١٢ نوفمبر ١٩٧٣ ، ص ٦٣

(٢) صحيفة الأهرام . وكالات الأنباء ، فى ١٨/١٠/١٩٧٣



The military and political aspects of the conflict
Israel and the Arabs: old wounds reopened
THE TIMES
Israel must think again now myth of might is shattered
HE SUNDAY
HOW EGYPT CAUGHT ISRAEL NAPPING
The Middle East war by Insight 33
Surprise at powe
initial Arab attac
Tactics: How the Arabs Scored Their Surprise
US did not take Egyptian battle plan seriously
MIDDLE EAST WAR
Israelis warned that the war will not be a walkover this time
US officials say Israel was losing war when Europe blocked airlift
Egypt's war leaders in confident mood
Heavy losses in attempt to check Egyptian advance
Nato defence ministers discuss lessons of Middle East war
MIDDLE EAST
President Sadat prepares ground skilfully to face Dr Kissinger as undisputed leader of Arab world
elis in a Suez Showdown
THE GUA
London
Tuesday Octo
NOVEMBER 11 1973
busine
Oil chaos threatens homes
Ban on arms angers MPs
US mounts big arms airlift to the Israelis
Iraq throws its jets and tanks against Israel
Syrian towns bombed

الاعتقاد سائدا فى الحلف بأن الصواريخ أرض جو هى صواريخ دفاعية فقط . ولكن المصريين غيروا هذا الاعتقاد »[1].

ذلك أن عبور القوات المصرية للقناه ، واقتحامها خط بارليف ، وتصديها للمدرعات الاسرائيلية ، قد أثبت بما لا يدع مجالا للشك أن الصواريخ يمكن أن تكون سلاحاً هجوميا فعالا . وبفضل طريقة استخدام الصواريخ سام٦، التى تتميز بسهولة الحركة ، كان من الممكن توسيع رءوس الجسور ، ثم دفع الصواريخ مرة ثانية للأمام بما يهيىء مدى أوسع للحماية من غارات العدو .

* * *

خاتمـــــة

لقد أعلن اثنان من المؤرخين البريطانيين هما مايكل هوارد ، أستاذ دراسات الحرب فى جامعة لندن ، وروبرت هنتر أستاذ العلاقات الدوليه بمعهد علم الاقتصاد فى لندن، على أثر حرب ١٩٦٧، أنهما يتوقعان نشوب « حرب رابعة » بين العرب وإسرائيل ... حرب لا تكسبها إسرائيل ... إذا لم تحل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين .

وقد أشارا فى تقريرهما إلى أن نتـــائج حرب ١٩٦٧ ، قد خلقت من المشكلات الجديدة لإسرائيل أكثر مما حلت . وحذر المؤرخان من أنه يتعين على إسرائيل أن تتخلى عن كثير من المبادىء الصهيونية ، وأن تقبل بفكرة فلسطين يسكنها العرب واليهود معاً [1] .

لقد كانت آذان إسرائيل صماء فى أعقاب حرب ١٩٦٧ ، والآن وقد تحققت النبوءة ... هل آن لإسرائيل أن تستمع ... وأن تفهم ؟

* * *

---

(١) صحيفة الأهرام . ١٩٧٣/١١/٢ .

(٢) مجلة تايم : فى ٢٩ أكتوبر ١٩٧٣ ، ص ٢١ .

القسم الرابع

أصداء النصر

- الفصل الأول : نظرة داخل اسرائيل
- الفصل الثاني : أفــريقيــا
- الفصل الثالث : العــالم الغــربي

الفصل الأول

نظرة داخل إسرائيل

« هذه حرب صعبة . . . إنها حرب ثقيلة
بأيامها ، وثقيلة بدمائها »

موشى ديان
١٩٧٣/١٠/١٤

فى صباح ٦ أكتوبر تجمع أهل إسرائيل فى حشود تطلب من الله الغفران . واستمروا خمس ساعات يضرعون إلى الله أن يغفر لهم . وجاءهم الرد سريعا فسرعان ما انطلقت صفارات الإنذار فى المدن ، ودبت الحياة فى الشوارع الخاوية فامتلأت بالمركبات وتجمعات الجيش ، وقطعت الإذاعة صمتها المعهود فى ذلك اليوم ، وبدأت ترسل إشارات ورموزاً تستدعى بها فرق الاحتياطى إلى الميدان .. ولأول مرة فى عيد الغفران يسمع أزيز الطائرات يملأ الجو فوق إسرائيل . وقبل أن يعلنها موشى ديان وزير الدفاع ، عرف أهل إسرائيل ، وعرف العالم كله أن الحرب الرابعة بين العرب وإسرائيل قد اندلعت .

وهرع الإسرائيليون من المعابد إلى المخابئ يعدونها . ويملأون الأوانى بالمياه خوفا من انقطاعها ، ويطلون زجاج النوافذ استعداداً للحرب .

ومع أن قوة الطوارىء الدولية كانت قد أعلنت أنها شاهدت الحشود المصرية تعبر القناة عند خمس فقط على طول القناة ، وأنها رأت القوات السورية تدفع القوات الإسرائيلية المحتلة بعيدا عن أراضيها ، إلا أن جولدا مائير أذاعت بيانا لشعب إسرائيل قالت فيه : « إننا أنزلنا بالعدو خسائر فادحة ، ولم يعد هناك أدنى شك فى أن النصر لنا . . » .

وبعدها بساعات أذاع موشى ديان بيانا إلى الشعب ، قال فيه بكل تفاؤل :ـ « إن القوات المصرية سوف تطرد من سيناء بمجرد أن تنضم قوات الاحتياطى إلى المعركة ، إننا لن نسمح أن تؤدى هذه الحرب إلى أية مكاسب للعرب .. وفى هذا المساء سوف ينام أهل تل أبيب نوما هادئا وقلوبهم مطمئنة . . » .

ولكن ذلك المساء مر . . . ومرت بعده أمسيات أخرى ، وتتالت الأيام والأسابيع وشعب إسرائيل لا يزداد سوى قلقاً واضطراباً . وازدادت نفوسهم مع الأيام ضيقاً وسخطاً على قياداتهم العسكرية والسياسية ، فقد اكتسحت القوات العربية الطريق أمامها ، واحتفظت بالمواقع التى حصلت عليها فى سيناء وأنزلت بالعدو خسائر فادحة لم يكن يتصورها .

واكتشف الجندى الإسرائيلى نفسه هذه الحقائق . . واكتشفها معه العالم بأسره .

وحاولت السلطات الإسرائيلية أن تخفى أنباء هزيمتها وحقيقة خسائرها ، وسقوط إدعاءاتها ، وأن تكبت أنباء الخلاف الذى عصفت بها داخليا . ولكن الصورة الحقيقية بدأت تتضح . فقد ثار الشعب على الحكومة ، وثارت الحكومة على القيادة العسكرية ، ودارت حرب طاحنة بين القادة العسكريين ، تبادلوا فيها

الاتهامات ، وسميت « حرب الجنرالات » . ولم يسلم الحزب الحاكم نفسه من الانشقاق الداخلى ومن التناحر الذى هدد تماسكة ، وظهرت صورة جديدة للقوى السياسية والعسكرية فى إسرائيل .

ولم يقتصر تبادل الاتهامات على القطاعات المختلفة داخل إسرائيل بل راحت هذه توجه التهم للعرب ، ثم لدول أوربا تتهمها بالتحيز والتحول، ثم لدول أفريقيا تتهمها بنكران الجميل . وحتى الكنيسة لم تنجو من أن توجه إليها إسرائيل اللوم والتهم ، كل ذلك لأن هذه القوى لم ترض أن تساند إسرائيل فى التمادى فى عدوانها .. وأيدت حق العرب فى استرداد أرضهم ، وأبت أن تشجع محتلا متبجحا على أن يتمادى فى تحديه وفى طغيانه .

ورغم الحقائق التى ظهرت جلية فى الساعات الست الأولى من الحرب ، والتى قلبت موازين القوى، إلا أن الخيال الذى عاشته إسرائيل منذ حرب ١٩٦٧ ظل مسيطرا على قادتها وعلى قراراتهم .

فعندما استدعت مائير الوزارة الإسرائيلية للاجتماع ، وافقت الحكومة على سياسة ديان التى أعلنها فى غرور واضح . وهى أن مجرد إرجاع القوات العربية إلى حدودها ، وإعادة القوات المصرية إلى الضفة الغربية لن يعد نصر ، وهو لذلك قد قرر أن يعيد هذه القوات من حيث أتت ، ثم يتوغل بعد ذلك فى الأراضى العربية .. وقال ديان :

« إن هذا الإجراء لازم لعقاب العرب » [١] .

---

(١) أنظر مجلة تايم ، فى ٢٨ أكتوبر ١٩٧٣ .

أصداء المعركة

وأمام الأحداث وتعاظم فعل الحوادث ، لم تستطع إسرائيل أن تستمر فى إخفاء الحقائق ، وبالتدريج تنازلت عن تلك النغمة « الواثقة » التى كان عليها الخيال الذى اختارت أن تعيش فيه ٦ سنوات ، لتواجه الواقع الذى عاد إليها فى ٦ ساعات .

ففى ٧ أكتوبر أعلنت القيادة الإسرائيلية أن قواتها قد دمرت تقريبا كل الكبارى التى أقامتها القوات المصرية وعددها عشرة . ثم قالت : « ولو أنه يوجد هناك ٤٠٠ دبابة نجحت فعلا فى العبور للضفة الشرقية إلا أن هذه القوة فى موقف لا تحسد عليه بعد أن دمرت الكبارى » .

وقالت تقارير الصحافة العالمية أن هذا البيان « المتفائل » أدى إلى إثارة دهشة المراقبين ، الذين كانوا يدركون تماما أن الخطة الهجومية التى قامت بها إسرائيل « لم تكن تسير حسب ماتوقعت القيادة العسكرية فى تل أبيب » . ولكن أهل إسرائيل — الذين لم يتوقعوا فى البداية إلا النصر الذى وعدتهم به مائير وديان — سادهم شعور بالفرح لسماع تأكيدات قادتهم بأنهم دمروا الدفاع الجوى العربى ، وأن القوات الإسرائيليـة لن تكتفى بإرجاع العرب إلى خطوط سنة ١٩٦٧ ، ولكنها مصممة على التوغل فى الأراضى العربية بعد تدمير قواتها المسلحة .

وفى ٨ أكتوبر عقد العازار مؤتمره الصحفى الأول ، ليقول فيه : « أنه رغم أن بعض القوات المصرية قد نجحت فى أن تعبر للضفة الشرقية ، إلا أن هذه القوات قد تم طردها من سيناء . . . وأن الهجوم الإسرائيلى يحقق أهدافه ، وأنه سوف يتم هذا المساء تدمير أو إرجاع كل القوات المصرية والسورية التى عبرت خطوط سنة ١٩٦٧ » .

ونشرت جريدة الجارديان أن جنرالات إسرائيل يؤكدون أن حرب سيناء سوف تنتهي غدا . . وأن معارك الجولان رغم أنها قاسية ولا يمكن التأكد من وقت إنهائها، إلا أنها أيضا لن تستغرق وقتاً طويلا . وأنه بالنسبة لتدمير القوات العربية والانتصار عليها فإن السؤال لم يعد متى ؟ ... ولكنه أصبح هل يمكن ؟

ولكن العازار راوغ الصحفيين عندما سئل عما إذا كانت إسرائيل قد انتصرت حسب وعد مائير وديان . . كما أنه رفض صراحة أن يدلي بأى تصريحات متعلقة بحجم الخسائر أو بعدد الأسرى . وأعلن العازار رئيس الأركان العامة يومها أن هدف القوات الإسرائيلية هو إعطاء لطمة حاسمة للقوات العربية تمنعها من أن تفكر في محاولة القيام بأى هجوم آخر لمدة طويلة. وأكد أن القوات الإسرائيلية تحقق انتصارات كثيرة في الجو والبحر . وقال الجنرال أفرام مندلر — الذى قتل في يوم ١٤ / ١٠ / ٧٣ — « إن القوات المصرية تتقهقر بسرعة وفى فوضى أمام قواتنا » .

ووجه القادة العسكريون رسالة إلى القوات الإسرائيلية المحاربة جاء فيها :
« أننا الآن نشاهد الهزيمة الرابعة لمصر فى سيناء » .

كل هذا رغم أن واشنجتون أعلنت فى اليوم الثالث للقتال ، أن خسائر إسرائيل فى الثلاثة أيام الأولى أصبحت أضخم من خسائرها خلال حرب ١٩٦٧ كلها ، وأن إسرائيل خسرت ٩٠ دبابة مقابل ٤٠ دبابة خسرتها مصر .

وفى اليوم التالى — يوم ٩ أكتوبر عقد مجلس الوزراء الإسرائيلى اجتماعه السابع منذ العبور للاستماع إلى تقارير موشى ديان . وبعد الاستماع إلى الصورة الكئيبة التى رسمتها هذه التقارير ، بدأت الحكومة الإسرائيلية تستشعر القلق - ليس فقط على الموقف العسكرى ، ولكن أيضاً على السعادة الزائفة التى عاش فيها الشعب نتيجة التصريحات الطنانه التى أدلى بها المسئولون . وكان على حكومة إسرائيل أن تواجه شعبها بالحقائق . فظهر حاييم هرتزوج على التليفزيون فى حديث للشعب قال فيه :

« إن مواجهة القوات الإسرائيلية للموقف كانت شجاعة وذكية . . وأن عملية التعبئة تمت على أحسن وجه ،ولكن علينا أن نحذر من أن ننتظر حرباً مثل حرب سنة ١٩٦٧ » . وعندما سئل إلى متى يظن أن الحرب ستستمر قال :

« لا أظن أنها سوف تمتد لأسابيع طويلة . . ولكن الحقيقة هى أن الجيوش العربية تحارب بطريقة فعاله ومنظمة » .

وفى إذاعة أخرى قال الجنرال بنجامين بليد : إنه لم يعد سراً أن إسرائيل قد فوجئت بالهجوم . ودافع عن قادة إسرائيل قائلا : « إننى لا أظن أنهم قد هونوا فى تقريرهم من القوة المصرية . . ولكن الحقيقة هى أن القوات المصرية قد قامت بعمليات تدعو إلى الإعجاب . . فهم قد استطاعوا أن يعبروا القناة فعلا ، ثم تمكنوا من الاحتفاظ برؤوس الجسور رغم ما تكبدوه من خسائر» . وفى نهاية حديثه طمأن مستمعيه أن هذا الحال لن يدوم طويلا لأن القوات المصرية تنقصها القوة الجوية » .

وقد اضطر الجنرال بليد هنا أن يلعب مرة ثانية على أسطورة التفوق الجوى الإسرائيلى ، رغم علمه تماماً أن القوات العربية لم تكن قد القت بثقل قواتها الجوية فى المركة بعد . ورغم أن المصادر الأمريكية أكدت أن الخسائر التى لحقت بالقوات الجوية المصرية كانت طفيفة نسبيا .

وفى نفس اليوم ظهر على التليفزيون الإسرائيلى أحد الضباط العائدين من الخطوط الأمامية فى سيناء . واعترف بجسارة القوات المصرية وقوتها . وقال :«إن حربهم الآن تختلف عن حربهم سنة ١٩٦٧ » . وروى أنه عندما كان موقعه يتعرض للهجوم ، وجاءت الدبابات الإسرائيلية لنجدتهم لم يظهر المصريون أى فزع ، ولم يبدو عليهم أى ارتباك نتيجة المواجهة ، وإنما كونوا تشكيلا عسكرياً جديداً بكل سهولة ويسر ، وفتحوا النيران مستعملين عددا من الأسلحة المضادة للدبابات والأفراد لم يرها ولم يسمع عنهامن قبل .

وبدأت الحقائق تتكشف ، فقد عقد مؤتمر صحفى ، ولم يظهر فيه هذه المرة العازار الذى وعد بالنصر السريع ، إنما ظهر للإدلاء بالبيانات بدلا منه ياريف ، وكانت نغمته مختلفة تماما ، فصرح بأن « هذه الحرب لن تكون قصيرة » وقال : إنه حتى بالنسبة للجبهة السورية لا يمكن ضمان أى نتائج . وأعترف ياريف — لأول مرة — أن القوات المصرية قد استولت فعلا على خط بارليف » ، ولكنه علل الانسحاب بأن إسرائيل قد فضلت إقامة خط دفاعى آخر خلفه .

ويقرر مراسل الجارديان إريك سلفر ، أن ياريف فى هذا المؤتمر تراجع عن التصريحات السابقة التى أكدت أن إسرائيل قد دمرت أغلب محطات الدفاع الجوى المصرى ، وأصبح لها التفوق الجـــوى . وأعترف أن القوات الجوية الإسرائيلية قد تعرضت لخسائر جسيمة وتحت ضغط الاستجواب اضطر أن يعترف أيضاً بأن القوات المصرية ما زالت متمسكة بمواقعها شرق القناة . ويقرر المراسل أن بيانات هذا المؤتمر الصحفى كانت تسودها نغمة « الدم ، والعرق ، والدموع » وفى نفس الوقت كان أحد مراسلى المجلات الأجنبية فى القاهرة يجرى حديثا مع تاجر عاديات بسيط فيقول له هذا المصرى . « إنها الحرب . . إن إبنى خريج الجامعة على الجبهة . . لقد مات الكثيرون ، وسوف يموت آخرون ، ولكن هذا لا يهم ، المهم أن نخرج العدو من أرضنا ونسترد كرامتنا » .

وبعد أربعة أيام من القتال اضطرت إسرائيل أن تغير جنرالات جيشها مثلما غيرت نغمة حديثها . واستدعت ستة من الجنرالات السابقين من الاحتياط للخدمة العسكرية . وقد شملت هذه التغييرات مواقع رياسة الأركان العامة ، وقيادة الجبهة الجنوبية (جبهة سيناء) ، وقيادة سلاح الطيران .

وقدرت الدوائر العسكرية — التى تتابع سير المعارك فى ميدان القتال عن قرب — أن هذه التغييرات الجوهرية فى المناصب القيادية العليا فى إسرائيل وسط المعركة ، ذات دلالات لها أهميتها ومغزاها . وأن الحكومة الإسرائيلية قـــد

اتخذت قرار التغيير ، برغم دلالاته الخطيرة « لمواجهة التطورات التى حدثت فى ميادين القتال خلال الأيام الأربعة الأولى للحرب ».

وفى يوم ١٥ أكتوبر أجرت إسرائيل تعديلا آخراً على قيادتها . فاستدعت ١٢ جنرالا ممن سبق أن خدموا عامى ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، إلى الخدمة وادعت أنها تستهدف من ذلك تدعيم قيادتها العسكرية الحالية . وفى الواقع أن إسرائيل كانت تحاول القيام بعملية نقل دم سريعة لإنقاذ الموقف العسكرى المتدهور .

الحرب الطويلة :

فى اليوم السابع من القتال ظهر فى إسرائيل تياران من الرأى :

الأول : يؤكد ـ تمشيا مع الأوهام التى عاشتها إسرائيل طويلا ـ أن الجيش الإسرائيلى سوف يقضى على القوات السورية فى الجولان ، ثم ينتقل للقضاء على القوات المصرية فى سيناء ... هكذا وبكل بساطة .

الثانى : كان يرى وجوب التوقف فوراً عن القتال ، استناداً إلى أن استمرار الحرب مهما كانت نتائجه سوف يزيد من خسائر إسرائيل فى الأرواح والمعدات .

وكتب إريك سلفر فى رسالة إلى الجارديان من تل أبيب يقول : « إن هناك إحساساً فى إسرائيل بأن بقاء القوات المصرية على الضفة الشرقية يعد إهانة موجهة إلى قدرة القوات الإسرائيلية » . واستطرد قائلا : « مهما حدث فإن هذه الإهانة قد وقعت فعلا ، فالأحداث قد أثبتت دون جدال أن الجيوش العربية قادرة على الحرب ، فقد أخذوا المبادأة وعبروا القناة ، وتمسكوا بالأراضى التى استولوا عليها شرق القناة .. »

وخرجت التقارير من تل أبيب تقول : « أنهم بدأوا يحسبون الحرب بالأسابيع وليس بالايام . وبدأت المعارضة تهاجم الحكومة لأنها كانت توهم الشعب بأن

العرب لن يحاربوا . وتساءلت مجلة جيروزاليم بوست الأسبوعية قائلة ما الذى حدث ؟ وما هى الأخطاء التى وقعت ؟

وكتب المحللون العسكريون يقولون : « إنه مهما كانت نتيجة المعارك ، وبصرف النظر عن النتائج ، فإن حربا تكسبها إسرائيل بهذه الخسائر الفادحة هى فى نهاية الأمر خسارة لها . . . فإسرائيل وجنرالات إسرائيل يعلمون تماماً أن كل طائرة أو دبابة أو مدفع تخسرها إسرائيل فى الحرب سرعان ماستعوضه لهم الولايات المتحدة،أو سيعوضه لهم كرم الجاليات اليهودية فى العالم . ولكنهم يعلمون أيضاً فى قرارة أنفسهم أن الأعداد الكبيرة من الشباب الإسرائيلى الذى هلك لن تعوضه أموال يهود العالم . . » . وأصبح السؤال الذى يتردد فى إسرائيل هو : « هل تستحق رمال سيناء أو صخور الجولان أن تفقد إسرائيل هذه الأعداد الهائلة من شبابها فى ساعات ؟ » .

وهنا ظهرت أعراض الوهن فى المجتمع الإسرائيلى . وبدأ الشقاق بين القادة، وفقدت إسرائيل رصيدا كبيراً كانت تفخر به وهو تماسكها وترابطها .

إن أحد الأرصدة المضمونة التى كانت إسرائيل تعتمد عليها فى حروبها مع العرب هو إطمئنانها الدائم على وحدتها الداخلية ، التى كان يقابلها تأكد إسرائيل من تفكك العرب . ولكن الحرب الرابعة أدت خلال ساعاتها الأولى إلى تغييرات جذرية فى المفاهيم وفى القيم وفى الأرصدة .

وكما قضت الحرب على أسطورة التفوق العسكرى خلال هذه الساعات ، فإنها استنزفت أيضاً هذا الرصيد من التضامن والتماسك الذى طالما تغنت به إسرائيل . وتغيرت الصورة . . . ووجد العالم أن الدول العربية بدت أكثر تماسكا وتضامنا ووحدة من أى وقت مضى . بينما إسرائيل ممزقة بالشكوك والصراعات والاتهامات.

حرب الجنرالات والقادة

كان هناك عدد ضخم من الأسئلة كان الجنود الإسرائيليون على الجبهة قد بدأوا يرددونها فى اليوم التالى لعملية العبور الذى قامت به القوات المصرية بنجاح . وعندما بقيت هذه القوات على الضفة الشرقية واحتفظت برؤوس الجسور . . . وعندما تقدمت الجيوش السورية إلى خطوط وقف القتال فى الجولان . . . واكتسحتها فى ساعات .

وبدأ النقاد يحللون الأسباب ، وبدأت الحكومة تقدم التفسيرات . . وبدأ صراع الجنرالات .. إذ لم يحتمل مجتمع إسرائيل ، ولا ساستها ، ولا اقتصادها ، ولا مواطنيها وطأة استمرار الحرب . وبدأوا يدركون فداحة الخسائر التى لحقت بأبنائهم ، ويحسون بالتكلفة الباهظة للحرب نتيجة فشل المؤسسة العسكرية .

ولعل أول الصراعات وأبرزها ذلك الصراع الذى نشب بين قادة إسرائيل وجنرالات الحرب . فقد ازدادت الخلافات اشتعالا إلى درجة أنها تستحق أن يطلق عليها ... « حرب الجنرالات » .

وكان أشد مظاهر هذه الحرب المعارك التى قامت بين ديان وشابيرو ، وبين ديان وبارليف ، وبين العازار وشابيرو ، وبين شارون وجونين ، ثم بين شارون وكل من بارليف والعازار . كما أعلنها ماتيتاهو بليد حربا على الجنرالات جميعا ، وطالب بتغييرهم كلهم . وهكذا قامت الصراعات حتى بين مائير وآلون ، ثم بين كل هؤلاء وضباطهم . ثم بين القادة والضباط من ناحية والمقاتلين على خط النار من ناحية أخرى .

وامتدت الخلافات لتشمل حزب العمل الحاكم وتعصف بالحكومة ، وتهدد مصير الانتخابات ، وتصل ـ كما تؤكد بعض الأنباء ـ إلى حد وقوع معركة بالأيدى

بين أعضاء الكنيست[١] .

وكان موشى ديان — الذى كان يأمل أن يصبح رئيسا للوزراء ـ أول هدف للهجوم . فديان هو الذى سبق أن قاد جيش إسرائيل إلى الاستيلاء على مزيد من الأراضى المصرية سنة ١٩٦٧ ، وصمم على الاحتفاظ بها . وعاشت إسرائيل معه وبه حلما طويلا لمدة ست سنوات كانت خلالها تعتقد أن ديان أسطورة قادها إلى النصر .

وكان أول تحد لبقاء موشى ديان فى منصبه كوزير للدفاع نابعاً من داخل الوزارة ، بل ومن داخل الحزب . فقد فجر الأزمة يعقوب شابيرو وزير العدل ، الذى اتهم ديان بأنه المسئول عما حدث ، ووصفه بالإهمال الجسيم الذى جعل الهجوم المصرى السورى مفاجأة كاملة لإسرائيل . كما اتهمه بالتقصير فى اتخاذ الإجراءات اللازمة لمواجهة أولى الهجمات المضادة، مما ترتب عليه وقوع خسائر جسيمة فى الأرواح . وأضاف أنه فى حالة ما إذا رفض ديان الاستقالة فإنه لابد من « طرده » .

ورد ديان بأنه قد وضع استقالته تحت تصرف رئيسة الوزراء ، وأنه يتحمل كل المسئولية ، ولكنه ليس ملزما بأن يجيب على الاتهامات الفردية التى يوجهها إليه أعضاء الوزارة .

وساندت جولدا مائير ديان . وقالت إنه فعلا كان قد أبلغها منذ أيام باستعداده لتقديم استقالته إذا لم يكن يتمتع بثقتها الكاملة . وأضافت أن جميع المسائل المتعلقة بالأيام التى سبقت المعركة والأيام التى تلت الهجوم يمكن بحثها فيما بعد . وفضلت مائير أن تبقى على أسطورة ديان من أن تنهار حتى لا تنهار معها الروح المعنوية لشعب إسرائيل . وخوفا أيضاً من أن يتحول ديان ـ وهو الذى يمثل

---

(١) الأهرام ووكالات الأنباء ، ١٩٧٣/١٠/٢٤ .

الطرف اليمينى فى حزب العمل ـ إلى حزب اليمين ليكود فيقوى من مركزه فى الانتخابات ويضعف مركز حزب العمل . ومارس بعض أعضاء الحزب الضغط على شابيرو إلى أن استقال . وكان تركه الوزارة هو فى حقيقة الأمر « إقالة » وليس استقالة .

والخلاف بين ديان وشابيرو لم يكن جديداً . ولكن أحداث ٦ أكتوبر هى التى فجرته . فقد كان شابيرو متحاملا على ديان منذ سنة ١٩٦٧ ، بسبب الاتهامات التى وجهت لأشكول عن عدم قدرة أشكول على تولى وزارة الدفاع إلى جانب رئاسة الوزارة . وهى الضغوط التى أدت إلى أن أصبح ديان وزيراً للدفاع رغم أنف أشكول . وقد استمرت الاتهامات الموجهة لديان حتى بعد خروج شابيرو من الوزارة. وفى جلسة خاصة عقدها الكنيست الإسرائيلى لبحث الخسائر ودراسة مشكلة الأسرى ، اضطر أن يدافع عن نفسه من اتهامات حزب كتلة المعارضة اليمينية ليكود قائلا : « إن هؤلاء الذين يطالبوننا بشن حرب جديدة من أجل الأسرى ، عليهم أن يعرفوا أن إسرائيل لا تستطيع خوض غمار حرب أخرى مالم تكن تحظى بتأييد الأمريكيين المالى والسياسى » . وأضاف : « إن موقفنا خلال الأسبوع الأخير من الحرب كان يائسا حيث لم نكن نملك قذائف كافية إلى أن جاءتنا الإمدادات الأمريكية » .

ديان ... صنعته هزيمة العرب ثم أسقطته :

كانت الهزيمة التى منى بها العرب فى يونيو ١٩٦٧ ، هى العامل الأول فى بناء أسطورة ديان. فقد تمكن حينئذ من أن يصور هذه الهزيمة على أنها من صنعه. لذلك فليس من الغريب أن يكون ديان أول أسطورة تهوى أمام القدرة التى أثبتتها القوات العربية وغيرت بها ـ فى ساعات ـ وجه التاريخ . وتؤكد مجلة تايم هذا الرأى بقولها : « إن الأحداث سوف تثبت أن الجنرال موشى ديان وزير الدفاع

الإسرائيلي أكثر الخاسرين سياسياً بسبب النتائج التي أسفرت عنها الحرب ، وأن الطريقة التي أدارت بها إسرائيل الحرب ، والخسائر العالية التي تكبدتها سوف تكون أكثر العوامل تأثيراً في الانتخابات العامة في إسرائيل عند اجرائها في موعدها الجديد » . وأضافت « تايم » أن مكانة ديان التي اكتسبها بعد حرب يونيو عام ١٩٦٧ ، باعتبارة بطلا قوميا قد سقطت نتيجة للخسائر الفادحة التي منيت بها إسرائيل في ساعات من حرب أكتوبر .

موسى عليه السلام وموسى ديان :

ووسط السخط والحزن الذي اجتاح إسرائيل قام وعاظ المعابد بحملة تهدف إلى تهدئة الرأى العام . ووقف أحد رجال الدين في تل أبيب يقول للمصلين : « إن من حسن الحظ ومن محاسن الصدف التي تبشر بالخير أن موسى ديان يحمل نفس إسم النبي موسى عليه السلام ... وكما أن موسى عليه السلام لم يخذلنا فإن موسى ديان لن يخذلنا ... وكما أن موسى عليه السلام قادنا إلى النصر فإن موسى ديان سيقودنا للنصر » . وهنا وقف أحد المصلين يقول في سخرية : « أرجو أن تكمل ... وكما أن موسى عليه السلام قد أخرجنا من سيناء ... فإن موشى ديان أيضاً يخرجنا الآن من سيناء » .

العازار ويوم الحساب :

عندما سئل العازار رئيس الأركان العامة الإسرائيلي : « لقد بدأت بعض الصحف تطلق على هذه الحرب إسم حرب يوم الغفران ... فما رأيك؟ » ، أجاب العازار : « بل هي حرب يوم الحساب » . وكان واقعياً في إجابته فقد كان فعلا يتحتم عليه أن يقدم حسابا يوضح فيه موقفه . وفعلا أصدر عدة تصريحات يبرر بها موقفه .

ولم تخدم تصريحات العازار أغراضه من قريب أو من بعيد . وإنما أكدت ما كان يدور همسا في تل أبيب من أن هناك تقصيراً واضحاً من جانب القيادة العسكرية .

وأن القادة الإسرائيليين أساءوا فهم وتقدير العرب ، واستهانوا بقوتهم وقللوا من قدرهم . وأن خطة التمويه التى انتهجتها القيادة العربية قد نجحت نجاحاً كبيراً .

وكان من الغريب حقا أن يترك العازار الأرقام الرسمية التى تدل على الخسائر والضحايا والتقصير ، ويستشهد بما ذكرته صحافة العالم حول قـدرة القوات الإسرائيلية ، خصوصاً والعالم كله يعلم تماماً مدى تسلط الصهيونية العالمية على الصحافة فى أوربا وأمريكا .

القاعدة والقمة :

وكانت آخر تصريحات العازار أخطرها جميعاً . فقد عبرت عن نوع آخر من الصراعات التى بدأت تسود القوات الإسرائيلية وأكدت وجود فجوة ، أو على الأقل خلل فى خطوط الاتصال وفى العلاقات بين القيادات العسكرية العليا ، وبين المستويات الدنيا للقوات .

وكان هذا الخلاف بين المستويات المختلفة أحد صور الصراع الذى بدأ يظهر فى إسرائيل . فقد أكدت المقابلات التى أجراها بعض الصحفيين الإسرائيليين والأجانب مع جنود الجبهة الإسرائيلية أن هناك فعلا فجوة كبيرة فتحتها المعركة فى العلاقات بين القادة ورجالهم فى الجيش . بل إن العلاقات بين الجانبين على درجة عالية من التوتر . . . وإنه لا يوجد اتصال وثيق بين القيادات العسكرية والجنرالات من ناحية ، وبين المقاتلين فى المستويات الدنيا من ناحية أخرى وأن « أولئك الذين على القمة لا تهمهم مصلحة أو مشاعر الأفراد المقاتلين فى خطوط النار » .

وكتب مراسل جريدة التايمز اللندنية يقول إن الحرب التى أوجدت فجوة سحيقة وانفصام عميق بين القادة والمقاتلين جعلتهم اليوم يتساءلون . « لقد أمرنا

أن نحارب . . . وحاربنا . . . والآن نريد أن نعرف ما الذى حدث ؟ ؟ »
وبذلك تحول السؤال الذى كان يدور على لسان كل جندى من :

متى ننتصر إلى لماذا لم ننتصر ؟

وبينما الصراعات تستعر بين جنرالات الجيش الإسرائيلى والخلافات تظهر بين القاعدة والقمة ، وأخبار كل ذلك تملأ الصحافه الأجنبية ، نشرت صحيفة التايمز اللندنية مقالا وصورا للمشير أحمد إسماعيل وهو بين ضباطه وجنوده فى افتتاح معرض الغنائم ، وأكدت الجريدة فى مقالها هذا أن « الحالة المعنوية لدى القوات المسلحة المصرية عالية جداً وأن القيادات العسكرية تتصرف فى ثقة تامة . »

كما نشرت جريدة الأوبزرفر تحليلا عسكريا تؤكد فيه أن انتصار القوات العربية فى سيناء لم يكن مرجعه فقط قدرة القيادات العليا ، ولكنه يعود أيضاً للشباب المتحمس من المحاربين فى القاعدة . . وللعلاقات القوية بين الاثنين . »

خط بارليف وثغرة شارون :

بدأت خلافات جنرالات جبهة سيناء منذ اليوم الثانى للقتال ، عندما استدعى شارون للعمل بالقوات المسلحة بعد أن كان قد تركها للعمل بالسياسة . وكان شارون قبل استقالته يعمل قائداً للمنطقة الجنوبية لمدة أربع سنوات . وعند استقالته عينت القيادة أحد مساعديه ، وهو جونين ، بدلا منه فى قيادة المنطقة . وجونين هذا يختلف اختلافاً كلياً عن شارون . فهو هادىء بطبعه ، شديد التدين ، لايتمتع بنفس الجاذبية الشخصية التى يتمتع بها شارون .

وعندما نشب القتال لم يكن جونين قد أمضى فى منصبه أكثر من ثلاثة أشهر . ولم يكن يعرف الصحراء جيداً ، بل أكثر من هذا فهو لم يكن يعرف ضباطه جيداً .

وفى وسط الفوضى التى سادت القوات الإسرائيلية لدى نشوب القتال ، فقد جونين أعصابه مثلما فقد سيطرته تماماً على مرءوسيه ، وعلى المنطقة ، وأصبح نهباً للقلق . وكان القلق معدياً ... فانتقل منه إلى من حوله من الضباط الذين كان يعطيهم أوامره فى عصبية ظاهرة ، حتى أنه خطف من فم أحد ضباطه سيجارة كان يدخنها ليقذف بها بعيداً وهو ينهره .

وأدرك جونين عدم قدرته على مواجهة الموقف ، ووقف يعتذر لرئيس الأركان ـ دافيد العازار ـ قائلا : « إنى آسف فعلا أن الأمور قد سارت على هذا النحو » . وعندما وصل شارون إلى قيادة جونين فى اليوم التالى للقتال أخذيكيل له التهم ، رغم أنه استدعى ليعمل مساعداً لجونين . وتقبل الأخير تهجم شارون عليه وفقد سيطرته تماماً على شارون ، وكذلك على مساعديه الآخرين أفرام آدان ، وكالمان ماجت ، وأصبح كل منهم يعطى أوامره كما يحلو له دون الرجوع إلى جونين .

وتسربت أنباء هذه الخلافات والاتهامات . وكان وقعها على المحاربين سيئاً للغاية . ووصلت الأنباء إلى موشى ديان فى مقر قيادته فى تل أبيب .

فاقترح ديان على العازار أن يتبادل شارون وجونين منصبيهما ، بحيث يصبح جونين مرة ثانية مساعداً لشارون ويعود هذا إلى قيادة المنطقة . لكن العازار رفض هذا الحل وذهب إلى سيناء ليتعرف بنفسه على الموقف ، ولم يضيع وقتاً طويلا ، فقد تبين له أن سيناء فى حاجة إلى رجل أشد قدرة وحزماً من جونين . وبعد ساعتين من عودة العازار إلى تل أبيب وصل إلى قيادة المنطقة قائد جديد اختاره العازار لهذه المهمة ، وهو بارليف .

وكان بارليف رئيساً للأركان قبل العازار ، ثم استقال ليعمل فى السياسة ، وأصبح وزيراً للتجارة فى وزارة جولدا مائير . ولكن عندما اشتدت أزمة سيناء استدعاه العازار « لمهام خاصة » هى قيادة المنطقة الجنوبية .

ولم تكن علاقة شارون مع بارليف أفضل من علاقته مع جونين . إلا أن بارليف تمكن لفترة من إعادة الهدوء إلى المنطقة ، والحد من التوتر الذى كان سببه وجود جونين . وكانت الخلافات بين شارون وبارليف كثيرة ، وكان بعضها يتعلق بإنشاء خط بارليف الذى أعطى بارليف شهرة واسعة وعارض شارون فى إقامته. وزادت الخلافات عند ما أراد شارون أن يقوم بمحاولته فى عبور القناة إلى الضفة الغربية وهى العملية التى أطلق عليها « الغزالة » . ولم يوافقه بارليف على مغامرته لفترة طويلة تجنباً لازدياد الخسائر .

وكان كل منهما يعمل فى الشئون العسكرية بنصف قلبه فقط ، والنصف الآخر منصب على العمل السياسى والانتخابات التى كانت على وشك البدء. لذلك فقد حاول كل منهما أن يحول دون حصول الآخر على أية مكاسب تساعده فى تجميع الأصوات . وذات يوم طفى الصراع إلى السطح ، فقال شارون لبارليف علانية : « منذ يومين وأنا أرقب تصرفاتك ، ومنذ يومين وأنت لا تفكر إلا فى الانتخابات » .

وعند ما تمكن شارون من إحداث الثغرة ، رفضت القيادة الإسرائيلية أن تعطيه الفضل فى انجاز هذا العمل. ومنعت الصحافة الإسرائيلية من التحدث عنه ، وحالت بين المراسلين الأجانب وبين مقابلته حتى تفوت عليه فرصة الدعاية الانتخابية لنفسه . ومع ذلك فإن شارون الطموح المتمرد قد خرج على رغبة قيادته ، وفجر الخلاف بينه وبينها علانية عندما أدلى بحديث مطول لمراسل صحيفة النيويورك تايمز ،أتهم فيه القيادة العامة الإسرائيلية بأنها لم تحسن استخدام الثغرة التى فتحها هو فى غرب القناة .

ولما كان بارليف عندما استدعى ليعمل مستشاراً خاصاً لرئيس الأركان مسئولا عن القطاع الجنوبى ، فقد اعتبر نفسه بذلك أحد « هؤلاء القادة » الذين إتهمهم شارون علناً بالتقصير .

وعقد بارليف بدوره مؤتمراً صحفياً اتهم فيه شارون بأنه يحاول أن يأخذ لنفسه كل الفضل فى إحداث الثغرة غرب القناة ، بينما الحقائق يمكن أن تثبت عكس ذلك . وأعلن فى حديثه هذا ـ الذى نشر فى صحيفة يديعوت أحرانوت ـ أن خطة هذه الثغرة كانت فى الحسبان من سنة ١٩٦٧ . وأن عدداً من التجارب كان قد أجرى عليها فعلا ، وأنه — أى بارليف — يمكنه أن يستشهد فى إثبات ذلك بشهادة ٤٠ ضابطاً إسرائيلياً ، بل إن القيادة المصرية كانت تعلم بإمكان القيام بهذه الثغرة .

وأكد بارليف أن فى مقدوره أن يرد على كل ادعاءات واتهامات شارون ، ولكن الوقت لم يحن لذلك بعد .

وكان واضحاً أن هذه المعركة بين جنرالات الثغرة — شأن الثغرة نفسها — كانت ذات أهداف سياسية محضة . خصوصاً بعد أن صرح شارون لأحد أصدقائه أنه كان قد أدلى بهذا الحديث لجريدة نيويورك تايمز رداً على منافسيه السياسيين الذين روجوا إشاعات مؤداها أنه كان قد فشل فى تأمين رأس الجسر الذى أقامه ، وتكبد خسائر فادحة فى المعدات وفى الأرواح، وهو الإتهام الذى أثبتت الأيام صحته.

وأثارت هذه المشاحنات الرأى العام ضد الساسة وضد الجنرالات ، وضد اشتغالهم بالسياسة . خصوصاً وأن عدداً آخراً من العسكريين بالاحتياطى كانوا مرشحين لانتخابات الكنيست ولانتخابات المجالس المحلية . وظهر اتجاه ينادى بعدم اشتغال أعضاء المؤسسة العسكرية بالسياسة . . وبأن الجنرالات الذين يتركون القوات المسلحة لابد أن يمتنعوا عن ممارسة السياسة لمدة طويلة تتم فيها عملية « التبريد » ، وإعادة التكيف اللازم للحياة السياسية . ومن ناحية أخرى فإن الذين يتركون الجيش للدخول فى الساحة السياسية لا يجوز استدعاؤهم مرة أخرى للعمل فى القوات المسلحة .

وذهب ماتيتاهو بليد أحد قادة حرب سنة ١٩٦٧ — إلى أبعد من ذلك . إذ شن هجوماً شاملا على « جنرالات السياسة جميعاً » . أكد فيه أنه من غير

المجدى توجيه اللوم أو الأسئلة إلى جنرالات السياسة الذين تسببوا فى فوضى ٦ أكتوبر ... فهم لن يعترفوا بأخطائهم ، والوسيلة الوحيدة هى التخلص منهم جميعاً والاستعانة بعناصر أخرى متزنة . ومن أجل ذلك «لابد من إحداث تغيير فى أسلوب الترشيح للانتخابات، التى أدت بصورتها الحالية إلى جعل العمل السياسى والمناصب القيادية حكراً على مجموعة معينة ، لابد من التخلص منها كلها » .

وكان من الطبيعى أن يؤدى سخط الرأى العام إلى استياء المؤسسة العسكرية . وأصدر العازار بياناً « يلوم فيه شارون ... ويستنكر إعطاء أحاديث صحفية ومقابلات خاصة من أجل الحصول على مكاسب شخصية، رغم أن موشى ديان كان قد أصدر أمراً بعدم السماح للجنرالات بإعطاء أية أحاديث للصحفيين » .

ولم يكن تحدى شارون لتعليمات رؤسائه ولا استهانته بالأرواح فى سبيل تحقيق أهدافه أمراً جديداً عليه . فحياته كلها سلسلة من الأعمال الوحشية والتحديات لرؤسائه والمشاحنات مع زملائه . ورغم كل ذلك لمع اسم شارون وأصبح نجم حرب ١٩٧٣ فى إسرائيل. أعجب به الجنود ، وكتب بعضهم على دباباتهم «أريل شارون ملك إسرائيل».وظل شارون يبحث عن مملكته وتاجه لتحقيق أحلامه التى بدأت سنة ١٩٤٨ ، ولكن دون جدوى .

وأريل شارون ـ ٤٥ سنة ـ ابن مهاجر فقير، اشتغل بالحرب منذ سنة ١٩٤٨، وأصبح الآن أحد أثرياء إسرائيل. وهو يمتلك مزرعة خاصة كبيرة تبلغ مساحتها ٢٥٠٠ هكتارا.وتاريخ شارون سلسلة من الأعمال الانتقامية والعدوانية على العرب ارتكب الكثير منها بدافع الرغبة فى التنكيل والمغامرة ، وبدون إذن رؤسائه فى بعض الأحيان . ففى سنة ١٩٥٣ قاد حملة إرهابية داخل الأردن لينتقم لمقتل سيدة إسرائيلية وطفلين . وأعلن حينئذ أنه تمكن من تدمير ٥٠ منزلا « مهجوراً » ، قبل أن يكتشف العالم أن هذه المنازل « المهجورة » كان بها ٦٩ عربيا نصفهم من النساء والأطفال ، نسفهم شارون مع منازلهم .

وفى يوليو ١٩٧٣ قرر أن يستقيل من الجيش ليشتغل بالسياسة قائلا : « إن الحرب مع العرب قد أصبحت أمراً سهلا ، ولذلك قررت أن أحارب جنرلات إسرائيل بدلا من أن أحارب العرب » . وعقد حينئذ حفلا كبيراً دعى إليه الصحفيين وعبر فيه عن استيائه « واشمئزازه » من قيادات الجيش الإسرائيلى ومن كفايتها . ولكنه فى ١٩٧٣ عاد إلى الجيش مرة ثانية بتاريخه المفعم بالقسوة وكراهية العرب وعدم اعتبار القيم الإنسانية ، وتحدى رؤسائه ، وحقده على قيادة الجيش . ومن أجل هذا كله قام شارون بمغامرته لينعم بأسطورة بطولة ، بينما هو يستمتع فى نفس الوقت بمشاهدة سقوط ديان .

ولعل أحسن ما كتب فى هذا المجال قول هنرى ستانهوب الملق السياسى لصحيفة التايمز اللندنية :

« إن شارون تشاجر مع رؤسائه ومع زملائه أثناء فتح الثغرة ، ومازال يختلف معهم ويعلن ذلك الاختلاف . ولكن الشعب الإسرائيلى أراد أن يرى فيه بطلا يغرقه فى المديح ، بينما الجنرالات الآخرون يحاكمون . وهذا ما أعطاه الهالة التى جعلت منه أسطورة أكثر مما يستحق . ولكنه مازال بعيدا كل البعد عن أن يطالب بالمملكة التى عاش يبحث عنها » .

ثم انتهت مغامرة شارون . . وانتهت الثغرة ، وانتهت معها أحلام شارون ومملكته . بل انتهت معها حياته العسكرية باستقالته من الجيش عندما تم الانسحاب من الثغرة بناء على اتفاق الفصل بين القوات .

الانقسام داخل الحزب :

وإذا كان من الممكن إرجاع الخلافات بين شارون وبارليف إلى صراعات حزبية سياسية تهدف إلى الوصول للحكم ، فهناك صراعات وانقسامات هزت الحزب الحاكم من الداخل ، لا يمكن أن تعلل إلا بأنها أحد الانعكاسات العديدة التى هزت إسرائيل فى أعقاب الأيام الأولى بل الساعات الأولى للحرب .

فقد عاد يعقوب شابيرو وزير العمل المستقيل إلى مهاجمة ديان ومائير ومطالبتهما بالاستقالة، وأتهامها بالعجز عن تحقيق السلام . وأكثر من ذلك فإن مجلة حزب العمل الإسرائيلي نشرت مقالا تطالب فيه مائير بالاستقالة وتنادى بضرورة تغيير القيادات . ثم ظهر أن هناك مجموعة من أعضاء الحزب يحاولون عقد إجتماعات تهدف لإحداث مثل هذه التغييرات، وعقد كبار ضباط الاحتياطى من أعضاء حزب العمل اجتماعا طالبوا فيه باستقالة موشى ديان من وزارة الحربية، وأن يتولى منصبا آخراً.

وكانت الجماعات التى تطالب بالتغيير تتساءل « عما إذا كانت مائير وديان وجاليلى، وهم الثلاثى الذين سيطروا على السياسة الإسرائيلية قبل وبعد ٦ أكتوبر، سوف يتمكنون فعلا من مواجهة الحقائق وإحداث التغييرات الجذرية اللازمة لجعل محادثات السلام ذات جدوى ؟ » .

وكان أكثر أعضاء الحزب مجاهرة بضرورة إيجاد تغييرات فى الحزب هو إيجال آلون نائب مائير، الذى صرح فى ندوة افتتحت فى القدس يوم ٢٦ نوفمبر بأن « أحداث ٦ أكتوبر قد أثبتت بلا أدنى شك أن الإدعاء بوجود سلام قائم على الأمر الواقع وهم كبير ولا يمكن أن يكون حلا لمشكلة الشرق الأوسط » .

وعندما استمر الهجوم على مائير وعلى ديان داخل الحزب حاولت مائير أن تقوم بهجوم مضاد، فدعت ٦٠٠ عضواً من حزبها — العمل — إلى اجتماع خاص أرادت منه أن تعرف على حد قولها : « من مع من ؟ .. ومن مع ماذا ؟ ».

ورغبة فى التأكد من تلافى الهجوم عليها، عقدت فى اليوم السابق لاجتماع الحزب إجتماعا « خاصا ضيقا »، حضره معها ديان وبنحاس سابير وزير المالية ورؤساء فروع الحزب فى كل من القدس وتل أبيب وحيفا ، تم فيه الاتفاق على حماية مائير من الهجوم، وعلى مهاجمة من يقومون بتوجيه اللوم إليها.

ولكن هذه المحاولة لم تجد شيئاً، لا أثناء الاجتماع ولا حتى قبله ، فقد

كانت هناك مظاهرة تستقبلها لدى وصولها لمقر الحزب قوامها عدة مئات من المحتجين الذين طالبوها بالتنحى. وفى قاعة الاجتماع عرضت مائير برنامج الحزب وضمنته — فيما يتعلق بأمور السلام والمفاوضات — عبارة غامضة تقرر أن « إسرائيل يمكن أن توافق على بعض التنازلات فى الحدود ٠ ٠ ٠ ولكنها مصممة على أن يكون لها فرصة الدفاع عن نفسها بصورة فعالة » .

وكان المفروض أن يتفق أعضاء الحزب على هذه العبارة ولكن آلون اعترض فى خطابه مؤكداً أن هذه عبارة جديدة أضافتها مائير .

وهاجم آلون « أولئك المتهمين بالتقصير الذى أدى إلى أن يحقق العرب انتصارات ومكاسب كبيرة فى بداية الحرب » . وقال إن الحكومة كلها مسئولة ولكن « بعضنا مسئوليتهم أكبر بحكم مناصبهم ». ولم يقصر آلون هجومه على ديان ، بل إقترح أن تتجاوب مائير مع اتجاهات الرأى العام بإحداث تغيرات أساسيه وجوهرية فى الوزارة بحيث تدخلها عناصر أكفأ . واقترح أن يقدم الوزراء كلهم استقالاتهم لمائير بحيث يكون لها حرية التصرف .

وعندما تكلم ديان ٠ لم يكن نفس البطل الذى صنع نصر ٦٧ . فاعترف بمسئوليته وكرر أنه قد وضع استقالته تحت تصرف مائير، وأعلن أنه على استعداد لأن يسحب ترشيحه للبرلمان فى الانتخابات المقبلة إذا رأى الحزب ذلك .

وكان ذلك الانشقاق فى الحزب من أبلغ مظاهر الفوضى التى شوهت مؤسسات اسرائيل وأفرادها، وأعادت الجروح القديمة إلى الظهور ٠ فمن المعروف أن آلون كان مرشحا ليكون وزيرا للدفاع قبيل حرب ٦٧ ٠ ولكن ديان حصل على المنصب . . ولم يتمكن آلون من مهاجمة ديان طوال السنوات الست عندما جعلت منه هزيمة العرب بطلا وأعطته مكانة لم يكن يستحقها .

ولم تكن هذه الإنقسامات والمشاحنات كلها إلا أحد التغييرات العديدة التى جاءت بها حرب اكتوبر ، لترسم صورة جديدة للمجتمع الاسرائيلى سياسيا وإقتصاديا وإجتماعيا ونفسانيا .

الناحية الاقتصادية

فى ٩ نوفمبر سنة ١٩٧٢ صرح بنحاس سابير أمام سكرتارية حزب العمل الحاكم بقوله : « إننا مضطرون إلى الإستدانة . . وقد باتت هذه الديون ثقيلة للغاية ، وهى لاتستعبدنا فقط ، وإنما تستعبد أولادنا وأحفادنا من بعدنا ، وربما أحفاد أحفادنا أيضاً » .

وحتى يمكن مواجهة هذه الديون، أصبح هدف إسرائيل زيادة الإنتاج وزيادة التصدير ، وتشجيع السياحة ، وزيادة عدد السكان فى أقصر وقت باستقدام مزيد من المهاجرين ، خصوصاً السوفيت .

ولم ينفذ مخطط إسرائيل، فقد فوتت حرب أكتوبر كل هذه الأهداف عليها ، بل وقلبت موازين القوى فى غير صالحها. فالاقتصاد الإسرائيلى الذى لا يتحمل سوى الحرب الخاطفة التى تأخذ هى فيها المبادأة ، وضعته حرب أكتوبر فى مأزق فيه استنزاف للموارد البشرية والمادية، إلى جانب زيادة الديون ونقص الإنتاج .

ووضع إسرائيل فريد. فالأيدى العاملة بها هى نفسها القوة المحاربة. لذلك فى حالة التعبئة الشاملة يختنق اقتصاد إسرائيل إلى حد كبير بسبب انخفاض الإنتاج . فقلة الإنتاج يصحبها إنخفاض فى النفقات وارتفاع فى الأسعار وزيادة فى الضرائب . وقد ظهرت كل هذه الظواهر فى إسرائيل بصورة واضحة .

لقد صرح موشى نوردبتر الخبير الاقتصادى الإسرائيلى أن الحرب كانت تكلفهم ٤ر٥ مليون جنيه إسترلينى كل ساعة . وأن تكاليف الطائرات والدبابات والوقود والذخيرة قد وصلت إلى ٥٠٥ مليون دولار، أى أكثر من مجموع الميزانية العامة لإسرائيل سنة ١٩٧٣ . وإلى جانب هذه النفقات فقد سمحت الحكومة

بنفقات إضافية، فاضطرت مثلا كى تواجه النقص فى العربات أن تطلب ٢٥٠٠ عربة نقل من أوروبا وأمريكا ، وصل ثمنها إلى ٩٠ مليون دولار . وفقدت صناعة تلميع الماس ـ وهى صناعة أساسية تدر عملات أجنبية ـ ٦ مليون جنيه فى مبيعات شهر أكتوبر وحده. كذلك فإن أكبر مصدر للعملات الحرة وهو السياحة ، قد فقدت حسب تقديرات مدير عام السياحة فى إسرائيل ٥٠٠٠٠ سائح فى شهر أكتوبر. وهذا يترجم نقداً إلى ٢٠ مليون دولار .

ومن ناحية أخرى قل الإنتاج بسبب الأيدى العاملة . فقد أدى استدعاء الاحتياط إلى اختفاء معظم الأيدى العاملة . واضطرت الحقول والمزارع والمصانع والمكاتب أن تعمل بما يقل عن الحد الأدنى من القوة المطلوبة للعمل. وشمل هذا النقص كافة مستويات العمل من عمال ومديرين وخبراء وغيرهم . ولم يؤثر نقص الأيدى العاملة فى زيادة الإنتاج القومى فقط، الذى تقدر الخسارة فيه ببضع مئات الملايين من الدولارت ، ولكنه أثر أيضاً على إمكانية استمرار سير الحياة اليومية ، مما جعل عمدة القدس يستعين بطلبة المدارس الثانوية للعمل فى المخابز حتى يضمن استمرار توفير الخبز . وظلت أرصفة الموانى مكدسة بالبضائع لا تجد من يفرغها. كما كانت المخازن والمحال التجارية داخل المدن أيضاً غير قادرة على تصريف بضائعها. ليس فقط بسبب نقص الأيدى العاملة ولكن أيضاً بسبب تعطل حركة المواصلات بعد أن عبئت السيارات وعربات النقل لنقل الأفراد والمعدات إلى الجبهة .

وقد عانى قطاع البناء، وهو قطاع هام جداً بالنسبة للمهاجرين الجدد ، الكثير بسبب الحرب . فقد امتنع عن العمل عشرات الألوف من العمال العرب الذين كانوا يأتون كل يوم من الأراضى المحتلة ويعملون فى البناء ، وفى المصانع وفى الحقول ، ثم يعودون فى المساء إلى منازلهم ، إيمانا منهم بأن كل عامل عربى يعطى الفرصة لذهاب جندى إسرائيلى إلى الجبهة .

وقد قدر الاقتصاديون أن الزيادة فى النفقات العسكرية والمدنية ، وزيادة

الضرائب المفروضة على الاستيراد بما فى ذلك ضريبة الشراء (بنسبة ٥ ٪) سيؤدى إلى رفع الأسعار بنسبة ٥٥٪ .

ونشرت الصحف الإسرائيلية خلال الأسبوعين الأولين الحرب ، سلسلة من الأخبار حول ارتفاع أسعار السلع فى إسرائيل. فقد ارتفع سعر الأسمنت ٧ ليرات للطن ، وزادت تكلفة التدفئة المنزلية والكهرباء بنسبة ٣٠٪ ، والثلاجات بين ١٥٠ و ٢٠٠ ليرة ، والغسالات بين ١٥٠ و ٣٠٠ ليرة ، وأجهزة التليفزيون ١٠٠ ليرة ، وأسعار اللحوم المثلجة ٧ ليرات للكيلو . . وهكذا .

وبالإضافة إلى زيادة الأسعار ، توقفت الحكومة عن الدعم الذى كانت تقدمه لبعض السلع الأساسية مثل اللحم والأرز .

وقد علق أحد سكان القدس الإسرائيليين لمحرر مجلة تايم الأمريكية على هذا قائلا بمرارة : « بعد حرب ٦٧ بدأنا نستمتع ببعض الكماليات ، ولكن الآن علينا أن نعود إلى التقشف والحرمان وإلى حياة الشظف » .

وتحدثت دافار عن الأزمة التى تواجهها مدينة إيلات بسبب الحصار المفروض على باب المندب فقالت : « تعيش إيلات على ٤ عناصر : هى مناجم النحاس التى تستخدم ١٠٠٠ شخص ، وميناء إيلات ويعمل فيه ٨٠٠ عامل ، وقطاع السياحة ويعول ١٥٠٠ عامل ، وقطاع البناء الذى يتعيش منه ٧٠٠ عامل . وثلاثة من هذه العناصر الأربعة أصبحت مشلولة تماما. إن نتائج الحصار المصرى على باب المندب ملموسة جداً . وفى الميناء الآن ١٣ سفينة وصلت عشية الحرب وتم شحن معظمها وهى ترسو حبيسة فى انتظار رفع الحصار . إن عدداً من السفن التى غادرت موانى جنوب أفريقيا والشرق الأقصى فى طريقها إلى إيلات ، قد أمرت بتغيير وجهتها إلى حيفا وأشدود فى رحلة طويلة ومكلفة حول القارة الإفريقية . إن البطالة ستنتشر فى إيلات إذا لم تفتح المضايق بأقصى سرعة » .

إن إغلاق باب المندب قد سبب أزمة فى السلفور فى مصانع تيمنا « Timna » للنحاس، كما أنه أيضاً منع وصول البترول الإيرانى. وقد أرادت إسرائيل أن تخفى حقيقة موقفها فأعلنت أنها وإن كانت لا تواجه أزمة بترول إلا أنها قد قررت تضامناً مع الغرب أن تمنع استعمال العربات الخاصة فى عطلة نهاية الأسبوع ... !

وفى يوم ٩ أكتوبر كتب مراسل الجارديان يقول: « يحاول قادة إسرائيل إشاعة روح من التفاؤل بالنسبة للعمليات العسكرية. ومع ذلك هناك شواهد قاطعة تدل على أن العبء الذى تلقيه المعركة على الاقتصاد الإسرائيلى قد بدأ يظهر. فقد أعلنت الحكومة أن المواطن الإسرائيلى — الذى يدفع الآن ضرائب عالية جداً — سوف يطلب منه أن يدفع قرضا إجبارياً للحكومة حتى تتمكن من مواجهة نفقات الحرب، وأن هذا القرض سوف يقتطع من المرتبات. وتتوقع الحكومة أن تكون حصيلة هذا القرض الإجبارى ٢٥٠ مليون دولار، كما أنها تنتظر أن يأتى قرض آخر اختيارى بمثل هذا الرقم » .

وانتقدت جريدة ها آرتس الإسرائيلية « الإجراءات التعسفية التى تتبعها السلطات لحمل السكان على تغطية ما تسميه قرضا اختياريا »، وقالت: « الحقيقة أن أسلوب الجباية الحالى قد أثار موجة واسعة من المعارضة والمرارة. ففى البداية دعا وزير المالية سابير ذوى الإمكانات وأصحاب المصانع وفرض عليهم مبالغ من المال، وحاول هؤلاء إبداء معارضتهم، ولكن دون جدوى، إذ أنهم يعلمون مدى احتياجهم لوزير المالية » .

وإزاء هذا الموقف الاقتصادى المتفجر اضطرت الحكومة الإسرائيلية إلى أتخاذ عدد من الإجراءات السريعة لتغطية نفقات الحرب، منها كما ذكرت ها آرتس طرح مبالغ ضخمة للتداول، ومنع نشر أى بيانات رسمية عن حجم دين الحكومة لبنك إسرائيل. ومنها كذلك توقف نفس البنك عن نشر الإحصاءات التقليدية التى تعود أن يصدرها عن الموقف المالى، وخاصة ما يتعلق منها بالعملة الصعبة .

أمريكا تتحمل النفقات :

عندما نشبت الحرب ، نشرت مجلة بارون الأسبوعية ـ وهى من صحف نيويورك المالية ـ تقريرا عن تكاليف حرب الشرق الأوسط الرابعة ، انتهت فيه إلى أن المواطنين الأمريكيين سوف يتحملون بصورة غير مباشرة الأعباء المالية للحرب نيابة عن إسرائيل .

واستندت المجلة فى بحثها إلى تقديرات نشرتها مجلة « أويل ويك » الأمريكية تشير إلى أن الحرب تكلف إسرائيل حوالى ٣٥٠ مليون دولار يوميا، وأن إسرائيل سوف تغطى هذه التكاليف من تبرعات الأمريكيين للمنظمات اليهودية والمساعدات المالية الرسمية .

وذكر مراسل صحيفة لوموند الفرنسية أن تغطية العجز الاقتصادى الخطير الذى تعانى منه إسرائيل سوف يتم من مصدرين : أولهما ، هو الجاليات اليهودية فى الولايات المتحدة، والمصدر الآخر ـ ويعتبر رئيسياً ـ هو الحكومة الأمريكية . وأكد هذا المراسل فى رسالة من القدس أن أحد الاقتصاديين الإسرائيليين قال له : « يجب على الأمريكيين أن يعطونا الآن ما يفى بجميع احتياجاتنا ، وليس لدينا ولا لديهم مخرج آخر ، نحن بحاجة إلى مليار دولار لتجديد الأسلحة التى تستهلك خلال أيام القتال ، ولا يمكن لأحد أن يتصور أن ننفق على ذلك ثلثى احتياطينا من العملات الأجنبية ، وقد يصل ذلك إلى مليار ونصف مليار دولار » .

« ويجب أن تكون المعونة الأمريكية بشروط مواتية وبفائدة منخفضة وطويلة الأجل ، وإلا فإن الفوائد وحدها ستمثل جزءاً كبيراً من إيرادات الإسرائيليين. إن هذه الحرب تعمق أكثر فأكثر اعتماد إسرائيل على الولايات المتحدة » .

ولم تكن هذه التقارير مبالغاً فيها بأية صورة. فبمجرد نشوب القتال تحركت المنظمات اليهودية والصهيونية لجمع المال والأفراد من ٨ مليون يهودى بالولايات

المتحدة. وكان الهدف جمع ٤٠ مليون دولار أسبوعيا (فى حرب سنة ١٩٦٧ جمعوا ٧٠ مليوناً) .

وسافر بعض قادة إسرائيل للإشراف على هذه الحملة ولإعطائها دفعة ، ومنهم بنحاس سابير وزير الماليه . وفى اجتماع مع ١٥٠ من زعماء يهود أمريكا وكندا ممن يشكلون الهيئة المسئوله عن بيع السندات لإسرائيل، أعلن سابير أن إسرائيل أنفقت خلال السته أيام الأولى للحرب ١٩٢٠ مليون دولار وأن من المتوقع أن يستمر الإنفاق الإسرائيلى بمعدل مليار دولار أسبوعيا طالما استمرت الحرب . وطالب يهود أمريكا بمبلغ ٢ مليار دولار تحتاجهم إسرائيل بصفه عاجلة لشراء الأسلحة . وبعدها بأيام عاد إلى تل أبيب ليعلن أن اليهود الأمريكيين وعدوا بالتبرع بمبلغ ٧٥٠ مليون دولار لمنظمة النداء اليهودى ، وبشراء ماقيمته ٦٠٠ مليون دولار من السندات الإسرائيلية . وقال إن اليهود فى دول أخرى سيتبرعون بما مجموعه ٥٠٠ مليون دولار .

وأعلنت وكالات الأنباء فى الولايات المتحدة أن منظمة بيع السندات الإسرائيلية شنت حملة عاجلة لبيع سندات قيمتها ٦٤٢ مليون دولار .

ثم قام تيدى كوليك العمدة الإسرائيلى للقدس بزيارة مماثلة للولايات المتحدة لمدة سبعة أيام . وأعلن من بوسطن أن إسرائيل تأمل فى أن تجمع حتى نهاية عام ١٩٧٤ ، تبرعات إضافية من اليهود الأمريكيين تبلغ قيمتها ٧٥٠ مليون دولار ، علاوة على التبرعات التى تم جمعها بالفعل . وقال كوليك إن إسرائيل ستقوم بحملة لجمع تبرعات من اليهود فى أنحاء أخرى من العالم نأمل أن تصل قيمتها إلى ٢ر١ بليون دولار . وقد نشطت هذه الحملة فعلا فى دول أمريكا اللاتينية وانجلترا وغيرها من الدول الغربية .

وساهم القادة العسكريون والسياسيون فى جمع التبرعات . ففى نيويورك تحدث موشى ديان فى حفل العشاء الذى أقامته جماعة النداء اليهودى بأمريكا لجمع

التبرعات وقال :

« أن العرب أغنياء .. ولديهم البترول .. ولا ترفض أى دولة أن تبيعهم سلاحا . أما نحن فطالما أن أبناءنا على الجبهة يحرسون الحدود بدلا من أن يعملوا داخل إسرائيل فإننا سوف نجد أنفسنا مضطرين بمطالبتكم هنا فى أمريكا بأن تساعدونا » .

ويصف مراسل الجارديان الأسلوب الذى تتبعه بعض المنظمات فى جمع التبرعات بأنه يتصف بالإصرار والإحراج . فقد كان مندوبوا المنظمات الصهيونية يتصلون تليفونيا بكل يهودى فى مكتبه وفى منزله باستمرار ويلحون عليه إلى أن يدفع جزءاً من ماله .

وكانت الجرائد الأمريكية كلها تنشر إعلانات ضخمة تقول : « لا تقلق على إسرائيل .. إنما إفعل شيئاً .. إدفع .. » [1] .

هذه هى الصورة الاقتصادية التى هددت بانهيار كامل فى اقتصاد إسرائيل . والتى استلزمت الحملات المتكررة لجمع الأموال ، وأكدت ما سبق أن أكده علماء الاقتصاد العرب من أن إسرائيل دولة مفتعله ، تقوم على اقتصاد مفتعل . أحد المعلقين السياسيين الأمريكيين بـ ٦ أكتوبر قائلا :

« إن كل هذه التحركات والحملات التى ثبت ضرورتها لإسرائيل حتى تحصل على لقمة العيش وعلى السلاح .. لتجعلنا نتساءل : أليس من الممكن أن تفقد إسرائيل فى الساحة الاقتصادية كل ما كسبته أو كان يمكن أن تكسبه فى الساحة العسكرية .. ؟ »

---

(١) أنظر مجلة تايم الأمريكية ، يوم ٢٩ أكتوبر ، ص ٣٥

القلق والحزن داخل المجتمع الإسرائيلي

إذا ألقينا نظرة داخل المجتمع الإسرائيلي ذاته، وداخل الفرد الإسرائيلي لوجدنا تحولا جذريا أحدثته حرب أكتوبر .

فقد اجتاح الحزن والقلق وفقدان الثقة المجتمع بأسره ، وساده مناخ وصفته مجلة تايم بقولها : « إن الاسرائيليين قد أصابتهم مرارة ومهانة بالغة لعلها أضخم حجما ، وأبعد مدى من أى شيء سبق لهم أن قاسوه أو تعرضوا له فى تاريخهم » .

وأشار إليه معلق فرنسي بقوله : « إن أعنف ما يجتاح الإسرائيليين من مشاعر ، هو الأمل المفقود فى أن تغير هذه الحرب — التى لا طائل من ورائها — شيئا على الإطلاق » .

ولعل هذا الاحساس بأن الحرب لا طائل ورائها ، هو الذى يعلل إلى حد كبير الحزن القاتل الذى اجتاح إسرائيل على موتاها ، وانعدام الثقة التى وصلت حد رفض الاستدعاء للقوات المسلحة ، وظهور حقائق ما كان من الممكن ظهورها فى مناخ من الثقة ، تتصل بمدى إيمان الأفراد بالأسس التى تقوم عليها دولة إسرائيل . وكلها عبرت عن نفسها فى التصرفات ، وفى التصريحات بل وفى الأغانى .

الهستريا على الموت :

وأول ظاهرة بدأت تعبر عن قلق المجتمع الإسرائيلي — ولعلها أيضاً أقوى ظاهرة — هى ظاهرة الحزن الذى اجتاح المجتمع الإسرائيلي كله . وبلغ هذا الحزن ذروته فى يوم معين بعد شهر من نشوب القتال. فقد كان يوم ٧ نوفمبر هو « يوم الحداد والحزن والبكاء » . فيه قامت إسرائيل كلها تنتحب وتبكى ضحاياها فى جو متقبض مفعم بالحزن ، يختلط فيه صوت الطائرات التى تحمل الإمدادات للجبهة ، بصوت « البروجى » الذى يودع الموتى ، بصوت النغمة الدينية الحزينة

لسنا دعاة إبادة . . . .



أسير إسرائيلي يلقى العلاج
والرعاية في مستشفى مصري

التى تصدر من تراتيل الحاخامات ، ويتخلل كل هذا طلقات المدافع ، وصراخ وعويل .

وفى ذلك اليوم أقامت إسرائيل ثلاث صلوات جماعية كبيرة . إحداها فى القطاع الشمالى الإسرائيلى ، وأخرى فى القطاع الأوسط ، وثالثة فى القطاع الجنوبى ، حيث قامت بدفن موتاها فى مدافن عامة لمدة سنة قبل أن يتم نقلهم طبقا للطقوس اليهودية إلى مدافن عائلاتهم وأسرهم .

وفى القطاع الشمالى — بجوار تل أبيب — وقف حوالى ٢٠٠٠ إسرائيلى ينتحبون وهم يدفنون ١٠٠ طيار ومقاتل من الجرحى الذين كانوا يعالجون فى مستشفى تل هوشمير المسكرى القريب من المنطقة .

وفى القطاع الأوسط حاول قائد المنطقة « يونا أفرات » تهدئة الجو قائلا : « إن هؤلاء الموتى هم الذين أنقذوا إسرائيل من الهلاك والدمار والإبادة » . ولكن هذا لم يمنع إحدى الأمهات من أن تصيح صارخة ... « ولماذا أرسلتم إبنى ليموت فى الحرب ... إنه التحق بالجيش منذ خمسة أشهر فقط » .

وكانت أكثر الأمهات حزناً اليهوديات العربيات اللواتى غرر بهن لترك الديار العربية والهجرة إلى أرض الموعد . وتقول التقارير أن هؤلاء كن يلطمن ويصرخن ، وتغطى أصواتهن على وعظ القادة العسكريين ورجال الدين . وفشلت كل محاولات تهدئتهن أو تقديم العزاء إليهن .

ولمواجهة الهستريا المترتبة على الموت فى إسرائيل اضطرت القوات المسلحة أن تعدل أسلوبها فى إخطار أسر المفقودين أو الضحايا تلغرافياً . . . وكونت « فرق إخطار » مشكلة من ضابط كبير وممرضة ومحلل نفسانى وأحياناً طبيب . وتولت هذه الفرق مهمة إبلاغ الأسر بالخبر . وكانت الممرضة والمحلل النفسانى يبقيان مع الأسرة لمواجهة نتائج هذا التبليغ . وأصدر رجال الدين تعليمات خاصة تبين طقوس الحداد الواجبة الاتباع .

ولم تستطع احتفالات عيد التوراة أن تخفى الجو الكئيب الذى سيطر على إسرائيل كلها . وكتب مارش كلارك من القدس ، المدينة التى تسودها دائماً أفراح ذلك العيد يصفه بقوله :

« إن احتفالات عيد التوراة لم تستطع أن تخفى الجو الكئيب الذى يسيطر على القدس، وعلى إسرائيل كلها. فالمدينة وإسرائيل أصبحت فى قبضة ثورة غضب بارد ... يشبه رياح الخماسين وأعاصير الصحراء القاسية التى تعصف بكل ما حولها. إن الهجوم العربى قد جعل إسرائيل تعانى من صدمة شديدة ، فأسطورة القوات الإسرائيلية التى لا تقهر ... وعدم القدرة العربية . . . قد انهارت فى ضربة واحدة » .

لقد كان الشعور بالحزن والانقباض الذى سببته حرب أكتوبر مثل الآثار التى يتركها الدواء « ممتد المفعول Long Acting » . ولقد استمر بعد أحداث الثغرة التى صورت على أنها مكسب عسكرى هام . واستمر بعد وقف إطلاق النار ، واستمر بعد مؤتمر جنيف ، واستمر بعد الفصل بين القوات . وعبر عن نفسه فى الأغانى وفى الكتب ، وفى المناخ الذى خيم على إسرائيل . وبعد بضعة أشهر من بدء القتال قررت الحكومة الإسرائيلية القيام بحملة إعلامية ضخمة « لرفع الروح المعنوية » المنهارة وعلاج الأزمة النفسية التى أصابت إسرائيل .

نهاية و بداية :

وعلى العكس ، فقد كان مدى رد الفعل العربى بالنسبة لظاهرة قتلى الحرب مختلفا. فالفرق بين الموقفين أبلغ دليل على ما حملته هذه الحرب من معانى لكلا الطرفين. إن شعور المأساة الذى كان ملموساً فى إسرائيل لم يكن له مثيل بالدول العربية . فبينما كان الإحساس الذى يسيطر على إسرائيل أن موت مواطنيها هو نهاية ، كان الاستشهاد بالنسبة للعرب بداية حياة . لقد كان موت أبناء إسرائيل يحمل نذيراً نفسانياً بنهاية الدولة أيضاً ، وبنهاية الآمال والأحلام والأطماع والإحساس

بالأمن . أما فى العالم العربى فقد كان بداية لحياة أفضل ، وبعثاً ووسيلة إلى الخلود وطريقاً إلى البقاء ، وانتقالا من المحنة إلى حياة الكرامة .

السائحون يرحلون :

وانعكس القلق الذى اجتاح أهل إسرائيل على زائريها، وعلى السائحين الذين جاءوا ليشاهدوا قوتها ويشهدوا عظمتها ٠ ٠ ٠ واضطرب السواح الذين فاجأتهم الحرب وهم فى إسرائيل والذين بلغ عددهم ٣٥٠٠٠ سائحاً . وأسرعوا بالعودة لديارهم ٠٠٠ وقال أحدهم وهو أمريكى مزارع من ولاية نيوجرسى « لقد حضرت لأزور أرض الإنجيل المقدس ولكننى لم أر سوى جدران الفندق » . وقال آخر « لقد أتينا كل هذه المسافة لنجد أنفسنا نقرأ تعليمات الدفاع المدنى بدلا من أن النشرات السياحية ، ووجدنا أنفسنا نزور المخابىء بدلا من المتاحف ٠٠٠ إن هذا المكان محفوف بالأخطار ، وسيظل كذلك دائماً » .

وإزاء إصرار هؤلاء السائحين على العودة إلى بلادهم ، أخطرت شركة « العال » الإسرائيلية بأن تقوم بتسع رحلات خلال يوم واحد حتى يمكن نقلهم بسرعة إلى حيث « الأمن والسلام » .

وكانت الصورة فى القاهرة مختلفة . وكذلك كانت تعليقات السائحين على الحالة فيها . لقد استمرت الأفواج السياحية تزور المتحف المصرى ، وخان الخليلى ، والأهرامات . وأجمع السائحون بصورة واضحة على إعجابهم بالهدوء والثقة التى تسود القاهرة ، وكيف أن المصريين كانوا يسيرون فى شوارع العاصمة فى هدوء وأمل ، ويقومون بأعمالهم اليومية فى إقبال وتفاؤل ، ويترددون على المحال التجارية كما لو كانت الحياة عادية ، ويتعاونون مع الحكومة أكثر من أى وقت مضى ، ويتقبلون مشكلات الحياة اليومية فى المواصلات والتموين والخدمات — والتى تعودوا الشكوى منها — دون أى تبرم أو ضجر .

* * *

العودة إلى الشتات « دياسبورا » .

عاشت إسرائيل ـ كما قدمنا ـ دولة تبحث عن مواطنين . كانت تصور ليهود العالم أنه لا سلام ولا استقرار لهم إلا فى « أرض الموعد » . وكان على إسرائيل ، لكى يتحقق لها ما أرادت ، أن تغرى اليهود الذين يعيشون خارجها بالحرية والحياة الرغدة والأمن بداخلها .

وخلال عام ١٩٧١/١٩٧٢ ،هاجر من الاتحاد السوفيتى إلى إسرائيل عدد من اليهود يفوق مجموع الذين سمح لهم الاتحاد السوفيتى بالهجرة من غير اليهود خلال أربعين عاماً كاملة. وكان من المنتظر طبقاً لخطة التهجير أن يستقر ٣٥ر٠٠٠ سوفيتى يهودى فى إسرائيل سنة ١٩٧٣ .

وهؤلاء السوفييت الذين وعدوا بالثراء والراحة والأمن ، كان يتم توطينهم أساساً ـ رغم اعتراضاتهم واحتجاجاتهم ـ فى المعسكرات التى أقامتها إسرائيل بالأراضى العربية التى احتلتها فى ١٩٦٧ . وخرجت التقارير من هذه المعسكرات تصف كيف يكره السوفيت حياة الكيبوتز ، ويفضلون عليها الحياة فى وطنهم الأصلى . وبدأ بعضهم يهاجر مرة ثانية تاركاً إسرائيل بعد أن تقوضت أحلامهم فى الحياة الرغدة ، واستمر البعض الآخر قانعين بالحياة « الآمنة » .

وجاءت حرب أكتوبر ، لتذهب بكل ما بقى لهم من أمل . فقد أطاحت الحرب بفرصة الحياة الآمنة ، بعد أن انهارت من أساسها نظرية الحدود الآمنة التى تعلقت بها إسرائيل طويلا . وبدأت أعداد من هؤلاء المهاجرين السوفيت يعودون مرة أخرى إلى أوربا فى محاولة للرجوع من حيث أتوا . ولكن الاتحاد السوفيتى رفض قبولهم وتظاهر ٣١٧ يهودى سوفيتى فى عاصمة النمسا مطالبين بالعودة إلى ديارهم فى الاتحاد السوفيتى ، واحتلوا مبنى القنصلية السوفيتية فى فينا بالقوة واعتصموا بها مطالبين بالعودة ، دون جدوى .

إن الصهيونية التى بدأت بفكرة إنقاذ يهود العالم من التشتت «دياسبورا» ، قد انتهت مرة ثانية إلى جعلهم فى حالة التشتت . وفى هذه المرة لم يدفعهم إليه « نبوخذ نصر » ، ولا الرومان ، ولكن إسرائيل ذاتها هى التى دفعتهم إليه .

لقد أصبحت إسرائيل بعد ٦ أكتوبر مركزاً طارداً وليس مركز جذب . وتلك نقطة جوهرية فى حياة إسرائيل . ويمكن تصور أثر هذه الحقيقة ، وأثر ترك المهاجرين لها إذا ما أضفنا إليهم القوة البشرية الضخمة التى فقدتها فى الحرب . لقد بلغ من حرص إسرائيل على الحصول على المهاجرين السوفيت أن الطائرة الوحيدة التى استمرت تصل إلى مطار اللد خلال الأيام الثلاثة الأولى للمعركة — عندما توقفت تماما حركة الطيران بإسرائيل — كانت الطائرة التى تقل اليهود السوفيت من النمسا .

ويمكن تصور حرص إسرائيل على بقاء هؤلاء المواطنين الجدد ، إذا ما علمنا أنه من يناير سنة ١٩٧٢ إلى يوليو ١٩٧٣، كان بين المهاجرين إلى إسرائيل ١٨٠٧ مهندساً ، ٨٧٩ طبيباً ، ٨٣٢ مدرساً ، ٣٢٤ موسيقياً ، ٢٩٩ إقتصاديا ، وغيرهم من الكيميائيين والحاسبين . وأيضا إذا علمنا أن ٥٠٪ منهم أقل من ٣٠ سنة . وهذه كلها حقائق جعلت الإسرائيليين أنفسهم يعترفون بأنه لا توجد فئة أخرى من المهاجرين تسهم فى بناء إسرائيل أكثر من إسهام اليهود السوفيت .

وفى ضوء هذه الحقائق يمكن أن ندرك لماذا أقامت إسرائيل الدنيا وأقعدتها عندما أغلقت النمسا معسكر شاناو بالنمسا ، الذى هو مركز استقبال مؤقت لليهود السوفيت لحين ترحيلهم ليستوطنوا إسرائيل .

وتأكيداً لهذا التطور الخطير أعلنت نشرة نوفوستى السوفيتية أن طلبات الهجرة إلى إسرائيل انخفضت فى أول يناير ١٩٧٤ بنسبة ٥٠٪ ، عما كانت عليه فى نفس

الموعد من عام ١٩٧٣[1] .

وهكذا بدأت إسرائيل تفقد جوهر الأمن ، الذى على أساسه أقامت فلسفة وجودها كدولة . لقد ذهبت أسطورة الأمن بذهاب أسطورة الجيش الذى لايقهر . وحينما وقف موشى ديان فى ٢٠ فبراير ١٩٧٣ ، أمام طلاب جامعة بار إيلان بإسرائيل ، قال فى خطابه :

« إننى أخشى أن أتساءل عما إذا كان عدد الذين يفدون إلى إسرائيل أكبر أم عدد الذين يهاجرون منها . . إن التحول الكبير الذى يواجه المجتمع الإسرائيل الآن ، هو أن يثبت أنه قوة جذب لملايين اليهود الذين يعيشون فى الخارج ، لابد أن تكون هناك هجـــرة كافية إلى إسرائيل ، إذا ما قدر لنا أن نعيش » .

الأسرى وظهور الحقائق :

وكان من أهم المشاكل التي أثارت القلق فى إسرائيل ، مشكلة المفقودين من الجنود الإسرائيليين فى الحرب . وقد ساد الاعتقاد أن أغلبهم أسرى إما فى مصر أو سوريا .

وتفجرت هذه المشكلة علناً عندما قامت جماعة من النساء يوم ٢٨ أكتوبر بمظاهرة نسائيه — نادراً ما حـــدث مثلها فى إسرائيل — أمام وزارة الدفاع الإسرائيلية .

كما قامت مظاهرة احتجاج ضخمة باستقبال مائير عندما ذهبت لاجتماع الحزب تطالبها بالتعرف على مصير الجنود. ووقفت أخرى خارج اجتماع مجلس الوزراء .

---

(١) فى مواجهة هذه الظاهرة، عقدت الحكومة الاسرائيلية واتحاد المهاجرين ووزارة استيعاب المهاجرين فى تل أبيب ، مؤتمراً لبحث شئون الهجرة ، أعلن فيه أهرون مكابى أن عشرات من الأسر المهاجرين من الاتحاد السوفيتى الذين لا يواجهون أية مشكلات اقتصادية ، أخذوا ينزحون من إسرائيل بسبب المشكلات الاجتماعية والمناخ الذى تولد مع الحرب .

وأرادت إسرائيل أن تحول السخط إلى هدف آخر . فبدأت تشكو من سوء معاملة الأسرى الإسرائيليين فى مصر وفى سوريا ، حتى ينصب السخط على الدول العربية بدلا منها . وحتى هذه المحاولة وجدت من يتصدى لها ، ليس فقط من خارج إسرائيل بل من داخلها ، إذ أدت حالة الانهيار إلى ظهور الحقائق .

فقد اتضح أن إسرائيل هى التى تعذب الجنود العرب فى الأسر . وكتبت صحيفة التايمز اللندنية عن وجود تقرير موقع عليه من أحد الجنود الإسرائيليين يعترف فيه بتعذيب إسرائيل للأسرى العرب . ومن هـذه الحوادث أن الإسرائيليين قتلوا ٥٠ مقاتل سورى احترقت بهم طائرتهم «الهليوكبتر» . وعندما خرجوا منها والنار تشتعل فى ملابسهم يصيحون مطالبين بالتسليم ، فتحت عليهم القوات الإسرائيلية النار وقتلتهم جميعاً .

وجاء فى هذا التقرير أنه فى الأيام الأولى للحرب كانت القوات الإسرائيلية ترفض بقاء الجنود كأسرى وكانوا يقتلونهم ، ويحتفظون فقط بالضباط ليس بدافع من الإنسانية ، ولـكن رغبة فى الحصول منهم على أسرار عسكرية بالعنف. وتحدث أحد الجنود الإسرائيليين عن أسلوب معاملة الأسرى السوريين . فذكر أن السيارات كانت تحملهم من منطقة القتال فى راش بينا ، وهناك كان يتم تقييدهم بالسلاسل ، وتغطيه عيونهم ثم قيادتهم لاستجوابهم وتعذيبهم .

هذه التصريحات أدلى بها جنود إسرائيليون ، وقالوا إن أغلب هذه التصرفات ارتـكبت خلال الساعات الأولى للحرب عندما عمت الفوضى والخوف جبهة القتال الإسرائيلية . فظهرت القيم الحقيقية للمقاتل الإسرائيلى ، الذى نسى أنه فى أعقاب سنة ١٩٦٧ ، استعمل فى الإعلام الخارجى ، خصوصا فى الولايات المتحدة ، شعاراً « غسل » به عقول الأمريكان مؤداه « سموّ المنتصر » ، أى تعاليه وترفعه عن إذلال غيره . ويقول علماء النفس إن حقيقة الفرد وكوامن شخصيته لا تظهر فى الأوقات السهلة ، إنما تظهر فى الأوقات العصيبة ، وإذا كان من السهل التغنى « بأخلاقيات الإنتصار » فإنه من الصعب التمسك « بالأخلاقيات عند الهزيمة » .

حرية العقيدة

الحضارة العربية .. حضارة إنسانية



العقيد عساف ياجورى وزملاؤه الأسرى

يؤدون شعائر الصلاة بالمعبد اليهودى بالقاهرة

سيكولوجية الهزيمة

إن آثار الهزيمة النفسية ليست مجرد الشعور بعدم الحصول على رقعة معينة من الأرض أو خسارتها ، ولكنها تتولد أساساً من رد الفعل الذى تحدثه هذه الحقائق . فالهزيمة ليست واقعاً مجرداً يمكن قياسه سلوكياً واجتماعياً بمعايير مادية ، إنما هى قبل كل شىء إحساس يسيطر على مجتمع ما ويتغلغل فى أعماقه ، ولا يخفف منه أو يقلل خطورته تحرك عسكرى أو مكسب مادى ، إنما يغيره إحساس آخر يدفع بالشعور بالهزيمة جانباً ويزحزحه ليحل محله شعور آخر بالثقة وبالانتصار .

ولعل أصدق مثل على هذه الحقيقة هو ما حدث فى حرب أكتوبر . فرقعة الأرض التى استعادتها الجيوش المصرية إذا ما قيست قياساً هندسياً مجرداً ، ما هى سوى جزء بسيط من أراضى سيناء الواسعة التى بقى علينا أن نستردها كاملة .

ومساحة الثغرة التى أحدثتها مغامرة شارون السياسية فاقت ما كان متوقعاً لها ، حتى داخل إسرائيل ذاتها . ومع ذلك فإن المساحة التى حصل عليها شارون فى الضفة الغربية لم تقلل من الشعور بالانتصار الذى ساد مصر والوطن العربى ولا من الاحساس بالهزيمة الذى ساد إسرائيل وتغلغل فيها .

ففى خلال الساعات الأولى لمعركة أكتوبر ، ساد إسرائيل ما نطلق عليه « سيكولوجية الهزيمة » وهو شعور استمر بعد مغامرة شارون ورغماً عنها ، بل ازداد حدة مع الأيام .

ومصر سادها ما يعرف باسم سيكولوجية النصر . وهو شعور عمها واستمر بعد مغامر الثغرة ورغماً منها، بل ازداد قوة مع الأيام .

ومن الأهمية بمكان الاهتمام بهذه الظاهرة الجديدة التى سادت إسرائيل لأول

مرة وهى سيكولوجية الهزيمة . فإسرائيل قد تعودت الإنتصار ، وزادها الإنتصار رغبة فى التوسع ، وأغراها التوسع على تحقيق انتصارات أبعد . وكانت المعارك دائما ترتبط فى أذهان أهل إسرائيل بالنجاح ، والحرب معناها زيادة رقعة الأرض. ولأول مرة تصبح الحرب مصدراً للحزن والقلق والتشتت والتشكك والانقسام .

ومهما كانت النتائج العسكرية لمعارك أكتوبر فإن الإنتصار الاجتماعى النفسانى الكبير ، هو ذلك التحول الجذرى الذى هزت به تلك المعارك مجتمع إسرائيل ، وجعلته يدرك أموراً لم يعهدها ، ويبصر أبعاداً لم يكن يراها ، لأنه كان ينفصم عن الحقيقة ومتطلباتها انفصاما واضحا .

ودارت الدائرة عليهم :

لقد عملت إسرائيل على مدى ٢٥ عاما من أجل أن تصل بالعرب إلى حالة من اليأس تسيطر عليهم فيها سيكولوجية الهزيمة ، وتصبح انعكاساتها مسلكا لهم ومنهجا .

وفى ساعات ست تمكن العرب من أن يجعلوا أبعاد هذا المناخ المؤلم تسيطر على إسرائيل نفسها .

فأخذت إسرائيل تتهم الاتحاد السوفيتى ،وتؤكد أنها لم تكن تحارب العرب وحدهم ، ولكنها تحارب السوفيت . وتدعى أنه تم القبض على بعض الجنود السوفيت فى الجبهة السورية .

وهو نفس الاتهام الذى وجهته القيادات العسكرية العربية سنة ١٩٦٧ إلى اسرائيل ، عندما رددت وسائل الإعلام العربى أن العرب لم يحاربوا القوات الإسرائيلية فحسب ، وإنما كانوا يحاربون « القوات الأمريكية » كذلك .

وانقلبت الأوضاع أيضا بالنسبة للأسرى الذين كانوا يقفون فى طوابير لكى

تلتقط صورهم مرة بعد أخرى. وظهر الأسرى على شاشات التليفزيون ولكنها كانت شاشات التليفزيون العربى . وكما فعل الإسرائيليون سنة ١٩٦٧ ، فإن العالم العربى كان يستمتع — دون شك — بهذه الأفلام التليفزيونيه .

وكما أقامت إسرائيل سنة ١٩٦٧ معارض يشاهد فيها الزوار الأسلحة والدبابات التى استولت عليها خلال الحرب ، أقامت مصر معرضا للغنائم لقى إقبالا لم يلقه أى معرض سابق . وجاء لزيارته المصريون والعرب والأجانب من كل دول العالم .. وقضوا ساعات طوالا فى انتظار دورهم لدخول هذا المعرض العسكرى « الحى » الذى كان يرمز إلى معانى العزة والكبرياء والثقة .

وعندما زار مصر الرئيس موبوتو ، رئيس دولة زائيرى ، زار معرض الغنائم . وقبل مغادرته مطار القاهرة للعودة لبلاده ، سأله أحد الصحفيين عما أعجبه فى القاهرة ، فقال دون تردد : « معرض الغنائم ، وما رأيت به من عتاد إسرائيلى » . وعندما سئل عن السبب قال : « لأننى أعرف جيداً هذه الأسلحة والدبابات ، وأقدر تماما معنى الحصول على كل قطعة من القطع التى فى المعرض. فقد تدربت أنا شخصيا على هذه الأسلحة بالذات فى إسرائيل ـ عندما كانت لنا معهم روابط عسكرية ـ وأعلم تماما مدى قوة هذه الأجهزة وضراوتها ، والجهد الهائل الذى لابد أن يبذل من أجل تحطيمها أو التغلب عليها » .

وحتى أحذية الجنود التى قيل عنها الكثير فى حرب سنة ١٩٦٧ ، واهتمت بها حينئذ صحافة الغرب . . ظهر الحديث عنها مرة أخرى . فقد ظهر الجنود الإسرائيليون حفاة الأقدام إثر مفاجأتهم فى خنادق ودشم خط بارليف .

وقد حاول شارون أن تبقى إسرائيل تحت وهم حلم وردى كما عبرت مجلة تايم الأمريكية. ولكن سيكولوجية الهزيمة ظلت مسيطرة رغم تقدمه العسكرى . ذلك أن سيكولوجيه الهزيمة معيار حساس دقيق يعبر عن الحقيقة رغم كل ما قد تغلف

به من ألوان زاهية . وهو فى جوهره تفاعل تيارات متشابكة من الصعب التغلب عليها أو التخلص منها بالدعاية أو الإخفاء .

وكما قامت — فى مصر خصوصا — بعد هزيمة ١٩٦٧ اتهامات تطالب بالفصل بين الحرب والسياسة ، وتنادى بأن الحرب مهنة ، لا بد أن تستقر فى الأكفاء المحترفين وليس فى يد فئة من الساسة المتقفعين ، بدأ الاتجاه قويا فى إسرائيل للفصل بين الحرب والسياسة . وطالبت فئات عديدة من الشعب ألا يعمل قادة المؤسسة العسكرية بالسياسة وألا يعمل أهل السياسة بالحرب .

وبدأت أصابع الاتهام تشير إلى الأثرياء الذين لم يتحملوا عبء الحرب ولم يساهموا فى تضحياتها . . . وبدأ الحديث همسا ثم عاليا عن أموال شابيرو ، وأملاك ديان . . وأراضى شارون ، وغيرهم من الأثرياء .

وكتبت صحيفة دافار الإسرائيلية تطالب بأن يشترك الأغنياء الجـدد مع الشعب فى تحمل أعباء الحرب . وقالت إن الشعب الذى دفع ضرائب من أجل رفاهية هؤلاء الأغنياء سيطالب بأن يدفع ثانية وثانية ، وهو سيدفع راضيا إذا ما عرف أن أولئك الذين استحموا « بالشامبانيا » ، وركبوا السيارات الفاخرة فى شوارع البلد سيدفعون أيضا . وبدأ عراك جديد بين الطبقات لم يكن من الممـكن أن تعرفه إسرائيل علانية إلا فى ظل سيكولوجية الهزيمة .

الإعلام المهزوم

يعتبر الإعلام أيضا معياراً دقيقاً يعـكس حالة من اليأس أو الأمل والثقة . والإعلام المتشنج الذى يصاحب الهزيمة دائما ، مع ما به من مبالغه ومغالاة وتخبط فى البلاغات ، وتناقض فى البيانات ظهر بأبعاده ، كلها فى بلاغات إسرائيل ، حتى وصل إلى درجة جعلته مصدراً للسخرية ، تماما كما حدث للعرب أثناء هزيمة ١٩٦٧ .

وكان من المظاهر الإعلامية لسيكولوجية الهزيمة ، وضع القيود المشددة على الصحفيين ، وخاصة الأجانب منهم . حتى لا تتسرب أنباء الخسائر إلى الخارج ، وحتى لا يعرف الشعب الإسرائيلي حقيقة الأوضاع . وكان من الطبيعي لذلك أن تمنع إسرائيل الصحفيين من زيارة الجبهة إخفاء لخسائرها ، وأن تفرض الرقابة المشددة على الأخبار . وبعد ١٣ يوما من القتال اضطرت الرقابة العسكرية فى إسرائيل أن تمنع مراسل «اسوشيتدبرس» من أن يبرق من تل أبيب بأية أنباء عن القتلى والجرحى الإسرائيليين أو الخسائر الإسرائيلية .

الاتهامات

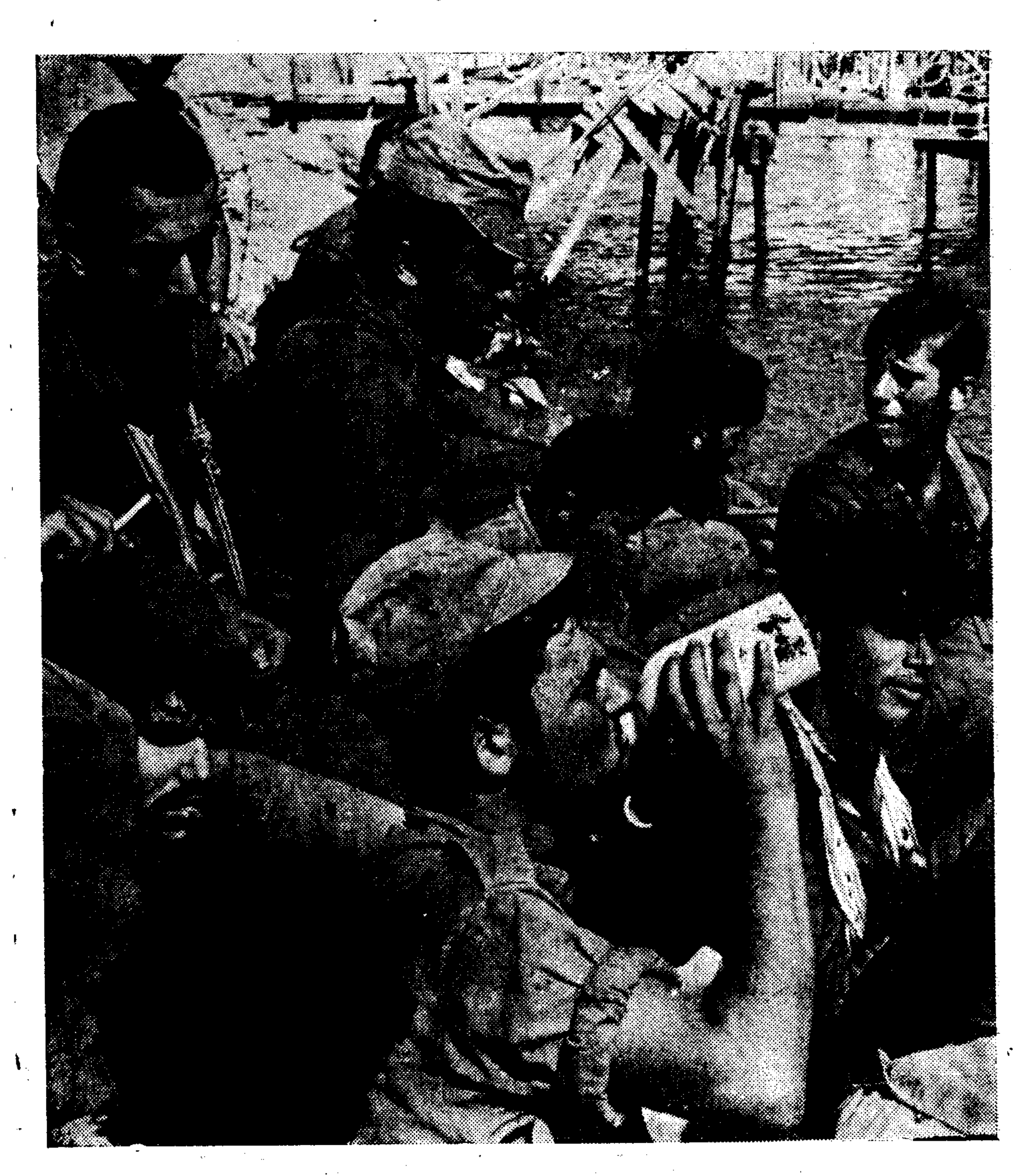
إن توجيه الاتهامات ومحاولة تبرير الهزيمة بأسباب سياسية ، وردها إلى عوامل خارجية ، من الظواهر التى تصاحب دائماً سيكولوجية الهزيمة .

وقد اتهمت إسرائيل قادتها ، واتهم القادة المستويات الدنيا ، واتهم الشعب القادة ، واتهم القادة العالم .

وفى حديث صحفى خاص أدلت به جولدا مائير لمحرر صحيفة التايمز فى ٩ ديسمبر ، يقول الصحفى :

إن مائير كررت مرات ومرات اتهاماتها لدول أوربا ، وأخذت تردد تعجبها متسائلة كيف يمكن تفسير هذا الموقف الذى اتخذته دول أوربا الغربيه . . وهى الدول التى تحكمها حكومات اشتراكية ، كيف يمكنهم أن يتخلوا عن إسرائيل وهى الدولة الديمقراطية التى تحمى مصالحهم فى المنطقة .

أخلاقيات الحرب



الجنود الإسرائيليون يأكلون ويشربون
عقب أسرهم فى سيناء

وبعد وقف إطلاق النار أرجع الجنرال هيرتزوج هزيمة إسرائيل إلى موقف العالم منها ، ومواقف دول أوروبا على وجه الخصوص وقالت وكالة الأنباء الفرنسية إن هيرتزوج ذهب إلى حد إتهام الدول الأوربية بالعداء للسامية . وقال المراسل الفرنسى لهذه الوكالة . . « سواء كان ذلك حقيقة أو خطأ ، إلا أن الرأى العام الإسرائيلى يميل إلى تصديقه . . حتى أن سائق تاكسى قال : « إن العداء للسامية فى أوروبا لم يعد شعور عند الشعوب فحسب بل إمتد إلى الحكومات أيضاً » .

وفى حديث مذاع قال إيجال آلون : « بينما هذه الحرب تستمر ظهر أصدقاء إسرائيل ، بينما راح غيرهم يتخلون عنها ، وهؤلاء هم الدول الغربية التى وضعت قيوداً على إرسال الأسلحة لإسرائيل » . ووصف آلون هذه القيود بأنها نفاق لا مبرر له ، ومساواة فى المعاملة بين المعتدى والمعتدى عليه . . !

ونشرت صحيفة « يديعوت أحرانوت » الإسرائيلية مقالا اتهمت فيه انجلترا صراحة بأنها قامت بمناورات مهينة لمساندة العرب وقالت : « إن الحكومة البريطانية مستعدة دائما أن تبيع أعز مبادئها من أجل الحصول على مكاسب مادية » .

وشن أبا أيبان هجوما عنيفا على قرار كل من فرنسا وانجلترا بحظر تصدير السلاح . وكان هجومه على سير أليك دوجلاس هيوم وزير الخارجية البريطانية بالذات قاسياً وعنيفاً . وقال إيبان فى حديثه ، إن السياسة التى انتهجتها انجلترا ببيع دبابات سنتوريوم إلى إسرائيل ، ثم رفضها أن تبيع لها قطع الغيار اللازمة ، يعكس قرارات لا تتفق مع الأخلاقيات السياسية ولا الأخلاقيات التجارية .

وأثناء القتال وبعده ، كرر قادة إسرائيل أن العالم كله قد تحول . . ضدهم ، وأنه لم يبق لهم من صديق سوى الولايات المتحدة .

رفض العمل العسكرى :

لقد بلغ عدم الثقه فى الحرب ذروته عندما رفضت فئة من الإسرائلين الاستجابة للاستدعاء للخدمة العسكرية ، وقررت عدم الانضمام للقوات المتحاربة . وهذه الفئة تعيش فى إسرائيل ،ولكنها تعتبر نفسها غير صهيونية بل تجاهر بأن سبب مشكلات إسرائيل هو أطماع حكامها ، والرغبة الصهيونية فى التوسع والسيطرة .

وقد أصدرت فى لندن جماعه اليهود العرب فى أوربا وأمريكا بيانا أكدوا فيه تضامنهم مع الإسرائليين الاشتراكيين ، الذين يرفضون حمل السلاح من أجل تحقيق المطامع الصهيونية ، ويعبرون عند تأيدهم لنضال الشعب الفلسطينى فى مواجهة الاحتلال الصهيونى . وأكد هذا البيان أنه لا يجوز تحويل القضية إلى بحث مسألة من الذى بدأ بالعدوان، فهذا أمر لم يعد ذو بال، إذ الثابت أن المسئولية الأساسية لاندلاع هذه الحرب تقع بلا شك على رؤوس قادة الدولة الصهيونية ، وأن الحرب الحالية تدور من أجل تحرير الأراضى التى تم احتلالها سنة ١٩٦٧ ، وليس من أجل تدمير إسرائيل ، كما يحب قادة إسرائيل أن يصوروها للعالم استدرارا للعطف والمال .

العالم المسيحى :

بدأ العالم المسيحى الغربى يتنبه بالنسبة للأبعاد الحقيقية للنوايا الإسرائيلية . وكانت خطوة ضرورية ، وليس العجيب أنها حدثت الآن ولكن الغريب إنها لم تبدأ قبل ذلك بوقت طويل .

فبينما جاء الإسلام يكرم المسيحية والمسيح ، نجد أن اليهودية لا تعترف بالسيد المسيح ، بل إن التلمود ، قد أتى بأحكام فيها ذلة وكره للمسيحية والمسيحيين ولغير اليهود إطلاقا . ومما جاء بالتلمود مثلا أنه على كل يهودى أن يلعن

المسيحيين وغيرهم كل يوم ثلاث مرات ، وأن حياة غير اليهودى ملك لليهودى ، ومن باب أولى أمواله ، وأن غير اليهودى لا يستحق الشفقة . بل ذهب التلمود إلى أن اغتصاب غير اليهوديات لا عقاب عليه لأنهن حيوانات ، وأن قتل غير اليهودى من الأفعال التى يكافىء عليها الله . . . !

ومع ذلك فقد نجح اليهود فى استدرار عطف العالم المسيحى وشفقته معتمدين على ما جاء بالمسيحية من التسامح من ناحية ، وعلى ما أصابهم من كوارث على يد مسيحى أوربا من ناحية أخرى . وكان من الطبيعى ألا يرغبوا فى أن تعرف المسيحية حقيقة مشاعرهم تجاهها ، وأن يحرصوا حرصا شديداً على ألا تنتشر تعاليم التلمود ، بما به من حث على كراهية المسيحيين وقتلهم واغتصاب نسائهم وأموالهم . فكانوا يمنعون طباعته ، ويشترون كل نسخة فى الأسواق . ولذلك فإن التلمود يعد من أندر الكتب الموجودة فى العالم على الإطلاق .

وهناك بوادر على أن صراع الصهيونية مع العرب قد لعب دورا هاما فى إيقاظ المسيحيين بالغرب لخطر الصهيونية العالمية . فقد بدأت كنائس مسيحية عديدة تعترض على أسلوب معاملة العرب فى الأراضى المحتلة ، وجاهرت بعضها بإدانة موقف إسرائيل من القدس ، وبدأ بعض رجال الدين المسيحى يكتبون ويمارضون ويتكلمون . . (١) .

ولعل من أبلغ الكتابات ــ وأشدها إيلاما ــ ما كتبه رهبان وراهبات عاشوا فلسطين حوالى عشرة سنوات وكتبوا ما عاصروه من فظائع فى معاملة العرب أطفالا ونساءً وشيوخا . فكتبت الأخت مارى تيريز مقالا باسم : «لكى تسود العدالة» ، وأصدر الأب جونيه كتاب : «أورشليم عاصمة الإنسانية» ، ثم اصدر كتابا باسم «أورشليم ودم الفقراء» ، وهو ينطق بالمآسى . وبالتدريج بدأت الشروخ تظهر فى العلاقات بين الصهيونية ومسيحى الغرب ، وبلغت ذروتها مع حرب أكتوبر .

(١) انظر فى ذلك شوقى عبد الناصر : برتوكولات حكماء صهيون وتعاليم التلمود وعبدالله التل : خطر اليهودية العالمية على المسيحية والاسلام.
ومحمد خليفة التونسى : الخطر اليهودى وبرتوكولات حكماء صهيون .

ولعل ذلك هو ما دفع أحد رجال الدين المسيحى إلى أن يقول . . . إن من أروع نتائج ٦ أكتوبر الذى أحدث يقظة فى نفوس العرب ، أنه كان أيضاً تنبيهاً للمسيحية من أخطار اليهودية العالمية عليها وعلى مقدساتها وعلى تعاليمها .

ولما لم يتفق رد فعل العالم المسيحى مع توقعات إسرائيل ،أخذت إسرائيل توجه الاتهامات للمسيحية . ونشرت صحيفة جيروزاليم بوست التى تصدر باللغة الإنجليزية فى القدس مقالا بعنوان :

« المسيحيه أثبتت أنها لا يمكن الاعتماد عليها وقت الشدة » .

وأمتنع قادة الكنائس المسيحية فى القدس من إصدار أية تصريحات تنفى هذه الاتهامات . بل على العكس قام المطران جورج ايلتون — مطران كنيسة القدس — بزيارة الجرحى العرب فى إحدى المستشفيات قرب تل أبيب . . وصرح بأن الوقت قد حان لإيجاد حلول عادلة فى مسائل حيوية : هى مشكلة اللاجئين ، والأعتراف بالوجود الفلسطينى ، والأراضى التى استولت عليها إسرائيل .

خاتمة :

إننا نعتقد أن أقصى وأمر ما يصحب الهزيمة هوالإحساس بها . وبتعبير آخر سيكولوجية الهزيمة التى يمكن أن تسيطر على مجتمع ما فتمتص قوته وتوهن من عزمه وتخيم عليه بغمائم من الحزن والقلق وفقدان الثقة .

وظهور سيكولوجية الهزيمة فى مجتمع يعد من أخطر المحن التى يمكن أن تصيبه . وهى أشد فتكا بالمجتمع من مجرد خسارة أرضه أو فقدان أبنائه . فالمجتمع إذاخسرأرضاً أو فقد عدداً من أبنائه ، وكان بمأمن من أن تسيطر عليه هذه الظاهرة النفسية القاتلة ، يظل قويا قادرا . . وبتعبير آخر يمكن القول بأنه لم يهزم .

والعرب عندما تخلصوا من سيكولوجية الهزيمة وأعراضها فى أعقاب حرب أكتوبر،لم يغيرهم أو يهز من ثقتهم مساحة الأرض التى خسروها فى غرب القناة، ومن ناحية أخرى فإن الحصول على هذه القطعة من الأرض لم يغير من الأوضاع الرئيسية والأساسية داخل إسرائيل ، ولم يساعدها على التخلص من سيكولوجية الهزيمة ، رغم ما سببته لها من أعراض سعادة مؤقته عارضة .

وسيكولوجية الهزيمة هذه خليط من الانفعالات والتصرفات ومشاعر الحبوط والقهر ، والتى تسود مجتمعا فتعطيه طابعا معينا يحس به من يعيش فيه ويدركه من يدرسه . وقد عاش العرب هذه الحالة النفسية سنوات وسنوات ، وكان من أهم نتائج سنة ١٩٧٣ ، القضاء على هذا المرض الذى كاد أن يصبح مزمناً لدى العرب، وظهوره الآن بأعراضه ومظاهره الحادة والمتعددة فى المجتمع الإسرائيلى .

ولعل من أبرز هذه الأعراض ، الصعوبات التي واجهتها جولدا مائير فى تشكيل حكومتها الجديدة إثر الانتخابات الأخيرة ، وبعد عدد من المحاولات الفاشلة ، أمكن لرئيسة الوزراء أن تشكل حكومة ما أن بدأت العمل حتى أصابها التفكك والوهن .

فقد بدأت إسرائيل مرحلة جديدة من الصراع السياسى الحاد ، على إثر إعلان تقرير لجنة التحقيق فى أوجه قصور الجيش الإسرائيلى خلال حرب أكتوبر . وقد أوصت اللجنة باستقالة العازار رئيس الأركان والياهو زيرا مدير المخابرات العسكرية، وعدد آخر من كبار الضباط . واستقال العازار فعلا وانتقدت الصحافة التقرير لأنه ألقى اللوم على العسكريين وحدهم دون السياسيين . . . وهكذا يستمر فعل سيكولوجية الهزيمة ، ويزداد تآكل المؤسسة العسكرية الإسرائيلية .

* * *

الفصل الثانى

أفريقيا

إن إسرائيل التى أرادت أن تأخذ غينيا وأن
تستعمر أوغندا . ثم فضلت أن تتوطن فلسطين
تشكل بالنسبة لشعوب إفريقيا نفس الخطر الذى
يهدد الشعوب العربية .

أحمد سيكوتورى

خلال ثمانية عشر شهراً من الدبلوماسية العربية قطعت ثمانية دول أفريقية علاقاتها بإسرائيل ، بالإضافة إلى غينيا التى كان رئيسها أحمد سيكوتورى قد قطع علاقاته بإسرائيل « تأييداً للعرب فى صراعهم ضد الصهونية والإمبريالية عقب بداية حرب ١٩٦٧ » .

وعشية اندلاع حرب ١٩٧٣ ،أعلن الرئيس موبوتو قطع العلاقات الوثيقة التى كانت تربط زائير بإسرائيل .

وقبل أن تتوقف الحرب لم يكن لإسرائيل علاقات دبلوماسية سوى مع أربع دول

أعضاء فى منظمة الوحدة الأفريقية هى : ليسوتو[1] ، سوازيلاند ، مالاوى[2] ، موريشيوس . وكما هو معلوم فهذه الدول الأربعة لها علاقات تبعية اقتصادية مع جنوب أفريقيا المنصرية[3] . بل إن ليسوتو وسوازيلاند لاتتمتعان باستقلال حقيق لوقوعهما ضمن أراضى جمهورية جنوب أفريقيا .

أى أن حرب أكتوبر حققت فى أيام ما كانت تسعى إليه الدبلوماسية العربية فى سنوات ، وحطمت ماعملت إسرائيل على بنائه فى أفريقيا منذ نشأتها .

وتعد هذه الخريطة الجديدة لإفريقيا أحد النتائج الهامة والأساسية للحرب ، والتى نعتقد أنه ما كان من الممكن أن يصل العرب إليها بهذه الصورة الجماعية بدون الانتصارات التى تحققت والبطولات التى ظهرت فى الساعات الأولى من معارك سيناء والجولان .

وقد كانت «حركة أفريقيا الجديدة» هذه من أقسى اللطمات التى حلت مع الحرب بإسرائيل ، إلى حد جعل موشى ديان يقول :

« إننا لابد أن نفيق من الخيال الذى وضعتنا فيه حرب يونيو سنة ١٩٦٧ ، لنواجه الواقع الذى فرضته حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، ونعيش معه إن العالم قد تغير من حولنا ، فهناك سلاح البترول الذى استعمل ، وهناك قوة العرب التى ظهرت ، وهناك موقف جديد اتخذته أفريقيا لا بد أن يحسب حسابه » .

---

(١) كانت باسوتولاند.

(٢) كانت نياسلاند.

(٣) أصبح يطلق عليها إسرائيل أفريقيا . ويلاحظ أنه عندما بدأ وزير خارجيتها فى إلقاء كلمته فى جلسة الجمعية العمومية فى ٥ أكتوبر ١٩٧٣ ، أنسحب مائة عضو من أعضاء الجمعية العامة احتجاجا على سياسة التفرقة العنصرية التى تصر حكومة الأقلية البيضاء بها على انتهاجها ، ضد أغلبية ضخمة من المواطنين الأفريقيين . ولم تكن جنوب أفريقيا ولاروديسيا ليسيا أبداً أعضاء فى منظمة الدول الأفريقية .

وقصة إسرائيل مع أفريقيا جديرة بالاهتمام . ونهايتها تؤكد ببساطة المعادلة المعروفة : «إنه من الممكن أن تخدع إسرائيل كل أفريقيا جزءاً من الوقت ... أو أن يخدع جزءٌ من أفريقيا كل الوقت، ولكنه ليس من الممكن أن تخدع إسرائيل كل أفريقيا كل الوقت » . . وهذه بعض حقائق القصة .

التغلغل الإسرائيلي في أفريقيا :

منذ نشأة إسرائيل وهي تعول على أفريقيا وتقوى نفوذها بها تحقيقاً لأمور ثلاث :

الأول : إيجاد أسواق دولية لها .

الثاني : تجميع أصوات لها في الأمم المتحدة .

الثالث : محاصرة العرب الذين يشتركون في حدودهم مع عدد من هذه الدول .

وقد بدت أهمية أفريقيا بالنسبة لإسرائيل واضحة لساسة إسرائيل وقادتها منذ البداية .

ففي المؤتمر الصهيوني الخامس والعشرين قال بن جوريون :

«إن المستقبل الاقتصادي لإسرائيل، ووضعها الدولي يتوقفان على الروابط التي نجتهد في إقامتها مع أفريقيا وآسيا » .

وأكد أشكول رئيس وزراء إسرائيل السابق : « أن مستقبل الأجيال المقبلة في إسرائيل مرتبط إلى حد كبير بنشاطنا في القارة الأفريقية » .

ومن أجل التغلغل في أفريقيا حاولت إسرائيل أن تبيع نفسها بكل السبل للدول الأفريقية ، وبصورة تسهل لها مهمتها . وأرادت من أجل ذلك أن تصور نفسها لهذه الدول الناهضة التي تهدف إلى تحقيق النمو على أنها نموذج يمكن أن يحتذى ، ومثال يمكن أن تستمد منه هذه الدول الخبرة والخبراء .

وفى خطاب أمام البرلمان عن سياسة إسرائيل فى أفريقيا قالت جولدا مائير :

« إننا دولة ديمقراطية صغيرة ليس لها مطامع توسعية، وتتمتع بالخصال التى تلفت نظر الأفارقة ، فنحن مثلهم دولة جديدة ، واجهت ، ومازال تواجه ، مشاكل متشابهة ، وقد اكتسبت بعض الخبرات الفريدة فى مناهج التنمية وفى أساليب المعونة التى تفيد هذه الدول » .

وكانت أفريقيا فعلا رئة جديدة لإسرائيل تحاول أن تتنفس بها للتغلب على الحصار العربى الذى يحيط بها. أو كما قال بن جوريون أمام الكنيست سنة ١٩٦٠ : « إن عطف الأمم الغربية والبعيدة وصداقتها هما العاملان اللذان يمكنان لنا مع الزمن من أن نخترق سور المقاطعة الذى يحيط بنا » .

واستغلت إسرائيل علاقاتها فى أفريقيا اقتصادياً ودولياً . وعندما أرادت الانضمام للسوق الأوربية المشتركة دافع أنصارها عن وجهة نظرها ، وقالوا إن موضوع انضمام إسرائيل للسوق الأوربية المشتركة له أهمية قصوى بالنسبة لمصالحها ، ليس فقط لأنه يتعلق بجانب التبادل التجارى بينها وبين دول السوق ، بل لأنه يتصل بموضوع توليه إسرائيل اهتماماً متزايداً لأنه مرتبط بمستقبلها الاقتصادى ، وهو موضوع علاقاتها مع العالم المتخلف فى أفريقيا وآسيا .

وكما اهتمت إسرائيل بهذا الجانب الاقتصادى واستخدمته دولياً ، فإنها أيضاً اهتمت بالجانب السياسى واستخدمته دولياً . فعمدت إلى تجنيد أصوات دول الكتلة الإفريقية لاستخدامها ضد العرب فى الأمم المتحدة والمنظمات الدولية والمؤتمرات الدولية .

وفى البداية حققت إسرائيل انتصارات زعزعتها الدبلوماسية العربية فيما بعد ، ثم قضت عليها حرب أكتوبر . ففى سنة ١٩٦٣ مثلا ، عندما عقد المؤتمر الأول لرؤساء الدول

الأفريقية فى أديس أبابا،لم يتخذ هذا المؤتمر أى قرار بإدانة إسرائيل . كما أن مؤتمر عدم الانحياز الذى انعقد سنة ١٩٦١ لم يتخذ قراراً واضحاً بتأييد العرب .

واعتبرت إسرائيل هذا انتصاراً لها.وكتبت مجلة الإكونوميست الإسرائيلية فى يوليو ١٩٦٣ غداة المؤتمر تقول : « إننا لانغالى إذا قلنا بأن ضغط الرأى العام الأفريقى سوف يلعب دوراً حاسماً فى أية تسوية فى الشرق الأوسط . وليس معنى هذا أن مثل هذه التسوية يمكن أن تتحقق فى المستقبل القريب ، ولكن معنى هذا أن أى سياسى عربى يرغب فى أن يلعب دوراً فعالا فى أفريقيا ، عليه أن يحسب حساباً يزداد أهمية مع الزمن ، نظراً للمتاعب التى سيتعرض لها مع الأفارقة ، إذا ما أثار فكرة الحرب ضد إسرائيل » .وأضافت المجلة:« ولقد أصبح عدد كبير من الدول الصديقة لإسرائيل من البلاد المسلمة ، مثل السنغال وسيراليون ، وتشاد . أماتلك التى تشتمل على نسبة كبيرة مهمة من المسلمين — مثل تنجانيقاونيجيريا — فقد أصبحت توالى إسرائيل » . وتضيف هذه المجلة شبه الرسمية فى إسرائيل : « لقد أحدثنا ثغرة كبرى جديدة فى الجبهة الإسلامية المعادية لإسرائيل ، تلك الجبهة التى تعب العرب فى محاولة خلقها منذ نشوء الدولة اليهودية سنة ١٩٤٨ » .

وكانت إسرائيل قبل ذلك قد نجحت أيضاً فى الأمم المتحدة فى أن تجعل ٨ دول من أفريقيا وأمريكا اللاتينية يقتنعون بوجهة نظرها بصدد مشروع بقرار ينادى بالمفاوضة المباشرة بين العرب وإسرائيل .

وإذا كان هذا القرار لم ينجح، حيث رفض بأغلبية ٤٦ صوتاً ضد ٣٤، وامتناع ٢٠ عن التصويب ، إلا أنه كان يدل إذ ذاك على بعض النجاح الذى حصلت عليه إسرائيل فى الميدان الدولى ، وفى تجنيد أصوات لها فى أفريقيا .

ولا يعنى هذا أنه لم تكن هنا اتجاهات أفريقية تميل إلى تأييد العرب...منها مثلا أن إسرائيل كانت قد منعت من حضور مؤتمر باندونج فى أبريل ١٩٥٥ .

واتخذ هذا المؤتمر لأول مرة قراراً يدين ويفضح الدور الذى تقوم به إسرائيل فى خدمة أغراض السياسة الاستعمارية .

فقد جاء فى قرارات المؤتمر : « ونظراً للتوتر السائد فى الشرق الأدنى ، هذا التوتر الذى يحدثه الوضع فى فلسطين ، ونظراً للخطر الذى يشكله هذا التوتر ضد السلام العالمى ، فإن مؤتمر دول آسيا وأفريقيا ، يعلن تأييده لحقوق الشعب العربى فى فلسطين ويطالب بتطبيق قرارات الأمم المتحدة وتحقيق حل سلمى للقضية الفلسطينية .

وخلال ديسمبر ١٩٥٧ ـ يناير ١٩٥٨، عقد فى القاهرة أول مؤتمر شعبى أسيوى أفريقى . وأعلن هذا المؤتمر لأول مرة أن دولة إسرائيل : « قاعدة استعمارية تهدد تقدم الشرق الأوسط وسلامته » . وأدان المؤتمر سياسة إسرائيل العدوانية التى تشكل خطراً على السلم العالمى ، وأكد حقوق العرب فى فلسطين ، وأعلن عطفه على اللاجئين الفلسطينيين ، وتأييده جميع حقوقهم وعودتهم إلى وطنهم » .

وانعقد فى أبريل ١٩٥٨ مؤتمر دول أفريقيا فى أكرا . وهذا المؤتمر اتخذ قراراً بسيطاً عبر فيه عن: « قلقه العميق حول قضية فلسطين التى تشكل عاملا يهدد الأمن والسلام العالميين » ، ويطالب بحل عادل لهذه القضية .

وفى أبريل ١٩٦٠ عندما اجتمعت منظمة التضامن الأفريقى الأسيوى فى كوناكرى ، اتخذت قراراً واضحاً فى هذا الموضوع لم يشذ عنه إلا مندوب ليبريا الذى اعتذر بقوله : « إذا اتخذت معكم هذا القرار فإننى سأطرد من حكومتى » .

وفى مارس ١٩٦١ اجتمعت منظمة الشعوب الأفريقية فى القاهرة وأعلنت وجهة نظرها حينئذ فى قرار واضح حول الاستعمار الجديد ومداه ، وعرفت بحقيقته وأدواره، وأعلنت أن إسرائيل دعامة للاستعمار الجديد ، وتشكل تهديداً خطيراً على البلاد الأفريقية التى نالت استقلالها حديثاً أو التى على وشك أن تنال الاستقلال ».

ثم انعقد مؤتمر الدار البيضاء . وهنا استطاعت الدول العربية أن تستخلص قراراً واضحاً جاء فيه : « يلاحظ المؤتمر باستنكار أن إسرائيل دأبت دائماً على مناصرة الاستعمار كلما جرى بحث للمسائل الهامة المتعلقة بأفريقيا ، ولاسيما مسائل الجزائر والكونغو ، والتجارب الذرية فى أفريقيا . ولذلك يندد المؤتمر بإسرائيل بوصفها أداة لخدمة الاستعمار بنوعيه القديم والجديد ، ليس فقط فى الشرق الأوسط بل وفى أفريقيا كلها . ويدعو المؤتمر كافة الدول فى أفريقيا وآسيا إلى الوقوف أمام هذه السياسة الجديدة التى يستخدمها الاستعمار فى خلق قواعد له » .

وقد كان لهذا القرار أهميته ، لأنه لأول مرة يوقع ممثلون عن ثلاث دول أفريقية (غينيا ــ غانا ــ مالى) ، لها تبادل دبلوماسى مع إسرائيل قراراً يندد بها وبسياستها .

كذلك اتخذ مؤتمر دول عدم الانحياز الذى انعقد فى نهاية سنة ١٩٦٤، قراراً صريحاً بإدانة إسرائيل .

وكتبت إذ ذاك الصحافة الإسرائيلية تأسف على هذا التغير لدى دول آسيا وإفريقيا.وفى أكتوبر سنة ١٩٦٤ ، كتبت مجلة إسرائيل إيكونوميست فى مقال عن سياسة الدول الأفريقية والأسيوية وأثرها على إسرائيل تقول :« إننا نجد إلى جانب العرب مجموعة من الدول تتخذ من إسرائيل فى الميدان السياسى موقفاً بارداً إن لم نقل عدائياً ، وهى : أندونيسيا ــ أفغانستان ــ الهند ــ باكستان ــ صوماليا ــ وغينيا ــ والدول الاشتراكية ــ والصين الشعبية ــ وشمال فيتنام ــ وشمال كوريا» .

وأظهرت المجلة شبه الرسمية امتعاضاً كبيراً بالنسبة لتغير موقف الهند وغينيا بالنسبة لإسرائيل .

وبدأت إسرائيل تشعر فعلا بالخطر وقامت جولدا مائير فى أوائل نوفمبر ١٩٦٤ برحلة عبر أفريقيا واوجهت .فى هذه الرحلة متاعب وخاصة فى نيجيريا، واضطرت

الصحافة الاستعمارية هناك أن تجند نفسها للدفاع عن إسرائيل ، وفضحت جولدا مائير نفسها خلال هذه الرحلة فى ندوة صحفية عندما تحدثت عن الكونغو ودافعت عن وجهة نظر الاستعمار فى الكونغو .

والخلاصة أن موقف أفريقيا خلال الفترة التى سبقت حرب ١٩٦٧ ، لم يكن بالنسبة لغالبية البلاد الأفريقية موقفاً واضحاً أو مستمراً . بل وأكثر من ذلك فإنه فى الأحوال التى اتخذت فيها الدول ـ أو المنظمات ـ الأفريقية قرارات ضد إسرائيل ، مازالت العلاقات الرسمية مستمرة ، بل إن العلاقات الاقتصادية كانت آخذة فى النمو .

وقد كتبت مجلة الميدل إيست جرنال : « أنه رغم اتخاذ الدول الأفريقية قرارات وتصريحات غير ودية نحو إسرائيل ، فإن تلك الدول ماتزال تعلق أهمية على الاحتفاظ بالروابط المثمرة المفيدة فنياً واقتصاديا مع إسرائيل ، وكأنها ترى فى تلك التصريحات مجرد مواقف شكلية لا تمس الواقع بأى حال ، وفى نفس الوقت فإن إسرائيل تشعر بأن وجود هذه الروابط يساعدها على مواصلة تحقيق مصلحتها القومية » .

وبعد حرب ١٩٦٧ ، بدأت مرحلة أخرى من مراحل الدبلوماسية العربية الإفريقية ، التى عبرت عن نفسها ليس فقط فى قرارات وإدانات ، ولكن أيضا فى إجراءات أكثر إيجابيـة . فقد قطع عدد من الدول الإفريقية علاقاتها مع إسرائيل كما أسلفنا .

ومن الأهمية هنا بمكان دراسة الأساليب التى كانت تتبعها إسرائيل فى تغلغلها الأفريقى خصوصاً وأنها كانت قد نجحت ـ لفترة ما ـ فى توطيد روابط متينة مع كل من حكومة جنوب أفريقيا العنصرية ، وبعض الدول الأفريقيـة حديثـة الاستقلال ، فى نفس الوقت .

الهستدروت ودوره فى التغلغل الأفريقى :

كان من الطبيعي أن تستعمل إسرائيـل فى توطيد علاقاتها مع الدول الأفريقية وسائل «الاستعمار المقنع» . وكانت وسيلتها الأولى هو « الهستدروت » الذى كان يقف دائماً مستعداً للتسلل إلى كل دولة أفريقية وآسيوية بمجرد إعلان استقلالها ، بحجة تقديم المعونات والخبرة . ومنذ سنة ١٩٥٥ (وهى السنة التى لم يـكن بها فى أفريقيا سوى خمسة دول مستقلة) ،إلى سنة ١٩٦٨ (وهى السنة التى أصبحت فيها ٤٠ دولة مستقلة) ، كانت سياسة الهستدروت فى أفريقيا تقوم على الأسس الآتية[١] :

(١) إرسال وفود لعرض المساعدات الفنية على الدول الفتية ، وخاصـــة عشية استقلالها .

(٢) تقديم قروض ومساعدات اقتصادية ، ومنح دراسية لهذه الدول بضمانة من البنوك الأمريكية والأوربية (البريطانية والفرنسية والبلجيكية والألمانية) .

(٣) الاستعانة بخبراء أوربيين وأمريكيين فى تنفيذ مشروعات خاصة فى القارة الأفريقية .

(٤) إنشاء المعاهد لتدريب كوادر فنية ، مثل معهد للتخصص الزراعى ، ومهمته إرسال خبراء زراعيين إلى آسيا وإفريقيا ، ويدرس فيه طلبة من أفريقيا وآسيا لمدة خمس سنوات على حساب إسرائيل ، ومثل : المعهد الأفرو ـ آسيوى للدراسات النقابية فى إسرائيل فى ١٩٦٠ . ويعمل هذا المعهد بنفس الطرق التى يعمل بها معهد الخدمة النقابية الحرة فى المـكسيك ، والذى يعتبر أداة من أدوات

---

(١) عبد المنعم الغزالى : الهستدروت ، لافتة نقابية لمؤسسة رأسمالية،(القاهرة : دار الـكتاب العربى) ، ص ١٠١ .

السياسة الأمريكية في أمريكا اللاتينية ، والتي تعكس أهداف سياسة الاستعمار الجديد في المنظمات النقابية .

٥ — وكان الهستدروت يقوم لتنفيذ هذه السياسة كذلك بإصدار حوالى ٤٠ صحيفة ومجلة باللغات المحلية الأفريقية ، ويوجه إذاعة خاصة لأفريقيا باسمه .

وكانت المعونات المالية التي يتلقاها « الهستدروت » وحده ليوجهها في خدمة أهداف الإستعمار الجديد تزيد على ٤٠٠ مليون دولار سنوياً . والأمثلة عديدة على تسلل « الهستدروت » كأداة من أدوات الإستعمار الجديد في البلدان النامية في أفريقيا ونعرض نماذج محدودة منها .

في عام ١٩٥٧ ، بعد أن انتهت احتفالات غانا باستقلالها دعى الهستدروت مجموعة من العمال النقابيين لزيارة إسرائيل ، وقدم لهم كل ماطلبوه من مساعدات ، وعقد مع غانا اتفاقية اقتصادية شملت مشروع السنوات الخمس ، وانشاء مطار ، ومجموعة من الطرق الرئيسية ، وميناء للصيد ، . وأرسل لغانا ٣٠٠ خبيراً إسرائيليا ، علاوة على سيارة مجهزة للدعاية وآلات كاتبة وماكينات طباعة . وحينما انكشفت طبيعة المهمة الاستعمارية للخبراء الإسرائيليين لم يجدد لهم تصريح العمل بعد عام ١٩٦١ .

وفي نيجيريا قدم الهستدروت قرضاً يبلغ ٣٫٧٥٠٫٠٠٠ جنيه استرليني ، وأقام شركة مشتركة (نيجيرية ـ إسرائيلية) ، لاستغلال موارد المياه اشتركت فيها إسرائيل بنسبة ٤٩ ٪ ، كما شاركت في شركة لأعمال البناء بنسبة ٤٠ ٪ ، وتأسست في لاجوس شركة للاستيراد والتصدير تقوم بتوزيع أسمدة وأحذية وفواكه إسرائيلية .

وفي ليبريا،كان « الهستدروت » خلف كل العلاقات التجارية التي نشأت مع إسرائيل ، وكادت أن تكون إسرائيل محتكرة لتجارة الماس في ليبريا ـ كما ساهم الهستدروت في إقامة شركة بناء بها، إلى جانب مشروعات أخرى عديدة ساهمت

فيها إسرائيل عن طريق شركة « ماير » وبنك الاستيراد والتصدير الإسرائيلي تقدر بحوالى عشرة ملايين دولار .

وفى ساحل العاج ، قدمت إسرائيل عن طريق الهستدروت قرضاً قدره ٥ر١ مليون دولار لبناء فندق عالمى بلغت تكاليفه ٦ مليون دولار ، كما كان ساحل العاج يستورد من إسرائيل بما قيمته ٧ر٢ مليون دولار إطارات ومواد غذائيـة وسلعاً أخرى ومعظم هذه التجارة تتم مع الهستدروت .

وكانت كل من داهومى وغينيا تستورد بضائع من إسرائيل بحوالى ٥ر٤٧ مليون ليرة . وكانت العلاقات الاقتصادية وثيقة بين إسرائيل وكل من تنجانيقا وأثيوبيا بفضل الدور الرئيسى للهستدروث فى تجارة هذه البلدان . وبجانب كل هذا فقد كان الهستدروت يقوم بتقديم منح دراسية لهذه البلدان ، وكان يرسل إليها الخبراء والأساتذة والمدرسين والمهندسين والخبراء العسكريين .

التبادل التجارى ودوره فى التغلغل :

أقامت إسرائيل علاقات تبادل تجارى قوية ووثيقة مع أغلب دول القارة الأفريقية. وحرصت على أن تزداد هذه العلاقة قوة مع الأيام. وقد نجحت فى ذلك فعلا .

كما يبين الجدول (٣) والجدول (٤) التبادل التجارى بين إسرائيل والدول الأفريقية. وتتضح كذلك العلاقات التجارية الوثيقة بين إسرائيل وجنوب أفريقيا.

دور الخبراء والمدربين :

وكان الأسلوب الآخر الذى لجأت إليه إسرائيل هو دور الخبراء والمدربين ، وإنشاء تنظيمات أفريقية شبيهة بالتنظيمات الموجودة فى إسرائيل ، خصوصاً فى قطاعى الشباب والنساء . واهتمت إسرائيل اهتماما خاصاً بالتدريب العسكرى ، وتدريب

الجدول (٣)

الميزان التجارى لإسرائيل مع دول القارة الأفريقية

فى الفترة من ١٩٦٢ إلى ١٩٦٩

السنة	١٩٦٢	١٩٦٣	١٩٦٤	١٩٦٥	١٩٦٦	١٩٦٧	١٩٦٨	١٩٦٩
الصادرات	١٠,٧٣	١١,٥٦	١٢,٧٤	٢١,٦٢	١٩,٥٥	٢٤,٤٤	٢٨,١٣	٢٤,٢٧
الواردات	٩,٩٣	٢٢,٧٢	٢٧,٤٤	٢٧,٢٩	٢٦,٧٨	٢٧,٠٠	٣٠,٩٦	٣١,٢١

مصدر المعلومات : الكتاب السنوى لإحصاء التجارة الخارجية للأمم المتحدة ١٩٦٩ .

الجدول رقم (٤)

التبادل التجارى بين إسرائيل والدول الأفريقية

عام ١٩٦٩

القيمة بالمليون دولار

البلد / التبادل التجارى	الـكونغو	أثيوبيا	جابون	غانا	ساحل العاج	كينيا	نيجيريا	جنوب أفريقيا	تنزانيا	أوغندا
الصادرات	٠,٠٢	٤,٢٩	٠,٠٥	١,٩١	٠,٨١	٢,٩٥	٢,٥٧	٨,١٨	١,٥٥	٣,٣٠
الواردات	٢,٢٤	١,٧	٤,٤٠	١,٩٤	٢,١٦	٠,٧٩	٠,٠٣	٥,٢٤	٠,١٩	١,٨٣
الميزان التجارى	— ٢,٢٢	+ ٢,٥٩	— ٤,٣٥	— ٠,٠٣	— ١,٣٥	+ ٢,١٦	+ ٢,٥٤	+ ٢,٩٤	+ ١,٢٦	+ ١,٤٧

الشرطة. فكانت تقوم بتدريب الجيش الذى لم يكن يزيد تعداده عن كتيبتين، وسلاح الطيران الأوغندى الذى كان عبارة عن بضع طائرات إسرائيلية جميع طياريها من الضباط الإسرائيليين. كما أن قوات حدود أوغندا كان يشرف على تدريبها، وتنظيمها خبراء إسرائيليين، وكان لإسرائيل داخل حكومة أوغندا أعوان يحتلون أكبر المناصب، لدرجة أن أحد كبار العسكريين الأفريقيين فى جيش أوغندا صرح فى هذه الفترة بأن رئيس الوزراء « ميلتون أوبوتى »، كان يشعر بخطورة النفوذ الإسرائيلى فى بلاده، وأن تغلغل نفوذهم بلغ إلى حد أن رئيس الوزراء نفسه كان لا يستطيع أن يتحدث مع أحد تليفونياً فى أمر هام لأن تليفونه كان مراقباً.

وكانت هذه الحقائق وغيرها، مثل تدعيم جيش الاستعمار فى الكونغو بالخبراء، تعبيرات واضحة عن دور إسرائيل الإستعمارى فى القارة الإفريقية. فهى كانت تقوم فعلا بتدريب الجنود والضباط. ولكنها كانت تفعل ذلك أساساً من أجل خدمة أغراضها وليس تضامناً مع هذه الشعوب أو مشاركة لها. وهى الحقيقة التى بزغت تدريجياً وكان لها أثرها فى الصحوة الأفريقية.

وخلال تلك الفترة تلقى عدد من زعماء أفريقيا تدريبهم العسكرى فى إسرائيل، أو على يد خبراء منها. وكان فى مقدمة هؤلاء عيدى أمين، وموبوتو. وهذا لم يمنع عيدى أمين من أن يرسل قواته لتحارب مع جيوش مصر، وتطوع ثلاثة ملايين أوغندى للقتال مع العرب. ولم يمنع موبوتو من قطع علاقات بلاده مع إسرائيل عشية الحرب، وزيارة القاهرة والإعراب عن إعجابه بمعرض الغنائم التى حصلت عليها قوات مصر من جيش إسرائيل، ثم العودة للقاهرة ليشارك أنور السادات فى الحفل التاريخى الذى أقيم لتكريم أبطال حرب أكتوبر بمجلس الشعب.

التضامن الأفريقى فى عزل اسرائيل :

عندما قطعت زائيرى علاقاتها بإسرائيل كتبت الصحف العالمية تؤكد أن : « أبا إيبان الذى هزته هذه الواقعة وهو فى نيويورك ، يتحرك فى عصبية وحماس وباستمرار بين الوفود الأفريقية فى الأمم المتحدة ليمنع أى مزيد من عمليات قطع العلاقات . وأن « الرقابة » التى كانت إسرائيل قد فرضتها على زائيرى انصبت على دول أخرى هى : كينيا ونيجيريا وغينيا وساحل العاج والسنغال » .

ولم تكتف أغلب الدول الإفريقية بمجرد قطع العلاقات ، بل أخذت دوراً أكثر إيجابية وأكثر شمولا . نذكر منها — على سبيل المثال — أن تشاد قررت توزيع اللحوم بالبطاقات لتوفرها لمصر . وجاء فى رسالة من الرئيس تومبلباى إلى الرئيس أنور السادات أن حكومة تشاد التى تؤيد مصر حكومة وشعباً قد قررت مساندة مصر فى حدود إمكانات وقدرات تشاد ، التى تعتبر ثروتها الحيوانية أهم ما تملك .

ويوم نشوب القتال أرسل عيدى أمين إلى الرئيس أنور السادات رسالة يطلب فيها أن ينضم جميع الضباط الأوغنديين الذين يلقون تدريباً عسكريا فى مصر إلى القوات المسلحة لمقاتلة إسرائيل . كما قام الرئيس الأوغندى بتحرك سياسى فى الدول العربية شملت مصر والسعودية والعراق وعمان ودمشق ، حيث زار الجرحى السوريين لمواساتهم ، « والجرحى الإسرائيليين لنصحهم »، على حد تعبير صحيفة التايمز اللندنية .

وأمر هيلاسلاسى بإغـــلاق المدرسة الإسرائيلية فى أديس أبابا . وكانت إسرائيل تأمل فى استمرارها مفتوحة رغم قرار قطع العلاقات ، نظراً للدور الثقافى والإعلامى المهم الذى كانت تقوم به إسرائيل من خلال هذه المدرسة .

واستمرت بعض الدول فى إصدار قرارات التأييد للعرب وللموقف العربى . فمن لاجوس أرسل الجنرال يعقوب جوون فى رسالة بعث بهـا إلى كل من مصر وسوريا يقول ، إن بلاده قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل بسبب السياسة التوسعية التى تمارسها هذه الدولة فى أفريقيا وخارجها . وأشار جوون فى رسالته إلى أن إسرائيل مازالت مستمرة ليس فقط فى تحديها السافر للآراء الأفريقية والعالمية ، ولـكن أيضاً فى سياستها العدوانية التوسعية .

وفى نوا كشوت أكد مختار ولد داده ضرورة تدخل أكثر حسما من جانب قوات السلام لإرغام إسرائيل على إيقاف أطماعها ، كما أكد أنه لا يمكن أن يقوم سلام دائم فى المنطقة طالما أن الشعب الفلسطينى لم يسترد حقوقه ، وطالمـا لم ترد أراضى البلدان العربية الأخرى التى تحتلها القوات الإسرائيلية .

مزيد من التضامن :

كان لهذه السياسة الأفريقية الجديدة انعـكاسات أخرى ، وعبر التضـامن الأفريقى عن نفسه فى مجالات متباينة وعلى مستويات مختلفة .

فعلى الصعيد السياسى فى الأمم المتحدة نجحت الدول الأفريقية والعربية فى أن تتقدم ٦٠ دولة عضو فى الأمم المتحدة ، إلى الجمعية العامة بمشروع قرار يقضى بانسحاب القوات البرتغالية فوراً من أراضى غينيا بيساو والاعتراف باستقلالها[1] . وقطع البترول العربى عن الدول التى تمارس سياسة عنصرية أفريقية أو التى تتخذ موقفاً عدائياً ضد تحرير دول القارة .

وفى المجال الاقتصادى تمت اتفاقيات اقتصادية ثنائية عديدة بين عدد من الدول

---

(١) كانت غينيا بيساو قد أعلنت استقلالها فى ٢٦ سبتمبر ١٩٧٣ من داخل الأراضى التى حررتها . واعترفت بها ٤٦ دولة ، منها ٣١ دولة أفريقية .

العربية وعدد من الدول الأفريقية . كما وافق وزراء المالية والاقتصاد العرب على إنشاء مصرف عربى للتنمية الاقتصادية والاجتماعية فى أفريقيا ، على أن يكون المصرف مؤسسة دولية مستقلة هدفها الإسهام فى تمويل التنمية الاقتصادية فى الدول الأفريقية ، وتشجيع رؤوس الأموال العربية ، وتقديم المعونة الفنية للتنمية فى أفريقيا برأسمال قدره ٢٠٦ مليون دولار قابلة للزيادة .

وقد ناقش الرئيس السادات مع عدد من ملوك ورؤساء الدول العربية إقتراحا بإنشاء صندوق معونة عربى ، لا يقل رأس ماله عن ٤٠٠٠ مليون دولار ، لتقديم المساعدات الخاصة بالتنمية للبلاد العربية والأفريقية والأسيوية ، على نمط البنك الدولى للتعمير . وفى المجال العلمى والثقافى اجتمعت الجمعية الأفريقية للعلوم السياسية ووافقت على دستورها الذى يستهدف « تشجيع البحث العلمى ومعالجة المشكلات الأفريقية وخدمة القضايا العامة » .

ومما لاشك فيه أن الدول الأفريقية والعربية قد استمدت قوة ودفعة من هذا التقارب الذى جاءت به حرب أكتوبر ، وبدأت تشعر بنتائج التضامن بينها فى المجال الدولى .

ويبدو أن « رقابة » إيبان لم تكن فعالة أو مجدية تماماً . فقد بلغ عدد الدول التى قطعت علاقاتها مع إسرائيل ما بين ٦ أكتوبر ، ٢٩ نوفمبر ٢٠ دولة ، هى رواندا بقرار رئيسها ماجور هابيار نيمانا فى ١٩٧٣/١٠/٨ ، وداهومى برئاسة جنرال ماثيو كيريكو فى ١٩٧٣/١٠/٩ ، وفولتا العليا برئاسة جنرال ستمولى لاميزانا فى ١٩٧٣/١٠/١٠ ، ثم الكاميرون برئاسة أحمدو أهيدجو فى ١٩٧٣/١٠/١٣ ، وغنيا الاستوائية برئاسة فرانسسكو ماثياس بجويما فى ١٩٧٣/١٠/١٥ ، ثم تانزانيا برئاسة جوليوس نيريرى فى ١٨ / ١٠ / ١٩٧٣ ، ومالاجاش برئاسة جنرال روما تانتسو فى ١٩٧٣/١٠/٢٠ ، وأفريقيا الوسطى برئاسة جان بيدل بوكاسا فى ٧٣/١٠/٢١ . ثم جاء فى ٧٣/١٠/٢٣ قرار إمبراطور إثيوبيا الذى أثار إعجاب

موقف الدول الأفريقية
من إسرائيل إثر حرب أكتوبر



العالم العربى ، وتعجب العالم الأوربى ، نظراً لما كان بين إثيوبيا وإسرائيل من علاقات وثيقة ، ونظراً للأهمية السياسية التى تحتلها كل من إثيوبيا وإمبراطورها فى أفريقيا .

وكان هيلاسلاسى فى ٧ أكتوبر قد وجه نداء إلى إسرائيل، طالبها فيه بسحب قواتها من الأراضى العربية المحتلة ، «من أجل وضع حد للمعارك التى تدور حالياً». وأشار فيه إلى ضرورة تنفيذ قرار مجلس الأمن ٢٤٢ . ولكن إزاء إصرار إسرائيل على عدم الانسحاب، وأمام الأعاصير التى اجتاحت أفريقيا بقطع العلاقات مع إسرائيل ، لم يكن هناك بديل أمام إثيوبيا سوى هذا الموقف الذى كان له أكبر الأثر فى الدول الأخرى التى ظلت على علاقاتها مع إسرائيل . ففى ١٩٧٣/١٠/٢٥ ، أعلن الرئيس يعقوب جوون رئيس نيجيريا — أكبر الدول الأفريقية سكاناً — قطع علاقاتها مع إسرائيل . وفى ١٩٧٣/١٠/٢٦ أعلن كنيث كاوندا رئيس جمهورية زامبيا قطع علاقات بلاده مع إسرائيل . وفى نفس اليوم فى جامبيا كان باثورست رئيس جمهوريتها قد أعلن قراراً مماثلا. وتلتهما السنغال فى ١٩٧٣/١٠/٢٨ ، عندما أعلن الرئيس سنجور فى داكار قطع علاقات بلاده مع إسرائيل . وفى نفس اليوم صدر قرار مماثل فى أكرا عاصمة غانا من رئيسها كولونيل تشامونج . وفى اليوم التالى ١٩٧٣/١٠/٢٩ ، كان قرار كل من سيا كا ستيفنس رئيس سيراليون ، وبرنارد ألبرت بونجو رئيس جابون .

وفى أول نوفمبر ١٩٧٣ ، تبعت كينيا برئاسة كنياتا ، الدول الأفريقية فى قطع العلاقات بإسرائيل . وفى ١٣ نوفمبر انضمت إليهم كل من ساحل العاج برئاسة هوفيت بوانية ، وبتسوانا برئاسة سيوتى جاما . وأخيراً لم تجد ليبريا — رغم ما بينها وبين إسرائيل من علاقات بديلا سوى أن تقرر — برئاسة وليام تولبيرت — أن تنضم فى ٢٩ نوفمبر إلى المعسكر الأفريقى وتقطع علاقاتها بإسرائيل.

عوامل التحول الأفريقى نحو إسرائيل :

بتحليل الأسباب التى أدت إلى هذا التحول الشامل والقوى فى موقف أفريقيا تبرز عدة أسباب أهمها : —

١ – سقوط الصورة التى أرادت إسرائيل أن ترسمها لنفسها فى أفريقيا بالتدريج على أنها دولة نامية .فقد اتضح ـ كما يؤكد جان هالبرن أستاذ الاقتصاد ـ أن إسرائيل تختلف تماماً عن الدول النامية بسبب مجتمع الهجرة الأوربية بهـا . كما تبين أن مجتمعات الـكيبوتز الإسرائيلية لا يمكن بحال نقلها إلى مجتمعات أفريقيا .

٢ — أن البلاد الأفريقية فطنت إلى حقيقة إسرائيل كدولة عنصرية تمثـل فى العالم العربى الاستعمار الاستيطانى الذى تمثله جنوب أفريقيا فى القارة الأفريقية وكان الرئيس عبد الناصر من أول من أطلقوا هذه الصيحة المنذرة فى مؤتمر الدول الأفريقية سنة ١٩٦٤ ،حيث قال: « إن ما حدث لشعوب فلسطين شبيه بما حدث لشعب أفريقيا . جاءها المستوطنون الغرباء تحت دعوى السيادة العنصرية . سرقوا الأرض وطردوا أصحابها الأصليين ولم يجدوا سنداً من غير الاستعمار يساعدهم ليـكونوا أداة له فى صوره المختلفة » .

وقد بدأ هذا المفهوم العنصرى لإسرائيل يتضح بالتدريج فى نظر الدول الأفريقية وخارجها . وكتب ن . واربرتون يعلق على حرب ١٩٧٣، مقالا فى صحيفة التايمز يذكر فيه أن وضع إسرائيل فى الشرق الأوسط يشبه وضع الأقلية البيضاء فى جنوب أفريقيا. حيث اتبعت نفس الأساليب فى طرد أصحاب الأرض واستجلاب غيرهم لتوطنهم . وأن موقف إسرائيل من العرب هو تماماً موقف «الأفريـكان البيض» فى جنوب أفريقيا ، من البانتو (سكان الأرض الأصليين).

وأنه ليس من طريق أمام كل من الإسرائيليين « والأفريكان » سوى طريق واحد وهو الاندماح الكامل والانصهار فى هذه الشعوب والدول .

وخلال حرب أكتوبر تأكد لدول أفريقيا ، وللعالم كله ، العلاقة الوثيقة بين إسرائيل والدولة العنصرية . فلم يقنع يهود جنوب أفريقيا بجمع ٣٠٠ر٠٠٠ مليون جنيه لإسرائيل ، بل سافر مئات من مواطنى جنوب أفريقيا إلى إسرائيل للتطوع فى القوات المسلحة ، كما قامت دلائل قوية على اشتراك طائرات حكومة جنوب أفريقيا فى المعركة إلى جانب إسرائيل وكانت البرتغال ـ رمز الإمبريالية الأفريقية ـ هى الدولة الوحيدة التى سمحت للطائرات الأمريكية باستعمال قواعدها لتزويد إسرائيل بالسلاح .

٣ — الدور الذى قام به الرئيس عبد الناصر فى إنشاء منظمة الوحدة الأفريقية على أسس واقعية عملية . ثم الدور الذى قام به فى التوسط لتسوية عدد من المنازعات التى وقعت بين بعض الدول الأفريقية. مثل النزاع بين أثيوبيا والصومال، والنزاع بين كينيا والصومال ، وبين غانا وغينيا ، ثم تدخله قبيل وفاته لتسوية الخلاف بين السودان وإثيوبيا ، إلى جانب دوره فى مساندة حركات التحرير فى القارة الأفريقية ضد الاستعمار العنصرى حيث أمدها بالمعونة الفنية والسلاح والعتاد والخبراء وأيدها فى المحافل الدولية [1].

وما زال ساسة نيجيريا يذكرون له الموقف الذى وقفه بجانبهم أثناء أزمة بيافرا .

٤ — كانت العلاقات التجارية والفنية والثقافية التى قامت بين عدد من الدول العربية وعدد من الدول الأفريقية عاملا مؤثراً فى إيجاد علاقات إيجابية . فلمصر مثلا اتفاقيات للتجارة مع ١٨ دولة أفريقية ، بالإضافة إلى ٤ دول أخرى ترتبط

---

(١) انظر بطرس بطرس غالى : دراسات فى الدبلوماسية العربية ، (القاهرة ، الأنجلو المصرية ، سنة ١٩٧٣).

معها باتفاقيات للتجارة والدفع، كما قدمت تعهدات قروض طويلة الأجل واقتتحت شركة النصر للتصدير والاستيراد ٢١ فرعا فى دول كل من شرق وغرب ووسط أفريقيا[1] . إلى جانب مكاتب السفارات للتمثيل التجارى (فى أديس أبابا ومقديشيو) . ولمصر كذلك عدد من اتفاقيات التعاون الفنى أو الثقافى أو العلمى مع ست دول . كما أن هناك ١٠٦٥ مصرى ومصرية يعملون فى ٣١ دولة أفريقية معارون من ١٧ وزارة مختلفة .

٥ — الدبلوماسيه العربية المكثفة التى بدأت بعد هزيمة سنة ١٩٦٧، وامتدت إلى سنة ١٩٧٣ ، تمثل مرحلة ثانية من العلاقات العربية الأفريقية . وقد بدأت بالاجتماع الطارىء لمنظمة التضامن الأفريقى الأسيوى الذى عقد عقب الهزيمة فى القاهرة فى يوليه ١٩٦٧ . وكان آخرها مؤتمر منظمة الوحدة الأفريقية الذى عقد فى أديس أبابا سنة ١٩٧٣ قبيل المعركة .

٦ — والسبب الأخير فى تقديرنا، وهو أهمها جميعا ، هو حرب أكتوبر التى جعلت الأسباب السابقة تعطى نتيجتها ، وتأخذ دفعها، وتعبر عن نفسها فى أفعال إيجابية . وفى تقديرنا أنه لولا الانتصارات التى حققها العرب — خصوصا فى فى الساعات الأولى لمعارك أكتوبر — لما ظهرت هذه الخريطة الجديدة لأفريقيا وتدعمت العلاقات الأفريقية العربية بالصورة التى جعلت إيبان يصرح بقوله : « لقد خسرنا الكثير . . لقد كسب العرب أفريقيا » .

---

(١) هذه البلاد هى : أوغندا — تنزانيا — كينيا — زامبيا — توجو — داهومى — ساحل العاج — السنغال — سيراليون — غانا — غينيا — الكمرون — الكونجو برازافيل — زائيرى — ليبيريا — مالى — موريتانيا — النيجر — نيجيريا — أفريقيا الوسطى — تشاد . وتقوم هذه المكاتب بدور ملموس فى توطيد العلاقات المصرية الأفريقيه .

قرارات عربية أفريقية :

عندما اجتمع الملوك والرؤساء العرب فى نوفمبر ١٩٧٣ أصدروا ، البيان التالى الذى يعد بمثابة برنامج عمل أفريقى عربى ، وصفحة جديدة قوية فى العلاقات العربية الأفريقية ، وفى تضامن القارة الأفريقية .

إن الملوك والرؤساء العرب المجتمعين فى مدينة الجزائر من ٢٦ حتى ٢٨ من نوفمبر (تشرين الثانى) لعام ١٩٧٣ .

وقد بحثوا الوضع الجديد فى الشرق الأوسط الناجم عن العدوان الإسرائيلى وآثاره على الأمن الدولى ، وأخذوا بعين الاعتبار تزايد حركة التضامن التى عبرت عنها البلدان الأفريقية الشقيقة لصالح القضية العربية العادلة والكفاح من أجل تحرير الأراضى العربية المحتلة ، واستعادة الشعب الفلسطينى لحقوقه الوطنية . وهو الكفاح الذى يندرج ضمن المعركة التى نخوضها فى التحرر ضد قوى الاستعمار والصهيونية .

وإذ يعتبرون أن التضامن العربى الأفريقى ، ينبغى أن يتجسد بشكل ملموس فى كل الميادين ، وبالذات فى ميدان التعاون السياسى والاقتصادى بهدف توطيد دعائم الاستقلال الوطنى وتحقيق التنمية .

يقررون : —

١ — توجيه تحية تقدير للدول الأفريقية الشقيقة للقرارات التى اتخذتها بقطع علاقاتها مع إسرائيل التى تزداد عزلتها فى العالم .

٢ — الإعراب عن تقديرهم لتأكيد هذا التضامن مع البلدان العربية المكافحة ،خلال الدورة الاستثنائية لمجلس وزراء منظمة الوحدة الأفريقية .

٣ — تأييد البلدان الأفريقية تأييداً كاملا فى الكفاح من أجل التحرر

الوطنى والتقدم الاقتصادى ، وفى النضال ضد الاستعمار والتمييز العنصرى .

٤ — الترحيب بقرار مجلس وزراء منظمة الوحدة الأفريقية فى اجتماعه الأخير لتأليف لجنة مكونة من سبع دول لتنظيم التعاون الأفريقى العربى .

ويقررون اتخاذ الإجراءات التالية لتعزيز التضامن العربى الأفريقى وتجسيمه فى الواقع العملى ، وهى :

(ا) دعم التعاون العربى الأفريقى فى المجال السياسى وتعزيز التمثيل الدبلوماسى العربى فى أفريقيا .

(ب) قطع جميع العلاقات الدبلوماسية والقنصلية والاقتصادية والثقافية وغيرها مع جنوب أفريقيا والبرتغال وروديسيا من قبل الدولة العربية التى لم تقم بذلك بعد .

(ج) تطبيق حظر تام على تصدير البترول العربى إلى هذه البلدان الثلاثة .

(د) اتخاذ إجراءات خاصة لمواصلة التموين الطبيعى للبلدان الأفريقية الشقيقة بالبترول العربى .

(هـ) دعم وتوسيع التعاون الاقتصادى والمالى والثقافى مع البلدان الأفريقية الشقيقة ، وذلك على مستوى ثنائى وعلى مستوى المؤسسات الإقليمية العربية والأفريقية .

(و) مضاعفة التأييد على الصعيد الدبلوماسى والمادى لكفاح منظمات التحرير الأفريقية .

(ز) ومن أجل التعجيل بتطبيق هذه القرارات وقيام تعاون مستمر بين البلدان العربية والأفريقية ، يكلفون الأمانة العامة لجامعة الدول العربية باتخاذ الإجراءات التنفيذية ، والاتصال بالأمانة العامة لمنظمة الوحدة الأفريقية ولجنة

الدول السبع التابعة لها ، تنظيم مشاورات دورية على مختلف المستويات وأعلاها بين الدول العربية والأفريقية » .

وعندما اجتمع وزراء البترول العرب فى ٢٤ نوفمبر، ثم فى ٨ ديسمبر ١٩٧٣، فى الكويت كانت قراراتهم صريحه وواضحة بأن تعطى الدول الأفريقية الصديقة « كامل كميات الوقود المتعاقد عليها ، ولو اقتضى الأمر زيادة الإنتاج بنفس النسبة التى تكفل تغطية إحتياجاتها المحلية . . . »

ثم اجتمع المجلس الاقتصادى العربى فى القاهرة فى ديسمبر ١٩٧٣ ، وجاء فى توصياته :

١ — بالنسبة لإنشاء البنك العربى للتنمية الزراعية والصناعية فى أفريقيا :

(ا) يوصى المجلس بدعوة لجنة من الدول الأعضاء بجامعة الدول العربية لإقرار مشروع النظام الأساسى للبنك — فى النصف الأول من شهر يناير ١٩٧٤ .

(ب) دعوة الوزراء المختصين فى الدول العربية المكتتبة فى رأس مال البنك إلى الاجتماع فى مدينة الجزائر فى النصف الأول من شهر فبراير ١٩٧٤ ، لإقرار مشروع النظام الأساسى للبنك .

٢ — بالنسبة للمساعدات الفنية للدول الأفريقية :

أوصى المجلس بالتعاون مع المنظمات الأفريقية للقيام بما يلى :

(ا) تجميع البيانات والمعلومات عن احتياجات الدول الأفريقية فى مجالات العون الفنى المختلفة .

(ب) دراسة القدرات العربية المتوفرة فى النواحى الفنية والبشرية والمادية .

(ج) وضع برنامج لتقديم ذلك العون الفنى يتولى تنفيذه السيد أمين عام جامعة الدول العربية .

ويقترح المجلس إنشاء صندوق لتبادل المعونة الفنية بين الدول العربية والأفريقية ، كما يخصص ١٥ مليون دولار دفعة أولى للصرف منه على الأغراض (أ ، ب ، ج) ، على أن يتصل الأمين العام بالدول الأعضاء لتحديد مقدار ما يكتتب به فى هذا المبلغ ويعرض الموضوع على مؤتمر القمة السابع لوضع سياسة طويلة المدى بصدد المعونة الفنية للدول الأفريقية .

٣ — الأسراع بتقديم المساعدات المختلفة للدول الأفريقية المصابة بالقحط من إسهامات الدول العربية التى تحددها قبل نهاية شهر ديسمبر ١٩٧٣ .

الحاجة لأكثر من القرارات :

إن استمرار ذلك الموقف الأفريقى الرائع يحتاج لأكثر من قرارات أو توصيات . فهو عن حق يحتاج إلى عمل مكثف متواصل مدروس ، وإلى مشاركة فعلية ، وإلى إسهام اقتصادى وتعاون فنى يقوم حسب خطه مدروسة[1] . وهو يحتاج إلى مزيد من العلاقات والزيارات والاتصالات المكثفة وإلى الاندماج والتفاهم بين الشعوب بقطاعاتها المختلفة ، وإلى استعمال الدبلوماسية الشعبية استعمالا ذكياً ، والاستفادة من المعونات الفنية والمادية استفادة عميقة تقوم على الاستثمار دون الاستغلال ، وعلى التعاون دون التعالى .

---

(٢) فى حديث مع الرئيس أحمد سيكوتورى ، فى كوناكرى ، فى ١١ فبراير سنة ١٩٧٤ نوه الرئيس إلى أهمية تحقيق الوحدة بين الدول بالقارة الأفريقية نظرا للأمانى والآمال المشتركة التى توجد بينها وتربط هذه الدول ببعضها البعض ، مع ضرورة التأكيد على الاعتراف بحرية كل دولة فى أن تختار النظام الملائم لشعبها ولها ، مع الاحتفاظ بشخصيتها القومية .

إن دراسة المجتمعات الأفريقية والحضارة الأفريقية والظروف المختلفة لكل دولة أفريقية دراسة واعية علمية هي نقطة بداية هامة جداً في توطيد علاقات أكثر فاعلية مع كل منها ومعها جميعها .

أن العالم في ٦ أكتوبر قد أدرك حقيقة ، كان عليه أن يدركها قبل ذلك بأحقاب وهذه الحقيقة هي القوة والقدرة التي يمكن أن تكون للقارة الأفريقية المتذمرة إذا ما وقفت صفا واحدا إزاء المسائل العالمية ، والدور الهام الذي يمكن أن يصبح لهذه القارة في النواحي السياسية والاقتصادية والحضارية .

أن هذه الوثبة الأفريقية المتحده لا بد أن ترعى وتوضع في إطارها الصحيح حتى تدعم وتستمر ، فلا تكون مجرد إنفعالة وقتية أو طفرة عاطفية تزول بزوال المؤثرات التي دعت إليها ، إنما لا بد أن تصبح نظاما وسياسة ومنهجا .

وعندما سئل سيكوتوري كيف يمكن أن نضمن لهذه الوقفة أن تستمر وتصبح سياسة مستقرة بدلا من أن تكون انفعالة يمكن الرجوع عنها بانفعالة أخرى .

قال : « الشعوب . . . . إن الشعوب صاحبة الكلمة لا بد أن تدرك تماماً خطورة إسرائيل عليها . وأن إسرائيل التي أرادت أن تأخذ غينيا وأن تستعمر أوغندا ، ثم فضلت أن تستوطن فلسطين ، تشكل بالنسبة لشعوب أفريقيا نفس الخطر الذي تهدد به الشعوب العربية ، وبذلك نضمن أن تستمر السياسة الموحدة ضد الخطر الموحد حتى ولو تغيرت القيادات أو السياسات الداخلية » (١) .

---

(١) تبين من دراسة أجرتها وزارة المالية والاقتصاد المصرية أن تجارة مصر الخارجية مع الدول الأفريقية لم تصل إلى الحجم الذي نصبو إليه ، إذ أن صادراتنا إليها لاتزيد عن ٥ر٢ ٪ من إجمالي صادراتنا . كما أن وارداتنا تتراوح ما بين ١ — ٥ر١ ٪ من إجمالي وارداتنا وتخطط الوزارة لزيادة حجم التبادل التجاري . كما تبين أن هناك عجزاً في سد طلبات الدول الأفريقية من المدرسين القادرين على تدريس الإنجليزية والفرنسية . ووضعت وزارة التربية والتعليم برنامجا تدريبيا سوف يمكنها من سد كل احتياجات سنة ٧٤ / ١٩٧٥ .

وبعد جولة أفريقية . . . وبعد لقاءات أفريقية، يمكن أن نؤكد أن الشعوب الأفريقية متفتحة . . . والحكومات الأفريقية مستعدة ،وعلينا أن نأخذ طريقنا فى هذا المجال بحكمة ، دون تباطؤ ،ودون اندفاع . . . إن المارد الأفريقى يستيقظ وهو يحمل بين طياته إمكانات اقتصادية وسياسية وحضارية هائلة . . . والدول الأفريقية تحس أن أفريقيا التى اضاءت منها أولى حضارات العالم، سوف تعود إليها مهمة صنع حضارة إنسانية غير مادية تقوم على البناء والعطاء وعلى قيم حضارية تقوم على التماسك ، وتبعد عن التحيز أو التعصب بأنواعه .

* * *

إن أفريقيا قارة قوية حساسة . ومصر التى هيأت لهـا ظروفها أن توجد بهـا وأن تصحو قبلها ، عليها واجب بل التزام أساسى بأن تقوم بدورها إزاء هذه القارة الرائعة المتطلعة للمستقبل .

* * *

الفصل الثالث

العالم الغربي

إننا لا يمكننا أن نلوم أناساً يريدون استرجاع أراضيهم ، أو نحاول اتهامهم بالعدوان .

« ميشيل جوبير »

إن دول العالم ليست مستعدة للمعاناة من أجل أغراض لا تخدم مصالحها القريبة. وحينما قامت الحرب ، كانت أوربا ممتصة تماما فى قضايا السلام والوحدة والرخاء . ولم يكن يهمها أن تضحى بمصالح شعوبها من أجل دولة توسعية كإسرائيل ، متمردة على كل قرارات المجتمع الدولى ، ومغتصبة لأراض لاحق لها فيها ، وتذيق أهل الأرض حقيقيين نفس الكأس الذى تجرعه اليهود من قبل .

وكان بقاء إسرائيل مغتصبة معتدية وجائرة يهدد السلام العالمى ، ويهدد كل القضايا الهامة التى تشغل الأوروبيين . ولم يكن الأمر سهلا . فقد كان من الصعب على الحكومات الأوروبية المنصفة فى الماضى القريب أن تواجه شعوبها — التى تأثرت إلى أبعد مدى بالدعاية الصهيونية — بالحقائق ، أو أن توجهها وجهة الحق والعدل . وربما لم يكن لدى تلك الحكومات حتى وقت قريب مبرر لمعاناة مشقة إقناع شعوبها ، وتغيير اتجاهاتها لصالح العرب. وبالتأكيد كانت معظم الحكومات واقعة تحت تأثير قوى الضغط الصهيونية ، وخاصة فى مجالات المال والإعلام .

وحتى حينما بدأ العرب فى استعمال سلاح مسموع لدى شعوب أوربا والعالم، وهو سلاح البترول ، فإن وسائل الإعلام فى الخارج قد حاولت فى البداية خنق أنباء البترول والتهوين من شأنه . بل إن بعض المسئولين فى أمريكا قد صرحوا فى البداية بأن قطع البترول لن يؤثر عليهم كثيراً . وهكذا بدا واضحاً أن هناك خطة مقررة لمواجهة كل معركة عربية . إذ لم يكن من صالح الصهيونية العالمية أن يستشعر المواطن العادى فى أوروبا أو أمريكا حقيقة ارتباط حياته وحياة أسرته وبيته بالمصالح العربية المباشرة . وخاصة إذا كانت حساباته ومصالحه مع إسرائيل أصبحت فى غير صالحه . وهكذا كانت الاتجاهات الإعلامية المبذولة نحو حصر أبعاد ونتائج أزمة الطاقة فى أضيق الحدود — بسبب تخفيض إنتاج البترول العربى أو قطعه عن بعض الدول ، موجهة أساساً من قبل الصهيونية العالمية وإسرائيل بهدف استمرار إعماء الشعوب الأخرى عن حقيقة مواقع مصالحها .

وكان لابد أن يظهر أثر البترول على أوروبا وأمريكا . واستعمال العرب لهذا السلاح الحاد دفاعا عن النفس والأرض والحق والحياة ، وضع فى أيديهم سلاحا إستراتيجياً فعالا ، مثلما وضع بنفس الدرجة من الأهمية فى أيدى الحكومات الأوربية — ولأول مرة — حجة قوية تواجه بها شعوبها ، وتقنعهم بدلائلها العميقة . إن الحكومات الأوروبية المعتدلة بفضل أزمة الطاقة أو بفعلها ، قد استطاعت أن تتحول عن الهمس إلى التصريح بأن سياستها المعتدلة والعادلة إزاء قضية الشرق الأوسط لها ما يبررها من مصالح شعوبها .

وبمعنى آخر فإن المواطن الأوربى قد بدأ يستشعر — وربما لأول مرة — أن تحامله على العرب وتحيزه لإسرائيل ، يمكن أن يضر بمصالحه الشخصية القريبة ، ناهيك عن أنه تحامل لامبرر له .. وإلا فماذا بين العرب وأوروبا ؟ إن الدول العربية فى مجموعها — عدا عدد قليل منها — قد ارتبطت إما بانجلترا وإما بفرنسا وإما بإيطاليا . وحينما فك هذا الارتباط بفعل التطور وحقائق العصر ، لم يحمل العرب فى أنفسهم ضغينة ولا شراً لأوروبا . ولكن الصهيونية العالمية ، وسيطرة اليهود

على الاقتصاد فى معظم دول الغرب ، وعقدة الذنب بسبب تعذيب اليهود ، والدعاية الإسرائيلية ، وغيرها من العوامل ، قد تضافرت لكى تخلق هوة واسعة بين الأوربيين والعرب دون منطق من التاريخ ، ولا مبرر من الواقع .

لقد كان من أصداء حرب أكتوبر ونتائجها وأبعادها المختلفة ، أن الحكومات المعتدلة والمنصفة فى أوربا أصبحت الآن فى مركز أقوى وأفضل فى مواجهة القوى الضاغطة ببلادها ، وفى مواجهة فئات مواطنيها المتحيزين لإسرائيل. وهذا الموقف أمكنها أن تصل إليه من خلال طريق مهدته أمامها الدول العربية نتيجة ممارسة سياسة هادفة ،ودبلوماسية هادئة،وعبر المصالح البترولية بالعالم العربى ، امتداداً إلى القارة الأوربية . وربما كانت حكومات أوروبا فى حاجة ملحة إلى هذه « الرخصة » التى منحتها إياها نتائج حرب أكتوبر .

وحتى بالنسبة للدول البعيدة عن منطقة الصراع ، والتى كانت مازالت إلى وقت قريب خارج حلبة التطاحن السياسى والحربى والإعلامى الساخن فى الشرق الأوسط ـ مثل اليابان ـ أمكنها من خلال الأزمة أن ترى حقيقة أبعاد مصالحها الحالية والمستقبلة فى العالم العربى، وأن تتيقن فى وقت مبكر من أن عليها أن تنهج نهجاً عادلا إزاء القضية ، وأن تنتهج سياسة معلنة واضحة ومعتدلة قبل العرب.

* * *

وهكذا يمكن القول بأن حرب أكتوبر قد تركت بصماتها على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية لدول أوروبا . ويمكن للباحث أن يفرد بحثاً خاصاً مستفيضاً لعدد من الموضوعات الهامة مثل التحول فى علاقات أوروبا وإسرائيل ، والعلاقة الجديدة بين أوروبا والعرب ، والبترول وآثاره ، وتأثير حرب أكتوبر على حلف الأطلنطي ، وتأثيرها على سياسة الوفاق ، وتأثيرها على السوق الأوروبية المشتركة .

وقد شمل هذا التأثير علاقات أوروبا وإسرائيل مؤثراً بالتـــالى فى الحركة الصهيونية العالمية .

وشمل علاقات أوروبا،أى دول أوروبا بعضها ببعض، مؤثرا بذلك فى موقف السوق المشتركة وأهداف الوحدة الأوروبية .

وشمل علاقات أوروبا وأمريكا مؤثرا بالتالى فى حلف الأطلنطى .

وشمل علاقات أمريـكا وروسيا فىظل سياسة الوفاق بينهما ، تلك السياسة التى صافتها الحرب وهى مازالت فى « شهور العسل » الأولى .

* * *

وهذه الدراسة بما تقوم عليه من نظرة شمولية متـكاملة لايمكنها أن تغرق فى دراسة كل من هذه الموضوعات تفصيلا . والأمل أن تفرد لـكل منها دراسات مستقلة ومتخصصة .

ولا يمـكن لهذه الدراسة أيضاً أن تتجاهل أى منها ، إذ هى كلهـا انعـكاسات أساسية بعيدة المدى لحرب أكتوبر ، وانتصارات الساعات الست الأولى فى تلك الحرب .

ومن ثم فإننا نستعرضها استعراضاً موجزا، نرجو ألايكون مخلا ، مع مراعاة أن الفصل بين هذه العلاقات إنما يهدف إلى الإيضاح ، ولا ينفى أن بينها ـ فى الواقع ـ تداخل وتشابك وتأثير متبادل .

* * *

أولا : أوروبا وإسرائيل

(عزلة دولية)

إن التحرك السياسي الذى كانت مصر تقوم به جنبا إلى جنب مع استعدادها العسكرى ، كان قد هيأ جوا من التفهم لقضية العرب بلورته ما حققته الحرب من مكاسب عسكرية وسياسية وسيكولوجية . وأخذت مواقف الدول تتحدد تباعا .

فرنسا :

كان موقف فرنسا واضحا منذ البداية ، وكان استمرارا للسياسة المستقرة التى حدد معالمها الرئيس ديجول ، وتمسك بها الرئيس بومبيدو من بعده . وفى أيام الحرب الأولى علق ميشيل جوبير وزير خارجية فرنسا ، على تطورات الموقف فى الشرق الأوسط بقوله : « إننا لا يمكننا أن نلوم أناسا يريدون استرجاع أراضيهم أو نحاول اتهامهم بالعـــدوان » . كما نفى المسؤلون الفرنسيون الأنباء التى نشرتها الصحف عن أن فرنسا وجهت تحذيرا إلى ليبيا بعدم استخدام طائرات الميراج الفرنسية فى القتال الدائر مع إسرائيل .

ألمانيا الغربية :

كان فيلى برانت فى زيارة سابقة له لإسرائيل خلال شهر يونيو ١٩٧٣ ، قد قوبل بعدد من المظاهرات التى تهتف ضده ، إثر تصريحه بانتهاء « العلاقات الخاصة » التى كانت تربط ألمانيا بإسرائيل ، وأنها الآن أصبحت علاقات ذات طابع خاص .

ومنعت ألمانيا الغربية إمداد إسرائيل بشحنة أسلحة من مخازن الجيش الأمريكى بها . وقدمت احتجاجا ضد خرق أمريكا للحظر الذى تفرضه بون على إرسال الأسلحة للشرق الأوسط . وقال البيان : « إن وزارة الخارجية استدعت القائم بأعمال السفارة الأمريكية بعد أن علمت بعمليات شحن الأسلحة الأمريكية ، وطلبت منه وقف هذه

الشحنات، لأن حكومة بون ترغب في المحافظة على موقفها المحايد من الحرب في الشرق الأوسط، وهو الموقف الذي تود الحكومة الألمانية أن تتبعه باقي الدول».

وأرغمت سلطات ألمانيا الغربية سفينة شحن إسرائيلية كانت راسية في ميناء « بريمارهافن » انتظارا لحمولة من المعدات العسكرية الأمريكية ، على رفع مرساتها ومغادرة الميناء دون تسلم الحمولة .

وكانت حكومة بون قد أبلغت الحكومة المصرية أن شحن الأسلحة الأمريكية من ألمانيا الغربية قد توقف ، وأن بون شعرت بحرج شديد بعد أن تبين أن عمليات الشحن مستمرة .

كما أبلغ السفير الألماني هانز شتلزر في القاهرة وزير الخارجية المصرية بالنيابة في اجتماع عاجل تفاصيل الإجراءات التي اتخذتها الحكومة الألمانية لوقف شحن أية أسلحة إلى إسرائيل عبر أراضيها ، سواء على سفن إسرائيلية أو أمريكية . وأكد السفير الألماني للوزير المصري تصميم حكومته على ألا تغير موقفها المحايد ، وأنه تم إبلاغ ذلك لأمريكا .

وكان طبيعياً أن تهاجم صحف إسرائيل ألمانيا . فهاجمت صحيفة معاريف الإسرائيلية ألمانيا الغربية ، واتهمتها بالمساهمة فيما وصفته « بإبادة الجنس » ، عن طريق رفضها نقل معدات وأسلحة أمريكية إلى إسرائيل من مخازن الجيش الأمريكي في ألمانيا الغربية . وزعمت الصحيفة أن ألمانيا تتخذ هذا الإجراء من أجل ضمان حصولها على إمدادات البترول العربي .

وفي اليوم الخامس للحرب كتب «فان درفات» من بون يقول أن الأيام الخمسة الأولى لحرب الشرق الأوسط قد أوضحت دون شك السياسة المتباعدة التي تتخذها ألمانيا الإتحادية في علاقتها بإسرائيل . وأن العبارة التي صرح بها برانت أثناء زيارته لإسرائيل في شهر يونيو عن عدم وجود « علاقة خاصة » بين ألمانيا وإسرائيل ، قد تكررت كثيرا خلال هذه الأيام في عدد من التصريحات الرسمية .

وهذا موقف مضاد تماما للمساندة والتعاطف الواضح والعلنى الذى تفجر فى ألمانيا خلال حرب ١٩٦٧ ·

وأدلى وزير خارجية ألمانيا الغربية بحديث تليفزيونى قال فيه : لا يجوز لنا أن ننسى أن اتصالاتنا مع الدول العربية قد تمزقت فى عام ١٩٦٥. وقد قطعت يومها عشر دول عربية العلاقات الدبلوماسية مع جمهورية ألمانيا الاتحادية ، لأنها اتهمت جمهورية ألمانيا الاتحادية بممارسة سياسة غير صادقة · لقد أرسلت يومها جمهورية ألمانيا الاتحادية أسلحة إلى إسرائيل ، بينما كانت فى نفس الوقت تؤكد للعرب باستمرار أنها لاترسل أسلحة · وقد ظهرت الحقيقة فقطعت الدول العربية علاقاتها . وقد تطلب الأمر نحو عشر أعوام حتى تمكنا من إعادة هذه العلاقات · والآن نريد ممارسة سياسة متوازنة .

وفى ١٢ نوفمبر ألقى فالترشيل وزير خارجية ألمانيا الغربية خطاباً سياسياً فى مدينة « فيزبادن » أدان فيه الإستيلاء على الأراضى بالقوة . وأكد موقف ألمانيا الحيادى وأكد أنه مع أعتراف ألمانيا بحق إسرائيل فى البقاء، إلا أنه لا يمكن أن يقوم حل لمشكلة الشرق الأوسط لا يأخذ فى الحسبان حقوق شعب فلسطين . وأضاف: «أن هذا الموقف كان الأساس الذى قامت عليه مباحثاته مع جروميكو منذ عشرة أيام، وهو الأساس الذى ستقوم عليه مباحثاته مع سيسكو فى فيزبادن غدا» .

ويمكن رد هذا التحول الواضح فى سياسة ألمانيا الاتحادية إلى عوامل عدة من أهمها :

السياسة المتوازنة التى انتهجها برانت برفض الارتباط بإسرائيل ارتباطا خاصا .

* سلاح البترول ونتائجه (خصوصا بالنسبة للمواطن الألمانى الذى يقدس السفر بسيارته أسبوعياً) ·

* عودة العلاقات العربية الألمانية بعد قطيعة طويلة وأطراد تحسن هذه العلاقات . واتجاه ألمانيا إلى مجالات الاستثمارات العربية .

* تصرفات إسرائيل الفظة واتهاماتها العنيفة لألمانيا عقب إحداث ميونيخ ، وهى الاتهامات التى أثارت موجة استياء فى ألمانيا من إسرائيل على الصعيدين الرسمى والشعبى .

* الدور الأساسى الذى أخذت ألمانيا تلعبه فى سياسة الوفاق ونجاح سياسة برانت فى الاوستبوليتك « وتقوم كلها على التفاهم والسلام والتعاون وهى اعتبارات تهددها إسرائيل بإصرارها وعنادها » .

* دخول ألمانيا الأمم المتحدة وازدياد إحساسها بمسئوليتها الدولية . وإدراكها لتحدى إسرائيل لقرارات المجتمع الدولى الذى أصبحت جزءاً منه .

* إصرار إسرائيل على ابتزاز أموال ألمانيا وتذكيرها فى كل مناسبة بما قاساه اليهود على يد النازية . وهو إدعاء بدأت أهميته تسقط ، وعلق عليه أحد قادة الحزب الديمقراطى الاشتراكى من الشباب أثناء لقاء لنا معه فى بون ، قائلا : —

« إننا جيل جديد ، ونحن لم نعاصر هذه الفترة ولا يجوز أن نتحمل وزرها » .

وعبر عنه أحد المحللين السياسيين بصراحة بقوله : —

« أن ألمانيا ترفض أن تظل تشعر بالذنب إلى الأبد » .

وقد كانت حرب أكتوبر اختباراً حقيقياً لسياسة الحياد التى اختارتها ألمانيا بالنسبة لقضية الشرق الأوسط . ويمكن القول أن نجاح ألمانيا فى هذا الاختبار سقط به أحد الحصون القوية التى كانت تعتمد عليها إسرائيل فى أوروبا الغربية .

المملكة المتحدة :

ظهرت تيارات شعبية وسياسية متباينة فى إنجلترا . فمن ناحية حاولت المنظمات الصهيونية الضغط على الحكومة الإنجليزية ، ونظمت الجمعيات الصهيونية مظاهرات ومواكب ، وعقد المحاربون القدامى من الانجليز اليهود اجتماعات عديدة ،

ونظموا مسيرة ليذكروا الشعب الإنجليزى بأنهم حاربوا فى صفوف الجيش البريطانى. وتطوع عدد من يهود انجلترا للعمل فى الجيش الإسرائيلى ، وجمعوا ٥ ملايين جنيه لإسرائيل .

ومن ناحية أخرى فإن انجلترا قد أصرت على عدم مساندة إسرائيل بالكلام أو بالمال أو بالسلاح . وأعلنت مع بداية الحرب حظراً على تصدير الأسلحة إلى أى من الجانبين المتحاربين فى الشرق الأوسط .

وقال ناطق بريطانى : « إن استمرار إمدادات الأسلحة يتعارض مع نداء الحكومة من أجل وقف فورى لإطلاق النار » .

وكانت الحكومة الإنجليزية قد أقامت حظراً مماثلا على الأسلحة خلال معارك ١٩٦٧ ، رغم أن المملكة المتحدة ليست مورداً رئيسياً للسلاح لأى من الجانبين ، وأن كميات الأسلحة التى يشملها الحظر هى كميات غير كبيرة، إلا أن هذا التصريح أثار جدلا كبيراً داخل بريطانيا وداخل إسرائيل .

وهاجمت الحكومة الإسرائيلية الحكومة الإنجليزية واتهمتها بالتحيز . وفى الأمم المتحدة أدلى أبا إيبان بتصريحات هاجم فيها حكومة « هيث » هجوما عنيفا . وتعرضت حكومة إنجلترا لأنواع أخرى من الهجوم . وكما كان الهجوم عليها شديداً فى إسرائيل .. كان الهجوم شديدا بالداخل أيضا من المعارضة التى قادها هارولد ويلسون .

وقد أبرز هجوم هارولد ويلسون على الحكومة تيارات مختلفة فى حزب العمال إزاء مشكلة الشرق الأوسط ، وصلت إلى حد اتهام ويلسون « بالصهيونية ». وكان مصدر هذه الاتهام نائب عمالى شاب هو « أندرو فولدس » الذى تكلم فى جلسة مساء ١٠ ديسمبر ١٩٧٣ ، بصراحة أعلن فيها تأييده الكامل لقضية العرب . وانتقد فيها « هؤلاء الصهاينة الذين يعملون بين صفوف أعضاء مجلس العموم ومجلس اللوردات » ، بقسوة بالغة .

ولعل من أهم التحولات التى ظهرت مع حرب أكتوبر، هى أن المواطن الإنجليزى العادى قد بدأ يقتنع ـ أخيرا ـ بجدوى عدم مساندة إسرائيل وبجدوى عدم معاداة العرب من أجل إسرائيل، مما يعرض مصالحه هو للخطر .

هولندا :

كانت هولندا أكثر دول أوروبا هدفا « لغضب العرب وقصاصهم لمساندتها لإسرائيل » . وحاولت أن تبرر موقفها وتتبرأ من تهمة المساندة هذه . وعندما اختطف ثلاثة من الفــدائيين الفلسطينين طائرة نفاثة هولندية من طراز جامبو ، وتقدموا بقائمة المطالب التي يعتبرونها ضرورية للإفراج عن طاقم الطائرة ، شملت هذه المطالب: (اغلاق معسكرات ترحيل المهاجرين اليهود السوفيت إلى إسرائيل ، وضع حد لتهجير السوفيت إلى إسرائيل عن طريق هولندا ، منع الهولنديين من التطوع للحرب فى جيش إسرائيل ، وقف إمداد إسرائيل بالأسلحة ، ووقف السماح بشحن الأسلحة إلى إسرائيل عن طريق هولندا) .

وهنا أذاعت حكومة هولندا بيانا أكدت فيه أن هذه المطالب كلها تتعلق بأمور « غير قائمة » . ثم أذاعت بيانا تفصيليا فى إذاعة وجهتها للعالم باللغات الهولندية والإنجليزية والعبرية ردت فيه على كل هذه الاتهامات ونفتها .

واستمرت حكومة هولندا تدافع عن موقفها فى حديث إذاعى طويل ، لا يملك من يستمع إليه إلا أن يحس بالأهمية التى أصبحت تعطيها لصداقة العرب. والحقيقة أن هولندا بها شعور قوى تجاه إسرائيل وتعاطف واضح معها ، وبصفة خاصة وقت الحروب وإبان الأزمات . لعل أهم أسباب ذلك هو موت ٣٠٠ر٠٠٠ يهودي هولندى أثناء الحرب العالمية الثانية على يد النازية، وإحساس الهولنديين بالإثم والذنب لأنهم لم يحاولوا منع هذه المذابح ، بل على العكس مكنوا القيادة النازية من الحصول على السجلات التى تبين أسماء الأسر اليهودية فى هولندا . وبذلك أمكن التعرف عليهم وتعقبهم ثم وضعهم فى المعسكرات .

ومهما كان الأمر فإن إصرار هولندا على توضيح موقفها وتقديم كل هذه التبريرات والتفسيرات ، يعد فى حد ذاته دليلا على الوزن الدولى الذى أصبح لوجهة النظر العربية بعد حرب أكتوبر . والذى أدى بهولندا لأن تتباهى بأن وزارة خارجيتها على علاقة طيبة بالعرب ، وأن وزير خارجيتها الحالى ماكس فان ورشتول أستقبل استقبالا وديا حسنا أثناء زيارته الأخيرة لبعض الدول العربية ... وأنها اختارت هذا الموقف « الحيادى » حتى تصبح أكثر قدرة على ممارسة دور إيجابى فى حل الأزمة . وأكدت هولندا أن موقفها هذا هو ما تعتبره فى صالح الأطراف جميعا .

بلجيكا :

أما بلجيكا فيتضح من دراسة موقفها أنه كان أفضل بكثير مما ظنه العرب عند بدء القتال . فقد أصدرت الحكومة البلجيكية بيانا أمام البرلمان ، وكان أقوى بكثير من بيان السوق المشتركة . كما أن المسئولين بها قد أصروا على أن يقرروا بأن موقف بلجيكا من القضية العربية يمتاز على موقف فرنسا لأن بلجيكا تصدر أسلحة خفيفة إلى البلاد العربية، ومع ذلك فإنها كانت تعانى من قرار حظر البترول نظرا لأنها تستورد ثلثى احتياجاتها عن طريق ميناء روتردام فى هولندا . وقد كان ظهور هذه الحقائق سبباً فى رفع حظر البترول عن بلجيكا ، مع السماح بشحنه إلى المستودعات الخاصة بالشركات البلجيكية فى روتردام .

أسبانيا :

وفى مدريد أعلنت وزارة الخارجية الأسبانية أن القوات الأمريكية فى أسبانيا لم يسمح لها باستخدام قواعدها فى الأراضى الأسبانية للتدخل فى القتال بالشرق الأوسط . كما اتخذت كل من إيطاليا واليونان وتركيا موقفا مماثلا مما أثار سخط إسرائيل ، وأثر فى حلف الأطلنطى كما سنبين فيما بعد .

السويد :

دارت مناقشات فى برلمان السويد حول حرب أكتوبر ، يتبين منها بوضوح أنه لأول مرة يظهر فى برلمان السويد تيار مؤيد للعرب . فقد دافعت السيدة جونيل يونانج عن موقف العرب كأفراد « يحاربون من أجل تحرير أراضيهم ، وليس من أجل الاستيلاء على أراضى غيرهم ». ودافع النائب ستفنسون عن حقوق شعب فلسطين . ومع ذلك فإن التيار المؤيد لإسرائيل قد استمر . وهاجم عدد من النواب حكومة السويد بسبب اتخاذها موقفا « محايدا » من القضية . إلا أن هذا التيار بالنسبة للسويد أمر مألوف . ولكن الأمر الغريب أن يظهر فى مناقشات البرلمان السويدى آراء مؤيدة للعرب . على عكس التأييد المطلق الذى لاقته إسرائيل فى عام ١٩٦٧ .

وعندما سئل « دافيد ويرمارك » رئيس لجنة العلاقات الخارجية بالبرلمان السويدى عن تعليله لظاهرة التحول هذه أجاب ، أنها تعود لأسباب عدة :

الأول : أن حرب ١٩٦٧ كان قد سبقها عدد من الخطب والتهديدات « والهجوم الكلامى » أعطى إسرائيل — من وجهة نظر كثير من بلاد العالم — مبررا فى مبادأتها بالهجوم للدفاع عن نفسها .

الثانى : أن إسرائيل لم تعد فى نظر العالم دولة « صغيرة مسكينة وسط ذئاب يريدون افتراسها » وإنما تبين بوضوح أنها دولة توسعيـــــة .

الثالث : مستوى الأداء الذى اتصف به المقاتل العربى خلال حرب أكتوبر . لقد حاز فعلا على إعجاب العالم واحترامه، وتغيرت به النظرة للعرب فى الشرق والغرب وفى الدول المتقدمة والنامية على حد سواء.

مؤتمر الاشتراكية الدولية :

عندما انعقد مؤتمر الاشتراكية الدولية في لندن في الأسبوع الثاني من نوفمبر ، ١٩٧٣ ، وهو المؤتمر الذي اشترك فيه رؤساء ١٢ حزبا اشتراكيا ، حضرت جولدا مائير هذا الاجتماع وأعلنت فيه أن على رؤساء الأحزاب الاشتراكية واجب مساندة إسرائيل ، وهي « الدولة الاشتراكية الديمقراطية الصديقة » . وقوبلت مائير الحفاوة والترحيب ، وعبر لها عدد من الزعماء عن اهتمامهم بحل مشكلة الشرق الأوسط . وأجتمع معها إدوارد هيث اجتماعا طويلا . وعلى عكس ما توقعت صدر عن المؤتمر توصية بتشكيل « لجنة خاصة لدراسة وسائل ومجالات التعاون المختلفة الممكن توطيدها بين الدول الأوروبية والدول العربية » . وهو الاقتراح الذي كان يردده بعض أعضاء المؤتمر همسا ولم يتخذ فيه قرار واضح قبل ذلك .

الفاتيكان :

وحتى في الفاتيكان أصدر البابا نداءً يطالب فيه بإيجاد حل عادل لمشكلة الشرق الأوسط . كما كان البابا واضحاً وصريحاً في تأييده لاتجاهات الزعماء الأفريقيين الذين قابلوه بخصوص مشكلة فلسطين والقدس . كما تحرك مجلس الكنائس العالمي ليؤيد بالإعلام وبالمعونة قضية العرب [١] .

---

(١) أصدرت اللجنة المركزية لمجلس الكنائس العالمي في اجتماعها في كانتربري بانجلترا قراراً تقول فيه : « إن ظلما قد وقع على الفلسطينيين العرب بإنشاء دولة إسرائيل بدون حفظ حقوق الفلسطينيين . لذلك يجب رد هذا « الظلم » . وبناء على القرار ، كونت لجنة من كنائس الشرق الأوسط للاعلام عن مشكلة الشرق الأوسط وقضية فلسطين ، ولشرح القضية للكنائس في أنحاء العالم وبالأخص في أمريكا .

ثانيا : أوروبا . . . وأوروبا

(السوق الأوروبية المشتركة)

لم تكن النتائج التى جاءت بها حرب الساعات الست أول أزمة تتعرض لها السوق الأوروبية المشتركة . فقد كانت هناك الأزمة التى أحتدمت بسبب إستخدام الجنرال ديجول الفيتو لمنع بريطانيا من الدخول فى السوق .

وكانت هناك الأزمة التى قامت سنة ١٩٦٤ بسبب الخلاف حول السياسة الزراعية الواجبة الاتباع فى دول السوق .

وكانت هناك الفترة التى نشبت فيها خلافات حول حصص كل دولة فى المناصب القيادية بالسوق ، بعد أن أنضمت كل من بريطانيا وإيرلندا والدانمرك إليها سنة ١٩٧٣ .

ورغم ذلك فإن السوق لم تشهد فى تاريخها أزمة كتلك التى مرت بها نتيجة لما جاءت به حرب أكتوبر من أحداث وتغيرات .

فقد قررت الدول العربية قطع بترولها تماما عن هولندا — إحدى دول السوق — بسبب موقفها الموالى لإسرائيل . وعندما اجتمعت دول السوق لعرض وجهات نظارها حول تطور الموقف فى الشرق الأوسط أصدرت البيان التالى :

« تبادلت حكومات السوق الأوربية المشتركة التسع وجهات نظارها حول الموقف فى الشرق الأوسط ، ووافقت على ما يلى » :

* تؤكد حكومات الدول التسع بقوة أنه ينبغى على قوات طرفى النزاع الشرق الأوسط العودة فوراً طبقا لقرارى مجلس الأمن رقمى ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، إلى المواقع التى كانت عليها فى ٢٢ أكتوبر ، اعتقاداً منها أن العودة إلى هذه المواقع من شأنه تيسير حل المشكلات الأخرى العاجلة .

* أن لدى هذه الحكومات الأمل القوى أنه بعد موافقة مجلس الأمن على قراره رقم ٣٣٨ بتاريخ ٢٢ أكتوبر ، سيصبح من الممكن البدء فى إجراء مفاوضات لإعادة سلام عادل ودائم فى الشرق الأوسط تطبيقاً للقرار رقم ٢٤٢ لمجلس الأمن بجميع بنوده. وتعلن عن استعدادها لبذل كل ما فى وسعها للمساهمة فى ذلك .

* ترى حكومات الدول التسع أنه يجب أن تدور هذه المفاوضات فى إطار الأمم المتحدة ، ويتعين على مجلس الأمن وعلى السكرتير العام القيام بدور خاص فى إقامة السلام والمحافظة عليه ، تطبيقاً لقرارى المجلس رقمى ٢٤٢ ، و ٣٣٨ .

* تقدر الدول التسع الأعضاء فى السوق الأوربية المشتركة أن أى اتفاقية سلام ينبغى أن تستند بصفة خاصة إلى المبادىء التالية :

١ ـ عدم جواز الاستيلاء على أراضى بالقوة .

٢ ـ ضرورة أن تضع إسرائيل حداً لاحتلالها للأراضى التى تحتفظ بها منذ حرب عام ١٩٦٧ .

٣ ـ احترام سيادة جميع دول المنطقة واستقلالها ووحدتها الإقليمية وحقها فى الحياة فى سلام داخل حدود آمنة ومعترف بها .

٤ ـ الاعتراف بأنه فى حالة إقرار سلام عادل ودائم ينبغى أخذ حقوق الفلسطينيين المشروعة فى الاعتبار .

٥ ـ تشير هذه الدول إلى أنه وفقاً للقرار ٢٤٢ الصادر من مجلس الأمن يتعين أن تتضمن التسوية السلمية ضمانات دولية . وأن تتدعم بعدة إجراءات من بينها إرسال القوات المكلفة بالحفاظ على السلام فى المناطق التى قد يتقرر نزع سلاحها طبقاً للمادة الثانية من القرار ٢٤٢ .

٦ ـ تشير دول السوق إلى الروابط المختلفة التى تربطها منذ وقت بعيد بدول الضفة الجنوبية والشرقية لحوض البحر الأبيض المتوسط • وتعيد التأكيد ـ فى هذا الصدد ـ على بنود إعلان مؤتمر القمة فى باريس فى ٢٢ أكتوبر ١٩٧١ • وتشير إلى قراره بإجراء مفاوضات شاملة ومتوازنة مع هذه الدول •

وقد أعتبر العالم هذا التصريح نصراً لوجهة النظر العربية فى أوروبا ، وخاصة أنه كان واضحاً ومحدداً ، ولم يشوبه الغموض الذى جعل القرار ٢٤٢ متعدد المعانى والتفسيرات وأدى إلى إمكان الجدل فى حدود تنفيذه •

وقد أعترض موشى آلون مندوب إسرائيل لدى السوق الأوروبية ، مؤكداً أن دول السوق قد تبنت الاتجاه السوفيتى الفرنسى، الذى هو فى حقيقته يعبر عن وجهة النظر العربية ، وأنها فعلت ذلك جرياً وراء أمل زائف من أجل ضمان إمدادها بالبترول•

وأرسلت جولدا مائير عدداً من الخطابات لدول أوروبا، تعرب فيها عن الصدمة التى لحقت بها من موقف تلك الدول إزاء أزمة الشرق الأوسط •

وكانت اجتماعات البرلمان الهولندى لمناقشة الشئون الخارجية خلال الأسبوع الأخير من شهر نوفمبر ١٩٧٣، مشحونة بالنقد الشديد لعدم تضامن دول السوق مع هولندا فى أزمتها البترولية . وكان النقد موجهاً على الخصوص إلى كل من فرنسا وبريطانيا . وظهرت شائعات أن هولندا تنوى أن تستعمل حق الفيتو فى السوق المشتركة ، إذا لم يتمكن أعضاء السوق من إصدار قرار فى صالحها خلال إجتماعهم القادم . وهو الاتهام الذى نفته حكومة هولندا .

وكتب فالتر لاكير أستاذ العلوم السياسية مقالا فى نيويورك تايمز يقول فيه :

« إن فشل السوق الأوروبية فى نجدة هولندا عندما فرض العرب عليها حظراً بترولياً شاملا ، وكذلك استقبالها الفاتر لمشروع كيسنجر بعقد مؤتمر

الدول المستهلكة للبترول ، وترددها فى المشاركة فى بناء نظام دفاعى أوروبى يمكن الاعتماد عليه ، كل هذا يكشف عن ضعف أوروبا فى مواجهة الأحداث الكبيرة. وكتبت جريدة التايمز اللندنية تتساءل هل ستصبح هولندا بسبب قرار العرب ضدها هى الحلقة الضعيفة فى سلسلة التماسك الأوربى ؟ . وهل سيؤدى هذا القرار العربى إلى تفكك هذا التماسك ؟ .

وعند ما نشرت أنباء عن وجود خلافات بين دول السوق وهولندا حول قرار السوق ، صرحت حكومة هولندا بأن موقفها أثناء اجتماع وزراء خارجية أوروبا الذى عقد فى كوبنهاجن خلال حرب أكتوبر ، قد أسيء فهمه . وأكدت أنها لم تمتنع عن الموافقة على قرار أوروبى موحد إزاء قضية الشرق الأوسط ، ولكنها عارضت تفويض انجلترا وفرنسا فى عرض هذا القرار المشترك فى مجلس الأمن [١] .

ويعكس هذا التصريح حقيقة الأوضاع داخل السوق التى يظهر فيها تياران .

الأول : يدعو إلى تقوية دول السوق — وأوروبا عموما — فى مواجهة الولايات المتحدة ، ويعارض بشدة أن يصبح موقف دول السوق من قضية الشرق الأوسط موقفاً تابعاً للولايات المتحدة ، سواء فيما يتعلق بمساندتها لإسرائيل أو بموقفها إزاء الدول المنتجة للبترول . وهو التيار الذى تتزعمه فرنسا وتؤيده فيها انجلترا [٢] .

---

(١) والحقيقة هى أن ثمة صراع يدور فى هذا المجال بين هولندا وفرنسا . فهولندا تشك دائما فى موقف فرنسا وتعتبره مواليا للعرب وضد إسرائيل .

(٢) حرصت بريطانيا دائما على ألا تحقق مخاوف ديجول من أن ضم بريطانيا للسوق الأوروبية سوف يكون وسيلة لإدخال النفوذ الامريكى إليه. ولذلك دأبت على مساندة فرنسا إلى حد أن أطلق على هيث فى واشنجطون أنه « ديجولى متدهور » .

ولا يمكن التكهن هنا بما ستكون عليه هذه العلاقة إذا ماعادت حكومة العمال بموقفها المعروف المعارض لدخول بريطانيا السوق .

الثانى : يرى حتمية توطيد روابط أوثق مع الولايات المتحدة ، ومواجهة أزمة البترول مواجهة متضامنة ، وهو التيار الذى تدعمه كل من ألمانيا وهولندا .

وكان طبيعيا أن تظهر مع هذا الاختلاف صراعات أوروبية سواء فيما يتعلق بالجهود الفردية لمواجهة أزمة الطاقة ، أو بالنسبة للاستجابة لجهود الولايات المتحدة فى إيجاد « تكتل » غربى إزاء الدول المنتجـــه للبترول ، وبدا وكان الدول الأوروبية تتفـكك .

لقد صرح فرانسوا ميتران زعيم المعارضة فى الجمعية الوطنية الفرنسية (البرلمان) بأن : « أوروبا تتحطم إربا إربا » ، وأيده عدد من رجال السياسة والبنوك ورجال الأعمال فى هذه النظرة .

وخوفا من تفاقم الأمور أذاعت لجنة السوق المشتركه بيانا حذرت فيه من اللجوء لأسلوب العزلة ، بما يمكن أن يتبع هذا من نتائج اقتصادية وسياسية .

وصرح كريستوفر سومز وهو مسئول العلاقات الخارجية فى لجنة السوق ، لبعض أعضاء حزب المحافظين البريطانى ، بأن أوروبا الموحدة سيكون فى مقدورها الصمود ، إلا إذا واجهت دول السوق المشتركة المشـكلات فرادى ، فإن الفشل سوف يكون فى انتظارها . وقال « إذا ماتأزمت الأمور وعلا ضرب الأمواج واتجه كل منا إلى أن يسبح بمفرده وسط البحار الهائجة لـكى يصل إلى الشاطىء فإنها سوف تكون مأساة . لقد وجدت السوق المشتركة نفسها وسط أزمة تهدد كيانها كله ، وتعيد الأمور إلى سابق عهدها عندما كانت دول أوروبا الغربية تتصارع فيما بينها ، وتقوم بتدابير انفرادية لحماية اقتصادها ، وتلجأ إلى خفض عملاتها وغير ذلك من أسلحة الحرب التجارية » .

وفى باريس صرح سومز فى ٣٠ نوفمبر بقوله : « إن أزمة الشرق الأوسط قد قذفت بأوروبا إلى حالة من التفـكك الشامل .. لقد رأت شعوبنا الأوروبية ،

وشعوب العالم قاطبة أنها لم تكن قادرة على أن تتصرف إزاء مشكلة سياسية طرأت فى الأفق الدولى » • وأضاف ،أنه على الدول الأوروبية إذا أرادت الوحدة أن تفضل المصالح الأوروبية على مصالح الدول الفردية .

وعندما قام وزيرى البترول فى كل من الجزائر والسعودية بجولتهما بأوروبا والولايات المتحدة ، أعرب لهم المسئولون فى فرنسا عن خشيتهم من أن يؤدى ضغط سلاح البترول إلى تفكك الوحدة الأوروبية وانهيارها . كما أكدوا أن مقاطعة العرب لهولندا قد هزت أوروبا كلها . ويقول الوزيران « إن فرنسا وبريطانيا أكدتا أهمية الحفاظ على الوحدة الأوروبية ، وأن بلجيكا ترى أن الموقف العربى أضعف هذه الوحدة ،وسبب مشاكل داخلية تشغل الحكومات الأوروبية عن الجهود المبذولة كى تكون أوروبا قوة ثالثة كبيرة بين القوتين العظميين »

والحقيقة أن العقبات التى تعترض طريق أوروبا الموحدة كثيرة متعددة . وفكرة أوروبا الموحدة قامت خلال الخمسينات والستينات كصورة براقة يسعى إليها السياسيون وعامة الشعب على حد سواء ، وظهر خلال تلك الفترة مجتمع الحديد والصلب، « والنادى الذري الأوربى » ، والمجتمع الاقتصادى الأوربى . وبدأت كل هذه المؤسسات تعمل تجاه هدف الوحدة .ولكن هذه الصورة تغيرت تماما خلال الأعوام العشرة الأخيرة لأسباب عدة متعلقة بأمور سياسية واقتصادية ومسائل الأمن[١].

وعلى ذلك لا يمكن القول بأن حرب أكتوبر كانت سبباً فى تفكك دول السوق الأوروبية المشتركة . ولكنها على أية حال قد سببت لها أزمة جديدة من المتوقع أن تستمر آثارها لفترة طويلة.ولعلها تجربة من التجارب التى تصهر الوحدة وتسهم على المدى البعيد فى نجاحها .

---

(١) أنظر دراسة فى « سبكتاتور » البريطانية ، فى ١٩٧٤/٣/١٦

ثالثا : أمريكا . . . وأوروبا

(حلف الأطلنطى)

مازال كثير من المراقبين يعتقدون أن الشقاق الذى وقع بين أمريكا وحلفائها فى غرب أوروبا ، يعد من أخطر النتائج التى ترتبت على حرب أكتوبر . فقد كانت الحرب وما ترتب عليها من مواقف ونتائج ، أول مناسبة ظهر فيها خلاف حاد فى المصالح بين غرب أوروبا وحليفتها فى حلف الأطلنطى ، الولايات المتحدة

وقد طرح هذا الشقاق كل موضوع حلف الأطلنطى على بساط البحث : من ناحية المصالح الاقتصادية ، ومن ناحية العلاقات التى تريدها كل من أوروبا وأمريكا مع روسيا ، ومن ناحية حدود حلف الأطلنطى ومدى حرية أمريكا فى استخدام إمكاناته لأغراضها الخاصة خارج أوروبا . وأدى كل هذا إلى تفجر أزمة حادة هددت بتصدع كبير فى حلف الأطلنطى .

وعلى جانبى المحيط تبادل المسئولون الاتهامات على أعلى المستويات . اتهمت أمريكا حلفاءها الأوروبيين بأنهم أخلوا بالتزاماتهم فى حلف الأطلنطى ، حين حرموها من استخدام قواعدها فى أوروبا لمساعدة إسرائيل . ورد الأوروبيون بأن حلف الأطلنطى غايته الدفاع عن الغرب ، وليس استخدام أوروبا كنقطة انطلاق لعمليات عسكرية تقفز منها أمريكا إلى مختلف أنحاء العالم . وأضافوا إلى ذلك أن أمريكا تجاوزت حلفاءها حين أعلنت حالة الطوارىء بين قواتها دون علمهم .

ورغم أنه كان من المقرر أن يكون عام ١٩٧٣ ،هو « عام أوروبا » كما وصفه الرئيس الأمريكى نيكسون من قبل . إلا أن الشقاق الذى وقع بين أمريكا وحلفائها فى أوروبا قد أوحى بالعمل على إعادة تقييم لطبيعة العلاقات الهشة التى تربطها بهم .

وأعرب المسئولون بالحكومة الأمريكية عن رأيهم فى أنه عندما انفجرت الأزمة حول تأييد الولايات المتحدة لإسرائيل ، واعتماد أوروبا على البترول العربى، ظهر أن معظم حلفاء أمريكا « هم أصدقاء لها فى حاله الرخاء فقط »، وأنه باستثناء البرتغال وهولندا ، فإن حلفاء الولايات المتحدة فى غرب أوروبا قد فصلوا أنفسهم عن جهود أمريكا لتأييد إسرائيل ، أو نشطوا فى إعاقة تلك الجهود .

ومن المعروف أن هذه الحقائق كلها قد أثارت مرارة الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون، ووزير خارجيته هنرى كيسنجر وجيمس شليزنجر وزير الدفاع إلى الحد الذى حمل الولايات المتحدة على إعادة النظر فى علاقاتها المتداخلة مع حلفائها.

وأختلف موقف الولايات المتحدة فى هذا الصدد — كما أعرب عنه شليزنجر وروبرت ما كلوفسكى المتحدث باسم وزارة الخارجية — من الضيق ، إلى النقد ، إلى القلق ، حول تماسك جهاز حلف الأطلنطى وصرحا قائلين : لقد تجمعت السحب فوق العلاقات الأمريكية — الأوروبية بسبب تحالف الولايات المتحدة مع إسرائيل فى الحرب الرابعة التى دارت بينها وبين العرب . ووقفت معظم الدول الأوروبية بعيداً ، وإن كان بعضها قد اعترض بالفعل طريق الجهود التى تبذلها الولايات المتحدة لدعم إسرائيل » .

وسواء كان ذلك خطأ أو صواباً ، فإن الرئيس الأمريكى قد لخص فى مؤتمر صحفى عقده فى أواخر أكتوبر آراء معاونيه بقوله : « إن الدول الأوروبية لم تتعاون مع الولايات المتحدة كما كان ينبغى لها فى مساعدتها فى التوصل إلى تسوية لمشكلة الشرق الأوسط .

وخرجت تصريحات واشنطون تؤكد أن هنرى كيسنجر قد أعرب عن « اشمئزازه » من منظمة حلف الأطلنطى ، على أساس أن أعضاءها الأوروبيين

لم يساندوا سياسة الولايات المتحدة فى أزمة الشرق الأوسط [١] .

وقد كانت العلاقات بين أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية متوترة فعلا لأسباب لا علاقة لها بأزمة الشرق الأوسط . ومن هذه الأسباب ما يأتى :

١ — سياسة الوفاق مع الاتحاد السوفيتى . وكان الرأى الغالب فى أوروبا الغربية — باريس بالذات — أن الوفاق على النحو الذى تم به سوف يترك أوروبا الغربية مكشوفة أمام قوة سوفيتية هائلة .

٢ — الخلل فى النظام النقدى العالمى الذى سببته السياسة الأمريكية ، وعانى منه الاقتصاد الأوروبى .

٣ — المقترحات الخاصة بأمن أوروبا كما تصورها الدكتور هنرى كيسنجر ، الذى أعلن أن عام «١٩٧٣» سوف يكون عام أوروبا، دون أن يقف على رأى أوروبا فى شىء من هذا [٢] .

وقد أضافت حرب أكتوبر إلى هذه الأسباب أسبابا أخرى جديدة أهمها :

---

(١) ذكرت هذه التصريحات أن كيسنجر واصل خلال جلسة مغلقة للجنة الشئون الخارجية التابعة لمجلس النواب الأمريكى ، حملة النقد من جانب الحكومة الأمريكية لدول أوروبا الغربية ، وهى الحملة التى بدأها نيكسون فى مؤتمره الصحفى يوم الجمعة السابق وتابعتها وزارة الدفاع ووزارة الخارجية .

وأضافت أنه بعد أن انتهى من شهادته أمام اللجنة ، انتحى جانبا حيث سمعه أحد أعضائها يقول : « لايهمنى مايحدث لحلف الأطلنطى أنى مشمئز للغاية » .

(٢) كانت التصريحات الأمريكية حول عام أوروبا هذا موضع التعليقات اللاذعة فى أوروبا. فصرح دبلوماسى فرنسى كبير بعد استماعه لكيسنجر وهو يتحدث فى شهر أكتوبر عن عام أوروبا بقوله : « إن ما يقوله كيسنجر يعنى أن علينا معشر الأوروبيين أن ننشط ونفعل شيئا خلال الـ ٩٠ يوما الباقية فى هذا العام ، وإلا فاتنا القطار وانتقل العالم إلى عام أمريكا اللاتينية أو عام أفريقيا . » وعلق مسئول بريطانى بسخرية باردة بقوله : « يبدو أن مستر كيسنجر قد نسى تماما أنه بالنسبة لنا فى أوروبا فإن كل عام نعتبره « عام أوروبا» .

* استخدمت الولايات المتحدة قواعدها فى بعض الدول الأوروبية فى نقل الأسلحة والمعدات إلى إسرائيل من غير أن تستشير حكومات تلك الدول .

* منعت بعض هذه الدول أمريكا من استخدام قواعدها فى نزاع الشرق الأوسط .

* أصدرت عدة دول فى حلف الأطلنطى بيانات « حياد » . وأبلغت الولايات المتحدة بأنها لا تستطيع أن تستخدم تسهيلاتها أو نطاقها الجوى فى عمليات إعادة تزويد إسرائيل بالأسلحة . واضطرت الولايات المتحدة إلى نقل طائراتها لإسرائيل عن طريق الحاملات المرابطة فى مواقع استراتيجية ، بدلا من استخدام القواعد الأمريكية فى اليونان وتركيا .

* قرار وزراء خارجية الدول التسع فى السوق الأوروبية المشتركة ، الذى اعتبرته الولايات المتحدة قرارا مواليا للعرب ووصفته بأنه « ينم عن الجبن والتهيب » .

* إعلان أمريكا حالة التأهب النووى فى قواعدها فى أوروبا ، دون أن تستشير الدول التى تقع هذه القواعد فى أرضها .

* محاولة بريطانيا وفرنسا تعديل مشروع القرار الذى كان مطروحا فى مجلس الأمن لإنشاء قوة لحفظ السلام فى الشرق الأوسط ، واعتراضها على موقف أمريكا الذى كان يقضى باستبعادها ضمن استبعاد الأعضاء الدائمين فى المجلس من الاشتراك فى هذه القوة .

* رفض بريطانيا طلب الولايات المتحدة بأن تشترك معها فى تقديم مشروع قرار وقف إطلاق النار إلى مجلس الأمن خلال الأسبوع الأول من الحرب .

* عمل الولايات المتحدة على « عرقلة » اشتراك بريطانيا وفرنسا فى مباحثات جنيف والمساهمة بدور إيجابى فى حل الأزمة .

* سلاح البترول الذى خرج « من جرابه » واستعمل بقوة وفاعلية ، لم تكن أوروبا تتصور أنها ستتحقق فعلا فى يوم من الأيام .

وإزاء هذا الموقف المتفجر بدأت الولايات المتحدة تلوح بسلاح تخفيض قوتها فى أوروبا ، وهى تعلم تماما معنى هذا بالنسبة لألمانيا الغربية بصفة خاصة ، وبالنسبة للأمن الأوروبى بصفة عامة [١] .

واستمرت الخلافات والمناقشات وتبادل التهم بين دول أوروبا الغربية بسبب كل واحد من هذه الأسباب على حدة ، وبسببها كلها مجتمعة . مما وضع العلاقات الأوروبية الأمريكية فى قالب جديد هدد حلف شمال الأطلنطى ، وأثر فى فاعليته ومداه .

واستلزم كل هذا أن تتخذ كل من الولايات المتحدة وأوروبا بعض الخطوات للعمل على ترميم هذا التصدع الذى ظهر فى الجبهة الأوروبية الأمريكية . فعقدت مجموعة من البرلمانيين (١٩ برلمانى) من دول أوروبا مؤتمراً مع عدد من البرلمانيين من الولايات المتحدة . ثم سافر هنرى كيسنجر إلى أوروبا لعقد لقاءات ولإجراء اتصالات تهدف إلى جمع شمل الحلفاء . وبدى واضحاً أن الجبهة المشتركة التى ظن العالم أن أوروبا وأمريكا تنطلقان منها معا قد أصابها التصدع .

---

(١) أصدر السناتور مايك مانسفيلد الذى يعتبر زعيم جماعة «أعيدوا الأولاد إلى الوطن» تصريحا لاذعا جاء فيه : أن الـ ٢٥٠ مليون من أهل أوربا الغربية ، بكل احتياطياتهم الصناعية الهائلة وخبراتهم العسكرية الطويلة ، غير قادرين على تنظيم أئتلاف عسكرى فعال لكى يحموا أنفسهم ضد ٢٠٠ مليون روسى يواجهون فى نفس الوقت ٨٠٠ مليون صينى . وبعد ٢٠ عاما استمروا فى الاعتماد على ٢٠٠ مليون أمريكى للدفاع عنهم . « يلاحظ أن فى أوربا ٣١٠ آلاف جندى أمريكى » .

استعمال قواعد حلف الأطلنطى :

بدأت الخلافات بسبب القواعد الأمريكية فى دول أوروبا الغربية واستعمالها فى شحن الأسلحة والمعدات لإسرائيل . فقد غضبت ألمانيا الغربية ـ التى أرادت أن تأخذ موقفا « حياديا » من أزمة الشرق الأوسط — عندما تبين لها أن كميات هائلة من المعدات العسكرية الأمريكية ، قد شحنت إلى إسرائيل من القواعد الأمريكية بها خلال العشرة أيام الأولى من الحرب . ثم عندما أخذت السفن الإسرائيلية — أحد أطراف الحرب — فى شحن الدبابات من منطقة الجيش الأمريكى بميناء « برمرهافن » ، على مسمع ومرأى من العالم .

وتدخلت حكومة بون ومنعت استعمال قواعدها . وأعلن متحدث باسم الحكومة « أن الثقة فى ألمانيا الغربية أصبحت فى خطر . وطالبت حكومة بون الولايات المتحدة بوقف شحنات العتاد الحربى من وعلى الأراضى الألمانية ، كما رفضت الطلبات التى قدمتها الولايات المتحدة لتوفير التسهيلات لطائرات التجسس الجوى الأمريكى من طراز (س . ر ٧١٠) التى قامت بتعزيز عمليات الاستطلاع بالأقمار الصناعية فى ميدان القتال بالشرق الأوسط .

وكان رد فعل الولايات المتحدة لإجراء حكومة بون ، عنيفاً . واشتركت وزارتا الخارجية والدفاع الأمريكيتان فى شن هجوم عات على ألمانيا الغربية . وهدد شليزنجر وزير الدفاع الأمريكى ، « بإعادة النظر فى الالتزامات العسكرية والدبلوماسية الأمريكية لبون » . وسبب هذا التهديد قلقا لحكومة بون ، التى عبرت عن قلقها بأن هذا التهديد قد أضاف وقوداً جديدا للضغوط التى تمارس فى الكونجرس لتخفيض القوات الأمريكية فى ألمانيا الغربيـــة ، وهو ما تحاول ألمانيا دائماً تحاشيه .

وبعث فيلى برانت ، مستشار ألمانيا الغربية ، برسالة إلى الرئيس نيكسون

أعرب فيها عن « تفهمه » لتصرفات أمريكا فى الشرق الأوسط بوصفها دولة عظمى . ولكنه لامها فى الوقت نفسه قائلا : إنها أخفقت فى أن تحيط حلفاءها علماً — بطريقة شاملة وسريعة — بتقديراتها لطبيعة الأزمة فى الشرق الأوسط ومداها » .

وقد أكد برانت فى خطابه أنه لا يزال يرى أن التضامن بين دول الحلف قويا كما كان ، ولكنه ذكر أن الأحداث الأخيرة قد أظهرت أن هناك حاجة ملحة إلى تشاور أفضل وأوثق بين الحلفاء ، ولا سيما فى وقت الأزمات .

ومن بون خرجت تصريحات ترد على الاتهامات الأمريكية [١] ، وفند فالترشيل وزير الخارجية التصريحات التى أدلى بها كل من وزير الدفاع الأمريكى والرئيس الأمريكى نيكسون ، حول عدم تضامن حلفاء أمريكا فى أوروبا بصفة عامة ، وبون بصفة خاصة ، مع السياسة الأمريكية أثناء التطورات الأخيرة لأزمة الشرق الأوسط . وأعلن فى حديث تليفزيونى أن « هناك أشياء لا يمكن أن تفعلها ألمانيا الاتحادية عندما تكون فى موقف الحياد » .

ولم تقتصر أزمة استغلال القواعد على ألمانيا وحدها . وإن كانت قد ظهرت هناك فى أقسى صورها . فقد تردد فى واشنطون أن الحكومة البريطانية قد رفضت « على أعلى المستويات » طلب أمريكا السماح لها باستخدام قاعدة السلاح الجوى الملكى البريطانى فى كروتبرى فى قبرص ، لنقل الإمدادات العاجلة من الأسلحة إلى إسرائيل وفسرت عبارة « أعلى المستويات » ، على أن هذا الرفض جاء من إدوارد هيث نفسه .

---

(١) كانت بعض الدوائر المسئولة فى حكومة بون قد عبرت عن « نفاذ صبرها » من انتقادات الحكومة الأمريكية لبون حول هذا الموضوع ، وقالت إن عمليات شحن الأسلحة من ألمانيا الغربية تمت بعد أن كانت الحكومة الألمانية قد تلقت تأكيدات من أمريكا بأنها توقفت.

أما إيطاليا فقد أعلنت أنها ليست ملتزمة بمساندة سياسة الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط ، لأن حلف شمال الأطلنطى حلف دفاعى فقط . وفى الوقت نفسه حظرت أسبانيا واليونان وتركيا وإيطاليا تحليق الطائرات الأمريكية المشتركة فى الجسر الجوى الأمريكى لإسرائيل فوق أراضيها أو الهبوط فيها[1] .

إعلان التأهب النووى :

وبعد أن أثار استعمال القواعد ما أثار من خلافات ، تفجر موقف آخر سببه إعلان الولايات المتحدة حالة التأهب النووى بين قواتها ، دون التشاور مع حلفائها . وكانت وجهة نظر أوروبا أن أمريكا « ليس من حقها توريط حلفائها دون استشارتهم » . بينما كانت وجهة نظر أمريكا « أن أوروبا تخلفت عن التزاماتها ساعة المواجهة الشاملة » .

وقد أعربت المصادر الفرنسية المسئولة عن رأيها فى الولايات المتحدة ، وقالت إنها هى الجانب المخطىء فى حلف الأطلنطى ، إذ لم تستشر أعضاء الحلف فى كيفية تصرفها إزاء أزمة الشرق الأوسط .

وتقول هذه المصادر أن الرئيس الفرنسى جورج بومبيدو ، قد ازداد إقتناعاً بأن فرنسا كانت على صواب منذ سبع سنوات عندما طلبت من الولايات المتحدة نقل قواعدها الحربية من الأراضى الفرنسية .

وكانت الصحافة الفرنسية مريرة فى نقدها . فقد تحدثت الصحف الفرنسية

---

(١) لوحظ أن تركيا لم تحتج على تحليق الطائرات السوفيتيه فوق أراضيها ، وثمة شكوك بأن اليونان قد فعلت ذلك . ونفت الحكومة اليونانية أن أية طائرات سوفيتيه حلقت فوق أراضيها . وذلك على الرغم من أن الطائرات السوفيتية قد ملأت الأجواء اليوجوسلافية المجاورة لها .

عن صدمتها لما وصفته « بقعقعة الأسلحة النووية » ، وأشارت إلى « التأهب الزائف » و « الإجراءات المسرحية الخطرة » .

وفى بروكسل اجتمع مجلس دول حلف الأطلنطى مرتين فى خلال ٢٤ ساعة ، وذلك لمناقشة هذا القرار الذى أثار تعجب كل الدول الأعضاء (١٥ دولة) . ووقف مندوبو الدول فى الحلف يبدون تعجبهم من القرار . وبينما صرح بعضهم أنه قرار كان لا داعى له إطلاقاً ، أعرب آخرون عن استيائهم من أقدام الولايات المتحدة على هذا القرار دون استشارتهم ، بينما أعلن آخرون صراحة أنهم لا يفهمون تماما ما كانت تفعله الولايات المتحدة ، أو لماذا أقدمت على فعله .

ووسط كل هذا جلس مندوب الولايات المتحدة يدون كل هذه الاعتراضات والتعليقات من غير أن يبدى أى تفسيرات لتصرفات حكومته .

وفى انجلترا بلغ الاستياء ذروته ، وكان قرار نيكسون بإعلان حالة التأهب النووى دون استشارة دول الحلف موضع تعليقات الصحافة والإذاعة . كما كان موضوع مناقشة جلسة مجلس العموم فى ٢٥ أكتوبر . ولم يتمكن خلالها السير أليك دوجلاس هيوم وزير الخارجية من الإدلاء بأية بيانات مفصلة عن هذا القرار . وعندما سأله كالاهان (وزير الخارجية فى حكومة الظل وقتئذ ووزير الخارجية الحالى) عن درجة التأهب التى تطبق على القوات الأمريكية الجوية المتواجده على أراضى بريطانية ، وعما إذا كانت الولايات المتحدة قد طلبت إذن بريطانيا فى هذا الخصوص ، أو حصلت عليه، أجاب وزير الخارجية بصراحة : « ليس لدى المعلومات الكافية التى تسمح لى بالرد على سؤلك ، وإن كنت أرجو أن أعرف شيئا فى القريب العاجل » .

وقد أثار هذا الرد تعجب واستياء أعضاء مجلس العموم الذين أعلنوا صراحة تشككهم فى « رجاحة قرارات نيكسون، بل وفى درجة اتزانه العاطفى وتماسكه » .

وقال كريستوفر ماهيو النائب العمالى المعروف « طالما أنه لايوجد دليل كاف على نية الاتحاد السوفيتي بإرسال قوات إلى الشرق الأوسط ، فإن وضع القوات النووية الأمريكية بكاملها فى حالة تأهب فى هذه المرحلة الحرجة لابد أن يؤخذ كدليل يؤكد الشكوك التى تثار حول قدرة الرئيس الأمريكى على اتخاذ قرارات متزنة » .

وكان رد وزير الخارجية الذى أقر فيه للمرة الثانية أنه ليس لديه معلومات كافية لا بخصوص حالة التأهب ولا عن التحركات السوفيتية ، بمثابة اعتراف صريح بانهيار « العلاقات الخاصة » التى كانت الحكومة البريطانية دائما تفخر بوجودها بين بريطانيا والولايات المتحدة ، وتعتز باستمرارها . بل لقد وصف بعض النواب هــــذه الجلسة بأنها كانت بمثابة « حفل تأبين » للعلاقات الأمريكية البريطانية .

وظهر لورد كارنجتون وزير الدفاع البريطانى فى التليفزيون يقول : « هناك صعوبة بين أوروبا وبين الولايات المتحدة فى الوقت الحاضر بشأن الموقف الذى نجم عن هذه الحرب ، ذلك أن مصالح أوروبا كانت مختلفة عن مصــالح الولايات المتحدة ، وأظن أن الولايات المتحدة تفهم ذلك » .

وعلقت صحيفة « صنداى تايمز » البريطانية على الانتقادات التى وجهتهـــــا الولايات المتحدة إلى دول حلف الأطلنطى ، فقالت « إن هــذا الحلف لم يقض مطلقاً بأن يعنى الإنتماء إليه ضرورة مساندة الدول الأوروبية للمطالب الصهيونية التى تثقل عاتق الرؤساء الأمريكيين » . وانتقدت الصحيفة الحكومة الأمريكية لأنها لم تخطر حلفاءها بقرار وضع القوات الأمريكية فى حالة تأهب نووى بسبب الأزمة فى الشرق الأوسط .

* * *

وقالت صحيفة « نيوز أوف ذى وورلد » البريطانية أن مسلك الولايات المتحدة

فى وضع قواتها فى حالة تأهب نووى بسبب أزمة الشرق الأوسط دون استشارة حلفائها يعتبر إهانة لدول أوروبا الغربية .

وقالت : « لقد حان الوقت الذى تتكلم فيه دول أوروبا بصوت واحد لتضع واشنطن فى مكانها المناسب » .

وتساءلت صحيفة « الديلى ميرور » البريطانية عما إذا كانت حالة الطوارىء التى أعلنت حقيقة ، أو أنها « مجرد وسيلة لتحويل الأنظار عن الفضائح التى تموج من حول الرئيس الأمريكى نيكسون ؟ » .

البترول :

كان ثالث البراكين التى صدعت العلاقات بين أوروبا وأمريكا متعلقاً بأزمة البترول، وتخفيض البترول العربى. فقد فجر قرار ثمان من الدول العربية المنتجة للبترول بتخفيض إنتاجها من البترول انشقاقاً جديداً بين الدول الأعضاء فى حلف شمال الأطلنطى ، وأصبح السؤال المطروح هو ما إذا كان فى وسع الشركات الغربية التعاون معا لتأمين الحد الأدنى من احتياجات الجميع ، أم أن كل دولة ستشق طريقها بنفسها فى منافسة مدمرة على إمدادات البترول المتبقية فى سوق البترول ؟ وهى سوق كانت محدودة حتى قبل إندلاع الحرب فى ٦ أكتوبر .

وكتبت صحيفة نيويورك تايمز الأمريكية تقول إن الولايات المتحدة تشعر بالغضب إزاء القيود التى تفرضها الدول الأوروبية ، وهى القيود التى توجه بصورة أساسية ضد الولايات المتحدة . وتقول الدول الأوروبية أن الولايات المتحدة مبذرة للغاية كمستهلك للطاقة ، وهى لا تحتاج إلى البترول العربى بنفس القدر الذى تحتاج إليه أوروبا .

وتستورد أمريكا ٥٠٠ ألف برميل من البترول الخام أو منتجات البترول

التى تصل إليها عن طريق أوروبا . وتشترى أمريكا كل عام كميات ضخمة من البترول من أوروبا لأغراض التدفئة خلال فترة الخريف (أكتوبر) . والمراكز الأساسية لشحن البترول من أوروبا لأمريكا هى إيطاليا وبلجيكا وهولندا .

وعندما قامت الحرب واستعمل سلاح البترول العربى ، قررت إيطاليا وقف تصدير الكيروسين والجازولين . وأعلنت بلجيكا وهولندا فرض متطلبات خاصة لإصدار تصاريح تصدير البترول . وأثر كل ذلك على رصيد الولايات المتحدة من البترول المستورد .

وقد لخص مسئول بريطانى الشعور الذى يسود أوروبا بقوله : « إن الأمر ببساطة هو أنه ليس من العدل أن تستهلك دولة يمثل تعداد سكانها ٦ ٪ من سكان العالم ، ما يوازى ثلث مصادر الطاقة فى العالم » .

وكان الرد الأمريكى السريع على ذلك ، هو أن واشنطن قد سارعت إلى مساعدة أوروبا فى أزمة البترول التى نشبت فى ١٩٥٦ — ١٩٥٧ ، وذلك فى أعقاب العدوان الثلاثى الذى اشتركت فيه فرنسا وبريطانيا وإسرائيل فى محاولة للاستيلاء على قناة السويس . والآن لقد جاء دور أوروبا لكى تكون كريمة مع أمريكا .

وصرحت بعض المصادر فى الولايات المتحدة ، بأن قطع الدول العربية لإمدادات البترول عن بعض الدول ، وتخفيض إنتاجه ، هو الأمر الذى أدى إلى تخلى الدول الأعضاء فى حلف الأطلنطى عن تضامنها مع الولايات المتحدة .

* * *

رابعا : أمريكا ... وروسيا

(وسياسة الوفاق)

قد يـكون من المهم قبل التعرض لأثر حرب أكتوبر على سياسة الوفاق، أن نوجز موقف كل من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة من الحرب الرابعة . .

اولا : الاتحاد السوفيتى :

أثبتت الحرب أن الاتحاد السوفيتى لم يتخل عن الوقوف بجـانب الحق العربى ، ودعم القوات المسلحة العربية فى حربها العادلة من أجل استرداد الأرض العربية المحتلة ، على الرغم من حرصه على استمرار جو الانفراج الدولى ، وتعزيز علاقاته بالولايات المتحدة، باعتبار العلاقات الأمريكية السوفيتية هى حجر الزاوية فى سياسة الوفاق بينهما . وذلك على الرغم من اتفاق كل من الاتحاد السوفيتى وأمريكا ـ فى أعقاب الوفاق ـ على بقاء مشكلة الشرق الأوسط فى حالة « استرخاء » .

ففى ثانى أيام الحرب أصدرت الحكومة السوفيتية بياناً وافياً عن تطورات الموقف فى الشرق الأوسط ، حملت فيه إسرائيل نتائج عدوانهـا المتـكرر على الدول العربية . وقال البيان « أن مسئولية تطورات الأحداث الراهنة فى الشرق الأوسط وعواقبها تقع كلها على إسرائيل ، وعلى الدوائر الرجعية الخارجية التى تشجع إسرائيل دائماً فى أطماعها العدوانية » .

وجاء فى البيان السوفيتى : « ومن المعروف أن الدول العربية قد أظهرت قدراً هائلا من ضبط النفس والاستعداد للوصول إلى تسوية سياسية للنزاع على أسس عادلة . ولـكن جهود الدول العربية ، وجهود الأمم المتحدة وجميع القوى المحبة للسلام للتوصل إلى سلام دائم وعادل فى الشرق الأوسط ، قد اصطدمت بموقف العرقلة الذى أصرت إسرائيل على انتهاجه .. والأحـداث الراهنة فى الشرق ، هى نتيجة مباشرة لاستمرار العدوان الإسرائيلى » .

ولم تقف جهود السوفيت عند هذا البيان . فقد أعلن ليونيد بريجنيف إن الاتحاد السوفيتي لايزال مستعداً للإسهام فى إقامة سلام عادل ودائم فى الشرق الأوسط . وقال بريجنيف « إن تعاطفنا يتجه بطبيعة الحال نحو مصر وسوريا اللتين تحاولان تحرير أراضيهما » :

ولم تكتف حكومة موسكو بمساندة الدول العربية المتحاربة . . والإصرار على حث الدول العربية الأخرى على الإسهام فى المعركة ، بل شملت اتصالاتها أيضاً دول السوق الأوروبية المشتركة . فقد أكدت صحيفة الجارديان البريطانية أنه بالرغم من أن الاتحاد السوفيتي لا يعترف بالسوق الأوروبية ، ويخشى أن تتطور كى تصبح قوة سياسية يحسب حسابها فى المسرح الدولى ، إلا أن الدبلوماسيين السوفيت يحثون بهدوء دول السوق التسع ، على اتخاذ موقف مشترك يكون مؤيداً للعرب فى تسوية أزمة الشرق الأوسط .

وفى ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، وصل كوسيجين إلى القاهرة حيث أمضى ثلاثة أيام ، اجتمع خلالها بالرئيس السادات خمس مرات ، فيما أسماه هيوم وزير خارجية بريطانيا فى مجلس العموم : « مهمة سلام تعطى بصيصاً من الأمل ، بأن القوى الكبرى بدأت تعمل من أجل التوصل للسلام » .

وعندما أرسل بريجنيف مذكرته السرية إلى الرئيس نيكسون ، صرح نيكسون فى مؤتمره الصحفى بأن رسالة بريجنيف . . . « تركت القليل جداً للخيال بالنسبة لمقاصده» . وحينما يحين الوقت المناسب لإذاعتها فإنها سوف تفصح عن الكثير من أسرار حرب أكتوبر » .

ويؤكد بعض المحللين أن إعلان أمريكا حالة التأهب جاء نتيجة لهذه الرسالة ، وأن الرئيس نيكسون أعطى رده بطريقة « رعاة البقر » الأمريكية ، الذين يقابلون

العنف بالعنف وكانت الضحية المباشرة لكل هذا هو درجة تماسك وصلابة سياسة الوفاق. وكانت الضحية « المحتملة » هى العالم كله الذى خيم عليه لأيام شبح حرب نووية رهيبة .

ثانيا : الولايات المتحدة :

كان موقف الولايات المتحدة من خلال حرب أكتوبر كذلك واضحاً . فقد أخذت جولدا مائير تؤكد أن إسرائيل ما هى إلا كيان واحد من أمريكا[1] .

وكانت سياسة الحكومة الأمريكية تتمشى تماما مع هذا الاتجاه ، رغم بعض « التباطؤ » أو التردد فى إرسال الأسلحة ، ورغم ما أشيع من أن الولايات المتحدة قد وافقت على إمداد إسرائيل بالأسلحة ، « شريطة أن تتكفل الأخيرة بعمليات النقل ، وأنها لم تعدل عن هذا الشرط إلا تحت ضغوط قوية » .

عندما بدى واضحاً أن إسرائيل أصبحت على حافة الهزيمة ، أقامت حكومة الولايات المتحدة الجسر الجوى المستمر ، بما مكنها من استعادة توازنها العسكرى الذى كان قد اختل . وخلال أربعة أسابيع من بدء القتال أرسلت الولايات المتحدة ماقيمته أكثر من بليون دولار من الأسلحة إلى إسرائيل .

ورغم أن السناتور الجمهورى مارك هاتفيلد قد صرح بأنه سيسعى فى الكونجرس الأمريكى إلى استصدار قانون بمنع استخدام أى قوات أمريكية فى الشرق الأوسط ، وأنه سيتقدم بتعديل لمشروع القانون الذى قدمه نيكسون إلى الكونجرس (والذى يقضى باعتماد ٢٫٥ مليار دولار من المساعدات العسكرية لإسرائيل) ، بمنع فتح أى اعتمادات مالية لتمويل أى عمليات عسكرية أمريكية بطريقة مباشرة أو

---

(١) عندما كانت اسرائيل تحتفل بالذكرى الخامسة والعشرين لقيام دولة اسرائيل . . . فان مدينة نيويورك ـ معقل الصهيونية فى الولايات المتحدة ـ اقامت احتفالات واسعة النطاق للاحتفال بهذه الذكرى .

غير مباشرة .. رغم كل ذلك فإن الـكونجرس وافق فى النهاية على اعتماد المبلغ، وصدر القرار الذى وصفه فولبرايت رئيس لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ بأنه « قرار مجنون »[1] .

وعلى الرغم من محاولات فولبرايت وغيره ، إلا أن الشعور الموالى لإسرائيل كان قوياً متدفقاً • وفى حديث خاص صرح لنا أحد الساسة الأمريكيين المعتدلين بقوله « كانت الحملات المحمومة التى تفشت فى الولايات المتحدة لمساندة إسرائيل، تحمل على الاعتقاد بأن الجيوش العربية على أبواب نيويورك بعد أن عبرت المحيط الأطلنطى ، وليست تحارب على أرضها فى سيناء بعد أن عبرت قناتها . فقد تناست الجاليات اليهوديه فى أمريكا تماما أن هذه الحرب تقوم من أجل استرداد اراضى انتزعت من أصحابها بالقوة . والهبوا المشاعر كما لو كان « أمن الولايات المتحدة الأمريكية » ذاتها هو الذى تهدده الأخطار . فاجتـاحت شوارع المدن الرئيسية مظاهرات تهتف لإسرائيل ، وتنادى بجمع الأموال ، وأقيمت المؤتمرات الجماهيرية الغاضبة التى تدعو الحـكومة والأفراد للتدخل بالعمل والعطاء» .

وخلال أيام الأولى للحرب جمعت ملايين الدولارات فى ميـامى ونيويورك وشيكاغو ولوس انجلوس، وكل المدن الرئيسية مساعدة لإسرائيل .وقامت طائرات خاصة استأجرها جناح « شروت لئام » ، وهو أحد أجنحة المنظمة الصهيونية العالمية، بنقل ٣٥٠ شاباً أمريـكياً صهيونياً إلى إسرائيل للعمل بها . وصرح ناحوم ريمنن المسئول عن المتطوعين بقوله : « إننـــا نتلقى كل يوم آلاف من طلبات التطوع » .

ولم تـكتف المنظات الصهيونية بجمع الأموال والدماء لتدفع بها ثمن أطماع

( ) فولبرايت هو الذى قاد مجموعة فى الـكونجرس تطالب بتجنب معركة كبيرة فى سيناء وضرورة بقاء القوات المصرية فى سيناء ، واستخدام انتصار العرب للوصول إلى تسوية عادلة. بينما قاد جاكسون المجموعة التى تطالب بمساندة إسرائيل بلا حدود .

إسرائيل ، ولـكنها أيضاً قامت بحملات منظمة متعددة تدفع بها قطاعات المجتمع للضغط سياسياً على الحكومة الأمريكية حتى تعطى المعونات لإسرائيل .

فمثلا الجمعية الأمريـكية الإسرائيلية للشئون العامة ، نظمت إرسال سيل من البرقيات والرسائل لـكل مسئول فى الحكومة ، بل أجبرت كل أمريكى يهودى على أن يتصل تليفونياً وكتابة بممثليه فى الـكونجرس يرغمهم على مساندة إسرائيل سياسياً ومالياً . وصرح أحد الصهيونيين أعضاء الـكونجرس قائلا : « إننا فى العادة نعمل على إثارة مشاعر الأفراد والجاليات حتى نحصل على أموالهم وعلى تعاونهم ولـكننا وجدنا أنفسنا هذه المرة فى حاجة إلى أن نهدىء من حماسهم » .

وعقد بزايا كتبن رئيس جمعية إسرائيل للضغط السيـاسى على الـكونجرس الأمريكى ـ وهى جمعية صهيونية مقرها واشنطون ، كل هدفها التأثير على قرارات الـكونجرس بما يحقق الصالح الإسرائيلى — اجتماعاً حضره ٣٠ أمريكى يمثلون القيادات الصهيونية الأمريكية ، وأصدروا قرار « إدانة للعرب ، ومطـالبة الحـكومة الأمريكية بإمداد إسرائيل بكل ما تحتاجه من مساعدات » . وأخذ أعضاء الجمعية يدفعون هذا القرار حتى حصلوا على موافقة عدد من الأعضاء عليه . وهذه حقيقة حركية — ديناميكية — عملية اتخاذ القرارات السياسية والاقتصادية فى أمريكا . فالأمور تسوى عادة خارج الـكونجرس وليس داخله ، عن طريق الجماعات الضاغطة ، ثم تدفع داخله بطريقة أو بأخرى فى الاتجاه الذى تم تحديده سلفاً[1] .

ورغم الأصوات التى ارتفعت بالمعارضة ، صدر قرار الـكونجرس بالموافقة على اعتماد مبلغ ٢و٦ بليون دولار معونات عسكريه لإسرائيل . . بالإضافة إلى ما تدفعه الجاليات اليهودية فى أمريكا[1] .

---

(١) ورغم كل هذا ـ واللانصاف ـ ظهرت أيضا فى الولايات المتحدة قرارات ضعيفة ، وارتفعت أصوات خافتة تؤيد حق العرب ، وحقوق شعب فلسطين . منها التيار الذى تبناه الأمريـكيون العاملون فى الدول العربية . ومنها ذلك الذى نشطته شركات البترول الأمريكية ، ومنها ما أعلنته منظمات الطلبة والمغتربين العرب .

منع الحرب النووية . أساس سياسة الوفاق :

كان طبيعياً أن يثير التفاوت الواضح بين موقف كل الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة من الحرب فى الشرق الأوسط المخاوف حول سياسة الوفاق التى قامت بينهما .

وعندما أعلنت الولايات المتحدة حالة التأهب النووى ، بدى وكأن سياسة الوفاق قد نسفت تماما . وكان السبب واضحاً ، فالعلاقات السوفيتية — الأمريكية كانت قد تمكنت فعلا من أن تتبلور فى اتفاقيات حول عدد من المسائل الهامة ، فى مقدمتها « وثيقة المبادىء الأساسية للعلاقات المتبادلة بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة » ، واتفاقيات أخرى[1] .

وساد الاعتقاد بأنه رغم الخلافات الأساسية فى الطبيعة الطبقية والنظام الاجتماعى ، ورغم التناقضات السياسية الواسعة بين البلدين حول عدد من القضايا الهامة .. إلا أنه من الممكن أطراد نمو سياسة الوفاق طالما كانت هناك مجالات يمكن أن تلتقى فيها مصالح كل من القوتين التقاء واضحاً ، وأن أول هذه المجالات قوة ووضوحا هو التقاء مصالح كل منها فى منع الحرب النووية[2] .
وأصبح تجنب المواجهة النووية هو الأساس الذى تقوم عليه سياسة الوفاق .

---

(١) منها اتفاقيات تحريم التجارب النووية وتخزين الأسلحة النووية ، والحد من سباق الأسلحة الاستراتيجية وحماية البيئة ، وتوسيع نطاق العلاقات التجارية والاقتصادية ، وتنمية التعاون الزراعى ، وأستكشاف المحيطات . واتفاقيات أخرى فى مجال النقل والمواصلات وغيرها.

(٢) أنظر : حمدى عبد الجواد ، التحول فى العلاقات السوفيتية الأمريكية ، (مجلة الطليعة ، عدد ٨ أغسطس ١٩٧٣) .

وبالرغم من تفاؤل عام ساد فترة بالنسبة لسياسة الوفاق فقد كان لها فى أمريكا نقاد كثيرون، حتى قبل نشوب القتال بين العرب وإسرائيل.

وكان السؤال الذى يطرح دائماً هو: هل تستطيع الولايات المتحدة حقاً تحسين علاقاتها مع دولة تختلف معا تماما فى نظرتها إلى الأمور وفى العقيدة ؟

وكان النقد موجها إلى كل تقارب مع الاتحاد السوفيتى ، وخاصة إلى جهود الحكومة الأمريكية التى تستهدف الحصول من الكونجرس على قرار بعدم التمييز ضد الروس فى التعريفة الجمركيه. وطالب نقاد سياسة الوفاق بربط أى خفض فى التعريفات الجمركية بهجرة اليهود بغير قيود من الاتحاد السوفيتى . كما طالبوا بمنع القروض الممنوحة للروس بموافقة الحكومة من بنك الاستيراد والتصدير . ريثما تتغير سياستهم فى الهجرة .

وعند ما نشب القتال هب نقاد السياسة السوفيتية ، والمشككين فى سياسة الوفاق يشيرون إلى دور الاتحاد السوفيتى فى إمداد مصر وسوريا بالسلاح قبل الصدام وخلاله ، وإلى دعوته لسائر العرب إلى المشاركة فى القتال . مؤكدين أن جهود تحسين العلاقات قد أخفقت ، وأن الولايات المتحدة قد تعرضت للخداع عندما أخذت على عاتقها هذه الجهود .

ثغرة فى الوفاق :

منذ دق جرس التليفون فى جناح الدكتور كيسنجر بالدور ٣٥ بفندق والدروف أستوريا بنيويورك لينقل إليه نبأ القتال ، أصبحت سياسة الوفاق ، وما يمكن أن يحدث لها ، هى شغله الشاغل . وكان واضحاً من البداية أن إنهاء سياسة الوفاق أو حدوث مواجهة بين القوتين كان يشغل بال وزير الخارجية الأمريكى، أكثر مما كانت تشغله الأخطار التى تعرضت لها إسرائيل . فقد كانت هذه السياسة من

صنعه شخصياً ، وهو مولع بالنجاح الشخصى. أما إسرائيل فقد صنعها من سبقوه .
وصرح كيسنجر وقتها أن سياسة الوفاق لايمكنها أن تتحمل أى أحداث متهورة فى أى منطقة فى العالم بما فى ذلك الشرق الأوسط .

ومع ذلك فقد أصرت الولايات المتحدة على أن تحد من انتصار العرب — أو هكذا تصورت — للأسباب التى أوضحناها . فسارعت إلى إمداد إسرائيل بكميات من الأسلحة جديدة فى نوعها، رهيبة فى كمياتها . ومكنت شارون من التعرف على المفصل الذى ركز فيه قواته ونجح فى إحداث ثغرة الدفوسوار التى خسرت فيها إسرائيل الكثير من العتاد والرجال ، وتزعزت بسببها العلاقات السوفيتية الأمريكية .

وفى ١٩ أكتوبر خرجت تقارير جهاز الأمن القومى الأمريكى تؤكد أن قوة سوفيتية قد وضعت فى حالة تأهب تام . وفى أعقاب رسالة من بريجنيف إلى نيكسون طار كيسنجر فجر يوم ٢٠ إلى موسكو لمقابلته ، ولم يتفقا على وقف إمداد القوات المتحاربة بالسلاح ، إنما اتفقا على العمل من أجل الوصول إلى اتفاق بوقف إطلاق النار ، ثم محاولة الوصول إلى حل دائم . وفى يوم ٢٢ أكتوبر أعلن وقف إطلاق النار، ودقت معه أجراس الخطر بالنسبة لسياسة الوفاق وتوالت الأحداث على النحو التالى :

١ — أشارت تقارير مخابرات الولايات المتحدة إلى أن الاتحاد السوفيتى . قد وضع قوة سوفيتية قوامها ٥٠٫٠٠٠ جندى فى حالة استعداد كامل لنقلها بالطائرات إلى منطقة الشرق الأوسط ، للتأكد من احترام وقف إطلاق النار إذا اقتضى الأمر ذلك .

٢ — كان هذا يعنى فى نظر الولايات المتحدة تزايد قوة السوفيت فى المنطقة ، خصوصاً وأن للسوفييت قوات بحرية قريبة من الإسكندرية وبورسعيد ، بينما السياسة الأمريكية لم تتجه إلى ارسال قوات إلى إسرائيل . وأصبح الموقف ينذر بالخطر .

٣ — فى هذه الأثناء كانت إسرائيل قد خرقت اتفاق وقف إطلاق النار واستولت على أراضى جديدة ولم تتمكن الولايات المتحدة من منعها أو إيقافها .

٤ — فى ٢٤ أكتوبر زار دوبرفين السفير السوفيتى كيسنجر فى مكتبه بوزارة الخارجية الأمريكية زيارة طويلة . وبعد أن انصرف بساعات قليلة عاد أحد موظفى السفارة السوفيتية إلى وزير الخارجية الأمريكى برسالة من بريجينيف موجهة إلى نيكسون . وهى الرسالة التى وصفت بعد ذلك بأنها كانت قاسية اللهجة . وكان مضمونها أنه إذا لم توقف الولايات المتحدة إسرائيل فإن الاتحاد السوفيتى سوف يتدخل فى الموقف للتأكد من احترام وقف إطلاق النار .

لقد تحقق ما جاء منذ ثلاثة سنوات فى بحث لمعهد الدراسات الاستراتيجية بلندن : « وانقلب الذين يتخذون موقف الحمائم فيما يرتبط بفيتنام إلى صقور فيما يختص بالشرق الأوسط[1] » . وقرر كيسنجر ومستشاروه ألا يعطوا أى انطباع بالضعف ، وإنما انطباعاً بالتشدد .

وفى يوم ٢٥ أكتوبر ، الساعة ١١٫٣٠ صباحاً ، أمر شلزنجر وزير الدفاع بإعلان حالة الطوارئ من الدرجة الثالثة ، وهى تقضى بأن تكون القوات فى حالة تأهب تام . وكان المقصود أن يكون هذا إنذاراً إلى الاتحاد السوفيتى . وفى الساعة الثانية بعد منتصف الليل وضع شلزنجر الأمر فى صورته النهائية ، ووافق عليه نيسكسون. وفى الساعة الثالثة ، بدأت فعلا حالة الطوارئ من المستوى الثالث بالنسبة لقوات أمريكية يبلغ عددها ٢ مليون وثلثمائة ألف مقاتل ، يتواجدون فى أنحاء العالم كله . وغادرت القوة الجوية الاستراتيجية رقم « ب ٢٥ س » قاعدتها فى جوام متحركة تجاه الولايات المتحدة. وهنا ظهر شبح الحرب النووية وانهار الأساس الذى كان ممكنا أن تلتقى عليه مصالح كل من القوتين العظميين بأساً .

---

(١) معهد الدراسات الاستراتيجية : أبحاث الأمن الأوربى ، ودراسات استراتيجية ، (لندن : ١٩٧٠) . ص ٤٢

وكانت هذه أول مرة منذ ١١ عاماـ وقت أزمة كوباـ تتخذ حالة استعداد تمثل هذه الضخامة من القوات الأمريكية . وكان رد فعل العالم عنيفاً ومؤثراً على كلا الطرفين . فاتفقت الدولتان على أن تقوم قوات الأمم المتحدة بالتوجه إلى الشرق الأوسط ،على ألا تشترك فيها قوات « من أية دولة من الدول الخمس الكبار » . لقد أدركت كل من روسيا وأمريكا أن مصالحها هى الأهم والأولى بالرعاية من مصالح « حلفائها». واتضح لهما أن كلا منها لن تكسب فى حالة مواجهة حقيقية مع القوة الأخرى . . ومن باب أولى فى حالة حرب معها .

* * *

لقد كانت حرب أكتوبر فعلا تحدياً كبيراً لعلاقات أوروبا بإسرائيل، وعلاقات الدول الأوروبية بعضها ببعض ، وعلاقة أوروبا بأمريكا ، وعلاقة أمريكا بالاتحاد السوفيتي . وبدأت بها فى كل من هذه المجالات مرحلة جديدة .

وفى النهاية يمكن القول أنه إذا كانت دول أوروبا قد اجتازت الامتحان ، وأن حلف الأطلنطى قد تخطى العثرات التى هددته ، فإن سياسة الوفاق ما زال أمامها عدد من التساؤلات لا يمكن أن تجد الإجابة عليها سوى من خلال الأحداث القادمة .

* * *

وايا كانت نتائج اعلان حالة التاهب من جانب الولايات المتحدة فى التاثير على العلاقات الاوربية الامريكية ، او على العلاقات السوفيتية الامريكية ، فانه من المؤكد – من وجهة نظرنا – انها قد ادت الى منع تواجد قوات اى من القوتين الكبيرتين على ارضنا ، مع ما كان يمكن ان يترتب على هذا من استمرار التواجد مستقبلا .

* * *

رسالة عربية إلى أوروبا

لم تنس الدول العربية كل هذه المواقف الأوروبية . فهى – بغض النظر عن دوافعها – تمثل تحولا جوهرياً مهدت له الاتصالات الدبلوماسية ، وحققته الإنجازات العسكرية . وكانت أول مناسبة رسمية يعرب فيها العرب عن تقديرهم لهذه المواقف ، فى مؤتمر القمة العربى بالجزائر المنعقد فى ١٩٧٣/١١/٢٨ ، حيث وجه الرؤساء والملوك العرب بياناً إلى أوروبا الغربية جاء فيه :

« إن العالم ، الذى يتابع باهتمام تطورات مشكلة الشرق الأوسط ، من حقه أن يعرف بالتحديد ماذا نريد ، وأن يشاركنا فى تصور آمالنا ورؤيتنا للمستقبل فى منطقتنا وفى العالم أجمع » .

« إننا نؤكد للعالم أننا نسعى فى إطار الشرعية الدولية لتحقيق سلام دائم ، على أساس استرجاع أرضنا المحتلة واستعادة الحقوق الوطنية لشعب فلسطين ، ونحن نسعى فى هذا الإطار لإقامة منطقة سلام فى الشرق الأوسط تحقق مصالحنا ومصالح دول العالم كلها ، ونحرص على إبعاد الصدام الدولى عن المنطقة إيماناً منا بميثاق الأمم المتحدة ومبادىء عدم الانحياز » .

« وإذ نعبر عن تقديرنا العميق للمساهمة الإيجابية البناءة التى قام بها إخوتنا وشركاء نضالنا فى أفريقيا وآسيا ودول عدم الانحياز والدول الاشتراكية ، فإننا نتطلع بمزيد من العناية والاهتمام لبوادر التفهم لمواقفنا التى بدأت تبدو فى دول أوروبا الغربية ، كما نعلن عن استعدادنا المخلص للتعاون فى الجهود المبذولة فى نطاق الأمم المتحدة لإرساء السلام العادل فى المنطقة » .

« إن أوروبا الغربية تتصل بالشعوب العربية عبر البحر الأبيض المتوسط بصلات حضارية متينة ، ومصالح حيوية متداخلة لا يمكن أن تنمو إلا فى إطار تعاون تسوده الثقة والمصالح المتبادلة ، وهى لهذا جديرة باتخاذ موقف واضح

منصف إزاء قضيتنا العادلة تثبيتاً لاستقلال إرادتها، وأداء دورها كاملا فى الشئون الدولية . وذلك بالالتزام بالعمل بجميع الوسائل على انسحاب إسرائيل من جميع الأراضى العربية المحتلة وفى مقدمتها القدس ، واستعادة الشعب الفلسطينى لحقوقه الوطنية » .

« إن العرب حريصون على صداقة جميع الشعوب ، وهم يريدون تبادل المنافع معها دون تمييز ، على أساس ضمان حقوقهم المشروعة وصيانة مصالحهم الحيوية ، وهم حريصون كذلك على الإسهام فى توفير الرفاهية للعالم ، على أن يسهم العالم معهم فى توفير العدالة والأمن فى منطقتهم » .

* * *

خاتمة :

لقد وضح خلال فصول هذا الباب الثلاثة ، كيف تغيرت الصورة داخل اسرائيل ، ثم كيف تغير الموقف فى كل من افريقيا واوروبا ، بل فى العالم اجمع . ويمكن القول بان اسرائيل فى عام ١٩٦٧ ، كانت قد كسبت الحرب ، ولكنها خسرت السلام . اما فى عام ١٩٧٣ ، فقد خسرت اسرائيل كل شىء وبدات تظهر تحولات واضحة فى اتجاه مساندة العرب . وكان الأمر الذى جعل هذه التحولات تصبح موقفا محددا ، هو حرب اكتوبر وما جاءت به من احداث .

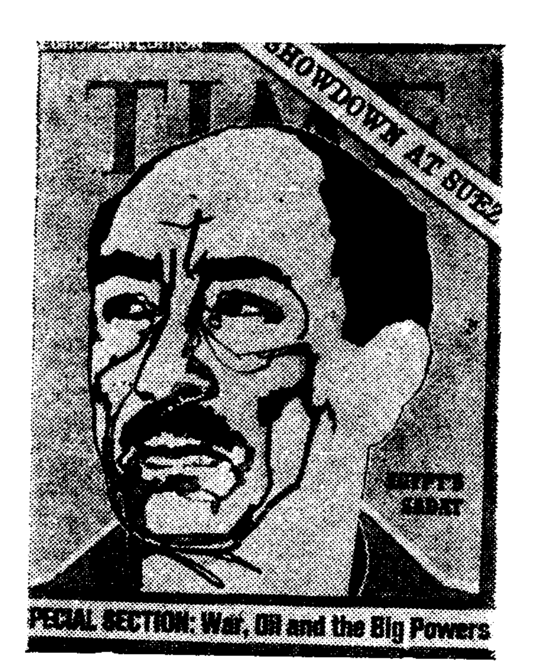
* * *

القسم الخامس

العربى الجديد

- الفصل الأول : البعث العربي
- الفصل الثانى : انطلاق الطاقة العربية
- الفصل الثالث : صانع القرار.. ومصر المستقبل .

كان علينا أن نثبت للعالم أننا جديرون بالاحترام
وحينما انتصرنا ، ظهرت الصحف والمجلات التى
لم يكن للعرب فرصة عادلة فيها تحكى عن بسالتهم وأمجادهم



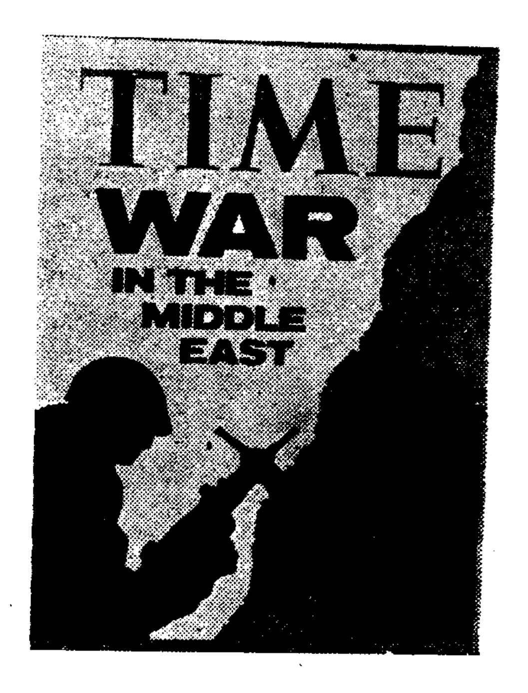
سادات مصر . . .
بدء المواجهة فى السويس



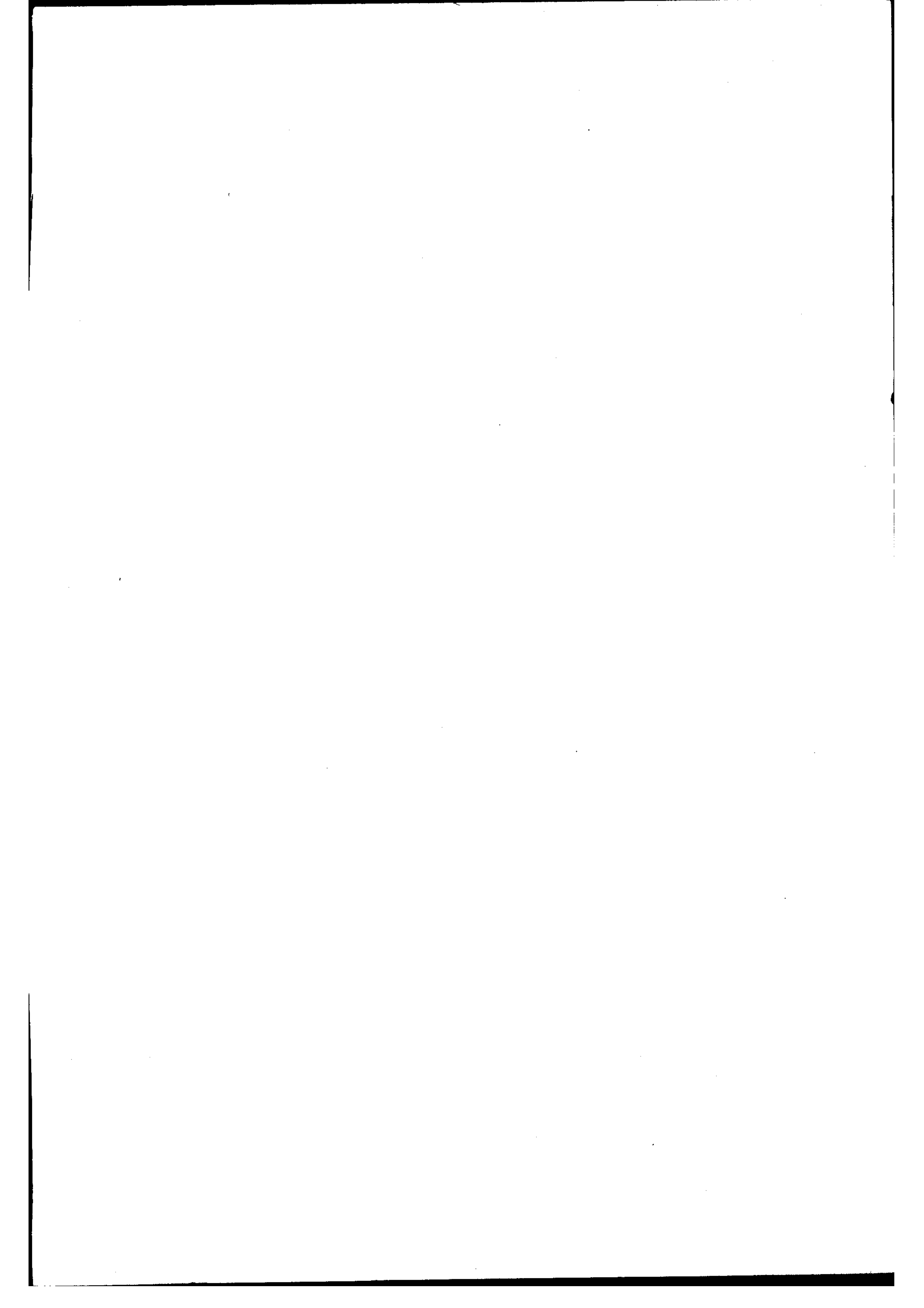
فيصل . . .
اليد التى تمسك بمحبس الزيت



العرب . . . زهو وقوة جديدة



حرب فى الشرق الأوسط



الفصل الأول

البعث العربى

وقف مناحم بيجين يقول لأبناء إسرائيل « ينبغى ألا تستكين إسرائيلكم حتى تقتلوا أعداءكم ، ولا تأخذكم بهم شفقة حتى تدمروا الحضارة العربية المزعومة ، ونقيم حضاراتنا على أطلالها » . وكان بيجين يعلم تماما أن التحدى الأكبر لإسرائيل يكمن فى عودة الحضارة العربية إلى الظهور .

فالحضارات التى نشأت فى عدة بقاع عرفت فيما بعد بما يعرف اليوم بالعالم العربى ، والحضارة العربية التى شملت هذا العالم كله معاً ، جمعت بين صبغتين رئيسيتين ، لم تجتمعا معاً لعدد من الحضارات التى تلتها . وهاتين الصبغتين هما : الصبغة العلمية ، والصبغة الإنسانية .

الحضارة العربية

ولسنا بحاجة إلى أن نسرد هنا جوانب الحضارة المصرية القديمة التي أضاءت العالم المتخلف قروناً ، وأعطته الكثير في مجالات العلوم والطب ، والهندسة والفلك ، والمعمار ، والفنون ، والمبادىء الإدارية التي تستند إلى التنظيم ، السليم والمذاهب الدينية القائمة على التوحيد. فتلك قد ملأت مجلدات ومجلدات، وأصبح لها في جامعات العالم أقسام ودراسات وتخصصات . ولسنا كذلك بحاجة للحديث عن حضارة بابل وما قدمت للإنسانية من إسهامات ضخمة .

ولكننا نتوقف لحظة أمام الحضارة « العربية » لأسباب ثلاثة :

الأول : أن حظها في الرواج العالمي والدراسة الدولية كان أقل .

الثاني : أن الصحوة العربية اليوم هي صحوة شاملة متكاملة مثل تلك التي قامت في الماضي في العالم العربي بأجزائه كلها ـ ومنها مصر وبابل وغيرها ـ ثم هوت فيه كله معاً ، ثم أخذت الآن سبيل عودتها مرة ثانية .

الثالث : أن ما حققه العرب الآن من انتصارات في كافة المجالات ، كان أساسه التضامن والترابط بينهم كأمة عربية واحدة ذات حضارة عربية واحدة .

ولاسترجاع تلك الفترة التي بعثت بالصورة الزا[illegible] قامت عليها ، نعرض لمحات فقط لنبين قليل من كثير مما أسهمت به الحضارة العر[illegible] في مجالات عدة .

جانب الحضارة العلمي :

في مجال العلوم عرف العرب الطب ، وظهرت فيه كتب اعتبرت موسوعات ومراجع مثل كتاب لابن سيناء (القرن ١٢) ، وكتاب الحاوى للرازى (القرن ١٣)،وكتب ابن الهيثم التي أصبحت مرجعاً للأوروبيين في البصريات .

واقترنت بحوثهم فى الطب وبحوثهم فى الكيمياء . فالقلويات معروفة فى مصطلحات الكيمياء الحديثة بإسمها العربى . ولعل التاريخ الأوروبى ـ وتاريخ العالم ـ لم يتأثر بشىء من كشوف العرب الكثيرة فى المعادن كما تأثر بكشف البارود واستخدامه فى قذائف الحصار وأسلحة القتال .

وفى الطبيعيات أخرج العرب الثقل النوعى لكثير من العناصر والجواهر النفيسة ، ونقحوا رأى الإغريق فى الجاذبية ، وتعليل الثقل ، وكان للبيرونى فضل السبق فى ذلك .

وقد اشتهر فى الشرق الإسلامى جغرافيون مبرزون أضافوا إلى العلم أحسن التحقيقات من طريق الأرصاد الفلكية ومشاهدة الرحلات وتمحيص الروايات ، وجمعت الأندلس صفوة هذه المعلومات وأشاعتها فى الأقطار الأوروبية التى تجاورها ، وكان للشريف الإدريسى خاصة أعظم الفضل فى جمع هذا العلم وتجديده وإحياء العناية به بين ذوى الشأن فى زمانه .

وبينما كان معظم الأوروبيين يعتقدون أن الأرض مسطحة ، كان العرب يكتبون عن الأرض الكروية ويتدارسون صفاتها ومن هؤلاء خرداذبه (القرن التاسع) ، الذى قال أن الأرض مدورة كتدويرة الكرة ، موضوعة فى جوف الفلك كالمحة فى جوف البيضة .

وكانت السياحة فيما بين القرن العاشر والقرن السادس عشر فنا إسلاميا من فنون أهل المغرب على الخصوص . وهم قدوة الأوروبيين فى هذه الشئون . ومن السياح المسلمين المشهورين أبو عبدالله البكرى الذى ولد فى مرسية وألف كتابى « معجم ما استعجم » و « المسالك والممالك » ، وتوفى فى أواخر القرن الحادى عشر ، وبينهم الشريف الإدريسى المتقدم ذكره ، ومنهم محمد بن عبد الرحيم المازنى ، وابن بطوطه وغيرهم .

وكان للأدب نصيبه الكبير عند العرب ، سواء فى الجزيرة أو فى بغداد أو الأندلس ، وكان له على الأدب الأوروبى آثاره التى لا تزال واضحة فى كتابات دانتى الإيطالى ، وشوسر الإنجليزى ، وسرفاند الأسبانى .

وفى علم الاجتماع برز ابن خلدون الذى سبق أوجست كومت (المعروف باسم أبو علم الاجتماع) . وتحدث ابن خلدون عن نظرية الأدوار ، واجتماع الحضر واجتماع البادية . وما زالت آراؤه وكتاباته تدرس فى أكثر الجامعات الأجنبية تقدما .

وفى الرياضة ظهر البيرونى والبتانى . وفى المنطق والفلسفة ظهر الغزالى وابن سيناء ويعقوب الكندى . ثم ابن رشد وابن باجه وأبن طفيل الذين ظهروا فى الأندلس وأثروا على فكر توما الاكوينى والبرت الأكبر .

هذا قليل من كثير انتعشت به الحضارة العربية ، وقدمته للعالم فى ميدان العلم فى وقت وقفت فيه أوروبا وجمدت علومها أيام شارلمان ، وسادها ظلام حضارى لم يضئه سوى ومضات هبت عليها من الأندلس العربية[1] .

جانب الحضارة الإنسانى :

وكانت الصيغة الثانية التى اتصفت بها الحضارة العربية هى الصيغة الإنسانية . فالأديان الكتابية الثلاث نشأت على أراضى عربية ، وانتشرت كلها بين العرب الذين تعودوا أن يتعايشوا معا فى ظلها . وعندما جاء الإسلام أحسن معاملة أهل الكتاب ومنحهم حقوقهم إذ قال الرسول : «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» . فأنصف عمر بن عبد العزيز رجلا ذميا من أهل حمص وأخذ له حقه من أحد

---

(١) عباس محمود العقاد : أثر العرب فى الحضارة الأوربية ، (القاهرة دار المعارف ، ١٩٦٩) .

الأمراء . (١)

وعندما دخل العرب مصر خيروا أهلها بين الإسلام والجزية والحرب .وأعادوا للمقوقس ابنته التي وقعت أسيرة معززه مكرمه . وقد أوصى الرسول باقباط مصر ، فقال استوصوا بالقبط خيرا ، فإن لهم ذمة ورحما » .

ولم تفرق الحضارة العربية بين « ابن ميمون » اليهودى « وابن المقفع » المسيحى « وإبن خلدون » المسلم .

وخلال الحضارة العربية بأسبانيا ، عاش اليهود ، كغيرهم ، فى ظل المساواة التامة فى الحقوق والواجبات . وكما يقول المؤرخ الفيلسوف « دى بور » أستاذ الفلسفة بجامعة امستردام فى كتاب تاريخ الفلسفة فى الإسلام : « اشترك اليهود فى كل أطوار الثقافة العقلية عند المسلمين . وكان كثير منهم يكتبون باللغة العربية ، وآخرون ترجموا المؤلفات العربية إلى العبرية » .

وفى هذا الجو العربى السمح المتفتح بالأندلس،ظهر المفكر الإنسانى اليهودى الكبير « ابن ميمون » (عام ١١٣٥ — ١٢٠٤) ، فى محاولة للتوفيق بين مذهب أرسطو وبين العهد القديم متأثرا بالفارابى وأبن سيناء .

وفى مصر مايزال التاريخ يذكر المفكر الفنان اليهودى « يعقوب أبن صنوع » المعروف باسم « أبونضاره » (عام ١٨٣٩ — ١٩١٢) ، وكفاحه ضد الاستبداد والطغيان ، حتى ليتربع فى تاريخها القومى — الذى يدرس الآن فى معاهدها ومدارسها — فى مكانة بجانب الطهطاوى والأفغانى ومحمد عبده وعبدالله النديم .

وبينما أنتشرت حركات العداء للسامية بأوروبا ، حتى بلغت الذروة فى عهد

(١) قارن ذلك بما سبق أن ذكرناه فى تعاليم التلمود التى تجعل املاك غير اليهود ونسائهم مالاً وعرضا مباحا .

النازية بألمانيا الهتارية ، ظل اليهود — عربا وأجانب — آمنين تماما فى حياتهم ونشاطهم الاقتصادى والاجتماعى فى العالم العربى ، بل وشارك المواطنون منهم أخوانهم فى تولى مختلف الوظائف العامة .

وحتى بعد قيام إسرائيل وإشتراكها فى العدوان الثلاثى على مصرعام ١٩٥٦ ، لم يتغير الوضع العام بالنسبة لليهود . وظلوا يمارسون حياتهم وحقوقهم الإنسانية ويترددون على معابدهم فى حرية تامة . ولقد ظل « حاييم ناحوم » الحاخام الأكبر لليهود بمصر عضوا عاملا بالمجمع اللغوى بالقاهرة منذ إنشائه حتى وفاته فى نوفمبر ١٩٦٠ . وكان موت هذا الحاخام العالم خسارة كبيرة للفكر العربى المعاصر ، عبر عنها أعضاء المجمع فى حفل التأبين الذى أقيم فى ديسمبر من نفس العام ، حيث تذاكر الناس البيان التاريخى الذى أصدره — كمواطن مصرى — خلال العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ وقال فيه :

« إن اليهود المصريين جزء لايتجزأ من الأمة المصرية ، وأنهم يتمتعون بكل ما يتمتع به المواطن المصرى الصالح . وعلى ذلك فليس لأى دولة أجنبية ، سواء أكانت هذه الدولة إسرائيل أم غيرها أية صفة للتحدث باسمهم » .

وأذن فالواقع الموضوعى يقطع بانتفاء أى تيار عنصرى ضد اليهود فى المجمعات العربية . وحتى عندما حدثت أخطاء فردية أوجدتها محاولة إسرائيل تجنيد الجواسيس بين ظهور العرب للتخريب لصالحها كما كشفت عن ذلك قضية «لافون» الشهيرة ، وعالجت هذه الأخطاء بسرعة ، وحسم مضادين لأى اتجاه عنصرى . وكان إخراج اليهود الذين لايحملون الجنسية من مصر لايتسم بأى عنف أو تعذيب .[1]

(١) أنظر لطفى الخولى ، « جذور وأبعاد الصراع العربى الاسرائيلى » ، فى المعركة بين العرب واسرائيل القاهرة : الكاتب العربى .

لقد عاشت الحضارة العربية قرونا حضارة علمية إنسانية .

ثم بدأت النكسة الحضارية وأنطفأت الشعلة العربية .

وبينما كانت أوروبا تدخل عصر الاستكشافات العلمية وتخرج من ظلامها الطويل لتعيش عصر الثورة الصناعية ثم عصر ما بعد الثورة الصناعية ، كان العالم العربي قد بدأ يغوص في أعماق عصر من الظلام اتصف بالجمود الفكري والتخلف الحضاري ، وفساد الحكم وسوء الإدارة ، والفوضى والتشتت والانقسام ، وكلها جاءت بنتائجها السلوكية من الانهزامية والفردية والنفاق واللامبالاة .

وعاشت مصر والعالم العربي في ظلمات العصور الوسطى التي نشرتها الامبراطورية العثمانية في ظل ما سيطرت عليه من البقاع .

وعندما بدأت قبضة السيطرة التركية على العالم العربي تضعف ، أسرعت الدول الأوروبية لتفرض سيطرتها مكان تركيا وقسمت أوروبا العالم العربي وأحتلته ، وأستنزفته ، واشتعلت شرارة القومية العربية . وكان الغضب هو الذي أشعلها ثم تحول الغضب إلى ثورة وأخذت الثورة تشتد . وحصلت الدول العربية على استقلالها . ولكن الدول الأوروبية ظلت تمارس دورها في تحريك الأمور الداخليه لهذه الدول « المستقلة » .

وهنا أدرك العرب أن الاستقلال السياسي إنما هو جانب واحد فقط من جوانب الاستقلال ، وأن ما يكمله ويعطيه معناه هو التحرر من العوز والفقر والخوف والتخلف . لقد وجد العربي أن أحد أسرار ضعفه هو أنه لم يستكمل مقومات الحياه الحديثة وإذا بدول كانت تسير خلفه قد لحقت به وأخرى كانت تجر أذيالها ورائه قد سبقته .

وكانت الأسباب واضحة فالعالم العربي لم يخرج من ظلمات الامبراطورية العثمانية إلا منذ ١٧٠ عاما ، عندما دخل لأول مرة في علاقات مباشرة مع أوروبا . وهذه فترة وجيزة في تاريخ الحضارات والشعوب . . أما أوروبا فكانت قد بدأت عصر نهضتها نحو سنة ١٥٠٠ ، أي من خمسة قرون وكان

طبيعيا أن تتجاوز العرب حضارتها نضجا لأنها سبقتنا إلى بناء الدولة الحديثة بثلثمائة عام .

وبدأت القيادات السياسية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية تنادى ببناء الدولة الحديثة . . دولة العلم والإيمان ، استمرارا لمنهج الحضارة الأصيل العلمى والإنسانى .

وكان بناء الدولة الحديثة — ومازال — تحديا رهيبا . وكان أقسى عقباته الفرد ذاته . إيمانه بنفسه وإيمانه بقدراته .

ثم جاءت حرب فريدة فى نوعها ، فريدة فى آثارها . أثبتت للعربى فى ساعات ست عقم مادمنه به العالم قرونا ، أن حرب الساعات الست بما أثبتته من قدرة العربى على القتال ، وعلى التخطيط ، وعلى استيعاب علوم العصر ، قدحققت البعث العربى، وأطلقت آمال وطاقات ١٢٥ مليون عربى إلى أبعد من النصر وتحرير الأرض .

لقد أندلعت فيهم روح العزة ومشاعر المحبة ، لكى يتخلصوا من أثقال سنوات طوال ، من التخلف ، وأن يعبروا الهوة بين العصر الذى يعيشون فيه والأسلوب الذى يعشونه ، به ، وأن يستعيدوا للأمة العربية ما فقدته من مكانة وما هوى من حضارة . . حضارة ذات صبغتين . . صبغة علمية فتكنولوجية ، وصبغة إنسانية روحية .

العربى الجديد : العربى الأصيل

لم تـكن تلك الآمال الـكبار التى فجرتها حرب أكتوبر آمالا فى الخيال أو قصورا على رمال سيناء . لقد كان لها ما يبررها بعد أن ظهرت خلال الحرب خصائص العربى التى لانقول إنها جديدة ، بل هى صفاته الأصلية عادت إليه بعد أن أطلقت أنتصارات المعركة قدراته الـكامنة ، وهى قدرات لم يكن العالم يعرفها عنه ، ولم يكن هو ذاته يدرك مدى هديرها فى نفسه .

وأول نصر حضارى يمكن أن تسجله هذه الحرب للعربى هو أنها أثبتت أن مأساه القرون الماضيه وأحداثها لم تنل منه . وأن ظلام السنين لم يفقده بصيرته . فأثبت بذلك أنه جدير بالحياة وجدير بالبقاء .

والقدره على الحياة ، وعلى الاستمرار ، وعلى التـكيف مع المتغيرات ، ثم النهوض للتأثير فيها ، قوة حضاريه يكمن فيها بقاء الشعوب وعظمتها . « تلك حقيقة علمية اجتماعية يدعمها الواقع ويؤيدها التاريخ . وقد بنى توينبى كل كتاباته فى ١٢ مجلدا ضخما على أساس أن المجتمعات التى كان لديها قدره على التـكيف مع ما حولها استمرت ، أما تلك التى فشلت فى التـكيف مع المتغيرات فقد انتهت واضمحلت .

فعيار الحياة بالنسبة لتوينبى هو القدرة على التـكيف مع المؤثرات الخارجية . والحقيقة الجسيمه — البسيطة هى أن كل جسم ، وأى جسم ، إذا ماتعرض لمؤثر خارجى ولم يتحرك ، ولم يحدث منه رد فعل ، كان ذلك دليل انعدام الحياة فيه ، أما إذا حدث منه رد فعل للبيئة وللمؤثرات الخارجية كان ذلك دليل الحياة ، التى هى شرط الاستمرار .

وعندما أفاق المارد العربى من غفوته ، بدى وكأنه قام ليستأنف ما فاته ، وأن

تلك الغفوة لم تكن سوى فترة استكان فيها للراحة وجمع فيها قواته ، وإذا به يهب فجأة أكثر قدرة وأكثر شبابا ، بينما العالم الذى ظل يجرى من حوله أصبح يلهث وقد انهك الصراع قواه وامتص قدراته .

إن العالم العربى قد أثبت أنه حى ، وأنه قادر على الاستمرار ، وبعد أن ظل ساكنا لسنوات طويلة ، ظن العالم خلالها أنه قد استكان واضمحل ، قام ليتفاعل ويتأقلم مع المؤثرات العديدة التى تحوم حوله ، وليلحق بالمتغيرات الهائلة التى حدثت خلال فترة سباته .

وإنه لمن أقوى دواعى فخر العرب وزهوهم تلك الصورة الجديدة التى ظهر بها العربى،والانطباع الجديد الذى الذى تركته ساعات الحرب الأولى فى أذهان العالم الخارجى . لقد كانت الصورة قبل ٦ أكتوبر سيئة بل ومزرية للغاية . كانت المعانى والصفات التى تتداعى فى ذهن الأوروبى عندما يذكر لفظ العربى ، هى صفات التخلف ، واللؤم ، والجبن ، والخيانه ، وعدم القدرة على متابعة متطلبات العصر ، وأن العرب أناس تسودهم الفرقة والانقسام ، غير قادرين على التعاون والعمل الجماعى كدول وأفراد ، وغير قادرين على الاحتفاظ بالسر .

وأثبت العربى فى ساعات قليله قدرته على العبور . وكان هذا العبور فى حد ذاته بأبعادة الضخمة شهادة واضحة على قدرة العربى على العمل ، وعلى النجاح ، وعلى التصميم والمثابرة ، وعلى استيعاب الأجهزة العصرية المعقدة . والأهم فى نظرنا أنه قد تمكن أن يفعل كل ذلك على مستوى مجموعة دول عربية أخرى ،وبدرجة عالية من التنسيق والكفاية ... وعلى عكس التوقعات ... فى سرية تامة .

وفى حديث مع كريستوفر ماهيو النائب العمالى البريطانى قال : « إن أعداء العرب أصبحوا — بعد العبور أقل كلاما عن ذى قبل — وهم الآن حتى عندما يهاجمون العرب فإن معانى الكلمات المستعملة ، والأسلوب الذى يستخدم أصبح مختلفا عن ذى قبل ، وكذلك أصبحت الألفاظ مختلفة ، قد تكون أكثر عنفا

لـكنها أقل امتهانا . إذ يوصف العربى الآن بالقسوة ، والتشـــدد ، والعناد ، والابتزاز » .

وكتبت صحيفة الديلى تلجراف تقول « إن على إسرائيل أن تتخلى عن سلوك ظل قائما بغير انقطاع منذ عام ١٩٤٨ . وهو يتمثل بصفة عامة فى النظر إلى جيرانها العرب على أنهم لا يعتد بهم ، وأناس لا يحتاجون إلى أكثر من ضربة ماهرة على الرأس بين الحين والحين ، لإبقائهم فى حالة رضوخ وانضباط » . وكتبت مجلة تايم الأمريكية تقول « إن على إسرائيل أن تـكف عن التهوين من شأن العرب ، والادعاء بأنهم عملاق ضخم الجثة لـكنه ضعيف البنيه ، قليل الحيلة لا يخشاه أحد » .

وهكذا وفى غضون أيام قليلة ، أخذت الصورة تتغير تماما فى أذهان الغرب . ولا نقول : ظهر للعالم عربى جديد . . . وإنما نـكرر أن الوجه الحقيقى للعربى فى صورته الأصيلة التى طمستها سنوات من الأحداث والمـآسى ، قد عاد إلى الظهور ليأخذ مكانه بين الأمم .

المقاتل العربى :

فى القاهرة جلس أحد رجال الأعمال من الفلسطينيين يقول لمراسل أجنبى أنه يتذكر يوما سنة ١٩٤٨ ، عندما عقد جماعة من الفلسطينيين اجتماعا مع أبية للتخطيط للحرب وأنه فى هذا الاجتماع « بايع المجتمعون الملك عبد الله ملك شرق الأردن حينئذ قائداً للجيش . . . واقترح عدد منهم أن يتقدم عبد الله صفوف المحاربين ممتطيا جواداً أبيضا لأنه من سلالة النبى ، وعليه أن يتصرف كما كان يتصرف الخلفاء الراشدون فى الحروب » .

ولم تمض سوى ٢٥ سنة على هذه الحادثة ، التى تعـكس نوعاً معيناً من التفـكير البدائى البسيط ، إلا وقد أصبح الجنود العرب قادرين على استعمال أنواع من الأسلحة بالغة التعقيد تحتاج إلى مهارة فنية عالية ، لم تستعمل قبل ذلك فى حرب

سابقة . وكان مجرد حملها على الاكتاف وتسلق الكثبان الرملية ، حتى قبل استعمالها مهمة صعبة وشاقة فى حد ذاتها .

وبعد ساعات من القتال بدأت ذكرى حرب ١٩٦٧ ، التى سيطرت على العالم سنينا طويلة تتزحزح ، وبدأ العالم يرى المصرى والمقاتل العربى فى صورة أخرى . وكتبت مجلة نيوزويك تقول « إن الأساطير التى قامت منذ انتصار إسرائيل الخاطف فى حرب عام ١٩٦٧ ، قد تداعت يوما بعد يوم ، أو على الأقل شوهت بصورة سيئة. ولقد كانت هناك خرافة تقول أن العرب ليسوا محاربين على الاطلاق، حيث طمست أحداث حرب ١٩٦٧ من ذكريات النـــاس أن المحاربين العرب نشروا يوما ما دعوة الإسلام فى كل مكان ، فاتحين وغازين نصف العالم المتحضر حينئذ ». وكتبت صحيفة ديرشيجل الألمانية فى ١٩ / ١٠ / ١٩٧٣ ، تقول « إن الجنود العرب قد قاتلوا هذه المرة بصورة لم نعدها فيهم ولم يتوقعها العالم منهم » .

لقد عاد العربى فعلا بعد قرون من الكبت والاحتلال والاستغلال ، عاد العربى إلى أصله وإلى أصالته كمحارب قدير ، يدافع بإيمانه ، ويؤمن بما يدافع عنه ، ويثبت أنه إذا توفرت له الظروف والإمكانات استبسل وضحى بنفسه بلا تردد ، وحقق الكثير .

وخرجت قصص بطولات يفوق بعضها الخيال . وأعادت للأذهان ذكريات غزوة بدر ، وغزوة أحد ، وغزوة الخندق ، ومعارك القادسية ، واليرموك ، وحطين وعين جالوت ، وفتح العرب لمصر وللمغرب وللأندلس . وبدأت صحافة العالم تتذكر ، وتذكر بفتوحات العرب وقدراتهم العسكرية . وبدأت تتكلم عن المصرى الذى صنع من نفسه قنبلة تنفجر أمام الدبابات ليؤخر تقدم العدو ، أو لينقذ رفاقه ، والسورى الذى غادر المستشفى قبل اتمام علاجـــه ليعود إلى جبهة القتال .

وفى نفس اليوم الذى كتب فيه مراسل تايم يقول: « إن قائد المنطقة الإسرائيلية

فى الجولان قال له بحرارة: «إن هذه هى الحرب التى لا معنى لها» كتبت مراسل نفس المجلة يقول «أنه رأى فى سيناء جنديا بسيطا من فلاحى الدلتا يمسك بتراب أرض سيناء ويقول للمراسل أنظر هذه أرضنا . . . لقد كانوا هنا عليها . . . وأخرجناهم ، وهى لنا وستظل لنا . . » .

ويقول المراسل « إن روح المقاتل العربى كانت عالية جداً ، وكان المصريون يلوحون لنـــا فرحين وهم ينادون « الله أكبر » ، أو كانوا يرفعوا إلينا أيديهم بعلامات النصر ، وكانوا يصفون لنا بمزيد من الثقة والفخر كيف خاضوا معاركهم مع الإسرائيليين .

« ورغم أننا كنا نسمع صوت المعركة الرهيبة التى تدور قريبا منا ، إلا أن الفرحة والسعادة كانت تغمر القوات المصرية بصورة واضحة ، ولم يبدوا عليها القلق . بل كانت تشير بـكل فخر إلى العلم المصرى وهو يرفرف على خط بارليف، وأمام هذا العـلم ومن أجله نسى المقاتل نفسه وأسرته ومصالحه ولم يفـكر إلا فى مصر .

وكتب مراسل بنفس المجلة من جبهة الجولان يصف حالة الإعياء الشديدة التى عمت القوات الإسرائيلية . فيقول أنه عند زيارته للجبهة الإسرائيلية فى الجولان شاهد أعداداً من المقاتلين الإسرائيليين ممددين على الأرض فى مجموعات متناثرة . . . وقال له أحد المرافقين « إنهم ليسوا أمواتا . . . أنهم فقط مرهقين لدرجة الموت » .

ويروى مراسل تايم فى سيناء أن قائد المنطقة المصرى قال له بكل فخر واعتزاز «إن أفضل سلاح عندنا هو شجاعة المصرى . . . . . إن القوات الإسرائيلية حاولت باصرار استرداد هذا الموقع بالدبابات ، ولـكننا دافعنا عنه بالمشاة وتمـكنا هنا من تحطيم ١٥ دبابة وأسر ١٧ ، وقتل ما يقرب من مائة » .

ويقول المراسل إن القائد المصرى أضاف بموضوعية :

« أنا لا أقصد أن الجندى الإسرائيلى لا يحارب . . . ولـكنه يحب دائما أن يحارب من دبابته ، أما نحن فإننا نحارب على أرجلنا » .

وأكد عدد كبير جداً من المقاتلين المصريين فى لقاءات معهم أن الجندى الإسرائيلى لا يحارب إلا مختفيا فى مدرعة أو محتميا وراء تحصينات . ولـكن هذه الشجاعة تخونه إلى ما اضطر للاعتماد على نفســه وعلى سلاحه فقط . أما المصرى فإنه يواجه العدو على أرجله وبصدره .

ونحن لا نقصد هنا من المقارنة بين المقاتل العربى والمقاتل الإسرائيلى ، وبين صورة الجبهة هنا وهناك ، وأن نثبت أن الجندى الإسرائيلى لا يحارب .. أو أنه لا يحارب جيدا ... أو أن الأسلحة الإسرائيلية غير فعالة ، ولا أن التخطيط والتـكتيك الإسرائيلى ليس على مستوى عال .

فمثل هذه الآراء فيها تهوين من قدر العدو ، بل فيها تهوين من عظمة النصر الذى حققه المقاتل العربى . وهى فوق كل هذا لا تتمشى مع السياسة التى سادت قبل حرب الساعات الست ، وكان لها أكبر الأثر فى الثورة التى جاءت بها هذه الحرب وهى سياسة « أعرف عدوك » .

إن مثل هذا التهوين قد يصبح أيضا من سمات الغرور الذى يصيب المنتصرين فيمنحهم من رؤية الحقائق ،على غرار ما حدث فى إسرائيل عقب ١٩٦٧ وعلينا أن نتحاشى أية بادرة من هذه البوادر الخطيرة .

لقد تمكن المقاتل العربى خلال ربع قرن أن يقفز من القرون الوسطى إلى القرن العشرين،واستوعب العصر ومعداته بصورة انتزعت أعجاب العالم.والحقيقة هى أن هناك فضلا أكبر للمقاتل العربى الذى ولد فى عصر ليعيش فى غيره ، من ذلك الجندى الإسرائيلى الذى نشأ فى الغرب واستوعب الحضارة الغربية وقيمها

وأساليبها منذ الصغر . إن المقارنة تكون على أسس أكثر موضوعية إذا ما تمت بين المقاتل العربي والإسرائيلي الشرقي ، فكليهما قد بدأ من نقطة بداية واحدة أو متقاربة ، وأثبتت الأحداث أن المقاتل العربي تفوق عليه بمسافات شاسعة بل تفوق على زميله المتحضر الذى استورد من الخارج .

إن المقاتل العربي فى هذه الحرب قد أستوعب الجوانب التكنولوجية تصاحبها بسالة وفدائية . وهو الازدواج الذى لم يتوفر لنا سنة ١٩٦٧ ، كضرورة للانتصار . ذلك أن :

الحرب فى جوهرها مادة وروح ... قوة وقدرة ، إداة ورغبة ، سلاح ودافع ، وعندما يتوفر الجانبان معا يمكن الانسان أن يحقق المعجزات والعجائب بالآلة، ويمكن للآلة أن توصل الإنسان إلى تحقيق أهدافه .

إن قصص البطولة التى كتبها العربي المقاتل يمكن أن تملأ مجلدات ومجلدات وهى قصص لم تعرف كلها بعد .وهى إذا ما جمعت فإنها ستكون أجمل صفحة فى كتاب مصر الحديثة ، يتناقلها الصغار ويتذكرها الكبار . إن المقاتل العربي كان مقاتلا ورائدا ومحررا وسفيرا .

وعندما تحدث أنور السادات إلى ممثلى شعبه قال لهم : « سوف يجىء يوم نجلس فيه لنقص ونروى ماذا فعل كل منا فى موقعه . وكيف حمل كل منا أمانته وأدى دوره ، كيف خرج الأبطال من هذا الشعب وهذه الأمة فى فترة حالكة ساد فيها الظلام ، ليحملوا مشاعل النور وليضيئوا الطريق حتى تستطيع أمتهم أن تعبر الجسر ما بين اليأس والرجاء » .

وعندما قابل الرئيس نيكسون اسماعيل فهمى وزير الخارجيـــة المصرى قال له :

« إنى احترم الذين يحاربون جيدا والذى يضحون . . وأنتم قد حاربتم جيدا

وضحيتم » . ويقول الوزير « إن ما أظهره كل من نيكسون وكسينجر لى من احترام لم يكن موجها لشخصى بقدر ما كان تقديراً للمقاتل العربى الشجاع [(١)].

العلم فى المعركة :

ولم تكن قدرة العربى كمقاتل هى بسالة «الراكب على حصانه الأبيض » . إنما اعتمدت على جوانب علمية تكنولوجية . ولم يتمكن المقاتل العربى فحسب من أن يستوعب علوم العصر، ويتقن استعمال الأسلحة المعقدة ، ولكنه أيضا أضاف إليها وجودها. وتفوق مهندس مصرى شاب تكنولوجيا على ديان «الأسطورة»، وقلب حساباته رأسا على عقب . فقد صرح ديان أكثر من مرة أن القوات المصرية لو حاولت العبور القناة فإنه سوف يسحقها خلال ٢٤ ساعة . وكانت حساباته قائمة على أساس استخدام المصريين للوسائل الفنية المعروفة فى العبور وفى إزالة الساتر الترابى .

ولكن التكنولوجيا المصرية جعلت المستحيل ممكنا ، فقد أمكن تقليل المدة الزمنية اللازمة لبناء الكبارى من ٢٤ ساعة إلى أقل من ربع المدة واستطاع المهندس المصرى أن يصل إلى استعمال طلمبات المياه التوربينيه فى فتح ثغرات فى الساتر الترابى. وبذلك تمكن فى ست ساعات من انجاز ما حسبت له تكنولوجيا الحرب الحديثة ٢٤ ساعة . وللتأكد من إمكان إصلاح الممرات الجوية بسرعه حالة قصفها قامت القوات المسلحة بالاشتراك مع وزارة البحث العلمى بأبحاث استغرقت ٦ شهور ، تم فيها تجربة خلطة اسفلتيه معينة وأسمنت سريع التصلب وخرسانة عادية ، إلى أن توصلوا إلى استعمال ألواح صلب خاصة تصنع محليا .

---

(١) السيد / اسماعيل فهمى : من حديث خاص مع المؤلفين .

وقد تناقلت وكالات الأنباء حينئذ أن الرئيس نيكسون مشى مع الوزير المصرى لدى انصرافه إلى مابعد المكان الذى تحدده الاصول الدبلوماسية وأن كيسنجر نزل معه من مكتبه بالدور السابق ليسير مع الوزير المصرى حتى سيارته

واستعانت القوات المسلحة ببعض أساتذة الجامعات فى بحوث العمليات والإدارة « Operation Research »... وهكذا .

وكما أستوعب المقاتل المصرى علوم العصر ، فإنه تمكن من أن يستوعب روح العصر . فقد كان المقاتل المصرى برغم ظروف الحرب وتحت ضراوتها ووسط أتونها قادرا على اخضاع نفسه للنظام ، والتحلى بسلك منضبط استرعى الانتباه . ويقول أحد المراسلين الأجانب فى هذا الصدد : لقد حضرت عشرات المعارك ولم أر فى أى منها جنودا يتحلى سلكهم بروح النظام والانضباط مثلما رأيت من الجنود المصريين شرق القناة .

وكتبت مراسل اليونابتدبرس من أحدى النقاط الإسرائيلية لجبهة القتال السورية بصف ما أسماه « الطريقة المجنونة » ، التى كان يحاول فيها جنرالات إسرائيل تنظيم المرور بين سيارات الإسعاف ، وسيارات نقل الاحتياطى ، وسيارات المؤن وسيارات المياه ، والسيارات العائدة ببعض المقاتلين من خطوط النار ، وقد أحمرت عيونهم وتهلهلت ملابسهم ... وقال أحد هؤلاء وهو يردد فى بؤس « هذه حرب حقيقية » .

حضارة إنسانية :

الله أكبر :

وكما كانت هناك بوادر لعودة الحضارية العربية بجوانبها العلمية ، فقد كانت هناك أيضا مؤشرات تشير لعودة الحضارة فى جوانبها الإنسانية والروحية .

لقد كان الإيمان بالله سلاحا فى المعركة . وكانت صيحة « الله أكبر » التى أطلقها الجنود وهم يعبرون ، وتتردد أصداؤها فى جنبات سيناء وتشق عنان السماء ، أبلغ دليل على تمسك مجتمعنا بالمبادىء والقيم الدينية ، وأقوى برهان

على عقم ما أراد العالم أن يصمنا به بأننا شعوب قد تخلت عن العقائد الدينية وتبنت مذاهب سياسية معروفة بجفائها الروحى محرومة من قوة الإيمان . لقد أجلت تلك الصيحة المكبرة ، فى كلمتين عظمتين ، الروح التى سادت المقاتلين خلال قتالهم ، وأشعت بضيائها على الجبهة الداخلية ، فردد كل عربى هذا النداء فى وحدة وطنية رائعة .. الله أكبر .. الله أكبر .

وتحدثت صحيفة الجارديان يوم ١٦ أكتوبر عن هذه الجوانب الروحية والإنسانية قائلة « إن المقاتل العربى المسلم الذى قاتل فى شهر رمضان ، استمر فى صيامه رغم السماح له بالأفطار . . . والأغرب من ذلك أن زميله المقاتل العربى المسيحى قد شاركه بدوره فى هذا الصيام . . . لقد اندثرت تماما منذ كرى العرب جميعا أصداء ذلك الشقاق الطائفى الذى وقع فى مصر قبل شهور ، والذى كان انعكاسا لحالة القلق التى كان يعيشها مجتمع مهزوم ، مغلوب على أمره .

وقد حاولت إذاعة إسرائيل خلال الأيام الأولى من المعركة أن تشعل فتنة بين العرب وأن تشعل شقاقا طائفيا ولكن محاولتها هذه ولدت ميتة فقد حارب عربى المشرق مع عربى المغرب ، وقاتل العربى الأبيض بجانب العربى الأسمر ، واستشهد العربى المسلم بجانب أخيه المسيحى .

لسنا دعاة أبادة :

لقد أعلن السادات فى وضوح وصدق إننا لسنا دعاة إبادة . . . وإن حربنا لم تكن من أجل العدوان ، وإنما لم نكن فى حربنا خارجين على القيم ولا القوانين لقد كنا نتصرف وفى نص روح ميثاق الأمم المتحدة . وبتقدير واحترام كامل لقرارات المنظمة الدولية [1] .

---

(١) قارن هذا بما قاله بن جوريون فى خطابه أمام اللجنة المركزية لحزب الماباى فى ٨ يناير سنة ١٩٤٨ عندما صرح نحن نعترف أن القرارات الدولية يمكن قلبها رأسا على عقب . . . وأن قوة السلاح لاالقرارات الرسمية هى التى تقرر مجرى الامور .

وأثبت الواقع أن ما أعلنه السادات ولم تصدر عن مصر أى بادرة تنم عن التشفى أو لا أخلاقيات الحرب وحتى حينما قصفت طائرات العدو أهدافا مدنية فى دمشق وأدت إلى مقتل عدد كبير من العرب والأوروبيين ، لم تلجأ مصر إلى قصف أهداف مدنية إسرائيلية رغم قدرتها على ذلك،لقد أردناها حربا نظيفة فى معاركها ومثلها ، وأثبتنا قدرتنا على ذلك .

وبالرغم ما أرادت إسرائيل أن تشيعه عن سوء معاملة الإسرى فقد ثبت أن عساف ياجورى قائد اللواء المدرع ١٩٠ قد سمح له أثناء إقامته بالقاهرة بزيارة أسرة يهودية وممارسة شعائر الصلاة فى معبد يهودى بالقاهرة .

الفصل الثانى

انطلاق الطاقة العربية

« إن القدس عربية ، وأنا أريد أن أصلى
فى المسجد الأقصى قبل أن ألقى ربى . »

الملك فيصل

الوحدة العربية

كتب نابليون بونابرت فى مذكرة له عن الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ يقول :

« تتمنى ولايات الدولة العثمانية التى لغة أمتها العربية ، من صميم فؤادها وقوع نصر عظيم ، وتنتظر الرجل الذى يأتى هذا التغيير على يديه » .

وكان بونابرت يرى الدولة العربية فى إطار سياسى جامع يدخل فى نطاقه الشام والعراق ، وحيثما يتكلم الناس باللغة العربية .

وعندما ظهر محمد على وقام بفتوحاته ، ووقعت أحداث وانتصارات ظن البعض أن الشخص قد ظهر ... ولكن الفكرة كانت تقول أن الشخص الذى ينتظره الوطن العربى هو أحد أبنائه .

وعندما جاء عبد الناصر كان من أبنائه حقا ، وعمل جاهداً عن إيمان بالوحدة العربية لتحقيقها . وظهر الميثاق الوطنى يؤكد حقيقة الوحدة وحتميتها . ولكن

الأحداث والصراعات التي وقعت ، قد حالت دون وحدة العرب كما كان يأمل عبد الناصر .

وفى سنة ١٩٧٣ ، تحققت النبوءة . تحققت شخصا . . وأحداثا . تحققت على يد المقاتل العربى الأصيل الذى وقع على يديه نصر عظيم ، نصر شد الخيط الذى ربط بين العرب فزادهم تقاربا وارتباطا ، وإن اختلفت قوة الخيط من موقع لآخر شدة أو ضعفا .

وظهر العرب كقوة عالمية يحسب حسابها . وذلك بفعل إنجازات الجندى العربى الذى جمع صفوفهم ببسالته وبدمائه . وأدرك العرب خلال حرب أكتوبر أن الانتقال من حالة العجز والإحباط ـ وهما نتاج التفكك ـ إلى حالة القوة والثقة بالنفس ، وهما نتاج الوحدة، انتقال سهل وممكن . . وما أكثر السنوات التى ضاعت بينهم فى صراعات قبل أن يدركوا هذه الحقيقة . وكانت هذه الصراعات أهم أسباب ضعف العرب . فقد مكنت للدبلوماسية الصهيونية من أن تنتصر على الصعيد الدولى، ومكنت للعسكرية الصهيونية من أن تنتصر على الصعيد الإقليمى (١) .

ومن هذه المنازعات النزاع الذى قام بين سوريا ولبنان فى سنة ١٩٤٩ حول علاقات لبنان التجارية مع فرنسا ، ثم بين مصر والسودان سنة ١٩٥٨ حول الحدود . ثم بين الجمهورية العربية المتحدة ولبنان عقب وحدة مصر مع سوريا . والنزاع بين الكويت والعراق سنة ١٩٦١ ، عقب استقلال الكويت. وهو النزاع الذى تجدد مرة أخرى فى بداية سنة ١٩٧٣ . والنزاع بين الجزائر والمغرب سنة ١٩٧٣ حول الحدود . وكانت هناك منازعات بين اليمن الجنوبية وعمان ، وبين اليمن والسعودية ، وبين مصر والسعودية ، والنزاع الكبير بين دولتى اليمن . وقد أسهمت الاتصالات الشخصية من ناحية ، وجامعة الدول العربية من ناحية

---

(١) أنظر بطرس بطرس غالى : « دراسات فى الدبلوماسية العربية » ، المرجع السابق.

أخرى بجهود فعالة فى كل هذه المنازعات . ولكنها مع ذلك استمرت بصورة أو بأخرى .

وظن العالم كله أن العرب لن يتفقوا ، بل ولن يتقاربوا . واعتمدت إسرائيل فى استراتيجيتها على أن العرب لن يتحدوا . وحتى إذا اتفقوا يوما فإنه من السهل جدا اشعال الفرقة ثانية بينهم .

وأصبح من الضرورى البحث عن صيغة جديدة للوحدة العربية ... فالإتجاه الوحدوى الطبيعى قائم فعلا ، يؤيده التاريخ ، وتدعمه مشاعر الأمل فى المستقبل . ولكن الاختلافات أيضا قائمة كما يشهد بذلك الواقع . والقوة العربية الذاتية مع ضخامتها وإمكاناتها لم تكن تستعمل فى الدفاع عن حقوق العرب وتأمين مستقبلهم . وكان لا بد من العمل على تنقية الجو العربى من الخلافات وسوء الفهم، وعلى تقوية العلاقات السياسية والاقتصادية والعسكرية بين البلاد العربية ضمانا لقومية المعركة، ووصولا إلىوحدة العمل وخلقا للظروف الموضوعية اللازمة لإقامة الوحدة العربية الشاملة .

وأعلنت مصر صراحة أن : « اختلاف النظم الاجتماعية القائمة فى البلاد العربية لا يصح أن يعرّض المصالح الحقيقية العربية المشتركة للخطر . واختلاف هذه النظم الاجتماعية على المستوى العالمى لم يحل دون قيام الوفاق العالمى تحقيقا للمصالح المشتركة »(١) .

وبدأت مرحلة جديدة . فيها فهم وتسامح وتسامى . ولم يعد الحكام العرب يرون فى التقارب العربى ما يهدد وجودهم أو كيانهم أو نظمهم . وبزوال الشك وثبوت النوايا الطيبة ، زاد التقارب، وبه ازداد التعاون . وعندما قامت المعركة

---

(١) المتغيرات الدولية وتأثيرها على مسار العمل الوطنى، تقرير للمؤتمر المشترك للجنة المركزية ومجلس الشعب . القاهرة فى ٤/٨/ ١٩٧٣ .

وانتصر الجندى العربى وجد العالم العربى وحدته ، واكتشف أنها أسهل وأبسط مما كان يتصور ، وحققها من غير أن يشترط لها اندماجا شاملا ، أو تغييراً ثوريا يقلب نظم الحكم قبل أن يصل إلى الوحدة . لقد أصبح للوحدة العربية صيغة جديدة قد تكون أقل امتزاجا ولكنها أكثر واقعية ، وأكثر فاعلية وخبت سفسطة « أيهما أولا ، الوحدة ثم المعركة ؟ أم المعركة ثم الوحدة ؟ » فالمعركة هى التى حرثت الأرض العربية حرثا جديداً ، والوحدة هى جعلت نتائج المعركة تمتد بعيداً .

الدول العربية فى المعركة

إذا نظرنا لتحركات الدول العربية وقراراتها أثناء المعركة نجد أن كلا منها قد أعطت للمعركة حسب إمكاناتها وحسب ظروفها ، واتخذت المواقف التى تتفق مع ما تراه أفضل لقضية العروبة والعرب . كما نرى نشاطا دبلوماسياً مستمراً على أعلى مستوى شمل كافة الدول والقادة . فمصر وسوريا تحاربان بكل مواردهما البشرية والمالية ، فى تنسيق متكامل وتحت قيادة موحدة .

العراق يعلن حالة الطوارئ . ويستدعى قوات الاحتياط ويضع قواته تحت تصرف مصر وسوريا ، ويرسل تشكيلات من الطائرات والمدرعات للجبهة السورية ، ويستأنف علاقاته مع إيران ليتفرغ للمعركة ، ثم يطلب من الأردن فتح جبهة على حدوده مع إسرائيل ، ويدعو إلى وقف تصدير النفط إلى الولايات المتحدة ويوقفه فعلا . وهو لا يستجيب لقرارات مؤتمرات وزراء النفط ولكنه يؤمم حصة شركتين أمريكيتين فى شركة نفط البصرة . ولا يوافق العراق على قرار مجلس الأمن بوقف القتال .

وقام العراق كذلك بنشاط دبلوماسى فأرسل رسائله إلى كل من الملك حسين وبودجورنى والسادات والأسد . وعقد البكر لقاءات مع القذافى وبومدين ورئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية .

وفى السعودية يضع الملك فيصل الجيش فى حالة تأهب، ويرسل قوات سعودية لتحارب على الجبهة السورية ، ويعد الدول المتحاربة بدعم مالى ، وينفذ كل لقرارات خفض إنتاج النفط ، بل برفع نسبة التخفيض الأولى إلى ١٥ ٪ ، ويمنعه عن كل من الولايات المتحدة وهولندا .

ويعقد الملك فيصل لقاءات مع الرئيس بومدين والملك حسين ، ووزير الخارجية الأمريكى ، يعلن فيها رأيه بصراحة فى ضرورة الانسحاب وحق شعب فلسطين فى تقرير مصيره والتمسك بعروبة القدس .

ويحضر الملك فيصل مؤتمر القمة العربى فى الجزائر فى شهر نوفمبر سنة ١٩٧٣ . ثم يعود ليحضر المؤتمر المحدود فى شهر فبراير سنة ١٩٧٤ [١] .

ولسوف نعود مرة ثانية للحديث عن الدور التاريخى الذى أسهم به عاهل السعودية خلال هذه المرحلة .

واشتركت القوات الكويتية الموجودة فى جبهة السويس فى القتال منذ بدايته . كما اشتركت قوة مدفعيـة كويتية فى القتال على الجبهة السورية . وقدمت الكويت دعما إلى مصر ، واستأنفت معونتها المالية إلى الأردن . ثم أجاز مجلس الأمة الكويتى للحكومة سحب مبلغ ١٠٠ مليون دينار من الاحتياطى لدعم معركة التحرير ،واستجابت الكويت لقرار تخفيض إنتاج النفط بنسبة ٥ ٪ ،وزادت الخفض إلى ٢٣ ٪ ،مع فرض الحظر على الولايات المتحدة وهولندا . وعقد فى مطار الكويت مؤتمر قمة عربى محدود بين السادات ، والأسد

---

(١) كى نتصور التطور الكبير الذى حدث فى العالم العربى ، قد يكون من المفيد أن نتذكر أنه فى ٧ يوليو سنة ١٩٦٧ أعلن الملك سعود أن السعودية قد استأنفت شحن البترول السعودى للولايات المتحدة وبريطانيا لأنه لم يثبت أن الولايات المتحدة أو بريطانيا قد ساعدت إسرائيل خلال العدوان .

والشيخ الصباح . كما قابل أمير الكويت كلاً من الملك حسين والرئيس بومدين، ورفض استقبال سيسكو مبعوث وزير خارجية الولايات المتحدة . واشترك الكويت فى مؤتمر القمة العربى فى الجزائر فى نوفمبر سنة ١٩٧٣ .

وأبلغت **دولة اتحاد الامارات العربية** (أبو ظبى — دبى — عجمان — أم القوين الشارقة — الفجيرة — رأس الخيمة) ، مصر وسوريا أنها تضع كل مواردها تحت تصرفهما . كما استجابت لقرارات خفض إنتاج البترول ومنعته كلية عن الولايات المتحدة وهولندا . وعند نشوب القتال كان الشيخ زايد فى لندن ، واتصل فوراً بإدوارد هيث رئيس الوزراء البريطانى لدراسة وضع بريطانيا . كما أعلن تأييده الكامل لأى قرار تتخذه دول المواجهة ، واستعداده لمزيد من المقاطعة ضد الولايات المتحدة . واجتمع بالملك حسين واشترك فى مؤتمر القمة .

وكان الشعور فى دولة الإمارات فياضا إذ تشكلت على الفور لجان للمجهود الحربى فى كل إمارة برئاسة أحد الشخصيات الكبيرة بها ، لقبول التبرعات بالدم وبالمال ، كما فتحت مراكز تطوع للذهاب إلى الجبهة .

واضطرت الشركات الأمريكية والأجنبية إزاء هذا الشعور الفياض لأن تسهم ماديا بالتبرع للمعركة ، كما أرسلت الجالية الأمريكية فى دولة الإمارات (٢٥٠٠ شخصاً) برقية احتجاج إلى نيكسون على موقف الولايات المتحدة من العرب .

وقامت **البحرين** بإلغاء إتفاقية تسهيلات فى قاعدة بحرية مع الولايات المتحدة . وأوقفت تصدير النفط إلى كل من الولايات المتحدة وهولندا . وشكلت لجنة لتنسيق المساعدات المالية والمادية . واجتمع حاكم البحرين بالملك حسين فى منامة واشترك فى مؤتمر القمة فى الجزائر .

واستجابت **قطر** لقرارات تخفيض البترول كلها بل زادت النسبة الأولى

إلى ٢٥ ٪ (من متوسط إنتاج سبتمبر). وأوقفت تصديره إلى كل من الولايات المتحدة وهولندا. وأجرى أمير قطر محادثاته مع الملك حسين فى الدوحة.

وأوقف سلطان **عمان** تصدير النفط إلى كل من هولندا والولايات المتحدة. ونظمت عمان تبرع المواطنين بالدم والمال من أجل المعركة. وأرسلت بعثات طبية إلى كل من مصر وسوريا. كما استقبل سلطان عمان الملك حسين لإجراء محادثات حول تطورات أزمة الشرق الأوسط.

وفى **الجمهورية العربية اليمنية** أعلنت حالة الطوارىء، ووضعت قواتها المسلحة فى حالة تأهب، كما توجه نائب رئيس وزرائها لزيارة دمشق.

وأعلنت **جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية** تأييدها الكامل لكل من مصر وسوريا وتناست دولتا اليمن ما كان بينهما من خلافات، واشتركتا معا فى فرض الحصار على باب المندب[1].

ووضع **لبنان** قواته فى حالة الاستعداد، وأبلغ تأييده الكامل لمصر وسوريا، وتعرض لتهديد إسرائيل، ثم تصدت المدفعية اللبنانية لتشكيل من الطيران الإسرائيلي اخترق المجال الجوى اللبنانى. ورفعت شكوى إلى مجلس الأمن بخصوص الاعتداء الإسرائيلي على مركز الرادار فى الباروك. وفى ١١ / ١٠ / ١٩٧٣ أسقطت المدفعية اللبنانية طائرة فانتوم إسرائيلية اخترقت المجال الجوى اللبنانى. وتوجهت فرقة طبية من لبنان إلى دمشق. كما وضع عدد من المستشفيات كل إمكاناتها تحت تصرف الحكومة السورية. وقام الرئيس فرنجية ببعض لقاءات دبلوماسية مع قادة سوريا والسعودية ومصر وقادة المقاومة وإيران والولايات المتحدة. واشترك لبنان فى مؤتمر القمة فى نوفمبر سنة ١٩٧٣.

---

(١) يعد تعاون دولتى اليمن فى هذا المجال نصراً عربياً فى حد ذاته بعد ما ساد بينهما من خلافات ونزاع.

وأرسل **الأردن** قواته لتحارب على جبهة الجولان . كما قام الملك حسين بتحركات دبلوماسية واسعة ، وأعلن الأردن أنه أسقط طائرتين إسرائيليتين .

ووضع **السودان** قواته فى حالة تأهب وأرسل بعض القوات إلى الجبهة المصرية، وأرسلت حكومة السودان احتجاجاتها لخمس دول إفريقية تسمح بسفر المتطوعين لإسرائيل. واستمرت القوات السودانية تعمل على الجبهة المصرية واشترك قائدها العسكرى فى تكريم الأبطال . واشترك السودان فى مؤتمر القمة .

وأصدرت **ليبيا** عدداً من التصريحات والبلاغات ، فأعلن الرئيس الليبى فى ٧ / ١٠ أن ليبيا سوف تقدم الأموال اللازمة لكل من مصر وسوريا لدعم المجهود الحربى وتموينها بالنفط . ووجه رسالة إلى الرئيس الفرنسى بومبيدو يعرب فيها عن دهشته للموقف الفرنسى المتحفظ تجاه القتال . وصرح السفير الليبى فى باريس بأن بلاده سوف تدخل الحرب إذا لم تتوقف بقرار دولى . وأعلنت الإذاعات الليبية والقيادات الليبية عن رغبتها فى حرب أوسع مدى . ثم خفضت ليبيا إنتاج البترول بمقدار ٥ ٪ ، وأعلنت أنها أوقفت تصديره لكل من الولايات المتحدة وهولندا .

ووضعت **تونس** جيشها فى حالة تأهب وأعلن بورقيبة تأييد تونس لكل من مصر وسوريا . كما دعى ليبيا إلى الاشتراك فى القتال . واجتمع بوزير خارجية الولايات المتحدة فى تونس واستأنفت تونس العلاقات الدبلوماسية مع الأردن . واشتركت فى مؤتمر القمة فى الجزائر فى نوفمبر سنة ١٩٧٣ .

وأرسلت **الجزائر** قواتها للاشتراك فى القتال . وأوقفت مشاريع التنمية لدعم معركة التحرير (مع ما فى ذلك من إضرار بمصالح الجزائر) ، ووعدت كلا من سوريا ومصر بمساعدات متواصلة .

وتحركت الجزائر دبلوماسيا تدعو الدول العربية إلى شن الحرب على إسرائيل . وسعت إلى الضغط بكافة الوسائل بما فيها النفط . وطالبت ١٧ دولة أوربيـــة بالامتناع عن دعم إسرائيل. واقترحت على السكرتير العام لمنظمة الوحدة الأفريقيه عقد مؤتمر أفريقى عاجل لبحث أزمة الشرق الأوسط . وخفضت إنتاج النفط ، ثم خفضت شحناتها النفطية إلى الشركات الأجنبية بنسبة ٢٥ ٪ .

ودعت الجزائر إلى مؤتمر القمة الذى عقد فى نوفمبر سنة ١٩٧٣ . وقام الرئيس هوارى بومدين بدور أساسى فى الاتصالات الدولية والسياسية . لقد ظهر هوارى بومدين على عهده شخصية عربية وحدوية أصيل ، وظهور دور بومدين قبل المعركة وأثنائها وبعدها ، ليس أمراً جديداً عليه . فى حرب ١٩٦٧ ، لعب دوراً ثورياً بطولياً وتاريخياً . فقد طار إلى القاهرة واجتمع بالرئيس عبد الناصر والملك حسين . ثم طار إلى سوريا ، ثم عاد للقاهرة واجتمع بعبد الناصر وياسر عرفات فى ١١ يوليو ٦٧، ثم اجتمع ثانية بها مع عبدالناصر ، وعارف،والأتاسى ، ومحجوب . ثم سافر إلى موسكو مع عارف . ثم عاد للقاهرة للتشاور فى نتائج مباحثاته فى موسكو . وبجانب هذا النشاط السياسى فقد أعلن كما حدث فى الحرب الأخيرة ، أن الجزائر دخلت الحرب بكل قواها وإمكاناتها .

واشترك **المغرب** فى القتال . وسجلت الفرقة المغربية الموجودة فى الجولان بطولات أشارت إليها الصحف الدولية. واستمر المغرب يمد دول المواجهة بالقوات فأوقفت الخطوط الجوية الملكية المغربية رحلاتها لتتفرغ لنقل الجنود إلى الجبهة . ودعى المغرب إلى عقد اجتماع عاجل لوزراء الخارجية والدفاع العرب.وعندما اجتمع الملك الحسن بوزير خارجية الولايات المتحدة عند ابتداء رحلته إلى مصر ، كانت نتائج هذه الاجتماعات أمام الرئيس السادات قبل وصول كيسنجر إلى القاهرة ، ضمانا للتنسيق الكامل للعمل العربى . لقد عاش الملك الحسن ـ برغم بعد المسافة ـ فى المعركة عن قرب . وأسهم فيها بجيشه وفكره ومشاعره ، وكذلك فعل شعب المغرب العظيم .

وأعلنت القيادة العامة لقوات **الثورة الفلسطينية** أن قوات المقاومة دخلت المعركة ضد إسرائيل ، واشتركت فى معارك ضارية على طول امتداد المواجهة فى القطاع الشرقى ، كما تمكنت المقاومة من تعطيل إذاعة إسرائيل الناطقة بالعربية .

ووجه ياسر عرفات القائد العام لقوات الثورة الفلسطينية نداء إلى جميع المقاتلين لضرب خطوط مواصلات الإسرائيليين ومراكز تجمعاتهم ومرافقهم الحيوية . كما صدرت بلاغات عسكرية عن عمليات عدة ، أهمها تحرير مرتفعات أبو الروس (على الجبهة اللبنانية المحاذية للجبهة السورية على الحدود الإسرائيلية) ، ورفع العلم الفلسطينى عليها . وأعلنت رئيسة وزراء إسرائيل أن الفدائيين الفلسطينيين قاموا بأكثر من ١٠٠ هجوم على ٤٧ مقر على الحدود الإسرائيلية .

ثغرة الوفاق العربى :

وهكذا تحرك العالم العربى فى اتجاه واحد، وأعطى كل حسب قدراته وحسب إمكاناته ، لم تتخلف دولة واحدة عن أن تكون جزءاً من هذه الحركة الجماعية وإن اختلفت فى المدى الذى تحركت إليه . وحققت الوحدة العربية فى صيغتها الجديدة انتصارات لم تقلل من شأنها الثغرة التى أحدثتها بعض القيادات العربية . وهذه سرعان ما التأمت بفضل الموقف الحكيم الذى اتخذته القيادة السياسية المصرية .

وفى اليوم الذى كان آخر جندى إسرائيلى ينسحب من الثغرة التى أحدثها المغامر الإسرائيلى شارون فى غرب القناة ، كان أنور السادات يحتفل بتكريم أبطال الحرب ويشترك معه فى هذا التكريم معمر القذافى ، (وموبوتو)، يضعون الأوسمة على صدور الأبطال الذين جاءوا بالنصر وحققوا الوحدة .

مؤتمر القمة المنعقد بالجزائر



قادة النضال العربى
الرئيس حافظ الأسد ، الرئيس أنور السادات ،
الملك فيصل آل سعود ، الرئيس هوارى بومدين

جبهة عربية صلبة :

إن ما حدث أثناء حرب أكتوبر ، وخصوصاً خلال ساعاتها الأولى ، أثبت تماماً أن هناك وشائج متينة ـ قد تكون غير مرئية ـ تربط العرب كلهم أينما كانوا برباط روحي حضارى وثيق يوحد كلمتهم وحركتهم بحيث تخرج فى النهاية نغمة عربية متسقة تجعل العربى فى القدس المحتلة يتصرف بنفس الإحساس والفهم وفى نفس الاتجاه الذى يتحرك فيه العربى عند منابع البترول .

ويتحرك معهم تماما العربى الذى هاجر إلى كندا والولايات المتحدة ، والعربى الذى يعيش عند منابع النيل والفرات، وكأنهم كلهم على اتفاق مسبق. نغمة واحدة لا نشاز فيها وإن كانت تعزف على آلات مختلفة نوعاً أو ثمناً . ولكن المهم أن الإيقاع واحد متناسق . وهى نغمة تطرب لها العروبة وتنتعش . .

وبدأ العالم يستشعر هذا ، ويؤمن به . فقد نشرت مجلة نيوزويك ـ بعد شهور أربعة من الحرب، دراسة بعنوان « جبهة عربية صلبة » تقول فيها :« تنبأ كثير من المتشككين بعد توفيق العرب فى حرب أكتوبر ـ بأنه لن يمر وقت طويل حتى يدب الخلاف بين العرب ، وتثب اسرائيل إلى محاولة العودة إلى دورها السابق . . ولكن الأمور لم تسر على هذا النحو . . فبعد أربعة أشهر من الحرب نجد إسرائيل فى حالة من الاضطراب السياسى جعلت رئيسة الوزراء تلقى عناءاً شديداً فى تأليف حكومتها . ثم أخذت هذه الحكومة تنهار وتتداعى وتستقيل رئيسة الوزراء بعد فترة قصيرة من تشكيلها . وعلى النقيض من ذلك نجد أن العرب يثبتون تجمعا يثير الدهشة » .

وعلق دبلوماسى أمريكى بقوله :« لقد نسينا التاريخ .. إن تفرق العرب كان جديراً بأن يثير دهشتنا أكثر من تجمعهم » .

الملك الذى حرك العالم

المملكة العربية السعودية هى أكبر الدول العربية المنتجة والمصدرة للبترول.

وحينما اتخذ الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود قراره فى الرياض . . .
اجتاحت العالم موجة من الهزات السياسية والاقتصادية والاجتماعية . ولمس العالم دليلا جديدا وواضحا على بزوغ العرب كقوة دولية كبرى . فقد أصبح قادة العرب قادرين على التأثير فى اتجاهات السياسة الدولية ، وعلى إدخال تعديل جوهرى على التصرفات اليومية للأفراد فى بلاد تبعد عنهم آلاف الأميال عبر المحيطات . نخلت شوارع أكثر دول أوربا من السيارات فى أيام الآحاد ، وأعلنت حكومة بلجيكا أمام برلمانها بيانا أقوى من بيان السوق المشترك فى مساندة العرب ، وانخفضت أيام العمل فى بريطانيا العظمى إلى ثلاث ، وتدهورت عملة اليابان (ين) بعد أن كادت تصبح أغلى العملات الصعبة ، وفى الولايات المتحدة أصبح الأمريكى يقف فى طوابير طويلة ليملأ خزان سيارته ببضع جالونات من البترول الذى ارتفع سعره ، وانخفض الحد الأقصى للسرعة فى الطرقات السريعة إلى ٥٠ ميلا فى الساعة (بدلا من ٦٠) ، وقررت بعض المدارس تعطيل الدراسة بها لمدة شهر فى الشتاء توفيرا للطاقة ، وانخفضت درجة التدفئة داخل المكاتب والمصالح والشركات إلى ٦٨ بدلا من ٧٤ درجة فرنهيت. وهرع الأمريكيون لشراء أفران الخشب التى كان قد بطل استعمالها منذ سنوات .

وظهر نيكسون على التليفزيون يطالب الكونجرس بإنشاء لجنة خاصة لشئون الطاقة ، توضع تحت تصرفها كل الإمكانات اللازمة لرفع مصادر الطاقة الأمريكية البترولية والذرية والشمسية ، حتى تصبح الولايات المتحدة مكتفية اكتفاءاً ذاتيا عام ١٩٨٠ . وطالب الشعب الأمريكى بتطبيق إجراءات معينة تهدف لسد النقص الذى نجم عن قطع البترول العربى (حوالى ٣٢٢٥ مليون برميل يوميا).

وأعلن نيكسون أن أوروبا واليابان سوف تتجمدان حتى الموت خلال الشتاء بسبب أزمة الطاقة .

وبدأ المواطن الأمريكي الأوربي يشعر أنه أصبح أحد ضحايا أطماع إسرائيل ، ونشرت الصحافة الأمريكية والأوروبية عدداً من الخطابات التي وصلتها بهذا المعنى ، وكان طبيعيا أن يؤثر ذلك في مركز الأمريكيين اليهود ، وفي مكانتهم ، وهم الذين يحاولون دائما ألا يظهروا سببا في مشكلة .

وظهرت بوادر تنبيء بأن الولايات المتحدة قد بدت أقل تمسكا بإصرارها على على أن إسرائيل هي حامية مصالحها في المنطقة .

وسجلت بورصة الأوراق المالية في نيويورك إنخفاضا بلغ ١٠٠٫٠٠٠ مليون دولار في أسبوعين . وأصبحت أقل شائعة في الدول العربية عن إجراءات بترولية محتملة تؤثر في هذه البورصة صعودا وهبوطا . وتحول العالم كافة إلى خلية من النشاط والتحرك السياسي والدبلوماسي . وانشغل وزراء الخارجية والبترول والصناعة وغيرهم برحلات مستمرة إلى البلاد العربية . ومرت حمى الاتصالات والتوسط والاعتذارات ، وإظهار حسن النوايا على أعلى مستوى في دول العالم المختلفة .

وحينما اشتد الشتاء، أخذت أنظار العالم كله تتجه إلى القبلة ... في إنتظار قرار من الملك .

* * *

« حقاً لقد أدخل الملك فيصل مشكلة الشرق الأوسط إلى داخل كل بيت . . »

والملك الذى فعل ذلك حاكم مطلق لا قيود على سلطانه. ولكنه حاكم عادل، يؤمن بالشورى، ويفتح أبواب مقره لكل ذى حاجة. وهو زعيم روحى يتمسك بالتعاليم الدينية فى حكمه وقراراته. وهو مع ذلك حاكم عصرى، يمارس الديموقراطية والشورى كأسلوب فى الحكم. وأسلوب معاملته لشعبه وإنصافه للمواطنين يتفق مع ما عرفت به العروبة من عدل ورفع المظالم.

وهو ملك متزن فى قراراته، واضح فى تصرفاته. وقد كان فى الماضى متحفظا فى قبول الاقتراحات المتطرفة بصدد استعمال البترول كسلاح سياسى. ولكنه عندما اتخذ قراره الأخير كان حاسما وحازما. وأصر على رفض التساهل مع الولايات المتحدة إلا إذا حدث ما يبرر ذلك[1]. وعلى الرغم من أنه مع كل دقة ساعة تمر تضيف عائدات البترول مليون جنيه استرلينى إلى خزينة المملكة السعودية، إلا أنه يفضل أن يسكن داره البسيطة على أن يسكن القصر الذى كلفه الملك سعود ستة ملايين جنيه.

ويقول الملك فيصل:

« من الخطأ القول بأن الثورات لايحققها سوى المتآمرون... فمن الممكن أيضاً أن تقوم العروش بثورات ناجحة ».

ويؤمن الملك بالتضامن العربى، وبوحدة الهدف والمصير العربى، وحينما ذهب إليه كسينجر ليتفاهم ويرجو، قال الملك. « إننى أود أن أصلى بالمسجد الأقصى فى القدس العربية قبل أن ألقى ربى ». وكان هذا نذرا ودافعاً للعالم الغربى أن يعمل على تحرير القدس العربية من الإحتلال الاسرائيلى.

---

(١) كان موقف السعودية واضحا تماما فى هذا الصدد، خلال اجتماع وزراء البترول العرب بالكويت من ٢٤ إلى ٢٥ ديسمبر ١٩٧٣. فقد أصرت على قرار الحظر إلا إذا حدث تحول واضح فى موقف الولايات المتحدة من مشكلة الشرق الأوسط.

وقبل اكتشاف البترول فى الثلاثينات[1] كانت السعودية « الجزيرة النائمة » ثم تفجر الذهب الأسود واتضح أنها « الجزيرة العائمة » . ففى بطونها يوجد رصيد يقدر بحوالى ١٣٧ مليون برميل ، وهو يساوى ⅕ بترول العالم .

ثم قامت حرب أكتوبر وظهر معها العاهل السعودى فى دوره القيادى الهام فى العالم العربى (١٢٥ مليون نسمة) ، وفى العالم الإسلامى (٤٧١ مليون نسمة) ، وأعاد إليه هذا الدور لقباً محبباً . « أمير المؤمنين ».

وكان الملك فيصل واضحاً فى موقفه العربى منذ البداية . عندما احتاجت مصر لرفع رصيدها من البترول قبل المعركة ، لم يتردد لحظة فى إرسال ما يلزمها . . . . وأعلن مساندته الكاملة للدول المتحاربة . وكان من أجل جمع شمل أسرة العرب ، أخاً كبيراً عطوفاً شجاعاً . وعندما اجتمع وزراء البترول العرب فى الكويت كانت توجيهاته لوزير بتروله : « نسق مع الوزير المصرى » وعندما قدم سفير أمريكا أوراق اعتماده أكد له الملك « أن العرب مصرون هذه المرة على التمسك بموقفهم إزاء الولايات المتحدة طالما استمرت هى مستمرة فى سياستها الموالية لإسرائيل » .

وكانت دعوته للصلاة بالقدس دعوة سياسية دينية رومانسية أثرت فى ملايين الملايين وجعلت لمشكلة القدس أولوية خاصة .

ان فيصل — ويده على صمام البترول ، وعينيه تتجهان صوب مكة ، وقلبه يشتاق للقدس ، وذكريات العروبة تجول بخاطره — قد حرك العالم . والذى حرك الملك هو جندى مجهول قد لا يعرف مكانه ، ولا يعرف مصيره ، ولكن العالم كله يعرف اليوم الثار تصميمه .

---

(١) بدأت أول مجموعة من شركة ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا تبحث عن البترول فى السعودية سنة ١٩٣٣ . وتم العثور على أول بئر سنة ١٩٣٨ .

البترول العربى

لا تنصب هذه الدراسة على قصة البترول العربى واستخدامه فى المعركة وإمكاناته المتعددة . ولكن أية دراسة عن حرب أكتوبر لا يمكن بحال أن تتجاهل قصة البترول كأحد النتائج الهامة التى جاءت بها الحرب ، وبدأت بها صفحة جديدة فى تاريخ العروبة ، تسجل إقدام العالم العربى على استخدام إمكاناته الذاتية ، وكذلك أثر إستخدام هذه الإمكانات . كما تعكس تماسكا عربياً ووحدة عربية أدهشت العالم وأثارت احترامه. ولم تأت قصة البترول هذه عفواً ولا ارتجالا إنما احتاجت بدورها — مثل كل جوانب المعركة — إلى تخطيط وإعداد وتنسيق على أعلى مستوى قبل بدء العمليات العسكرية بشهور .

ويقول المهندس أحمد عز الدين هلال وزير البترول المصرى :

« لم يكن قرار استخدام البترول سلاحا فى المعركة وبالطريقة التى استخدم بها قراراً عفويا أو صادراً عن انفعال بسبب الأحداث ، وإنما سبقته دراسات واسعة وعميقة نوقشت فيها أوضاع صناعة البترول العالمية بصفة عامة ، ومركز البترول العربى فى إطار صناعة البترول العالمية والاقتصاد العالمى » .

وكان من الواضح بعد الدراسة المستفيضة الآتى :

١ — وجود حالة من التوازن الدقيق بين العرض والطلب على المستوى العالمى .

٢ — أن الدول العربية تتجاوز بإنتاجها المعدلات السليمة حتى تتمكن من تلبية إحتياجات السوق العالمية على حساب مصلحتها الخاصة .

٣ — أن مجرد تجميد معدلات الإنتاج العربى عند المستوى المرتفع المتحقق فى شهر سبتمبر ١٩٧٣ ، كفيل بأن يخلق حالة من الندرة فى الأسواق العالمية .

٤ — أن استمرار تصاعد الإنتاج العربى من شأنه مضاعفة فائض الأرصدة العربية فى أسواق المال الأجنبية فى وقت تحاك فيه المؤامرات لاحتواء القوى الكبرى لهذه الأرصدة .

استعمال سلاح البترول :

عندما وضعت الجيوش العربية يدها على سلاحها يوم ٦ أكتوبر ، وضعت الأمة العربية فى نفس الوقت يدها على مفاتيح مستقبلها .

وطار وفد مصر إلى المؤتمر التاريخى الذى عقده وزراء البترول العرب فى الكويت فى ١٧ أكتوبر ١٩٧٣، وهو يحمل توجيهات محددة يمكن تلخيصها فى أربع نقاط أساسية.

أولا : أن الموقف لايحتمل الفشل فى التوصل إلى قرار جماعى من الوزراء المجتمعين ، لأن الفشل يكون بمثابه نكسة سياسية للموقف العربى مما قد يسبب إنعكاسات غير مرغوبة فى ظروف المعركة .

ثانيا: أن سلاح البترول يجب أن يستخدم بذكاء ومرونة وإيجابية مع الحفاظ على سلامة اقتصاديات الدول العربية المنتجة للبترول.

ثالثا : أن الأمر يقتضى حفز الدول الصناعية الكبرى على ممارسة ضغط مؤثر على أمريكا وإسرائيل ، بحيث يصبح الموقف فى غير صالحها .

رابعا : أن يكون القرار عمليا ومشمولا بالنفاذ . وألا يكون مجرد طلقة واحدة وينتهى الأمر ، وإنما يجب أن يعبر عن خطة لها طابع الاستمرار والمرونة فى مواجهة كافة الاحتمالات والتغيرات .

وعبر الموقف العربى عن التضامن الكامل وصدر القرار بالإجماع فيما عدا العراق الذى طالب بموقف أكثر تشددا ، وجدته الدول المجتمعة يفتقر إلى الإيجابية والمرونة وطابع الاستمرار ، وهى شروط ضرورية فى استخدام سلاح البترول .

ولقد شهد العالم ببراعة العرب فى استخدام سلاح البترول، وبالمرونة الفائقة التى استخدم بها فى مواجهة متغيرات الموقف منذ ١٧ أكتوبر ١٩٧٣ . وإذا كان عبور الجيوش العربية لقناة السويس وقتالها المجيد على سفوح الجولان مشرقا لعصر جديد فى دنيا السياسة والحرب ، فإن استخدام العرب لسلاح البترول على النحو الذى استخدم به ، جاء هو الآخر ميلاداً لنمط جديد فى العلاقات الاقتصادية على المستوى العربى .

كفاءة بترولية علمية :

بعد الإجتماع الأول الذى عقد فى ١٧ أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، والذى تعد نتائجه فى حد ذاتها انتصاراً عربياً وحدوياً قام على أسس علمية واقعية ، عقد وزراء البترول العرب إجتماعات أخرى فى الكويت فى ٤ ، ٥ نوفمبر ثم فى ٨ ديسمبر . ثم فى ٢٤ ، ٢٥ ديسمبر ١٩٧٣ ، وبعدها فى القاهرة.. وفى طرابلس.. وفى فيينا .

وبدراسة هذه القرارات يظهر بوضوح تام أنها جمعت بين الواقع والموضوعية. فهى تستند إلى إعتبارات واقعية، كما أنها تقوم على الأسس العلمية للإدارة السليمة، والتخطيط والتقييم المستمر لنتائج القرارات والمتغيرات الدولية .

ويمكن القول بأن التعاون والأسلوب العلمى الذى ظهر من خلال قرارات هذه الاجتماعات ، يعد مكسباً عربياً لا يقل فى أهميته ومغزاه عن المكسب الذى يعكسه استعمال سلاح البترول من أجل قضية العرب . ذلك أن مجرد استعمال السلاح أمر ، واستعماله استعمالا ذكياً وعلمياً ماهراً وحاذقاً أمر آخر أبعد آثاراً وأكثر تأثيرا .

وبدأ العالم يرى صورة جديدة للتكنوقراطيين العرب من وزراء البترول الذين يجوبون العالم أمثال :أحمد زكى اليمانى — السعودية ، عبد السلام بلعيد — الجزائر ،

وعبدالرحمن العتيقى ـ الكويت . وأحمد هلال ـ مصر ، يشرحون السياسة البترولية العربية عن علم ودراية . ونشرت صحافة العالم أخبارهم وهم يردون بقدرة ودراية على إيعاءات العدو ، ويبينون أن الهدف من القرارات البترولية لم يكن أبدا «الإبتزاز» ، أو رفع الأسعار ، إنما كان وسيلة مشروعة معروفة من وسائل الضغط السياسى ، يتوقف تطور استعمالها على مدى مساندة دول العالم للحق العربى ، وإسهامها فى إقامة سلام عادل بالمنطقة .

وبدأ العالم يحس أنه من الصعب أن يشعر العالم بالأمن أو الدفء أو بالرخاء بينما هنالك ملايين من البشر يعانون من الظلم أو الاحتلال ويعيشون ربع قرن فى خيام . وألقت حرب أكتوبر ضوءاً جديداً على الأوضاع السياسية والبترولية فى العالم ، مثلما أثرت السياسة البترولية العربية على نتائج حرب أكتوبر .

حرب أكتوبر والأوضاع البترولية فى العالم :

كانت لحرب أكتوبر آثار ونتائج بترولية دولية هامة لا يمكن إغفالها كأحد النتائج الأساسية التى ترتبت عليها . وقد جاءت هذه الآثار والنتائج نتيجة لعوامل عدة أهمها :

١ — حالة الحرب التى أدت إلى نسبة توقف فى الإنتاج فى الدول المتحاربة . فتوقف إنتاج سوريا بالكامل ، كما توقف إنتاج حقول منطقة خليج السويس .

٢ — قصف إسرائيل مينائى طرطوس وبنياس ، مما ترتب عليه تعطيل شحن حوالى مليون برميل يومياً ، وتوقف صادرات الخام العراق .

٣ — قرار وزراء البترول العرب فى ١٧ أكتوبر بتخفيض الإنتاج ، وما تلاه من قرارات التخفيضات .

٤ — قطع البترول العربى عن كل من الولايات المتحدة وهولندا .

٥ — ما اتخذته الدول العربية منفردة من قرارات تهدف لرفع نسبة

التخفيض أو قطعه عن دول معينة . فقد زادت كل من السعودية وقطر والكويت نسبة التخفيض إلى ١٠ ٪ بدلا من ٥ ٪ منــذ البداية . كما أن السعودية أعتبرت القطع عن أمريكا ثم هولندا إضافة إلى الخفض الأصلى ، وليس مشمولا به ، مما جعل الخفض السعودى يصل فى شهر نوفمبر إلى ٣٧ ٪ من معدلات سبتمبر ، وأعلنت أبو ظبى منفردة أنها قطعت البترول عن كندا .

٦ — ارتفاع أسعار البترول الذى لم يكن هدفا أساسياً للسياسة البترولية العربية ، واستفادت منه شركات البترول أكثر مما استفادت الدول العربية ، وحاولت استغلال الموقف البترولى .

وقد جاءت كل هذه العوامل بمجموعة من الآثار السياسية والاقتصادية والاجتماعية والسلوكية ، تحتاج فى حد ذاتها لدراسة مسهبة ، نعرض هنا أحد جوانبها فقط وبإيجاز ، للتدليل على ما يمكن أن يفعله العرب عندما يقدمون على استخدام القوى الذاتية العربية على أسس علمية .

أثر القرارات البترولية :

عندما اتخذ العرب قراراتهم كان لذلك أثر كبير على الأوضاع البترولية فى العالم كله ، سواء بالنسبة لمسيرة السلام أو لأسلوب القتال . وكتبت موسوعة « جينز » البريطانية تقول ، إن احتمال حدوث مجاعة عالمية فى البترول يمكن أن يغير وجه الحرب الحديثة لأنه سيحرم قوات العالم من نحو ٩٠ ٪ من قدرتها على الحركة ، ويفتح المجال أمام استخدام الغواصات التى تعمل بالطاقة الذرية من ناحية أخرى .

وقالت الموسوعة أن نقص البترول سيترتب عليه الحد من استخدام الدبابات والطائرات والوسائل البحرية ، مما قد يؤدى إلى إعادة تقييم الحرب الكيميائية والبيولوجية . وقالت الموسوعة إن حدوث مجاعة عالمية فى البترول يمكن أن

يؤدى إلى مواجهة بين القوى العسكرية الكبرى فى منافستها للسيطرة على الإمدادات من الدول المنتجة للبترول .

ولذلك كان أثر الخفض العربى بعيدا وملموساً ، إذ كانت الكمية المخفضة من البترول العربى — تنفيذا لقرار ٤ نوفمبر — تمثل ١٢ ٪ من جملة الطلب العالمى خارج الكتلة الشرقية . وذلك بالرغم من أن الحقول السورية وحقول البحر الأحمر كانت متوقفة منذ ٦ أكتوبر ، وبالرغم من خروج العراق عن القرارات البترولية .

ونعرض فيما يلى تقييما موجزاً لأثر الخفض بالنسبة لكل منطقة من مناطق الاستهلاك الرئيسية :

(ا) الولايات المتحدة الأمريكية :

على أساس معدلات عام ١٩٧٣، كانت الولايات المتحدة تحصل على الخامات العربية (بخلاف خامات السعودية) ، بمعدل يبلغ ٥٣٤ ألف برميل يومياً . وكانت وارداتها من السعودية فى شكل إستيراد مباشر وغير مباشر تقدر بمليون برميل يومياً . (وهذا الرقم يشمل الصادرات المباشرة من الزيت الخام بمعدل ٣٣٠٫٣ ألف برميل يومياً، و ٦٦٩ ألف برميل من منتجات من الخامات السعودية التى كانت تصدر إلى القوات الأمريكية والقواعد وغيرها عن طريق البحرين أو من رأس تنورة ، والخام الذى كان يصدر إلى معامل الأنتيل الهولندية).

يضاف إلى ذلك منع مرور واردات كندا من الخام العربى فى خطوط الأنابيب عبر أراضى الولايات المتحدة ، وتقدر بحوالى ١٥٠ ألف برميل .

وأخيرا اضطرار أوربا الغربية إلى وقف صادراتها من البترول إلى الولايات المتحدة ، وتقدر بما لا يقل عن ٢٠٠ ألف برميل يومياً .

ومن المنطق أن تضطر هولندا إلى تحويل صادرات الأنتيل إلى روتردام لتتمكن من تخفيف حدة الآثار المترتبة على المقاطعة العربية ، وتقدر صادرات الأنتيل إلى أمريكا بحوالى ٤٠٠ ألف برميل يومياً من المنتجات المكررة .

وعلى هذا النحو يقدر إجمالى الكميات التى قطعت عن الولايات المتحدة كما يلى :

١ر٠٠٠	مليون برميل يومياً من البترول السعودى .
٠ر٥٥٤	مليون برميل يومياً من بترول بقية أعضاء المنظمة .
٠ر٦٠٠	مليون برميل يومياً من أوربا الغربية والأنتيل .
٢ر١٣٤	مليون برميل يومياً .

وهكذا نجد أن على أساس معدلات العام الحالى تمثل الكميات التى قطعت عن أمريكا ما يوازى ٣٥ ٪ من وارداتها و ١٣ر٦ ٪ من إجمالى الاستهلاك .

وبحلول فصل الشتاء كان من المتوقع أن يرتفع الطلب بحوالى ١٠ ٪ . على أن المتوسط العام لزيادة الطلب الأمريكى فى العام القادم لن يقل عن ٧ ٪ ، وهذه الزيادة التى تقدر بحوالى ١ر٢ مليون برميل يومياً كانت أمريكا تأمل فى الحصول على مليون برميل منها من الخليج العربى .

وعليه فإن العجز الحقيقى فى إمدادات الولايات المتحدة كان يمكن أن يرتفع فى الشتاء إلى ما لا يقل عن ٣ مليون برميل يومياً ، أى ما يوازى حوالى ١٨ ٪ من حجم الاستهلاك ، وهى نسبة لا يمكن التهوين من شأنها بالنسبة لدولة صناعية كبرى[١] .

---

(١) ذكر جيمس أيكنز، سفير أمريكا فى السعودية فى مقال نشر فى شهر مارس ١٩٧٣، أن قطع البترول العربى عن أمريكا ، يضعها أمام أحد إختيارات ثلاثة :

الأول : أن تسلم أمريكا بالمطالب العربية .

الثانى : أن تقوم بعمل عسكرى فى مناطق البترول .

الثالث : أن ينهار الاقتصاد الأمريكى .

(ب) هولندا :

يبلغ مجموع الكميات التى تصب فى ميناء روتردام حوالى ٢ر٦ مليون برميل يومياً، منها ١ر٥ مليون برميل يومياً من الخام العربى، كواردات خاصة لهولندا. عدا كميات أخرى من الخام العربى تستوردها دول أوروبية أخرى عن طريق ميناء روتردام .

وتمثل الشحنات التى تصب فى ميناء روتردام ١٨ر٥ ٪ من مجموع واردات أوروبا الغربية ، والبالغة نحو ١٤ مليون برميل يومياً من الزيت الخام .

وتعيد هولندا تصدير ٢ مليون برميل ، منها ٢٠٠ ألف برميل فى شكل منتجات مكررة . وكذلك ١ر٢ مليون برميل فى شكل زيت خام ، ٥٤٠ ألف برميل يومياً إلى ألمانيا الغربية ، و ٤٠٠ الف برميل يومياً إلى بلجيكا بواسطة الأنابيب . كما تعيد شحن ٨٠ ألف برميل يوميا إلى بريطانيا و٢٤ ألف برميل إلى الدانمرك ، وعشرة آلاف إلى السويد ، وثمانية آلاف إلى فرنسا .

أما المنتجات فيجرى تصديرها بصفة رئيسية إلى ألمانيا والدول الإسكندنافية وبلجيكا ولكسمبورج وأمريكا ، وتشير الأنباء إلى أن هولندا قد أوقفت تصدير المنتجات إلى أمريكا والدول الإسكندنافية .

والجدول رقم (٥) يوضح تفاصيل واردات هولندا من الزيت الخام الذى يعالج فى المعامل الهولندية ، على أساس متوسط الثلاثة أشهر الأولى من عام ١٩٧٣ .

ويمكن أن نجمل أثر قطع البترول العربى عن هولندا فيما يلى :

١ — تبلغ طاقة التكرير فى هولندا حوالى ١ر٩ مليون برميل يوميا .

جدول رقم (٥)

واردات هولندا من الزيت الخام العربي

البلد	الكمية (برميل/يوميا)	٪ من المجموع
الجزائر	٤,٠٢٩	٠,٢
ليبيا	٨٧,١٥٩	٤,٣
مصر	١٧,٥٦٢	٠,٩
سوريا	٢٢,٨٢٤	٢,١
العراق	٢,٥١٥	٠,١
السعودية	٧٤١,٦٢٨	٢٦,٢
الكويت	٤١٥,٢٥٣	٢٠,٣
قطر	١١٠,٠١٨	٥,٤
أبو ظبي	٥٩,٤٢٧	٢,٨
عمان	٠,١٥٦	٠٠
المجموع	١,٤٦٠,٥٧١	٧١,٣
مصادر غير عربية	٥٨٨,٢٤٠	٢٨,٧
المجموع	٢,٠٤٨,٨١١	١٠٠

الجدول رقم (٦)

الخفض المتحقق فى معدلات الإنتاج

تنفيذاً لقرار ٤ نوفمبر ١٩٧٣

بملايين البراميل يومياً

البلد	معدل إنتاج سبتمبر ١٩٧٣	الخفض المتحقق	ملاحظات
الإمارات العربية	١,٦٠٠	٠,٤٠٠	
العراق	١,٨٠٠	—	لم يلتزم العراق بالقرار
قطر	٠,٦٠٠	٠,١٥٠	
الكويت	٣,١٤٠	٠,٧٨٥	
السعودية	٨,٧٠٠	٣,٧١٩	أعلنت السعودية أن نسبة الخفض فى إنتاجها ٣٧٪
مصر	٠,٢٠٠	٠,١٦٠	حقول خليج السويس والبحر الأحمر متوقفه منذ ٦ أكتوبر
سوريا	٠,١٢٠	٠,١٢٠	الحقول السورية متوقفة منذ ٦ أكتوبر .
الجزائر	١,١٠٠	٠,٣٧٥	
ليبيا	٢,٤٠٠	٠,٦٠٠	
المجموع	١٩,٦٦٠	٦,٣٠٩	

ويتعطل ما يقرب من ٧٢ ٪ منها نتيجة لانقطاع البترول العربى ، بكل ما يمثله ذلك من تسكلفة على الاقتصاد الهولندى .

٢ — تأثر الميزان التجارى نتيجة لتوقف صادرات المنتجات المكررة .

٣ — فقدت هولندا أيضاً ما كانت تجنيه من دخل كدولة تمر بها كميات كبيرة من الخام عبر خطوط الأنابيب من روتردام إلى ألمانيا الغربية وبلجيكا .

٤ — كان البترول يمثل ٧٠ ٪ من إجمالى الشحنات المتداولة فى ميناء روتردام ، وترتب على قطع البترول العربى شل نصف الحركة فى الميناء .

٥ — بالنسبة لاحتياجات هولندا لاستهلاكها الخاص انخفض ما تحصل عليه من البترول من ٢ مليون برميل يومياً إلى حوالى ٦٠٠ ألف برميل ، بينما تحتاج إلى حوالى ٨٠٠ ألف برميل يومياً لاستعمالها الخاص . وبالتالى لن تعانى هولندا عجزاً خطيراً فى الطاقة ، خاصة وأن فى وسعها تحويل صادرات معامل الهند الغربية (الأنتيل) إلى روتردام لسد العجز .

(م) أوروبا الغربية :

يمكن تلخيص الموقف بالنسبة لأوروبا الغربية بصفة عامة على النحو التالى :

* على أثر قيام إسرائيل بقصف مينائى طرطوس وبنياس تعطل حوالى مليون برميل يومياً، كانت أوروبا تحصل منها على حوالى ٧٥٠ ألف برميل يوميا.

* نتيجة لتنفيذ قرار ١٦ أكتوبر حرمت أوروبا الغربية من :

٣٤٠ ألف برميل يوميا من بترول الجزائر وليبيا .

٢١٥٧ ألف برميل يوميا من بترول الخليج العربى .

* أصبح مجموع الـكميات المقطوعة عن أوروبا الغربية حوالى ٣ر٣ مليون برميل يوميا .

* عند صدور قرار ٤ نوفمبر كان الشحن قد أستؤنف من ميناء بنياس بمعدل منخفض، ولـكنه لم يلبث أن استعاد مستواه الأصلى ، وفى نفس الوقت لم يلتزم العراق بتنفيذ قرار خفض الإنتاج ، وعلى سبيل التحفظ فى الحساب يمـكن أن نفترض أن أوروبا الغربية لن تحرم من شحنات الخام العراقى فى شرق البحر المتوسط .

* وبتطبيق قرار ٤ نوفمبر،مع استبعادالعراق ،والأخذ فى الاعتبار بأن ٥ ٪ من صادرات ليبيا والجزائر ، و ٥٣ ٪ من صادرات الخليج العربى تذهب إلى أوروبا الغربية ،يمكن احتساب الـكميات التى قطعت عن أوروبا على النحو التالى :

٨٢٨ر٠ مليون برميل يوميا من بترول ليبيا والجزائر .

٢٫٦٢٧ر٢ مليون برميل يوميا من بترول الخليج العربى .

٤٥٦ر٣ مليون برميل يوميا .

* تمثل الـكميات التى قطعت من أوروبا الغربية حوالى ٢٥ ٪ من وارداتها بمعدل ١٩٧٣ وحوالى ٣ر١٣ ٪ من استهلاكها .

وتتزايد النسبة مع تزايد الخفض فى إنتاج البترول العربى .

(د) اليابان :

يقدر معدل استهلاك اليابان فى عام١٩٧٣،بحوالى ٢ر٥ مليون برميل يوميا، ترفع فى أشهر الشتاء إلى ٨ر٥ مليون برميل يوميا . وعلى أساس معدلات العام المذكور ، تستورد اليابان خامات عربية بمعدل ١ر٢ مليون برميل يوميا تقريبا ،

ترتفع إلى حوالى ٤ر٢ مليون برميل يوميا فى أشهر شتاء ١٩٧٤/٧٣ . ونتيجة للخفض المطبق بعد قرار ٤ نوفمبر انخفضت صادرات البترول العربى بمقدار ٦ر٠ مليون برميل يوميا .

وقد أكدت بعض الدراسات التى قدمها الوفد اليابانى الذى قام بمباحثات مع القادة العرب خلال شهر ديسمبر برئاسة ماكيوميكى نائب رئيس الوزراء ، أن قطع البترول عن اليابان لن يؤثر فقط فى اقتصاديات اليابان وصناعتها، ولكنه سوف يؤثر تأثيراً كبيراً على الأوضاع الاقتصادية والصناعية فى عدد من بلدان الشرق الأقصى . وتدل هذه التقارير على أن الصناعات الخفيفة التى تعتمد عليها كوريا ، والتى تحتل ٧٣ ٪ من دخلها من العملات الحرة ؛ تعتمد بنسبة ٩٦ ٪ على المواد الأولية التى تقدمها لها اليابان .

كما أن هونج كونج تستورد من اليابان ما يتراوح بين ٥٣ ٪ و ٨٤ ٪ من المواد الأولية اللازمة لصناعتها .

الفصل الثالث

صانع القرار .. ومصر في المستقبل

« إن مصر فى تصورى يجب أن تصبح
جزيرة للرخاء والسلام » . (١)

انور السادات

٢٣ / ٣ / ١٩٧٤

لا يوجد عصر فى التاريخ على خلاف شائك مع مدى مناسبته للحالة الإنسانية مثل العصر الذى نعيش فيه . والسبب يبدو واضحاً . فنحن نجد أنفسنا محاصرين ببعد جديد من أبعاد التغيير المتفجر الذى لا مثيل له فى حياة البشرية . وربما كان لنا الحق فى الماضى فى الاعتقاد بأن التعليم الذى تلقيناه ونحن أطفال يمكن أن يبقى له معنى ونحن شيوخ . أما ما يحدث فى عالم اليوم ، فهو أن التقدم العلمى والتكنولوجى ، وحركة التغيير الاجتماعى الهائلة تسير بسرعة خيالية تفقدنا القدرة على الارتباط المتوازن بها .

---

(١) الرئيس أنور السادات: من حديث مع المؤلفين .

مصر المستقبل

الطاقة التى تفجرت

حقاً إن الانتصار هو أنجع عقار منشط للخصائص الأصيلة فى الشعوب .

ففى تاريخ الشعوب والأمم — كما هو الحال فى تاريخ الأفراد — لحظات بذاتها هى فرصة بعث وانطلاقة ، يمكن — إن فطنوا لها وأدركوها وأحسنوا استعمالها — أن تحول مجريات الحياة وتغير مصائرها إلى أبعد مدى . إنها فرصة .. والفرصة تسمى هكذا فقط متى انتهزت ، وحيل بينها وبين الضياع .

ومن أهم المعانى التى أطلقها ٦ أكتوبر المجيد هو تلك الطاقة الهائلة التى تفجرت داخل مصر . وهى الطاقة التى رسمت المجتمع المصرى رسما جديداً ، وأتمت فى بساطة ويسر ما كنا نحاول أن نصل إليه خلال أعوام طويلة ، وما طال أن تمنيناه من يقظة فى النفوس وتحرير للعقول ، وإزكاء الرغبة فى العطاء ، والشعور بالانتماء ، والقضاء على السلبية والفردية وعدم الاكتراث .

وفجأة ، لم يعد السؤال الذى يتردد على أفواه المصريين .. ما الذى يمكن أن تعطية لنا مصر ؟ وإنما أصبح .. ما الذى يمكن أن يفعله كل منا لمصر ؟

لقد كانت الجبهة الداخلية أعظم تحديات ما قبل الحرب ، فإذا بها أهون أعباء فترة الحرب .

ولأول مرة يستشعر المصريون أن مصر « محكومة » دون إحساس بتدخل الحاكم أو سطوة الحكم .

وكان الانضباط مفروضا من داخل النفس لا من قبل السلطة . وتعاون الشعب ، كل الناس .. العلماء والجهلاء . المثقفون والبسطاء ، القادرون والمعوزون ،

الـكل أعطى وأسهم وعمل . وهب الشعب فى صحوة رائعة ، ووحدة لا ينال منها مغرض أو مخرب .

إن هذه الطاقة التى تفجرت وعبرت عن نفسها فى كل صغيرة وكبيرة هى فى واقع الأمر ثروة هائلة لا يجوز أن نتركها تتبدد ، بل لا بد من استثمارها وتعهدها بالرعاية والعناية حتى تستمر ، وحتى تعطى أقصى فائدة ممكنة ، فتصبح أسلوبا راسخاً وليس إنفعالة مؤقته، وكل ذلك لن يـكون إلا بتنظيمها وتأصيلها ووضعها فى صيغ علمية سليمة ، وترجمة العواطف إلى أنظمة ، والوطنية إلى عطاء والرغبة إلى أداء ، والاندفاعة إلى مسئوليات محددة .

إن المعركة العسكرية حتى إذا انتهت ، فلن تنتهى قضية مصر . إنما التحدى مستمر والصراع قائم ، وفى انتظارنا معارك أخرى شرسة ، وإن كانت معارك حضارية ، علمية وتـكنولوجية ، يتحدد بها مصير المنطقة . ويعقد بها لواء القيادة للأصلح .

وتلك الطاقة والقدرات التى انطلقت لابد أن تستمر ، وأن تستثمر بنفس القوة والحماسة والصدق ، إسهاما فى معركة البناء والتعمير ، والتنمية والتحضر .

وشارك نصف المجتمع:

حينما بدأ القتال، هبت المرأة المصرية لتعمل، واستمر القتال واستمرت المصرية تعمل — ثم توقف القتال .. ولـكن المصرية استمرت تعمل . . . لقد انطلقت طاقات نصف المجتمع .

والمسئولة الأولى عن هذه اليقظة الحديثة للمصرية هى — دون جدال — سيدة مصر الأولى جيهان السادات، التى عملت فى صبر وجدية لسنوات طوال من أجل مصر ومن أجل المرأة .

ودور جيهان السادات في الوطنية والقيادة بدأ قبل أن تصبح سيدة مصر الأولى، بل إنها أعجبت بأنور السادات وتزوجته بسبب وطنيته المتدفقة وإخلاصه لقضية بلاده . وقد تزوجته عقب خروجه من السجن ، وعاشا معا أياماً صعبة كالتي يمر بها كل وطني مكافح ، ولكنها كانت دائماً إلى جواره تسانده بقلبها المفعم بالحب والإيمان.

وبدأت العمل الاجتماعي ، بإنشاء جمعية للتنمية الاجتماعية في ريف مصر . ولما نشبت حرب ١٩٦٧ ، كانت تطوف يوميا بالجرحى،تعمل وسطهم وتخدمهم، وتزور المصابين بالجبهة وتظل ترعاهم وتسمعهم وتواسيهم ، تحت ظروف الحرب بلا تردد أو خوف .

وعندما أصبحت سيدة مصر الأولى، أتسع نطاق عملها وأهتمت بقضايا الأسرة ومشا كل المرأة العاملة والطفولة وغيرها . وتزايد نشاطها. وتعرضت من أجل ذلك لهجوم شديد، بلغ أحيانا حداً لاذعاً — وتألمت منه ، ولكنها لم تيأس ، فهي صاحبة رسالة ، وككل صاحب رسالة كان عليها أن تعاني .

واستمرت في رسالتها توضحها، وتبلغ معانيها بالعمل والأداء أكثر منه بالقول والكلام . وجمعت صفوف المرأة العاملة ، وربة الأسرة ، وكرمت الممرضة والمدرسة ، والفلاحة ، والعاملة ، والأم التي ترعى أبناءها .

وقامت بثورة هادئة ، عميقة نفاذة ، ثورة عصرية وفورة من أجل تطوير المرأة ودفعها .

وضربت المثل في التفاني والعطاء ، والجدية والمثابرة ، والرغبة في العلم والاستزاده منه . فكانت أول من يحضر الندوات العلمية والدورات الثقافية وأكثر من يعمل أثناءها . وتحركت في المجال الأفريقي ، والعربي ، والغربي ، والشرقي ، وتناقلت الصحف الدولية أنباءها وأعمالها ، فكانت خير سفيرة لمجتمعها وبلادها .

وعندما اشتعل القتال، كانت دائما فى المقدمة لم تتوقف عن العمل يوما واحداً. عملت فى المستشفيات ، واستمعت لأسر المقاتلين والشهداء . وجابت الوادى شمالا وجنوبا تزور الجرحى . . ولم تكن زياراتها مظهرية للمواساة ، وإنما كانت دائما مشاركة حقة . فاستمعت لكل مريض وتحدثت مع كل مصاب .

فاحس الذى فقد عينيه ان مصر اصبحت ترى بهما ، وشعر الذى فقد رجليه ان مصر تسير فى طريقها عليهما ، وايقن من فقد ذراعيه انه يرفع بلاده عاليا بهما . . واستحقت عن جدارة اسم « أم المقاتلين » .

وبقيادة مثل هذه ، تملأ المجتمع بالعمل والإنجاز ويمتلىء قلبها بالمحبة والإيمان — لم يعد فى وسع أى مصرية أن تلجأ إلى الخمول ، أو المظهرية ، أو النطرسة ، أو اللامبالاة .

إن الطريق الوحيد أمام المرأة الذى يمكنها أن تثبت به أنها جادة وكفء ، هى أن تكون نعلا جادة وكفء .

وقد أثبتت جيهان السادات ، ومعها مئات من المواطنات اللواتى كن ينتظرن الدفعة والقيادة ، أن المصرية جادة وكفء .

لقد رأت كل مصرية أن المواطنة المصرية الأصيلة مهما كان نصيبها كبيراً من الجمال والجاه والسلطة ، لا تسعد إلا بالعمل من أجل وطنها وفى سبيل أبنائها . عملا جاداً وقورا هادفا ، يقوم على العلم وبدفعة الإيمان

لقد كانت جيهان السادات قدوة وقيادة ورمزاً ، وعملت معها مئات ومئات من سيدات مصر ، قدمن الجهد والوقت ، تبرعن بالحلى والمال ، أعطين الأزواج والأبناء ، راضيات صابرات مثابرات ، وكن جميعاً ، عن حق ، على مستوى المسئولية . وتلك المسئولية لم تنته ولابد أن تمتد الجهود والأفكار والإنجازات إلى قلب مصر ، إلى الريف الطيب ، إلى السواد الأعظم من المرأة المصرية الأصيلة التى تكد وتكافح فى القرى والكفور والنجوع ، تعمل بيديها فى الأرض الخالدة وتشارك فى صبر وصمت وجلد ، أن الجهود لا بد أن تنطلق إليها لا لتكف عن العمل الصابر الصامت ولكن لتقوم به بكفاءة أعلى وفى ظروف أكثر إنسانية.

دور إنسانى . . .



السيدة جيهان السادات إلى جانب مقاتل مصاب
بإحدى مستشفيات الجرحى . . .

ودور بطولى ...



سيدة مصر الأولى على أرض المعركة
مع القادة والمحاربين
ومعها اللواء سعد مأمون ، واللواء أحمد بدوى

عبور الفجوة الحضارية :

فى أعقاب حرب ١٩٦٧ ، وفى تحليل لعوامل النكسة ، برزت قضية فكرية أساسية احتلت اهتماما كبيرا ، واختلف فيها الرأى وهى قضية الحضارة والتخلف وقد تناول هذا الموضوع الكثيرون من المفكرين والكتاب[1] .

وكان هناك إصرار من بعض الكتاب على أن قضيتنا مع إسرائيل ليست قضية عسكرية ، فقد نشتبك مع إسرائيل مرة ومرات ، ولكن هذا لا يعبر سوى عن جانب فقط من الصراع فى صورته الشاملة. ذلك أن المعركة مع إسرائيل بأبعادها الكاملة معركة « حضارية »، معركة مع التقدم. وأن إقامة مجتمع سليم وعصرى متحضر ، ودولة عصرية حديثة ، هى المعركة الجدية التى تحسم هذا الصراع فى مداه الطويل .

وأكدت وجهات النظر القلقة هذه أننا كنا نعانى من فجوة حضارية نحاول تحت وطأتها أن نستبدل الحدس والتخمين والاتكالية واللاموضوعية بالتخطيط والتفكير وعلمانية القرارات ، وأن نعوض فى ظلها الكيف بالكم . وذهبت هذه الآراء إلى أن الفجوة الحضارية قد تمثلت خلال حرب ١٩٦٧، بصورة واضحة، فى المسافة التى تفصل بين عقلية وتفكير وسلوك القادة والمحاربين وقتئذ ، وبين قدرتهم على استيعاب واستخدام أجهزة الحرب الحديثة المطورة والمعقدة ، والارتفاع إلى المستوى الحضارى الملائم فى التنظيم والإدارة والقيادة واتخاذ القرارات .

وهبّ على العالم العربى إعصار خارجى بعد النكسة فى صورة كتابات ومقالات وأحاديث ، مصدرها الغرب ، تتضمن أفكارا غريبة عن ماضينا وحاضرنا ولا تشرف مستقبلنا ، تلبس ثوب البحث العلمى وتنطلق من النظرة الحضارية .

---

(١) احمد صدقى الدجانى : من المقاومة إلى الثورة الشعبية فى فلسطين ، (القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٩) ، ص ٤٩

ولم يلبث هذا الإعصار أن ولّد فى بعض العواصم العربية ، ومن خلال مراكز الثقافة الغربية فيها، أعصارا داخليا يتبنى تلك الأفكار ويبنى عليها نتائج خطيرة.

وكانت معظم هذه الأفكار من نتاج مصانع الحرب النفسية التى ينظمها العدو ويوجهها ضدنا . وهى جميعها من نتاج الغرب الذى تسيطر عليه الدعاية الصهيونية وتوجهه مفاهيم خاصة فى نظرته إلينا وإلى بقية دول العالم . وإدراك هذه الحقيقة أمر أساسى لتحقيق الشمول والعمق فى نظرتنا إلى المشكلة ، وبالتالى لتقرير كيفية مواجهتها .

وقد انتشرت هذه الافكار بين قطاع المثقفين بصفة خاصة واثرت فيه تاثيرا واضحا . لأن النكسة كانت شديدة عليهم . ومع أن هذا الاعصار الداخلى لم يصل الى فكر وروح الجماهير العريضة التى وجهتا فطرتها الوجهة السليمة فى رد فعلها للنكسة ، الا أن بقاء الأسئلة المتعلقة بالقضية الحضارية بدون جواب كان فى صالح العدو ، وكان يمكن أن يمكنه من النفاذ الى قطاعات اخرى . وكان لابد من التصدى للقضية الحضارية من جذورها [1] .

وجاءت حرب أكتوبر ، وكانت مدخلا شاملا للتغيير . ولعل من أهم ماغيرته تلك الأفكار التى ترددت عن الفجوة الحضارية ، فحينما نتأمل اليوم بعض جوانب هذه الحرب ، وبدون التقليل من النتائج الأكثر خطورة لها ، نجد أننا فى حاجة إلى إعادة النظر بشأن ما سمى بالفجوة الحضارية .

فخلال الفترة القصيرة الماضية ، أمكن أن نسد الجانب الأكبر من الفجوة التى عانت منها القوات المسلحة . ولعل أهم العوامل الحاسمة أن هذه الثغرة قد سدت عند منبعها الأساسى وهو التعليم من خلال سياسة تجنيد المؤهلين . ولا نحاول هنا أن نزهو بالتعليم والتنمية فى قواتنا المسلحة ، ولكن نود أن نؤكد أن التقدم التكنولوجى الذى أحرزته فى الحرب الحالية بشرطيه الأساسين : وهما

---

(١) أحمد صدقى الدجانى : المرجع السابق .

المعارف العلمية الأساسة ، والقدرة الإدارية العصرية ، لم يكن من الممكن أن يتحقق دون تحسين الأساس الذى يقوم عليه عند مستوى الجندى المحارب .

وهذا التحول يمكن رؤية بعض أبعاده بجلاء من خلال آراء المراسلين والمحللين والنقاد الأجانب. فتقول وكالة الأنباء الفرنسية مثلا : «أن من أهم مفاجآت وحقائق هذه الحرب هى قدرة المصريين على استعاب فنون الحرب الإلكترونية.» وهو أمر لم يكن يقدره أحد حق قدره، ولم يكن يراود خيال العدو فى يوم من الأيام.

لقد وضح تماما من خلال المعارك أن المقاتل المصرى لم يكن عامر القلب بالإيمان مملوءاً بالثقة بالنفس والإصرار فحسب ، ولم يكن شجاعاً باسلا وصلباً فحسب . . وإنما كان أيضاً عند أعلى مستوى من المهارة والحذق والتدريب ، والقدرة الفائقة على الأداء تحت كل الظروف ، والتعامل المقتدر مع الأسلحة والعتاد المصرى والإلكترونى الذى فى حوزته .

وإلى جانب هذا كان المقاتل المصرى — برغم ظروف الحرب وتحت ضراوتها ووسط أتونها — قادراً على إخضاع نفسه للنظام والتحلى بمسلك منضبط استرعى الانتباه . ونكرر هنا ماقرره أحد المراسلين الأجانب فى هذا الصدد : « لقد حضرت عشرات المعارك ، ولم أر فى أى منها جنوداً يتحلى مسلكهم بروح النظام والانضباط مثلما رأيت بين الجنود المصريين شرق القناة . . » .

وهكذا نجد أنفسنا ونحن أمام بعض النتائج المبكرة لهذه الحرب ، نؤكد أننا قد أنهينا ذلك الاعتقاد القائل بأن المحارب المصرى يعانى من فجوة حضارية . ونؤكد أن المحارب المصرى قد عبر مسافة التخلف بين معطيات التقدم العلمى والتكنولوجى ، وبين القدرة على استيعاب أبعاد هذا التقدم ، والتكيف معها سلوكياً واجتماعيا . ونؤكد أخيراً أن المعركة كانت حقل تجارب أثبت فيه المواطن المصرى ، أنه اذا وضع فى الإطار العلمى التنظيمى السليم فإنه يمكنه أن يتخطى ما يسمى بالفجوة الحضارية .

قضية الإدارة :

إن الإدارة هي أعظم أسلحة مصر المستقبل فى تحقيق جزير الرخاء والسلام . ومع ذلك — للأسف — نجد الإدارة أعظم تحديات مصر المعاصرة ، ومن أثلها تفهما .

فحينما يتحدث الناس عن عالم متقدم وعالم متخلف ، ينسبون ذلك بالدرجة الأولى إلى العوامل والاعتبارات الاقتصادية . وكأن الإدارة فى فكر هؤلاء الناس عنصر جانبي .

إن الإدارة فى تقديرنا ليست نتاجا للتنمية الاجتماعية والاقتصادية ، ولكنها محدثة هذه التنمية . وليس فى ظننا أن هناك دولا يمكن أن توصف بأنها متقدمة أو متخلفة اقتصاديا ، بقدر ما هناك دول متقدمة أو متخلفة إداريا . وذلك أن سر التنمية لا يكمن أساسا فى توفر الثروات ، بقدر ما يكمن فى كيفية استخدام القوى البشرية واستغلال هذه الثروات أفضل استغلال ممكن . وكثير من الدول تعرف بالتحديد ما تريده ، ولكنها فى أشد الحاجة إلى أن تعرف الأسلوب الأمثل لتحقيق ما تريده . . وهذا قضية إدارية .

والمقاتل المصرى الذى حارب فغير وجه التاريخ فى ١٩٧٣ ، هو نفسه المصرى الأصيل الذى لم يمنح فرصة الحرب سنة ١٩٦٧ . والفضل الأول هنا — فى تقديرنا — يرجع إلى القيادة والإدارة والتنظيم . وإهمال هذه القوى الخارقة فى الماضى لم يكن معناه إبقاء الواقع حراً منفلتا على ما هو عليه فحسب ، وإنما كان يعنى ببساطة السماح لقوة ما غير العقل أن تشكل الواقع وتقرر مصائر الامور . وهذه القوة قد تكون ثقة مفرطة وعمياء بالنفس ، أو تكون نزعة للسيطرة ، أو تكون جهلا ، أو قصوراً ذاتيا ، أو أى شىء آخر غير العقل . ومهما كان الأمر فإنه إذا لم يكن العقل هو الذى يحكم الإنسان ، فإن الإنسان لا يستطيع أن يعمل بكل إمكاناته الكامنة .

ومن المؤكد أن الله عادل ، وأنه يوزع القدرات العقلية على العالم ، ولكنه يتوقع منا أن نفعل أشياء قادرة وبناءة بهذة الهبة التي لا تقدر بثمن. والقيادة والإدارة تختص بشكل هذا ، وأداتها هى القدرة الإنسانية ، وغايتها الأساسية هى أحداث التغيير ، إنها المدخل الذى يمر منه التغيير الاجتماعى والسياسى والاقتصادى والتكنولوجى ، بل والتغيير بمختلف صوره وأبعاده .

إن النصر الذى حققناه فى المعركة العسكرية لم يكن بسبب معجزة . والنصر الذى علينا أن نحققه فى معركة التنميه والبناء والتعمير لن يكون بدوره معجزة تسعى إلينا ، إنما علينا نحن أن نسعى إليه ، بالتفكير والتخطيط والتنفيذ والتقييم ، وتحقيق أكبر عائد ممكن من الإمكانات المتاحة .

وعلينا أن نقدم على معركتنا الحضارية ، وأن ننجح فيها ، رغم أمرين :

الأمر الأول : هو المشاكل الاقتصادية والمادية التى تفرض نفسها خلال الحرب وما بعد الحرب ، والتى تستلزم تعديل هيكل الإنتاج والتوزيع والتبادل والتنظيم . أى الاتجاه نحو ما يعرف باسم اقتصاد الحرب ، أو اقتصاد ما بعد الحرب .

الأمر الثانى : هو أن علينا أن نقدم على البناء والتعمير وتحقيق الدولة المصرية واقتحام ساحة المعركة الحضارية بتخطيط وجسارة ، من غير أن نرفع أنظارنا لحظة عن الساحة العسكرية ومتطلباتها وأبعادها وتوقعاتها . .

والصيغة التى من خلالها يمكننا أن نواجه هذين الأمرين ليست جديدة علينا ، إنما هى موجودة ومتاحة وسبق أن طبقناها وهى – فى تقديرنا – بالضبط ما حدث فى القوات المسلحة فأعطاها صورتها الجديدة .

أن النجاح فى أية معركة يستلزم أموراً ثلاثة :

ارادة ... وادارة ... وامكانات

وقد توفرت لقواتنا المسلحة أحيانا الإمكانات دون الإرادة والإدارة. وأحياناً أخرى توفرت لها الإمكانات والإرادة . وقد تحقق لها النصر عندما توفرت لها العناصر الثلاثة :

إرادة تسمى بها وتدفعها .

وإدارة تنظم ذلك وتقوده وتوجهه .

وإمكانات تمد السعى والتنظيم بما يلزم لتحقيق الهدف .

ونحن فى ٦ أكتوبر قد كسبنا نصف معركة البناء . فما أحدثه ٦ أكتوبر من تغيير فى الروح المعنوية وفى السلوك ، وتفجير الرغبة فى العطاء والبناء هو فى جوهره مظهر بعيد المدى لحقيقة هامة ،هى حدوث تغيير فى الإرادة ،علينا أن نبقى عليه ونزكيه مستقبلا بعد أن أصبح حقيقة وليس مجرد أمل .

ويبقى الشق الثانى، وهو استثمار هذه الإرادة فى حدود الإمكانات لتنفيذ خطة علمية وعملية تهدف إلى التغيير والتعمير ، أى تحقيق أهداف البناء فى ظروف وضعت فيها قيود على الإمكانات . والمدخل هنا هو الإدارة العلمية ، لأن الإدارة العلمية فى معناها البسيط ، هى الاستخدام الأمثل للجهود والموارد والإمكانات لتحقيق الهدف بأعلى قدر من الكفاية والسرعة والاقتصاد فى الجهد والنفقات .

* * *

إن النظرة البعيدة إلى حقائق الأمور لا تقف عند أبعادها القريبة . ذلك أن المقاتل الجديد على أرض مصر الذى عبر الفجوة الحضارية بثقة وتفوق خلال معارك الحرب ، هو العامل والصانع والفلاح والموظف والمثقف . . . وهو نفس الإنسان الذى سوف ينطلق قريبا بنفس الروح والعزم والطاقة لعبور قضية السلام ، متجها للإنشاء والتعمير والتنمية، وبناء الحضارة وتحقيق الرخاء ، بأمل ضخم فى مستقبل عظيم لمصر عظيمة .

ولا يقدر معظم الناس على تبين حقيقة هذا الذى يحدث . وينحنون باللوم على حقائق الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وربما كان لهم بعض العذر والحق.

ولكن جوهر الأمر هو أن سرعة ومعدل التغيير الذى يندفع به العالم أعلى كثيراً من قدرة وطاقة المجتمعات النامية على اللحاق به فى المدى القصير ، مما يجعل هذه المجتمعات فى كثير من الأحيان تقنع بالحديث عن مشكلاتها، وتضخمها، دون أن تجد حلولا جدية وسريعة لها .

* * *

وحتى يمكن أن نتجه فى طريق سليم نحو المستقبل ، فإن هناك اتجاهاً قوياً يجب أن نعزز إيماننا به . وهذا الاتجاه — فى رأينا — هو ضرورة النظر إلى مشكلاتنا الأولى على أنها ليست مشكلة عسكرية بحته، وإنما هى مشكلة السلام والرخاء . فهناك الكثيرون — للأسف — الذين مازالوا يميلون إلى تصور الأمن القومى على أنه حالة من الاستعداد المسلح بالدرجة الأولى ، والافتراض بأن العنصر العسكرى البحت هو الذى يخلق الأمن أساساً .

بيد أن مثل هذا التصور محدود جداً . فهناك دول على درجة كبيرة من التنمية والمصادر الطبيعية والتسليح ، ومع ذلك فهى تعيش مع بعضها فى سلام حقيقى ، بسبب الرصيد الضخم من المبادىء المتناسقة ، والمثل العليا ، والقيم الحضارية ، والتراث الإنسانى الذى تتقاسمه مع باقى الشعوب المحبة للسلام .

وبسبب أن هذه الدول قد اقتنعت بأن جوهر الأمن لا يكمن فى السلاح والعتاد الحربى أساساً ، بقدر ما يكمن فى اتجاهات السلام ، والإخاء والتنمية ، وتحقيق النهضة الشاملة ، والانفتاح على كل دول العالم المحبة للسلام .

إن القوة العسكرية أساس لكيان أى مجتمع . ولكن النهضة والرخاء الحقيقى ، والحياة الإنسانية الملائمة لحاجات البشر، ضرورة بقاء واستمرار وتقدم أى مجتمع .

ومن وجهة نظرنا ، فإننا مقتنعون تماماً بأن هذا هو الطريق الذى يجب أن تسلكه مصر، بل والعالم العربى .

إن كافة الجهود التى كرست خلال حقب من الماضى القريب لمجرد الحفاظ على أوضاع قائمة ، والسيطره على المشكلات حتى لا تتفاقم ، يجب أن تنصرف من فورها إلى البناء والتعمير والرخاء ، وتحقيق النهضة الشاملة . وإذا نجح العالم العربى فى تحقيق هذا ، فإن إسرائيل لن تصبح مشكلة فى المستقبل .

إن العامل الحاسم والأهم فى كل ما يجرى ، وما سوف يجرى ، على أرض مصر هو معدن وجوهر القيادة السياسية . وربما لا توجد قيادة أخرى فى العالم النامى تواجه الآن نوع المشكلات المتفجرة التى تواجه الرئيس السادات .

ولا نعتقد بحال أن الضمير أو التعقل يقضى بأن يعمل هذا الربان بمفرده على سفينة مصر ، يكافح الأنواء الاجتماعية الاقتصادية والسياسية التى تواجهها ، فى محاولة للوصول إلى مستوى « معقول » للمعيشة والحياة الإنسانية .

* * *

صانع القرار

عندما تولى السادات الرئاسة لم يكن له قطاع معين يسانده ويدفع به ... ولم يكن له مراكز قوة تحميه أو تفرضه ... فقد كان الجيش ما زال مهزوماً حزيناً، وكانت الحياة قد أثقلت على فئات الشعب كلها : عمالا ، وفلاحين ، ومثقفين ، رجالا ونساءً . وكان الشيوخ لا يفكرون إلا فى الماضى ، والشباب يخشون المستقبل ، وحتى الطفولة بدت وكأنها قد فقدت بسمتها السعيدة .

وساد على الصعيد العربى إحساس بأن هناك فراغاً كبيراً هائلا يزداد ضخامة مع الأيام ، وأن العالم العربى يوشك على الانهيار ، وأن الواقع العربى تعوزه القيادة .

وبدأ الناس فى خوفهم وسخطهم يحامون بالماضى ،خوفا مما قد يجىء ، أو خوفاً مما قد لايجىء ، وجلسوا يجترون هذا الماضى بذكرياته بعد أن افتقدوه ، وطاب لهم يسبغوا عليه مزيدا من الخيال والمبالغة ، ثم جلسوا يندبون ضياعه .

وخلال تلك الحقبة المظلمة أصبح العربى المهزوم أضحوكة يتندر بها الغرب ، وأصبحت تهديداته مثاراً لاطمئنان العدو ، ورسخ اعتقاد بأن العرب أقوياء ولكن فى مخيلتهم فقط ، وفى قدرتهم على مباريات كلامية أساسها الهجاء ونتيجتها ازدياد الفرقة .

وكاد كل هذا أن يصبح أمراً واقعاً ، أرض محتلة ، ومجتمع مفكك ، وعروبة متداعية ، ونفوس منهارة ، وشعوب هزمت من داخلها أقسى أنواع الهزيمه ، وعدو يتمادى فى غروره ، وفى تحديه ، ومجتمع دولى صمت آذانه وفقد اهتمامه بعالم العرب .

وبدى كتاب الشرق الأوسط وكأنه سوف يكرر صفحاته رتيبة مملة قاتمة ، لا تبعث على الرجاء ، وثقيلة خلو من الأمل .

ومرت على الكتاب أحيانا أنواء تقلب صفحاته بسرعة متتابعة كقلب الذى يلهث ولكنه لا يتحرك من مكانه ... واعتلته أحيانا موجات من الهواء الساخن الثقيل تشل أطرافه فتغرقه فى سبات مهين .

* * *

إلى أن كانت نسمة هادئه طيبة ... كانت نسمة من الحرية هبت على وادى النيل ... وإذا بهذه النسمة تخط نغماً جديداً ... ولونا جديداً ... وترسم مجتمعاً جديداً ... وإذ بالتاريخ يكتب ليقول :

« وظهر فى مصر واحد من أبنائها ... ومن أبناء ريفها الطيب ... نبع من أرضها الخالدة ، وآمن بها ، ووثق فى أبنائها ، وأحس بما تهمس به الأرض لأنه لم ينفصل عنها ، فاستمع إليها ....وفهمها ... واستجاب لمطلبها ، بعد أن كاد الكل أن يستكين .... ولكن الأرض كانت تقول ... لا لا ... وتصر عليها.

وفهم ابن الأرض الطيبة لغتها ، وأحس بما كانت تئن به : إن وقع أقدام أعدائها لم يكن يؤلمها بقدر ما كانت تدميها خطى أبنائها أنفسهم وقد تثاقلت ، ونفوسهم وقد هوت ، وكادت الأرض ألا تتعرف على أبنائها .. لقد مر عليها المستعمرون والغزاة واحد تلو الآخر ، ولكنهم لم يهزموها أبداً . واستوعبتهم قبل أن يستعبدوها . ولكن فى هذه المرة لم يكن العدو دخيلا وافدا ، كانت الهزيمة تأتى من الداخل ، من نفوس أبنائها الذين تحبهم ، فكيف تطمن الأرض العدو وهو قابع فى قلوبهم ... ومتمكن من عقولهم ... كيف تجهز عليه وهو كامن داخل من تحب ؟؟ .. .. وكان عليه أن يخرج .

وهمست الأرض واستنجدت ، وفهم ابن الأرض الطيبة همسها ، واحس

بأنينها ، واستجاب لندائها . وهمس بدوره فوجد من يفهمه ، ونادى فاستجاب لندائه كل من أحس بآلام مصر .

وإذا بالأرض ... والسماء ... والأبناء .... كلهم يتعانقون معاً فى صيحة واحدة ... « الله أكبر » .

وإذا بالعدو يخرج من الأرض ... وإذا بالهزيمة تفر من النفوس وإذا ، بالقلوب تمتلىء إيمانا ... بالله ، وبالوطن ، وبالنفس، وبالخلود.

لقد تعلمنا من بين ما تعلمنا أن نستمع إلى ما تقوله الأرض الطيبة وهى اليوم تقـــول :

إن علينا أن نحذر غرور النصر ،

إن علينا أن نتحاشى عبادة الفرد ،

إن علينا أن نستوعب أبعاد العصر ،

ولـكن علينا دائما أن نستمع للأرض الطيبة ، إنها وحدها تحمل قصة الخلود .

* * *

وعادت الثقة بأثر رجعى :

عندما انتصر المقاتل المصرى فى ساحة القتال ، استعاد المجتمع المصرى ثقته فى قيادته ... بأثر رجعى . وبدأ كل مصرى يرجع بذاكرته للوراء ويعاود ما قاله أنور السادات وما فعله . بدأ يرى كل ذلك بفـكر جديد ويفهمه ويثق به .

وتبينت الحقيقة ... أن الفجوة بين ما يقال وما يـكون ، كانت فى نفوسنا ، نابعة من خبراتنا السابقة ، أكثر مما كانت صفة فى قيادتنا .

وتأكد الناس أن السادات عندما كان يتكلم، كان فى نفس الوقت يخطط . وعندما كان يشارك الشعب فيما يحدث ، كان فعلا يصارحهم بالحقائق . ولكنها كانت فجوة التصديق ... كيف نحارب وقد تخلى عنا الصديق ، وفقدنا الثقة فى قدراتنا ؟ وكم تكلم السادات عن القوة العربية الذاتية ، عن الإمكانات العربية ؟ وكم تكلم عن البترول العربى .ولكن المجتمع بما كان قد أصابه من جمود فكرى بدى وكأنه يستمع إلى قصة من كتاب أو أمل فى خيال .

واستمر الربان يقود سفينته وسط الأنواء ، والبحارة يائسون ، والركاب يلهون . وفى ظهر يوم مشرق ارتطمت السفينة بأرض الحقيقة . وهب الكل ليرى شمساً جديدة تشرق على الأرض ، تضيء المستقبل ، وتغمر بنورها صاحب القرار، وبدأ الناس يتذكرون ويتذاكرون . وشعروا بالذنب ، وشعروا بالفخر ، وشعروا بالعرفان . وتفاعلت مشاعرهم جميعاً فى حب جارف فياض ، وأصبح السادات فى كل منزل ... بطل ، وأب ، وأخ ، ورجل . . . .

وأصبح السادات فى كل قلب ...

وتذكر الناس كيف أعاد للقانون سيادته ، وللقضاء هيبته ، وللعلم كرامته ، وللدين مكانته . . . وأحاطوه بالثقة التى هو أهل لها ، وبالحب الذى هو جدير به.

وتحول الحب إعجاباً ، والإعجاب مديحاً ، والمديح إطناباً ، والإطناب تمجيداً .

وخرجت الصحافة العالمية والعربية تنادى به رئيساً وقائداً وزعيماً ، تمدح وتصفق . . . شعراً ونثراً ... كتابة ورسماً .

وكان يستحق كل هذا . ولكنه بما لديه من خبرة ، وبما له من آمال لمصر ولشعب مصر احس بالخطر . فكما احس السادات بالخطر عندما تحكمت فجوة التصديق ، احس به عندما تفاقمت حالة التمجيد . وكما حذر من الظاهرة الأولى ، حذر من الثانية .

إن أنور السادات لم يرث مكانته ولا شعبيته ، إنما هو كسبها .. كسبها مثلما كسب الحرب ... بالعرق والجهد والعمل والألم . وهو لم يستند فى كسبها على شخصية أسطورية أو قيادة كاريزماتية ، إنما على حقائق وأوضاع ملموسة . وهو لم يصل إليها بالخطب الرنانة أو بالوعود البراقة ، إنما حصل

عليها خطوة خطوة بإنجازات ملموسة، رفعت بالتدريج روح مصر، وشعب مصر ، فارتفع هو معها وبها .

إن أنور السادات لم يرفعه شعبه ، ولا رفع هو شعبه ، إنما هو ارتفع مع شعبه . لقد أثبت فعلا أن الفرد بالأمة ، وليست الأمة بالفرد .

لقد وجد السادات نفسه رئيساً ، ثم أصبح قائداً ، وهو لا يسعى لأن يكون زعيما ...

فالزعامة بما لها من تأثير سحرى ، تغرى الشعب على أن يتكل عليها ويتواكل . وهو بالضبط مالا يريده السادات من شعب مصر . ان ما يريده السادات أصعب من ذلك وأكثر عبئا . . . انه يريد المشاركة . وهو يعلم تماما ان المشاركة لاتقوم مع فجوة التصديق ، وانها ايضا لاتقوم مع هالة التمجيد . ففى الحالة الأولى تكون السلبية . وفى الثانية يكون التواكل . وكلاهما ضار ويعوق تقدم المجتمع .

من هنا كان إيمانه وعمله لإقامة دولة المؤسسات وسيادة القانون والحريات .

لقد آمن السادات تماماً أن حكم الجماعة للفرد استعباد ، وأن حكم الفرد للجماعة استبداد ، أما حكم الجماعة بالجماعة ففيه تضامن وتعاون وضمانات واستقرار . والمعيار فى كل ذلك هو المشاركة. المشاركة ٠٠ التى هى أساس حياة القرية . من هنا كان ندؤاه إلى العودة للقيم الأصيلة ٠ وهو نداء تجلى واضحاً فى برنامج العمل الوطنى، وفى تصوره لمجتمع المستقبل وللقرية المصرية ، وللأسس التى يقوم عليها هذا المستقبل .



ويمتد بصر الرئيس السادات عبر نافذة استراحة الهرم ·· وهناك فى مقابل النافذة تماماً شهود ثلاثة ··شوامخ فى روعة وصمت·· امتداداً للتاريخ والحضارة عبر حقب متراكمة من الماضى العريق ·· شهود تمثل عظمة مصر وتراثها فى كبرياء ومجد .

وكأن الزائر يقرأ أفكار الرئيس وهو يرقب الأهرامات الثلاثة . وكأنه يسمعه يفكر تفكيراً مسموعاً، قائلا : « نحمد الله أننا لم نخرب هذا التاريخ ، ولم نحترمه ولم نفرط فيه ·· وإذا كانت هناك هفوات قد بدرت منا فى الماضى ، فقد وفقنا الله إلى التصحيح، إن الأهرامات تشهد علينا، وتسجل فى سجلات الخلود، وتقيمنا من حيث لا ندرى » .

لقد كان الرئيس خلال الفترة التى سبقت الحرب ، يقول لكل من يعملون معه عن قرب من قيادات مصر ·· « لا يمكن أن نترك العار لأمتنا وأبنائنا أيا كان الثمن ·· وإذا قدر لنا أن نموت ، فلنمت ونحن وقوف كما يموت الرجال ، وكما يموت الأشراف . وهذا أهون كثيراً على المرء ، وأكثر إنصافا لأنفسنا وتاريخنا وأصالتنا ، من أن نستمر فى موت بطيء على هذا الوضع الذى يريده لنا العدو ، والذى لا يشرف أحداً » .

وكانت الرؤى والتصور والإلهام·· إنها رد الفعل السليم فى مواقف الحياة والموت دون أن نستطيع ردها إلى عامل أو سبب واحد محدد . إنها أعظم سمات القيادة .

وسئل السادات ·· كيف ترون سيادتكم مصر فى القرن الواحد والعشرين ومرة ثانية ينظر إلى الأهرامات : الشاهد الذى سيبقى إلى ما شاء الله ·· ويجيب :

« إننى أتصور مصر جزيرة للرخاء والسلام ، الرخاء القائم على العمل ، والسلام القائم على العدل ..

« أرى مصر وقد عوضت مافاتها ، واتجهت إلى مستقبلها من غير أن تنسى ماضيها . أرى مجتمعا قد استوعب العصر بكل أبعاده ، وبكل إمكاناته ، دون أن يفقد الصلة بالأرض والأصل والأصالة والتراث . مجتمعا يستغل السلم من أجل الرخاء ، يأخذ منه ما يحقق أهدافه ، وينبذ ما يحطمها .. نسخر التقنية لأهدافنا الإنسانية ، بدون أن تستعبد التقنية إنسانيتنا » .

« أرى مجتمعاً تسيد على الآلة واستخدمها من غير أن يصبح هو آلة . مجتمعا يختار من مظاهر التقدم ما ينفعه وما يمكن أن يفيده .. ويضفى عليه طابعه ولمساته التى تتفق مع قيمه وقدراته وإمكاناته » .

« أرى مجتمعا يستخدم الكومبيوتر ، ولكنه يستمتع بجمال الطبيعة فى نفس الوقت ، ولا يفقد صلته الروحية والحسية بكل ما حوله .. يسعد بقراءة كتاب ، ويطرب لبيت عذب من الشعر . يستوعب أساليب العصر فى فلاحه أرضه واستثمارها ، من غير أن تبعده هذه عن صلته بالأرض الطيبة الخالدة » .

« أرى مجتمعا يكون فيه التقدم وسيلة لرؤية الله فى كل ما خلق وأبدع ، وليس للبعد عنه .. » .

« أرى مجتمعا يعيش العصر بأبعاده كلها .. ويضيف إليها حصيلة سبعة آلاف عام » .

* * *

إن الأهداف الاقتصادية القريبة والبعيدة التى يسعى الرئيس السادات ، ومعه قيادات مصر ،إلى تحقيقها عن طريق التنمية والتعمير والانفتاح الاقتصادى تمثل جانبا هاماً من أهداف مصر المستقبل .

ومع ذلك ، فإن قيادة مصر تؤمن بأن الجانب الإقتصادى ليس سوى دعامة

واحدة من دعامات النهضة الشاملة . ولذلك فهى تضع دائماً فى مقدمة اهتماماتها جانب التعمير النفسى والمعنوى ، والبناء الخلقى ، والانفتاح العقلى والفكرى للانسان المصرى ، فى ظل الحضارة والقيم والتراث .

وهى مهتمه أيضاً كل الإهتمام فى هذه المرحلة بقضية الإدارة ، من أجل كسب معارك السلم ، التى هى أشق وأعقد من معارك الحرب ، بسبب تجدد اناقها وتعدد جبهاتها ، وترامى أبعادها عاماً بعد عام

* * *

ويقول الرئيس السادات: (١)

ومازالت أمامنا أخطر المعارك كلها . معركة المستقبل . معركة البناء والتقدم لقد بدأنا بحرب أكتوبر مرحلة جديدة فى حياة هذا الشعب العريق ، يمكن تلخيص مهامها على النحو التالى :

١ — التنمية الاقتصادية بمعدلات تفوق ما حققنا حتى الآن .

٢ — الاعداد لمصر عام ٢٠٠٠ حتى نوفر أسباب استمرار التقدم للأجيال المقبلة .

٣ — الانفتاح الاقتصادى فى الداخل والخارج الذى يوفر كل الضمانات للأموال التى تستثمر فى التنمية .

٤ — التخطيط الشامل والفعال الذى يكفل بالعلم تحقيق الأهداف العظيمة للمجتمع .

٥ — دعم القطاع العام وترشيده وانطلاقه تمكينا له من قيادة التنمية .

٦ — التنمية الاجتماعية وبناء الإنسان .

٧ — دخول عصر العلم والتكنولوجيا .

٨ — التقدم الحضارى القائم على العلم والايمان .

٩ — المجتمع المفتوح الذى ينعم برياح الحرية .

١٠ — المجتمع الآمن الذى يطمئن فيه المواطن على يومه وغده .

---

(١) الرئيس محمد أنور السادات : ورقة أكتوبر ، أبريل ١٩٧٤ .

إن هذه الورقة التي هي بمثابة « العقد الإجتماعي » في صورته الجديدة ، تسودها نظرة مستقبلية هي ما يجب أن يكون عليه تفكرنا في هذه المرحلة . أننا وقد تخلصنا من نفسية الهزيمة التي ملأت نفوسنا وأثقلت خطانا ، علينا أن ننطلق كي نعبر الهوة بين العصر الذي نعيش فيه والأسلوب الذي نعيش به هذا العصر . ومن سمات العصر تلك النظرة المستقبلية التي تقوم على التنبوء العلمي والتخطيط المتكامل .أننا على أعتاب القرن ٢١ ،وصورة مصر المستقبل ، مصر سنة ٢٠٠٠ لن تتحدد بما سيحدث حينئذ من أحداث ، ولكنها تتحدد بما يتخذ اليوم من قرارات .

وأدركت الورقة أن التخطيط للمستقبل لا يجوز أن يكون على حساب المشاكل اليومية الملحة فوزعت الإختصاص بين الحكومة المركزية ، لتقوم برسم المستقبل بالتخطيط والمتابعة والتقييم ، ودفعت للأجهزة المحلية بالأمور المعاصرة الملحة ، التي هي أقدر على تفهمها وعلى مواجهتها .

وأدركت الورقة أن التنمية لا تحقق نفسها بنفسها ، إنما يحققها جهاز إداري ضخم ، تتزايد مسئولياته ويتزايد حجمه فأكد حتمية الثورة الإدارية .

وهي ثورة لم يعد يجدي فيها الاصلاح والترميم ، ولا المسكنات ولاالتحليل ، إنما أصبح لزاما أن تقوم على إعادة البناء ، على العلاج « بالصدمة » وبالشحنات الكهربائية المتكررة ، على فلسفة تجد لنفسها مساراً وسطاً بين التدليل والإذلال، وتوفر مناخاً من التوتر الصحي الذي يدفع للعمل ، لا يتزايد فيه التوتر حتى يبلغ حد القلق الذي يستنفذ الطاقة ، ولا يتضاءل حتى يصل إلى مرتبة السبات .

وأدركت الورقة ،من بين ما أدركت ، إن أغلى وأعز عنصر في كل مقومات التنمية هو الإنسان . . هو الإنسان المصري ، الكفء ، القادر ، الحر ، الآمن . فأرادت أن تخطط لمستقبله على أساس سليم يبدأ من معرفة « أين نحن »

إيماناً بأن تحديد خط البداية هو أول ضرورة للوصول إلى نقطة الهدف . .
تخطيط يبدأ بمعرفة « أين نحن » من غير أن يتناسى « من نحن » .

ومن كل هـذا نعلم إلى أين نسير . .

بل نحـدد إلى أين نسير . .

* * *



بذلك ننهى هذه الصفحات لأحداث ونتائج الحرب الرابعة بين العرب وإسرائيل . ولا نعتقد أن الأمور قد استقرت ، لأن نوايا إسرائيل مازالت مجهولة وغير مستقرة . إن أفكار إسرائيل غير مستقرة بصدد حجمها ، وبصدد أمنها ، وشعبها قلق ، لا يهدأ ولا يقنع . . . وهذا جانب حضارى فيه .

وحتى لو نجحت الجهود التى تبذل حالياً لصنع السلام على الأرض المضطربة ، فإنها فى النهاية سوف تضع إسرائيل داخل إطار ، وبذلك سوف تصبح الدولة الوحيدة فى العالم ، التى يتحدد كيانها على خريطته فى هذ الوضع الفريد .

إن الإطار الدولى ، أو المنطقة المنزوعة السلاح ، حول إسرائيل هو تحديد أكثر وضوحاً لمشكلة ، وليس حلا لها . هل يمكن أن تبقى إسرائيل داخل دائرة ؟ وخارج هذه الدائرة عالم بعيد أو مبتعد يحاصرها ؟ إن إسرائيل إذا استمرت على هذا الوضع ، وبنفس العقيدة والأسلوب فلن تعيش حيث هى إلا عليلة ممقوتة .

إن لدى إسرائيل أفكاراً هدامة — من وجهة نظر العرب — بصدد نظرية أمنها . نقول أفكاراً ولا نقول إنها قد توصلت إلى النظرية بعد . إن الأمن لا يفرض ، ولكنه يتولد فى ظــل مناخ موائم لاستمراره واستتبابه . إن الأمن إحساس قبل أن يكون بنوداً فى اتفاقية .

فإذا كان هذا الإحساس لا يتوفر لدى إسرائيل لأنها قلقة على التوسع ، ولا تحترم قرارات الأمم المتحدة ، وتقف بمفردها لتتحدى العالم بكل بلاده وقاراته . . . فلا بد أن خطأ ما يكمن فيها ، وليس فى العالم أجمع .

* * *

ولقد خرجت إسرائيل من حربها الرابعة على مدى ربع قرن وهى تلعق جراحها ، وآثام الحرب التى دعت إليها بعنادها وصلفها تظلل كل أسرة فيها ، وتحطم وحدتها . حقيقة أن العرب أيضاً قد قدموا التضحيات ، ولكنهم بها عززوا مجدهم وبعثوا حضارتهم . ولكن ماذا كسبت إسرائيل . . ؟

إنها الآن ترغم على تنفيذ قرار مجلس الأمن ، الذى كان يمكن أن تنفذه وهى فى قمة انتصارها ، منتزعة إعجاب العالم ، محتفظة بقواها السياسية والاقتصادية والعسكرية . وهى تنفذه الآن تحت وطأة مأساة بعيدة المدى فى الجيش والسياسة والاقتصاد والمجتمع .

إن إسرائيل تنفذ قرار مجلس الأمن لأول مرة ، وقد تضاءل إحساسها بالأمن . بل إن جوهر هذا الأمن فى عقيدتها — وهو القوة العسكرية الرادعة — قد تزعزع .

* * *

لقد أصبح من واجب إسرائيل ، بل من مهمتها بالضرورة وبالمنطق أن تبحث لنفسها عن فلسفة جديدة للوجود والحياة والبقاء . . . وعن ركائز انسانية غير عنصرية لقيامها ، عن جوهر جديد للأمن ، أكثر ملاءمة لمقتضيات العصر والبشرية ، ولأمن العرب أيضاً .

وإذا ما صدقت نوايا إسرائيل وكبحت جماح أطماعها ، وإذا ماصدقت جهود الولايات المتحدة والمجتمع الدولى فى تحقيق سلام عادل ودائم . . فإن فرص توفر هذا السلام تصبح عند أطراف أنامل البشر .

* * *